دير السيدة العذراء برموس

الأعمال الكاملة للمؤرخ

يوسف حبيب



المجلد الأول

آبائيات ١

سيرة ومقالات

القديس ساويرس الأنطاكي

الأعمال الكاملة للمؤرخ

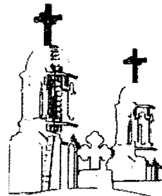
يوسف حبيب

المجلد الأول

آبائيات (١)

سيرة ومقالات

القديس ساويرس الأنطاكي





دير السيدة العذراء برموس

برية شيهيت

كتاب: **سيرة ومقالات القديس ساويرس الأنطاكي.**

إعداد: **المتنيح يوسف حبيب.**

الناشر: **دير السيدة العذراء برموس.**

الطبعة: **الثانية فبراير ٢٠١٧م.**

الأولى في عدة سنوات متفرقة بمعرفة مؤلفها.

المطبعة: دار الراعي الصالح للطباعة والتوريدات

٠١٢٢ – ٣٦٤٨١٠٧

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: 2017/8206

رقم الإيداع الدولي: 0 - 76 - 6408 - 977 - 978



قداسة البابا المعظم الأنبا تواضروس الثاني

بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية



نيافة الحبر الجليل الأنبا إيسيذورس

أسقف ورئيس دير السيدة العذراء برموس

مختصر حياة الشماس يوسف حبيب



❖ وُلد بالقاهرة عام ١٩٠٩م، وتتلمذ في مدرسة الأقباط الكبرى على الاستاذ يسّى عبد المسيح مدرس اللغة القبطية والمعلم ميخائيل الكبير مدرس الألحان، وكان تعلقه كبير بهاتَيْن المادتَيْن.

❖ رُسم شماسًا عام ١٩٢٣م على كنيسة العذراء بحارة الروم بالقاهرة، بيد المتنيح الأنبا صرابامون مطران الخرطوم الأسبق.

❖ عرفته الإسكندرية في بداية شبابه خادمًا وشماسًا في كنيسة العذراء بمحرم بك في الخمسينات والستينات، وكان يكبر في السن جميع الخدام وأمين خدمتهم أ/ سامي كامل (المتنيح أبونا بيشوي كامل)، ولكن روحه الشابه كانت قريبة منهم. كان يُكلِّمهم ويُعلِّمهم ويُصلي معهم، وكان يدعوهم إلى الحضور إلى بيته لتناول الأغابي، فكان لهم بمثابة الأب والمُعلِّم.

❖ حصل على شهادة البكالوريا أدبي عام ١٩٢٦م، ودخل المعلمين العليا سنة واحدة ثم تركها لظروف خاصة، ولكنه أتم دراسات تكميلية ليعمل مدرسًا، غير أن أب اعترافه رفض ذلك. فقام بعمل دراسات في

المحاكم المختلطة لمدة سنتين ونجح واشتغل في المحاكم المختلطة والنيابات، وتدرَّج في الوظائف إلى أن رُقي رئيسًا لقلم الجنائي بالنيابات، وكانت أخر وظيفة له هي رئيس قلم الجنايات بمحافظة الإسكندرية حين استقال وهو لم يتجاوز الخمسين عامًا وذلك ليتفرغ للاطّلاع والخدمة.

- تتلمذ على يد المعلم حبيب بكنيسة العذراء بمحرم بك لمدة ٣٠ سنة، وكان يقوم بتدريس الألحان واللغة القبطية لأبناء الكنيسة.
- أثناء رسامة أبونا بيشوي كامل كاهنًا، كان الشماس يوسف حبيب حاضرًا، وكان منظر رسامة أبونا بيشوي كامل نقطة تحوُّل كبيرة في حياته، وقال في نفسه: *"الشبان الصغار يقبلون على التكريس محبة في المسيح ... وأنت متكاسل ومتهاون إلى هذا الحد"* وبعد صلاة القداس ذهب الشماس يوسف إلى عمله وفي نفس اليوم قدَّم إِستقالته وكرَّس ذاته ووقته للخدمة. وما أن عاد أبونا بيشوي مِنْ فترة الأربعين يوم التي قضاها في الدير، حتى وجد أن الشماس يوسف حبيب قد جنَّد نفسه للخدمة مع أبونا إذ لم يكن للكنيسة الجديدة (مار جرجس سبورتنج) شمامسة ولا مرتل ولا خدام ولا حتى مبنى، وبدأ يُعِد للرب الغروس الجدد مِنَ الشمامسة والأطفال، حتى أصبح للكنيسة خورس ومرتل واستقرت أمورها، فتوارى في إتضاع واتجه بكيانه إلى مجال جديد لإحياء التراث.

- هو الذي قام بتسليم مجمع القديسين لأبينا بيشوي كامل ليلة رسامته، واستمر دائم اللقاء به والخدمة معه، حتى أن أبونا بيشوي بنى له غرفتين للإقامة بهما في نفس بيت سكنه.
- مع بداية الخدمة في كنيسة القديس تكلاهيمانوت الجديدة، شعر الشماس يوسف بالمسؤولية مرة أخرى، فسلّم نفسه للخدمة يحضر كل القداسات والعشيات ويقوم مقام المرتل. وحدث مرة أثناء الصلاة والكنيسة لم تكن بها جميع كتب القراءة الطقسية، وعندما حل وقت قراءة إنجيل باكر لم يعثر حتى على الكتاب المقدس عربي، ففي بساطة شديدة أمسك الشماس يوسف القطمارس القبطي وأخرج فصل اليوم، ووقف يقرأ الإنجيل على الشعب وهو يترجم ترجمة فورية مِنَ القبطية إلى العربية.
- في تكريسه كان الشماس يوسف حبيب إنجيليًا كاملاً، وعينة نادرة للتكريس في نيّة خالصة إبتغاء مرضاة الله وحده، بلا أي هدف أرضي أو إنتظارًا لأجرة أو مديح أو مركز أو اسمًا. كان في تكريسه مثمرًا، وكان رجلاً كنسيًا مِنْ طراز نادر، يحفظ الألحان بإتقان ويرددها بروح الصلاة. وكان مُبكرًا في حضوره للكنيسة، يدخل بكل خضوع ويسجد خاشعًا، يُسبِّح بذهن وبتدقيق مِنْ غير شرود. ومدقِّقًا لا يستهين بالأمور الصغيرة.

❖ كان دائم القول أن "السيد حاضر" تعبيرًا عن شعوره بالحضـرة الإلهية، وكان لا يتحدث قط في الكنيسة ولا يتحرَّك، حتى أن بعض الشمامسة مِنَ الأولاد الصغار أسموه (أبي الهول).

❖ كان الشماس يوسف حبيب شغوفًا بسير القديسين وبالأكثر الذين لـم تُنشَر سيرهم بعد، فابتدأ يُسافِر إلى الأديرة يبحث في كنوزها وأخـرج للنور عشرات السير والقصص النادرة التي شجَّعت، أجيالاً كثيرة على التوبة والحياة مع الله. وعمل لنفسه اشتراكًا شهريًا في القطار، يـذهب إلى القاهرة مرتَيْن في الأسبوع يُفتِّش في المكتبات وبالأخص المتحف القبطي ومكتبة البطريركية، يُترِّجم ويُحقِّق سير وأقوال للآباء القديسين ثم يعود ليضعها في كتيبات صغيرة نافعة للخدمة ولبنيان النفوس. وكان يصرف كل معاشه في هذه الأمور بفرح. وصارت له الريادة في الكنيسة المُعاصرة في مجال التأليف والنشر والترجمة.

❖ شاركه أخوه مليكه حبيب في الكتابة والترجمة والتأليف، كما اشترك معه الأستاذ مريد (المتنيح القمص بيشوي عبد المسيح وكيل مطرانية دمياط) في تأليف بعض الكتب.

❖ كان مِنْ أول مَنْ أطلقوا الشرارة الأولى في الدراسات الآبائية لهذا الجيل. ويرجع إليه الفضل في تشجيع عناية الدراسة والبحث والترجمة وتحقيق المخطوطات. وكان يرى أن المكتبة هي أثمن مكان بعد المذبح، لذا كان دائم إرتياد المكتبات والمكوث فيها لفترات طويلة يُنقِّب

ويبحث وينسخ ويؤلِّف. وكان حماسه عجيبًا في الدراسة، احتمل لأجله الأتعاب والتنقُّل والجهد والسفر ولم يضعف بل دأب في العمل.

- ❖ كان يسكن بمفرده، يخدم نفسه بإتضاع، وكان بسيطًا في كل شيء في مأكله وملبسه ومظهره، وكان عائشًا على الكفاف. وقد عاش بتولاً محتقرًا كل أباطيل العالم حتى جذب كثيرين مِنْ جيله إلى حياة التقوى. وكان يرتدي چاكيت أقرب منه إلى بالطو، يضع نسخًا مِنْ كتبه في جيوبه ليقوم بتوزيعها. لم يفكر في لبس ولا في أكل، بل كانت أمواله كلها لربنا ولمدارس الأحد.
- ❖ كان شعار الشماس يوسف حبيب العملي "تحت الطلب" جاهزًا للخدمة في أي وقت وفي كل مكان. لذا قام بتدريس المنهج المدرسي للدين المسيحي بالمدارس المرقسية بالإسكندرية (مرحلتي إعدادي وثانوي). وله العديد من المقالات المنشورة في مجلة الكرازة بالإضافة لعشرات الكتب التي نشرها، وأبحاث عن أقدس الآثار المسيحية. وتضمَّنت كتاباته اهتمامات متنوعة مِنَ التفاسير والسير والتاريخ والترجمات ونصوص المخطوطات. وكذلك وضع الكثير مِنَ الذكصولوجيات والمدائح (قبطي – عربي)
- ❖ تعمَّق في دراسته للغة القبطية حتى صار مِنَ القليلين المتحدثين بها في طلاقة، ووضع كتبًا في هذه اللغة وكتب أشعار كثيرة بها.

❖ طلبه البابا كيرلس السادس لرسامته كاهنًا بتولاً، فسافر مِنَ الإسكندرية إلى القاهرة لمقابلة قداسة البابا، ولكنه كان مشغول الفكر وعندما وصل إلى الكاتدرائية المرقسية بكلوت بك دار حولها وهو يقول في نفسه "*يا واد أنت مالك ومال الحكاية دي ... أنت عربيتك على قدك بالكاد تمشي على الأسفلت ... ليه تروح بيها في الطرق الوعرة*" وكان يقصد أنه لا يستطيع تحمُّل هذه المسؤولية الخطيرة، وعاد ثانية إلى الإسكندرية بدون مقابلة البابا.

❖ أحب المقدس حبيب بالأكثر برية شيهيت، وأعطاها كرامة وتقدير كأورشليم المقدسة تمامًا، وكان دائم الزياره لها والتبرك مِن أديرتها، وتربطه علاقة وثيقة بقديسيها وبتاريخها.

❖ أسند إليه قداسة البابا شنوده الثالث تدريس مادة تاريخ الكنيسة بالكلية الإكليريكية بالإسكندرية مدة ٣ سنوات حتى تركها لظروفه الصحية.

❖ تنيح في ٢ توت – ١٢ سبتمبر سنة ١٩٨١م عن عمر ٧٢ عامًا، في عيد شهادة القديس يوحنا المعمدان. بركة صلاته تسند ضعفنا آمين.



مقدمة الناشر



أثرت كتابات الآباء الأولين الكنيسة كلها بالعديد مِنَ التفاسير والرسائل والمقالات والكتابات الدفاعية والروحية وغيرها في مجالات عديدة، واهتمت الكنيسة بدورها بهذه الكتابات بطريقة خاصة إذ رأت في كاتبيها استمرارًا وامتدادًا لتعاليم الآباء الرسل، حيث أسهمت - ومازالت - في صياغة الفكر اللاهوتي والمسيحي منذ القرن الأول وحتى الآن.

ولمَّا كانت هذه الكتابات قد كُتبت في الأصل بلغات عديدة، لا يجيدها كثير من المتحدثون بالعربية، فقد اتجه البعض إلى ترجمة هذه الكتابات إلى اللغة العربية لإتاحة الفرصة لهم.

وإن كان الكثيرين قد اتجهوا لترجمة كتابات الآباء، إلاَّ أنَّ الشماس يوسف حبيب يعتبر مِنَ الرواد في هذا المجال الذين أنتجوا لنا الكثير في ستينات القرن العشرين، على الرغم مِنَ الفارق الكبير بين إمكانيّات الماضي والحاضر في آليات الترجمة وإتاحة الكتب وصعوبة وغلاء الطباعة.

كذلك أنتج لنا الشماس يوسف حبيب الكثير مِنْ سيَر الآباء القديسين والشهداء غير المعروفين، حيث أخذت كتاباته الريادة في إتاحة هذه السّيَّر

باللغة العربية، بعدما ظلت حبيسة المخطوطات واللغات الأجنبية حتى عصره.

وتتنوع مؤلفاته بين مقالات ورسائل آبائية مترجمة عن النصوص الأجنبية مثل موسوعة Patrologia Orientalis، وكذلك سيَر العديد مِنْ قديسين وشهداء الكنيسة، مستعينًا فيها بالمخطوطات والترجمات المختلفة لها، وكذلك الكتابات الطقسية واللغة القبطية والروحية والتاريخية. وقد ساعده في ترجمة الكثير مِنْ هذه الكتب أخيه المتنيح الأستاذ مليكه حبيب، وكان يراجع لهما اللغة العربية أخيهما الثاني الأستاذ صموئيل حبيب.

ومِنَ اللافت للنظر أن هذه الكتابات أخذت الطابع الأكاديمي والبحثي والأمانة العلمية بذات المعايير البحثية الآن، وهو ما شجعنا على تجميع كل هذه الكتابات وضمَّها في مجلدات مُصنَّفة وتقديمها لأبناء الكنيسة، كتراث عظيم أردنا إظهاره للنور الآن بعد مُضي سنوات عديدة جعلت من كثيرين لا يعرفون عنه شيئًا، وترجمات لا يعرفها المشتغلون في ذلك الحقل.

وقد قمنا بتصنيف كتاباته كلها في مجموعات لتُنشر على النحو التالي:

١. **مجموعة الآبائيات**: وبها مجلدان:

أ- **الأول**: يشمل كل مقالات القديس ساويرس الأنطاكي (وقد استحسنا أن نضع سيرته في هذا المجلد بدلاً من مجلد سير القديسين).

ب- **الثاني**: باقي كتابات ورسائل الآباء المتنوعة.

٢. **مجموعة سير الشهداء والقديسين**. أكثر من مجلد

٣. **مجموعة الطقوس واللغة القبطية**.

٤. **مجموعة متنوعات**. بها الكتابات التاريخية والروحية والكتابات الأخرى.

وسوف نضع تعليقاتنا الخاصة في الهامش منتهية بكلمة الناشر للفصل بين الهوامش الأصلية والهوامش المضافة من قِبلنا، وإن وُجدت ضرورة لتوضيح في النص نفسه، سيكون ذلك بوضع التعليق بين [ ] .

نشكر الله كثيرًا على نعمته المعضدة لنا في إكمال هذا العمل ونشكر أبينا صاحب النيافة أنبا إيسيذورس الذي رحَّب بمبادرة تجميع هذا التراث المندثر وإظهاره للنور مرة أخرى، ونشكر أسرة المتنيح مليكه حبيب

يوسف التي سمحت لنا كتابيًا بذلك، وساعدتنا بالمعلومات والكتب ونخص بالشكر الأب الفاضل أبونا مكاري يوسف، والأخ مينا مليكه، والأخت سوسن عبد الله، كما نشكر الأستاذ أشرف مكرم على تعبه الكبير في إعداد هذه السلسلة للطباعة، ونشكر أيضًا مكتبة كنيسة مارجرجس سبورتنج. وأخيرًا نشكر كل مَنْ ساعد وشجع مِنَ الآباء والشباب. إلهنا يعوض الجميع أجرًا سماويًا، بشفاعة أمنا **العذراء مريم وقديسي دير البرموس**، وبصلوات **قداسة البابا تواضروس الثاني** وشريكه في الخدمة أبينا الأسقف **أنبا إيسيذورس**، لإلهنا كل مجد وكرامة في كنيسته إلى الأبد آمين.

١٤ أمشير ١٧٣٣ش

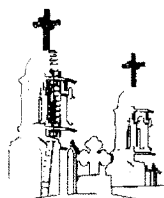
٢١ فبراير ٢٠١٧م

تذكار نياحة القديس

ساويرس بطريرك أنطاكية

دير البرموس

برية شيهيت



محتوى المجلد الأول

هذه أسماء الكتب التي يحتويها هذا المجلد وقد جمعنا فيه كل ما أصدره يوسف حبيب للبطريرك القديس ساويرس وفضّلنا أن نضع في بداية المقالات سيرة القديس بدلاً من وضعها في مجلد سيَر القديسين. وكان الشماس يوسف حبيب يصدر كتاب في سنة ويصدر بعدها بسنين نفس الكتاب – أو موجز منه – تحت اسم آخر ، وهو ما سيلاحظه القارئ من وجود أكثر من عنوان داخل ترقيم واحد. كما وضعنا سنة النشر مرفقة أحيناً برقم هو رقم الطبعة، وإن لم نستدل على سنة نشره وضعنا اسم البطريرك الموجودة صورته في الكتاب دليل صدوره في حبريته، كذلك وضعنا رقم المقال المترجم من المصدر الأجنبي.

الرقم	اسم الكتاب	ت. النشر	المقال
١	سيرة ساويرس الأنطاكي	١٩٦٩م	–
٢	- قيمة السيد المسيح وزيارات المريمات إلى القبر + ظهور السيد المسيح للمريمات	البابا شنوده	٧٧
٣	شفاء الأعرج	١٩٦٩م	٧٤
٤	الصوم	١٩٦٩م	–
٥	+والدة الإله +القديس العذراء مريم والدة الإله المتألقة بالطهارة	١٩٦٩م(١) ١٩٧٠(٢)	٦٧
٦	الشهيد برلاها	١٩٦٩م	–
٧	جرن المعمودية	١٩٦٩م	–

٨	ضريبة الدرهمين	١٩٦٩م	٨١
٩	من هو أعظم في ملكوت السموات	البابا كيرلس	٨٢
١٠	المرأة الخاطئة	١٩٦٩م	١١٨
١١	سرجيوس وواخس	١٩٦٩م	٥٧
١٢	القديسة دروسيس ابنة تراجان	١٩٦٩م	١٠٠
١٣	الميلاد	١٩٦٩م	٦٣
١٤	الكتبة والفريسيين	١٩٦٩م	٧٩
١٥	القديسة تكلا	١٩٧٠م	
١٦	عن أماكن اللهو ومداومة التناول من الأسرار المقدسة	١٩٧٠م	٥٤
١٧	الصعود	١٩٧٠م	٧١
١٨	السامري الصالح	١٩٧٠م	-
١٩	أعطوا ما لقيصر لقيصر	١٩٧٠م	-
٢٠	البابا أثناسيوس	١٩٧٠م	٩١
٢١	عرس قانا الجليل	١٩٧٠م	-
٢٢	في ذكرى رسامته بطريركًا	١٩٧٠م	٨٠
٢٣	طوبى للرحماء	١٩٧١م	-
٢٤	القديسان باسيليوس وإغريغوريوس	١٩٧٠م	١١٦
٢٥	هوذا فتاي الذي إخترته	١٩٧٠م	٩٨
٢٦	الصوم الكبير	؟	١٠٥
٢٧	رسالة إلى الموعوظين (أربعاء البصخة)	١٩٧٢م	-

البطريرك القديس
أنبا ساويرس الأنطاكي

البطريرك القديس

أنبا ساويرس الأنطاكي

يوسف حبيب

١٩٦٩م

« فَأَطْلُبُ إِلَيْكُمْ، أَنَا الأَسِيرَ فِي الرَّبِّ، أَنْ تَسْلُكُوا كَمَا يَحِقُّ لِلدَّعْوَةِ الَّتِي دُعِيتُمْ بِهَا. بِكُلِّ تَوَاضُعٍ، وَوَدَاعَةٍ، وَبِطُولِ أَنَاةٍ، مُحْتَمِلِينَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فِي الْمَحَبَّةِ. مُجْتَهِدِينَ أَنْ تَحْفَظُوا وَحْدَانِيَّةَ الرُّوحِ بِرِبَاطِ السَّلاَمِ. جَسَدٌ وَاحِدٌ، وَرُوحٌ وَاحِدٌ، كَمَا دُعِيتُمْ أَيْضًا فِي رَجَاءِ دَعْوَتِكُمُ الْوَاحِدِ. رَبٌّ وَاحِدٌ، إِيمَانٌ وَاحِدٌ، مَعْمُودِيَّةٌ وَاحِدَةٌ» (أف٤:١-٥)

حيثما يُذكر اسم القديس ساويرس بطريرك أنطاكية، تُذكر أمانته القوية وتآلفه مع كنيسة الإسكندرية العريقة في القِدَم، عمود الأرثوذكسية القويم، وصرحها الشامخ المتين. كان القديس رمزًا للوحدة المقدسة في الكنيسة الواحدة الوحيدة الجامعة، وله مِنَ الصلابة والرسوخ وقوة شامخة ما أرسى به جبل المعارف الدينية الباهرة، وأنوارها لا تزال تُضيء العالم أجمع، وقد انتشرت الأرثوذكسية في جميع الأرجاء وازدهرت ازدهارًا كبيرًا.

إن الكنيسة القبطية الواحدة الوحيدة كانت ولا تزال سندًا وظهيرًا وحصنًا حصينًا لكل مَنْ يدافع عن إيمانها ومعتقداتها، ولكل مَنْ يناضل عن الأرثوذكسية المستقيمة مهما اختلفت الديار، تجمعهم روابط الآخاء، كما أنه في جميع الأزمان كانت تحارب مُقاومي الإيمان الأرثوذكسي، وقد تعاون

البطريرك القديس ساويرس الأنطاكي مع كنيسة الإسكندرية على إرساء قواعد الإيمان المستقيم ونشر المعارف الدينية وتأييد المعتقدات الصحيحة بما لا يقبل الشك.

كانت الصلة وطيدة بين البطريرك الأنطاكي القديس ساويرس والبطريرك الإسكندري الأنبا تيموثاوس في القرن السادس، وكانت كل الأمور المُتعلِّقة بالكنيسة تتسم بالوحدة، وكان موقفهما ضد مجمع خلقيدونية المنعقد في سنة ٤٥١م غاية في الروعة، وهناك تقليد في الكنيستَيْن أن يرسل البطريرك الأنطاكي إلى الإسكندرية رسالة يشرح فيها إيمانه عقب جلوسه على الكرسي، وكان من عادة بطاركة أنطاكية والإسكندرية في القرن السادس أن يُخاطِب أحدهما الآخر عند رسامته ليأمر كنائسه أن تذكر اسمه في أوشيَّة (طلبة الآباء) ويُضمِّن خطابه الإقرار بالإيمان المستقيم، ومن هذه الخطابات ما سُجِّل في كتاب (اعترافات الآباء) الموجود في مكتبة البطريركية، وللقديس ساويرس جهود كثيرة في دعم الوحدة بين الكنيستَيْن. وقد قاوم دُعاة البدع والهرطقة التي لا تتفق وتعاليم الرسل والعقيدة الأرثوذكسية واحتمل مِنَ الضيقات والاضطهاد الشيء الكثير نتيجة لقرار المجمع الخلقيدوني سنة ٤٥١م.

كانت الكنيستان تجمعهما الوحدة المقدسة، وكان البطريرك الأنبا ساويرس نفسه يجول في ديار مصر يُصلي في كنائس الأقباط وأديرتها،

فليست هناك فوارق، وقد أقام في دير الزجاج قُرب الإسكندرية، وكان مقرَّه المُفضَّل.

وتجلَّت الوحدة الآن[1] بين الكنيستَيْن القبطية والسريانية، وأصبح اسم السيد رئيس الأحبار غبطة البطريرك مار يعقوب الأنطاكي[2] – بمقتضى قرار مِنَ المجمع المقدس – يُتلى في القداسات إلى جانب اسم بابا الإسكندرية غبطة البطريرك المُعظَّم الأنبا كيرلس. ويُتبع ذلك في الكنيسة السريانية أيضًا.

إن الكنيسة القبطية الأرثوذكسية والكنيسة السريانية الأرثوذكسية هما كنيسة واحدة في الإيمان والعقيدة والمذهب وليس بينهما أي خلاف في أي أمر مِنْ أمور الإيمان المسيحي، وقرارا المجمع المقدس لبطريركية الأقباط الأرثوذكس والمجمع المقدس لبطريركية أنطاكية وسائر الشرق للسريان الأرثوذكس أعلن فيهما أن الكنيسة القبطية والسريانية مُتَّحدتان في الإيمان والعقيدة وليس بينهما فرق مذهبي أو خلاف عقائدي.

---

(١) كان ذلك سنة ١٩٦٩م وقت صدور هذا الكتاب، (الناشر).

(٢) هو البطريرك مار إغناطيوس يعقوب الثالث (١٩٥٧-١٩٨٠م)، أما البطريرك الحالي فهو مار إغناطيوس أفرام الثاني (من عام ٢٠١٤ حتى الآن)، (الناشر).

وقبل جلوس غبطة البابا المعظم أنبا كيرلس السادس على الكرسي المرقسي في مايو سنة ١٩٥٩ زار مار إغناطيوس يعقوب البطريرك الأنطاكي الديار المصرية، وكان ذلك في يناير سنة ١٩٥٩، وكان لهذه الزيارة أثرها في ربط أواصر الصداقة والوحدة بين الكنيستَيْن القبطية والسريانية – وقد زار دير السريان العامر حيث تفقَّد أرجاءه واطَّلع على بعض المخطوطات السريانية، كما حضر حفل التكريم الذي أُقيم له بمعهد الدراسات القبطية وبصحبته نيافة مار ديونيسيوس جرجس مطران حلب، ونيافة مار ملاتيوس برنابا مطران حِمص، والأب زكا بشير السكرتير البطريركي، والأب نوح شايا نائب غبطة البطريرك في الإقليم المصري، وفي هذا الحفل تحدث غبطة البطريرك الأنطاكي عن الكنيسة السريانية وعلاقتها مع كنيسة الإسكندرية، وعن الكنيسة السريانية في الوقت الحاضر في مختلف إيبارشياتها في العالم.

هذه الزيارة الكريمة لمصر بصحبة اثنين مِن مطارنة السريان كانت خطوة لتوطيد العلاقات بين الكنائس الشرقية الخمس – القبطية والإثيوبية والسريانية والهندية والأرمينية – وهي الكنائس المتحدة في العقيدة.

ومِنَ الرسائل التي تبودلت بين غبطة البابا المعظم أنبا كيرلس السادس وغبطة مار إغناطيوس يعقوب الأنطاكي تحقق توطيد العلاقات بين الكنيستَيْن.

ومنذ أقدم الأجيال كان بطريرك الكرسي الأنطاكي يتبادل الرسائل مع أخيه الحبيب الروحي بطريرك الكرازة المرقسية، وكانت أواصر الصداقة متمكنة بينهما كما سبق ذكرنا ذلك.

ونورد هنا نص الرسالتين اللتين تبودلتا بعد جلوس حضرة صاحب القداسة البابا المعظم أنبا كيرلس السادس على الكرسي المرقسي.



رسالة غبطة البابا المعظم الأنبا كيرلس السادس

بابا وبطريرك الكرازة المرقسية المؤرخة ٤/ ٨/ ١٩٥٩

حضرة صاحب الغبطة مار إغناطيوس يعقوب الثالث،

الأخ الحبيب الروحي بطريرك أنطاكية وسائر المشرق للسريان الأرثوذكس

دامت قداسته.

بعد القبلة الرسولية والمصافحة الأخوية وإهداء إخوَّتكم سلامنا الروحي وأشواقنا، نتعشم أن تكونوا غبطتكم في أتم صحة وأكمل عافية وهناء روحي وجسدي.

إن مشاعر الإخوة والرغبة الصادقة في دوام الصلات الروحية التاريخية بين الكرسي الإسكندري والكرسي الأنطاكي دفعتنا لكي نبادل إخوَّتكم ما أظهرتموه من روح الود والمحبة عن يد نائبكم بمصر ابننا المبارك نوح، وما أدَّاه باسمكم من واجب أخوي.

وإننا نود بكل محبة أن نؤيد ما كانت عليه الصلات القوية بين الكنيستَيْن في الماضي، ونرجو أن تعود هذه الصلات وتزدهر حتى بهذا التعاون تؤدي واجبها ومسؤولياتها أمام العالم.

هذا ونضرع إلى مراحم الرب أن يحفظكم وكنيستكم المقدسة مع سائر رجال إكليروسكم الموقَّر وشعبكم المحبوب في سلام وطمأنينة وهناء شامل.

نعمة الرب يسوع تشمل جميعنا ورحمته تدركنا. ولعظمته تعالى الشكر دائمًا،

كيرلس السادس

بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية



رد غبطة البطريرك مار إغناطيوس يعقوب الأنطاكي

حضرة صاحب القداسة الأخ الحبيب الروحي الأنبا كيرلس السادس بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية الكلي الطوبى والجزيل البر.

بعد القبلة الرسولية والمصافحة الأخوية والسلام بالرب، نرجو أن تكونوا قداستكم على أحسن ما يرام مِنَ الصحة والعافية نفسًا وجسدًا.

بقلب مفعم بالسرور طالعنا رسالتكم الكريمة المؤرخة في ٤ أغسطس الماضي، على أثر تَسَنُّمكم(٣) سُدة الكرازة المرقسية السامية،

(٣) تَسَنُّمُ ذِرْوَةِ الْمَجْدِ: اِرْتِقَاؤُهَا، عُلُوُّهَا، اِعْتِلاَؤُهَا، (الناشر).

لما تضمنته من مشاعر الأخوة الصحيحة والرغبة الصادقة في دوام الصلات الروحية التاريخية بين الكرسيَّيْن الأنطاكي والإسكندري المقدَّسَيْن.

وبهذه المناسبة نود نحن أيضًا بكل إخلاص أن نؤيِّد الصلات الوثقي التي ربطت في الماضي كنيستَيْنا الرسوليتَيْن آملين أن تقوى وتزدهر أكثر فأكثر في هذا العصر الذي نحن فيه بأمسّ الحاجة إلى التعاون الكلي. نصرة للإيمان القويم، وقيامًا بمسؤوليات جِسام تجاه البشرية جمعاء.

وإن ما قام به باسمنا الأب نوح مِنَ التهنئة لقداستكم نعتبره واجبًا لازمًا وبرهانًا على ما يكنّه قلبنا مِنْ محبة خالصة نحوكم ونحو الكنيسة الشقيقة، وإذ نكرر تهانينا لإخوَّتكم بهذا المنصب الرفيع الذي نلتموه عن جدارة واستحقاق، نسأل الحق سبحانه وتعالى أن يحفظكم وكنيستكم المقدسة بإكليروسها الموقر وشعبها العزيز ويأخذ بيدكم إلى عمل كل ما يتمجَّد به اسمه الكريم.

هذا ما اقتضى والنعمة مع جميعنا.

إغناطيوس يعقوب الثالث

بطريرك أنطاكية وسائر الشرق



وجدير بالذكر أيضًا أنه حدث بعد ذلك في الفترة من ١٥-٢١ يناير سنة ١٩٦٥ أن عُقد مؤتمر أديس أبابا للكنائس الشرقية، إذ دعا جلالة الإمبراطور هيلاسلاسي لهذا المؤتمر لبحث وحدة الكنائس الأرثوذكسية،

وقد وضعت الأُسس التي ينبغي إرساء المؤتمرات عليها فتنقضي افتراقات البيعة المقدسة.

دعا إلى هذا المؤتمر كنيسة الإسكندرية، وكنيسة إثيوبيا، والكنيسة السريانية بأنطاكية والهند، وكنيسة الأرمن. وقد اهتم جلالة الإمبراطور بحضور بابا الإسكندرية، ونزل البطاركة في أحد القصور، وخصَّص لغبطة البابا كيرلس السادس أعظم قصور الإمبراطورية وهو قصر منليك الثاني تكريمًا له، وافتتح جلالة الإمبراطور المؤتمر.

وقد اشترك نيافة الأنبا ساويرس مطران الموصل الأرثوذكسي (الحالي) في اجتماعات اللجنة الدائمة لمؤتمر الكنائس الأرثوذكسية بالقاهرة، وزار الإسكندرية في ٢٥ يناير سنة ١٩٦٦ متفقدًا بعض كنائسها، وأبحر مِنْ ميناء الإسكندرية يوم ٢٦ يناير سنة ١٩٦٦ عائدًا إلى إيبارشيته.

وطلب قداسة مار إغناطيوس يعقوب البطريرك الأنطاكي إلى قداسة البابا المعظم أنبا كيرلس السادس إيفاد راهب للتدريس في كلية اللاهوت السريان بزحلة بلبنان، وهي الكلية التي تَعِد الكهنة والرهبان والوعاظ للخدمة في كنائس السريان الأرثوذكس، وجاء ذلك نتيجة لتوطيد أواصر التعاون والتآخي، وأوفد الأب داود السرياني لمقر عمله الجديد في يوم ٢٨/ ٩/ ١٩٦٦.

وفي ٢٦/ ٦/ ١٩٦٨ بعد دفن رفات القديس مار مرقس في المزار الذي أُعد لذلك في الكاتدرائية المرقسية الجديدة بأرض أنبا رويس، وعلى المذبح في الهيكل الكبير اشترك البطريرك الأنطاكي في صلاة القداس الإلهي مع غبطة البابا المعظم أنبا كيرلس السادس والأنبا ثاؤفيلوس مطران هَرَر الأثيوبي وعدد مِنَ المطارنة، وسافر للإسكندرية حيث حضر الاحتفالات الكبيرة التي أُقيمت بالكاتدرائية المرقسية بالإسكندرية مساء يوم ٢٧/ ٦/ ١٩٦٨.



ولعظم شأن القديس سويرس الذي تذكره الكنيسة القبطية في مجمع القديسين بعد القديس العظيم مار مرقس كاروز الديار المصرية وتضمّه مع الأبطال المُجاهدين أثناسيوس وكيرلس الكبير وديسقورس. وتعتبره الكنيسة السريانية "التاج" ونظرًا للقرارات التي أُتخذت في الاجتماعات الأخيرة بين الكنيستَيْن السريانية والقبطية والوحدة بينهما، قمنا بنشر هذه السيرة العطرة.

وجدنا هذه مراجع كثيرة حبشية وسريانية ويونانية ولاتينية وقبطية وإنجليزية وفرنسية ومخطوطات عربية، (لكن لم تظهر للنور سيرة كاملة مطبوعة بالعربية):

١) <u>النصوص الحبشية (مع ترجمة لها بالإنجليزية) نشرها:</u>

Edgar J. Goodspeed, asst, professor in the University of Chicago.

في كتابه:

The conflict of Severus, patriarch of Antioch, by Athanasius.

مع مقدمة للعالم الأثري العالمي الدكتور W. E. Crum

٢) النصوص السريانية (مع ترجمة لها بالفرنسية) نشرها:

M. A. Kugener, Dr. en philosophie et lettres

في كتابه:

Vie de Sévère d'Antioche par Zacharie le Scholastique.

٣) *Sévère patr. d'Antioche, textes Syriaques, publiés; traduits et annotés*, par Jean, Superieur du Monastère de Beith-Aphtonia

٤) نصوص يونانية:

Textes Grecs relatifs à Sévère.

نُشرت في:

Patrologia Orientalis Tome II fascicule 1&3

٥) مقالات ومواعظ منشورة في الباترولوچيا:

Patrologia Orientalis St. Severus of Antioch (letters).

٦) *A collection of letters of Severus of Antioch from numerous Syriac manuscripts*, edited and translated by E. W. Brooks.

٧) *Lee Homiliae Cathedrales, patr, Orientalis*

٨) *Les Homiliae CAthedrales de Sévère d'Antioche.* Traduction Syriaque de Jacques d'Édesse

A. Homilies XCIX A C III.
B. Homilies L, II- L' V II.
C. Homilies L, XXVII.

٩) **مخطوطة** ٢٩٩ ميامر دير السريان العامر تتضمن سيرة القديس كاملة.



إن هذه المراجع الوفيرة – علاوة على بعض مراجع أخرى – كافية أن تُظهِر سيرة هذا الأب ومقالاته وعظاته في مجلد ضخم جدير بمثل هذه الشخصية الكبيرة التي رفعتها الكنيسة. لكن هذا العمل يحتاج لزمان طويل وجهد طويل إذ نشرت سيرته وأقواله وتعاليمه وعظاته. وقد اعتمدت في إصدار كتابي هذا على بعض المراجع وبالأخص مخطوطة دير السريان العامر رقم ٢٩٩ ميامر، والنسخة الحبشية الإنجليزية التي نقلتها مِنَ المتحف القبطي بالقاهرة، وعلى ما نُشر بالمراجع السريانية التي نُشرت بالفرنسية. والتي تتضمن حياة القديس، وقد تم ترجمتها جميعها كاملة، وأيضًا على النصوص اليونانية المُتعلقة بالقديس ساويرس عن: Patrologia Orientalis الجزء الثالث، الكتاب الأول والثالث، والمُترجمة للفرنسية.

أما باقي المراجع التي تتضمَّن مقالاته وعظاته النفيسة فهي في الواقع هامة جدًا ونافعة – وسيُفرد لها كتاب خاص يظهر قريبًا إن شاء الله جاري إعداده.

النصوص التي وردت في هذا الكتاب:

١) النصوص الحبشية والإنجليزية والقبطية:

وُجدت سيرة الأنبا ساويرس بطريرك أنطاكية بالنص الحبشي في مخطوطتَيْن بالمتحف البريطاني القسم الشرقي رقم ٧٧١ و ٧٧٣، وقد نقلنا السيرة عن النسخة رقم ٧٧٣ وهي التي اختارها الناشر والذي ترجمها عن الحبشية للإنجليزية من ص (٥٩١-٧١٨) في كتابه:

The conflict of Severus, Edgar J. Goodspeed, Asst. professor, University of Chicago.

وهذه النسخة أكثر دقة وصحة، ومن أقدم النسخ كما قرَّر الناشر حيث قال:

"...The Ethiopic text here presented is in general precisely that of the oldest manuscript..."

وقد اهتم بأمر هذه النسخة الدكتور الأثري العالمي W. E. Crum صاحب القاموس القبطي الإنجليزي أعظم قاموس شامل في العالم.

وقد كتب تعليقًا هامًا على مقدمة الناشر ذكر فيه أنه طابق المخطوطة الحبشية على مخطوطتَيْن باللغة القبطية باللهجة الصعيدية بالمتحف البريطاني، فوجدهما مطابقتَيْن تمامًا للنص الحبشي لناشره، مما يغني الباحث عن الرجوع إلى المخطوطات القبطية الصعيدية...

قال دكتور Crum ما مُلخَّصه:

"أثناء إجراء فهرست المخطوطات القبطية في المتحف البريطاني، وجدت قصة البطريرك ساويرس عن مخطوطتَيْن بالصعيدية عن أقدم المخطوطات. وبمطابقتهما ومراجعتهما على المخطوطة الحبشية المنشورة هنا تبيَّن أنهما مِنْ مصدر واحد ومتشابهتان، وبالبحث توصلت إلى أكثر مِنْ مخطوطة. وجدت مخطوطتان في باريس كما وجدت أخرى في متحف Borgia. وإحدى هذه المخطوطات قديمة ترجع إلى القرن الثامن أو التاسع. وقد أُضيفت إلى هذه النصوص الصعيدية مخطوطة باللهجة البحيرية أُحضرت من أديرة وادي النطرون تدل كتابتها على أنها كانت حوالي سنة ٩٠٠م".

أما عن المخطوطات العربية فإنه يبدو أنه لا يوجد في أوروبا أي أثر لنصوص عربية ... والمخطوطات الخمسة التالية هي التي أشار إليها في مقدمته:

(١) Paris Ms, Copte 129. fol. 118 (cod. B).

(٢) Zoega Catalogue.
Paris Ms. Copte 129, fol. 120, 121, 119 Cod. B.
(٣) British Museum Or. 3581 – Catalogue No. 349.
(٤) British Museum. Add. 14740, A. fol. 20 (Cod. C).
(٥) Paris Ms. Copte 129, fol. 118.

وقد اعتمدنا كثيرًا على النسخة الحبشية الإنجليزية لأهميتها وقِدمها، **ونقلناها عن المتحف القبطي على مدى بضعة شهور.**

٢) **النصوص السريانية واليونانية واللاتينية والعربية.**

كنا نرغب الاكتفاء بالنسخة الحبشية وبميمر دير السريان العامر رقم ٢٩٩، لكن وجدنا مِنَ الضروري الاِطّلاع على باقي النصوص السريانية واليونانية المُترجمة إلى الفرنسية المُتضمِّنة سيرته، **وقد نقلنا هذه النصوص عن الجمعية الأثرية بالقاهرة وتم ترجمتها جميعًا.**

ويقول الدكتور م. أ. كيجنر، عن النصوص السريانية عن القديس أنبا ساويرس:

المؤلَّف الذي ننشره تحت عنوان "*نصوص سريانية مُتعلِّقة بحياة ساويرس بطريرك أنطاكية*" سوف يظهر في ثلاثة كتب:

الأول: الذي نُقدِّمه يتضمَّن النص السرياني والترجمة الفرنسية لحياة أنبا ساويرس لزكريا الأديب.

الثاني: يتضمَّن النص والترجمة عن أنبا ساويرس ليوحنا الإيغومانوس في دير بيت أفتونيا.

الثالث: عن المنشورات المختلفة التي تركها الكُتَّاب السريانيون عن هذا البطريرك الشهير - ومقدمات وتعليقات.

السيرة التي ألفها زكريا والسيرة التي أَلَّفها الإيغومانوس يوحنا كُتبتا أصلاً باليونانية، ولكن النص اليوناني فُقِد. ولحُسن الحظ قد احتفظ لنا الأدب السرياني بترجمة جيدة جدًا. **وصلتنا السيرة الأولى في مخطوط** ... من صفحة ١٠٩ إلى ١٣٥. **وصلتنا السيرة الثانية في الصفحات** ... من نفس المخطوط (سشو) ٣٢١، وأيضًا في المخطوط رقم ... من المتحف البريطاني. وهذا المخطوط لا يحتوي سوى ١٦ ورقة، ولا يتضمَّن نص آخر غير حياة ساويرس للإيغومانوس يوحنا، ولو أنه في هذا المخطوط الأخير تجد النص ناقصًا نظرًا لاختفاء أوراق كثيرة.

السيرة التي ألَّفها الأب زكريا نشرها Spanuth سنة ١٨٩٩ - سنة ١٩٠٠م في مجلة الشرق المسيحي الجزء الرابع ص٢٤٣ - ٣٥٣ و ٥٤٤-٥٧١ والجزء الخامس ص ٧٤-٩٨.

وطبعة سبانوت (Spanuth) التي نفذت الآن قد عُملت بعناية كثيرة، ولكنه أمكننا أن نضيف إليها بعض التحسينات ... ونص هذه السيرة مِنَ الصعب فهمه، وقد اجتهدنا لإعادة تشييد الأصل اليوناني في بعض المواضع وتوصّلنا هكذا إلى فهم أجزاء كثيرة غامضة.

ليس أن كل صعاب النص قد تم حلّها، ولكننا نعتقد أننا نجحنا في أن نُخفِّض بنسبة كبيرة الصعاب التي تقبل الحل...

السيرة التي ألَّفها القمص يوحنا لم تُنشَر بعد إلى هذا اليوم، ولكن M. Nau قد لخَّصها فقط في نهاية ترجمته لسيرة أنبا ساويرس التي ألَّفها زكريا.(٤)

أما المذكرات عن ساويرس فالكثير منها سوف يُنشَر لأول مرة.

والمقدمة والتعقيب شامِلان. ففي المقدمة درس لكل المسائل الأدبية التي تتعلق بالمستندات المنشورة، أما في التعقيب نُقدِّم كل الاستعلامات التاريخية التي تؤكِّد هذه الوثائق وتُبيِّن قيمتها للمؤرخين.

أما الجزء الثاني لسيرة القديس أنبا ساويرس التي رواها القمص أنبا يوحنا رئيس دير أفتونيا فهي أيضًا للناشر.

(٤) مجلة الشرق المسيحي ص٢٠٣-٣٠٢ ترجمة M. Nau لحياة ساويرس التي ألَّفها زكريا، ومُلخَّص السيرة التي ألَّفها القمص يوحنا قد ظهر أيضًا عن E. Leroux في باريس سنة ١٩٠٠.

M. A. Kugener, chargé de cours à l'université de Bruxelles.

Suivi d'un Recueil de Fragments Historiques Syriaques, Grecs, Latins et Arabes...

وقد ذكر Kugener ما مُلخَّصه:

"... إننا ننشر حياة الأنبا ساويرس ليوحنا رئيس دير Beith – Aphtonia طبقًا لمخطوطتَيْن: الأولى **مخطوطة برلين**: Le Sachau 321 . B وثانية **مخطوطة** لندن: L'add, 17203 L، وإنه يوجد خلاف قليل بين المخطوطتَيْن. ويمكن القول أن هاتَيْن المخطوطتَيْن نافعتان، ولكن النص الذي ننشره هو **مخطوطة برلين** لأنها أكثر قِدمًا وبحالة جيدة وكاملة. أما **مخطوطة** لندن، ففيها بعض النقص، صحيفة في الأول وأخرى في الآخر وست صفحات من وسط المخطوطة، فضلاً عن أنه توجد بعض أوراق منها يصعب قراءتها".

ويقول: "راجعنا أيضًا **مخطوطات** أخرى عن حياة هذا القديس، المخطوطة السريانية رقم ٢٨٤ بالمكتبة الإهلية بباريس، وهي صورة طبق الأصل من **مخطوطة** الفاتيكان رقم ١٦٢، وقد اهتم بنشرها المسيو F. Nau مع **مخطوطات** أخرى مُتعلِّقة بحياة القديس، وراجعنا أيضًا **مخطوطات** أخرى. كما أضفنا النصوص اليونانية واللاتينية المُختلفة الخاصة بحياة القديس".

وأضفنا علاوة على النصوص اليونانية واللاتينية ثلاث نصوص باللغة العربية[٥] قام بنشرها:

M. V. Chauvin, professeur L'Arabe à L'Université de Liège.

وترجمها الناشر Kugener- النص الأول عن رقم ٧٢٠٦ المتحف البريطاني، النص الثاني عن الفاتيكان LXXIV، والنص الثالث عن برلين.

ويقول M. A. Kugener بالنسبة للسيرة المُتعلِّقة بالقديس:

"نُضيف على المُستخرج مِنَ النصوص اليونانية واللاتينية التي في المُلحق ثلاث نصوص عربية لم تُنشَر بعد. كان م. ف. سوفان، أستاذ اللغة العربية بجامعة لييج قد اهتم بنقلها وترجمتها لنا.

أول هذه المُستندات مأخوذ عن المخطوط Carshuni ٧٢٠٦ بالمتحف البريطاني، والثاني مأخوذ عن مخطوط الفاتيكان العربي ٧٤، والثالث مأخوذ عن المخطوط Sachau...

والنصوص العربية المُتعلِّقة بالقديس سوف نوردها في نهاية السيرة الأثيوبية التي كتبها أثناسيوس والتي أعدَّها للنشر E. J. Goodspeed.

(٥) سننقل النصوص العربية في محلها، وهي موجودة في المرجع ص٣١٣-٣٧٦.

أما عن مؤلفات القديس فهي كثيرة جدًا، وقد أوضحنا بعض مراجعها، وهي تشمل:

١. سير قديسين.

٢. تفاسير للكتاب المقدس.

٣. مقالات وعظات.

يوسف حبيب



الفصل الأول

لمحة عن كنيسة أنطاكية ورجالها

كان السلطان الأعلى في الأمور الروحية في أيدي الرسل الأطهار، لأنهم تسلموه مِنَ السيد المسيح، فأسَّسوا الكنائس المسيحية التي أقاموها في أثناء طوفهم لأجل الكرازة حسب وصية السيد المسيح. وكانوا يعتنون بإدارة جميع الكنائس ويهتمون بشؤونها الروحية، وبكل ما يتعلَّق برعاية المؤمنين وتعليمهم وتهذيبهم، ويحكمون في المشاكل والمسائل التي كانت تظهر بين المسيحيين، ويعتنون بمستقبل الكنيسة، ويُقيمون الأساقفة والقسوس لمُساعدتهم في الخدمات الدينية، ويصحبونهم للمساعدة في الكرازة. وفي عصر الرسل عمل الشمامسة أيضًا، وكان أولهم الشهيد العظيم استفانوس رئيس الشمامسة، وبسبب الضيق الذي حدث بسببه في أورشليم، تشتَّت عدد ليس بقليل وجالوا مُبشِّرين بالكلمة في أنطاكية.

ومِنْ سفر الأعمال يُرى أن القديس بطرس كان حاضرًا في المجمع الرسولي المُنعقد في أورشليم، وذلك أن قومًا مِنَ اليهودية انحدروا إلى أنطاكية وكانوا يُعلِّمون هناك بضرورة الختان، فرؤي أن يُرسَل مِن أورشليم مع بولس وبرنابا أناس آخرون لبحث هذا الأمر. وفي هذا المجمع الأول دارت مُناقشات لأجل الذين في الأمم منها أن نير الختان أُعتبر أنه في غير

حاجة إليه لأجل المسيحيين (أع ١٥:٧-١١) ورؤي أن لا يُثقَّل على الراجعين إلى الله مِنَ الأمم، بل يُرسَل إليهم أن يمتنعوا عن نجاسات الأصنام والزنى والمخنوق والدم.

وكان لأنطاكية شأن كبير، فقد كانت في القرن الأول **عاصمة سوريا**، وكانت أول مدينة يُبشَّر فيها بالإنجيل للأمم.

أخذت الروابط المسيحية تقوى بالدعوة إلى العمل في أنطاكية، «وَكَانَ فِي أَنْطَاكِيَةَ فِي الْكَنِيسَةِ هُنَاكَ أَنْبِيَاءُ وَمُعَلِّمُونَ: بَرْنَابَا وَسِمْعَانُ الَّذِي يُدْعَى نِيجَرَ وَلُوكِيُوسُ الْقَيْرَوَانِيُّ وَمَنَايِنُ الَّذِي تَرَبَّى مَعَ هِيرُودُسَ رَئِيسِ الرُّبْعِ وَشَاوُلُ. وَبَيْنَمَا هُمْ يَخْدِمُونَ الرَّبَّ وَيَصُومُونَ قَالَ الرُّوحُ الْقُدُسُ: أَفْرِزُوا لِي بَرْنَابَا وَشَاوُلَ لِلْعَمَلِ الَّذِي دَعَوْتُهُمَا إِلَيْهِ. فَصَامُوا حِينَئِذٍ وَصَلُّوا وَوَضَعُوا عَلَيْهِمَا الأَيَادِيَ ثُمَّ أَطْلَقُوهُمَا» (أع١٣:١، ٢).

أرسلت كنيسة أورشليم سنة ٤٣م إلى أنطاكية برنابا المُمتلئ مِنَ الروح القدس ومن الإيمان، وانضم إلى الرب جمع كثير. فتوجَّه إلى طرسوس وانضم مع بولس وتوجَّها إلى أنطاكية وتردَّدا معًا سنة كاملة في أنطاكية، وعلَّما جمعًا كثيرًا، حتى أن التلاميذ دُعوا مسيحيين **في أنطاكية** أولاً.

والقديس بولس جاب القُرى يُعلِّم الأمم والشعوب ويُثقِّف عقولهم ويُهذِّب أخلاقهم ليسمو بهم إلى الحياة الحقيقية، فأسَّس الكنائس وعلَّم التلاميذ، وقاسى مِنَ الأتعاب والضربات والسجون والميتات والجلد والرجم

والضيقات متحمِّلاً كل شيء مِنْ أجل السيد المسيح.

ولما حصلت تلك المجاعة الشاملة أيام كلاوديوس قيصر سنة ٤٤م، عزم التلاميذ حسبما تيسَّر لكل منهم أن يُرسِلوا معونة إلى الأخوة الساكنين في اليهودية، وأرسلوا إلى المشائخ على أيدي برنابا وشاول (أع١١:٢٢-٣٠)، وبعد أن أتمَّا خدمتهما رجعا مِنْ أورشليم إلى أنطاكية وأخذا معهما يوحنا المُلقَّب مرقس.

وأخذت أعمال الرسولَيْن تقوى وتنتشر أكثر فأكثر، وتوثَّقت روابط المؤمنين، وانحدر بولس وبرنابا إلى قبرص، ولما اجتازوا في المدينة إلى بافوس وجدا رجلاً ساحرًا كذَّابًا اسمه "بار يشوع" كان مع الوالي سرجيوس بولس، فهذا الوالي دعاهما ليسمع كلامهما، فقاومهما الساحر. أما بولس وكان ممتلئًا مِنَ الروح القدس قال له أن يد الرب عليك، وتكون أعمى لا تُبصِر الشمس إلى حين. فسقط عليه ضباب كثيف وطفق يدور مُلتمسًا من يقوده، فلما رأى الوالي ما حدث آمن متعجِّبًا. ثم أبحر بولس وبرنابا إلى برجة بمفيلية، ومنها إلى أنطاكية.

ولقد أورد سفر الأعمال لمعلمنا لوقا البشير – وهو من مدينة أنطاكية – الكثير عن كنيسة أنطاكية، وكان **أول مسيحي أنطاكي هو نيقولاوس** أحد الشمامسة السبعة.

إن أنطاكية لها تاريخ قديم جدًا في تاريخ الكنيسة، وكانت تُعتبر أول مركز للديانة المسيحية بعد أورشليم، **ويرجع تأسيس الكرسي الأنطاكي إلى القديسَيْن بطرس وبولس،** كما كان القديسان برنابا ولوقا في طليعة المُبشِّرين في أنطاكية. وأخذت الديانة المسيحية تنتشر وكلمة الرب تنمو وتزدهر.

وازدان تاريخ البطريركية الأنطاكية بعدد كبير مِنَ القديسين العظام الذين يفخر بهم العالم المسيحي كله، والذين أناروا المسكونة بمؤلفاتهم التي لا تزال معينًا لا ينضب، ومصدرًا مِنَ المصادر الغنية، أمثال **الشهيد إغناطيوس** (القرن الثاني)، **والقديس يوحنا ذهبي الفم الأنطاكي** الأصل (القرن الرابع)، **والقديس العظيم أنبا ساويرس الأنطاكي** صاحب هذه السيرة، **والقديس يوحنا الدمشقي** وهو من أكبر لاهوتيي الكنيسة في القرن السابع.

وكانت الكنيسة الأنطاكية ترعى المسيحيين في بلاد سوريا وفينيقية وفلسطين وكيليكية بأسيا الصغرى، وقبرص وما بين النهرين إلى أقصى بلاد الفرس، وازدهرت في بلاد الفرس في أواخر القرن الثالث المسيحي، وكانت كنيسة فارس في ذلك الوقت تابعة للكنيسة الأنطاكية في سوريا، وأخذت تمتد حتى وصلت إلى بقاع كثيرة في أنحاء العالم.

ونشر السوريون المسيحية في كثير مِنَ الأقطار، وكان نفوذهم كبيرًا في كثير مِنْ كنائس العالم، فقد تولّى أسقفية باريس "سوري" سنة ٥٩٦م، وفي إنجلترا تولى الأسقفية"ثيؤدورس السوري"، كما قام السوريون بدور هام في نشر المسيحية في بقاع الصين، فكان في الصين حوالي سنة ٨٢٣م مطرانية وبضع كنائس، وتُرجمت في ذلك الوقت كتب دينية مسيحية إلى اللغة الصينية... كما انتشرت في بقاع أخرى.

أما الآن فإن عدد السريان الأرثوذكس يبلغ حوالي مليونان منهم حوالي مليون في كنيسة ملبار بجنوب الهند، والمليون الآخر موزَّع بين سوريا ولبنان والعراق وتركيا والأردن وأمريكا، ومركز البطريركية في حِمص بالإقليم السوري. ولهم **بالإقليم السوري** ثلاث إيبارشيات، **وبلبنان** إيبارشية واحدة، **وبالعراق** أربع إيبارشيات، وفي **تركيا** ثلاث إيبارشيات، وفي **القدس** واحدة، وإيبارشية **بأمريكا الشمالية**، وأخرى **بأمريكا الجنوبية**.

أما الكنيسة في **الهند** الآن فهي ١٤ إيبارشية برئاسة جاثليق، وبها ألف كنيسة، و٧٠٠ مدرسة أحد، وبها مدرسة إكليريكية خاصة. أما المدرسة الإكليريكية الرئيسية فمقرها الموصل بالعراق.

وفي يوم ١٩٥٩/٧/٢٢ حضر إلى القاهرة الشماس الهندي الأرثوذكسي بولس فيرجيس، دبلوم في اللاهوت. وزار الدار البطريركية بالقاهرة، وفي مساء الأحد ١٩٥٩/٧/٢٦ ألقى بمعهد الدراسات القبطية كلمة بالإنجليزية.

كما وفد سنة ١٩٥٦ القس فيلبس والشماسان صموئيل وأدمن.

وقد عقد مجلس الكنائس العالمي دورته الثالثة في عاصمة بلاد الهند من ١٨ نوفمبر إلى ٥ ديسمبر سنة ١٩٦١ وعقد المؤتمر في قاعة فسيحة اجتمع فيها ٢٥٠٠ شخصًا بين رئيس أساقفة ومطران وأسقف وكاهن وعلماني مِنْ مختلف الأجناس والألوان والطوائف، ومثَّل الكنيسة القبطية وفد برياسة المتنيح **أنبا يؤانس مطران الخرطوم**.

وفي القرن الثاني قام **بنتينوس** إلى الهند ونشر المسيحية بها، وكان اكتشافه للنسخة الأصلية لإنجيل القديس متى حدثًا فريدًا، وقد أحضرها معه إلى المدرسة اللاهوتية بالإسكندرية، وقام العلماء فيها بترجمتها ومراجعتها على النصوص الموجودة في ذلك الوقت.

واستمرت صلة الكنيسة القبطية بكنيسة الهند إلى القرن الثامن الميلادي، وفي عهد **البطريرك أنبا سيموؤن الأول** (٤٢) الذي تولَّى الكرسي (٦٨٩-٧٠١) أتى إليه كاهن مِنَ الهند يطلب منه سيامة أسقف آخر للهند، غير أن ثمّة صعوبات حالت دون تحقيق هذه الرغبة مما أدي إلى انقطاع ذكر هذه الصلة الروحية بين الكنيستَيْن منذ ذلك التاريخ.

ثم اتصل أبناء الهند بعد ذلك بالكنيسة في إيران، وبعدها بالكنيسة السريانية الأرثوذكسية بأنطاكية حيث استمرت صلتهم الروحية بها حتى الآن.

الفصل الثاني

الرهبنة السورية والأديرة

كانت الرهبنة السورية معروفة منذ القرون الأولى – بفضل الرهبنة المصرية - فقد أقبل على القديسَيْن أنطونيوس وباخوميوس كثيرون مِنَ المؤمنين الأنطاكيين وأخذوا عنهما النُظم الرهبانية وعادوا إلى فلسطين وسوريا والرها وأسيا الصغرى. **وأقدم الرهبان الأنطاكيين كما يبدو هو القديس إيلاريون الكبير** .(٦) فإنه بعدما أخذ قواعد النسك عن القديس أنطونيوس الكبير عاد إلى فلسطين سنة ٣٠٧م واعتكف في برية غزّة، وبعد أن قضى عشرين سنة اِلتف حوله كثيرون، فانتشرت الرهبنة في فلسطين، وتعدَّدت الأديرة فيها، وأقام إيلاريون نفسه في إحدى هذه الأديرة فاِلتف الرهبان حوله.

ويذكر صوزومينوس المؤرخ أن عددًا مِنَ النسَّاك كان يقيم في براري سوريا الشمالية وسوريا الوسطى، كما كان هناك أيضًا بعض الراهبات .(٧)

---

(٦) ذكر كتاب N. and P. Nicene fathers. Vol VI. st. Jerome ص٣٠٦
"...for as yet there were no monasteries in Palestine, nor has anyone known a monk in Syria before the sainty Hilarion. It was he who originated this mode of life and devotion and who first trained men to it in that province".

(٧) عن كتاب "كنيسة أنطاكية" د. أسد رستم.

والقديس ساويرس ترهَّب في دير الشهيد لاونديوس بالقرب مِن طرابلس الشام سنة ٤٨٨م، ثم لجأ إلى برية جيرين، ثم التحق بدير رومانوس في "Laura" (٨) مايوما وأنشأ ديرًا وأقام به زمانًا.

أما عن الأديرة السريانية في الوقت الحاضر، فيوجد:

- ❖ دير مار متى قرب الموصل بالعراق.
- ❖ ودير الزعفران بتركيا، وقد كان مركز الكرسي البطريركي قبل ذلك.
- ❖ وتوجد بعض أديرة قديمة أخرى في تركيا.
- ❖ كما أنه يوجد دير في القدس باسم مار مرقس.

وقد لمع في سماء برية شيهيت عدد كبير مِنَ النسَّاك السريان ذوي الروحانية العميقة فضلاً عن المعرفة اللاهوتية الغزيرة والتاريخ المجيد، مثل **القديس مار أفرام السرياني** في القرن الرابع وتعتز به الكنيسة القبطية كما تعتز به الكنيسة السريانية، وتحتفل بأعياده، وهو المؤسس لدير الرها فيما بين النهرين.

كذا **مار إسحق المتوحد** في القرن السادس صاحب الميامر العديدة والمؤلفات النسكية التي تُعتبر مِن أغنى المراجع الكبيرة في النسك والتعبُّد.

وتمتاز مؤلفات هذَيْن القديسَيْن باللغة السريانية بالعمق والقوة.

---

(٨) راجع كتابنا "البطريرك القديس أنبا إسحق" عن كلمة Laura .

أيضًا **العلاّمة مار ديونيسيوس يعقوب بن الصليبي** مطران مدينة أمد الذي لمع نجمه في القرن الثاني عشر صاحب المؤلفات الرائعة. يقول في مقدمة أحد مؤلفاته "الدُّر الفريد في تفسير العهد الجديد":

"إنه بعدما أكملنا تفسير التوراة والأنبياء مختصرًا حسب الإمكان، أتينا لتفسير الحديثة، ولم نقل من ذاتنا شيئًا بل إنما نحن نبني على أساس البانين قبلاً بناء روحانيًا فائدة للنفس، ثم لمَّا تأملنا في تفسير الإنجيل عن المُعلِّمين السابقين – القديس أفرآم السرياني والقديس يوحنا ذهبي الفم والقديس كيرلس وبعدهم موسى بن الحجري ويوحنا أسقف دارا وغيرهم كثيرون مِنَ المعلمين – ورأينا أنه ليس مِنَ الممكن أن نجمع تفاسيرهم في كتاب واحد فيأتي الكتاب خارجًا عن الحدّ والقياس ويحتاج إلى أسفار وكتب كثيرة، أردنا قطف المعاني المخفية في مضمون تفاسيرهم باختصار حتى لا نجعل مطولاتهم ثقيلة على السامعين كالشبع والأكل الكثير الذي يثقل المعدة، ولكي يستيقظ الغافلون والكسالى للقراءة والهذيذ المعتدل، وأنت أيها الراغب مع السامعين صلّ عليّ أنا يعقوب بن الصليبي فإني حسب طاقتي عملت ... ".

الفصل الثالث

ميلاد القديس ساويرس ونشأته

يقول M. A. Kugener في مقدمة كتابه بالسريانية عن الترجمة الفرنسية:[٩]

Sévère patr. d'Antioche, textes Syriaqucs, publiés; traduits et annotés, II par Jean, Beith-Aphtonia

"فيما يلي سيرة أخرى لحياة القديس ساويرس بطريرك أنطاكية كتبها يوحنا رئيس الدير المقدس ببيت أفتونيا حسب طلب التقي الأب دوماديوس الذي صار أسقفًا فيما بعد، والخطاب في أول الكتاب موجَّه إلى هذا الأخير.

إني أمدح محبتك للمعرفة وهواك للخير يا رجل الله. إنك لا تمل أبدًا مِنَ الأمور الإلهية، ولكن كلما ذقت منها اشتقت أن تتذوق أكثر. أنت تعرف فعلاً أن التوقف عن عمل الخير معناه الرجوع إلى الشر، وعلى النقيض مِن ذلك فإنَّ البدء في السعي إلى الخير هو الهروب مِنَ الشر.

---

(٩) يؤخذ مما ورد في نهاية السيرة أنها كانت أصلاً باليونانية حيث ورد ما نصّه: "تمت سيرة حياة القديس ساويرس بطريرك أنطاكية التي ترجمها مِنَ اليونانية إلى السريانية رجل الدين التقي القديس مار سرجيوس بن شاريا".

وبعد أن اهتممت بكتب ساويرس الكبير، وبعد أن اعتبرت رفعة لاهوتياتها وما تضمنته مِنَ العقائد الأرثوذكسية وتفاسير الكتب المقدسة ومقالاتها التعليمية الغزيرة مثل ماء البحر، أردت أيضًا أن تعرف قصة حياة هذا الرجل قائلاً في نفسك أن الروح القدس لا يتكلم هكذا على لسان رجل عادي، ولكن بالحري على لسان رجل تسمو أقواله عن الفكر البشري. ولمَّا تبيَّنت أننا محرومون مِن رجال فصحاء حكماء، فقد تركوا هذا العالم لأن السر فيه قد زاد ولا يوجد مَنْ يستطيع أن يكتب سيرة حياته، صرت في حيرة عظيمة، وشجّعني أن أقوم بهذا العمل أنا الصغير ولست حُجّة في الآداب. فعلت ذلك مثلي مثل مَنْ يُكلِّف سمكريًّا بصنع تاج ملكي. فإن قوة الإبصار للعين الجسدية حينما تحاول أن تنظر إلى الشمس مواجهة لا تظلم مثل العين الروحية حينما تحاول أن تتأمل في حياة أناس مثل ساويرس. فلكي يقوم أحد برواية سيرته يجب أن تكون له ملكات مِن منزلته، يستطيع معها أن يجد العبارات التي تتفق ورفعة شأن أعماله.

من ذا الذي لا يصفني بالتجاسر وعدم التعقل حينما يراني أُقدِم على عمل يفوق قوتي، إلا إذا كنت تطلب رواية عادية وبسيطة أكثر مِن أعماله ومعجزاته. ولكني أتضرع إلى الرب يسوع الذي نعبده لكي يقويني في عملي، لأني متعب ولأن روحي ضعيف كشيخ يتسلق برُكَبِه الضعيفة مرتفعات رملية.

حينما أتأمل تدرُّج الوظائف التي شغلها أنبا ساويرس في حياته، أخالني أرى سلم أب الآباء يعقوب الذي كان يلمس السماء. هذا السلم الذي كان يستند إلى ما كان رمزًا للتقدم في الفضيلة ويصل إلى أبواب السماء، وكان الملائكة يصعدون وينزلون عليه. أما الناس الذين كانوا يصعدون عليه فكانت الملائكة تقودهم وتساعدهم، وكان الرب يستقبل الذين أكملوا سيرهم. هكذا أيضًا هذا الرجل العظيم، فقد ارتفع مِنَ الدرجات الأولى للفضيلة إلى قباب السماء. ولن نُخطئ إذا قلنا أن أنبا ساويرس أيضًا قد أُختير مِن بطن أمه - مثل بولس - مِنَ الذي له سابق العلم الذي يختار منذ البطن أولئك الذين يستحقون، ويرفض الذين لا يستحقون، كما هو مكتوب بخصوص يعقوب وعيسو حينما كانا لا يزالان في البطن، كان الواحد محبوبًا والآخر مكروهًا. وبالتأكيد فإن العبارات: "أختير بولس مِنَ البطن" وأيضًا "أن الخطاة قد أُبعدوا منذ الأحشاء"، فهي ترمي إلى معنى واحد.

ولكني أرى ذهني قد عمته أشعة حياته فينزع إلى السكوت مثل ما يهرب إلى ملجأ. إننا يجب ألا نقول سوى الحق. وبالأخص حينما نكتب للعارفين، فالأحداث تغلب الكلِم، لأن الفضيلة هي في الروح ولا تكون هباء. فلا نيأس مِن ناحيتنا إذا كنا لا نستطيع أن نتوصل إلى الكمال. فضلاً عن ذلك فليس أحد مِنَ المُقربين منَّا قد تقدَّم لكي يكتب شيئًا،

ولكن حان الوقت لكي نكتب روايتنا. نبدأ بالوقت الذي بدأ به حياته طالبين معونة الله وصلوات الذي نتكلم عنه".

وذكر النص الحبشي الإنجليزي ومخطوطة دير السريان رقم ٢٩٩ ميامر في مقدمة سيرة القديس التي كتبها الأب أثناسيوس:

"مَنْ لا يتعجّب مِنْ سيرة القديس العظيم ساويرس. لما حاولت أن أصِف فضائل هذا الأب وأتكلم عنها أُخذت بشدة كمن نُقِل إلى السماء، وقلت كما قال داود النبي: «لِسَانِي قَلَمُ كَاتِبٍ مَاهِرٍ» (مز٤٥:١).

إني أذكر فضائل هذا القديس الذي هو أفضل مِن كثير مِنَ البشر، نطلب إليك المعونة لعبدك أنا ولدك أثناسيوس لأن اسمك دهن فائض على خرافك، لكن بالنسبة لأعداء الإيمان فهو مثل السيف القاطع.

ميلاد القديس:

يقول كاتب السيرة الأب أثناسيوس:

إن القديس ساويرس كان من أثينا[١٠] وأن أبي كان قسًا وكان جدي أيضًا من أهل مدينته، وكان أبًا مغبوطًا وهو قس[١١] اسمه أثناسيوس أيضًا،

(١٠) ذكرت ذلك النسخة الحبشية الإنجليزية. أيضًا مخطوطة دير السريان رقم ٢٩٩ ميامر ذكرت أنه في أنياس (ويبدو أنها إيناس أي أثينا). أما كتاب مدينة الله للدكتور أسد رستم فقد ذكر أنه وُلد في سوزوبوليس مِن أعمال بيسيدية بأسيا الصغرى حوالي ٤٥٩م، كما ذكر ذلك كتاب الأب يوحنا رئيس دير أفتونيا والسنكسار المستعمل قراءته في الكنيسة القبطية، وهذا ما روته أكثر المصادر التاريخية.

وكان يصحب أنبا ساويرس الأسقف في مدينته الذي هو جد ساويرس البطريرك. وكان الأب الكبير ساويرس أحد أساقفة مجمع أفسس المائتَيْن. وكان جد البطريرك ساويرس لأبيه له معرفة جيدة بجدي أنا أيضًا وله معه صداقة كثيرة.

رؤيا بشأن مولده:

وحدث أن أنبا ساويرس الكبير أسقف مجمع أفسس بينما كان مع جدي أن أُختُطف عقله وغاب حسه مقدار ساعة، وجدي يبصره، ثم قال وجدي يسمعه "*يا رب هوذا أنا عبدك، افعل معه ما ترى وقوِّي اسمك يا رب، لا تُقوِّي الهراطقة*" فقال له القس جدي: "*أطلب إليك أيها المغبوط ساويرس أن لا تُخفي عني ما رأيت لأنك تعلم محبتي لك*" فأجاب الأسقف وقال: "*هذه الرؤيا التي رأيتها أنا أشرحها لك. سمعت صوتًا يقول: «قَصَبَةً مَرْضُوضَةً لاَ يَقْصِفُ وَفَتِيلَةً مُدَخِّنَةً لاَ يُطْفِئُ»*[١٢] ، *إن ساويرس سيُثبِّت أركان الإيمان المسيحي، ثم أن الصوت الإلهي أعلمني أيضًا قائلاً إنك سوف تنتقل في نفس السنة إلى آبائك، والولد الذي يُولد لولدك هو يُثبِّت صخرة الأرثوذكسية بكلامه الحق، لكنه سوف يُقاسي تعبًا عظيمًا ويُرد كثيرين مِنَ الضلال، ويُدعى اسم هذا الفتى ساويرس مثل اسمك ... وقد أعلنت لك هذه الرؤيا*".

---

(١١) ذكرت المخطوطة الحبشية أن جد أثناسيوس كان مِن أراخنة الكنيسة وأسمه أثناسيوس.

(١٢) (إش٤٢: ٣).

هذا ما حدَّثني به الأب أثناسيوس جدي ولم يكن وُلِد الأب الجليل ساويرس، ومِن بعد سنة صار مولده.

أما الأب القمص يوحنا رئيس دير أفتونيا فيتحدَّث عن عائلته وعن مولده، فيقول:

كان أبواه يُعدَّان مِنَ الأكابر والأعيان، وكانا يمتازان بثروتهما وسلطتهما، وكانا مِن سلالة ساويرس الذي كان أسقفًا على هذه المدينة، وكان مِن جملة المائتي أسقف الذين قطعوا مع كيرلس الكبير بحرم نسطوريوس الشرير. وسُمِّي ساويرس صاحب هذه السيرة على اسمه. إنَّنا لا نعرف بطرس ويوحنا عن طريق بلدهما أو عائلتهما ولكننا تعلمنا منهما أن نعرف يونا وزبدي وبيت صيدا.

ومن ناحية أخرى ألا توجد اللآلئ على شاطئ البحر في داخل قوقع، والحجارة الكريمة في المناجم. إنَّ الناس العِظام اشتهروا بأنفسهم وليس ببلدهم أو عائلتهم. بهذه الطريقة نعرف القديسين منذ زمن طويل، فيتميز أخنوخ بالنعمة، ونوح بالكمال، وإبراهيم بالإيمان، وموسى وداود بالحلم، وإيليا بالغيرة والحماس، وأليشع بضِعف روح مُعلِّمه، والمعمدان بالعظمة بين المولودين مِنَ النساء، بطرس ويوحنا بالمحبة. ولذلك فبالنسبة لساويرس سوف تقوم أعماله بمهمة التعريف به.

الفصل الرابع

القديس ساويرس الشاب وعماده

يستطرد الأب يوحنا فيقول عنه:

لما كبر بنعمة الله وأصبح شابًا، درس العلوم الدنيوية التي مِنْ شأن مَنْ يعرفها الافتخار بطبيعتها كسلاح للذين يستعملونها جيدًا، وفي الوقت نفسه سبب هلاك مَنْ يُسيئون استعمالها. فهي مثل السيف الذي ليس شريرًا مِنْ ذاته، ولكن منزلته في إرادة الذين يستعملونه.

وبعد أن أكمل ساويرس دراساته في العلوم الفلسفية بالإسكندرية، اِنطلق إلى بيروت لكي يدرس فيها العلوم القانونية، وهناك كان موضع إعجاب كل زملائه مِن أجل صلابة طبعه والجد في الدرس ومِن أجل ذكائه، وفاق الجميع بمعرفته وإنطلاقه وتعمّقه في دراساته. ومنذ ذلك الحين توقع الجميع ما سيكون منه وتنبأوا عن سمو شأنه في المستقبل، كما تُعرف الزروع الكبيرة عندما تنبت.

ومِنْ ذلك الحين أيضًا تمت له الكلمة المقدسة مثل لوط البار الذي كانت روحه البارة تتألم كل يوم لأجل خطايا الناس، ولم تستطع مسـرَّات هذه المدينة أن تُغيِّر مِن سلوكه الحازم ولا أن تخطف منه طهارته.

وفي نصوص سريانية مُترجمة للفرنسية ومُدوَّن عليها مُلاحظات قام بها ك. م. كوجنر (دكتور في الفلسفة والآداب)، يتحدث زميل للدراسة في الإسكندرية عن القديس ساويرس وهو الأديب زكريا، فيقول:

"لقد عرفته في فجر حياته وهو بعد شاب يافع ودرست معه بالإسكندرية قواعد اللغة والبيان والفلسفة وأني أود أن أتكلم عن ساويرس الذي له سمعة كبيرة عند الذين يقدرون الخبر دون تحيز.

لقد كنت مع القديس ساويرس منذ شبابه الأول في الإسكندرية وفي فينيقية نسمع نفس المُعلِّمين ونشترك في نفس الاهتمام، والذين كانوا يدرسون معنا لا يزالون على قيد الحياة وعددهم كبير يمكنهم أن يشهدوا بصحة روايتي.

ساويرس الشهير بيسيدي الأصل (نسبة إلى بيسيديا) وُلد في سوزوبوليس بأسيا الصغرى. إنها البلد التي تشرَّفت بإقامته فيها بعد البلد الأول التي طُردنا كلنا منها بعد تعدِّي آدم والتي يدعونا الرسول الإلهي أن نبحث عنها مِن جديد، حيث يقول: «لأَنْ لَيْسَ لَنَا هُنَا مَدِينَةٌ بَاقِيَةٌ» (عب١٣:١٤)، أيضًا قوله عن المدينة التي أساساتها «صَانِعُهَا وَبَارِئُهَا اللهُ» (عب١١:١٠).

قد ربَّاه أبوان ممتازان وكانا مِن سلالة ساويرس الذي كان أسقفًا على مدينة سوزوبوليس التي وُلد فيها في زمن مجمع أفسس الأول الذي اجتمع

فيه نسطور الكافر. وبعد وفاة والده الذي كان في مجلس شيوخ المدينة، أرسلته والدته التي ترمَّلت مع أخويه اللذين كانا يكبرانه إلى الإسكندرية لكي يدرس قواعد اللغة والبيان واليونانية واللاتينية.

وفي هذا الوقت كنت أقيم أنا أيضًا في هذه البلدة لنفس السبب. ذهب الثلاثة إخوة أولاً إلى الفيلسوف يوحنا ثم إلى سوباتير الذي كان مشهودًا له في علم البيان.

وحدث أني كنت أنا أيضًا أذهب لنفس المُعلِّم في هذا الوقت أيضًا، وأيضًا إلى ميناس ذي الذكرى الطيبة المشهود له بالعلم والاستقامة والاتضاع والطهارة ومحبته للقريب ومواساته للفقراء.

وفي أثناء دراساتنا، في الإسكندرية كنا نعجب لصفاء روح ساويرس ولمحبته للعلم. وكنا نعجب كيف كان في عمق يتعلّم ويتفوق بلباقة واجتهاد ومواظبة، وفي دراسة قوانين العلماء القدماء كان يُحاول أن يُقلِّد أسلوبهم البرَّاق، ولم يكن يشغل تفكيره شيء غير هذا، ولا يتعزّى بشيء آخر مما كان يتعزّى به عادة الشبان، فكان يُكرِّس ذاته للدراسة ويبتعد من أجل حماسه لها عن الاهتمام بالأمور الباطلة.

ولقد كنا متألمين لأنَّ شابًا ذكيًا مثل هذا لم يكن قد أخذ المعمودية الإلهية بعد. وقد أبدى ساويرس اهتمامه بدراسة مقالات الفيلسوف ليبانيوس الذي كان مُعجبًا به، وكذا أعمال العلماء القدماء، ومقالات

القديسَيْن باسيليوس وإغريغوريوس الأسقفَيْن الشهيرَيْن. وكنا ننصحه بأن يُقبِل إلى العماد حتى يصل عن طريق البيان الذي كان له إلى حكمة هؤلاء وفلسفتهم. فلم تعلّم ساويرس أن يعرف كتبهم شغف بها كلية. وسمع وهو يمدح الخطابات الموجَّهة من باسيليوس إلى ليبانيوس وردود ليبانيوس، وكان يعزو ما اكتسبه إلى خطابات باسيليوس، وكان من نتيجة ذلك أن عكف ساويرس منذ ذلك الوقت على قراءة كتب باسيليوس الشهير وتأملاته.

ثم يقول واضع السيرة:

وإن ميناس صديقي الذي كان موضع إعجاب الجميع قرَّر في نبوة تحققت بالفعل: "إن ساويرس هذا سوف يتألق بين الأساقفة مثل القديس يوحنا ذهبي الفم الذي أؤتمن على قيادة كنيسة القسطنطينية". إن الله وحده الذي يعرف المستقبل كان يعلن هذه الأشياء عن ساويرس عندما كان لا يزال شابًا نقيًا.

ثم يعود الأديب زكريا يروي عن صديقه، فيقول:

بعد هدم الأوثان بزمن قليل، توفّى ميناس التقي الذي كان قد تنبأ لساويرس بأنه سوف يصير عظيمًا، وإنطلق نحو الذي كان يُحبّه مُزينًا بفضائل كثيرة وببتولية الروح والجسد ومحبة القريب وبالتواضع وبمحبة كاملة وبأناة كبيرة. وفي هذا الوقت كنت مريضًا وكان الوثنيون يظنون أننا نأخذ عقابنا من أجل ما فعلناه بأوثانهم في غيرتنا من أجل الديانة

المسيحية، ومن أجل حرقنا للأوثان، فأشاعوا أني أنا أيضًا سوف أنال القصاص. وبعدما شُفيت بأعجوبة من قبل رحمة ربنا يسوع المسيح كنت ألقي خطاب تأبين أمدح فيه ميناس الشهير وذكرت فيه هدم الأصنام الوثنية، ورويت فيه خبر حرقها بالنار أمام كل شعب المدينة، وكنت أُشيد بفضائله ومحبته للقريب التي كانت موضع إعجاب الجميع حتى الوثنيين. وفرح ساويرس وسُرّ كثيرًا عند سماعه الكلمات التي قلتها ضد الوثنيين، وكان فرحه عظيمًا حتى أنه كان يُصفِّق لي أكثر من كل الحاضرين.

وفي نفس الوقت كان الوثنيون الذين دعوناهم للحضور للاستماع والذين كانوا قد حضروا دون أن يعلموا ما سوف يُقال، كانوا يبكون على بلاياهم، وصرخ أحدهم وهو مملوء غيظًا: "*إذا كنت تريد أن تتكلم ضد الآلهة، فلماذا أتيت بنا بالقرب من قبر صديقك؟*" وقد اضطررت أن أروي هذه الأمور مُبيِّنًا طهارة سيرة ميناس وأصدقائه – هؤلاء الذين كانت لهم غيرة ومحبة، وبالأخص صاحب هذه السيرة، وسنروي أيضًا خبر سفره إلى فينيقية.

ويروي الأديب زكريا ذلك فيقول:

حينما كان ساويرس الشهير جدًا على وشك أن يترك الإسكندرية ويذهب إلى فينيقية لكي يدرس القانون حتى يصير مُحاميًا، شجَّعني لكي أذهب معه، ولكني قلت له أني أحتاج لدراسة أوفر لمقالات الفلاسفة

وأصحاب البلاغة بسبب الوثنيين الذين يُمجِّدون أنفسهم، ويتكبَّرون من أجل معرفتهم إياها حتى نُحاربهم أيضًا علانية في هذا المضمار. وسبقني ساويرس إلى فينيقية بسنة واحدة. وبعد مضي هذه السنة، ذهبت بدوري إلى بيروت، لكي أدرس القانون المدني. وكنت أتوقّع أن أجد بعض المتاعب وأن أتحمل ما يتحمله الطلاب الذين يحضـرون حديثًا إلى هذه المدينة لكي يدرسوا القانون.

دخلت أول يوم في مدرسة لاونديوس بن أودكسياس الذي كان حينئذ يدرس القانون، وكان يتمتع بسمعة كبيرة عند كل الذين يهتمون به. ووجدت ساويرس جالسًا مع كثيرين آخرين بالقرب مِنَ المعلم لكي يستمع إلى الدرس. وفي ذلك الوقت جال بخاطري أنه سيكون منصرفًا عني، ولكني رأيت أنه على وفاق طيب نحوي. بادرني بالسلام مُبتسمًا مسـرورًا، ولذا شكرت الله لأجل هذا التعارف. مضيت إلى الكنيسة المدعوة "**كنيسة القيامة**" لكي أصلي، ثم ذهبت إلى كنيسة "**والدة الإله**" الموجودة بالقرب مِنَ الميناء، وبعد أن انتهيت مِن صلاتي أخذت أتمشّـى أمام الكنيسة. وبعد ذلك بقليل اقترب مني رجل الله ساويرس وابتدرني بمرح قائلاً: "*إن الله قد أرسلك إلى هذه المدينة بسببي. قل لي إذن: كيف أخلص؟*" حينئذ رفعت عيني نحو السماء فرحًا وشكرت الله الذي ألهم ساويرس هذه الفكرة، وجعله يتفكَّر في أمر خلاصه، ثم قلت له: "*بما أن سؤالك يتعلّق*

بالأمور المقدسة، فهلُمّ بنا" وأمسكت بيده وأعلمته أني سأقوده إلى هيكل والدة الإله، وهناك سوف أخبره بماذا علَّمتنا الكتب المقدسة، وما علَّمنا إياه الآباء القديسون. فلما سمع هذه الكلمات، سألني ساويرس إذا كانت معي كتب باسيليوس الكبير وإغريغوريوس الشهير والحكماء الآخرين، فرددت بأني أحضرت كثيرًا مِن مؤلَّفاتهم. حينئذ جاء معي إلى هيكل والدة الإله، وبعد أن تلا معي الصلوات الواجبة، سألني نفس السؤال الذي سألني إياه أولاً. فأظهرت له رحمة الله علينا مبتدئًا مِن سفر التكوين، وذكرت له كيف أن الله بعد أن خلق كل شيء، وبعد أن أخرجنا أيضًا مِنَ العدم، وضع أبوينا الأولَيْن في الفردوس وأعطاهما بصفتهما لهما عقل ويتحكَّمان في تصرفهما، شريعة الخلاص بخصوص ما يجب أن يفعلاه، فخالفا الوصية بخديعة الحية وخسرا هذه الحياة السعيدة وإستبدلا الحياة الأبدية بالموت الذي توعدتهما به الشريعة سلفًا.

كنت أقصد آدم وحواء، وكانت صورتهما في الهيكل لابسين قمصانًا مِنَ الجلد بعد طردهما مِنَ الفردوس. ثم أريته بعد ذلك كل مكر وكل قوة الشياطين التي أسرتنا بطاعتنا لإبليس الذي كان على رأس كل تمرّد، وذكرت له رحمة الله نحونا في جوده إذ لم يسمح بأن تهلك خليقته التي لو كانت حفظت وصية الله لظلَّت غير فاسدة وغير خاضعة لآلام الطبيعة البشرية بعد خروجها مِنَ العدم، وأخذت الحياة الأبدية.

ثم إِستطردتُ قائلاً: بعد الوصية الطبيعية، أعطانا الله أيضًا الشريعة المكتوبة بواسطة موسى وأعان طبيعتنا أيضًا بواسطة أنبياء قديسين كثيرين. ولما رأى أن الجرح يحتاج إلى دواء أعظم زارنا كلمة الله الخالق بتجسُّده. نزل شمس البر المُشرِق مِنَ الأعالي إلينا نحن الجالسين في الظمة وظلال الموت. حُبل به مِنَ الروح القدس ومن مريم العذراء الطاهرة، وولدته وهي عذراء. وكان ذلك البرهان الأول الذي أعطاه عن ألوهية ميلاده العجيب فائق الطبيعة بدون زرع بشر. أراد بعد ذلك أن ينتزعنا مِن قبضة الشيطان ذلك المتمرد الذي كنا سلَّمناه نفوسنا، وقبل بإرادته الصليب من أجلنا. سلَّم جسده للموت فدية عنا، وقام في اليوم الثالث بعدما كسر قوة إبليس والشياطين الأشرار أعوانه، وكذلك شوكة الموت. وأقامنا معه وأظهر لنا الطريق الجديد للخلاص الذي يقود إلى السماء. وأسس كنيسة واحدة على كل الأرض، وعلَّمنا أن نتوب ونلجأ إليه بواسطة العماد الخلاصي الذي يرمز إلى القبر.

ولما قدَّمتُ أيضًا براهين أخرى كثيرة على ألوهية السيد المسيح والأناجيل مليئة بها، قلتُ لساويرس: "*يلزم إذن يا صديقي أن يلجأ إليه كل الناس الأذكياء بواسطة العماد المُحيي*"، فقال لي: "*حسنًا تكلَّمت، ولكن الآن يجب أن أُقرِّر وأُحدِّد خط سير. لأني ههنا اهتم بدراسة القوانين*" فقلت له: "*إذا كنت تريد أن تصدقني أو بالحري أن تُصدِّق*

الكتب المقدسة وحُكماء الكنيسة العالمين، فاهرب أولاً مِنَ المناظر المُخزية، ومِن سباق الخيول ومِن المسارح التي تظهر فيها حيوانات تتصارع ضد فقراء بائسين. ثم أحفظ جسدك طاهرًا وقدّم كل يوم لله صلوات المساء في الكنائس المقدسة بعد دراسة القوانين، فإنه لائق بنا الذين نعرف معرفة الله أن نُتمّم واجبات المساء في الكنائس المقدسة". وعد ساويرس أن يفعل وأن يُحافِظ على ذلك، وقال: "فقط لن تجعل مني راهبًا في أي أمر من الأمور أهوى التعمّق فيه" ثم قال: "والآن إذا كنت تريد شيئًا حقًا فعلًا وبما أنك تهتم أيضًا بالخلاص فسوف أعرض عليك مشـروعًا به تتعلم البلاغة والفلسفة والكتب المقدسة واللاهوت دون أن يتعارض مع دراسة القوانين، ودون أن يتطلّب وقتًا كثيرًا".

قلت: "أين هو هذا المشروع؟ إذا كان مِنَ الممكن تنفيذه دون إهمال دراسة القوانين إذن نحصل على خيرات كثيرة، وبالأخص في علم اللاهوت الذي هو سيد العلوم جميعها" فقال: "إننا ندرس القوانين كما علمت طوال الأسبوع فيما عدا الأحد والسبت بعد الظهر، فيمكن بعد موافقتك أن نخصّص هذا الوقت لدراسة كتب حكماء الكنيسة أثناسيوس الكبير وباسيليوس وغريغوريوس ويوحنا وكيرلس ... إلخ".

وبعد أن عملنا بما كتبه الكنسيون المختلفون ضد الوثنيين، ثـم قرأنـا مؤلفات القـديس باسـيليوس ومقالاتـه ورسـائله، ثـم مؤلفـات الثـلاث

إغريغوريات اللاهوتيين ومؤلفات يوحنا وكيرلس الشهيرين. وكنا نتردد على الكنيسة مساء كل يوم ومعنا صديقنا إيفاجريوس الذي كان قد تعلَّم في مدارس أنطاكية وكان يختلف إلى كنيسة أول الشهداء القديس استفانوس، وهذا لكي يدرس القوانين في الوقت الذي ذهبت فيه أنا أيضًا. وفي نفس الوقت حضر صديقنا أليشع إلى بيروت لنفس السبب، وقد انضم إلينا كثيرون أثناسيوس الذي مِنَ الرها وفيلبس الذي مِنْ بترا وأناطوليوس الإسكندري، كذلك زينودور وكان أصلاً مِنْ غزّة واستفانوس الفلسطيني الذي جاء فيما بعد أيضًا إلى بيروت. وهكذا كنا مجموعة كبيرة اتفقنا في الرأي الواحد والعمل الواحد.

وحدث أن بعض طلاب الحقوق في بيروت اشتهروا جدًا بأعمال السحر: چورج التسالونيكي وخريورياس مِنْ إحدى مدن أسيا وأسكليبيودانوس مِنْ هليوبوليس وكان يسندهم يوحنا المشهور باسم (فولون) والذي كان أصلاً مِنْ طيبة في مصر، وكانوا لا يكفون عن أن يخترعوا أمورًا شريرة. وذاع خبر أنهم كانوا يتآمرون لكي يذبحوا أثناء الليل في السيرك عبدًا إثيوبيًا يملكه هذا الرجل الذي مِنْ طيبة في أعالي الصعيد – بهذه الجريمة الممقوتة كانوا يُريدون أن يرضوا الشيطان. اقتادوا ذلك العبد إلى السيرك في نصف الليل لتنفيذ غرضهم، لكن في الوقت الذي كانوا فيه مُزمعين أن يصنعوا هذه الجريمة شفق الله على هذا العبد البائس

ودبَّر أن أناسًا يمرون مِنْ هذا المكان في ذلك الوقت، ففزعوا مِـنْ تجـاسرهم الرديء، وهكذا وجد الأثيوبي فرصة للهروب والنجاة بحياته.

عماد القديس:

حدث في هذا الوقت أن أحد زملاء ساويرس أعطاه كتابًا مِن تأليف باسيليوس الكبير أسقف قيصـرية الكبادوك نجم العالم أجمع، وكان باسيليوس في هذا الكتاب يرد على خطابات ليبانيوس الفيلسوف الأنطاكي.

فبعد أن قرأ ساويرس الكتاب، تألم بالروح لأنه علم ما هي الفلسفة الحقيقية وما هي الفلسفة الباطلة. ومِن ذلك الحين اهتم بالفلسفة الصحيحة حتى عرف فساد تعاليم كل الهرطقات وشرورها.

والواقع أن الحق يجذب إليه كل الذين يستحقونه أكثر مِنَ المغناطيس الذي يجذب إليه الحديد.

بعد ذلك ابتدأ يدرس الخُطب الكبيرة لباسيليوس وإغريغوريوس، وقرأ فيما قرأ الخُطب التي ألقياها عن العماد.

وفي إحدى خطب القديس باسيليوس كان يُهدِّد الذين لم يتعمَّدوا هكذا قائلاً: "أنت تتخلف، أنت تتردد، أنت تتأخر منذ صباك وأنت تتعلم التعاليم المسيحية ولم تلتصق بعد بالحق.. تتعلم كثيرًا ولم تبلغ بعد إلى المعرفة. تُفتِّش في تجارب وتلاحظ أمورًا عن آخرين إلى أن تصير شيخًا،

متى تصير مسيحيًا؟ متى تعترف بأنك منّا؟ في العام الماضي كنت تنتظر هذه اللحظة، والآن أيضًا تنتظر العام القادم. احترس إذن لئلا تُفاجأ وأنت تصنع وعودًا أطول مِنَ الحياة، فأنت لا تعرف ماذا سيجلبه الغد، فلا تعِدْ بما ليس لك، فإننا ندعوك للحياة أيها الإنسان، فلماذا تهرب مِنَ الدعوة؟ ندعوك إلى شركة الحياة، فلماذا تُفلِت منك هذه الفرصة؟".

ومن ناحية أخرى قرأ في إحدى رسائل القديس إغريغوريوس: "لكن هل تعيش في العالم وتتدنَّس بالأعمال العامة، وتتألم لضياع رحمة الله؟ إن العلاج بسيط، اهرب مِنَ الاجتماعات غير اللائقة واربط بنفسك ريش النسر، أو بعبارة أصح ريش اليمامة. ما هي الشركة بينك وبين قيصر أو أعمال قيصر؟ سوف تقف حيث لا توجد الخطية ولا يوجد السواد. حيث لا يوجد الثعبان الذي يلدغ في الطريق ويعوقك عن السير في طريق الرب. انزع روحك مِنْ هذا العالم. اهرب مِنْ سدوم، اهرب مِنَ الحريق، اِتخذ طريقك دون أن تنظر إلى الوراء خوفًا مِنْ أن تتحول إلى عمود ملح. اهرب على الجبل خوفًا مِنْ أن تهلك أنت أيضًا".

فلما سمع هذه الكلمات صار قلقًا للغاية لأنه لم يكن بعد قد أخذ العماد الإلهي حسب عادة بلده. وكانت هذه العادة متأصِّلة فيهم مثل قانون، وهي ألا يُعمَّد أحد قبل نمو لحيته إلا إذا اضطره الموت.

وروى الأب زكريا أن صديقه إيفاجريوس كان يؤنِّبه بشده قائلاً: "*لماذا يتأخر ساويرس هكذا عن أن يعتمد وبعد ما حصل على هذا العلم؟*" وذكَّره إذا كان يهتم بخلاصه فليفعل بحيث ينال النعمة الإلهية فورًا.

ويقول الأب زكريا:

وبعد هذا الحديث ذهبت إلى ساويرس وأبلغته بكلام التقي إيفاجريوس. فراقه حديثه وصمَّم على التنفيذ فورًا وانطلق إلى كنيسة لاونديوس الشهير في طرابلس الشام حيث اعتمد وكان إيفاجريوس أشبينًا له. وكان كاهن الكنيسة يُدعى القس ساويرس أيضًا.

وذهبنا أنا وإيفاجريوس وأليشع وأناطوليوس وزينودور وآخرون مع ساويرس إلى كنيسة الشهيد لاونديوس.

وفي هذه اللحظة اقترب إلى الله بإيمان عظيم، ومجَّد الناس الله بسببه.

وبعد اليوم السابع كان عليه أن يخلع الملابس البيضاء التي ترمز إلى النقاء والطهارة، حسب العادة وقتئذ.

أما الأب أثناسيوس،[13] فقد روى عن قصة عماد القديس ما يلي:

وإذ خرج القديس مِن مدينته، كانت نعمة الله معه، وكان هناك رجل متقدِّم في الروحيات قريب مِن تلك المدينة ويُدعى أليشع، فلما قرب إليه

[13] عن الحبشية الإنجليزية، وعن مخطوطة دير السريان رقم ٢٩٩ ميامر.

الأب ساويرس، خرج المتوحِّد للقائه مسرعًا، ولما قرب منه قال له: ''*يا ساويرس، يا ساويرس. افرح افرح يا بطريرك، يا رئيس جميع الأساقفة*''. فلما دخل بيعة الشهيد ابتدأ يصلي ونام في موضع مِنَ البيعة وكان معه في تلك الليلة أربعة مِن أصدقائه تلاميذ الفلسفة، وقد صار أحدهم أسقفًا في وقت ما ثم خالف الأمانة المستقيمة وردّه القديس ساويرس بكتبه ورسائله.

هؤلاء الأربعة رأوا في وقت واحد كأن لاونديوس الشهيد قائمًا أمامهم مثل أمير جبّار، وكانت المنطقة التي يتمنطق بها مُرصَّعة بالجواهر، ولما نظروه بهذا المنظر خافوا، فقال لهم: ''*لا تخافوا*'' وعندئذ غاب عنهم الشهيد الجليل.

وبالغداة قبل شروق الشمس، دخل قس البيعة ودعاهم بأسمائهم، وقال: ''*تفرح يا ساويرس، ويفرح الحكماء الذين معك أيضًا، إن الله سيُخلِّص على يديك يا ساويرس نفوسًا كثيرة، وقد أنعم عليك بهؤلاء الثلاثة أصدقاء. وينبغي أن تنال المعمودية لتعمل بنعمة الله وتكون منيرًا بالفضائل، ليس في الوصايا فقط بل وفي العلم أيضًا*''. ثم قاموا وتبعوا القس واعتمدوا.

ولما قرب وقت الاعتراف بالأمانة ليدهنوا كما جرت العادة بالدهن الجليل، نظر كل القيام بإعلان يدًا فوق المعمودية نازلة على رأس ساويرس،

وسمع جميع الشعب صوت يقول "**مستحق، مستحق، مستحق**"، فتعجَّب الكل، وقالوا: "*ما رأينا قط لمن تعمَّد مثل هذه الآيات، ولا مثل هذا الصوت الإلهي*". فلما اعتمدوا ولبسوا ثياب المعمودية المُعدَّة لهم كعادة أهل الشام، وكان في ذلك الزمان لا يعتمد إلا من كان عمره ٣٠ سنة إلا إذا مرض قبل ذلك ويُخاف عليه مِنَ الموت. فلما كملت لهم سبعة أيام بعد المعمودية، انطلق كل واحد إلى سبيله.

بعد نوال ساويرس نعمة العماد، تقدَّم في الروحيات جدًا على مثال أبيه الروحي. فكان يصوم كل يوم ولا يقضي في الكنيسة وقت صلاة المساء فقط، لكن يقضي فيها أيضًا معظم الليل، حتى ضعف جسده. وفي نفس الوقت كان يتعمَّق في دراسة القانون، ودرس الحقوق كأكثر ما يكون الدرس.

وانطلق بعدئذ إلى بلده واشتغل بالمُحاماة زمانًا، ثم قرَّر أن يمضي إلى أورشليم لزيارة الأماكن المقدسة، وهناك أخذ يتعبَّد لله مِن كل قلبه، وأخذت فكرة التكريس لخدمة الله تراوده بقوة، وأخذ يُفكِّر جديًا في استبدال ثوب المُحاماة بثوب الرهبنة المقدس.



الفصل الخامس

رهبنته

رؤى بشأن القديس:

(١) رؤية ساويرس للشهيد لاونديوس عن رهبنته:[١٤]

إن القديس ساويرس بينما كان يقرأ في كتب الفلسفة، ظهر له الشهيد لاونديوس، وقال له: "حسبك هذه القراءة، هلم اتبعني لكي تتعمق في دراسة قوانين الله التي كان يقرأها الآباء حتى أيام نياحتهم. انهض يا ساويرس، وأعِدَّ نفسك للعمل الجديّ في الكنيسة، واسلُك في الرهبنة لتعرف الجهاد بقوة، واحمل تُرس الإيمان الذي به تقدر أن تُطفئ جميع سهام الشرير الملتهبة، وخذ خوذة الخلاص وسيف الروح الذي هو كلمة الله (أف٦: ١٦، ١٧)، وعند ذلك تُطفئ نار الهراطقة وتقاوم الأرواح النجسة. إنك سوف تمضي إلى أنطاكية وتصرخ مثل أسد زائر، وتهرب مِن أمام وجهك الجموع المُقاومة للإيمان.

وعليك الآن بالاهتمام بدراسة كتابات القديسين باسيليوس وإغريغوريوس ويوليانوس وإغناطيوس وأثناسيوس الرسولي وألكسندروس

(١٤) عن النسخة الحبشية الإنجليزية.

وإبيفانيوس وكيرلس الحكيم وديسقورس العظيم". وبعد أن خاطبه لاونديوس الشهيد بهذا الكلام، انصرف عنه.

(٢) **رؤيا أحد المتوحدين عنه:**[١٥]

(أ) ويهمنا أن نذكر الرؤيا الإلهية التي رآها أحد النساك بخصوصه في بيروت. وذلك أنَّ أحد المتوحدين الذي يسكن خارج المدينة وكان مشهورًا بعلمه للمستقبل وبنسكه، رآه في حلم مُمسكًا (كوريكًا) في يده وينظِّف نافورة مملوءة بالطين والنتن. وكان ساويرس قد أتى إليه لكي يصلي، فعرفه حالما رآه بسبب الرؤيا التي كان قد رآها، وقال للذين كانوا معه: "*هذا* سوف يصير عظيمًا بين *الحكماء، شهيرًا بين الأساقفة. سوف يُطهِّر الأرض مِنَ الهراطقة*".

(ب) رؤيا أخرى عن القديس:

إنَّ الروح القدس أيضًا أعطى العلمانيين موهبة التنبؤ عنه، فحينما كان لا يزال يتردَّد على مدرسة الإسكندرية، حدث أنَّ رجلاً مشهورًا بين كل الناس بطهارة سيرته وقوة إيمانه وكرم طبعه ومحبته للعفة والفقراء، وبالاختصار كان مسيحيًا بالعمل والحق، وكان يُدعى ميناس. هذا لما رأى ساويرس تعجَّب وقال لبعض أصدقائه:

(١٥) عن سيرة القديس للأب يوحنا القمص.

"هذا سوف يرتفع مثل السحاب فوق كل الأرض، وسوف يتألّق نوره بين الأساقفة، وسوف يسقي جميع الناس مياه المعرفة مثل الكبير يوحنا ذهبي الفم بطريرك القسطنطينية". وقد تأكَّدت هذه النبوات وغيرها التي قيلت بشأنه.

رهبنة القديس:

قليلاً قليلاً رفعته النعمة الإلهية، وارتقى في السيرة الطاهرة الملائكية وقرر عزمه على الرهبنة والاِنطلاق إلى إحدى الديارات للإقامة فيها.

كان يُصلِّي إلى الله ليعينه على خلاص نفسه، وكان يداوم ليل نهار على ذلك، كما كان يُطالِع الكتاب المقدس بلا انقطاع متذكِّرًا أنَّ مخلصنا لم يسمح لأحد تلاميذه أن يدفن أباه، وقد دعا الذين يحيون للعالم أمواتًا لأنهم لا يشتركون في حياتهم الحقيقية. قرر أن يخرج مِنَ العالم واِتخذ طريقه إلى دير الشهيد لاونديوس.

ذهابه إلى دير الشهيد لاونديوس:

اِنطلق إلى دير الشهيد لاونديوس بفلسطين – بالقرب مِن طرابلس الشام سنة ٤٨٨م – الذي كان مشتاقًا للخروج إليه خصوصًا بعد الرؤيا التي ظهرت له، كما انضم إليه في هذا الدير بعض أصدقائه ممن كانوا يتعلمون معه الفلسفة. وسرعان ما تقدَّم في ميدان الحرب الروحية، كما تقدَّم في

القديم داود – كلاهما بيده سيف: داود بالمقلاع والحجر تمكَّن مِن ضرب الفلسطيني وقتله، وساويرس في شدة مقاومته للهراطقة. كان الله معه وبقوة رسالة الإنجيل قاوم اضطهاداتهم.

وهكذا ترك المُحاماة واختار الأعمال الرهبانية والفلسفة الروحية، وكما كان مُتضلِّعًا في البيان وعلوم اللغة، ومُتبحِّرًا في الفقة والمُحاماة، كان يتعمَّق في بحث الأسفار المُقدسة، ويُمعن في التنقيب في كتب الآباء القديسين.

وبعد أن مكث زمانًا في دير الشهيد لاونديوس، التهبت روحه واشتاقت نفسه للتوغل في حياة البر والقداسة، واختار طريق التوحُّد في الصحراء كما اختاره أعاظم القديسين – أولئك الذين سكنوا الجبال والمغائر وشقوق الأرض مِن أجل عِظم محبتهم في السيد المسيح.

توحُّد القديس في صحراء إيلوتير وبوليس:

ذكرت النصوص اليونانية المُتعلِّقة بالقديس في Patrologia Orientalis. Tome III fasc. I& III **والمُترجمة للفرنسية عن توحُّده:**

أما ساويرس فبعد أن احتمل بشجاعة الفلسفة الإلهية لمدة ما في دير الشهيد لاونديوس، اجتذبه حب الأماكن المُقفرة وحياة التوحُّد التي أنشأها أنطونيوس الكبير (أو آخر يُشبهه في الفضيلة) فترك مقر الحياة

المُشتركة وذهب إلى صحاري إيلوتيروبوليس "Eleutheropolis" وكان يصحبه أثناسيوس الذي مِنَ الرها، والذي كانت له ذات الحمية وذات الحماس. وتحمَّل شظف العيش زمانًا قام فيه بأعمال تقوِّية للغاية وتقشف تقشفًا زائدًا، وأحب هذه الحياة الصعبة والشاقة، وهي عنده مِن أجل السيد المسيح هيِّنة ميسورة.

وروى القمص يوحنا رئيس دير أفتونيا عن توحُّده ونسكه، قال:

رغبة مِنَ القديس في النسك الزائد وفي الهدوء الذي هو باب التأمل ومنه نشاط الروح الذي به يرتبط الإنسان بالله، ترك ديره وانطلق إلى الصحراء القريبة مِن إيلوتيروبوليس، وهناك حقَّق رغبته وتوسَّع في نسكه. وكان يُتعِب جسده بالصوم والسهر ودراسة الكتب المقدسة وبالعمل حتى مرض. وكان شعلة حماس وغيرة حتى إبان مرضه، وكان يكتب أقوالاً رسولية في شرح مُستفيض، منها:

أ) بقدر ما يفسد إنساننا الخارجي، بقدر ما يتجدَّد الإنسان الداخلي.

ب) المسيح هو حياتي، والأفضل أن أموت.

ت) حينما أكون ضعيفًا، فحينئذ أكون قويًا.

ث) إن الذين وجب عليهم أن يخوضوا الحرب يحتاجون أن يكونوا أقوياء وأصحَّاء، فكم يكون على الذين ليس عليهم أن يُجاهدوا ضد الدم

وضد الجسد فحسب، بل ضد الأرواح الشريرة، أن يقمعوا جسدهم لأنه يعمل أكثر مِنَ الشياطين ضد النفس، وهو سلاح في يد الشياطين ضد الروح إذا لم يُقمَع.

اِنطلاقه إلى دير رومانوس الشهير:

وبعد أن توحَّد في البرية فترة مِنَ الزمن ومارس تقشفات عنيفه، هزل جسمه وانتابته الأمراض، فمضى إلى دير رومانوس حيث مجمع الإخوة القديسين، وهناك أخبر بواب الدير الآباء رومانوس وفلخيلوس ويوحنا، وقال لهم: "*بالباب فيلسوف يُدعى ساويرس يريد أن يُقيم معكم*". فلما سمع رومانوس اسم ساويرس الفيلسوف قام مسرعًا وكل مَن معه وخرجوا للقائه، وما أن وقع بصره عليه حتى ابتدره قائلاً:

"*افرح يا راعي الأنفس ومُدبِّر الأجساد، أنت دُعامة للحق، أنت إيلياس الذي هدم صنم البعل. تقوّ يا ساويرس، الرب معك. وأنَّ الذي أنت عبد له قد أظهر لي عملك وعِلمك في هذه الليلة ومقدار كرامتك*".

رؤيا رومانوس:

أما رؤية رومانوس، فرأى كأنه في صحراء لا زرع فيها ولا حرث مملوءة شوكًا وحسكًا، وما لبث أن رأى امرأة جميلة كانت دموعها تجري على خديها وصدرها، وثيابها مُهلهلة وممزقة وهي حزينة باكية، وبينما كان واقفًا كان اضطراب عظيم، وسمع مَن يقول لرفيقه: "*هوذا يأتي ساويرس ليقتلع*

الشوك مِن هذه الأرض ويُقدّس كرمًا لرب الصباؤوت". وخاطبوا المرأة قائلين: "*لا تخافي أيتها المدينة أنطاكية، هوذا سيأتي ساويرس رجل مستقيم، وسيبني على أساس المجامع المقدسة*". وسألت المرأة مَن كانوا يحدثونها: "*ومتى يأتي ساويرس؟*" قالوا لها: "*إلى الآن لم تشبه خطايا مجمع خلقيدونية، وسيأتي بعده*".

هذه هي رؤية رومانوس، وسيشـرق ساويرس مثل الشمس، فيُنير مصباح الإيمان الأرثوذكسي ويُضيء علينا، ولن يضطرب مِن اضطهادات الحكام ولا يُبالي بمجمع خلقيدونية، وسيكون كل أضداده أمامه كلا شيء.

وكان المغبوط ساويرس حزين القلب لِما سمعه، وقال لهم: "***إن كلامكم قد أقلقني، لأن الإنسان يجب أن يحزن إذا أُكرم أكثر مما يستحق، وأن الله عارف ذنوبي. إني بائس أكثر مِنَ الكل، وقد ظهرت أمامكم هكذا بسبب المعمودية التي نلتها، ولولا ذلك لما قدرتم أن تنظروا إليّ لكثرة أعمالي الرديئة.***[١٦]

تعلمون أنه لم يُولد إنسان في هذا العالم بلا خطية غير الكلمة الذي تجسَّد وصار إنسانًا لأنه هو الله وهو الإنسان معًا، وهو واحد لا اثنين، فأما أنا فرجل خاطئ أكثر مِن جميع الناس".

فلما سمعوا كلام القديس المتواضع، قبلوه بفرح كمَن وجد كنزًا في حقل.

---

(١٦) المخطوطة القبطية Paris Ms. Copte 129.

واندمج الأب ساويرس في سلك الرهبنة ورأى عمل الإخوة وفرح جدًا، وكان ينفرد للعبادة والصلاة.

أما عن استقبال رئيس الدير رومانوس له، فكان كما يستقبل الأب ابنًا عزيزًا، وكما استقبل إيليا أليشع (١مل١٩:١٩-٢١). وكما استقبل بولس تيموثاوس (أع١٦:٣) وابتدأ يرشده إلى العمل والصلاه. بَيْدَ أنَّه كان مِنَ الصعب على ساويرس أن يُباشِر عمل الرهبان المُعتاد هناك لأنه كان رقيق الجسم. وكانت حياة الرهبنة وقتئذ صعبة، فكان الرهبان يقضون كل وقتهم تقريبًا في الصوم وينامون على الأرض ويسهرون طوال الليل ويُصلون بمداومة ويواظبون على حضور القداسات، إلى جانب ذلك كان العمل اليدوي ليعولوا أنفسهم ويساعدوا الفقراء، وكان كل منهم يتأمل في الكتب المقدسة، وكانت طهاراتهم عظيمة.

كان ساويرس منهوك القوى بسبب حياة الوحدة القاسية التي كان يحياها، فنصحه الإيغومانوس رومانوس رئيس الدير أن يُخفِّف مِن نسكه وتقشّفه ويهتم بجسده حتى يستطيع أن يُمارس الفضائل، وأقنعه بإتباع هذه الطريقة.

وكان القديس ساويرس رغم مرضه يعمل باجتهاد حسب طاقته، ولم يكن يحتقر العمل اليدوي، بل يوجِّه إليه عنايته لكي يوفر الضروري للفقراء والغرباء الذين يَفِدون إلى الدير. وكان ينصح الإخوة الرهبان

بالمثابرة على العمل وأن يتشبَّهوا ببولس الرسول الذي كان يقول لتلاميذه إن حاجاتي وحاجات الذين معي خدمتها هاتان اليدان.

كان يعمل ويُخاطِب ذاته وهو يعمل قائلاً: "***ما أنت إلا تراب وعمّا قليل سوف تسكن القبر، فدع عنك الكسل فهو يؤدي بنفوس كثيرة إلى الجحيم، وجيد أن تكون نشطًا مُجاهدًا لأجل السيد المسيح لكي ترث ملكوت السموات***".

وكان ينمو كل يوم كما كان صموئيل النبي، كمثل شجر لبنان، وكان نشطًا في جميع أعماله، لم يهمل في أمر ما البتة. وكان محبوبًا جدًا من إخوة الدير حتى أنهم كانوا يدعونه الأب ساويرس.

رؤيا راهب عن الأب ساويرس:

قيل إنه عندما كان الأب ساويرس في الدير مع الإخوة، كان هناك راهب يثابر على فعل الخير في غير توانٍ، ويُقيم صلواته نهارًا وليلاً، وكان قوي الحفظ. فبينما هو قائم يُصلي مرة ظهر له ملاك الرب، وقال له: "*انظر إلى هذه الأرض وتأمل ساحة الدير ترَ ما فيه*". عندئذ رأى الراهب رجلَيْن يمشيان نحو ساويرس، لا يقدر أحد أن ينطق بكرامتهما وإشراق وجوههما، فكانت تلمع مثل الضوء الساطع، ورآهما يتحدَّثان مع ساويرس ويُعلِنان سر الأمانة الأرثوذكسية، وكل كلمة قالاها كان ساويرس يقبله بإتضاع ويشكرهما لإرشادهما إياه إلى الأمانة الأرثوذكسية.

هذا ما نظره الأخ الراهب، وقد قال للملاك الذي أطلعه على هذه الرؤيا: "*يا سيدي. مَن هما هذان الحكيمان اللذين يُخاطِبان الأخ ساويرس وهو متضع لهما؟*" قال له الملاك: "*إنَّ أحدهما هو باسيليوس الكبير والآخر هو إغريغوريوس الناطق بالإلهيات، وإنهما يُرشِدان ساويرس إلى قواعد الإيمان لأنه سوف يكون حارسًا للإيمان المستقيم، وبعد زمان يرعى شعب عظيم في أنطاكية وفي المسكونة كلها*".

وذاع صيته مثل سحابة في الشرق والغرب، وهذا شأن الفضيلة تتبعها الشهرة بأعمالها الجميلة، فكان كثيرون مِن رجال الدين والرهبان يعرضون عليه المسائل في تفسير الكتب والعقيدة، بخطابات أو بأنفسهم، وكان يُعطي الجميع دون صعوبات الحَل الذي يتفق وما يطلبون.

رهبنة بعض أصدقاء أنبا ساويرس:

ولما علم الكثيرون مِن أصدقاء القديس ساويرس بقصته، تركوا العالم ولحقوا بالدير ليتعلموا الفلسفة الإلهية. فقد ذكر أنَّ ستة مِن زملاء القديس مضوا إلى الدير حيث لبسوا الرداء الرهباني واحتملوا أتعابًا كثيرة وأتقنوا الفضائل.(١٧)

(17) Patr. Orientalis Tome II fasc. I & 38.

وذُكر أن شابًا مِن قيصرية فلسطين يُدعى بطرس مِن عائلة معروفة، وكان ضليعًا في البلاغة والبيان، إنطلق إلى الأب ساويرس راجيًا أن يقبله تحت طاعته، ولكن ساويرس أشفق عليه ونصحه أن يعود إلى أهله، ولكن الشاب في تصميم كامل عزم على دخول الدير، فتعجَّب القديس ساويرس جدًا مِن قوة عزيمته وحماسه وتشاور بشأنه مع الآباء الرؤساء يوحنا المُلقَّب بالكانوبي (نسبة إلى أبو قير الحالية) وتيودور الكبير، ويوحنا الذي هرب مِن أنطاكية لكي لا يصبح فيها أسقفًا ... فأوصاه هؤلاء[18] بأن لا يرفض النفوس التي قدَّمت ذواتها لله بهذا الفرح.

---

(١٨) **ذكر كاتب سيرة القديس ساويرس القمص يوحنا مِن بيت أفتونيا عن هؤلاء ما يلي:**

"سامحني يا رجل الله دومادبوس إذا كنت أخرج هنا عن الموضوع قليلاً، وإذا كنت أرغب في أن أروي القليل عن هؤلاء الرجال الجديرين بالإعجاب. إنَّ تيودور كان قد ترك هذه الحياة قبل وصولي بوقت قليل. أما يوحنا الأنطاكي فكان في مركز حرج للغاية. وقد عرفت أيضًا رؤساء الدير أليشع واستطفانوس وفيلبس. وكانوا فصحاء متضلعين في العلوم، وقد امتازوا باهتمامهم بالحقوق، وفي هذا الوقت نالوا شرف الكهنوت.

ومرض أحدهم وهو استفانوس مرضًا خطيرًا وترجّى الأب يوحنا الكانوبي أن يُصلي ليخلصه الرب مِن جسده، ليس ليأسه مِنَ الشفاء لكن لأنه كان مُتعجّلاً في ذهابه إلى يسوع الذي يحبه، فحزن الشيخ جدًا لهذا الطلب وقال له إنَّ إخوته لا يزالون يحتاجون إلى وجوده ومساعدته لا سيما وأنهم كانوا في أشد الاضطهاد.

ولما كان يطلب إليه كثيرًا، قال له يوحنا: "لماذا تتعجّل أن تتركنا يا ولدي؟" فرد عليه استفانوس: "إنه يليق أن أذهب وأكون مع المسيح". فقال له يوحنا مرة أخرى: "ألك حياة حسنة؟ أأنت مستعد

وليس هؤلاء فقط بل أقبل آخرون مِن مدن أخرى طالبين حمل نير الرهبنة، وهكذا ذاع صيت أنبا ساويرس في القداسة وجذب نفوسًا كثيرة.

القديس ساويرس يُشيِّد دير قرب غزّة

بعدما استقر زمانًا طويلاً في دير الشهيد رومانوس وبعد الإبلال مِن مرضه، اشتاق إلى الهدوء الذي كان ينشده. ذلك هو الخير للرهبان. وإذ كان

للرحيل؟ ألا تخشى الذين يُقابلون الأموات ويحاولون أن يأخذوهم؟'' ولما أجاب استفانوس على كل الأسئلة بأن له ثقة، كانت صلاة واحدة كافية لكي ينال الخلاص.

ولما استعلمنا بخصوص الأحداث الخاصة بتيودور العظيم، روى لنا الآباء الذين شاخوا روايات كثيرة. ولن أذكر منها سوى واحدة لكي لا أطيل الحديث كثيرًا.

في ذات يوم كان يمر بجانب قلاية أخ ناسك مُحب لله، فاشتم رائحة لذيذة. فنادى في الحال هذا الأخ إليه وقال له: ''لماذا تُعطِّر هكذا قلايتك وتصنع مثل هذه الروائح التي لا تليق بسلوك الرهبان؟'' ففي تواضع عظيم قال الأخ إنه أخطأ وانطرح على وجهه أمام رجلي القديس. أما هذا فلم يتركه دون عقاب، ولكنه حكم عليه بأن يبقى أسبوعًا كاملاً دون طعام مع السهر طول الليل.

فأخذ الأخ هذا التأديب كأنه أمر أبوي، ولكن الله الذي يريد أن تبقى فضائل عبيده المستقرة مجهولة، أعلن للشيخ سر هذه الرائحة الذكية، فأحضر مِن جديد الأخ إليه وأرغمه أن يقول له ما خبّأه عنه. فرد الأخ: ''لم أعطِّر قلايتي أبدًا كما افتكرت أيها الأب المُبجَّل، ولكن في وقت مرورك كان بطرس الكبير قد حضر إليّ مادحًا أعمالي وأتعاب حياتي''.

هذه إحدى الروايات العديدة التي يروونها عن تيودور الكبير، وأيضًا كان تواضع أليشع يفوق كل ما يُمكن أن يُقال. فالكلام فعلاً يقصر عن مدح مَن تزيَّن بالتواضع.

رآه أحد الأتقياء مرة وتعجَّب مِن حلاوة طبعه، فقال مُشيرًا إليه أمام الحاضرين: ''هذا هو آدم قبل الخطية''.

قد اقتسم مع إخوته ثروة والديه الكبيرة وزع جزءًا منها على الفقراء وشيَّد بما تبقّى ديرًا بالقرب مِن دير آبائه بجهة مايوما Maiouma قرب غزّة – وبنى قلالي لاستقبال الغرباء، وكان كثيرون يأتون إليه للإستفادة مِن تعاليمه ومِن كلمات النعمة التي كان موهوبًا بها، وعاش كثيرون في طاعته، ومما لا شك فيه أنَّ كثيرين مِن أصدقائه انضموا إليه إذ جذبتهم سيرته الطاهرة وفصاحته النادرة، وقد ذاعت في جميع بقاع فلسطين.





الفصل السادس

جهاد القديس في حفظ الإيمان المستقيم

بعد أن تعبَّد القديس سنين طويلة في الأديرة وفي الصحاري ورأى ما حدث مِن الإنشقاق والمحاربات الكثيرة للكنيسة مِنَ الهراطقة، صمَّم أن يخرج مِن عزلته وينطلق مِن وحدته ليُدافِع عن الإيمان المستقيم كما فعل القديس العظيم أنبا أنطونيوس، إذ ترك عزلته وجاء إلى الإسكندرية مرتَيْن ليُشدِّد عزائم المؤمنين، وليدحض بدعة أريوس الكافر، كما اِنطلق الأنبا شنودة رئيس المتوحدين مع القديس العظيم كيرلس الكبير إلى مجمع أفسس لمحاكمة نسطور المبتدع.

قيل عنه إنه مضى دفعة ليستقي ماء، فحمل الوعاء على كتفه ومضى، فلقيه الشيطان في شبه رجل أسود أعرج وهو يمشي قدامه ويديه على رأسه وهو يبكي بصوت عالٍ ويقول: "إني أقمت قلقًا عظيمًا واضطهادًا قويًا حتى تسبَّبت في إراقة دماء بريئة – وفي البغضاء والقتل والزنى جلبت ويلات كثيرة، وأقمت إنشقاقات في الكنيسة، وقاومني إغريغوريوس ثاومادرغُس [ⲡⲓⲑⲁⲩⲙⲁⲧⲟⲩⲣⲅⲟⲥ] وأثناسيوس الرسولي وباسيليوس وإغريغوريوس وإغناطيوس وألكسندروس وكيرلس ودبسقورس، لكني أخيرًا بنيت فلكًا أصنع فيه ما يرضيني، وهو المجمع الخلقيدوني – واليوم جاء ساويرس

الأسد المُزمجر وسيغلب التنين ويسحق رأسه وأنا هو هذا التنين...

تسببت أوذكسيا [أو افدوكسيا] في اضطهاد القديس يوحنا ذهبي الفم، واضطهدت بلخاريا القديس ديسقورس، أما ساويرس فيريد أن يخرجني، نظر القديس هذا وسمعه مِنَ الشيطان، فقال له: "الله يزجرك" وعند ذلك مضى عنه الشيطان.

(١) مقاومة يوليانوس الهرطوقي:

وعن النسخة الحبشية الإنجليزية، قيل إنَّ يوليانوس(١٩) الهرطوقي كتب رسالة إلى الأب ساويرس جاء فيها:

"... ولو أني لم أرَك ولم أقابلك منذ الأيام التي أقمت فيها معك في Tiberias فإني أرغب في أن أراك الآن، وقد بلغني عنك أنك تركت تعقُّلك الأول وحكمتك التي تعلمناها سويًا، ويقولون إنك تركت عنك تعاليم مجمع خلقيدونية ونبذتها، وتبعت مجمع المائتَيْن بأفسس وتعاليم كيرلس، وديسقورس الذي نُفي وقُطع لأنه قاوم تعاليم بابا رومه ليو "Leo"، فانتبه إلى نفسك، وكن يقظًا وانظر إلى المجد الذي تركته، فالشيطان يدخل في قلوب الرهبان يقلقهم، مُريدًا بذلك أن يقطع رجاءهم مِنَ الراحة والاستقرار الذين هم فيه، فيحركهم لمثل هذا العمل، وقد كتبت لك هذا وأنا أكبر منك سنًا في سلام الرب، آمين...".

---

(١٩) من القسطنطينية وقد حرمه البابا تيموثاوس البطريرك.

ثم أن الأب ساويرس الغيور إيليا الثاني ثار لمجد رب الصباؤوت حالما قرأ هذا الخطاب، وتبيَّن فيه مقاومته للسيد المسيح، فردّ عليه ردًا مطوّلاً مُعنِّفًا إياه على مسلكه، ومُبيِّنًا ضلاله.(٢٠)

(٢) تجديف "كالكسيليمُس":

وانطلق آخر بتجديفات كثيرة، وكان يُدعى Kelikselimos (٢١) وأعلن أنه سيحارب الروح القدس، وقد ردّ عليه ساويرس ردودًا مُفحِمة مُحرِّمًا اعتقاداته، وأنذره كما أنذر يوليانوس وسائر الهراطقة أتباع الشيطان مُبيِّنًا عاقبة ضلالهم.

(٣) إرجاع ديونيسيوس عن ضلاله:

بعد هذا قام آخر يُدعى ديونيسيوس الفيلسوف المُتجبِّر، وكان ساكنًا معه في الدير، وأتى تعاليم مُخالفة. فلما سمع به القديس ساويرس ردّه عن طريق ضلاله وأعاده إلى الإيمان الصحيح مثل صيَّاد ماهر.

طلب ساويرس لقاءه، ولكنه خاف لئلا توبِّخ أعماله المنافقة، فهرب مِنَ الدير إذ كان ساويرس كالأسد في قوة حُجَّته، وكان ديونيسيوس يقول:

---

(٢٠) في صحيفة ٦٠٩ وما بعدها من النسخة الحبشية الإنجليزية، كذا في مخطوطة دير السريان ٢٩٩ ميامر، وجدنا ألفاظًا واردة لا نعتقد أن القديس فاه بها كقوله: كيف أوقرك أيها العجوز الشرير والخبيث والمجنون الذي منذ صباه لم يدخر شيئًا مِنَ الصلاح لشيخوخته... إني أرى أنك أطلقت لسانك كالحية ضد القديسَيْن كيرلس وديسقورس حَفَظَة الإيمان.. وأنك تختم رسالتك بالسلام والسلام بعيد عنك.إلخ.

(٢١) في الحاشية ذكر أن المقصود هو "Felicissimus".

"إذا وقعت في يده وعرف فعلي فسيضطهدني"، ولذلك خرج مِنَ الدير. لكن الله المُهتم بكل أحد لم يشأ أن يهلك هذا الإنسان ويضيع تعبه، فما أن ابتعد عن الدير نحو ميل حتى رأى في رؤيا جماعة مِنَ الشياطين مُتفرِّقين يُقاتلون مثل البربر، فقلق قلبه وحزن ولم يستطع المُضي معهم. وإذ وقف بعيدًا ينظر إليهم، ظهر له ملاك الرب بهيئة راهب، وقال له: "لماذا تركت طريق السلام وسقطت في وسط هذا الدمار ... إرجع إلى بيتك والله يريحك ولا تستحي أن تُظهِر خطيتك، فإنه لن يدينك ولن يلحق بك ضررًا، وستجده في لقائك في منتصف الطريق. إنَّه طيب القلب يُسرّ جدًا بكل الذين يرجعون إلى المعتقد القويم".

للحال عاد ديونيسيوس أدراجه إلى الدير حيث تقابل مع ساويرس. **قال له الأب ساويرس على الفور متنبِّئًا:** "حسنًا إذ قابلت رجل يخاف الله"، فردّ ديونيسيوس إن ذلك كان بتدبير مِنَ الله وأنه لم يقع في أيدي اللصوص.

وقال له ساويرس أيضًا: "امرأة كان بها شيطان قد قتل لها سبعة أزواج، أخذه هذا الرجل الذي رأيته وربطه بالسلاسل وبقيت المرأة مع رجلها سالمة. وفتح عيني إنسان أعمى بمرارة سمكة".

فقال له ديونيسيوس: "أين مسكنه؟ وما اسمه؟ حتى أمضي إليه وأخذ بركته" **قال له ساويرس:** "مسكنه في السماء واسمه رافائيل – أما الحرب التي رأيتها بين هؤلاء القوم فهم الشياطين الذين يُحاربون في الهواء.

فلما قال هذا الكلام سُرّ جدًا، ثم علَّمه الأب ساويرس الاعتراف الصحيح وأزال عنه كل الأفكار والمعتقدات الرديئة.

(٤) رجوع أناستاسيوس إلى الإيمان المستقيم:

خرج ساويرس ذات مرة وسار في الطريق للقاء الملك، وعلم بذلك أسقف إحدى المدن ويُدعى أناستاسيوس، ولم يكن يعرفه، وكان ساويرس ممتطيًا دابته، وفي الطريق وجد عين ماء في وسط الغابة، فركن إلى الراحة قليلاً.

وكان أناستاسيوس هاربًا في ذلك الطريق مِن وجه القديس ساويرس ومعه آخرون، فلما رآهم ساويرس مِن بعيد قال لخادم الملك الذي معه: "اذهب إلى الأسقف وأخبره بأني أرسلتك إليه". وحدث أن اقترب أناستاسيوس ومَن معه مِن عين الماء ليشربوا، **وضجر أناستاسيوس وثار وابتدأ يُهاجِم مقدونيوس ويقول** ليكن هذا الإنسان مستوجبًا الحرق بالنار لأنه أثار علينا هذا الأسد مِن عرينه ليُخرجنا مِن مدينتنا مُشيرًا إلى ساويرس كأسد. أثارتنا كتاباته لما كان في ديره وقضت علينا مضاجعنا.

قال له الرسول: "عندك أن ساويرس رجل عظيم إلى هذا الحد؟"، **قال أناستاسيوس**: "لم أر وجهه قط، بل رأيته في هذه الليلة في رؤيا، وقد دخل مدينتي وأحرق البيعة وكل كتبها وصنع بيعة جديدة وعمل ترتيبًا جديدًا كمَن له سلطان". وكان ساويرس يسمع كلامه هذا.

ويأتي واضع السيرة بهذا الحوار، **فيقول الرسول لأناستاسيوس**: "إن كان منظره في المنام قد أخافك، فإذا رأيته في اليقظة كيف يكون حالك؟" **ويرد عليه أناستاسيوس قائلاً**: "لقد تركت مدينتي حتى لا أنظره، وقد علمت أنه خرج من ديره ومعه أمر مِنَ الملك بإمضاء قوله أنه قطعًا يُهلكنا إذا وجدنا لا نوافقه" وكانت هذه إجابته:

"إن ساويرس لم يهلك أحدًا قط، بل أنَّ كلامكم وقصصكم وتعاظُم قلوبكم يُهلِك نفوسكم كالعدو المُتأهِّب للقتل في كل زمان. هكذا كل مَن يتخلّى عن طريق الله، فليس هذا الموت الذي ينالكم بشيء بل الموت يكون وقت سماعكم قول السيد الملك الحقيقي: ابعدوا عني يا ملاعين إلى النار المؤبدة ... هؤلاء هم الذين جعلوا نصيبهم مع الوثنيين ... إن كل إنسان إنما يقتني لنفسه برأيه ما يريد أن يقتنيه إن خيرًا وإن شرًا، إمَّا موت وإمَّا حياة، كل واحد منا سحب عزيمته وإرادته ... أنتم فعلة الظلم وقد أنكرتم وحدانية السيد المسيح...".

ثم حدَّثه ساويرس كثيرًا عن تركه الإيمان الحقيقي وأبان له أن باب التوبة مفتوح له، كما قال الرسول أن الله فتح باب المعرفة للأمم، **قال**: "الآن يا أناستاسيوس هوذا باب التوبة مفتوح لطالبيه في كل زمان ... ".

فاقترب إلى ساويرس وقبَّله وكتب بيده الأمانة الأرثوذكسية رافضًا مجمع خلقيدونية ومعترفًا بالإيمان الصحيح وأمانة الثلاثمائة والثمانية

عشر المجتمعين بنيقية ... وكان الأب ساويرس قد قال له أن يكتب الأمانة المستقيمة بيده عن الثالوث، ويقول فيها "أؤمن بالآب والابن والروح القدس المُساوي، وفي وحدانية لاهوتية بلا افتراق ولا تبديل لمجدها، ونسجد له بوحدانية، الآب هو آب، والابن هو ابن والروح القدس هو روح قدس برباط الوحدانية ..." ففعل ذلك.

أما ساويرس ففرح جدًا إذ ردّ نفسًا قد ضلَّت إلى الحظيرة. وسأله أناستاسيوس أن يأخذه معه إلى مدينة القسطنطينية، **فقال له الأب ساويرس** "ما أقدر لأنَّ الملك لم يستدع أحدًا غيري" وعاد أناستاسيوس إلى مدينته يُسبِّح الله كالخادم وزير الحبشة الذي اجتمع بفيلبس التلميذ الذي عمّده .. فلم يرجع أناستاسيوس إلى التجديف بعد هذا بالمرة، بل كان يتذكَّر كلام ساويرس ويتفهَّمه وثبت عليه.

(هـ) مُقاومة مقدونيوس الكافر:

في تلك الأيام ظهر أسقف على مدينة القسطنطينية يُسمّى مقدونيوس - وهو غير مكدونيوس بطريرك القسطنطينية الذي انعقد بسببه مجمع القسطنطينية سنة ٣٨١، وكان قد جدَّف على الروح القدس - وقد طلبت منه المحكمة أن يأخذ قوانين الملك زينون وأن يكتب بحرم كل الهراطقة المخالفين، فيقبلوه أبًا لهم، فكتب لهم مقدونيوس كما أرادوا، في غش

وخداع، وصار مقبولاً لديهم كما كان نسطوريوس الذي أُقيم أسقفًا، وبعدئذ علَّم تعاليم مُخالفة.

واتصل مقدونيوس برهبان الأديرة، وكان كاليمكستيموس (Kalemekestimos) رئيسًا للدير، وكان مقدونيوس بجرأة يُعلِّم تعاليم هرطقة بأن الذي صُلب هو المسيح الإنسان وأنه لم يقدر أن يُخلِّص نفسه، فانقسم الشعب المؤمن واضطرب لأنَّ التجديف الذي هدأ منذ زمان قد أذاعه الآن مقدونيوس، ويشهد الله والناس عليه أنه مُخالف رديء.

وإذ كان صيت ساويرس الراهب ذائعًا في المعرفة والعلم والقداسة، **كتب الملك إلى رؤساء الدير الذي كان يقيم فيه ساويرس وهم رومانوس ويوحنا، وقال لهما**: "أرجو أن نعتقد يقينًا في قلوبنا ونؤمن بأن يظهر نور الإيمان الحقيقي ويشع كالمصباح الذي يُضيء مِن على المنارة، فيُضيء لكل مَن في البيت"، ثم تكلّم عن ساويرس الراهب قائلاً: "إن مثل هذا الراهب ينبغي عدم إخماد نشاطه وفورته".

ولما قرأوا خطاب الملك أظهروه لساويرس وكانا صامتَيْن. **حينئذ قال لهما**: " بما أن هذا الأمر يتعلَّق بالإيمان ولست أسقفًا ولا يمكنني أن أوقع حرمًا أو تأديبًا على أعداء الإيمان، فأرجو أن يُعقد مجمع عام ليظهر هذا الأمر" ثم أضاف إنه راهب فقير أكثر مِنَ الكل، غير أني كابن مطيع لأبيه مُستعد لأن ينفذ الأوامر، لا بل مستعد لبذل دمه مِن أجل الإيمان المستقيم.

وبدأ الآباء يتشاورون كيف يرسلونه إلى مدينة الملك حيث الأعداء كثيرون ومعرفة جميع أعوان الهراطقة لأنه وضع مؤلفات عن الإيمان الصحيح ملأتهم خزيًا، وكل كتاباته ذاعت في جميع أنحاء سوريا وبالأخص كتابه "**الرد على الهراطقة**".

عند ذلك قرر الآباء أن يتولى ساويرس الرد، وكتب ساويرس:

" ... ساويرس الراهب يكتب بشجاعة إلى السيد الملك التقي المُستحق للحياة الأبدية بسبب أعماله التقوّية التي يقوم بها، لأنه في أيامك إنبثق التعليم الصحيح وأنك تقطع الأعداء المُخالفين، هؤلاء الذين انتشر بواسطتهم الشقاء في المملكة، هؤلاء الذين خالفوا تعاليم الثلاثمائة والثمانية عشر المجتمعين بنيقية ..." ثم تحدّث طويلاً وأشار إلى الذين يرشقونه بالحجارة في كل طريق ويُقاومونه.

ثم طلب إلى الملك قائلاً:

"أرجو أن تكتب لي حتى أستطيع أن أفعل شيئًا لأنك تعلم أنهم غير مستقيمي القلوب، وعندما تصلني رسالتكم سأعرف منها مدى استجابتكم ..."

وحالما وردت رسالة ساويرس تعجَّب الملك هو وجميع أكـابر المملكـة، وقرَّروا جميعًا في اتفاق كامل ما يلي:

"ليحضر ساويرس لأنه هو بالحقيقة الذي يمكنه أن ينقض على مقدونيوس، وإذا كانت هناك أسباب تعوقه فلنذهب نحن إليه".

وكتب الملك إلى ساويرس يدعوه بسرعة الحضور. ولما قرأ ساويرس الخطاب تشدَّدت عزيمته وتقوَّى بالروح القدس الساكن فيه، وأخذ معه الإنجيل المقدس الذي بمقتضاه يُقاوم أعداء الله.

ولما سمع الهراطقة بقدوم ساويرس وبأنه تسلَّم رسالة مِنَ الملك، اِنطلق الرعاة المُخالفين مِن أماكنهم وهربوا منها.

ولما حضر ساويرس اضطرب مقدونيوس جدًا وتوقَّع أنه سوف يحاجه ويظهر هرطقته وإنكاره الإيمان الصحيح. لم ينطق مقدونيوس ببنت شفة وكان يخشى صياح الجماهير التي كانت تصرخ وتُحيي ساويرس البطل. أما ساويرس فلم ينظر إليه بالمرة لأنه كان حزينًا جدًا بسبب إنكاره الإيمان الصحيح.

وجلسوا جميعًا وهم صامتَيْن برهة مِنَ الزمن، **ثم نهض مقدونيوس وقال**: "ما بالكم قد تجمَّعتم في فزع وقلق كأنما خرجتم لمقابلة مُجدِّف أو قاتل، وبالنسبة لساويرس الذي تظنون فيه أنه يعرف الإيمان الحقيقي فقد حان الوقت لكي أواجهه".

بدأ مقدونيوس هكذا:

"إنهم يقولون أيها المصلوب ارحمنا بدلاً من أن يقولوا يا صانع العجائب والقوات ارحمنا، وأنه بالحقيقة لضعف أن يُقال أن الله الكلمة مات".

فقال ساويرس:

"هكذا قال نسطور... وإن فعل القوات جميعها هو لأجل قلة أمانة اليهود، أما تألمه وصلبه وموته فهو لأجل خلاص العالم، وأيضًا قيامته إنما كانت ليقيم موتى معه، لأن أفعال جسدنا ولدت لنا الموت، فأبطل عنا الموت عن تعليقه على الصليب... وافتخارنا بالخطية ولد لنا فساد الجحيم والعذاب، وقد حلّ الحمل المقدس على الصليب عنا وُثق إبليس وسحقه..."

وأخذ ساويرس يفسِّر حقائق الإيمان الأرثوذكسي المستقيم كما تعترف به الكنيستان القبطية والسريانية. **ثم عاد إلى مُخاطبة مقدونيوس هكذا قائلاً**: "إنك تقول هذا الكلام بلسانك وبقلبك مُصدِّقًا ما على لسانك؟"

قال مقـدونيوس: "إن القوانين التي أسسها الأساقفة الآباء الذين كانـوا في خلقيدونية هي التي أقبلها".

- "إن كنت تقبل قوانين أولئك وتحفظها فمِن الآن لست غريبًا عن نسطور في شيء جملة لأن ذلك فرَّق اللاهوت مِنَ الناسوت"

فأجاب مقدونيوس بوقاحة: "وما هو خطأ نسطور حتى نُفي مفروزًا ومحرومًا".

قال ساويرس: "بالحقيقة أن دقلديانوس لم يُتعِب البيعة مثل نسطور ومجمع خلقيدون"

وردّ مقدونيوس قائلاً: "لو اجتمع العالم عليّ لما استطاع أن يُميل قلبي إلى التجديف على مجمع الأساقفة الذين اجتمعوا هناك" (يقصد المجمع الخلقيدوني).

وهكذا في القسطنطينية اِنطلق القديس (٥٠٨-٥١١) لمُقاومة أصحاب البدع والهرطقات وبالأخص بدعة مقدونيوس، وكان مِنَ الضروري أن يتَّخِذ إجراء مُضادًا قويًا فعَّالاً حتى يصُد تيار الهرطقات، وانطلق القديس مع مائتي فلسطيني ناسك يقود حملة المُجادلة وإفحام المُخالفين. وفي القسطنطينية إنحلّ عقد الهراطقة بسبب قوة حجة القديس الرادعة، وانعقد مجمع الأساقفة في حضور القديس ساويرس وقرَّروا قطع مقدونيوس ونفيه، وكان ذلك سنة ٥١١م.

وفرح الشعب الصحيح الإيمان، وكان يصيح: "**نعم حضورك... يا ساويرس يا نور المسكونة ... الملح الذي لا يفسد ...**"

وقد وجدنا تفصيلات كثيرة جدًا بالمراجع التي اطَّلعنا عليها حول هرطقة مقدونيوس والمناقشات التي دارت وانتهت بقطعه وإبعاده، ولا نرى هنا مجالاً للخوض فيها.



الفصل السابع

رسامته بطريركًا وجهاده

بعد أن جاهد الأب ساويرس الجهاد الحسن مِن أجل المسائل التي ذهب بشأنها إلى القسطنطينية، عاد إلى انفراده، بينما كان أصدقاؤه يرجون أن يبقى في القسطنطينية، لكنه ودَّعهم ومضى. واجتمع الأساقفة الشرقيون بسرعة في صيدون في فينيقية لأنَّ الإمبراطور تعجَّلهم، ولما اجتمعوا فحصوا أعمال فلافيان بطريرك أنطاكية فوجدوه من أنصار مكسيدونيوس [مقدونيوس] وأمثاله، ولمَّا لم يرد أن يترك هذه الوظيفة أقالوه حسب القوانين الكنسية. وكان هذا نصرًا عظيمًا للأرثوذكسية. وبعد هذا الإجراء الذي اتخذه الأساقفة، كانوا يبحثون عمن يوضع على رأس أنطاكية، فقرر جميع الأساقفة والرهبان والعلمانيون بصوت واحد: **"إن ساويرس هو الذي يجلس على الكرسي، إن الروح القدس يطلب ساويرس كما طلب قديمًا بولس وبرنابا للتبشير بالإنجيل"**.

ونرى في ذلك ظاهرة متميزة هي إجماع الكل على إقامته لأنه الوحيد الذي يستطيع أن يُطهِّر الشرق مِن برص الهرطقات التي تملَّكت منذ زمن طويل.

ووافق الإمبراطور على هذا الاختيار الذي تـمّ بنعمـة الله. فأوفـدوا إلى ساويرس أناسًا معروفين بتقواهم. ولما اقتربوا مِن ديـر القـديس سـاويرس، صلوا قائلين: "**أيها الرب الإله القدوس راعي الرعاة الأعظـم، إهـدِ طريقنـا اليوم، وإذا كنت تريد أن يصير هذا القديس راعيًا، فأرسله لنـا على البـاب لكي يرُد علينا**". وكان من عادة ساويرس ألا يُقابل أحدًا ما خلا مَـن يسـأل كلمة منفعة لنفسه أو يستفسر عن غوامض ما في الكتـب المقدسـة. فلمـا وصـلوا طرقـوا البـاب، وصـادف أن كان بعـض الأخـوة الذيـن حضـروا للاستشارة خارجين مِن عنده في هذا الوقـت. ولذلـك فإنـه حينمـا قرعـوا الباب لم يكن مَن يردّ عليهم. فظلوا يقرعون. تعجَّب القديس ونزل إليهم وفتح الباب واستقبل الوفد الذي قال له على الفور: "**مُبارك الرب الذي قـاد طريقنا اليوم واستجاب لصلاتنا**". ولما سألهم القديس عن سبب حضورهم، ردّوا عليه: "**إن الإمبراطور التقي أعطى أمرًا بأن تحضر إلى المجمع**" وسلموه الأمر الإمبراطوري واستقبل الوفود وأراحهم. وفي اليوم التالي توجَّه معهـم. وإذ علم أنهم اختاروه، فكّـر في الهـروب. وكان يقـول: "**إني لا أصـلح لهـذه الوظيفة العظيمة. وكيف أستطيع أنا الصغير غير المسـتعد أن أجلـس على كرسي إغناطيوس الكبير؟ خذوا آخر أكبر مني**". لكن هذه الاعتـذارات لم تزد الأساقفة والرهبان إلا إصرارًا.

وكتب بعض أصدقاء الأب ساويرس الذين كانوا قد درسوا معه يُذكّرونه بالنبوة التي تنبّأ بها بخصوصه التقي الشهير ميناس، وأوصوه ألّا يهرب مِن اختيار الله، وإن عدم سماع نداء الله لا يخلو مِن خطر حتى ولو كان الرفض على سبيل الاتضاع. فاستمع إليهم ساويرس إذ علم أنه لا يستطيع أن يفعل شيئًا تجاه إصرار الأساقفة والرهبان والعلمانيين، وقام معهم إلى أنطاكية.

فلما علم سكان المدينة بذلك، خرج الجميع الشباب والشيوخ، والسيدات والأطفال للقائه بفرح عظيم، ولما دخلوا المدينة إرتجّت مِنَ الفرح لأنهم كانوا يريدون أن يروه وتمنّوا لو كانت شوارع المدينة ملأى بالأشجار ليصعدوا عليها مثل زكا حتى ينظروه مُجتازًا، وكانوا يرتلون تراتيل الفرح والابتهاج، وكانوا يصيحون ويقولون: "**مُبارك هو ساويرس الذي أرسله الرب إلينا. مُبارك هو مِنَ العُلا**".

ولدى وصوله ألقى عظة مليئة بالمعرفة اللاهوتية الدقيقة وكشف بها ما كان ينادي به نسطور مِن تعاليم غريبة، وتعاليم أفتيخوس [أوطاخي] الخبيثة. وفنّد قرارات مجمع خلقيدونية وطومس لاون موصيًا بالابتعاد عن عثرات البشرية وإتباع الطريق الملكي والاعتراف بالإيمان الصحيح، وأن يصحح كل أحد طريقه.

وقيل في ذلك أيضًا أن الأساقفة لما حضروا ابتدأوا يتناقشون في تفسير بعض الآيات، وقالوا له: "**ما معنى قول الرسول الجليل 'لست أطلب خيرًا لي وحدي بل والجماعة الذين أبشـرهم'؟**" قال ساويرس: "**هو أن يدع الإنسان ما يخصّه ويرفضه ويحرص على خلاص نفسه وخلاص قريبه**". فأشار إليه الأساقفة القديسون بالكتاب الذي فيه اتفاقهم على تقدمته رئيسًا، فلما وقف عليه تغيّر وجهه لأنه لم يكن يشتهي شيئًا مِن هذا وكان يحب الانفراد، وكان يحدث نفسه دائمًا عن مزايا السكون، وكان يقول في ذاته كل وقت "**إن الكسل يُهلِك الأنفس، وأن الإنسان لا يصيب رحمة إلا بالانفراد، كما هو مكتوب «كُفُّوا وَاعْلَمُوا أَنِّي أَنَا اللهُ» (مز٤٦:١٠)**".

قال لهم "**لست مستحقًا لهذا، ولا أصلح للجلوس على هذا الكرسي**" ولكنهم جميعًا صرخوا "**ساويرس هو راعينا، هو مقاوم الهراطقة**" وقال له الأساقفة والعظماء الحاضرين "**ليست وصية أفضل مِن هذه هي أن يضع الإنسان نفسه فداء عن أخيه**" وقالوا له "**إن الله يدينك عن هذا الأمر إن أنت جعلت النفوس التي اشتراها المسيح بدمه تهلك**" ولم يكن هناك مفر مِن قبوله الرسامة والتسليم لمشيئة الله.

كان القديس ساويرس قد تقبَّل الكهنوت على يـد إبيفـانيوس أسـقف مفيدوس في بمفيلية.

وقد **تمت رسامته سنة ٥١٢م بطريركًا لأنطاكية** على أيدي أساقفة طرسوس ومنبج وعشرة أساقفة محليين مِن إيبارشيات الفرات وسوريا. (٢٢)

وحدث عجب عظيم عند رسامته إذ كانت رائحة الطيب تفوح في كل مكان، فأيقنوا أن الملائكة شاركت أيضًا بابتهاج حفل تكريسه.

جلوسه على الكرسي البطريركي:

بعد جلوسه على الكرسي البطريركي مباشرة صرف الطباخين ومساعديهم الذين كانوا يعملون في قصر الأسقفية ويُعدّون مختلف ألوان الأطعمة، واستمر في الحياة الخشنة التي كان يحياها كراهب، فكان ينام على الأرض زاهدًا، ويُقيم قداسات طويلة بألحانها. كان يأكل الخضر مع خبز عادي الذي كان يصنعه الخبازون للفقراء، ولم يتوقف عن أن يسقي شعب أنطاكية كما تسقي النافورة الأرض العطشى. هذا الشعب الأنطاكي الذي

(٢٢) شملت كنيسة أنطاكية الإيبارشيات الآتية:

١. إيبارشية فلسطين	مركزها قيصرية.
٢. إيبارشية فينيقية	مركزها صور.
٣. إيبارشية العربية	مركزها بصرى.
٤. إيبارشية سوريا	مركزها أنطاكية.
٥. إيبارشية ما بين النهرين	مركزها الرها.
٦. إيبارشية كيليكية	مركزها طرسوس.
٧. إيبارشية أسورية	مركزها سلفاكية.

كان جائعًا ليس للخبز، وكان عطشًا ليس للماء، لكنه كان جائعًا... وبفضل تعاليم القديس أصبح الجياع مُعلِّمين في اللاهوتيات.

تأليف التراتيل المقدسة:

إن سكان أنطاكية كانوا يُحبون التراتيل، وكان البعض يحب الأنغام التي يستمعون إليها على المسارح، والبعض الآخر يُجيد تراتيل شعراء الكنيسة، ورأى أن ينزل إلى مستوى الشعب بطريقتهم الخاصة، كان يعلِّم المرتلين ويؤلف الألحان لهم، وفي هذا المضمار كان يمتثل لأوامر الله تعالى. فحينما رأى الله أبناء إسرائيل مُتعلِّقين بذبائح الثيران والماعز واللحوم المُقدَّمة للأوثان وإهراق الدماء، وهي أمور تعوّدوا عليها في مصر وكان مِنَ الصعب عليهم أن يبطلوها، لم يحوِّلهم عنها فورًا لكنه أمرهم أن يُقدِّموا له هذه الذبائح وأبقى لذاته أن يُخلِّصهم منها في الوقت المناسب.

ألَّف القديس ساويرس ترانيم مليئة بنغمات الحزن حتى تجلب الدموع المقبولة لدى الله لسامعيها، وهكذا انتزع الكثيرين مِن عثرات المسرح بهذه الطريقة لكي يجعلهم يترددون بمواظبة على الكنيسة. وبعض التراتيل يتصل باللاهوت ونظريات العقيدة، والبعض الآخر يكشف عن أعماق الكتب الإلهية، والبعض يتصل بما ورد في المؤلفات. وكثير منها خاص بالضيقات والبلايا التي تصيب الشعب كله.

وهكذا في كل المجالات كان القديس ساويرس يعمل جاهدًا لردّ الشعب عن كل طريق شرير.

الحث على التوبة:

ذُكر في سيرة القديس أنه حدث يومًا أن أصابت الشياطين بعض الناس. فكان منهم مَن يبتلع أشياء ضارة مثل قطع الزجاج وقطع الحديد، ولما كان الناس يتقيَأونها فيما بعد كانت تخرج تحت أشكال قطع فحم مشتعلة. فطلب القديس ساويرس إلى الله متضرِّعًا ومُصلِّيًا أن يطرد هؤلاء الشياطين مِن خيقته، وكان يُصلي قائلاً: "**أيها الرب الإله ضابط الكل، لأننا نسير في طرق جديدة للخطية نُعاقَب بأنواع جديدة مِنَ التأديبات، فارفع عنا العقوبات التي تؤدب بها عادة في غضبك**". ثم أنَّ الله كثير الرحمة استمع إلى صلاة القديس وخرجت الشياطين وهي تصرخ كما لو كان الله يتعقَّبها، وكانت الميادين في ذلك الوقت تشبه الكنائس، فكان كل الناس يرتلون المدائح المقدسة بدل الأغاني العابثة.

كان يحث الشعب على أن يُلطِّف الغضب بالصلوات والتوبة مثل أهل نينوى. وفي إحدى عظاته قال لهم: "**لنسرع ونعلن توبتنا التامة، فإن فعلنا ذلك فلسنا نهرب مِنَ الغضب فقط لكن سوف ننال أجرًا، لأن كل ما يعمل بالرضى الكامل له أجر قبل أن تأتي الساعة فجأة. لنحيا في محبة العمل وفي القداسة، وإذا كنا فعلاً لا نتغيّر أثر التأديب وتحت تأثير الخوف**

فإننا نكون محرومين مِنَ الله أو نصبح غرباء عنه نُسلَّم للخراب الشامل ونسقط في هوة عميقة".

اهتمام القديس بالرعاية:

ما أن وُلّى كرسي أنطاكية حتى قاد الرعية بكل حكمة روحية، وثبَّت قوانين الكنيسة في كل الكنائس والأديرة بما أوتي مِن حكمة جزيلة، كربَّان ماهر أوصل سفينة الكنيسة إلى ميناء الأرثوذكسية.

وكان يجول يصنع خيرًا مثل ما كان يفعل السيد المسيح، يشفي المرضى ويُخرِج الشياطين وكانت جموع كثيرة تأتي إليه للانتفاع بتعاليمه.

ومن جهة أخرى كتب إلى الرهبان بعد أن علم أنهم كانوا مُضطهَدين: **"أنتم أعمدة وسند مدينة الرب، فإذا كنتم أنتم الأعمدة قد اهتززتم ورُفعتم مِن مكانكم، فماذا يكون بعد ذلك علينا أن نتوقع، إلا أن يكون هناك عقاب الله والأهوال العظيمة التي لا يمكن أن نتفاداها".**

ووصف بدقة الآلام التي احتملها وأحكام الله وتدابيره المخفية عن عيوننا ليعزي الكل ويُقوِّي إيمانهم.

أوصى الرعاة بالعناية بالرعية وألا يُسلِّموا الخراف للذئاب وألا يكونوا مِنَ الرعاة المُحتالين الذين لا يُشفقون على رعيتهم، ولم يعملوا على تقوية المريض، لم يربطوا المجروح ولم يطلبوا الضائع.

أخذ أيضًا يوجِّه رسائل كثيرة إلى الإكليروس وكل الشعب بضرورة التمسُّك بتعاليم مجامع نيقية وأفسس والقسطنطينية التي حرمت أريوس ونسطور ومكدونيوس. كذا رفض المجمع الخلقيدوني ورسالة لاون.

في سنة ٥١٣م دعا إلى **مجمع في أنطاكية** وفيه شجب المجمع الخلقيدوني ورسالة لاون.

وفي سنة ٥١٤م دعا إلى **مجمع في صور** واشترك في هذا المجمع عدد مِنَ الأساقفة، وكان لنداء القديس صدى قوي، وقد أيد هذا المجمع موقف ساويرس بشأن الأمانة المستقيمة.

تبادل الرسائل بينه وبين البطريرك يوحنا الثاني:

كانت الرسائل متبادلة بينه وبين البطريرك الإسكندري **الأنبا يوحنا الثاني** (٥٠٧-٥١٧م) أول بطاركة القرن السادس، وكان البطريرك ساويرس راسخًا على مبدئه. أرسل إلى البطريرك أنبا يوحنا رسالة بشأن الوحدة في الأمانة، وبشَّره فيها بالاتفاق بينهما في الأمانة الواحدة الأرثوذكسية ومُقاومة بدعة خلقيدونية، فقبلها البابا يوحنا شاكرًا هو وأساقفته وقرأوها في أنحاء الكرازة المرقسية وأقاموا صلوات شكر للسيد المسيح. وتبادل معه البطريرك الإسكندري الرسائل بشأن الأمانة المستقيمة، ففرح بها الأب ساويرس فرحًا عظيمًا.

رسالة البابا ديسقورس الثاني:

ولما جلس البابا ديسقورس الثاني على الكرسي المرقسي كتب هو أيضًا رسالة إلى الأب ساويرس يذكر له فيها نياحة البابا المغبوط أنبا يوحنا وجلوسه بعده على الكرسي الرسولي، فكتب يُعزِّيه ويُعلِمه أنه مشترك معه في الأمانة المستقيمة التي ينبغي المداومة على التعليم بها والذود عن حياضها.





الفصل الثامن

اضطهاد الإمبراطور يوستينوس (٥١٨-٥٢٧م)

وهكذا استمر القديس ساويرس مُجاهدًا في كافة الميادين الروحية بعد أن مكث في الكرسي الأنطاكي زهاء سبع سنوات.

توفى أنستاسيوس الإمبراطور التقي سنة ٥١٨م **وتولى بعده يوستينوس** (٥١٨-٥٢٧م) أحد قادة الحرس الإمبراطوري، وما أن ملك حتى بدأ سلسلة مِنَ الاضطهادات، وأصدر أمرًا بالاعتراف بالمجمع الخلقيدوني، وخيَّر الإمبراطور الأساقفة الأنطاكيين بين القول بالطبيعتَيْن وبين الطرد، فأقصى ٣٢ منهم عن كراسيهم منهم **فلكسينوس السرياني** أسقف منبج مؤلف كتاب "**الحاذقون في العبادة**" **وبولس الرهاوي**. وأنزل بالأساقفة المُقاومين له العذاب الأليم، وكان هؤلاء كثيرون في إرمينيا وسوريا ولبنان وفلسطين ومصر.

كما اِتخذ إجراءات قاسية لإكراه الرهبان على القول بالطبيعتَيْن، فطُردوا مِن أديرتهم.

مجيء القديس ساويرس إلى مصر المرة الأولى سنة ٥١٨م:

شدّد الإمبراطور الاضطهاد على القديس ساويرس بإعتباره الرأس وناله ضيق شديد كان مِن أثره أن جاء إلى مصر بعد أن قضى بالكرسي الأنطاكي سبع سنوات كما أشرنا، ورغب في المجيء لمصر حيث اختبأ السيد المسيح أمام هيرودس الملك، فمضى سرًا ووصل إلى مصر لكنه في أثناء هروبه لم يهمل الاتصال برعيته وإفتقادها برسائله ومقالاته.

ترك القديس مركزه وقام إلى سلفكية الساحل وأقلع منها إلى الديار المصرية **واستمر بمصر مدة طويلة زهاء عشرين سنة** (٥١٨-٥٣٨م). وفي خلال هذه المدة رجع إلى القسطنطينية في الفترة مِن (٥٣٤-٥٣٦م)، ثم عاد إلى مصر ثانية.

وفي أيام حكم يوستينوس (٥١٨-٥٢٧م) حدثت أهوال خطيرة ووقعت حوادث تستحق الذكر وكلها بعد أن ترك البطريرك ساويرس كرسيه سنة ٥١٨م.

بلغت ضراوة الاضطهاد ذروتها، وكان أشد أنواع الاضطهادات يوقعها على الأساقفة المُقاومين للمجمع الخلقيدوني، أنزل العقاب الأليم على الأساقفة، وبلغ أمر التعذيب حدًا لا يُصدِّقه العقل منها ما حدث مع **القديس فيلكسينوس**، فإنه نُفي إلى غنغرة وحُبس في بيت أوقد فيه وسُدّت منافذه فمات خنقًا.

ولازم عصر يوستينوس حوادث مروِّعة فقد اشتدت الكوارث الطبيعية، فزلزلت الأرض في **عين زربة**، وطفت المياه في **الرها** فغمرتها، وحلّت صاعقة في **بعلبك** فأحرقت هيكلها، وعم الجفاف **فلسطين** بأسرها وطال أمده فحلّ الجوع فيها، وفي سنة ٥٢٦م دهمت زلزلة كبرى **أنطاكية** فخرَّبتها تخريبًا شاملاً، ودمرت بيوتها وأبنيتها العمومية وكنائسها وقضت على ٥٠.٠٠٠ مِنَ السكان ومن بينهم **الأسقف أفراسيوس** (٥٢١-٥٢٦م) الذي مات تحت الأنقاض.





الفصل التاسع

اضطهاد يوستنيانوس الأول (٥٢٧-٥٦٥م)

بعد موت يوستينوس سنة ٥٢٧م خلفه يوستنيانوس الأول (٥٢٧-٥٦٥م) وكان مِنَ المتعصبين أيضًا لمجمع خلقيدونية، وحذا حذو سابقه في التنكيل بمَن لم يقبلوا قرارات مجمع خلقيدونية – وقد ظل القديس ساويرس أثناء حكم هذا الإمبراطور بمصر – فيما عدا مدة قصيرة سافر فيها للقطسنطينية (٥٣٤-٥٣٦م) لحضور المجمع الذي انعقد هناك، ولكنه لم يغفل الاهتمام بالكنيسة فكان يديرها بنوابه ورسائله ويرسل الكتب أثر الكتب نقضًا للبدع ودحضًا للمُضللين بهمة لا تعرف الملل. ولم تحلّ الضيقات والشدائد التي كانت تحيط به مِن كل جانب دون مُباشرة شؤون الرعاية العامة منها والخاصة واهتمامه بخلاص النفوس.

ومِن أمثلة ذلك أنه **كتب رسائله إلى القديسة أناستاسيا** ويرد على الرسائل التي تصل إليه منها كما يتبين ذلك مِنَ المخطوطات السريانية في لندن والمخطوطات اليونانية، وقد نشرت مجلة La Revue Oriens Christianus, Neue Serie 3, 1913 – p.p. 32-58 بعض رسائله.

غير أنه رغم اِلتجاء القديس ساويرس إلى مصر فإنهم كانوا يتعقبونه للإيقاع به كما ورد في **تاريخ أفراميوس** الذي قام في سنة ٥٣١م بتنفيذ إرادة

الإمبراطور وظل يجوب البلاد للتنكيل بالمُقاومين حتى ذكرت بعض المراجع أنَّ أفراميوس أمر بحرق مَن أصرّ على مقاومته للمجمع الخلقيدوني.

كان يوستنيانوس (٥٢٧-٥٦٥م) يعتبر نفسه رئيسًا للدولة والكنيسة في آن واحد، وتدخَّل في شؤون الكنيسة تدخلاً لم يسبقه فيه أحد. واِتخذ لنفسه حق التفسير والتطبيق دون أن يستند في ذلك إلى أية سلطة كنسية. ونفذ يوستنيانوس قوانينه بشدة وصرامة، فكان يقطع الأساقفة ويُعيِّن غيرهم ويدعو المجامع ويوافق على قراراتها أو يُعدِّلها أو يلغيها. غير أن **الإمبراطورة ثيؤدوره** (٥٢٧-٥٤٨م) كان لها أثر في تخفيف غلوائه وثورته في الاضطهاد، فقد كانت تتميز بالشجاعة وصفاء الذهن، وكانت تهتم بالقضايا العامة لا سيما الدينية منها، كما كانت تؤمن بوحدة طبيعة السيد المسيح وتدافع عن هذه العقيدة ضد زوجها، وقد كان لها أثر يُذكر في إفلات القديس ساويرس مِن تعقُّب الإمبراطور له كما سيأتي ذكره.



الفصل العاشر

اِنطلاق القديس إلى القسطنطينية واهتمامه بالرعاية

ظل القديس ساويرس بمصر مدة طويلة، وفي سنة ٥٣٤ على الأرجح مضى إلى القسطنطينية وظل بها حتى سنة ٥٣٦م.

وأمر القيصر في سلسلة اضطهادات أن يعقد **مجمع بالقسطنطينية لإجبار الأرثوذكسيين على اعتناق مذهب الخلقيدونيين**، ودعا إليه جميع رؤساء الكنائس، فحضر منهم كليسوس أسقف رومية، وأبوليناريوس الذي صيَّره القيصر بطريركًا ملكيًا على الإسكندرية فيما بعد، وأوطيخوس بطريرك القسطنطينية والأساقفة الذين تحت أيديهم.

وكان أول من حتَّم عليهم القيصر بحضور المجمع **البابا تيموثاوس بطريرك الإسكندرية**(٢٣) **وساويرس بطريرك أنطاكية.**

---

(٢٣) لمنفعة القارئ نورد هنا النص الكامل لسيرة البطريرك أنبا تيموثاوس (٣٢) من ٥١٧-٥٣٥م من كتاب تاريخ البطاركة ترجمة E.Evetts ص٤٥١ إلى ٤٥٥.

"جلس تيموثاوس بطريركًا على كرسي الإسكندرية وتوفى أنسطاسيوس الملك المؤمن وأقاموا بعده رجلاً روميًا مُخالفًا اسمه يوستنيانوس ليدبر المملكة، فلما جلس بذل جهده في أن يُعيد كل المؤمنين الأرثوذكسيين إلى أمانة المجمع الخلقيدوني، وأول ما ابتدأ أن أخذ القديس ساويرس البطريرك وجمع مجمعًا في مدينة القسطنطينية مِن نفسه، وكان فيه وكليوس بطريرك رومية وأبوليناريوس الذي صيَّره الملك بطريركًا على مدينة الإسكندرية وأوطيخوس بطرك مدينة القسطنطينية والأساقفة الذين تحت أيديهم. وأرسل

ليُحضِر الأب ساويرس وأساقفة الشرق وكان يظن أنه يُطيِّب قلب القديس ساويرس ويستميله إلى رأيه لكي ينقاد له الكل ليقينهم به وبأمانته، فيقولوا بمقالته الرديئة، فلم يلتفت الكبير ساويرس إليه ومضى هو وأساقفته إلى القسطنطينية ليُثبِّت الأمانة، وكان يظن أن ذلك الملك الكافر يرجع عن رأيه الفاسد، فلما وصل الأب ساويرس إلى القسطنطينية أكرمه الملك في البداية إكرامًا عظيمًا ورفع منزلته وكلمه كلامًا طيبًا طلبًا منه أن يساعده على طومس لاون ويبلغ أمانته، أما هو المجاهد في الله فكان قد جعل في قلبه قول بطرس الرسول لسيمون الساحر (إن كراماتك معك تكن في الهلاك لأني أرى أنك مملوءًا مرارة أمرَّ مِنَ التنين) وكان يوستنيانوس الملك مثل نسطور، فلما كان في بعض الأيام أمر الملك أن يجتمع الغير أساقفة إلى ذلك المجمع فلم يحضر معهم الأب ساويرس الشجاع ولا أحد مِن أساقفته لأنه قال إن لم يحرموا أولاً طومس لاون والمجمع الخلقيدوني المرذول وإلا فما اجتمع معهم في قول الكفر. ثم جرى مِن الملك أمورًا يضيق الكتاب عن شرحها لئلا تطول السيرة بذكرها، فلما بلغ ساويرس البطريرك أمر الملك فلم يجتمع معهم ولا مضى إليهم أنزلوا عليه البلايا وحلَّت به الشدائد، ومن بعد سنتين بسؤال الملكة تيؤدوره المؤمنة أفرج عنه، فسيرته إلى كرسيه، وكان في تلك الأيام تيموثاوس بالإسكندرية، فلما أخرج ساويرس البطريرك مِن أنطاكية وأساقفته الذين مِن المشرق ووصلوا إلى مصر، جاء الأساقفة (الهراطقة) إلى مدينة الإسكندرية فطردوا رهبانات كثيرات عذارى مِن الديارات. وكان الأب ساويرس في زمان هذا التعب يهرب مِن مدينة إلى مدينة سرًا وعلانية، ومِن دير إلى دير، ويُكاتِب الأساقفة أصحابه الذين بالإسكندرية ويعزيهم ويوصيهم أن يثبتوا على الشدائد بشجاعة، وكان معهم غير أسقف اسمه يوليانوس وأظهر أنه لا يشارك مجمع خلقيدونية لأنه يُقسِّم السيد المسيح الواحد اثنين ويجعله طبيعتَيْن بعد الاتحاد غير المُدرَك. فلما وجد هذا زمانًا بغيبة الأب ساويرس كتب طومسًا بمؤامرة سوء لقوم... مرضى فيه أمانه أوطيخوس [أوطاخي] الكافر وأبوليناريوس وماني وأودكسيس الكفرة وملاه أيضًا تجديفًا مِن اعتقاد الذين يعتقدون التخيل وينكرون آلام السيد المسيح المحيية، وأرسله إلى أعمال مصر وإلى رهبان البرية فقبلوه ووقعوا في الفخ إلا سبعة رجال أضاء الله قلوبهم فلم يقبلوه وسمعوا صوتًا يقول "هذا الطومس نجس"، فقام عليهم الذين وقعوا في ضلالة يوليانوس وقتلوا منهم اثنين، فتفرَّق الباقي وصاروا يُقدِّسون في قلاليهم بدير أبي مقار وغيره، وهذا السبب في تفريقهم وكثرة الضلالة في الأربعة ديارات وفي الجواسق، فبقوة الروح القدس ونعمته كانت المعونة للخمسة رجال الرهبان الباقين مِن السبعة فمنعوا

أما البطريرك الإسكندري فلما كان يعلم غرضه السيء أبى قبول هذه الدعوة واستمر في مركزه يدير شؤون رعيته، وقد تعرَّض لشدائد عظيمة بسبب ذلك.

أما الأب البطريرك ساويرس فإنه قبل دعوة القيصر وأخذ معه بعض علماء الأساقفة. وقد روى الأب أثناسيوس(٢٤) **الحوار الذي جرى بين البطريرك ساويرس وبين القيصر، ننشره فيما يلي:**

إن الأب ساويرس اِنطلق سرًا إلى عسقلان بفلسطين وكنا معه ومضينا إلى دير بناه القديس بطرس(٢٥) وبعد هذا ظهر ملاك الرب

الرهبان أن يقبلوا الطومس وكان ينبوع هذه الضلالة يوليانوس لا يفتر مِن إرسال كتبه إلى البلاد ليضل الناس ويجذبهم إليه، فلما علم الأب ساويرس ذلك بقوة الروح القدس الساكنة فيه كتب إلى كل موضع ليُندِّد أمره ويُبدِّد فكره وأعلم الناس مِن كتبه أن يوليانوس رديء ممتلئًا تجديفًا، وكان القديس ساويرس مهتمًا بهذه الضربة ليداويه وتثبيتًا لمن لم يتبع الطومس، وكان مِن ذلك قلق ومقاومة — وعند ذلك، تنيح الأب تيموثاوس البطريرك المغبوط وهو ثابت في الأمانة المستقيمة، وكان مجاهدًا عنها مثل الأب ساويرس، ودحض يوليانوس وجميع مقالاته، وكانت مدة مقامه بطركًا على كرسي الإسكندرية ١٧ سنة وتوفى في الثالث عشر مِن أمشير". انتهى في ص٤٥١- ٤٥٥.

(٢٤) عن النسخة الحبشية الإنجليزية.

(٢٥) ورد في مخطوطة دير السريان ٢٩٩ والنسخة الحبشية ذِكر الأعجوبة التي حدثت للقديس أنبا بطرس الذي كان مستحقًا أن يُعاين أسرار عجيبة، وهي أنه في نهاية تقديس الأسرار المقدسة غطَّت سحابة كثيفة الهيكل ورأى في الصينية طفلاً بمنظر بهي على المذبح وذراعاه ممدودان فوق المذبح، وكان هناك صوت مِن السماء هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت، ولما كان يُقدِّس الأسرار ووصل إلى ساعة

لساويرس وقال له، قم وامضِ إلى مدينة القسطنطينية واعترف بالإيمان المستقيم، فقد انتشرت الهرطقات.

وانطلق مع الإخوة إلى القسطنطينية وبمعونة الرب وصلنا إلى البحر، فوجدنا سفينة قاصدة القسطنطينية وسافرنا بها، ولما دخلنا إلى المدينة ذهبنا إلى حيث تقيم فيرونيا التي كانت مِنَ القصر الملكي.

وبعد يومَيْن وكان الملك مزمعًا أن يقسو على مَن يقف ضد قوانين نسطور وليو [لاون]، ظهر الأب ساويرس للملك وقابله بلا خوف. ولما رأى ثباته ومحبته للسيد تعجَّب كثيرًا **وقال له:**

- "هل أنت ساويرس الذي تحتقر كنائس الله؟".

- **فقال له:** "لا لست أنا، لكنك أنت الذي تركت الإيمان الحقيقي" وأردف قائلاً: "أين إيمان قسطنطين الملك، وعقيدة الملك زينون وأناستاسيوس الملك؟ أما أنت فقد تركت إيمان أولئك وقبلت هرطقة نسطوريوس وليو ومجمع خلقيدونية الذي سبَّب اضطرابًا للعالم".

- **قال الملك:** "إنها عادة ديسقورس وألكسندروس الذين نفاهما الملك المؤمن مركيان".

تقديس الخبز وتقسيمه خرج منه دم وابتل المذبح بذلك الدم. ولما بارك الكأس انغمست يده في الدم وهذا حدث في كنيسة العذراء والدة الإله.

- **قال ساويرس**: "ليس مركيان مؤمنًا، وأن دقلديانوس لم يُقلِق البيعة مثله".

- **قال الملك**: "دع عنك هذا التعاظم ووافق المجمع العظيم لتخلص، ولا تكن متعلقًا بطقس ديسقورس لئلا تموت منفيًا مثله".

- **قال ساويرس**: "أترى ديسقورس فعل رديئًا إذ لم يدخل في زمرة المنافقين".

- **قال له الملك**: "أتعني بهذا أن مجمع الأساقفة قوم أشرار".

- **قال ساويرس**: "إن الله أمر أن لا تُجلب لنا شرورًا كثيرة إذ يقول يكفي اليوم شرّه، فأي شر أعظم مِن هذا وأي شر أكثر مِن جماعة خلقيدون ..."

- **قال له الملك**: "حسبك جسارة، فلا أستطيع أن أصبر عليك وأنت تفتري على الآباء الذين وضعوا الأمانة المستقيمة".

- **قال له ساويرس**: "أي أمانة، إن الأمانة الحقيقية هي أمانة نيقية وأفسس... هم أصحاب الإيمان المستقيم".

- **أجاب الملك**: "لا، بل إيمان مجمع خلقيدونية" ثم أردف قائلاً: "والآن يا ساويرس أترك هرطقتك واتبع مجمع خلقيدونية".

- **قال ساويرس**: "قد كان جماعة العالم الماضي أيام نوح كثيرة جدًا ولم يكن بارًا إلا نوح وحده وغرقوا، أما نوح فقد نجَّاه الله مِن غضبه وأنقذه مِنَ الطوفان هو وبنيه ونساءه وقطع معه عهدًا إذ قال له :إني لا أعود أهلك العالم بالطوفان (تك٩:١١)" إلى أن قال: "ديسقورس وحده بقى في الأمانة المستقيمة وذِكره إلى اليوم ... إنه بقى ثابتًا في الإيمان الذي سلَّمه طاهرًا لأولاده".

- **أجاب الملك وقال له**: "لقد أخبرونا عنك قبل مجيئك عن روح النقاش والمُجادلة، فدع عنك هذا واتبع نصيحتنا".

- **أجاب ساويرس وقال**: "إن الكتاب المقدس يُعلِّمنا أن نُطيع الحُكَّام (تي٣:١، عب١٢:١٧) وإننا نصلي لأجل الملوك الذي يحبون الله لكي يقضوا أيامًا هادئة وسالمة، ذلك إذا لم يكونوا مِن أصحاب الهرطقات ... والآن اعلم أنَّ قساوة قلب فرعون لم تدع مملكته تثبت ولم ترفع شأنه وأهلكه الله وكل الذين معه في قاع البحر".

- **أجاب الملك، وقال له**: "لماذا تحتقر حكمة الآباء شيوخ مجمع خلقيدونية الذين قد أبيضَّت شعور رؤوسهم وتقدَّموا في الأيام؟".

- **أجاب ساويرس وقال**: "الحكمة لا تسكن دائمًا في كل الشيوخ ولا الفهم في كل الشباب، انظر إلى آخاب المُنافِق كيف كان متقدمًا في الأيام ولم يفِده سنه شيئًا، دانيال الشاب كان يسلك بحسب وصايا الله وفي خوفه

... وقديمًا تكلَّم الرب في الأنبياء وعال الشعب الإسرائيلي ٤٠ سنة وصنع معه المعجزات والعجائب، لكن الشعب ظل قاسي الرقبة ومكث في عناده، عبدوا الأوثان وتركوا الرب صانع المعجزات الذين ظهر لهم في البحر وفي البر، وأراهم عمود النار يُضيء لهم بالليل وعمود الغمام يُظلِّلهم بالنهار، وأعطاهم الماء مِن صخرة صماء ليشربوا، كما أنزل لهم المَن مِنَ السماء. وآيات آخرى كثيرة لا نستطيع التحدُّث عنها ولا يستطيع أحد أن يُحصيها، وكانت رغبة السيد أنَّ الكل يعرفوه.

أرسل ابنه مِنَ السماء، وأخذ جسدًا حقيقيًا مثلنا له لحم وعظام ودم واحتمل الموت ... أرأيت كيف صنع السيد معنا رحمة واحتمل الموت لأجلنا وكسر شوكة إبليس وفتح الفردوس وأعطانا شجرة الحياة وأصلح السمائيين مع الأرضيين، الكلمة بالحقيقة صار جسدًا وسكن بيننا (يو١:١٤) وإذا كان الكلمة صار جسدًا، فهو إذن قد تألم بالجسد. ولا تطع أيها الملك القائلين بالطبيعتَيْن ولا تذعن لقرارات المجمع الخلقيدوني".

ولما سمع الملك والضباط هذا الحوار مِنَ الأب ساويرس تعجَّبوا لحكمته وثباته في الإيمان وتحيَّر كيف يُعامل ساويرس لأنه يعرف صلابة إيمانه.

استمر القديس ساويرس في القسطنطينية سنة يعد للجهاد بعد **نياحة البطريرك القديس تيموثاوس سنة ٥٣٥م**. وعندما التأم مجمع القسطنطينية

سنة ٥٣٦م جرت مناقشات عنيفة بينه وبين الإمبراطور، وجلبت ردود الأب القديس ساويرس غيظ القيصر واحتدام غضبه حيث لم تنفع فيه كل الطرق وأراد الانتقام منه، فأمر بالقبض عليه وبقطع لسانه.

وقيل أن أحد ضباط الملك ويُدعى بكتاليانوس "Bektaleyanos" كان ماكرًا وشريرًا أشار على الملك بالقضاء على ساويرس بحكم الموت قائلاً له: "**إنَّ الأفضل أن يموت ليكون سلام في الكنيسة**".





الفصل الحادي عشر

تدخُّل الملكة ثيؤدوره (٥٢٧ - ٥٤٨م)

ومجيء القديس الثاني إلى مصر سنة ٥٣٦م

لما علمت الملكة ثيؤدوره المُحبَّة للسيد المسيح بذلك، أوعزت إليه أن يهرب، فلم يقبل أولاً وقال إنه مستعد أن يموت في سبيل الأمانة المستقيمة، لكنه إجابة لإلحاح الملكة وأبنائه المُحبين ترك القسطنطينية وهرب إلى مصر سنة ٥٣٦م، أما الإمبراطور لما طلبه ولم يجده أرسل خيلاً ورجالاً في طلبه وأسدل الله حجابًا على أبصارهم فلم يروه مع أنه كان قريبًا منهم.(٢٦) وظل في ديار مصر حتى نهاية حياته، وكان لشدة اتضاعه يجول متنكرًا مِن مكان إلى مكان، ومِن دير إلى دير في شكل راهب بسيط، وأجرى

(٢٦) وُرد في بعض المراجع أن الملكة ثيؤدوره لما علمت أن الملك يوستنيانوس عزم أن يفعل هذا بالقديس ساويرس طلبته للحضور، وكان معه فيرونيا وبعض النسوة، وقد طلبن إلى الأب أن يختفي مِن أمام الملك، لكن الأب المُجاهِد كان يشتهي أن ينال إكليل الشهادة ورفض قائلاً: "إني مستعد أن أموت، وأن أُقدِّم ذاتي فدية عن الإيمان الصحيح" لكن الملكة ومَن معها تحدثن إليه قائلات: "كيف تطلب خلاص نفسك وحدك وتترك بيع الأرثوذكسيين. إذا مات الراعي ألا يُبدِّد الذئب الخراف ويأخذها بعيدًا عن المراعي فتكون عُرضة للموت وتهلك خراف المسيح؟ إنك ستنطلق سعيدًا... لكنك ستترك الوحوش الضارية تفتك بالرعية" وبعد إلحاح وجهد كبير عدّل عن خطته وأرسلت الملكة في طلب سفينة، فوجدوا سفينة منطلقة إلى فينيقية فأخذوه ومضوا به ليلاً دون أن يعلم أحد.

وجاء في السيرة ما يلي: انطلق وكنا معه وكان الرب مُرشدًا له، ولما أتينا إلى فينيقية استقبلنا الأخوة سرًا ومضينا إلى أنطاكية. ولما وصلنا إلى أنطاكية بعث في طلب القسوس والشمامسة والأراخنة وحيَّاهم قائلاً **(وصيته للرعية)**: "إياكم أن تشربوا من عين غريبة أو تتزوجوا مِن نساء الهراطقة، أولئك الذين يُنكرون لاهوت السيد

الله على يديه آيات وعجائب كثيرة سيأتي ذكرها في موضعها.

وإن اِلتجاء القديس ساويرس إلى الديار المصرية وإقامته بها هذه السنين الطويلة ليوضح لنا في جلاء أن وحدة الكنيستَيْن القبطية والسريانية تمتد جذورها منذ أقدم الأجيال، وقد كان صديقًا حميمًا للبطريرك تيموثاوس والبطريرك ثيؤدوسيوس الأول الذي أتى بعده.

ويذكر التاريخ إنَّه في أيام البطريرك الإسكندري ثيؤدوسيوس الأول (٥٣٥-٥٦٧م) الذي خلف البابا تيموثاوس (٥١٨-٥٣٥) كان الاضطهاد بالغًا أشده حتى أنَّ المدة التي قضاها على الكرسي ٣٢ سنة مكثها بعيدًا عن كرسيه، وأقام ٢٨ سنة في المنفى وأربع سنوات في صعيد مصر، وفي أيامه أُغلقت أبواب البيع بمدينة الإسكندرية بأمر الملك يوستنيانوس الأول (٥٢٧-٥٦٥م) وختم عليها بخاتمه وجعل عليها حرَّاسًا حتى لا يدخلها أحد، ونال هذا البطريرك أحزان كثيرة.

هذا وبعد أن طُرد القديس ساويرس شغل مركزه ثلاثة أساقفة خلقيدوني المذهب على التتابع أحدهما يُدعى بولس (٥١٩-٥٢١م) الثاني يُدعى أفراسيوس (٥٢١-٥٢٨م) والثالث يُدعى أفرآم (٥٢٨-٥٤٦م).

المسيح، التفتوا لنفوسكم ولا تنشغلوا بأي أمر مِن الأمور يعوق خلاصكم، احذروا أن تحيدوا عن كلمات الإنجيل أو عن قوانين الآباء القديسين، ولتكن لديكم الغيرة نحو خلاص النفوس. لقد أخبرتكم مرارًا أن الموت والعذاب والدينونة العظيمة تحل على كل مَن يشترك مع المنافقين والهراطقة في معتقداتهم، أوصيكم ألا تشتركوا في قرارات الخارجين عن الإيمان، وكما أن سم الحيات مُخفى في رؤوسها هكذا مجمع خلقيدونية مدخر فيه كل التجاديف".

وكتب يدحض الهرطقات وأمر الجميع أن يسهروا على رعاية قطيع المسيح.

الفصل الثاني عشر

فضائله وعجائبه

مضى القديس واضع السيرة يقول:

مَن يستطيع أن يُقيّم فضائل القديس أو يصف جهاده وطهارة قلبه وجلال حكمة الروح القدس الساكن فيه.

موسى بسط يديه وقتل أبيمالك، وساويرس بسط يديه وأهلك أصحاب البدع والهرطقات. موسى صعد إلى جبل سيناء واستلم الشريعة، وساويرس صعد إلى الجبل الروحاني كارزًا بالإنجيل ومُثبِّتًا قواعده في صدور المسيحيين...

كان صبورًا في كل شيء وقع عليه مِنَ الضيقات والاضطهادات، احتمل الجوع والعطش وتعب السفر مرارًا كثيرة، والصمود في مقاومته الشديدة أمام الملك يوستينوس.

نعم أيها الأب ساويرس لقد جعلت طيب الأرثوذكسية يفوح في كل العالم، نعم أيها الأب ساويرس فرح الآباء الذين كانوا قبلك. أيها الأب ساويرس كخلية النحل الروحانية جمعت مِن كل الزهور وملأت الكنيسة رحيقًا روحانيًا وامتلأت مخازنها أنواع شهد طيبة ولذيذة المأكل لكل نفس، تلك هي تعاليمك الروحية، إنها حلوة لكل النفوس.

أنت الذي احتملت الاضطهادات مِن أجل المسيحية كالراعي الصالح الذي يبذل نفسه عن الخراف ويحفظ القطيع ويقوده إلى مراع خضـراء. أنت هو غُصن الكرمة في حقل الرب. نضجت عناقيدها ويشـرب الأرثوذكسيين عُصارتها الروحية. كحبة الخردل نَمت حتى استظل تحت أغصانها المؤمنون، أعني قوانينك التي تركتها في البيعة نسلُك تحت ظلالها. أنت شجرة الورد الجديد الذي فاحت رائحته للعالم... **ذِكرك حلو في حنجرتي أكثر مِنَ الشهد.**



١. الله يُقاوم المستكبرين

حدث أن بعض الأشرار وشى به لدى الملك يوستنيانوس الذي سلَّم الكنيسة للضيقات والاضطهادات بعد الهدوء والسكينة، وقالوا له إن ساويرس هو المُقاوم الكبير لمجمع خلقيدونية، فاغتاظ الملك وأرسل للحال ضابطًا مِن قِبله يُدعى روفوس "Rufus" ومعه ستون جنديًا، وكان يريد أن يأخذ البطريرك بالخداع، لكن الرب أظهر هذا الأمر لساويرس. فلما دخل روفوس المدينة وكل مَن كان معه خرج الأب ساويرس والذين معه بسـرعة مِن ناحية أخرى وصار روفوس يبحث عنه دون جدوى، فأعلموه أنه غادر المدينة ولا يُعلم إلى أين مضى، فجدّ في البحث عنه.

وكان الأب والذين معه قد وصلوا إلى ساحل (اقلاعن) وهو قريب مِن

مدينة فرانيا وركبوا سفينة وأقلعوا بها، فرآهم روفوس مِن بعيد وجدّ في أثرهم، وطلب معدية بقساوة قلب وتعاظم، فأتوه بها وأحاطوا به حتى وصلوا إلى البر.

حينئذ استدعى الأب البطريرك وقال له مستهزئًا "يا تلميذ الرب المُجاهد" وكان يُحرِّك رأسه بسخرية وتعاظم وتجبُّر وكبرياء وعند ذلك هبَّت ريح عاصف وشب حريق كبير أحرق روفوس ومَن معه ولم ينج سوى أربعة هربوا إلى القديس ساويرس وصاحوا: "يا رجل الله نجنا"..

فلما كان ما رأيناه لحقنا خوف عظيم ونهضنا مِن ذلك الموضع وأقمنا بأحد الأديرة. أما الأربعة الذين خلصوا مِنَ النار وصاروا معنا فإنهم لما شاهدوا فضائل الإخوة الرهبان صاروا رهبانًا ومارسوا كل الأعمال الصالحة لأنَّ الأخوة الذين هناك كانوا مثل الملائكة في زيهم ونسكهم وفضيلتهم.

ووصل الخبر إلى الملك، فكف عن طلبه، ولما علم البطريرك ساويرس بأن الملك قد كفّ عن طلبه، قام ورجع إلى أنطاكية، وكانت معونة الله معه وقوَّته، وكان يكتب رسائل روحية ويرسلها إلى الأرثوذكسيين في جميع الأماكن لتثبيتهم على الأمانة.

٣. هلاك "أسكيلس المُنافِق"

مَن لا يعجب لفضيلة الأب ساويرس وما جرى لأسكيلس المُنافِق الخارج على البيعة المستقيمة. نصّب نفسه لمُقاومة الحكيم ساويرس

بقساوة قلب وجاء إلى الموضع الذي كان فيه وطلب الاجتماع مكرًا مُدَّعيًا أنه يريد بركة، فقال للبواب: "**قل للأب الجليل إنني رجل مُعذَّب من شيطان وأنَّ الملك أرسلني إليه ليباركني ويضع يده عليَّ لأبرأ مِنَ الضـربة**". فدخل البواب وأعلم القديس ساويرس بذلك، فعلم هذا الأب بإلهام الروح القدس أنَّ الأمر بضِد ما حكى له، والذي لا يُخفى عنه شيء السيد المسيح القادر على كل شيء أظهر للقديس أنَّ هذا الرجل هرطوقي. فقال للبواب "**أخبره بما قاله المخلص: «أطلبوا تجدوا، أقرعوا يُفتح لكم»، وقل له إن الذي تمنيته يكون لك**". فما أن سمع أسكيلس هذا حتى نزل عليه روح شرير وألقاه على الأرض ورفسه الجواد الذي كان يمتطيه واشتبك في اللجام، وعند ذلك إنشق مِن وسطه ومات لوقته وامتلأ الذين كانوا معه خوفًا لمَّا شاهدوا ما كان.

فلما علم أصحابه الهراطقة بموته بسبب ساويرس خافوا منه كالفلسطينيين في ذلك الوقت الذين خافوا مِن بني إسرائيل لما قُتل جليات الجبار، وأما الأرثوذكسيون فمجدوا الله.

٣. اجتياز ساويرس وسط أعدائه دون أن يروه

أرسل الإمبراطور يوستنيانوس أميرًا اسمه أبريديمينوس[(٢٧)] "Abrediminos" ومعه مائتا جندي لكي يُحضروا القديس مقبوضًا

(٢٧) ورد بمخطوطة دير السريان أبرامندیانوس.

عليه، وكان أبريديمينوس مِنَ الهراطقة، وكان حانقًا على ساويرس لمُقاومتـه للنساطرة، وكان يتمنى وقوعه في قبضة يده.

ولما جاء إلى أنطاكية بحث عن ساويرس إلى أن وجده في المذبح فأحاطوا بالكنيسة مِن كل جانب وأمر رجاله ألا يقبضوا على أحد فيها إلا على ساويرس حتى لا يحدث شغب، وأن يخرجوه ليلاً سرًا، وكان معه كثيرون مِنَ الخارجين على الإيمان المستقيم ممن يعرفون ساويرس لأنَّ ذلك الأمير لم يكن يعرفه.

وبعد أن صلى البطريرك صلاة القداس وكمُلت الأسرار المقدسة أخبروه بحضور الضابط وإحاطته بالكنيسة، فلم ينزعج ولم يقلق بل كان مستعدًا بفرح لقبول ما يناله.

وقد اتفق رأى القسوس مع الشعب على أن ينطلق الأب البطريرك فورًا سرًا مِنَ الكنيسة، وفيما هم متدبِّرون ذلك، حضـر الجند وأعوانهم لكي يقبضوا عليه وينقلوه خارج الكنيسة حتى لا تُراق الدماء عند وقوع الاشتباك بين أعدائه وبين المسيحيين الذين كانوا على اِستعداد كامل للدفاع عن أبيهم الطوباوي مِن أي إعتداء يقع عليه، إلا أنهم لم يجدوه وتولاهم الحزن جميعًا وكانوا في دهش عظيم كيف خرج مِن وسطهم دون أن يشعر به أحد، فكان حجابًا مِنَ الرب أسدله على العيون لكي لا يراه أحد هاربًا. ولم يدر أحد مِن أعدائه أو مِن رجال الكنيسة فإنه اجتاز كما اجتاز السيد المسيح في وسط أعدائه دون أن يروه.

حقًا أن هذه الأعجوبة التي صنعها الرب كانت نصـرًا كما كان لأليشع النبي عندما أرسل إليه ملك سوريا عبيده لكي يمسكوه ويلحقوا به الأذى، فإنه عندما حضر جند الملك حيث كان أليشع النبي موجودًا ضربهم الرب بالعمى «فَأَرْسَلَ إِلَى هُنَاكَ خَيْلاً وَمَرْكَبَاتٍ وَجَيْشًا ثَقِيلاً، وَجَاءُوا لَيْلاً وَأَحَاطُوا بِالْمَدِينَةِ. فَبَكَّرَ خَادِمُ رَجُلِ اللهِ وَقَامَ وَخَرَجَ وَإِذَا جَيْشٌ مُحِيطٌ بِالْمَدِينَةِ وَخَيْلٌ وَمَرْكَبَاتٌ. فَقَالَ غُلاَمُهُ لَهُ: «آهِ يَا سَيِّدِي! كَيْفَ نَعْمَلُ؟» فَقَالَ: «لاَ تَخَفْ، لأَنَّ الَّذِينَ مَعَنَا أَكْثَرُ مِنَ الذِينَ مَعَهُمْ». وَصَلَّى أَلِيشَعُ وَقَالَ: «يَا رَبُّ، افْتَحْ عَيْنَيْهِ فَيُبْصِـرَ». فَفَتَحَ الرَّبُّ عَيْنَيِ الْغُلاَمِ فَأَبْصَـرَ، وَإِذَا الْجَبَلُ مَمْلُوءٌ خَيْلاً وَمَرْكَبَاتِ نَارٍ حَوْلَ أَلِيشَعَ. وَلَمَّا نَزَلُوا إِلَيْهِ صَلَّى أَلِيشَعُ إِلَى الرَّبِّ: «اضْرِبْ هؤُلاَءِ الأُمَمَ بِالْعَمَى». فَضَـرَبَهُمْ بِالْعَمَى كَقَوْلِ أَلِيشَعَ. فَقَالَ لَهُمْ أَلِيشَعُ: «لَيْسَتْ هَذِهِ هِيَ الطَّرِيقَ، وَلاَ هَذِهِ هِيَ الْمَدِينَةَ. اتْبَعُونِي فَأَسِيرَ بِكُمْ إِلَى الرَّجُلِ الَّذِي تُفَتِّشُونَ عَلَيْهِ». فَسَارَ بِهِمْ إِلَى السَّامِرَةِ. فَلَمَّا دَخَلُوا السَّامِرَةَ قَالَ أَلِيشَعُ: «يَا رَبُّ افْتَحْ أَعْيُنَ هؤُلاَءِ فَيُبْصِرُوا». فَفَتَحَ الرَّبُّ أَعْيُنَهُمْ فَأَبْصَرُوا وَإِذَا هُمْ فِي وَسَطِ السَّامِرَةِ. فَقَالَ مَلِكُ إِسْرَائِيلَ لأَلِيشَعَ لَمَّا رَآهُمْ: «هَلْ أَضْرِبُ؟ هَلْ أَضْرِبُ يَا أَبِي؟» فَقَالَ: «لاَ تَضْـرِبْ! تَضْـرِبُ الَّذِينَ سَبَيْتَهُمْ بِسَيْفِكَ وَبِقَوْسِكَ... ثُمَّ أَطْلَقَهُمْ»[٢٨].

(٢٨) (٢مل٦: ١٤-٢٣).

هكذا فعل السيد مع ساويرس، أنه أرسل حجابًا على أعين إبريديمينوس وكل رجاله الذين كانوا معه حتى خلَّص ساويرس مِن أيديهم.

لكن أبريديمينوس أمر أن يُضاعف كل جهد مستطاع لكي يقبضوا على ساويرس، وقيل له أنه موجود في دير أثناسيوس مختبئًا ... ولما جاء أبريديمينوس إلى الدير استفسر عن ساويرس، وحدث بأمر الرب أن ساويرس كان قد ذهب ليستقي ماء وكان يحمل الجرة كما كانت عادة الإخوة الرهبان، وإذ علم ساويرس أن أبريديمينوس قد حضر للبحث عنه ترك جرة الماء وذهب ليختفي في الجبل. وعبثًا حاول أبريديمينوس العثور عليه وأيقن أنه هرب مِن بين يديه إلى الجبل وأخفى نفسه، وكان هذا بتدبير مِنَ الله أنه جعلهم ينظروه كأنه شجرة أمامهم حتى يخلص مِن أيديهم. وإذ بحث عنه هو والذين معه بحثًا دقيقًا في القفر ولم يجدوه، وفشلوا في العثور عليه عاد إلى القسطنطينية وأخبر الملك بكل ما حدث.

٤. سقوط المطر بصلوات القديس

حدث في أيام الأب الجليل ساويرس أن السماء لم تمطر على الأرض وجرى غلاء شديد في جميع بلاد المشرق يشبه ما كان في أيام آخاب الملك، فأتى القديس المؤمن اكلوديوس ومعه جماعة مِنَ الأرثوذكسيين الذين كانوا في قلاية الأب ساويرس لمعرفتهم أنه ممتلئ مِنَ الروح القدس وسألوه بإلحاح أن يطلب إلى الله أن يرسل المطر على الأرض لئلا تهلك الناس

والبهائم. فبكى القديس بكاء عظيمًا وقال: "**إنني لست أهلاً لهذا**"، لكن الجمع كله كان يطلب إليه ويُضيِّق عليه. فخاطبهم القديس ساويرس باتضاع هكذا قائلاً: "**إنَّ إلهنا يسوع المسيح رحوم، وقد قال في إنجيله المقدس: إن كان لكم إيمان مثل حبة خردل تقولون لهذا الجبل انتقل فينتقل، لنطلب الآن كلنا إليه فإن كان لنا إيمان فإن الله يسمعنا**".

ثم أنَّ إيليا الجديد رفع يديه إلى السماء مع جماعة الإخوة وصلّوا إلى الله، فانفتحت أبواب السماء كما هو مكتوب، فانهمر المطر مدرارًا. فلما رأوا ما كان مجّدوا الله وقالوا ما قاله العبرانيون في ذلك الزمان: "إن الله أقام لنا نبيًا عظيمًا".

حقًا إني أسكت وأتحيَّر، لقد كان وجهه يُضيء مثل شعاع الشمس لأجل طهارته وكان عجيب المنظر لإمتلائه مِن نعمة الروح القدس.

٥. شفاؤه أبرص

يقول واضع السيرة: لستم تجهلون أمر الشيخ ثيؤدورس الذي بيديه برص حتى أنه ما كان يستطيع أن يدخل إلى الكنيسة وهو أبرص. هذا سمع عن فضائل القديس ساويرس وعن الجموع الكثيرة التي كان يشفيها، فمضى إليه حيث وجده جالسًا عند باب مغارته. فلما رآه ثيؤدورس الشيخ وقع أمامه، وقال له: "**اشفق عليّ واشفني بأمر السيد المسيح فإني أعلم أنَّ الذي تطلبه مِنَ الله تجده، وأنه يُعطيك مسألتك**". فنظر ساويرس المشتمل

بجميع الفضائل الروحانية إلى ثيؤدورس القس وهو يبكي، فقال: "**أيها الأب القس، أما علمت أنك عندما شاركت أولاد نسطور صرت فقيرًا مِن نعمة الله؟ فدع عنك مشاركتهم مِنَ الآن**". وكان القس تادرس مؤمنًا، وإنما كان ساويرس يوبِّخه لأنه كان مُخالطًا للهراطقة ومُشاركًا لهم، فاعترف بخطيته وتعهَّد أنه لا يعود يشارك أحدًا مِنَ الهراطقة ولا يُخالطهم مِن ذلك اليوم. وفعل ساويرس كما فعل شريكه في خدمة الله أليشع مع نعمان السرياني وأمره أن يمضي ويستحم مِن ماء البئر الذي يستقي منه الإخوة ليطهر، فمضى وتطهَّر، وغشى كل مَن نظره خوف عظيم ومجَّدوا الله، والذين كانوا يعرفونه مِن قبل تعجَّبوا. وكثيرون مِنَ الذين كانوا يُقاومون ساويرس انضموا إليه، لأنه كما يقول يعقوب الرسول: «وَأَنَا أُرِيكَ بِأَعْمَالِي إِيمَانِي» (يع٢:١٨).

عجائبه بمصر:

صَنع بمصر عجائب كثيرة وبصلواته روى النفوس والأجساد وشفاها كلها بحكمة. وكان يجول في الصحاري وفي الجبال والأديرة وينتقل مِن مدينة إلى مدينة مِن أجل الاضطهادات التي كانت تلاحقه، لكن الرب كان يرعاه وحفظه ليكون سبب خلاص لنفوس كثيرة.

٦. شفاؤه مريضة

قيل عنه إنه ذهب مرة إلى مدينة شهيرة يُقال لها أوسيم، مركز إمبابه، فاستقبله رجل تقي يخاف الله لم يكن يعرفه وأسكنه عنده، وكان هذا الرجل مُحبًّا لضيافة الغرباء ويعمل في النسيج بيديه، ويحتجز لنفسه ما يكفي لمعيشته ويوزع الباقي على الفقراء والمحتاجين.

ولما كان القديس ساويرس في منزله وجد أن امرأة ابنه مريضة وتشكو ألمًا شديدًا في أمعائها، ولم يقدر أحد أن يشفيها. فصلى عليها القديس وأقامها الرب صحيحة مِن مرضها. ولما رأى أهل المنزل ذلك تعجَّبوا ومجَّدوا الله، لكنه لما رأى أنَّ الأمر قد شاع في المدينة وابتدأ الناس مِن كل مكان يأتون إليه لينالوا بركته بارح المدينة واختفى عنهم.

٧. القديس يُصيِّر الماء الملح في بئر بدير القديس مكاريوس عذبًا

مضى إلى دير القديس مكاريوس، وكان هناك راهب مِن أهل الصعيد وكان اسمه مكاريوس، وكان قديسًا، وإذ كان البطريرك كعادته يزور الأديرة متخفِّيًا في زي راهب بسيط، تقدَّم مكاريوس الراهب إلى البطريرك بكل إكرام يليق به إذ عرفه، وكان في الدير بئر ماؤها ملح، وكان الإخوة الرهبان يتعبون مِن شرب هذا الماء الملح، وأخبره بأمر البئر وكيف أنَّ ماءها يتعب

الإخوة، فقال البطريرك للشيخ "**إن صلاتك يا أبي قادرة أن تجعل هذا الماء عذبًا**".

وحينئذ قال له الشيخ "**صلواتك أنت يا سيدي المقبولة أمام الله قادرة أن تجعل الماء حلوًا**" فأمره القديس ساويرس أن يلقي بالماء الذي يتبقى مِنَ الصينية بعد غسلها بنهاية القداس في البئر فيصير الماء حلوًا بأمر الله،(٢٩) وكان هذا الشيخ ممتازًا ببساطة الإيمان، فأطاع الأمر وهكذا صار الماء حلوًا.

إذا كان هذا فعل الماء الذي تُغسل به الأواني المقدسة، كم يكون فعل الجسد والدم الإلهي في النفوس التي أفسدها الإثم، إنه ولا شك يجعلها أكثر بياضًا مِنَ الثلج.

٨. اختفاء القربان وقت القداس

دخل القديس ساويرس في إحدى الكنائس في برية شيهيت(٣٠) ليُصلي في زي راهب بسيط غريب، وعندما رفع القس القربان ووضعه على المذبح وبعد الرسائل والإنجيل صعد القس إلى الهيكل ورفع الأبروسفارين ليُقدِّس القربان فلم يجده، وبكى والتفت إلى الحاضرين قائلاً لهم: "**أيها الإخوة إنني لم أجد القربان لأنه قد خُفي عني، ولست أدري إن كان هذا مِن أجل**

---

(٢٩) ذكر إيفيلين هوايت في كتابه الجزء الثاني ص٢٣٠ أنه يبدو أنَّ هذا البئر هو الذي يطلقون عليه بئر مكاريوس.

(٣٠) عن السنكسار وبعض المراجع التاريخية.

خطيتي أو خطيتكم؟" فبكى الحاضرون أيضًا، وللوقت ظهر ملاك الرب وأعلمه أن هذا ليس لأجل خطيته ولا لأجل خطية الحاضرين، إنما كان لرفعه القربان مِن على المذبح والأب البطريرك حاضر، وأشار الملاك إليه وكان في إحدى زوايا الكنيسة فعرف القديس بالنعمة، ولما أتى إليه القس أمره الأب البطريرك أن يُكمل القداس بعد أن أدخلوه إلى الهيكل بكرامة عظيمة، فصعد القس بعد ذلك إلى المذبح ووجد القربان على حاله، فمجَّدوا الله جميعًا وحقًا ما قاله القديس مار إسحق السرياني : "مَن يطلب الكرامة تهرب منه، ومَن يهرب منها تلاحقه".

في جميع الخولاجيات لا توجد أية إشارة إلى ما يجب إتباعه عند تقديم الحمل في حضور الأب البطريرك أو الأسقف الذي لا يخدم القداس. وبعد البحث وُجد في مخطوطة بكنيسة الشهيدة بربارة بمصر القديمة كتاب **(ترتيب صلوات البيعة)** الجزء الثاني في ٢٧ برمودة ١٢٧٦ش (٢٢/ ٤/ ١٥٦٠) نص في هذا الشأن كالآتي:

"...فإذا حضر السيد البطريرك ولم يخدم القداس فعند نزوله مِنَ القلاية يُقال (أكتشي خاريس ... أخذت نعمة موسى ...) وبعد ذلك يقرأ البركة ويتقدَّم أحد الكهنة ويأخذ عمامته في ستر، وبعد ذلك يشير البطريرك لأحد الكهنة بالخدمة، فيصعد ذلك إلى المذبح ويبتدئ أولاً بكسوة المذبح، يُقدِّمون الحمل إلى السيد البطريرك فيختاره ويدفعه

للكاهن ويغسل يديه ويطوف بالحمل والخمر وينزل مِنَ المذبح ويُقدِّم ذلك للأب البطريرك فيرشمه ويصعد الكاهن إلى المذبح ويبتدئ بصلاة الشكر، وعند الرشم جميعه يلتفت إلى الأب البطريرك ليرشمه، وبعد ذلك يتلو التقدمة ... إلخ".

فما دام البطريرك حاضرًا فإنه هو الذي يختار الحمل ثم يقدمه للكاهن ويأذن له بالصلاة، الأمر الذي لم يفعله الكاهن الخادم لأنه لم يكن يعلم أنَّ القديس ساويرس البطريرك كان حاضرًا. وهناك أمر مهم وهو أنَّ الملاك أراد أن يعلن في الكنيسة القبطية الأرثوذكسية كرامة هذا الأب الذي كان يُصلّي متخفّيًا في زاوية الكنيسة في زي راهب بسيط. ولقد زادت محبة الأقباط للسريان ...

والنص الآتي وجدناه في كتاب:

"Textes Arabes relatifs à Sévère" extraits grecs et latins

"مِن بعض عجائبه أنه دخل إلى مصر وأول وصوله إليه عبر على كنيسة السيدة العذراء التي تُعرَف بالمعلقة بمصر، ووقف بالباب، وكان الكاهن يُقدِّس على المذبح، وفيما هو يرشم الشعب بالصليب بترتيب الخدمة، إذا الملائكة قد حجبوا الصينية والكأس مِن على المذبح مِن قدامه، ولما التفت يريد أن يكمل القداس لم يرَ الصينية أو الكأس، فبكى كثيرًا وبقى متحيِّرًا لا يعرف السبب في ذلك، فأتاه صوت يقول له "**لأجل أنك رسمت رسم الصليب على رئيس الأحبار بطريرك أنطاكية**"، فقال: "**يا سيدي ما**

عرفت أنه حاضر" وكان الشعب جميعه يسمع ذلك. فطلع ذلك الكاهن مِنَ الهيكل وضرب مطانية وطلب إلى الأب البطريرك أن يدخل ويُبارِك ويُقدِّس، وأنَّ الأب البطريرك ما كان يعرف القبطية فدخل وبارك وكان القربان مكانه كما كان أولاً ... **وزادت المحبة بين جماعة القبط والسـريان إلى زمان أبينا يوحنا بن شوشان بطريرك أنطاكية**"[٣١].

٩. مواهب الشفاء مِن "سن" للقديس

قد شرَّف الله قديسه بالعجائب العديدة مِن جسده حتى أن "سنًا" كان قد سقط مِن فمه وهو على قيد الحياة، فأخذه أحد رهبان دير الزجاج (موقعه الآن الدخيلة)، ولفّه في قطعة مِنَ الحرير، وكان يضعه على المرضى فيبرأون في الحال.

وروى عنه أن بعض أعدائه مِنَ الهراطقة قابلوه في الطريق وقطعوا أصبعه وقيدوه، وهيَّأ الرب له من قطع الحبال التي كان مربوطًا بها.

إنه ساويرس الذي قطع كل شرور المُنشقين وثبَّت لنا الإيمان المستقيم. ويقول عنه Evelyn White الجزء الثاني ص٢٣١ "إنه في القرن الحادي عشر كان **أصبع القديس محفوظًا في أنبوبة بدير البرموس**، أما الحبال التي كان مربوطًا بها فيُقال أنها ظلت بدير القديس مكاريوس".



(٣١) هو البطريرك يوحنا التاسع بن شوشان (١٠٦٣-١٠٧٣م). (الناشر).

الفصل الثالث عشر

نياحته

هذا الأب القديس جاهد الجهاد الحسن، أكمل السعي وحفظ الإيمان، فاستحق أن ينال إكليل المجد.

عندما اِنطلق إلى **مدينة سخا**، سكن عند حاكم المدينة دوريثاوس، وكان الرب قد افتقده بمرض. وقد رأى قبل نياحته كأنَّ قومًا بمنظر باهر قد حضروا إليه: هؤلاء القوم هم القديسون الذين سبقوه، الذين كان يردد كلماتهم المقدسة ويتذكر تعاليمهم، وهم الذين قبلهم السيد المسيح مِن أجل جهادهم للإيمان المستقيم.

وفي اليوم الرابع عشر مِن شهر أمشير، رقد في الرب في بيت دوريثاوس في سنة ٥٣٨م وقام بتكفينه في أكفان ثمينة وحمله إلى الدير الذي كان القديس ينزل فيه ويتردَّد إليه كل وقت، وكان هناك أديرة كثيرة تربو على ثلاثمائة دير أغلبها تهدَّم، وهو قريب مِن مدينة الإسكندرية ويُدعى "**دير الزجاج**" (موقعه الدخيلة الآن) وجسده محفوظ به.

وروي أنه لما تنيح القديس في مدينة سخا عند دوريثاوس الأرخن المُحب لله، ونقل جسده في مركب إلى دير الزجاج غربي الإسكندرية وساروا به قليلاً لم يجدوا ماء يحمل مركبهم، فاضطربوا وقلقوا، لكن الله

حفظ جسد القديس مِن أعدائه المُبغضين له في حياته وبعد مماته، وسيَّر المركب مسافة ستة أميال إلى الساحل، ومِن هناك حملوه إلى دير الزجاج ووضعوه في المكان الذي كان قد بناه الأرخن دوريثاوس.

وكتب الأب يوحنا رئيس دير أفتونيا يقول ما ترجمته:

"ذهب إلى الصحراء التي أحبها وتنبّأ أنَّ نهاية حياته وشيكة وسينتهي كل شيء بالنسبة له، ستنتهي الحياة والجهاد معًا، وكموسى بطريقة ما سمع مَن يقول له: «اصعد إلى الجبل ومت هناك» لأنه عند قمة الجبل الروحي تتم نهاية كل حياة في الفضيلة. ولما كان القديس وحده وليس هناك أحد مِنَ الكتبة معه ليكتب، كتب خطابًا طويلاً بيده إلى الأرشمندريت يوحنا، وبواسطته وصل الخطاب إلى كل رهبان الشرق، وهذا الخطاب خاص بالاتحاد، وقد أراد أن يكون ذلك خاتمة رسائله، وتنبّأ في هذا الخطاب بموته ..."

ثم يقول واضع السيرة عن ساويرس الكبير ما يلي (مع بعض التصرُّف):

"أريد يا رجل الله التقي دوماديوس أن أوقف هنا روايتي وأتركها ناقصة لأنَّ أذن المؤمنين لا تحتمل أن تسمع عن موت ساويرس. إنَّ في هذا لعجبًا فما حدث فعل لا يُحتمل - حتى روايته - وهو يبعث الحزن على الذين سبقوا. لقد روى الكتاب المقدس لنا موت إبراهيم وموسى ويشوع بن نون وداود والأنبياء الآخرين.

ويقول داود النبي: «عزيز في عيني الرب موت صدِّيقه. الويل لي لأني منفي طول هذا الوقت. متى آتي وأرى وجه الرب؟ روحي عطشى إليك يا الله الحي». وفي موضع آخر يقول: «اخرج مِنَ الحبس نفسي» كان يُسمِّي هذه الحياة البائسة سجنًا، وكانت نهاية الحياة موتًا، والكلمة بالنسبة للقيامة غامضة جدًا لأنَّ الحمل ما كان ذُبح بعد والخطية لم تُكسر شوكتها بعد، ولا الموت كُسرت شوكته بعد.

ويروي فيما يختص بأليشع الشيء العجيب. مرض رجل الله مرض الموت وكان ذلك لازمًا لإثبات أنه لبس قوة روح إيليا معلمه. فبعد موته أقام ميتًا ولم يكن معلمه قد فعل ذلك في حياته. فالمسيح صانع العجائب أعطى أيضًا تلاميذه السلطان على عمل معجزات أكبر مِنَ التي صنعها هو نفسه. كيف إذن لا نكتب عن ذهاب القديس ساويرس مِن هنا، أعني عودته إلى الله بمجد وبطريقة عجيبة.

كان القديس قبل موته بقليل راقدًا على فراشه ضعيفًا ونصحوه أن يأخذ حمَّامًا. ولما أضجعوه على الأرض كان جسده شبه ميت ولم يقو على الجلوس، ولما رفعوه عن الحجر الذي كان مضطجعًا عليه، ترك علامة لا تُمحى... إلى أن قال: وحتى ذلك اليوم كل ما أصابه برد أو حمى أو مرض جسدي آخر كان يُشفى من مرضه عند لمسه فقط لهذا الحجر.

وجدير أن نُشبِّهه بالرسولَيْن بطرس وبولس اللذَيْن كان ظِل أحدهما يشفي الأمراض وهكذا مناديل وعصائب الآخر.

ولما رأوا ساويرس على هذه الحالة، كانوا يبكون طالبين ألا يتركهم وسط الزوبعة والاضطرابات الكبيرة، ظانين أنه يستطيع أن يبقى، ولكنه قال لهم مثل بولس الكبير: "**أيها الرجال ماذا تصنعون، تُحزِنون وتُبكون قلبي؟ إنه خير لي أن أذهب وأكون مع المسيح. إن نهاية حياتي كمُلت، وكمُلت أيضًا وظائف الرعاية التي أؤتمنت عليها. وكأب الآباء أستطيع أن أقول للرب يسوع: لم أحضر لك خرافًا إفترسها الوحوش. لقد انتهى عملي، وأني مستعد للرحيل منذ زمن طويل، وكنت أفكر فيه في كل وقت. وعن قريب تلحقون بي ونتَّحد سريعًا معًا في المسيح ونفرح إلى الأبد إذا كنا ننال نفس النهاية، حيث يقيم أولئك الذين يفرحون ويُمجِّدون الرب**".

وبعد أن قال هذه الكلمات فاضت روحه إلى السماء وفارقت جسده. انتقل إلى السماء لتستقبله البطاركة والأنبياء والمعلمين الحكماء وبالأخص معلمو الكنيسة، مُحاميًا دافع عنهم خلا الأعمال والأتعاب. وهو يفرح معهم في السماء منتظرًا يوم الدين، اليوم الأخير حيث توهب أكاليل الحق.

وبعد موته كان ينبعث مِن جسده عطر زكي، ولم يكن يفارقه في حياته، حتى أنَّ الذين كانوا يُقابلونه ويستنشقون العطر كانوا يعتقدون أنه يتعطَّر بالمر غير عالمين بالأمر.

إنه جيد ولائق أن نذهب لزيارة قبر القديس بكل إكرام، ونُصلّي إلى الله ليرحمنا ببركة صلواته لأنه أحب الرب كإبراهيم، وخدمه بأمانة كما فعل سائر الرسل."(٣٢)

ويروي الأب يوحنا رئيس دير أفتونيا إلى رجل الله دوماديوس معجزة حدثت بعد نياحة القديس ساويرس، يقول: " ... ومثل النبي أليشع صنع معجزة بعد موته، فعندما ترك هذا العالم وقد أعدوا له قبرًا لم يكن مناسبًا لطوله، وكان أقصر بكثير منه، ولم يتحقَّقوا مِن ذلك وصرفوا الصانع للقبر الذي كان غريبًا. ولما حضروا لكي يضعوا فيه الجسد لم يستطيعوا، فوقفوا متحيِّرين، وبعد أن أعملوا فِكرهم طويلاً وكان البعض يقترح أن يثنوا ركبه والبعض الآخر لا يرى مثل هذا الاقتراح ويعتبره شيئًا مكروهًا، حينئذ كما لو كانت قوة إلهية تدفعه، نزل الجسد دون أن يُكسر أي عضو أو ينثني حتى ولو قليلاً. تُرى هل صغر الجسد أو كبر القبر؟ الله وحده صانع هذه المعجزة يعلم. فهو يكرم أيضًا بعد الموت أولئك الذين يُكرمونه. وكان كل مَن به مرض وكل عاهة تشفى في اللحظة التي يقترب فيها المريض مِنَ القبر".

---

(٣٢) **وُرد في نهاية السيرة عن دير السريان ٢٩٩ ميامر:**

"هذا الخبر عن القول عن القديس أثناسيوس نسخته عن نسخة بخط يوحنا، وكذلك ما نُقل عن نسخة بخط الشيخ أبو المكارم بن أبو البدار".

ثم يوجِّه كاتب السيرة حديثه إلى دوماديوس قائلاً: إنه لم يكتب كل حياة ساويرس لأنَّ ذلك لم يكن ممكنًا فيقول: "اقتطفت بطريقة ما وردة في حديقة أو عنقودًا جميلاً مِن كرمة، وقدمتها إليك وإلى القراء لكي أكون لك مرضيًا. ولا أطلب منك جزاء لأتعابي سوى صلواتك لكي أكون مستعدًا أن أترك جسدي، ولا أظهر مذنبًا أمام منبر المسيح، هذا الذي له المجد والكرامة والسلطان مِنَ الآن وإلى دهر الدهور آمين".

وبعد ذلك دُونت العبارة الآتية وترجمتها عن الفرنسية:

تمت سيرة حياة القديس مار ساويرس بطريرك أنطاكية، التي ترجمها مِنَ اليونانية إلى السريانية رجل الدين والتقوى مار سرجيوس بن شاريا.





الفصل الرابع عشر

احتفالات الكنيسة بأعياد القديس

في كل مجال كان للقديس أثر بارز ومجهودات ضخمة لأجل الرب، وقد أعلن الملاك كرامة هذا الأب في كنيستنا القبطية، ولطول جهاده وصبره في كل الضيقات رفعته الكنيسة وأكرمته **وتذكره في مجمع القداس** بعد القديس العظيم مار مرقس الرسول مباشرة بين معلمنا ديسقورس والقديس أثناسيوس الرسولي. إنه بطل مِن أبطال الأرثوذكسية حَفظَة الإيمان المستقيم. شابه جهاده جهاد الرسل.

تُعيِّد له الكنيسة القبطية ثلاثة أعياد، وتذكر سيرته ثلاثة مرات في السنة. وقد ورد في السنكسار ذكر هذه الأعياد:

(١) العيد الأول في ٢ بابه **تذكار مجيئه إلى مصر.**

(٢) العيد الثاني في ١٤ أمشير **تذكار نياحته.**

(٣) العيد الثالث في ١٠ كيهك **تذكار نقل جسده إلى دير الزجاج.**

نرجو بشفاعات القديسة الطاهرة مريم العذراء وجميع صفوف الشهداء والقديسين أن يُقيمنا الرب عن جانبه اليمين في يوم الدين، ويصنع معنا رحمة كعظيم رحمته. وله كل مجد وإكرام مِنَ الآن وإلى الأبد آمين.



قيامة السيد المسيح
وزيارة المريمات للقبر

مقالات القديس الأنبا ساويرس

البطريرك الأنطاكي

قيامة السيد المسيح

وزيارة المريمات للقبر

المقال رقم ٧٧ مُترجم عن الفرنسية مِنَ الكتاب السادس عشر من مجموعة

PATROLOGIA ORIENTALIS

R. Graffin – F. Nau

Les Homélies Cathédrales de Sévère d'Antioche.

Homélie LXXVII

Publiée par M. A. Kugener & Edg. Triffaux

Paris 27 Sept. 1921

يوسف حبيب　　　　ملیکه حبیب

مُقدمة



في عهد القديس ساويرس البطريرك الذي جلس على كرسي أنطاكية من سنة ٥١٢م إلى سنة ٥٣٨م، وفي ليالي أيام الآحاد، كان الشعب يجتمع في الكنائس لسماع تلاوة الأناجيل عن قيامة السيد المسيح.

فحدث أن تشكَّك بعض الناس في الأناجيل، ظانين أن كلا منها يروي واقعة القيامة المُقدَّسة بطريقة مُخالفة. فأثبت في هذا المقال أنَّ **أقوال الأربعة أناجيل ليس فيها أي تناقض ولا تتعارض مع بعضها.**

وقد اهتم كوجنر وتريفو M. A. Kugener & Edge. Triffaux بنشر النص اليوناني مع ترجمة سريانية وترجمة فرنسية، وبعد أن قاما بدراسات واسعة للمخطوطات القديمة، ظهر المقال ٧٧ مِن مقالات القديس ساويرس كاملاً، وهو المقال الوحيد الذي وصل كاملاً لأول مرة باللغة الفرنسية سنة ١٩٢١. **ولم يظهر باللغة العربية منذ القرن السادس حتى الآن،** مع ما تضمَّنه مِنَ الفوائد الجليلة والمعاني الشيِّقة. وأن المقالات الأخرى لم يصلنا منها سوى أجزاء. وذلك يرجع إلى أن الإمبراطور جوستينيان Justinien حوالي سنة ٥٣٦م، أمر بحرق مؤلفات ساويرس الأنطاكي، لأنها كانت ضد مجمع خلقيدونية، وكانت عقوبة مَن ينقلها أو ينسخها هي قطع اليد.

في القـرن السـابع كانـت بعـض مؤلفـات القـديس محفوظـة في رومـا والقسطنطينية. بعد ذلك وُجِد البعض في سوريا وفي مصـر. وقد كان المقال ٧٧ ضمن مجموعة مقالات عن الأعياد الدينية في السنة، وعلى عيد القيامة. وأراد أصحاب الكتاب أن يحتفظوا به وفي الوقت نفسه لا يُصيبهم العقاب جزاء مُخالفتهم لأمر الإمبراطـور جوسـتينيان وكان قـد أمـر بحـرق كتـب القديس ساويرس. فاستبعد اسم القديس ونسب المقال لأزكيوس.

ويرجع الفضل في الترجمـة مِـنَ اليونانيـة الأصـلية ليعقـوب الرهـاوي Jacques d' Édesse وبـولس الكالينيسـي Paul de Calinice في القرن السادس.



المقال السابع والسبعون

للقديس ساويرس الأنطاكي البطريرك

إن الإنجيليين لا تتعارض أقوالهم في شيء حينما يروون الأحداث المُتعلِّقة بقيامة المسيح إلهنا ومُخلِّصنا

يقع بعض الناس في حيرة لدى قراءة الأناجيل، لأنَّ الإنجيليين لا يقولون نفس الأشياء فيما يختص بنفس الأحداث، ويزعمون أنَّ فيها أشياء مُتعارضة، وبالأحرى تجر القاري نحو عدم الإيمان. ويقولون مَن تُصدِّق؟ أتُصدِّق متَّى الذي كتب أنَّ القيامة حدثت بعد السبت عند فجر أول الأسبوع، أو يوحنا الذي روى أنَّ نفس الحدث حصل باكرًا والظلام باقٍ، أو لوقا ومرقس اللذَيْن أطلقا على نفس اللحظة: الواحد أول الفجر، والآخر شروق الشمس؟

ولكي نحل الإشكال المعروض علينا والمسائل الأخرى التي تنشأ عند قراءة نص الكتاب، يلزم، بالرغم مِن ضعفنا، أن نستعين بالإله الذي قام، ونُقدِّم شرحًا واضحًا. لأنَّ الذي زرع بذار القراءة وجعلها تنمو في آذان الجميع، قادر أيضًا أن يُبيِّن المسائل التي تثيرها. وسنُبيِّن ذلك ونستنتج حل المسائل مِنَ الكلمات ذاتها التي قالها الذين أثاروا هذه المسائل.

إنَّ مُحرِّري الأناجيل القديسين لم يقولوا أنَّ الرب إمَّا أن يكون قد قام باكرًا جدًا في أول الأسبوع، أو حينما انقضى الجزء الأكبر مِنَ الليل، أو عند الفجر أيضًا، أو حينما كانت الشمس قد أشرقت. صحيح أنه يقوم بالتناقض إذا كان المُحرِّرون قد حكموا أنَّ نفس الحدث لم يحصل في نفس الوقت، بل في أوقات مُختلفة. لكنهم كتبوا أنَّ النساء ذهبن إلى القبر، تارة في حين، وتارة في حين آخر، لكن ليس في ذات الوقت – وكيف يكون ذلك ممكنًا وقد جئن إلى القبر مرات عديدة؟ وجميعهن سمعن الملائكة يقولون نفس الشيء عن المُخلِّص أنه قام، ليس هو ههنا، دون أن يضيفوا: متى كان ذلك؟. ويتبع ذلك أنه إذا كانت القيامة قد حدثت في هذه الليلة المقدسة، باعتراف واتفاق كل الإنجيليين، ولم يذكر أحد الساعة، وهي مجهولة مِنَ الجميع، باستثناء الابن الذي قام، والآب الذي يعرف وحده الابن كما يعرفه الابن، والروح القدس الذي يفحص كل شيء حتى أعماق الله.

قال متَّى فعلاً إنَّ مريم المجدلية ومريم الأخرى جاءتا بعد السبت عند فجر أول الأسبوع، لكي تريا القبر وأنه حدث زلزال عظيم؟ وأنَّ ملاكًا نزل مِنَ السماء، وكان وجهه يُشبِه البرق، وكان ثوبه يُشبه الثلج، لكي يرهب الحراس عجبًا بمنظره الرهيب وكانتا على وشك الهلاك مِنَ الخوف، لعدم إحتمالهما منظره – ولكي يُنادي الملاك المرأتَيْن وهو بمنظره البرَّاق،

ويلهمهما الثقة، وهما بطبيعتهما يسهل إلقاء الرهبة في قلوبهما وهما خائفتان، وليُبشِّر أيضًا بالقيامة بسرور عظيم بمظهره، ولذلك أيضًا كان قد أُرسل. فبعد أن رفع الملاك الحجر، وجد أنَّ الرب قد قام وذهب، كما يليق بالله، وكان القبر مغلقًا مختومًا تحرسه دورية مِنَ الجند، بنفس الطريقة التي دخل بها البيت، إذ كانت أبوابه مغلقة، وزار تلاميذه. لذلك أيضًا قال الملاك: «لَيْسَ هُوَ هَهُنَا، لأَنَّهُ قَامَ» (مت٢٨:٦) مُشيرًا بذلك أن **قيامة المخلص حدثت بطريقة إعجازية قبل حضوره هو،** تلك القيامة التي أتمَّها المخلص بقوته الذاتيه كإله، بعد أن أكمل رسالته، دون الحاجة إلى معونة ملاك. لأنه لو كان محتاجًا إلى ملاك، لقال الملاك: "انظروا إنه يقوم" مُشيرًا بهذا أن الحدث يتم في نفس اللحظة؟ لكن بما أن القيامة حدثت قبلاً، فهو يستعمل الفعل الماضي: «لَيْسَ هُوَ هَهُنَا، لأَنَّهُ قَامَ» ويظهر هذا جليًّا أيضًا من قول الرسل وهم يُبشِّرون بالإنجيل، أن المسيح قام بالآب، فيكون بذلك الخبر مُتقبَّلاً في يُسر. وأن الملاك الذي كان أول من فتح فاه لكي يُبشِّر بالقيامة، كشف عن السلطان الذي لله الذي قام وقال: «لَيْسَ هُوَ هَهُنَا، لأَنَّهُ قَامَ». وفي ذلك إعلان قيامته بالآب. وهذا الخطاب يُناسب ضعف السامعين، لكن المقصود من قوله قام المسيح بالآب هو ذات المعنى أنه قام وليس له تأويل آخر. لأنه كيف يعمل الآب؟ إنه يعمل بقوة ذاته طبعًا. ومن هو قوة الآب؟ إنه ليس آخر سوى المسيح. المسيح إذن أقام نفسه، حتى إذا قيل أن الآب أقامه.

أما عن عبارة **باكر جدًا في أول الأسبوع**،[٣٣] فهي لا تشير إلى المساء الذي يلي غروب يوم السبت، لأن متَّى لم يقُل لفظة السبت بالمفرد بل بالجمع – السبوت. إن للعبرانيين عادة أن يُسمُّوا الأسبوع كله سبتًا. هكذا قال الإنجيليون اليوم الأول، والمقصود بذلك اليوم الأول مِنَ الأسبوع. وفي لغتنا الدارجة نُسمّي اليوم الثاني واليوم الثالث مِنَ الأسبوع، اليوم الثاني مِنَ السبوت والثالث مِنَ السبوت. متَّى لم يقُل إذن أنه كان باكرًا جدًا في أول الأسبوع، أي بعد الغروب يوم السبت، لكي يشير إلى مساء ذلك اليوم، لكن قال ذلك لكي يُبيِّن أن الوقت كان متأخرًا وبعد الغروب بزمن كثير. وهكذا اعتدنا أن نقول، جئت بعد هذه اللحظة بكثير، عندما لا نشير إلى المساء، أو إلى الوقت التالي لشروق الشمس – لغروب الشمس، لكن عندما نشير أن الشيء حدث متأخرًا جدًا، ولم يعد وقته. أن تعيين تلك العبارة: أن الوقت متأخر جدًا، وبعد نهاية الأسبوع (غروب شمس يوم السبت) بزمن كثير، ذهبت النساء إلى القبر. وكل أسبوع ينتهي عند غروب الشمس الذي يلي السبت، لذلك أشار متَّى إلى بعد اللحظة بالنسبة لنهاية الأسبوع المُنصرم، وشرح ذلك بإضافته قوله «في فجر أول الأسبوع». يقول كان الليل قد إنقضى لدرجة أنه كان وقت صياح الديك الذي يُعلِن إشراقة النهار الآتي. لذلك فإننا نفطر في تلك اللحظة وليس في المساء الذي يلي

(٣٣) «وَفِي أَوَّلِ الأُسْبُوعِ جَاءَتْ مَرْيَمُ الْمَجْدَلِيَّةُ إِلَى الْقَبْرِ بَاكِرًا» (يو ٢٠: ١)

السبت، ونبتدئ نمتع أنفسنا بالبهجة، وأن انتشار هذه العادة في كل مكان يُبيِّن صحة هذا الوقت.

في هذه اللحظة إذن، جاءت مريم المجدلية وسميَّتها (مريم الأخرى) إلى القبر ورأتا أنَّ الملاك الذي نزل مِنَ السماء، كان قد رفع الحجر، وكان جالسًا عليه. وحينما دعاهما، رأتا المكان الذي كان الرب مُضطجعًا فيه، وبعد أن أُمرتا أن تذهبا لتُبشِّرا الرسل بالخبر، خرجتا سريعًا مِنَ القبر وجريتا. وبينما هما تجريان، قابلهما يسوع وقال: "**سلام**" وكان يلزم في الواقع أن يكون جنس النساء هو أول من يرى الرب ويسمع الكلمة الأولى من فمه: "سلام". لأنَّ المرأة هي أول من استمع إلى خدعة الحية، والتي نظرت أيضًا إلى ثمرة الشجرة بخلاف الناموس، وكانت مُحرَّمة عليها، وهي التي حُكِم عليها بالحزن. لذلك سمح المخلص للنساء أن يعبدونه ويمسكن بقدميه - وكانت المريمتان هما الأولتَيْن اللتَيْن اِنطلقتا، فأمرهما السيد أن يُشرِكا التلاميذ في فرحتهما - أراد أن تكون المرأة بالنسبة للرجل رسول البهجة والسرور، وكانت لآدم سبب الحزن والشقاء، فقطع دابر السوء. يقول متَّى: «وَفِيمَا هُمَا ذَاهِبَتَانِ إِذَا قَوْمٌ مِنَ الْحُرَّاسِ جَاءُوا إِلَى الْمَدِينَةِ وَأَخْبَرُوا رُؤَسَاءَ الْكَهَنَةِ بِكُلِّ مَا كَانَ. فَاجْتَمَعُوا مَعَ الشُّيُوخِ، وَتَشَاوَرُوا، وَأَعْطَوُا الْعَسْكَرَ فِضَّةً كَثِيرَةً قَائِلِينَ: قُولُوا إِنَّ تَلاَمِيذَهُ أَتَوْا لَيْلاً وَسَرَقُوهُ وَنَحْنُ نِيَامٌ. وَإِذَا سُمِعَ ذَلِكَ عِنْدَ الْوَالِي فَنَحْنُ نَسْتَعْطِفُهُ،

وَنَجْعَلُكُمْ مُطْمَئِنِّينَ. فَأَخَذُوا الْفِضَّةَ وَفَعَلُوا كَمَا عَلَّمُوهُمْ، فَشَاعَ هَذَا الْقَوْلُ عِنْدَ الْيَهُودِ إِلَى هَذَا الْيَوْمِ» (مت٢٨:١١-١٥).

أما مريم الأخرى – ونعتقد أنها والدة الإله،[٣٤] لأنها لم تبقَ بعيدة عن الآلام، وكانت تقف بجانب الصليب، كما روى يوحنا، ويطيب أيضًا أن تُبشِّـر بالخبر المُفرح، لأنها كانت سبب الفرح، وكانت قد سمعت تلك الكلمات المجيدة توجَّه إليها «سَلاَمٌ لَكِ أَيَّتُها الـمُمتَلِئَةُ نِعْمَةً» (لو١:٢٨) فقد نفَّذت أمر الرب، وبالتأكيد قد بشَّـرت الرسل بالخبر. ولم يكن ليصح في الواقع، أن ما تدبَّر وترتب بالحكمة هكذا، لا يتم. ومما لا شك فيه أن هؤلاء الذين سمعوا الخبر لم يصدقوه – وهذا ما يحدث غالبًا حينما تُعلن عجائب عظيمة – لأنهم ما كانوا ليبقوا بلا حركة إذا كانوا قد صدقوه. أما المجدلية التي كانت تسير مع والدة الإله والتي كانت مُتعجِّلة لكي تُبشِّر بالخبر، فقد شعرت بشعور عادي بشري. مثل بطرس الذي كان قد قبض عليه هيرودس، ثم خلص بواسطة الملاك تلقائيًا مِن قيوده، وخرج مِنَ السجن وتقدَّم بعيدًا حتى تخطّى باب المدينة، فلم يُفكِّر في أنَّ ما حدث كان حقيقة، لكنه تصوَّر أنه رأى رؤيا، هكذا أيضًا تراءى لمريم المجدلية الكلام عن عظمة المعجزة الزائدة كالهذيان – وكان الحراس قد حضروا قبلها

(٣٤) يعتبر أغلب الباحثين أن مريم الأخرى ليست السيدة العذراء، لذا فيعتبر هذا الرأي خاص بصاحبه. (الناشر).

وابتدأوا يتشاورون مع رؤساء الكهنة عن إفترائهم ضد القيامة – وشعرت بالتأكيد أن شيئًا من هذا النوع يهمسون به، فاستقبلت إيحاءات الشك وأهملت رسالتها وأمر يسوع وذهبت إلى القبر «بَاكِرًا، وَالظّلاَمُ بَاقٍ» (يو٢٠:١)، كما يقول يوحنا، لأنه كما أن الرب سمح لتوما أن يقول عن عدم إيمان: «إِنْ لَمْ أُبْصِرْ فِي يَدَيْهِ أَثَرَ الْمَسَامِيرِ، وَأَضَعْ إِصْبِعِي فِي أَثَرِ الْمَسَامِيرِ، وَأَضَعْ يَدِي فِي جَنْبِهِ، لاَ أُومِنْ» (يو٢٠:٢٥). وأنه بسبب عدم إيمانه في غير تبصُّر، وبسبب لمسه السيد قد تثبَّتنا في إيماننا أن عمانوئيل قام بالجسد الذي تألم به، فبنفس الطريقة سمح أيضًا لمريم المجدلية التي كانت قد سقطت في عدم الإيمان، والتي كانت قد جرَّبت هذا الشعور بأكثر سهولة من توما – لا نجهل في الواقع أنه من طبيعة النساء أن يترددن بسهولة – سُمح أن تجعل بفحصها الدقيق الذي تجاوز الإيمان وكل تفكير معجزة القيامة أكثر تقبلاً بروح الشك هذه، وبعد أن رأت الحجر فقط الذي كان قد دُحرج بعيدًا عن باب القبر، ولم ترى الملاك جالسًا عليه كذي قبل، استسلمت لعدم الإيمان، وظنت أن الرؤيا الأولى لم تكن سوى وهمًا وخيالاً. ولما جرت نحو بطرس والتلميذ الآخر الذي كان يسوع يحبه، قالت لهما وهي تبكي: «إِنَّهُمْ أَخَذُوا سَيِّدِي، وَلَسْتُ أَعْلَمُ أَيْنَ وَضَعُوهُ!» (يو٢٠:١٣)[٣٥]

(٣٥) نعلم أن هذا الكلام كان موجهًا للملاكين وليس لبطرس ويوحنا، ولذا فيعتبر هذا الرأي خاص

إنكم ترون أنها كانت قد سمعت شيئًا من هذا القبيل في الروايات التي شاعت في الليل عند اليهود بعد تقرير الحراس، وغيرت فكرها بعد ذلك، وصدقت أن الأعداء رفعوا الحجر وسرقوا جسد يسوع، لكي يؤكدوا الإشاعة التي تقول أن التلاميذ هم الذين سرقوه – لكن بطرس ويوحنا قاما في الحال وجريا إلى القبر لأن الأقوال الشائعة التي كانت تهدف إلى جعل الناس لا يؤمنون بالقيامة لم تكن بعيدة الوقوع، بل بالحري كانت سهلة التصديق وتتفق مع خبث اليهود. ففعلا ذلك بدون خوف لأنه كان هدوء. وكان الظلام باقيًا. وكان الله قد ملأهما ثقة. وعند وصولهما وجدا إثباتات ظاهرة للقيامة. رأيا فعلاً الأكفان في القبر وكانت على الأرض، لكن هذا ما كان ليحدث لو كان الجسد قد سُرق. أولاً: كان السُرَّاق يحبون أن ينهبوا الأموات، ثم أنهم يميلون إلى أن يُتموا السرقة بسرعة كبيرة، حتى لا يُضبطوا مُتلبسين ويتحملوا العذاب بما كانوا يفعلون. لكن يوحنا كتب بخصوص جسد المسيح «فَأَخَذَا جَسَدَ يَسُوعَ، وَلَفَّاهُ بِأَكْفَانٍ مَعَ الأَطْيَابِ، كَمَا لِلْيَهُودِ عَادَةٌ أَنْ يُكَفِّنُوا» (يو١٩:٤٠) فكيف إذن لم يكن عملاً مُتعبًا للسُرَّاق أن يحلوا اللفائف وينزعوا عن الجسد الأكفان التي كانت ملتصقة به، والتي كان يصعب انتزاعها، وقد تتمزق قبل أن تُرفع. لأنها كانت قد رُبطت معًا بمزيج من مُر وعود كان نيقوديموس قد

بصاحبه، ولم نشأ تركه للأمانة النقليَّة. (الناشر).

أحضرها «وَالْمِنْدِيلَ الَّذِي كَانَ عَلَى رَأْسِهِ لَيْسَ مَوْضُوعًا مَعَ الأَكْفَانِ، بَلْ مَلْفُوفًا فِي مَوْضِعٍ وَحْدَهُ» (يو٢٠:٧). كان ذلك لا يشير إلى عدم ترتيب. كما يكون الحال لو كان اللصوص قد سرقوا الجسد. في الواقع، أين كان يجد اللصوص الوقت والاطمئنان اللازم لكي يلفوا في ترتيب المنديل الذي كان يُغطِي الرأس ويضعوه جانبًا؟ هذا التفصيل أيضًا يُقرِّر إذن بوضوح حقيقة القيامة، وفي نفس الوقت يُعلن سرًا يليق بالله، نظرًا لأن الرأس يمثِّل اللاهوت، حسب قول الكتاب: "الله رأس المسيح"،[٣٦] وأنَّ المسائل المتعلقة باللاهوت، تبقى حتى بعد التأنس، كأنها ملفوفة ولا يمكن تفسيرها، بينما الأشياء مِنَ النوع الأقل، المُتعلِّقة بالجسد وبالإقامة على الأرض بين الناس كانت الأكفان ترمز إليها.

بعد أن رأيا كل هذا، آمن بطرس ويوحنا، لأنهما نظرا ليس مجرد النظر ببساطة، لكن بفهم رسولي عالٍ. كان القبر في الواقع مملوء نورًا، ومع أنه كان الوقت ليلاً، فإنهما رأيا جيدًا ما بداخله: بالحس وبالروح. لأنه إذا كان الأبرار يمتلكون النور دائمًا، حسب قول الكتاب، فكم بالحري الصديقين. يقول يوحنا أنهم لم يؤمنوا «لأَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا بَعْدُ يَعْرِفُونَ الْكِتَابَ: أَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يَقُومَ مِنَ الأَمْوَاتِ» (يو٢٠:٩) وكان الرسل بالتأكيد يعرفون أنه يقوم. لأنَّ المخلص كان قد قال ذلك لهم قبلاً، ولم يكونوا

(٣٦) «أَنَّ رَأْسَ كُلِّ رَجُلٍ هُوَ الْمَسِيحُ. وَأَمَّا رَأْسُ الْمَرْأَةِ فَهُوَ الرَّجُلُ. وَرَأْسُ الْمَسِيحِ هُوَ اللهُ» (١كو١١:٣) (الناشر)

ليعرفوا ذلك كأناس مقتنعين بالكتب وبالنبوات المُعلنة فيها – وما كان يمكن إلا أن تتحقق – كأناس كان إيمانهم لا يزال مهزوزًا.

وكون المسيح قام عريانًا بدون الأكفان، يؤكد أولاً أنه ما عاد أبدًا يُعرف حسب الجسد، ولن يحتاج إلى طعام أو شراب، ولا ثياب أو ملابس، وحينما كان يكمل رسالته كان يُخضِع ذاته بإرادته لهذه الأشياء، لأنه اشترك في نفس الطبيعة معنا، ثم بعد ذلك، فهو يشير إلى عودة آدم إلى حالته الأولى، حينما كان عريانًا في الفردوس ولم يكن يستحي، وفضلاً عن ذلك، بصفته الله، فإنه حتى في تجسده، كان يلبس المجد الذي يليق بالله، وهو ذاته الذي يشتمل بالنور مثل الثوب، كما يقول النبي داود.

لكن بطرس ويوحنا، وهما مقتنعان بما رأياه، عادا إلى بيتهما ولم يقولا شيئًا لمريم لأنه، بما أنها كانت قد سقطت في عدم الإيمان، شاء الإله الحكيم أن تقتنع عند النظر أولى من اقتناعها بالسمع «فكانت تقف بجانب القبر تبكي خارجًا»،(٣٧) ولما انحنت رأت ملاكين، كانت ملابسهما تظهرهما ناصعا البياض، وكانا «جَالِسَيْنِ وَاحِدًا عِنْدَ الرَّأْسِ وَالآخَرَ عِنْدَ الرِّجْلَيْنِ، حَيْثُ كَانَ جَسَدُ يَسُوعَ مَوْضُوعًا» (يو٢٠:١٢). وبينما كان يجب أن تبدل حزنها بالفرح، كانت لا تزال تذرف الدموع لدرجة أن الملاكَيْن قالا لها: «يَا امْرَأَةُ، لِمَاذَا تَبْكِينَ؟» وهذا كان يعني أن هذه الدموع هي دموع امرأة

---

(٣٧) «أَمَّا مَرْيَمُ فَكَانَتْ وَاقِفَةً عِنْدَ الْقَبْرِ خَارِجاً تَبْكِي» (يو ٢٠ : ١١) (الناشر)

وليس دموع إنسان حكيم. أين مجال النحيب بعد مشهد كهذا؟ هذه مريم فريسة عدم الإيمان – في الواقع كان الاثم ينتشر، وما كان يهدف إلى أحداث الإيمان كان ينتهي بإبعاده – قالت لهم: «إِنَّهُمْ أَخَذُوا سَيِّدِي، وَلَسْتُ أَعْلَمُ أَيْنَ وَضَعُوهُ!. وَلَمَّا قَالَتْ هَذَا الْتَفَتَتْ إِلَى الْوَرَاءِ، فَنَظَرَتْ يَسُوعَ وَاقِفًا، وَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّهُ يَسُوعُ» (يو٢٠:١٣، ١٤) هذا كان يعود بعض الشيء إلى أن الرؤية كانت غير واضحة بسبب الدموع، وكأنها مثقلة بحجاب. وإلى أنَّ يسوع كان يحرص مؤقتًا على ألا تتعرف عليه. لذلك قال: «يَا امْرَأَةُ، لِمَاذَا تَبْكِينَ؟ مَنْ تَطْلُبِينَ؟ فَظَنَّتْ تِلْكَ أَنَّهُ الْبُسْتَانِيُّ، فَقَالَتْ لَهُ: يَا سَيِّدُ إِنْ كُنْتَ أَنْتَ قَدْ حَمَلْتَهُ فَقُلْ لِي أَيْنَ وَضَعْتَهُ، وَأَنَا آخُذُهُ» (يو٢٠:١٥).

ربما لم تخطئ في أصول اللياقة إذ ظنته أنه البستاني، فهو بالحقيقة زارع الفردوس الحقيقي الأزلي، الذي يقوم في بستان القبر كما في الفردوس المرأة التي خدعت بغدرها آدم البستاني الأول.

كل الأشياء كانت إلى هذه الدرجة مليئة بالأسرار وبكلمات إلهية عالية. ولكن لما قالت مريم ذلك وتسلطت عليها رغبة قوية في البحث عن الجسد، ولمَّا التفتت أكثر فأكثر، وكانت على وشك المُضي، فإن ذلك الذي يدخل «مَفْرَقِ النَّفْسِ وَالرُّوحِ وَالْمَفَاصِلِ وَالْمِخَاخِ ويُميِّز أَفْكَارَ الْقَلْبِ وَنِيَّاتِهِ» (عب٤:١٢) لما رأى أنها جرَّبت بكفاية. أزال عدم إيمانها بكلمة واحدة، وجعل نظرها حادًا لكي تعرفه، مُكتفيًا بالقول، كما يعرف

هو وحده أن يقول، بطريقة جعلتها تلتفت «يَا مَرْيَمُ» وفي الحال التفتت وقالت له: «رَبُّونِي! الَّذِي تَفْسِيرُهُ: يَا مُعَلِّمُ» (يو٢٠:١٦) كانت تريد أن تمسك بقدميه الإلهيَّيْن، ولكنها سمعته يقول لها: «لاَ تَلْمِسِينِي لأَنِّي لَمْ أَصْعَدْ بَعْدُ إِلَى أَبِي» بينما أنتِ نلتِ هذه العطية ولمستيني مع مريم الأخرى، وعبدتيني وأمسكتِ بقدمي، فإنَّه لم يكن لكِ فكرة عالية بخصوصي حتى أنكِ أصبحت غير مؤمنة، ومازلتِ تبحثين حول القبر عمن يسكن في العلا، بجانب الآب، والآن لا تلمسيني، وأنتِ لا زلتِ في نفس الشعور الروحي تفكرين أنه بقى لي – وأنا الساكن في العلا – أن أصعد إلى الآب «لأَنِّي لَمْ أَصْعَدْ بَعْدُ» بحسب رأيك «إِلَى أَبِي. وَلَكِنِ اذْهَبِي إِلَى إِخْوَتِي وَقُولِي لَهُمْ: إِنِّي أَصْعَدُ إِلَى أَبِي وَأَبِيكُمْ وَإِلَهِي وَإِلَهِكُمْ» (يو٢٠:١٧).

بما أني كنت حسب الجسد «بِكْرًا بَيْنَ إِخْوَةٍ كَثِيرِينَ» (رو٨:٢٩) ليس لأجلي أنا، بل لأجلكم أنتم يا إخوتي أصعد الآن جسديًا إلى أبي وأبيكم، إلى إلهي وإلهكم. إن لم يكن الآب دعا ذاته إلهي، بعد أن رأى فيّ براءة الطبيعة البشرية، لأني بلا خطيئة كما في بداية الجنس البشري (قبل سقوط آدم)، ما كان قد دُعي أباكم وإلهكم وأنتم الذين إبتعدتم عنه، ولذلك بولس حينما يكتب للعبرانيين، يقول «لأَنَّ الْمَسِيحَ لَمْ يَدْخُلْ إِلَى أَقْدَاسٍ مَصْنُوعَةٍ بِيَدٍ أَشْبَاهِ الْحَقِيقِيَّةِ، بَلْ إِلَى السَّمَاءِ عَيْنِهَا، لِيَظْهَرَ الآنَ أَمَامَ وَجْهِ اللهِ لأَجْلِنَا» (عب٩:٢٤).

ذهبت إذن مريم المجدلية لتبشير التلاميذ أنها رأت الرب وأنه قال لها هذه الأشياء. وحينما وصلت وأخبرت بكل هذا، وجدت في هذه المرة مريم أم يعقوب، ويونا، النساء الأخريات اللواتي كنَّ معها وكنَّ ذاهبات بسرعة إلى القبر مع الأطياب والعطور، في الوقت الذي فيه انتهى الظلام وكان الفجر على وشك الطلوع، أي أنه كان واضحًا وأنه ابتدأ لتوه كما يقول لوقا: «ثُمَّ فِي أَوَّلِ الأُسْبُوعِ، أَوَّلَ الْفَجْرِ، أَتَيْنَ إِلَى الْقَبْرِ حَامِلاَتٍ الْحَنُوطَ الَّذِي أَعْدَدْنَهُ» (لو٢٤:١). فانضمت لهن واتجهت معهن. وبسبب شدة محبتها ليسوع، كانت تظهر أنها الأولى، والإنجيليون يذكرونها أولاً بسبب هذه الصفة الخاصة. وكانت ترغب في أن يقتنعن أيضًا بالقيامة، ليس بما كنَّ يسمعن مما قيل لها ولمريم الأخرى، لكن بالمنظر نفسه أمام أعينهن أو بظهور ملائكة. وكانت تصحبهن، فهي تصمت بحرص ولا تقول شيئًا، ومع أنهن لم يبلغن اليقين، لكنهنَّ كنَّ ينتظرن شهادة القيامة، وكانت مقتنعة أنَّ اليقين تقدمه أعينهن نفسها. فلما رأين الحجر مرفوعًا مِن أمام القبر دخلن إلى الداخل ولم يجدن جسد يسوع. وفيما هن متحيِّرات رأين رجلَيْن بلباس برَّاقة وقد وقفا أمامهن وقالا لهن: «لِمَاذَا تَطْلُبْنَ الْحَيَّ بَيْنَ الأَمْوَاتِ؟ لَيْسَ هُوَ هَهُنَا، لَكِنَّهُ قَامَ! » ... إلخ (لو٢٤:٥، ٦). وبعد أن رجعن مِنَ القبر، يقول لوقا: «وَأَخْبَرْنَ الأَحَدَ عَشَرَ وَجَمِيعَ الْبَاقِينَ بِهذَا كُلِّهِ» (لو٢٤:٩). ولكن الباقين لأنهم كانوا كثيرين، وكانوا بالأحرى غير مُصدِّقين الخبر

الذي بشروا به ورفضوه، يضيف لوقا: «فَتَرَاءَى كَلاَمُهُنَّ لَهُمْ كَالْهَذَيَانِ وَلَمْ يُصَدِّقُوهُنَّ» (لو٢٤:١١). ونتج عن ذلك أن بطرس خف مسرعًا إزاء عدم إيمانهم، وهو مضطرب بعض الشيء، وجرى ثانية إلى القبر، وانحنى ورأى مرة أخرى الأكفان على الأرض، وهي الأكفان التي سبق أن نظرها بأكثر انتباه حينما كان قد دخل القبر. لذلك اكتفى بأن ينحني، ولمَّا لم يجد شيئًا آخر، ذهب، متعجبًا منذهلاً لِمَ حدث ومُمجِّدًا ذلك الذي رتَّب كل هذا.

ومرة أخرى، كما سبق أن اصطحبت في الفجر الأول يونا وزميلاتها اللواتي كنّ أحضرن الحنوط والأطياب التي كنّ جهزنها قبل السبت، بنفس الطريقة كانت مريم المجدلية تجري، بدون تأخير، منتعشة بذات الاِستعداد الروحي مع سالومة، وهي امرأة غريبة بالمقارنة مع اللواتي ذكرت أسماؤهن، وهي التي اشترت أطيابًا بعد السبت – بعد أن أخذت معها مريم أم يعقوب، حتى أنهن كنّ يظهرن كأنهنّ اشتركن أيضًا في شراء العطور، وبعد أن قطعن الطريق سويًا، فقد تركن في الواقع الناس ينسبون إليهن كل ما تم، كأنه عمل مشترك – باكرًا جدًا في أول يوم في الأسبوع ذهبن إلى القبر. كلمة "أيضًا" تظهر في الواقع في المخطوطات الأكثر دقة وتبين أنه فضلاً عن مرات الوصول إلى القبر التي كانت قد حدثت، كانت هذه المرة التي وصلت فيها النساء إلى القبر أيضًا. وأضاف مرقس شارحًا كلمات "باكرًا جدًا" بقوله: «إِذْ طَلَعَتِ الشَّمْسُ» واستطر قائلاً: «وَكُنَّ يَقُلْنَ فِيمَا

بَيْنَهُنَّ: مَنْ يُدَحْرِجُ لَنَا الْحَجَرَ عَنْ بَابِ الْقَبْرِ؟ فَتَطَلَّعْنَ وَرَأَيْنَ أَنَّ الْحَجَرَ قَدْ دُحْرِجَ! لأَنَّهُ كَانَ عَظِيمًا جِدًّا» (مر١٦:٣، ٤).

بينما كانت سالومة مرتبكة، نظرًا لأنها لم تكن قد أتت مطلقًا بعد إلى القبر، وأنها كانت توجه هذه الكلمات إلى النساء اللواتي كن يسرن معها، وكانت أولئك صامتات واكتفين بأن يرفعن بصـرهن، ورددن على سالومة بنظرتهن. كان الحجر في الواقع يظهر مرفوعًا أمام العيون. ولكن لأنهن كنَّ قد قطعن نفس الطريق بعضهن مع بعض. روى الكتاب أنهن كنَّ متحيِّرات.

وإذا كنا نتقيّد بصحة الرواية وبطبيعة الأشياء، وإذا كنا نفحص عمَّن يحق له أن يكون متحيِّرًا، فنعرف أنه كان مِن غير المحتمل أنَّ النساء اللواتي سبق أن رأين الحجر مرفوعًا يهتممن بذلك. ولكن نظرًا لأنه بين النساء اللواتي يذكرهن مرقس، سالومة التي كانت تجهل كل شيء. فإن الحديث حقيقيًا لا ريب فيه (بما أنها هي المتكلمة). لم يكن أيضًا طبيعيًا أن تعلن: «مَن الذي يدحرج لنا الحجر» لأنَّ اليهود كانوا قد ختموا مدخل القبر وأقاموا مركزًا للعسكر، وكان اليوم الثالث وشيكًا. لأن الأنجاس قالوا لبيلاطس: «يَا سَيِّدُ، قَدْ تَذَكَّرْنَا أَنَّ ذَلِكَ الْمُضِلَّ قَالَ وَهُوَ حَيٌّ: إِنِّي بَعْدَ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ أَقُومُ» (مت٢٧:٦٣).

إذا كانت النساء يعرفن المعجزة التي حدثت بواسطة الملاك، وهي رفع الحجر، وإذا كان النساء يعرفن أن الحراس انسحبوا في حالة رعب شديد، فكيف كنَّ متحيرات بخصوص رفع الحجر؟ وإذا كنَّ يجهلن المعجزة، فكان لزامًا عليهنّ أن يتفكَّرن في مركز العسكر ولا يتصوَّرن أنهن يستطعن أن يفتحن القبر. لكن كانت سالومة تجهل كل هذا وكانت الكلمات موضع السؤال لها وحدها.

وفعلاً جلست مريم المجدلية ومريم الأخرى أمام القبر، كما روى متَّى. ولما جلستا هناك بثبات رأتا أختام اليهود وحراسة الجند. ولما دخلت سالومة والمريمتان «رَأَيْنَ شَابًّا جَالِسًا عَنِ الْيَمِينِ لاَبِسًا حُلَّةً بَيْضَاءَ» (مر١٦:٥) وخفن كلهن: سالومة لأنه كان ينقصها الإيمان وكانت في حالة إستعداد بشرية، والأخريات كنَّ يحضرن بإستمرار إلى القبر وكنَّ يظهرن تبعًا لذلك أنهن يتحقَّقن مِنَ القيامة أكثر مما يجب.

لهذا السبب إذن، ظهر لهن شاب، كان يستطيع أن يذهلهن ويوحي إليهن بالخوف، وكان ما إعتراهن مِنَ الخوف بسببه مصحوبًا بالفرح وذلك لبياض ثوبه، ونظرًا لأنه كان يوم عيد ولم يكن يريد أن يستبد بهن الخوف، وتحدث معهن بقساوة مؤنِّبًا إياهنّ، وانتهرهنّ قائلاً لهنّ ألا يستمررن في إظهار الفضول غير اللائق بعد أن كنَّ شهودًا لأشياء عظيمة بهذا المقدار بل أن يقفن بثبات عند ما رأين.

قال لهن فعلاً: «لَكِنِ اذْهَبْنَ وَقُلْنَ لِتَلاَمِيذِهِ وَلِبُطْرُسَ: إِنَّهُ يَسْبِقُكُمْ إِلَى الْجَلِيلِ. هُنَاكَ تَرَوْنَهُ كَمَا قَالَ لَكُمْ» (مر١٦:٧) لتلاميذه، لأنهم كانوا مرات عديدة غير مصدقين، مدفوعين بنفس الفضول مثلكن – وأنه يسبقكم إلى الجليل هناك ترونه كما قال لكم.

لما ظهر لكنَّ أيتها النساء «بَعْدَ السَّبْتِ، عِنْدَ فَجْرِ أَوَّلِ الأُسْبُوعِ» كما كتب متَّى (مت٢٨:١) لا يبدو مطلقًا أنه قال لتلاميذه أنه سوف يظهر لهم بعد قيامته في الجليل. إلا إذا كنَّا نُسلِّم بأن ما كتبه متَّى ومرقس، كان كما قاله المخلص حينما ذهبوا بعد العشاء الرباني إلى جبل الزيتون بعد أن سبَّحوا (مت٢٦:٣٠) «لَكِنْ بَعْدَ قِيَامِي أَسْبِقُكُمْ إِلَى الْجَلِيلِ» (مر١٤:٢٨). ولما خرجن مِنَ القبر وكنَّ خائفات مرتجفات، هربت المريمات وسالومة ولم يقُلن لأحد شيئًا لأنهن كنَّ خائفات أولاً لأنَّ الشاب كان يوحي إليهن بالخوف، ثم لأنَّ النهار كان قد تقدَّم وكان اليهود على الأرجح يتجولون في كل إتجاه، متعطشين إلى الدماء.

في المخطوطات الأكثر دقة: ينتهي الإنجيل حسب مرقس بكلمات: «لأَنَّهُنَّ كُنَّ خَائِفَاتٍ» وفي البعض أيضًا، نقرأ هذه الكلمات: «وَبَعْدَمَا قَامَ بَاكِرًا فِي أَوَّلِ الأُسْبُوعِ ظَهَرَ أَوَّلاً لِمَرْيَمَ الْمَجْدَلِيَّةِ، الَّتِي كَانَ قَدْ أَخْرَجَ مِنْهَا سَبْعَةَ شَيَاطِينَ» (مر١٦:٩). هذه القطعة تظهر كأنها تتعارض مع ما سبق أن قلناه عن وقت قيامة المخلص. بما أن الساعة التي قام فيها المخلص ليلاً هي ساعة مجهولة، كيف نفسِّر إذن الكتب أنه قام باكرًا؟ وليس هناك أي

تعارض إذا أمعنا النظر وقرأنا بلباقة. لأنه يجب أن نضع النقط بفهم «بَعْدَمَا قَامَ» ثم أضاف «بَاكِرًا فِي أَوَّلِ الأُسْبُوعِ ظَهَرَ أَوَّلاً لِمَرْيَمَ الْمَجْدَلِيَّةِ» (مر١٦:٩) حتى تكون كلمات «بَعْدَمَا قَامَ» منسوبة للماضي، بالاتفاق مع متَّى، وتكون كلمات «بَاكِرًا فِي أَوَّلِ الأُسْبُوعِ» مرتبطة بالرؤيا التي ظهرت لمريم التي رأت الرب أولاً، مع مريم الأخرى، ثم مرة أخرى وحدها. والصباح هو في الواقع كل الوقت الذي يلي صياح الديك.

بما أنَّ النساء حضرن إلى القبر في أربعة أوقات، فيكون إذن وصول النساء على أربع دفعات. فإن الروح القدس حرص على كل مِنَ الإنجيليين أن يصف وقتًا واحدًا. **فمتَّى** تكلم عن النساء اللواتي وصلن إلى القبر «وَبَعْدَ السَّبْتِ، عِنْدَ فَجْرِ أَوَّلِ الأُسْبُوعِ» وروى أن ملاكًا نزل مِنَ السماء ودحرج الحجر، **ويوحنا** كتب أن مريم المجدلية وصلت وحدها في الظلام قبل الفجر، وأنها رأت ملاكين داخل القبر، **ولوقا** كتب أنَّ النساء الأخريات حضرن في لحظة الفجر عينها، **ومرقس** كتب أنَّ امرأة أخرى وصلت في لحظة شروق الشمس، يصحبها بعض النساء اللواتي كنَّ سبق أن ذهبن إلى القبر، فرأت الأوليَّات رجلَيْن واقفَيْن أمامهن، والأخيرات رأين شابًا جالسًا عن يمينهن. وكلمهم (الملائكة والرجال والشاب) كانوا لابسين ثيابًا بيضاء. ويتبع ذلك أنَّنا نستطيع، بجمعنا بحسب ترتيب الأوقات، ما كتبه كل إنجيلي، أن نكوِّن مجموعة واحدة متناسقة لكل الرواية، كما لو كان شخص واحد، وليس أشخاص كثيرون، هو الذي كتب الكل.

فإذا كان الإنجيليون قد ذكروا مجيئًا واحدًا للنساء في لحظة واحدة، وإذا لم يكونوا قد قالوا أن نفس الملائكة قد ظهروا لهن، أو إذا كانوا بعد أن تكلموا عن نفس الظهور وعن نفس الرؤيا، قالوا أنها حدثت في أوقات مختلفة، غير ذاكرين وقتًا واحدًا، لكانت الرواية فيها لبس التعارض. لكن إذا كانت الأوقات والأشخاص تختلف، والظهور ليس هو في كل مرة نفسه – لأن الله أراد أن يجعل معجزة القيامة العجيبة قابلة للتصديق بطرق كثيرة – وإذا كان ما لم يقُله أحد الإنجيليين قد رواه إنجيلي آخر، كيف لا تكون كل الرواية صحيحة وأعلى مِن كل نقد؟.

بما أن الأناجيل تذكر مريمات كثيرات، يجب أن نعلم أنه يوجد ثلاث فقط، ذكرهن جميعًا يوحنا: «وَكَانَتْ وَاقِفَاتٍ عِنْدَ صَلِيبِ يَسُوعَ، أُمُّهُ، وَأُخْتُ أُمِّهِ مَرْيَمُ زَوْجَةُ كِلُوبَا، وَمَرْيَمُ الْمَجْدَلِيَّةُ» (يو١٩:٢٥).

نعتقد فعلاً، أن مريم المدعوة أم يعقوب ويوسي عند الإنجيليين الآخرين، هي والدة الإله وليست أخرى.[٣٨] لأنه كما أنه بسبب التدبير ولكي يكون الميلاد خفيًا وليس مُعلنًا لليهود القتلة، فقد روى أنه في الوقت الذي فيه كانت العذراء على وشك أن تُقاد إلى غرفة العرس لكي تحبل مِنَ الروح القدس، في هذا الوقت دُعي يوسف زوج العذراء ووالد يسوع، بنفس الطريقة التي كانت تدعى والدة الإله وتُسمّى أم يوسي ويعقوب، الذين كانا ولدي يوسف النجار، ولدَيْن مازالا صغيرَيْن، مولودَيْن

(٣٨) يعتبر هذا الكلام وباقي هذه القطعة رأي خاص بالمؤلف. (الناشر).

مِن زواج سابق ومِن زوجة ماتت قبلاً. هذا هو السبب في أن اليهود كانوا يقولون وهم يجدفون ضد المُخلِّص: «أَلَيْسَ هَذَا هُوَ يَسُوعَ بْنَ يُوسُفَ، الَّذِي نَحْنُ عَارِفُونَ بِأَبِيهِ وَأُمِّهِ؟» (يو٦:٤٢). لذلك أيضًا دعاها يوحنا، بينما كانت تقف بالقرب مِنَ الصليب، والدة يسوع، وفقًا للحقيقة، نظرًا لأنه كان يُعبِّر عن نفسه بصراحة فيما يختص بألوهية المسيح، بينما الإنجيليون الآخرون، باهتمامهم الزائد بالتدبير، كانوا يدعونها، وفقًا للتدبير، أم يعقوب ويوسي، اللذين كانا ولدي يوسف المعروفين بالأكثر ضمن أولاده – إن تفسيرنا يُبيِّن بوضوح أنه بسبب هذا التدبير وبسبب الرأي الذي عيَّنه، كانت مريم تحضر آلام المُخلص بدون أن يكون هناك ثمة خطر عليها، لأنه إذا كانت العذراء قد عرفتها الجموع، لكان اليهود الحاسدون قد أهلكوها. ويحدث أننا نجدها مدعوة عند الإنجيليين، بحسب واحد فقط من أولاد يوسف، مريم أم يعقوب، ومريم أم يوسي، مرقس دعاها أم يعقوب الصغير ويوسي. كان هناك في الواقع يعقوب آخر ابن حلفى، الذي كان عظيمًا لأنه كان ضمن عدد الاثني عشر رسولاً، ولم يكن يعقوب الصغير[٣٩] من ضمنهم.

وقد نتساءل: كيف أنَّ المخلص، بعد أنْ وعد تلاميذه تارة بواسطة الملائكة، وتارة شخصيًا بأنه سوف يظهر لهم عند وصولهم إلى الجليل،

(٣٩) يُعرف يعقوب ابن حلفى بيعقوب الصغير تميزًا له عن يعقوب بن زبدي الذي عُرف بيعقوب الكبير، والاثنين مِن تلاميذ السيد المسيح. (الناشر).

كيف يقدم وعده ويظهر لهم في القدس ذاتها؟ حسب لوقا يظهر للأحد عشر المجتمعين يوم القيامة ذاته، حسب يوحنا يظهر في ذلك اليوم وفي اليوم الثامن، يقف في وسطهم ويقول: «سلاَمٌ لَكُمْ! » ويترك توما يلمسه (يو٢٠:٢٧). إن هذا يُقرر غنى سماحته ومحبته للبشر، ولا يمكن أن يوصف بأنه متناقض. فلم يقل "سوف يرونني فقط في الجليل" وبعد أن ظهر في القدس، لم يمتنع عن أن يظهر في الجليل كما وعد. لكنه إذا كان قد ظهر لهم، من ناحية في أورشليم، حينما كانوا مغلقين على أنفسهم الأبواب في بيت خوفًا مِنَ اليهود، وكانوا يحتاجون إلى تشجيعه، وإذا كان من ناحية أخرى برّ بوعده بظهوره لهم في الجليل، فإن الظهور الواحد والظهور الآخر، اللذين حدثا حقيقة يُبيِّنان محبته للبشر.

ويبدو أن ما قيل في متّى بخصوص التلاميذ، أي «اِذْهَبَا قُولاَ لإِخْوَتِي أَنْ يَذْهَبُوا إِلَى الْجَلِيلِ وَهُنَاكَ يَرَوْنَنِي» (مت٢٨:١٠) له معنى على جانب عظيم مِنَ الأهمية، بما أن ظهورًا كثيرًا قد حدث لهم، فإن الوعد الذي وعد يسوع أنه سيتراءى لهم على الجبل، يختص برؤيا لها أهمية خاصة أكثر مِنَ الرؤى الأخرى. إنه يقول لهم حينئذ بسلطان يليق بالله، حينما اقتربوا منه وعبدوه بينما كان البعض يشكون: «دُفِعَ إِلَيَّ كُلُّ سُلْطَانٍ فِي السَّمَاءِ وَعَلَى الأَرْضِ» (مت٢٨:١٨). إنَّ القوة التي يملكها، بصفته إلهًا يقول في قوله أنه يأخذها، لأنه صار إنسانًا من أجل التدبير: «وَالآنَ مَجِّدْنِي أَنْتَ أَيُّهَا الآبُ عِنْدَ ذَاتِكَ بِالْمَجْدِ الَّذِي كَانَ لِي عِنْدَكَ قَبْلَ كَوْنِ الْعَالَمِ» (يو١٧:٥). لو لم يكن له هذا

المجد كمجد ذاتي، بصفته الله، لكان يستحيل أن يأخذه كمجد غريب، لأنَّ الآب يقول بفم النبي «أَنَا الرَّبُّ هَذَا اسْمِي وَمَجْدِي لاَ أُعْطِيهِ لِآخَرَ» (إش٤٢:٨).

إنه يضيف بعد ذلك الكلمات التي بواسطتها تعيَّن عليهم أن يصطادوا الناس في الشبكة «فَاذْهَبُوا وَتَلْمِذُوا جَمِيعَ الأُمَمِ وَعَمِّدُوهُمْ بِاسْمِ الآبِ وَالاِبْنِ وَالرُّوحِ الْقُدُسِ. وَعَلِّمُوهُمْ أَنْ يَحْفَظُوا جَمِيعَ مَا أَوْصَيْتُكُمْ بِهِ. وَهَا أَنَا مَعَكُمْ كُلَّ الأَيَّامِ إِلَى انْقِضَاءِ الدَّهْرِ. آمِينَ» (مت٢٨:١٩، ٢٠). وأخيرًا يضيف الكلمات التي تكفل إتمام هذه الأوامر وتحقيقها: «وَهَا أَنَا مَعَكُمْ كُلَّ الأَيَّامِ إِلَى انْقِضَاءِ الدَّهْرِ» لهذا السبب يقول: «اِذْهَبَا قُولاَ لإِخْوَتِي أَنْ يَذْهَبُوا إِلَى الْجَلِيلِ وَهُنَاكَ يَرَوْنَنِي» منوِّهًا إلى هذه الرؤيا، كأنها رؤيا خاصة غير عادية لم تكن. قال متَّى: «وَأَمَّا الأَحَدَ عَشَرَ تِلْمِيذًا فَانْطَلَقُوا إِلَى الْجَلِيلِ إِلَى الْجَبَلِ، حَيْثُ أَمَرَهُمْ يَسُوعُ» (مت٢٨:١٦).

نظرًا لأنَّ الرب لم يعِد في أي مكان مِنَ الأناجيل بأنه سوف يظهر على الجبل موضع الحديث. وقبل أن يجعل نفسه مرئيًا على الجبل، ظهر لهم أيضًا عند بحر طبرية في الجليل، وكان عددهم سبعة وهم: بطرس، توما، نثنائيل، أولاد زبدي، وإثنان آخران مِن تلاميذه، كما روى يوحنا (يو٢١:١، ٢) والجبل الذي أمرهم يسوع أن يتواجدوا فيه، هو الذي كانت تشير إليه هذه الكلمات: «هناك ترونني». أمر واضح بطريقة تليق بالله. «فَاذْهَبُوا وَتَلْمِذُوا

جَمِيعَ الأُمَمِ وَعَمِّدُوهُمْ بِاسْمِ الآبِ وَالاِبْنِ وَالرُّوحِ الْقُدُسِ» (مت٢٨:١٩) وليس عن غير قصد، قيلت هذه الكلمات على جبل الجليل وليس في مكان آخر. فترجمة كلمة "جليل"، في الواقع تعني التدحرج من أعلى إلى أسفل، لذلك أيضًا تسمّى العجلة بذلك الاسم. إذن فهي منطوق بها بفم المخلص، كما مِن أعلى جبل مرتفع، فكانت هذه الكلمات تتدحرج، مثل عجلة على الأرض وتجوب فيها كلها، والجميع اعتمدوا في الأمم وفي المدن باسم الآب والابن والروح القدس.

لكن التلاميذ، بعد أن سمعوا هذه الكلمات، لم يذهبوا في الحال إلى أي أمَّة. بل بقوا في أورشليم حتى حلول الروح القدس في العنصرة، منتظرين مجيء الروح القدس الذي حلّ عليهم تحت شكل ألسنة نار (أع٢:٣، ٤).

وكان يظهر لهم بهذه الطريقة ويجتمع معهم مرات عديدة، لمدة أربعين يومًا، كما يقول لوقا في بداية سفر الأعمال، وكان يأمرهم ويوصيهم قائلاً ألا يبتعدوا عن أورشليم بل ينتظروا موعد الآب الذي سمعتموه مني، يقول لهم: «أَنْ لاَ يَبْرَحُوا مِنْ أُورُشَلِيمَ بَلْ يَنْتَظِرُوا مَوْعِدَ الآبِ الَّذِي سَمِعْتُمُوهُ مِنِّي. لأَنَّ يُوحَنَّا عَمَّدَ بِالْمَاءِ وَأَمَّا أَنْتُمْ فَسَتَتَعَمَّدُونَ بِالرُّوحِ الْقُدُسِ لَيْسَ بَعْدَ هَذِهِ الأَيَّامِ بِكَثِيرٍ» (أع١:٤، ٥).

لسبب أكيد استعمل عبارة «أَنْ لاَ يَبْرَحُوا» أي ألا يتفرَّقوا طويلاً وألا يذهبوا بعيدًا، ولم يقُل لهم ألا يخرجوا إطلاقًا مِن أورشليم. لأنه كيف كان

يمكنه أن يقول لهم ذلك وهو الذي أمرهم أن يذهبوا إلى الجليل؟ يجب أن نفهم أيضًا أنَّ ما قيل في آخر إنجيل لوقا: «وَفِيمَا هُوَ يُبَارِكُهُمْ، انْفَرَدَ عَنْهُمْ وَأُصْعِدَ إِلَى السَّمَاءِ» (لو٢٤:٥١).

وأيضًا ما هو مكتوب في إنجيل مرقس: «ثُمَّ إِنَّ الرَّبَّ بَعْدَمَا كَلَّمَهُمُ ارْتَفَعَ إِلَى السَّمَاءِ، وَجَلَسَ عَنْ يَمِينِ اللّهِ» (مر١٦:١٩) ذلك حدث في اليوم الأربعين، وفقًا لما يرويه سفر الأعمال. لأنَّ ما قاله مرقس ولوقا باختصار في الأناجيل، يُروى ويُشرح بطريقة مطوَّلة.

هذه هي الصعوبات التي وردت في القراءات الإنجيلية لليلة الأحد، والتي يمكن أن يشكل فهمها.

ولربنا المجد دائمًا أبديًا آمين.



شفاء الأعرج

سلسلة مقالات القديس الأنبا ساويرس

البطريرك الأنطاكي

٢

شفاء الأعرج

المقال رقم ٧٤ مُترجم عن الفرنسية مِنَ الكتاب السادس عشر من مجموعة

PATROLOGIA ORIENTALIS

R. Graffin – F. Nau

Les Homélies Cathédrales de Sévère d'Antioche

Homelie LXXIV

Publiée par M. A. Kugener & Edg. Triffaux

ملیکه حبیب یوسف

یوسف حبیب

١٩٦٩م

مقدمة



من أفضل ما قيل في معجزة شفاء الأعرج ذلك المقال النفيس الذي ألقاه القديس أنبا ساويرس الأنطاكي – في القرن السادس – على جماعة المؤمنين في يوم الجمعة مِنَ الأسبوع الذي يلي عيد العنصرة، وهو يتضمن شرح ما وُرد في سفر أعمال الرسل (ص٣: ١-١٦) حيث ذكر: «**وَصَعِدَ بُطْرُسُ وَيُوحَنَّا مَعًا إِلَى الْهَيْكَلِ فِي سَاعَةِ الصَّلاَةِ التَّاسِعَةِ. وَكَانَ رَجُلٌ أَعْرَجُ مِنْ بَطْنِ أُمِّهِ يُحْمَلُ كَانُوا يَضَعُونَهُ كُلَّ يَوْمٍ عِنْدَ بَابِ الْهَيْكَلِ الَّذِي يُقَالُ لَهُ «الْجَمِيلُ» لِيَسْأَلَ صَدَقَةً مِنَ الذينَ يَدْخُلُونَ الْهَيْكَلَ. فَهَذَا لَمَّا رَأَى بُطْرُسَ وَيُوحَنَّا مُزْمِعَيْنِ أَنْ يَدْخُلاَ الْهَيْكَلَ سَأَلَ لِيَأْخُذَ صَدَقَةً. فَتَفَرَّسَ فِيهِ بُطْرُسُ مَعَ يُوحَنَّا وَقَالَ: «انْظُرْ إِلَيْنَا!» فَلاَحَظَهُمَا مُنْتَظِرًا أَنْ يَأْخُذَ مِنْهُمَا شَيْئًا. فَقَالَ بُطْرُسُ: «لَيْسَ لِي فِضَّةٌ وَلاَ ذَهَبٌ وَلَكِنِ الَّذِي لِي فَإِيَّاهُ أُعْطِيكَ: بِاسْمِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ النَّاصِرِيِّ قُمْ وَامْشِ».وَأَمْسَكَهُ بِيَدِهِ الْيُمْنَى وَأَقَامَهُ فَفِي الْحَالِ تَشَدَّدَتْ رِجْلاَهُ وَكَعْبَاهُ. فَوَثَبَ وَوَقَفَ وَصَارَ يَمْشِي وَدَخَلَ مَعَهُمَا إِلَى الْهَيْكَلِ وَهُوَ يَمْشِي وَيَطْفُرُ وَيُسَبِّحُ اللهَ...**»

وقد بدأنا السلسلة بمقال القديس عن ظهور السيد المسيح للمريمات، وسنوالي تباعًا نشر مقالات هذا الأب القيمة. ولإلهنا المجد دائمًا أبديًا آمين، ١٩٦٩م.

المقال الرابع والسبعون

هذا المقال عن معجزة شفاء الأعرج من بطن أمه على يد الرسولَيْن بطرس ويوحنا، تُلي يوم الجمعة مِنَ الأسبوع الذي يلي عيد العنصرة، حيث كان صوم كالمعتاد، وهو قراءة من أعمال الرسل (ص٣: ١- ١٦).

يقول القديس ساويرس:

بعد أن نصعد إلى الهيكل مع بطرس ويوحنا وقت صلاة الساعة التاسعة، أفنسكت؟ وهلا يبكتنا ذلك الرجل الأعرج على صمتنا إذا لم نحدث؟ إنه يقفز ناطقًا بمجد الله بعد أن كان لا يستطيع إلى حين أن يمشي برجليه، إذ كان آخرون يحملونه!! وضعوه عند باب الجميل، وكان جميلاً حقًا حينما كان يصرخ قائلاً: إن الصلاة المقترنة بالصدقة ودخول الهياكل جميلة وغالية في عيني الله وتظهر جليًّا، وهي طريق الداخلين عند الرب. كما أن الصلاة التي تنقصها المحبة، وكأنما الظلام يسترها تجعل حركة الأقدام بلا فائدة. فتجعلها تخطو خطوات غير ثابتة ومُترددة، حتى ولو كان الساري مُزيَّنًا بكل الفضائل الأخرى أو مُجمَّلاً بالبتولية.

هذا ما يرمز إليه مَثل الخمس عذارى الجاهلات، اللاتي كن مستنيرات بالجمال المتألق الذي للطهارة، ولكنهن من ناحية نقص المحبة

فكأنهن مُنطفئات ومُظلمات ولم يدخلن مع العريس، بل كان باب الغرفة الروحانية مُغلقًا أمامهن.

لذلك كان ذلك الرجل الأعرج يطلب أيضًا مِنَ الرسولَيْن بطرس ويوحنا أن يُقدِّما له معونة من هذا النوع، وفي ذلك إشارة إلى أن الشفقة والمحبة نحو المحتاجين ضروريتان حتى يعمل وفق ذلك المُصلّون بالحق إذا ما بدأوا الصلاة. فإذا كنتم قد حضرتم إلى هنا بإِستعداد مُماثل، أو كنتم مددتم يد المساعدة والمحبة للفقراء، فقد صعدتم بالحقيقية إلى الباب الجميل ولم تكذبوا بهذا الصعود. لأنه حتى الرسول بطرس لم يكن ليقول: «لَيْسَ لِي فِضَّةٌ وَلاَ ذَهَبٌ» (أع٣:٦) وهو يرفض طلب الأعرج دون أن يكون قد تجرَّد أولاً. وما عنده كان ينحصر في بعض الشباك ومركب صغير وبعض عصي الصيد. كان يقول للرب يسوع: «هَا نَحْنُ قَدْ تَرَكْنَا كُلَّ شَيْءٍ وَتَبِعْنَاكَ» (مت١٩:٢٧). لأنَّ مَن لا يملك سوى النزر اليسير مُطالب أيضًا أن يمد يده إلى الفقير قدر استطاعته.

فلا يقول أحد: "إني لا أستطيع أن أعاني الحاجة والحرمان وأعمد إلى التشدد".

حتى في الشدة والضيق بسبب حاجتك، فأنت لم تشتطَّ عن الصواب فإن «مَلَكُوتُ السَّمَاوَاتِ يُغْصَبُ، وَالْغَاصِبُونَ يَخْتَطِفُونَهُ» (مت١١:١٢).

إنك لأكثر فهمًا إذا اشتريت بقليل مِنَ المعاناة أملاكًا من هذا القبيل، ومن ينله شيء من هذا فليأخذ في الاعتبار أنه سوف يُمنح العزاء بدلاً منه، وسوف يُعوَّض بفرص غنية للحياة الحسنة «لأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَالِمٍ حَتَّى يَنْسَى عَمَلَكُمْ وَتَعَبَ الْمَحَبَّةِ الَّتِي أَظْهَرْتُمُوهَا نَحْوَ اسْمِهِ» (عب٦:١٠).

هذا ما ينادي به بولس الرسول في بعض رسائله، وأنت ذاتك حينما ترى خادمك يبذل مجهودًا يفوق قوته لكي ينفذ بالتمام أوامرك، أفلا تبحث عن وسيلة تكفل له راحته كشخص مُتعَب؟ فإذا كان الأمر متعلقًا بالله، أفتظن أنه يهمل خليقته التي خلقها عند الحرج.

وتبعًا للقانون الذي وضعه على الناس أن يُشرِكوا المحتاج فيما يملكون يقول: «لَكِنِ اطْلُبُوا أَوَّلاً مَلَكُوتَ اللَّهِ وَبِرَّهُ، وَهَذِهِ كُلُّهَا تُزَادُ لَكُمْ» (مت٦:٣٣)، وأيضًا: «لأَنَّ أَبَاكُمْ يَعْلَمُ مَا تَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ قَبْلَ أَنْ تَسْأَلُوهُ» (مت٦: ٨).

في الواقع إن كان أحد ينسى هذه الكلمات ولا يقتنع بقول الكتاب «أَلْقِ عَلَى الرَّبِّ هَمَّكَ فَهُوَ يَعُولُكَ» (مز٥٥:٢٢) ، فيقدر احتياجاته كما يشاء، ويحتج بكثرة أبواب الصرف، ويحسب أن ما يملكه قليل، ويشتهي امتلاك ما ليس له ويهمل الفقير، فيجب أن يعرف جيدًا أن واجبنا الأول أن نُقدِّس حاجة الفقير قبل احتياجاتنا. بذلك نكون غير غاشين مخادعين في وصية الله. لهذا السبب اعتبر السيد فلسي الأرملة تقدمة

عظيمة، لأنها مسّت حاجة تلك التي أعطتهما، فقد أعطت فعلاً كل معيشتها التي كانت عبارة عن هذَيْن الفلسَيْن.

ومع ذلك لم يكتفِ الرسول بالقول «لَيْسَ لِي فِضَّةٌ وَلاَ ذَهَبٌ وَلَكِنِ الَّذِي لِي فَإِيَّاهُ أُعْطِيكَ» (أع٣:٦). مُعلِّمًا بذلك أنه يلزم أن نعطي للمحتاجين مما لنا، سواء أكان شيئًا ماديًا أو غير مادي، وأنه يلزم أن ننظر إلى ما نملكه أنه ليس ملكية شخصية، بل كأنه ملكية مشتركة. وأنه يلزم لمن يُعطي أن يفكر ثم يتدبّر قائلاً: «وَأَيُّ شَيْءٍ لَكَ لَمْ تَأْخُذْهُ؟» (١كو٤:٧).

بهذا الفكر أيضًا كان بطرس الرسول نفسه يُحذِّر البعض حينما كتب: «لِيَكُنْ كُلُّ وَاحِدٍ بِحَسَبِ مَا أَخَذَ مَوْهِبَةً يَخْدِمُ بِهَا بَعْضُكُمْ بَعْضًا، كَوُكَلاَءَ صَالِحِينَ عَلَى نِعْمَةِ اللهِ الْمُتَنَوِّعَةِ. إِنْ كَانَ يَتَكَلَّمُ أَحَدٌ فَكَأَقْوَالِ اللهِ، وَإِنْ كَانَ يَخْدِمُ أَحَدٌ فَكَأَنَّهُ مِنْ قُوَّةٍ يَمْنَحُهَا اللهُ» (١بط٤:١٠، ١١).

إن دروسًا كثيرة يعطينا إياها ذلك الرجل الأعرج. ألا يجب أن نتعمّق في الدراسة أكثر؟

إن الرجل الأعرج لا يدعني أصمت ... حينما دخل إلى الهيكل وهو يجرى ويقفز، يجذب فكري إلى التأمل الروحاني العميق لأنَّ الأحداث التي وقعت تحتوي في ذاتها على غنى الحكمة المستتر الذي يفوق كل فهم. ومن يفحصها – ما استطاع إلى ذلك سبيلا – تصبح أفكاره كلها أسيرة لطاعة المسيح، كما يقول بولس الرسول «وَمُسْتَأْسِرِينَ كُلَّ فِكْرٍ إِلَى طَاعَةِ الْمَسِيحِ» (٢كو١٠:٥).

ويُعتبر ذلك الرجل الأعرج، في الواقع، **صورة لكل البشـرية**، للكنيسة التي اجتمعت وانفصلت من بين الأمم الذين لا يعرفون الله، أولئك «الَّذِينَ لاَ رَجَاءَ لَهُمْ» (١تس٤:١٣)، كما هو مكتوب. فبينما **كانت ميتة** أحياها المسيح الذي بموته كسر ذاك الذي كان له سلطان الموت. فبينما **كانت مشلولة** من ناحية أعمال البر وعاجزة تمامًا عن المشـي كأنها مُسمَّرة وموثقة بالسلاسل، بعبادة الأوثان وعادات القدماء، **وكانت كامرأة نجسة** تقف خارج الهيكل، أقامها الرسل القديسون إذ مدّوا إليها يد التعليم. لم يعطوها ذهبًا أو فضة، وكان فمها مفتوحًا فامتلأت عجبًا.

إن الرسل فتحوا لها باب الجميل على آخره، الذي هو يسوع. مُزيَّن و«أَبْرَعُ جَمَالاً مِنْ بَنِي الْبَشَرِ» (مز٤٥:٢) كما يقول النبي عنه، يجعل المؤمنون يدخلون، دخولهم كما من باب، حتى إلى معرفة ذاته ومعرفة أبيه، صارخًا أيضًا في الأناجيل «أَنَا هُوَ الْبَابُ. إِنْ دَخَلَ بِي أَحَدٌ فَيَخْلُصُ وَيَدْخُلُ وَيَخْرُجُ وَيَجِدُ مَرْعًى» (يو١٠:٩).

ولننظر كيف أنَّ بطرس ويوحنا والرسل الآخرين أقاموا الكنيسة على مثال هذا الأعرج: كانت الكنيسة قديمًا تعرج بنفس الطريقة فيما يختص بمعرفة الله، ومن بطن أمها كانت مشلولة بالخطية بسبب تعدّى آدم وحواء، وكانت تقول «هَئَنَذَا بِالإِثْمِ صُوِّرْتُ وَبِالْخَطِيَّةِ حَبِلَتْ بِي أُمِّي» (مز٥١:٥).

ماذا قال لهما إذن بطرس ويوحنا حينما كانت تعرج ومع ذلك كانت تطلب صدقة؟ قالا: «انْظُرْ إِلَيْنَا» (أع٣:٤). فيما يختص بالتعليم والصحة التي تتدفق منها، والاستقامة الجديدة، يقول الرسل القديسون: "يكفيك فقط أن تنظري إلينا، نحن بالحقيقة الذين بعد أن تركنا كل شيء، وبعد أن حملنا الصليب قد تبعنا المُشرِّع، المسيح، الذي كان يقول لنا بطريقة سامية جدًا تليق بالله «قُومُوا نَنْطَلِقْ مِنْ هَهُنَا» (يو١٤:٣١) في الوقت الذي كنا فيه مُثقَّلين بالنعاس وأغرقنا في نوم عميق، وكنا هكذا منحنين إلى الأرض، كان السيد له المجد يستعد للآلام الخلاصية.

كان الرب يسوع المسيح يعرف أن له إصعاد كل الناس إلى السماء معه. لذلك كان يقول أيضًا: «وَأَنَا إِنِ ارْتَفَعْتُ عَنِ الأَرْضِ أَجْذِبُ إِلَيَّ الْجَمِيعَ» (يو١٢:٣٢).

أيتها العرجاء:

- اتركي إذن، أمام التقوى، الفضة والذهب: الأصنام وعبادات الأمم، لأنَّ أصنام الأمم هي مِنَ الفضة والذهب وهي أعمال أيدي البشر. إنَّ لك رِجلَيْن ولا تستطيعين المشي، وفي الحال سوف تتخلصين مِنَ الشلل والجمود. تتخلصين من تلك الأصنام الجامدة المشلولة.
- اتركي محبة المال التي هي بالحقيقة «أَصْلٌ لِكُلِّ الشُّرُورِ» (١تي٦:١٠). وهكذا باسم يسوع الناصري قومي «بِاسْمِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ النَّاصِرِيِّ قُمْ وَامْشِ» (أع٣:٦).

يقول الكتاب: ثم بعد هذه الكلمات «وَأَمْسَكَهُ بِيَدِهِ الْيُمْنَى وَأَقَامَهُ» (أع٣:٧).

ما كانت الكنيسة لتستطيع أن تعمل عملاً مستقيمًا يؤدي إلى الفضيلة إن لم يكن الرسل القديسون بتعاليمهم قد شدَّدوا قوتها اليمينية الطبيعية وأصلحوها بما حبوها مِنَ الأيدي. يقول «فَفِي الْحَالِ تَشَدَّدَتْ رِجْلاَهُ وَكَعْبَاهُ» (أع٣:٧).

قامت أقدامها على صخرة الإيمان فثبّتت خطواتها كما يقول داود النبي «وَأَصْعَدَنِي مِنْ جُبِّ الْهَلاَكِ مِنْ طِينِ الْحَمْأَةِ وَأَقَامَ عَلَى صَخْرَةٍ رِجْلَيَّ. ثَبَّتَ خُطُواتِي» (مز٤٠:٢).

لم تثبت خطواتها فحسب بل كانت أيضًا تقفز مُتهلِّلة بالأفكار الإلهية، ودخلت مع الرسل إلى الهيكل عاكفة على التأملات العميقة المقدسة التي لا يعرفها الكثيرون. منذ ذلك الحين والأمر بالعكس، فالكنيسة هي التي تتشبث بالرسل إذ يصعب عليها أن تبتعد أو تنفصل عنهم، بدلاً من أن يكون الرسل هم الذين يمسكون بها ...

يقول الكتاب المقدس عن الرجل الأعرج الذي كان يرمز إلى الكنيسة التي انفصلت عن الأمم: «وَبَيْنَمَا كَانَ الرَّجُلُ الأَعْرَجُ الَّذِي شُفِيَ مُتَمَسِّكًا بِبُطْرُسَ وَيُوحَنَّا تَرَاكَضَ إِلَيْهِمْ جَمِيعُ الشَّعْبِ إِلَى الرِّوَاقِ الَّذِي يُقَالُ لَهُ "رِوَاقُ سُلَيْمَانَ" وَهُمْ مُنْدَهِشُونَ» (أع٣:١١).

- كيف لا نعجب مِنَ المعجزة؟!
- كيف تسير مع الرسل تلك التي كانت فيما مضى مُلقاة محتاجة إلى من يُقيمها؟!

وذلك أنها امتلأت من غنى الحكمة والتأمل، لأنَّ هذه هي الفكرة المقصودة بباب سليمان الذي كُتب عنه:

«وَأَعْطَى اللّهُ سُلَيْمَانَ حِكْمَةً وَفَهْمًا كَثِيرًا جِدًّا وَرَحْبَةَ قَلْبٍ كَالرَّمْلِ الَّذِي عَلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ. وَفَاقَتْ حِكْمَةُ سُلَيْمَانَ حِكْمَةَ جَمِيعِ بَنِي الْمَشْرِقِ وَكُلَّ حِكْمَةِ مِصْـرَ. وَكَانَ أَحْكَمَ مِنْ جَمِيعِ النَّاسِ» (١مل٤:٢٩-٣١).

فضلا عن ذلك فإنَّ سليمان هذا كان يرمز مُقدَّما إلى المسيح، سليمان الحقيقي، لأنَّ كلمة سليمان معناها (رجل السلام)، والمسيح هو سلامنا (أف٢:١٤)، كما يقول بولس الرسول: «وَأَمَّا لِلْمَدْعُوِّينَ: يَهُودًا وَيُونَانِيِّينَ فَبِالْمَسِيحِ قُوَّةِ اللهِ وَحِكْمَةِ اللهِ» (١كو١:٢٤). «الْمُذَّخَرِ فِيهِ جَمِيعُ كُنُوزِ الْحِكْمَةِ وَالْعِلْمِ» (كو٢:٣).

فبعد أن كانت الكنيسة فيما مضى عاجزة عن السير، أثرت وابتهجت بهذه الخيرات، بسيرها مع الرسل. هذا ما نستطيع أن نراه في بابنا.[٤٠]

أكان مُستطاعًا للوثنيين أن يصنعوا بفلسفتهم شيئًا عظيمًا كهذا في بوابتهم الموقرة في أثينا؟!

---

(٤٠) باب الجميل.

هل أقاموا مثل هذا الرجل الأعرج، أمام بصر وسمع الناس؟

أبدًا، لأنه لم يكن بينهم الإله الواحد الوحيد الحقيقي، وأيضًا لم يكن لديهم الاِستعداد والقوة ليقولوا كلمة مثل هذه: «بِاسْمِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ النَّاصِرِيِّ قُمْ وَامْشِ» (أع٣:٦).

بعد أن سمعنا هذا التعليم، يقول القديس ساويرس:

يبدو لي أنكم لا تملّون أبدًا، ومع ذلك فقد يحزن البعض أني بكلماتي أطلت فترة الصوم.(٤١) أما أنا فأقول مثل بولس الرسول: «لأَنَّهُ إِنْ كُنْتُ أُحْزِنُكُمْ أَنَا، فَمَنْ هُوَ الَّذِي يُفَرِّحُنِي إِلاَّ الَّذِي أَحْزَنْتُهُ؟» (٢كو٢:٢).

هذا ما قصدت إليه بالضبط إذ أطلت المقال، حتى ينتهي الجزء الأكبر مِنَ النهار ولا أكذب الكتاب المقدس الذي يقول:

«وَصَعِدَ بُطْرُسُ وَيُوحَنَّا مَعًا إِلَى الْهَيْكَلِ فِي سَاعَةِ الصَّلاَةِ التَّاسِعَةِ» (أع٣:١). الواقع أنهم كانوا يصعدون. أكانوا ينزلون؟!

يقول الآب القديس:

أما أنت فتطلب منَّا أن نعظ بعكس ما نفعل، وأن نُقرِّر ونُبيِّن ما هو ضد الواقع.

---

(٤١) المقصود بالصوم هنا هو صوم ذلك اليوم الذي ألقى فيه هذا المقال. ويبدو أن هذا المقال لم يعثر عليه إلا مختصرًا.

ألا تعرف أن اليوم الحاضر يجعلنا نعد بأن نصوم ونصلي ونُطعم المسيح الجائع الذي يقف باستمرار بالقرب مِنَ الأبواب المقدسة؟

لماذا إذًا نترك جانبًا ما يلهمنا به هذا اليوم، ونهتم بما هو غريب عنه؟ بالمأكولات والمائدة المليئة بالدسم، ما لا يليق بالصوم.

متى تكون سامعًا هادئًا ومُحبًا لكلماتي؟ لأنه إذا كنت في أيام الأعياد تنتبه إلى الأطعمة وشراهة البطن، وفي نفس الوقت الذي فيه تأتي إلى الكنيسة تتعجل العودة حالاً إلى بيتك، بينما تنظر إلى هذا اليوم كأنه سنة، فمتى أكلمك، قل لي، أو متى تُطعم روحك الجائعة، طالما تتذمر دائمًا وتُلقي باللائمة في كل شيء.

إني لأعرف أن لكل عمل وقتًا مناسبًا، ويلزمني ضرورة أن أقول لمن في العيد كيف يليق به أن يُعيِّد، حتى يكون موضوع العيد موضوع تأمل بالنسبة له، وحتى يتحدث بالأقوال المُتعلقة بالعيد على المائدة.

لا ينبغي إذ يتلذذ بالأطعمة أن يُسلِّم نفسه للأغاني والسُكْر والضحك الغاش. فقد أمرنا الله فعلاً أن نتهلَّل برعدة: «اعْبُدُوا الرَّبَّ بِخَوْفٍ وَاهْتِفُوا بِرَعْدَةٍ» (مز٢:١١).

كما أمرنا ألا تكون روحنا أبدًا خالية من خوفه تعالى ومن ذكره، بل نتمسك بهذه المشاعر ونضبط ذلك الاندفاع الذي يقود إلى الخطية.

- أين رأيت قائدًا في المعركة يكتفي بالحديث أمام جنوده حول نظريات الاِستعداد الحربي في الوقت الذي يجب عليه فيه أن يحث الجنود على القتال ويخوض المعركة معهم قبل أن تحيق بهم الهزيمة؟
- أو أين رأيت مُرْشِدًا يعطى تدريبات رياضية بعد أن يكون البطل قد خسر إكليله؟
- أو أين رأيت من يُلقي خطبة عن العيد بعد العيد؟

إن الذي أخذ على عاتقه أن يزيل الخطر الذي يتأتى مِنَ الانغماس في اللذات فقبل أن يحين العيد، عليه أن يُجهد نفسه بخصوص الكلمات والأفكار الإلهية لكي تطهرها مُقدمًا.

ثم يقول القديس ساويرس:

عندي عمل كثير، أقضي الليالي دون أن أنعس، روحي تذوب في نفس الوقت مع جسدي، أما أنت فربما تظن إني أحاول إطراءك، أو إني مدين لك بالشكر لأنك تظهر صبرًا إذ تظل ساعة تستمع إلى! إني لا أعير مثل هذا الإطراء التفاتًا، إن كانت كلماتي لا تعود تؤدي إلى منفعة الروح فيشعر السامع أنه أخذ منها العون. لذلك أقوم بواجبي حتى ولو لم يكن هناك مَن يسمعني. كما يقول بولس الرسول «فَإِنَّهُ إِنْ كُنْتُ أَفْعَلُ هَذَا طَوْعًا فَلِي أَجْرٌ

وَلَكِنْ إِنْ كَانَ كَرْهًا فَقَدِ اسْتُؤْمِنْتُ عَلَى وَكَالَةٍ. فَمَا هُوَ أَجْرِي؟ إِذْ وَأَنَا أُبَشِّرُ أَجْعَلُ إِنْجِيلَ الْمَسِيحِ بِلاَ نَفَقَةٍ حَتَّى لَمْ أَسْتَعْمِلْ سُلْطَانِي فِي الإِنْجِيلِ» (١كو٩:١٧، ١٨).

إن جزائي ألا يوخزني ضميري في هذا الأمر، وإني لقائل ما أُمرت به: "أنا عبد بطّال، وما كنت أستطيع أن أفعله بحسب ضعفي فقد عملته. وأنه يليق بالرجال الذين هم من قامة الرسل أن يقولوا: «عَمِلْنَا مَا كَانَ يَجِبُ عَلَيْنَا» (لو١٧:١٠). لكني موقن إني أنا نفسي لم أرفض جزءًا يسيرًا مِن التزاماتي العديدة.

ولا أقول ذلك لكي أتهمكم بالإهمال، حاشا! إنكم قد تنتقدونني أيضًا بأني لا أتكلم بترتيب، وأنتم متفقون لتؤكدوا أن صوتي ليس كافيًا بالنسبة لعدد السامعين الكبير. وفي ذلك أردف القديس قائلاً: إنما أوردت ذلك بسبب ثلاثة أو أربعة أفراد دأبهم أن يلوموا في كل شيء وهم يتفجّرون حسدًا.

ونقرأ في الكتاب المقدس: «وَأَمَّا الْكَنَائِسُ ... كَانَتْ تُبْنَى وَتَسِيرُ فِي خَوْفِ الرَّبِّ وَبِتَعْزِيَةِ الرُّوحِ الْقُدُسِ كَانَتْ تَتَكَاثَرُ» (أع٩:٣١)، فما قلناه كاف لخذلانهم. ومع ذلك نغيِّر نحن أنفسنا شعورنا نحوهم ونرجو أن يؤول ذلك إلى منفعتهم، بالنعمة ومحبة البشر التي ليسوع المسيح الإله العظيم مخلصنا الذي يليق به المجد مع الآب والروح القدس الآن وكل أوان وإلى دهر الدهور آمين.



الصوم

سلسلة مقالات القديس أنبا ساويرس

البطريرك الأنطاكى

٣

الصوم

مترجم عن الفرنسية من الجزء الثامن من مجموعة:

PATROLOGIA ORIENTALIS

R. Graffin – F. Nau

Les Homélies Cathédrales de Sévère d'Antioche

Publiées et traduites par Maurice Brière. Paris 1941

وترجمناه إلى العربية لأول مرة ١٩٦٩.

مليكه حبيب يوسف　　　　يوسف حبيب

١٩٦٩م

مقدمة



ألقى القديس ساويرس (٥١٢ - ٥٣٨) هذا الخطاب في أول صوم الأربعين المُقدَّسة باللغة اليونانية، وترجمها إلى السريانية في القرن السادس يعقوب الرهاوي، ونشره وترجمه إلى الفرنسية موريس بريير سنة ١٩٤١ Maurice Brière، ولم تُتَرجم هذه النفائس إلى اللغة العربية، فترجمنا هذا المقال عن الفرنسية مِنَ الكتاب الثامن من مجموعة:

PATROLOGIA ORIENTALIS R. Graffin – F. Nau

Les Homélies Cathédrales de Sévère d'Antioche

وقد تكلّم وكتب كثيرون مِنَ القدامى والمُتأخِّرين عن الصوم، لكن لم يأتِ أحد بمثل هذه الروائع الروحية والنغمات الطيبة تفيض من فم ذلك الأب كالماء الزلال يرتشفه العطشى فيرتون من أقصر الطرق وأفضلها، فيشعرون بالانتعاش بعد الجدب. وكلمته قادرة أن تُحيي العِطاش وتوردهم موارد الخلاص لأنَّ فيها قوة الروح وجمال النعمة، فضلاً عن بلاغة الأسلوب وبراعة العرض التي اشتهر بها القديس ساويرس. ولا تزال مسحة هذا الجمال الأدبي ودقة هذه المعاني بارزة في النص العربي بالرغم من أنه لم يُترجم عن النص اليوناني مُباشرة، بل انتقل مِنَ اليونانية إلى

السريانية إلى الفرنسية ومنها إلى العربية، وأنَّ الألفاظ حاملة للمعاني مُحلِّقة بها من أجواء بعيدة مُختلفة.

وقد مهَّد للصوم بذكر حالة الإنسان الأول وسقوطه وإقامته بطريقة واضحة تُبيّن الحكمة في الصوم، وما فرضه الله إلا ليُقيل الإنسان من عثرته، فينهض وقد طرد عنه الخوف والحزن على حد قوله، وأصبح جذلاً فرحًا. ثم يُبيّن فضائل الصوم وفاعليته في حياة الرسل والقديسين، مع أنباء شيّقة عن القديسين تجلو حقيقة الصوم.

مليكه حبيب يوسف **يوسف حبيب**



السمو بالنفس لاستقبال الصوم

كيف يستطيع أحد أن يتكلم عن الصوم كما يليق، إن لم يُمارسه؟ وكيف نُعلِّمكم أن الصوم وليمة روحانية، إن لم نقم أمامكم مائدة غير مادية؟ وبالأحرى كيف لا نحسب أننا نختبر المرارة بالصوم خير من أولئك المُهتمين ببطونهم، إذا كنا لا نُظهر فرحنا في أقوالنا فيما نُغذِّيكم به ونُغذّي أنفسنا، حسب تعبير ربنا الذي قال في الأناجيل: «طَعَامِي أَنْ أَعْمَلَ مَشِيئَةَ الَّذِي أَرْسَلَنِي وَأُتَمِّمَ عَمَلَهُ» (يو٤:٣٤). كان يقول هذا، بعد حديث طويل مع المرأة السامرية، حينما كان تلاميذه يلحّون عليه لكي يأكل خُبزًا.

إن الكلمة في الواقع هي طعام الروح الحقيقي؛ لذلك بِاقتباس كلمة صاحب المزامير: «تَبْتَهِجُ شَفَتَايَ إِذْ أُرَنِّمُ لَكَ وَنَفْسِي الَّتِي فَدَيْتَهَا» (مز٧١:٢٣)، بل «تَبْتَهِجُ شَفَتَايَ» إذ أصوم إكرامًا لك لأنه ينتج عن صومنا، أننا نُرتِّل بحكمة. كما أن الصوم نفسه يُطهِّر فم الحكيم ويُطهِّر آذان السامعين، ويُملي على النفوس تقدير الأشياء السمائية ورفض كل ما هو جسدي وأرضي.

ومع ذلك، يوجد أناس جسديون في فهمهم حتى أنهم يُدعون ”جسدًا“ Il sont la chair mêmes.

يتركون غنى قلبهم ينساب كما يقول الكتاب المقدس: «فَإِنَّهُ مِنْ فَضْلَةِ الْقَلْبِ يَتَكَلَّمُ الْفَمُ» (مت١٢:٣٤)، «اَلإِنْسَانُ الصَّالِحُ مِنْ كَنْزِ قَلْبِهِ الصَّالِحِ

يُخْرِجُ الصَّلاَحَ، وَالإِنْسَانُ الشِّـرِّيرُ مِنْ كَنْزِ قَلْبِهِ الشِّرِّيرِ يُخْرِجُ الشَّرَّ. فَإِنَّهُ مِنْ فَضْلَةِ الْقَلْبِ يَتَكَلَّمُ فَمُهُ» (لو٦:٤٥). إنهم يقولون في شراهتهم وجهلهم: "ماذا ينتفع الله بصومى؟ إذ لم أكن موجودًا أوجدني، فلماذا خلق لي أطعمة من كل نوع، إذا كان الصوم لِزامًا عليّ؟ هل يُسَّر الخالق كلي الجود أن أعلن الحرب على نفسي، وأن أجعل جسدي نحيلاً، فأهلكه بالصوم والجوع وأُرغمه على كسر الرباطات التي تربطه بالروح؟

أما أنا فيُذهلني أن أسمع أولئك الذين يتكلمون بهذا الأسلوب، وإنني بعيد عن موافقة هؤلاء المُخادعين التُعساء الجديرين بالسخرية. إنني أسمو بنفسي لاستقبال الصوم كملك آت مِنَ السماء، وأُحيّيه بكل احترام وإكرام. إني أرتفع بنفسي إلى الذكريات القديمة وأتعلم منها، بقدر الإمكان، ما هو سبب خلقتي وكيف كانت روح الإنسان في كرامته الأولى.

لكنه يجب أن نبدأ من قبل ذلك قليلاً.

الله كُلّي الجود:

Dieu, bienheureux et seul puissant pour parler comme Paul, qui apparait dans le Père, le Fils et le saint-Esprit, dans trois personnes distinctes et cependant dans une seule et même essence, qui seul est sans commencement, éternal, sujet à aucun besoin, en tant qu'il est parfait en tout par nature, dans une effusion suprême et remarquable de sa bonté, quant

cela lui a semblé bon, a créé le monde supérieur et spiritual; je veux dire les anges et les esprits administrateurs et immatériels.

"إن الله الواحد القدير العزيز، كقول بولس الرسول «الْمُبَارَكُ الْعَزِيزُ الْوَحِيدُ، مَلِكُ الْمُلُوكِ وَرَبُّ الأَرْبَابِ» (١تى٦:١٥) أي الآب، والابن، والروح القدس، ثلاثة أقانيم متمَيزة لكنهم جوهر واحد، ليس له بداية، أزلي، لا يخضع لشيء، إذ هو كامل في كل شيء بطبعه، مُظهرًا جوده بطريقة فائقة تسمو فوق الكل، حينما سُرّ بذلك، خلق العالم العلوي والروحاني، أعني الملائكة ورؤساء الملائكة الروحانيين غير الماديين" أراد أن يشركها في السعادة وفى النعيم الفائق العظمة الذي ينبع منه بوفرة بسبب سخائه للذين يملكون فيض النعمة حتى يمتلئوا بالنور الباهر الذي ينبثق منه كما من ينبوع فيمجّدونه بغير انقطاع دون أن يشبعوا مُطلقًا بتسابيح سمائية وترانيم البهجة كما يقول النبي في المزامير: «هَلُمَّ نُرَنِّمُ لِلرَّبِّ نَهْتِفُ لِصَخْرَةِ خَلاَصِنَا. نَتَقَدَّمُ أَمَامَهُ بِحَمْدٍ وَبِتَرْنِيمَاتٍ نَهْتِفُ لَهُ» (مز٩٥:١، ٢) لأنه بالحقيقة عيد ووليمة دائمة أن نُسبِّح الله بدون توقف.

أراد أيضًا، كما كتب بولس الرسول: «لِكَيْ يُعَرَّفَ الآنَ عِنْدَ الرُّؤَسَاءِ وَالسَّلاَطِينِ فِي السَّمَاوِيَّاتِ بِوَاسِطَةِ الْكَنِيسَةِ بِحِكْمَةِ اللهِ الْمُتَنَوِّعَةِ» (أف٣:١٠) أن يظهر على التوالي تنوّع حكمته السرمدية، وأن يمنح السرور بصفة خاصة للقوات السماوية، ويُبيّن لهم أنه يستطيع أن يخلق، ليس فقط

الطبائع الروحانية غير المادية التي تحسب بذلك كأنها قريبة منه، بل أيضًا تلك التي تكون غريبة تمامًا عنه، بعيدة عنه ومحرومة من قربه وليس لها إطلاقًا أي شبه أو شركة معه، فأخرج مِنَ العدم هذا العالم المادي المنظور. أعطى السماء نجومها المختلفة، زيَّن الأرض بالأشياء الجميلة التي نراها على سطحها، أكمل كل ما هو موجود بداخلها، ألجم البحر ... جمع المياه في مجمع واحد كما هو مكتوب: «وَقَالَ اللهُ: لِتَجْتَمِعِ الْمِيَاهُ تَحْتَ السَّمَاءِ إِلَى مَكَانٍ وَاحِدٍ» (تك١:٩)، أحاط الأرض بالبحر ونظمها بحيث يمكن للمياه أن تنزل عليها وتتدفق حولها: «لأَنَّهُ عَلَى الْبِحَارِ أَسَّسَهَا وَعَلَى الأَنْهَارِ ثَبَّتَهَا» (مز٢٤:٢). رتَّب العناصر، الأرض والنار والماء والهواء، وأمرها بحكمة حتى أمكنها أن تختلط بعضها ببعض، وهكذا وضع جمالاً مزيدًا بإنسجام كل هذه الأشياء واختلاطها بعضها ببعض دون أي فوضى، ويمكن القول بأنه أراد أن يُظهِر مجدًا خاصًا من كل خلقة (على حدة) ومجدًا عامًا من اجتماعها كلها معًا. ومع ذلك فهو كامل ولا يحتاج لأن يُمجِّده أحد، لكنه هكذا يُميِّز أولئك الذين يمتدحون العلم الوفير والتأمل ويُعظمونه تعالى.

Mais et tire de là l'avantage de grandir chez ceux qui louent l'abondance de la Science et de la Contemplation.

لقد شهد بالفعل أن خلق السماء والأرض وباقي العالم الذي يقع تحت الحواس المنظورة، كان سببًا في أن الملائكة زادوا التمجيد والتسبيح

المُختصَّين بالله. وقد بيَّن الكل بالجزء، حينما قال لأيوب: «عِنْدَمَا تَرَنَّمَتْ كَوَاكِبُ الصُّبْحِ مَعًا وَهَتَفَ جَمِيعُ بَنِي اللهِ؟» (أي٣٨:٧).

ولما كانت هذه الآفاق بعيدة جدًا ومنفصلة، أعني العالم الروحاني والعالم المنظور، ولا يوجد بينهما اختلاط أو شركة، فقد خلق الإنسان بفعل عجيب ووضعه بين الاثنين. شكَّل أولاً جسدًا مِنَ الطين، كما يقول هو نفسه لأيوب في هذه العبارات: «تَتَحَوَّلُ كَطِينِ الْخَاتِمِ وَتَقِفُ كَأَنَّهَا لاَبِسَةٌ» (أي٣٨:١٤)، ثم وضع في هذا الجسد نفسًا عاقلة روحانية غير مادية. أنت الذي بعد أن أخذت طينًا شكَّلت مِنَ التراب كائنًا حيًا، ووهبته النطق ثم وضعته على الأرض.

هكذا يذكر الإنسان حقًا بالعالم المنظور بجسده، وبالعالم غير المادي الغير منظور بروحه؛ وبرؤيته ذاك "**العالم المنظور**" بعين الروح، يكتشف حكمة الخالق الظاهرة في كل منهما، ويشعر بالفرح والتهليل، عند تفكيره في أنه يسكن على الأرض مثل ملاك آخر، فيكون في نفس الوقت منظورًا وغير منظور، ويظهر في ذاته أكثر مِنَ الملائكة بالعقل الذي لا يُمكن فحصه الذي لله الحكيم وحده.

هو ذاته في الواقع روح وجسد وهو منظور؛ وليس مُنقادًا في عقله على الإطلاق بسبب الاتحاد بالجسد، وأنه أيضًا ليس منحنيًا أو مائلاً إلى أسفل من جرَّاء حركات الروح العاقلة؛ لأن له جسدًا ضعيفًا، مُتَّجهًا إلى فوق، يتبع الإرادة المُستقلة للروح كأنها سلطان يستمد منها التوجيه.

لذلك في الواقع نتج عن اتحاد العنصرين كائن واحد، وما كان ذلك ليتسلَّط من هو أدنى، بل الأعلى.

لأنَّ ما قاله الحكيم: «فإنَّ الجَسَدَ الفاسِدَ يُثَقِّلُ النَّفْس والخَيمَةَ التّرابِيَّة عِبءٌ لِلعَقلِ الكَثيرِ الهُموم» (سفر الحكمة ٩:١٥). **هذا لم يحدث إلا بعد تعدِّي الوصية، وبحدوثه حُكم على الإنسان بالسقوط من الفردوس، وبالمضايقات وبالتعاسة وبالأحزان وبفساد الموت؛** فكان يسمع فعلاً: «وَشَوْكًا وَحَسَكًا تُنْبِتُ لَكَ وَتَأْكُلُ عُشْبَ الْحَقْلِ. بِعَرَقِ وَجْهِكَ تَأْكُلُ خُبْزًا حَتَّى تَعُودَ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي أُخِذْتَ مِنْهَا. لأَنَّكَ تُرَابٌ وَإِلَى تُرَابٍ تَعُودُ» (تك٣:١٨، ١٩). لكن قبل أن يعصى وصية الله الذي كان يمتحن حريته، كان مُكرَّمًا بنعمة الخلود؛ لأنَّ الذي قال: «فإنَّ الجَسَدَ الفاسِدَ يُثَقِّلُ النَّفْس»، قال قبل ذلك بقليل: «لأَنَّ اللهَ لم يَصنعِ المَوت ولا يُسَرّ بِهَلاكِ الأَحْياء» (حكمة ١:١٣).

إنَّ الهموم أيضًا قد سادت بسبب الخطية والشر؛ ومكتوب فعلاً في سفر أيوب المملوء حكمة: «الشِّرِّيرُ هُوَ يَتَلَوَّى كُلَّ أَيَّامِهِ وَكُلَّ عَدَدِ السِّنِينَ الْمَعْدُودَةِ لِلْعَاتِي» (أيوب١٥:٢٠).

لذلك إذًا فإنَّ الذين ينشغلون قبل كل شيء بخلاصهم (لأنه يلزم ضرورة أن تكون لنا انشغالات، وأنه حكم علينا بذلك بسبب خطية أبينا الأول) يُحوِّلون الجهد إلى اقتناء الفضائل، ويوجِّهون هَمهم نحو الخيرات

السمائية ونحو الرجاء العتيد الآتي، كما هو مكتوب في الأمثال: «لِيُصَادِفِ الإِنْسَانَ دُبَّةٌ ثَكُولٌ وَلاَ جَاهِلٌ فِي حَمَاقَتِهِ» (أم١٧: ١٢)، يُمكن للرجل الحكيم أن يعتريه هَم، أما الجهلاء فإنهم يتأملون دائمًا في الشر.

ومن هو الرجل الحكيم إلا ذاك الذي يكون صحيحًا في فهمه يتأمل الأشياء التي تتفق والعقل والسماويات، ولا سيما الطريق إلى حفظ الحياة الآتية المُعدَّة للنفس العاقلة؟ هكذا إذًا كان الرجل الأول يملك هذه الخيرات الطبيعية الممتازة الغالية؛ فإنه لم يأخذ الجسد مثل ثقل أو عائق من رصاص على سبيل العقاب (كما تخترعه روايات الوثنيين) لكنه يظهر في طبيعته غير العادية حكمة الخالق الذي يُسمَّى لذلك "**مُحب البشر**" لا يكره تعالى بأي حال الخلائق الأخرى؛ لأنه كأب له مشاعر الرحمة نحوها جميعًا، بل أن الإنسان أكثر الخلائق كلها إفادة منها. جلَّت قدرته في تباين خليقته، يظهر ترابًا وعقلاً دون أن يكون هناك فوضى في اتحادهما الوثيق. **لذلك يقول داود أيضًا**: «اَلسَّمَاوَاتُ تُحَدِّثُ بِمَجْدِ اللهِ وَالْفَلَكُ يُخْبِرُ بِعَمَلِ يَدَيْهِ» (مز١٩: ١) لكنه يعترف بأن خلق الإنسان يفوق كل تدبير بقوله: «مِنْ خَلْفٍ وَمِنْ قُدَّامٍ حَاصَرْتَنِي وَجَعَلْتَ عَلَيَّ يَدَكَ. عَجِيبَةٌ هَذِهِ الْمَعْرِفَةُ فَوْقِي. ارْتَفَعَتْ لاَ أَسْتَطِيعُهَا» (مز١٣٩: ٥، ٦).

من هنا يتبيَّن أن نيل الإنسان للفردوس مقامًا يتفق مع هذه الحياة الخالدة الخالية من كل قلق، الفردوس الغني بالنباتات التي تُعطى ثمارًا

تستطيع أن تُغذّي الذين يعيشون حياة مثل هذه،[٤٢] وتعود على النفس بالمنفعة واللذة، **كما يقول المثل المقدّس**: «اَلصِّدِّيقُ يَأْكُلُ لِشَبَعِ نَفْسِهِ أَمَّا بَطْنُ الأَشْرَارِ فَيَحْتَاجُ» (أم١٣:٢٥).

حال الإنسان بعد السقوط

ومن ناحية أخرى فإنه مِنَ المؤكَّد أن الجسد كان أيضًا يتغذّى مع الروح في نفس الوقت، وأنه كان يشعر بالفرح بمشاركة خاصة بالروح برباط الطبيعة المشترك. في الواقع كما أنه منذ أن لبس آدم القمصان الجلدية، بعد أن تعدّى الوصية، قد لبس الفناء الذي يتبع الحكم بالموت، والثقل والوزن اللذَيْن يأتيان عنه،[٤٣] (والجلد هو علامة الموت)، أصبحت الأطعمة ثقيلة منذ ذلك الوقت، تُغذّي الجسد، وتُسر النفس وكأنها تطوقها بسبب اتحادهما الوثيق؛ وكذلك أيضًا، قبل تعدّي الوصية، كان الجسد بسبب خفته وقلة وزنه، مرفوعًا ومحمولاً إلى فوق مع الروح في نفس الوقت. بَيْدَ أنَّه حاليًا يجر الجسد الروح إلى أسفل، فتشتاق بشراهة وقابلية نحو الأطعمة المادية؛ وحينما كان الروح له الأهمية الأولى، بفضل طبيعته، وكان

(٤٢) يذكر القديس ساويرس فيما بعد أن أطعمة الفردوس كانت غير مادية، والمرجح حسب ذلك القول أنه يقصد النباتات التى تُعطي ثمارًا فى الفردوس نباتات العبادة والطاعة ومعرفة وصايا الله التي تُعطي ثمار التسبيح والتمجيد والحياة الروحية.

(43) La lourdeur et la pesanteur qui en découlent.

يجر الجسد نحو الخيرات العالية، كان الإنسان يشتهي باشتياق أطعمة الفردوس التي كانت قبل كل شيء غير مادية.(٤٤) ونتج عن ذلك أنه اتجه إلى ثمرة الشجرة المُحرّمة، بعدما لم يكبت شدّة الرغبة بالرغم من وصية الله، وأن عنف الرغبة هذا كان مِنَ الروح وليس مِنَ الجسد، وأن ذلك تُبيّنه إغراء الخداع بقوله: «أَنَّهُ يَوْمَ تَأْكُلاَنِ مِنْهُ تَنْفَتِحُ أَعْيُنُكُمَا وَتَكُونَانِ كَاللهِ عَارِفَيْنِ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ» (تك٣:٥). وهذه الرغبة في أن يصير الإنسان إلهًا، ولو أنها ضرب مِنَ الجنون، رغبة غير مادية من الروح وليست للجسد.

وإذا قال أحد: "**لماذا إذن جعل الله الأرض التي خلقها أولاً خضراء بوضعه فيها نبات القمح المُغذّي والنباتات الأخرى إن لم يكن يلزم الإنسان أن يتغذّى بها؟**" فسوف أجيبه: "ذلك لكونه أيضًا طبيب، فهو يُعِد الأدوية قبل المرض. وكيف أنت نفسك لا تترك ما يليق في الوقت الذي فيه تقر بأنَّ الله يستطيع مثل الطبيب أن يتخذ سلفًا الإجراءات وهو الذي يعرف كل المستقبل بوضوح؟ ولأننا أصبحنا مرضى وسقطنا تحت عبودية الحالة الجسدانية، فقد أعدّ الله لنا مقدمًا أطعمة مناسبة. ولكن كما أنَّ الطبيب يُغذّي المريض بينما يُزيل الأسباب الفعلية للأمراض فيجعله يعود إلى الصحة الطبيعية، كذلك الله يُغذّينا مِنَ الناحية الجسدية مثل المرضى،

(٤٤) ربما لا يعني أنها غير مادية فعلاً، لكن الإنسان لكونه غير جسداني أي ليست له شهوات جسدية مُضادة لشهوات الروح لا يشعر في الأكل بشهوة جسدية إذ كان فرحه بالرب يبتلع كل طاقاته.

ويجعلنا نعود إلى حالة سُكنى الفردوس وفى الحالة الأولى السليمة، وذلك برسمه الصوم عن هذه الطعمة المادية، وبتذكرته الروح بكرامتها الأولى بواسطة الناموس والأنبياء وأيضًا بوصايا الأناجيل والرسل.

قرّر موسى أن يكون اليوم العاشر مِنَ الشهر السابع الذي هو يوم التكفير، يومًا مُقدَّسًا مدعوًا **ويوم صيام**، أي مدعوًا مِنَ الله وليس من اختراع الناس: «وَيَكُونُ لَكُمْ فَرِيضَةً دَهْرِيَّةً أَنَّكُمْ فِي الشَّهْرِ السَّابِعِ فِي عَاشِرِ الشَّهْرِ تُذَلِّلُونَ نُفُوسَكُمْ وَكُلَّ عَمَلٍ لاَ تَعْمَلُونَ: الْوَطَنِيُّ وَالْغَرِيبُ النَّازِلُ فِي وَسَطِكُمْ. لأَنَّهُ فِي هَذَا الْيَوْمِ يُكَفِّرُ عَنْكُمْ لِتَطْهِيرِكُمْ. مِنْ جَمِيعِ خَطَايَاكُمْ أَمَامَ الرَّبِّ تَطْهُرُونَ. سَبْتُ عُطْلَةٍ هُوَ لَكُمْ وَتُذَلِّلُونَ نُفُوسَكُمْ فَرِيضَةً دَهْرِيَّةً» (لا١٦: ٢٩-٣١).

هكذا بولس الرسول أيضًا أطلق على نفسه اسم المدعو والرسول: «بُولُس عَبْدٌ لِيَسُوعَ الْمَسِيحِ الْمَدْعُوُّ رَسُولاً الْمُفْرَزُ لإِنْجِيلِ اللهِ» (رو١: ١)، «بُولُس، رَسُولٌ لاَ مِنَ النَّاسِ وَلاَ بِإِنْسَانٍ، بَلْ بِيَسُوعَ الْمَسِيحِ وَاللهِ الآبِ الَّذِي أَقَامَهُ مِنَ الأَمْوَاتِ» (غلا١: ١). لأنه ليس من قِبل الناس، وليس بإنسان، بل بالمسيح يسوع مُخلِّصنا وإلهنا، دُعي مِنَ السماء إلى الكرازة، وما كان قبل ذلك رسولاً مثل الآخرين، وبهذه الطريقة دعا نفسه رسولاً. ولكن نظرًا لأنَّ العبرانيين كانوا في حالة وضيعة جدًا، وكانوا مُتعلِّقين بالجسد، فكان المُشرِّع يقول لهم: «وَتُذَلِّلُونَ نُفُوسَكُمْ» (لا١٦: ٣١)، وذلك بعد أن أطلق على الصوم، بإعتباره يومًا عظيمًا، اسم اليوم المُقدَّس المدعو.

وإشعياء النبي وهو يُقيمهم من هذه الهوة كان يرفعهم ويجذب عقولهم إلى فوق بإعلانه عظمة الصوم؛ فيدفعهم إلى التهليل الروحاني ويطرد من أرواحهم الحزن والحِداد، وهو يصيح فيهم قائلاً: «أَمِثْلُ هَذَا يَكُونُ صَوْمٌ أَخْتَارُهُ؟ يَوْمًا يُذَلِّلُ الإِنْسَانُ فِيهِ نَفْسَهُ يُحْنِي كَالأَسَلَةِ رَأْسَهُ وَيَفْرِشُ تَحْتَهُ مِسْحًا وَرَمَادًا. هَلْ تُسَمِّي هَذَا صَوْمًا وَيَوْمًا مَقْبُولاً لِلرَّبِّ؟ أَلَيْسَ هَذَا صَوْماً أَخْتَارُهُ: حَلَّ قُيُودِ الشَّرِّ. فَكَّ عُقَدِ النِّيرِ وَإِطْلاَقَ الْمَسْحُوقِينَ أَحْرَارًا وَقَطْعَ كُلِّ نِيرٍ. أَلَيْسَ أَنْ تَكْسِرَ لِلْجَائِعِ خُبْزَكَ وَأَنْ تُدْخِلَ الْمَسَاكِينَ التَّائِهِينَ إِلَى بَيْتِكَ؟ إِذَا رَأَيْتَ عُرْيَانًا أَنْ تَكْسُوهُ وَأَنْ لاَ تَتَغَاضَى عَنْ لَحْمِكَ. حِينَئِذٍ يَنْفَجِرُ مِثْلَ الصُّبْحِ نُورُكَ وَتَنْبُتُ صِحَّتُكَ سَرِيعًا وَيَسِيرُ بِرُّكَ أَمَامَكَ وَمَجْدُ الرَّبِّ يَجْمَعُ سَاقَتَكَ. حِينَئِذٍ تَدْعُو فَيُجِيبُ الرَّبُّ. تَسْتَغِيثُ فَيَقُولُ: «هَئَنَذَا». إِنْ نَزَعْتَ مِنْ وَسَطِكَ النِّيرَ وَالإِيمَاءَ بِالإِصْبِعِ وَكَلاَمَ الإِثْمِ» (إش٥٨:٥-٩).

لذلك فإنَّ ربنا بينما كان يُعلن بهاء وسرور الصوم، كان يأمر أيضًا بصوت واضح قائلاً: **«وَأَمَّا أَنْتَ فَمَتَى صُمْتَ فَادْهُنْ رَأْسَكَ وَاغْسِلْ وَجْهَكَ»** (مت٦:١٧). فكان يُشير إلى بريق وطهارة الروح عن طريق الأعضاء الرئيسية في الجسم. إذ أن معظم الحواس تتجمّع في إتجاه الفكر والسمع، الذوق، البصر، الشم، التي بواسطتها كخدام، يباشر العقل نشاطه فتخدمه فيما يلزم عمله، وتعمل معه بطريقة مشتركة إما الشر أو الفضيلة. فربنا نفسه يأمر أن نغتسل ونتطهَّر بإمتناعنا عن الشر، ومن جهة أخرى أن نتزيّن ونُضيء بممارستنا الخير الذي تنيره النعمة الروحية.

إذن فإنه تعالى يحب الذين يصومون لا لشيء سوى أنهم يُمجِّدونه من أجل خليقته.

فبعد أن أطاح الفساد والموت والثقل بالجسد إلى أسفل، أصبح الناس كإنما يعيشون في الفردوس، يُغذّون أرواحهم بأطعمة عقلية غير مادية، ونظرًا لأنَّ ذلك يحدث لدى موازنته كفتي الميزان، فإنَّ قوة دفع الأشياء العالية تجعلهم يقودون الجسد ليرتقوا به إلى فوق.

من أجل هذا نسى بولس الرسول، حينما شرع في الكلام إلى تلاميذ ترواس الذين اجتمعوا حوله لكي يكسروا خبزًا ويتناولوا الطعام، نسى الطعام المحسوس؛ فقد كان يتغذّى في نفسه بالأفكار السماوية، فأطال خطابه حتى منتصف الليل. ويُمكننا أن نرى حالاً ثمرة مثل هذه الفلسفة. فقد كان هناك شاب يُدعى أفتيخوس جالسًا فوق النافذة، (وكان للمنزل ثلاثة سقوف)' فسقط ميتًا. فأقام بولس الرسول هذا الشاب المُلقَى على الأرض بأن اضطجع فوق جسده ببساطة. وكان يصيح نحو الواقفين حوله مُحاولاً أن يُبسِّط عظمة المعجزة ويكتمها بروح متواضعة قائلاً: «لاَ تَضْطَرِبُوا! لأَنَّ نَفْسَهُ فِيهِ!» (أع٢٠:١٠). وبعد ذلك صعد إلى المنزل وكسر الخبز دون أن يتوقف عن الكلام بأشياء ممتازة. بل أنَّ فجر اليوم كان قد لاح بينما بولس الرسول لا يزال يتكلم، لأنه كان قد نسى ساعة النوم: «وَأَمَّا نَحْنُ فَسَافَرْنَا فِي الْبَحْرِ بَعْدَ أَيَّامِ الْفَطِيرِ مِنْ فِيلِبِّي وَوَافَيْنَاهُمْ فِي خَمْسَةِ

أَيَّامٍ إِلَى تَرُواسَ حَيْثُ صَرَفْنَا سَبْعَةَ أَيَّامٍ. وَفِي أَوَّلِ الأُسْبُوعِ إِذْ كَانَ التَّلاَمِيذُ مُجْتَمِعِينَ لِيَكْسِرُوا خُبْزًا خَاطَبَهُمْ بُولُسُ وَهُوَ مُزْمِعٌ أَنْ يَمْضِيَ فِي الْغَدِ وَأَطَالَ الْكَلاَمَ إِلَى نِصْفِ اللَّيْلِ. وَكَانَتْ مَصَابِيحُ كَثِيرَةٌ فِي الْعِلِّيَّةِ الَّتِي كَانُوا مُجْتَمِعِينَ فِيهَا. وَكَانَ شَابٌّ اسْمُهُ أَفْتِيخُوسُ جَالِسًا فِي الطَّاقَةِ مُتَثَقِّلاً بِنَوْمٍ عَمِيقٍ. وَإِذْ كَانَ بُولُسُ يُخَاطِبُ خِطَابًا طَوِيلاً غَلَبَ عَلَيْهِ النَّوْمُ فَسَقَطَ مِنَ الطَّبَقَةِ الثَّالِثَةِ إِلَى أَسْفَلُ وَحُمِلَ مَيِّتًا. فَنَزَلَ بُولُسُ وَوَقَعَ عَلَيْهِ وَاعْتَنَقَهُ قَائِلاً: «لاَ تَضْطَرِبُوا! لأَنَّ نَفْسَهُ فِيهِ!». ثُمَّ صَعِدَ وَكَسَّرَ خُبْزًا وَأَكَلَ وَتَكَلَّمَ كَثِيرًا إِلَى الْفَجْرِ. وَهكَذَا خَرَجَ. وَأَتُوا بِالْفَتَى حَيًّا وَتَعَزَّوْا تَعْزِيَةً لَيْسَتْ بِقَلِيلَةٍ» (أع٢٠:٦-١٢).

وبعد ذلك فورًا أخذ طريقه إلى مكان آخر. كان ينظر إلى الأعمال التي يقوم بها من أجل الكرازة كأنها شيء مُفضّل؛ لذلك كان يقول مُبيِّنًا ذلك بوضوح: «لأَنَّ مَحَبَّةَ الْمَسِيحِ تَحْصُرُنَا» (٢كو٥:١٤) لأنَّ قيام وحياة الذين يُحبون الله قوامها المحبة فقط.

بذلك استطاع موسى أن يحتمل صومًا متصلاً لمدة أربعين يومًا، حينما كان يأخذ التعليمات المُتعلِّقة بالناموس على الجبل، وكان يتغذّى بالتأمل في الله. **وبذلك أيضًا أمضى هو نفسه أربعين يومًا دون أن يتناول طعامًا،** حينما كان على وشك الاتصال بالله بقدر الإمكان، في مغارة حوريب.

ومن أجل ذلك، قبِلَ إيليا توسلات الشعب الذي كان قد أخطأ وخلّصه من غضب الله، فأوقف الله المطر، وليس ذلك فقط بل أوقف حتى قطرات

الندى لمدة ثلاث سنين وستة أشهر، في الوقت الذي كان الله فيه يُعاقب شر إسرائيل بالجفاف. وبعد ذلك أعاد إلى الأرض ريَّها من جديد بأمطار غزيرة جدًا؛ فبالصلاة التي هي ثمرة الصوم صنع هاتَيْن المعجزتَيْن «مُوسَى وَهَارُونُ بَيْنَ كَهَنَتِهِ وَصَمُوئِيلُ بَيْنَ الَّذِينَ يَدْعُونَ بِاسْمِهِ. دَعُوا الرَّبَّ وَهُوَ اسْتَجَابَ لَهُمْ» (مز٩٩:٦). في الواقع كان يراهم يرفعون روحهم ويَسمون بها نحو كرامتها الأولى ويُغذّون بها جسدهم، فكان يُكافئهم كخدام حقيقيين.

إنَّ الرسل وكذلك الذين تبعوهم، كانوا يُمارسون الصوم طوال حياتهم، وكانوا يصنعون كل الأشياء بعد الشروع أولاً في الصوم والصلاة.

Les apôtres, ainsi que ceux qui les suivirent, pratiquent le Jeune toute leur vie, et ils faisaient toutes choses, après avoir mis en oeuvre aupararavant le jeune et la prière.

ويشهد سفر الأعمال بذلك في هذه العبارات: «وَبَيْنَمَا هُمْ يَخْدِمُونَ الرَّبَّ وَيَصُومُونَ قَالَ الرُّوحُ الْقُدُسُ: «أَفْرِزُوا لِي بَرْنَابَا وَشَاوُلَ لِلْعَمَلِ الَّذِي دَعَوْتُهُمَا إِلَيْهِ». فَصَامُوا حِينَئِذٍ وَصَلُّوا وَوَضَعُوا عَلَيْهِمَا الأَيَادِيَ ثُمَّ أَطْلَقُوهُمَا» (أع١٣:٢، ٣).

وفى مكان آخر، يقول أيضًا بخصوص بولس وبرنابا: «وَانْتَخَبَا لَهُمْ قُسُوسًا فِي كُلِّ كَنِيسَةٍ ثُمَّ صَلَّيَا بِأَصْوَامٍ وَاسْتَوْدَعَاهُمْ لِلرَّبِّ الَّذِي كَانُوا قَدْ

آمَنُوا بِهِ» (أع١٤: ٢٣)، ولذلك كانوا يصنعون عجائب كثيرة ويشفون الأمراض من كل نوع.

لكن، حينما تسمع ذلك، قد تقول: "**إنَّ هؤلاء لديهم دافع حقيقي إلى الصوم، إذ قد وصلوا إلى كمال عظيم بهذا المقدار وكانوا تلاميذًا؛ أما أنا، فإني رجل خاطئ ولا شيء**".

عجبًا في هذا! هل كان الصوم نافعًا وضروريًا للرسل، لكنه زائد عن الحاجة لك أنت الخاطئ؟

نعم، أقول، لأنَّ هؤلاء كانوا يصومون لكي يصنعوا المعجزات والعجائب، أما أنا فلا أطلب سوى أن آكل وأشرب وأسير في العالم دون أن تكون عليّ أيَّة مسؤولية.

ولكن أولاً، من خواص روح الخنزير والثور ألا تكون عنده أيَّة محبة للفضيلة وللشركة مع الله، بل بالعكس لا ينظر إلا إلى بطنه. ثم، أنَّ الرسل كانوا يصومون لكي يُروِّضوا أجسادهم، ولم يكونوا يعملون بقصد إظهار عجائبهم؛ لأنهم لم يكونوا عبيدًا للمجد الباطل.

Ensuite, les apôtres jeunaient pour dompter leur corps; et ils n'ouraient pas leur palais pour faire montre de prodiges, car ils n'etaient pas esclaves de la vaine gloire.

وبولس الرسول يشهد بذلك حينما يكتب إلى أهل كورنثوس: «بَلْ أَقْمَعُ جَسَدِي وَأَسْتَعْبِدُهُ حَتَّى بَعْدَ مَا كَرَزْتُ لِلآخَرِينَ لاَ أَصِيرُ أَنَا نَفْسِي مَرْفُوضًا» (١كو٩:٢٧).

هكذا إذن فإنَّ هدف الصوم هو قمع الجسد، وكانت العجائب مِنَ المسيح الذي يصنعها، فكان يُكرم فضيلتهم وفى نفس الوقت يُفيد الآخرين الذين كان من أجلهم يحدث ظهور هذه العجائب، لكي يؤمنوا بالإنجيل.

لكن سوف تقول أيضًا: "إنَّ هؤلاء كانوا يتحملون الصوم بسهولة؛ أما أنا فحينما أصوم، أظن أن جسدي ينحل وأوصالي تتمزق، وتكاد تزهق روحي".

لماذا تحاول بهذه الحجج أن تهرب مِنَ الصوم، مثلما يفعل خادم تجاه سيد شديد، بينما يأمرك الله بما يجلب لك الخلاص؟ هل تظن فعلاً، أنه كان يُعامِل جسده بقوة قليلة ذاك الذي يقول «**أَقْمَعُ جَسَدِي**»، لأنَّ القمع يعني الغصب «وَمِنْ أَيَّامِ يُوحَنَّا الْمَعْمَدَانِ إِلَى الآنَ مَلَكُوتُ السَّمَاوَاتِ يُغْصَبُ، وَالْغَاصِبُونَ يَخْتَطِفُونَهُ» (مت١١:١٢).

لكن الذي تصرَّف هكذا بعنف، بطريقة خاصة، جعل مِنَ العنف طبيعته، لأنَّ الله لم يأمرنا أيضًا بأشياء مستحيلة، بل ذهب إلى حد القول: «مَعَ الْمَسِيحِ صُلِبْتُ، فَأَحْيَا لاَ أَنَا بَلِ الْمَسِيحُ يَحْيَا فِيَّ. فَمَا أَحْيَاهُ الآنَ فِي

الْجَسَدِ فَإِنَّمَا أَحْيَاهُ فِي الإِيمَانِ، إِيمَانِ ابْنِ اللهِ، الَّذِي أَحَبَّنِي وَأَسْلَمَ نَفْسَهُ لأَجْلِي» (غلا٢:٢٠).

يجب إذن أن نُعامل ميل الجسد إلى الشر بقسوة خفيفة، فتدخل حينئذ تعزية الله بدلاً منها، وكذلك السرور الذي يتأتى عنها، الذي يُتمِّم الكلمة المليئة بالفلسفة التي قالها المُرنِّم: «عِنْدَ كَثْرَةِ هُمُومِي فِي دَاخِلِي تَعْزِيَاتُكَ تُلَذِّذُ نَفْسِي» (مز٩٤:١٩).

Il faut done que nous traitions avec une légère violence la concupiscence de la chair; et il entrera désormais à la place de celle – ci la consolation de Dieu, ainsi que la joie qui en vient, laquelle accomplit la parole pleine de philosophie dite par le psalmist.

منذ ذلك الحين فإنَّ السعادة التي تتبع ذلك، تسري ذاتها في الجسد وتجعله ناجحًا وبصحة جيدة، كما هو مكتوب: «اَلْقَلْبُ الْفَرْحَانُ يَجْعَلُ الْوَجْهَ طَلِقًا وَبِحُزْنِ الْقَلْبِ تَنْسَحِقُ الرُّوحُ» (أم١٥:١٣).

إذا كانت عين الروح مُتطهِّرة، وإذا كانت تتلذّذ بالتأمل السامي وبالإعلانات السماوية، فإنَّ ظهور هذه السعادة والفرح يسريان أيضًا في العظام ويدخلانها مثل العطر، وهذا ما يؤكده الكتاب المُقدَّس بقوله: «نُورُ الْعَيْنَيْنِ يُفَرِّحُ الْقَلْبَ. الْخَبَرُ الطَّيِّبُ يُسَمِّنُ الْعِظَامَ» (أم١٥:٣٠).

ثم يستشهد القديس ساويرس بالقديس أثناسيوس فيقول:

كتب القديس أثناسيوس، الشعلة السماوية بين الأساقفة، شيئًا مُماثلاً في سيرة حياة القديس أنطونيوس، قدوة حياة النسك، كان القديس أنطونيوس فعلاً قد ذهب إلى مكان في هذه المناطق التي لم تطأها الأقدام ولا عاش بها إنسان، وتوغَّل في الصحراء الداخلية، ومكث هناك طويلاً في حياة قاسية وشديدة جدًا أبعد من كل حد. وحدث أن بعض الناس ضايقوه بعد أن فتحوا بابه بقوة شديدة. **يقول أثناسيوس:** "فخرج أنطونيوس إليهم، كما من داخل مكان مقدس لا يصل إليه أحد مُتعلِّمًا مِنَ الأسرار ومُتمسِّكًا بالله. وكانت هذه هي المرة الأولى التي يظهر فيها خارج قلعته للذين أتوا ليبحثوا عنه. وحينما رأوه تعجبوا، فقد كان لجسده نفس الشكل، لم يكن قد سمن بسبب قلة التمرين، ولم يكن أيضًا قد نحف بسبب الأصوام ومُحاربة الشياطين، لكنه كان كما عرفوه قبل ذهابه. ومن ناحية أخرى فقد كانت لروحه صفات طاهرة؛ فلم تكن في الواقع منكسرة (abattue) بسبب الحزن، أو متراخية بسبب اللذة، ولم يكن يأخذ بها الضحك أو الكآبة لأنه لم يضطرب لرؤية الجمع، ولم يفرح بتحيات كل هؤلاء الزوار. لكنه في كل شيء كان رزينًا ينقاد بالعقل لأنه كان على سجيَّته.

Mais en tout il était égal comme s'il eut été conduit par la raison et parce qu'il était dans la nature.

هكذا إذن فإنَّ الإنسان بالطبيعة يُهيئ قوة للروح بالأصوام وبأعمال حياة النسك وبتغذية الجسد بالأغذية الغير مادية التي تليق بها.

فحتى متى نظل خارج الطبيعة ونحسب بجهالة، أننا نقطع أسباب هذه الحياة الغير مجدية، لو حفظنا الصوم في هذه الأيام القليلة؟

فإن لم يكن لدينا حافز على الصوم بإعتباره فضيلة، أفلا نكرم ابن الله، الكلمة الكائن قبل الدهور الذي تواضع من أجلنا، لدرجة أنه نزل أيضًا مِنَ السماء، وتجسّد وتأنّس بدون استحالة، وقدّم ذاته فداء عنّا بالصليب لكي يُطهِّر العالم، وتألَّم بالجسد، ألا نُكرِّمه تذكارًا لآلامه وقيامته، ألا نُسلّم له فنتألم بالصوم عِوضًا عن آلامه من أجل خلاصنا؟

ألا ترى أن مُحاربة الشياطين على الأبواب؟ ما كنت أقول لكم ذلك مُقدَّمًا، إن لم يكن هناك مَن يستهزئون قائلين: "حتى متى هذه التوسلات العلنية، وهذه القداسات المُرتَّلة، وهذه الصلوات؟ هل نبقى إذن تحت هذا الاحتقار؟ عندما تقوم الأعداء علينا، فإننا نحمي الأسوار والأبواب، مُحاولين درء الهزيمة، أفلا نحمي أنفسنا حينما تُهاجمنا الأرواح اللعينة الشريرة للغاية، أعداء البشر، بسبب خطايانا، ألا ندافع بالسور الروحاني: الصوم والصلاة؟

ومكتوب: «**هَذَا الْجِنْسُ لاَ يُمْكِنُ أَنْ يَخْرُجَ بِشَيْءٍ إلاَّ بِالصَّلاَةِ وَالصَّوْمِ**» (مر٩:٢٩).

لا نيأس إذن، ولنتُب بالكلية، دون أن نرجع أبدًا إلى الوراء، لأنَّ ساعة واحدة مِنَ التوبة الحقيقية تكفي لابعاد أشد الغضب. وهذه الأيام المُقدَّسة المُكرَّمة هي نوع مِنَ المعونة لنا،(٤٥) فانتهز الفرصة، والذي مجَّد هذه الأيام بآلامه شخصيًا وبقيامته، سوف يسمع لنا ويُخلِّصنا. **له المجد إلى أبد الدهور آمين.**



(45) Ces jours saints et Vénérables sont pour nous une sorte de secours.

والدة الإله

سلسلة مقالات القديس أنبا ساويرس

البطريرك الأنطاكى

٤

والــدة الإله

مترجم عن الجزء الثامن من مجموعة

PATROLOGIA ORIENTALIS

R. Graffin – F. Nau

Les Homélies Cathédrales de Sévère d'Antioche

المقال السابع والستون ترجمه إلى الفرنسية ونشره

Maurice Brière

مليكه حبيب يوسف يوسف حبيب

١٩٦٩م

مقدمة



بدأنا سلسلة المقالات للقديس العظيم البطريرك ساويرس الأنطاكي بمقال نفيس عن ظهور السيد المسيح للمريمات، وأعقبناه بمقال للقديس عن معجزة شفاء الأعرج، وآخر عن الصوم. ونُقدِّم لك أيها القارئ العزيز الكتاب الرابع من هذه السلسلة، وهو يتضمن مقالة عن القديسة الطاهرة مريم العذراء. وسنواصل تباعًا نشر هذه المقالات إن شاء الرب وعشنا. وتظهر أهمية هذه المقالات من أعاظم علماء عصره المُتعمِّقين في الدراسات اللاهوتية والذي كان من أكبر المدافعين عن حقائق الإيمان الأرثوذكسى المستقيم والذي تفخر به الكنيسة القبطية وتذكره في مجمع الآباء القديسين، بركة صلواته تكون معنا آمين.

١٩٦٩م

مليكه حبيب يوسف **يوسف حبيب**

المقال السابع والستون

عن مريم العذراء والدة الإله

حينما أريد أن أنظر إلى العذراء والدة الإله، وتجول فقط في خاطري الأفكار المُتعلِّقة بها، فعند أول بادرة يبدو لي أن صوتًا من جهة الله يأتي صارخًا بقوة في أذني ليُنبأني: «لاَ تَقْتَرِبْ إِلَى هَهُنَا. اخْلَعْ حِذَاءَكَ مِنْ رِجْلَيْكَ لأَنَّ الْمَوْضِعَ الَّذِي أَنْتَ وَاقِفٌ عَلَيْهِ أَرْضٌ مُقَدَّسَةٌ» (خر٣:٥).

في الواقع يجب أن نتخلص من كل تصوّر جسدي منحل، مثلما نخلع الحذاء من أرجلنا، حينما نحاول أن نصعد بروحنا إلى التأمل في أحد الأشياء الإلهية. فأي موضوع لاهوتي يُمكن تأمله أجلّ شأنًا من والدة الإله؛ وأي المواضيع يعلو عليه؟! إن الاقتراب منها هو الاقتراب مِنَ المكان المقدس أو هو بلوغ السماء. كانت فعلاً تنتمي إلى الأرض لأنها كانت تشترك مع الإنسانية بطبيعتها وكانت بشرًا مثلنا، إلا أنها كانت نقية طاهرة من كل دنس، وأثمرت من أحشائها ذاتها كما مِنَ السماء الإله المُتجسِّد. حملت وولدت بطريقة إلهية تمامًا ليس أنها أعطت المولود الطبيعة الإلهية، لأنَّ هذه كانت له قبل كل بدء وقبل كل الدهور، لكنها أعطته الطبيعة البشرية بدون استحالة، وذلك منها ذاتها ومن الحلول الذي لا يُنطَق به السري الذي للروح القدس.

وإذا كنت تريد أن تعرف كيف ذلك، فإنك تجد أبحاثك متوقفة بختم البتولية الذي لم ينقضه هذا الميلاد، وما يكون مختومًا يكون غير محسوس تمامًا، هذا يبقى سرًا ولا يُمكن أن نتكلم عنه: لذلك يصرخ شخص كيعقوب عجبًا فيقول «مَا أَرْهَبَ هَذَا الْمَكَانَ! مَا هَذَا إِلَّا بَيْتُ اللهِ وَهَذَا بَابُ السَّمَاءِ!» (تك٢٨:١٧).

إنَّ الإله الذي على الكل نزل أيضًا قديمًا، حينما أعلن الناموس على جبل سيناء «كَانَ مَنْظَرُ مَجْدِ الرَّبِّ» كما يقول الكتاب المقدس: «كَنَارٍ آكِلَةٍ عَلَى رَأْسِ الْجَبَلِ أَمَامَ عُيُونِ بَنِي إِسْرَائِيلَ» (خر٢٤:١٧). لم يكن ذلك مظهرًا للجوهر أو للذات، بل مظهر مجد الرب الأزلي. وكان مصحوبًا أيضًا بدخان وبسحابة مملوءة ظلامًا. وبصوت البوق القوي، وببروق سريعة ولكل ما كان يمكن أن يثير الخوف ويبعد عن الجبل كل الذين كانوا يقفون حوله. وهذا بينما كان هؤلاء الواقفون مُقدَّسين ومُطهَّرين، لأنَّ الحيوانات بطبيعتها كانت مُهدَّدة بالضرب والحجارة والسهام، إذ يقول «لاَ تَمَسُّهُ يَدٌ بَلْ يُرْجَمُ رَجْمًا أَوْ يُرْمَى رَمْيًا. بَهِيمَةً كَانَ أَمْ إِنْسَانًا لاَ يَعِيشُ» (خر١٩:١٣).

كل ذلك حدث لكي يثير الخوف. كان الله يقترب من بني إسرائيل مثلما يقترب من أشخاص ما زالوا خاضعين لعبادة الأصنام المصرية تستبد بهم الأهواء الحيوانية، فكان في كل مكان يثير الخوف فيهم، ويُلقي الرعب في قلوبهم بالأصوات، وبهذه الطريقة يجعلهم طائعين جدًا في مكان الناموس.

وكان بولس الرسول يشير إلى هذا الفصل حينما كان يقول أيضًا للذين آمنوا بالإنجيل «إِذْ لَمْ تَأْخُذُوا رُوحَ الْعُبُودِيَّةِ أَيْضًا لِلْخَوْفِ بَلْ أَخَذْتُمْ رُوحَ التَّبَنِّي الَّذِي بِهِ نَصْرُخُ: يَا أَبَا الآبُ» (رو٨:١٥). **كان الله فعلاً يريد أن يُعلِّمهم سلفًا بالخوف ويُصلِحهم بالناموس، وبعد أن يُرفعوا فوق درجة الخدام، يقترب منهم كما من أولاده بطريقة أكثر كمالاً وأكثر محبة.**

ومع ذلك لم يستفيدوا إطلاقًا من هذا الدرس، لكنهم بالعنف جُرفوا بزيادة خطاياهم بتيار جارف، فكانوا سبب غرق المعونة التي كانت تأتيهم من ذلك التعليم.

هكذا الله في جوده المتناهي يعطيهم نعمته وروح التبني الذي له بكرم أكثر وبسخاء أوفر، يُخضِع بالمحبة هكذا أولئك الذين لم يجذبهم بالخوف. وبعد أن أظهروا أنفسهم خدامًا مُبغَضين، جعل منهم أبناء مُختارين. فحق عليهم قول بولس الرسول الحكيم «حَيْثُ كَثُرَتِ الْخَطِيَّةُ ازْدَادَتِ النِّعْمَةُ جِدًّا» (رو٥:٢٠).

هناك كانت روح العبودية، وكان الجبل يُدخِّن، لأنه لم يأخذ سوى مظهر مجد الرب الأزلي على هيئة نار آكلة، وكان موسى الخادم يقوم بدور الوسيط.

أما هنا، حيث نعمة التبني، فبالعكس، ذلكم الجبل الروحاني **العذراء التي تتألق بالطهارة وتتلألأ بحلول الروح القدس.** فليس هنا مظهر مجد

الرب الأزلي فحسب، بل هو الله نفسه، الابن، الكلمة. إنه لا يسير فقط على قمة الجبل، لكنه يتجسَّد ويُولد من "**الجبل**" بدون استحالة: «وَالْكَلِمَةُ صَارَ جَسَدًا وَحَلَّ بَيْنَنَا» (يو١:١٤) إنه يعمل بشخصه ويُعطينا نعمته ولا يستخدم آخر، لأنَّ العبد لا يملك أن يُعطي نعمة التبني، لهذا السبب يتمجَّد بعظمته الإلهية ويصرخ قائلاً: «كَمَا أَنَّ ابْنَ الإِنْسَانِ لَمْ يَأْتِ لِيُخْدَمَ بَلْ لِيَخْدِمَ، وَلِيَبْذِلَ نَفْسَهُ فِدْيَةً عَنْ كَثِيرِينَ» (مت٢٠:٢٨).

إنه يجعل نفسه أولاً ابن الإنسان، وهو بذاته ابن الله غير منظور، ثم يجعلنا نحن الأرضيين أبناء للآب السماوي بحسب النعمة، إنه يأخذ الصغير، لكي يُعطي العظيم بتقييم الصغير به، لأنه مولود من أُم لا تعرف الزواج.

هذا هو الحجر الذي رآه دانيال النبي نازلاً مِنَ الجبل بدون معونة أي يد بشرية، أي أنه بدون البذار وبدون معاونة رجل تجسّد مِنَ العذراء. ماذا إذن يُدهشني أكثر؟ هل هو الجبل؟ حسب المظاهر الخارجية يكون الجبل في الجزء الأسفل،[٤٦] لكن بسبب البتولية والسر الإلهي الذي كمل فيه فهو عال ومرتفع. أهو الحجر؟[٤٧] إن الحجر هو أعلى نقطة في الجبل، قمة القوة ورأس كل سلطان وكل مقدرة، لكنه أراد أن يصبح بالجسد قطعة مِنَ الجبل،

(٤٦) رمزًا إلى أن القديسة العذراء مريم تنتمي بطبيعتها إلى البشرية الدنيوية، وذلك إيماءًا إلى الجبل الذي ظهر فيه الله حينما أعطى الوصايا لموسى.

(٤٧) رمزًا إلى السيد المسيح الذي هو فوق الكل.

لكي يوضع كأساس للكنيسة الجامعة، وأنه مكتوب: «فَإِنَّهُ لاَ يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَضَعَ أَسَاسًا آخَرَ غَيْرَ الَّذِي وُضِعَ الَّذِي هُوَ يَسُوعُ الْمَسِيحُ» (١كو٣:١١).

ولكون نزول الكلمة مثل نزول الحجر مِنَ الجبل يثبت محبة الله للبشر، وهو عربون السلام، والجبل بعيد عن إثارة الخوف، بالعكس يسهل الاقتراب منه، لذلك فيجب أن نتطهَّر، حينما نتجاسر ونتقدم مِنَ الواقع إذ يرى الجبل لا يستقبل الله كإله سيناء بل يجده يلد الله، مَن لا يندهش حينما يرى الله نازلاً على هذا الجبل الذي وُلد منه إنسانًا بدون تغيير.(٤٨)

لذلك بعد أن هرعت عند سفح هذا الجبل، أي بعد أن بينت الحواس الخارجية الظاهرية، أخشى أن أنظر إلى الداخل، مثل قدس الأقداس.

لأني أسمع كتاب الناموس يقول بخصوص رئيس الكهنة الذي يدخل هذا المكان: «وَيَأْخُذُ مِلْءَ الْمَجْمَرَةِ جَمْرَ نَارٍ عَنِ الْمَذْبَحِ مِنْ أَمَامِ الرَّبِّ وَمِلْءَ رَاحَتَيْهِ بَخُورًا عَطِرًا دَقِيقًا وَيَدْخُلُ بِهِمَا إِلَى دَاخِلِ الْحِجَابِ. وَيَجْعَلُ الْبَخُورَ عَلَى النَّارِ أَمَامَ الرَّبِّ فَتُغَشِّي سَحَابَةُ الْبَخُورِ الْغِطَاءَ الَّذِي عَلَى الشَّهَادَةِ فَلاَ يَمُوتُ» (لا١٦:١٢، ١٣).

---

(٤٨) جاء النص الفرنسي ما يلي:

Quel est en effet celui qui, trouvant que la montagne ne reçoit pas Dieu comme (le Dieu) du Sinaï, mais qu'elle enfante Dieu, n'en conçoit pas de l'étonnement. alors qu'il voit Dieu descend sur cette montagne, de laquelle il est né homme sans changement?

يجب فعلاً أن الذي يدخل إلى داخل أن يكون مشتعلاً في ذاته بجمر النار المأخوذ من على مذبح الرب ثم بعد ذلك يجب أن تكون راحتَيْه مملوئتَيْن بالبخور ذي العطر الدقيق. ومن المعلوم أن قوام الفضائل طهارة الأعمال وأن الصلاة تولِّد فهمًا عميقًا، حتى أن اختلاطه بالجمر يؤدي إلى الإعلانات السماوية المعتدلة التي يمكن فهمها. أما تلك الإعلانات التي هي أعلى من قوانا، فإنَّ الله يُعطيها كالدخان للخلاص فوق أرواحنا، وهكذا لا يفرض علينا حِملاً يفوق قوانا.

لذلك، بما أني لست مستعدًا ولا مُتطهِّرًا وليس لي هذا الجمر ولا هذا البخور، فأني أبقى في الخارج، ولن أفحص بالتفصيل ما هو بالداخل.

فبينما أتأمل في هذه الأمور، لا أزال أرى ذكرى العذراء والدة الإله تنير قلبي وتشعله مثل النار وتملأه مثل البخور برائحة خاصة ذكيّة، وحينئذ كأني قد نسيت نفسي وغشيتني دهشة، مأخوذًا برغبتي مبهورًا كليّة في الداخل بالجمال والرؤى الرمزية الموضوعة داخل قدس الأقداس، أتأمل ذلك في عمانوئيل بطرق كثيرة.

يُشار إلى عمانوئيل أولاً بالتابوت[٤٩] **المصنوع مِنَ الذهب الخالص** ومن الأخشاب الغير قابلة للتلف، لأنَّ الذهب يُغطي ألواح الخشب من كل

(٤٩) ذُكرت في الطبعة القديمة (الفلك) ولأن الكلمة لا تتماشى مع سياق النص، فقمنا بالرجوع للأصل الفرنسي للموسوعة، ووجدنا الكلمة تعني الفلك، أو التابوت، فوجدنا أن التابوت أدق بعدما تأكدنا من النص اليوناني أيضًا (الناشر).

ناحية في الداخل وفى الخارج، ولا يترك مطلقًا أي مكان مكشوف وظاهر بتألقه الذاتي. أليس المسيح يظهر هكذا؟ إنه واحد من اثنين، مِنَ اللاهوت مثل الذهب الذي يلمع ويتألق ببريق قوي، ومِنَ الناسوت المستثنى مِنَ الفساد مثل الأخشاب، بسبب ولادة الله الكلمة الظاهر بدون بذار، بفعل الروح القدس والعذراء مريم، فلم يتحد هو ذاته فقط بالجسد الذي لا نفس فيه، بل بجسد حي بنفس عاقلة. **وهذا هو المقصود في قوله: كان الذهب يُغطي الأخشاب في الداخل وفى الخارج** «وَتُغَشِّيهِ بِذَهَبٍ نَقِيٍّ. مِنْ دَاخِلٍ وَمِنْ خَارِجٍ تُغَشِّيهِ. وَتَصْنَعُ عَلَيْهِ إِكْلِيلاً مِنْ ذَهَبٍ حَوَالَيْهِ» (خر٢٥:١١)، «وَصَنَعَ بَصَلْئِيلُ التَّابُوتَ مِنْ خَشَبِ السَّنْطِ طُولُهُ ذِرَاعَانِ وَنِصْفٌ وَعَرْضُهُ ذِرَاعٌ وَنِصْفٌ وَارْتِفَاعُهُ ذِرَاعٌ وَنِصْفٌ. وَغَشَّاهُ بِذَهَبٍ نَقِيٍّ مِنْ دَاخِلٍ وَمِنْ خَارِجٍ. وَصَنَعَ لَهُ إِكْلِيلاً مِنْ ذَهَبٍ حَوَالَيْهِ. وَسَبَكَ لَهُ أَرْبَعَ حَلَقَاتٍ مِنْ ذَهَبٍ عَلَى أَرْبَعِ قَوَائِمِهِ. عَلَى جَانِبِهِ الْوَاحِدِ حَلْقَتَانِ وَعَلَى جَانِبِهِ الثَّانِي حَلْقَتَانِ. وَصَنَعَ عَصَوَيْنِ مِنْ خَشَبِ السَّنْطِ وَغَشَّاهُمَا بِذَهَبٍ. وَأَدْخَلَ الْعَصَوَيْنِ فِي الْحَلَقَاتِ عَلَى جَانِبَيِ التَّابُوتِ لِحَمْلِ التَّابُوتِ. وَصَنَعَ غِطَاءً مِنْ ذَهَبٍ نَقِيٍّ طُولُهُ ذِرَاعَانِ وَنِصْفٌ وَعَرْضُهُ ذِرَاعٌ وَنِصْفٌ. وَصَنَعَ كَرُوبَيْنِ مِنْ ذَهَبٍ صَنْعَةَ الْخِرَاطَةِ صَنَعَهُمَا عَلَى طَرَفَيِ الْغِطَاءِ. كَرُوبًا وَاحِدًا عَلَى الطَّرَفِ مِنْ هُنَا وَكَرُوبًا وَاحِدًا عَلَى الطَّرَفِ مِنْ هُنَاكَ. مِنَ الغِطَاءِ صَنَعَ الْكَرُوبَيْنِ عَلَى طَرَفَيْهِ. وَكَانَ الْكَرُوبَانِ بَاسِطَيْنِ أَجْنِحَتَهُمَا إِلَى فَوْقُ مُظَلِّلَيْنِ بِأَجْنِحَتِهِمَا

فَوْقَ الْغِطَاءِ وَوَجْهَاهُمَا كُلُّ الْوَاحِدِ إِلَى الآخَرِ. نَحْوَ الْغِطَاءِ كَانَ وَجْهَا الْكَرُوبَيْنِ» (خر٣٧:١-٩).

لاحظ أيضًا في ذلك صحة الرمز. كما أنَّ الخشب الغير قابل للتلف يكون خشبًا هو في مادته مثل كل الأخشاب التي يدركها العطب، ولكن من خواصه أن يكون غير قابل للتلف، هكذا جسد المسيح ذو النفس العاقلة كان أيضًا من نفس النوع ومن نفس الطبيعة كجسدنا، لكن كان له هذا بالإضافة، أي أنه الوحيد الذي كان حرًّا من فساد الخطية ومُستَثنى منها لأنه حُبِل به مِنَ الروح القدس ومن مريم العذراء، وأنه اتحد بالكلمة «الَّذِي لَمْ يَفْعَلْ خَطِيَّةً، وَلاَ وُجِدَ فِي فَمِهِ مَكْرٌ» (١بط٢:٢٢).

وأيضًا كما أن أخشاب التابوت كانت لا يأتيها الإنحلال ومع ذلك مِنَ الممكن قطعها وإحراقها، **هكذا الجسد كلي الطهارة الذي للمسيح إلهنا لم يشترك أيضًا في الخطية أو في الفساد الذي ينتج عنها،** لكنه مع ذلك يتحمل الآلام والضربات والموت والأوجاع من نفس النوع. لأنه إن لم يكن كذلك، ما اقتبل الموت الذي به كسر ذاك الذي له سلطان الموت «فَإِذْ قَدْ تَشَارَكَ الأَوْلاَدُ فِي اللَّحْمِ وَالدَّمِ اشْتَرَكَ هُوَ أَيْضًا كَذَلِكَ فِيهِمَا، لِكَيْ يُبِيدَ بِالْمَوْتِ ذَاكَ الَّذِي لَهُ سُلْطَانُ الْمَوْتِ، أَيْ إِبْلِيسَ» (عب٢:١٤) ولما جاء إلى القبر ونزل إلى الجحيم لم يعرف الفساد الذي يتأتى عنه بسبب قيامته

الإلهية من بين الأموات:[٥٠] لأنه «لَمْ تُتْرَكْ نَفْسُهُ فِي الْهَاوِيَةِ وَلاَ رَأَى جَسَدُهُ فَسَادًا» (أع٢:٣١)، كما هو مكتوب.

وبهذا نستنتج أن جسد المسيح كان غير قابل للفساد في كل شيء لأنه لم يخضع بتاتًا للانحلال الذي يأتي مِنَ الخطية، وبينما كان يمكن أن يتحمل ما يأتي مِنَ الموت ومن القبر، فإنه دفع بالفساد جانبًا دون أن يتأثر به، بسبب اتحاده بالكلمة، لأنه بطبيعته غير قابل للفساد والألم والموت.[٥١]

ولندع هنا مقارنة التابوت والتشابه الخاص به. فليس في الواقع كصورة الذهب المشغول يلتصق بالخشب، كان الله الكلمة متحدًا بالجسد.

---

(٥٠) جاء فى النص الفرنسى ما يلى:

et quand il est venu Jusqu'à la Sépulture et à la descente aux enfers, il n'a pas encore connu la corruption qui en vient, à cause de sa résurrection divine d'entre les morts.

(٥١) جاء فى النص الفرنسى ما يلى:

De la sorte il résulte que le corps du Christ s'est montré incorruptible en tout, puisqu'il ne fut nullement sujet à la corruption qui vient du péché, et que, susceptible de subir celle qui provient de la mort et de la sépulture, il L'écartée sans être pris par elle, à cause de son union avec le Verbe, car il est par nature incorruptible, impassible et immortel.

لأنَّ الظل الذي في الرمز ضعيف ولا يستطيع أن يمثل الحقيقة كاملة، ويكون بعيدًا عن الدقة، ولو أنه يصور بعض أوجه التشابه.

وبولس الرسول يعطينا صورة أخرى للاتحاد الإلهي الذي تحقق في عمانوئيل، حينما يقول: «فَإِذْ قَدْ تَشَارَكَ الأَوْلاَدُ فِي اللَّحْمِ وَالدَّمِ اشْتَرَكَ هُوَ أَيْضًا كَذلِكَ فِيهِمَا، لِكَيْ يُبِيدَ بِالْمَوْتِ ذَاكَ الَّذِي لَهُ سُلْطَانُ الْمَوْتِ، أَيْ إِبْلِيسَ» (عب٢:١٤). هكذا اشترك الله الكلمة بنفس الطريقة مثلنا في الدم واللحم، ونعلم أنَّ روحنا تتحد بالجسد بدون اختلاط في اجتماع الطبيعة والجوهر.

وإذ نواصل التأملات في التابوت، نرى **الإناء الذهبي** الذي كان فيه المن ينادي ويجذبني إليه، باعثًا أشعة منيرة ومُقدِّمًا إليّ صورة أخرى لعمانوئيل إلهنا، وكمثل رسام يُصوِّر الخدمة الإلهية بصور مُتعاقبة كما على لوحة ويُبيِّن بها مجيء السيد المسيح في الجسد. وأن كُتَّابًا كثيرين قد جمعوا في ذلك إعتبارات مُختلفة لأنَّ واحدًا فقط لا يكفي في تبيان الكل.

فالمن النازل مِنَ السماء مثل المطر بداخل إناء مصنوع على الأرض كان يشير إلى كلمة الله النازل مِنَ السماء، فهو لم يُحضِر الجسد من فوق، لكنه تجسَّد مِنَ الأرض ومنا بدون استحالة. أما بخصوص التابوت، فكانت الأخشاب رمزًا للجسد والذهب رمزًا للاهوت. أما هنا فيكون العكس، كما أنَّ المن يرمز إلى الله الكلمة والإناء الذهبي إلى الجسد. والمقصود بهذا

التشبيه أنَّ المسيح بعد أن «أَسْلَمَ نَفْسَهُ لأَجْلِنَا، قُرْبَانًا وَذَبِيحَةً لِلَّهِ رَائِحَةً طَيِّبَةً» (أف٥:٢)، وقام مِنَ الأموات وبذلك أعطى نفسه منذ ذلك الوقت اسم خبز السماء لحياتنا ولشركتنا، ما كان لجسده(٥٢) أن يخضع للأمراض البشرية أو أن يكون قابلاً لإحتمال الضعفات من نفس النوع، أعني الجوع والتعب والعطش والآلام، لأنَّ التدبير الإلهي الذي لأجله تحمَّل ذلك بإرادته، كان قد تم. لكن بمثل هذا الإناء الذهبي، يكون الجسد مُقدَّسًا، ومُحيّيًا، ولا يُمكن إهلاكه، ولا يمكن أن يتألم(٥٢) لأنَّ جسد الله الكلمة الذي هو الحياة بطبيعته والذي هو مُزيَّن بالمجد اللائق بالله، لم يتغيّر أو يتحوّل إلى طبيعة اللاهوت، لكنه يبقى على ما كان، كما هو مكتوب «فَيَنْظُرُونَ إِلَيَّ الَّذِي طَعَنُوهُ» (زك١٢:١٠)، حينما يأتي ثانية مِنَ السماء. هذا ما كان يقوله بولس الرسول: «إِذًا نَحْنُ مِنَ الآنَ لاَ نَعْرِفُ أَحَدًا حَسَبَ الْجَسَدِ. وَإِنْ كُنَّا قَدْ عَرَفْنَا الْمَسِيحَ حَسَبَ الْجَسَدِ، لَكِنِ الآنَ لاَ نَعْرِفُهُ بَعْدُ» (٢كو٥:١٦).

لكن حينما أجول بنظري في التابوت أجد فيه **لوحا الناموس** موضوعَيْن، وكذلك **عصا هرون التي أزهرت**، بعد أن يبست، بطريقة عجيبة، وأنتجت ثمار اللوز «وَفِي الغَدِ دَخَل مُوسَى إِلى خَيْمَةِ الشَّهَادَةِ وَإِذَا عَصَا هَارُونَ لِبَيْتِ لاوِي قَدْ أَفْرَخَتْ. أَخْرَجَتْ فُرُوخًا وَأَزْهَرَتْ زَهْرًا

(٥٢) بعد القيامة من الأموات.

وَأَنْضَجَتْ لوْزًا» (عد١٧:٨). هذا يعني أنَّ المسيح بعد أن حوى في ذاته الناموس والكهنوت اللاوي، خبَّأها وحينما ضعفت ويبست جعلها تأتي بثمر بنبات الحياة الإنجيلية. ولذلك كان يقول أيضًا: «لاَ تَظُنُّوا أَنِّي جِئْتُ لأَنْقُضَ النَّامُوسَ أَوِ الأَنْبِيَاءَ. مَا جِئْتُ لأَنْقُضَ بَلْ لِأُكَمِّلَ» (مت٥:١٧).

ماذا كانت هذه الثمار؟

اللوز ثمرة العصا القانونية. قشرة اللوز الخارجية الظاهرة مرة وملحة جدًا، لكن التي بعد القشرة الأولى صحيحة وثابتة، وهاتان القشرتان تحويان الجزء الليّن للطعام والتذوق. وحسب قول بولس: «وَلَكِنَّ كُلَّ تَأْدِيبٍ فِي الْحَاضِرِ لاَ يُرَى أَنَّهُ لِلْفَرَحِ بَلْ لِلْحَزَنِ. وَأَمَّا أَخِيرًا فَيُعْطِي الَّذِينَ يَتَدَرَّبُونَ بِهِ ثَمَرَ بِرٍّ لِلسَّلاَمِ» (عب١٢:١١). وكل عقاب يكون أولاً مرًا قليلاً بما يُسبِّبه مِنَ الضيق، وفيما بعد له جمال وتقويم.

العصا التي أزهرت وحدها بسبب غنى ووفرة العطايا الروحانية تُنبئنا بطريقة أخرى بالمسيح الذي من يسّى ومن داود حسب الجسد، وعظَّم به جنسنا الذي كان قبلاً محكومًا عليه بالهلاك بسبب الخطية، فأنبت وأزهر ونمى. وتنبَّأ إشعياء بهذه العبارات: «وَيَخْرُجُ قَضِيبٌ مِنْ جِذْعِ يَسَّى وَيَنْبُتُ غُصْنٌ مِنْ أُصُولِهِ» (إش١١:١).

المذبح الذي كان موضوعًا فوق التابوت، وبين خُدَّام الكهنوت مَن أكمل خدمته عليه، أو أهرق دمًا عليه، وكان مُغطَّى مِنَ الناحيتَيْن بأجنحة

الشاروبيم، يُشير أيضًا بوضوح إلى المسيح «الَّذِي قَدَّمَهُ اللهُ كَفَّارَةً بِالإِيمَانِ بِدَمِهِ لإِظْهَارِ بِرِّهِ مِنْ أَجْلِ الصَّفْحِ عَنِ الْخَطَايَا السَّالِفَةِ بِإِمْهَالِ اللهِ» (رو٣:٢٥)، كما يقول بولس الرسول.

كان موضوعًا فوق التابوت، بهذا يُشِير أن سبب مجيء السيد المسيح في الجسد إنما في نفس الوقت لإتمام الذبيحة الكفارية عن خطايانا. لم يكن مُمكنًا للكهنة أن يصلوا إليه. لأنه لم يكن من حق أي إنسان، بل له وحده، أن يُقدِّم ذاته: وهذا ما قد صنعه أيضًا حينما «قُدِّمَ مَرَّةً لِكَيْ يَحْمِلَ خَطَايَا كَثِيرِينَ» (عب٩:٢٨). وعندما نقوم الآن بخدمة القداس، فإننا لا نُقدِّم شكليًا ذبيحة المسيح سلفًا، لكننا بإتمام الطقوس السرِّية نصنع ذِكر آلامه التي قدمها هو نفسه.

et quand maintenant nous exerçons le sacerdoce, nous n'immolons pas d'avance (le Christ) en figure, mais par l'accomplissement des rites mystiques nous faisons mémoire du sacrifice qu'il a offert lui-même.

(ونُقرِّب له قرابينه من الذي له)[٥٣]

كان الشاروبيم يُغطّونه. كيف لا تُبيِّن هذه الكلمة بوضوح أنه حتى بعد إتمام الذبيحة الكفارية حسب التدبير الإلهي، فهو أيضًا الله في الجسد

(٥٣) انظر القداس الإلهي.

الذي تألم لأجلنا، وأنه مخوف ولا تستطيع القوات العُليا أن تصل إليه، لا قبل ولا بعد الآلام، و أنه بالأكثر مُبجَّل ومعبود، لأنه أظهر حكمته بأشكال شتّى كما كان يقول بولس الرسول في خلاصنا «لِكَيْ يُعَرَّفَ الآنَ عِنْدَ الرُّؤَسَاءِ وَالسَّلاَطِينِ فِي السَّمَاوِيَّاتِ بِوَاسِطَةِ الْكَنِيسَةِ بِحِكْمَةِ اللهِ الْمُتَنَوِّعَةِ» (أف٣:١٠).

لكن حينما أقول هذه الأشياء وأتامل دخان البخور وهو يرتفع ويعلو إلى فوق أراه يحجب عني بريق النار ويملأ عيني ظلامًا، ويمنعني عن التقدُّم إلى الأمام حتى لأتقهقر بطريقة هادئة، رافعًا رِجلاً ومُؤخِّرًا الأخرى، وأخرج بحرص. إن الزينة الخارجية لوالدة الإله وفيرة مثل الغنى الداخلي. فهي في الواقع خميرة الخليقة الجديدة، جذر الكرمة الحقيقية التي أصبحنا أغصانها بالمعمودية.

Elle est en effet le levain de notre nouvelle création, la racine de la vigne véritable dont nous sommes devenus les branches par la même germination du baptême.

هنا نهاية صلح الله مع الناس، الذي فيه كانت الملائكة ترنم: «الْمَجْدُ لِلَّهِ فِي الأَعَالِي، وَعَلَى الأَرْضِ السَّلاَمُ، وَبِالنَّاسِ الْمَسَرَّةُ» (لو٢:١٤). لذلك **كانت ذكرى العذراء تُنبِّه نفوسنا إلى أن أيّة عداوة هي غير الصلح وهي حالة حرب، وأننا أصبحنا في سلام في المقدسات وفى شركة الله قد دُعينا.**

كيف لا تقدر العذارى اللواتي يجرين نحو كرامة والدة الإله مريم والإكليل والثواب اللذَيْن هما نتيجة لها؟ واللواتي قد ارتبطن بالزواج كيف لا يعطين العلاقة الجسدية حقها مِنَ الطهارة والقداسة؟ ومَن لم يكن في البتولية عليهن أن يتبعن هذه الكلمة «اَلدَّعْوَةُ الَّتِي دُعِيَ فِيهَا كُلُّ وَاحِدٍ فَلْيَلْبَثْ فِيهَا. دُعِيتَ وَأَنْتَ عَبْدٌ فَلاَ يَهُمَّكَ. بَلْ وَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَصِيرَ حُرًّا فَاسْتَعْمِلْهَا بِالْحَرِيِّ. لأَنَّ مَنْ دُعِيَ فِي الرَّبِّ وَهُوَ عَبْدٌ فَهُوَ عَتِيقُ الرَّبِّ. كَذلِكَ أَيْضًا الْحُرُّ الْمَدْعُوُّ هُوَ عَبْدٌ لِلْمَسِيحِ. قَدِ اشْتُرِيتُمْ بِثَمَنٍ فَلاَ تَصِيرُوا عَبِيدًا لِلنَّاسِ. مَا دُعِيَ كُلُّ وَاحِدٍ فِيهِ أَيُّهَا الإِخْوَةُ فَلْيَلْبَثْ فِي ذلِكَ مَعَ اللهِ» (١كو٧:٢٠-٢٤). هذا قانون الروح. كيف لا نسلك جميعًا ونعيش لمجد الله الذي تجسَّد، والذي حسبنا مُستحقين لمحبة عظيمة كهذه؟

لهذا السبب، حينما سمعتم أني سمَّيت والدة الإله "**قدس الأقداس**" (وهو الخيمة الموجودة داخل الحجاب الثاني) قد امتلأت قلوبكم أيضًا غيرة وحماسًا نحو الزمن الذي تتوسع فيه الخيمة الأولى "بيت الصلاة". ماذا ينقص؟ من جانبنا علينا أن نَشرع في العمل ونبتدئ، ومن جانبكم عليكم أن تتمثلوا بإرادة الله الصالحة الكريمة مثل الذين كانوا عند بناء خيمة الشهادة يُحضِرون بفرح كل المواد وعطية خيراتهم؟ لم يرفض الله حتى شعر الماعز وكانت صناعة الحبال مِنَ الشعر. هو فعلاً الذي أخذ أيضًا فلسي الأرملة ووضعهما علنًا قبل أيّة عطية أخرى أكثر منها أهمية، لأنَّ

فيهما كل معيشتهما، فلا يعفي أحد مِنَ الفقراء نفسه من أن يُقدِّم تقدمة ولا يستحي من فقره، بل ليُقدِّم ما استطاع لأنَّ الله يقبل مثل هذه الذبيحة ويعرف من أين تُقدَّم.

ونحن نصرخ إلى العذراء القديسة مريم وإلى الكنيسة أيضًا فرحين بالغيرة الروحانية التي لهذا الجمع المُقدَّس، ومُبتهجين بكرامة السيدة العذراء القديسة مريم.

وقد وُردت نصوص كثيرة عن هذه الخيمة، وبالأخص في نبوات إشعياء النبي حيث يقول: «عَيْنَاكَ تَرَيَانِ أُورُشَلِيمَ مَسْكَنًا مُطْمَئِنًّا خَيْمَةً لاَ تَنْتَقِلُ. لاَ تُقْلَعُ أَوْتَادُهَا إِلَى الأَبَدِ وَشَيْءٌ مِنْ أَطْنَابِهَا لاَ يَنْقَطِعُ» (إش٣٣:٢٠)، «أَوْسِعِي مَكَانَ خَيْمَتِكِ وَلْتُبْسَطْ شُقَقُ مَسَاكِنِكِ. لاَ تُمْسِكِي. أَطِيلِي أَطْنَابَكِ وَشَدِّدِي أَوْتَادَكِ. لأَنَّكِ تَمْتَدِّينَ إِلَى الْيَمِينِ وَإِلَى الْيَسَارِ وَيَرِثُ نَسْلُكِ أُمَمًا وَيُعَمِّرُ مُدُنًا خَرِبَةً» (إش٥٤:٢، ٣).

وجاء في سفر الخروج تفصيلاً عن هذه الخيمة الآيات الآتية: «فَكَمُلَ كُلُّ عَمَلِ مَسْكَنِ خَيْمَةِ الاِجْتِمَاعِ. وَصَنَعَ بَنُو إِسْرَائِيلَ بِحَسَبِ كُلِّ مَا أَمَرَ الرَّبُّ مُوسَى. هكَذَا صَنَعُوا. وَجَاءُوا إِلَى مُوسَى بِالْمَسْكَنِ: الْخَيْمَةِ وَجَمِيعِ أَوَانِيهَا أَشِظَّتِهَا وَأَلْوَاحِهَا وَعَوَارِضِهَا وَأَعْمِدَتِهَا وَقَوَاعِدِهَا وَالْغِطَاءِ مِنْ جُلُودِ الْكِبَاشِ الْمُحَمَّرَةِ وَالْغِطَاءِ مِنْ جُلُودِ التُّخَسِ وَحِجَابِ السَّجْفِ وَتَابُوتِ الشَّهَادَةِ وَعَصَوَيْهِ وَالْغِطَاءِ وَالْمَائِدَةِ وَكُلِّ آنِيَتِهَا وَخُبْزِ الْوُجُوهِ وَالْمَنَارَةِ الطَّاهِرَةِ وَسُرُجِهَا: السُّرُجِ لِلتَّرْتِيبِ وَكُلِّ آنِيَتِهَا وَالزَّيْتِ لِلضَّوءِ وَمَذْبَحِ الذَّهَبِ وَدُهْنِ

الْمَسْحَةِ وَالْبَخُورِ الْعَطِرِ وَالسَّجْفِ لِمَدْخَلِ الْخَيْمَةِ وَمَذْبَحِ النُّحَاسِ وَشُبَّاكَةِ النُّحَاسِ الَّتِي لَهُ وَعَصَوَيْهِ وَكُلِّ آنِيَتِهِ وَالْمِرْحَضَةِ وَقَاعِدَتِهَا وَأَسْتَارِ الدَّارِ وَأَعْمِدَتِهَا وَقَوَاعِدِهَا وَالسَّجْفِ لِبَابِ الدَّارِ وَأَطْنَابِهَا وَأَوْتَادِهَا وَجَمِيعِ أَوَانِي خِدْمَةِ الْمَسْكَنِ لِخَيْمَةِ الاجْتِمَاعِ وَالثِّيَابِ الْمَنْسُوجَةِ لِلْخِدْمَةِ فِي الْمَقْدِسِ وَالثِّيَابِ الْمُقَدَّسَةِ لِهَارُونَ الْكَاهِنِ وَثِيَابِ بَنِيهِ لِلْكَهَانَةِ. بِحَسَبِ كُلِّ مَا أَمَرَ الرَّبُّ مُوسَى هَكَذَا صَنَعَ بَنُو إِسْرَائِيلَ كُلَّ الْعَمَلِ» (خر٣٩:٣٢-٤٢).

لذلك ونحن نشكره تعالى ونُكلِّمكم ببركات الروح، نقول: «**الرَّبُّ إِلهُ آبَائِكُمْ يَزِيدُ عَلَيْكُمْ مِثْلكُمْ أَلَفَ مَرَّةٍ وَيُبَارِكُكُمْ كَمَا كَلمَكُمْ**» (تث١:١١).

نُقدِّم له أيضًا المجد والإكرام للآب والابن والروح القدس الآن وكل أوان وإلى دهر الدهور آمين.



القديس
الشهيد بَرلاها

سلسلة مقالات الأنبا ساويرس

البطريرك الأنطاكى

٥

القـــديس الشهيـــد بـــرلاهـــا

مُترجَم عن الفرنسية مِنَ الكتاب الأول مِنَ الجزء الثاني عشر من مجموعة

PATROLOGIA ORIENTALIS

R. Graffin – F. Nau

Les Homélies Cathédrales de Sévère d'Antioche

ترجمه عن السريانية ونشره

Maurice Brière

ملیکه حبیب یوسف　　　　يوسف حبيب

١٩٦٩م

مقدمة



ترك لنا القديس ساويرس كنوزًا مُتعدِّدة الجوانب، منها المقالات في تفسير الكتاب المقدس وسير بعض القديسين. ومن هذه السير سيرة القديس برلاها. ويتضمن هذا المقال[٥٤] **مُناجاة بين القديس ساويرس والقديس الشهيد بَرلاها**؛ فيه استجابة روحية تُجسِّم المشاعر الحيّة التي تؤكد وحدة الشركة بين الكنيسة المُجاهِدة والكنيسة المُنتصرة. فيُعرِّف رعيته بجهاد القديس الشهيد برلاها لكي يتمثلوا بإيمانه ويُكرموه بذكر سيرته. وفي العرض البارع لسيرة هذا القديس الشهيد يتصوّر الأب اللاهوتي الأكبر القديس ساويرس أنَّ الشهيد برلاها يُعاتبه لأنه فاته أن يمتدحه مع الأربعين شهيدًا. فيرد على الشهيد بمحبة فائقة مُعتذرًا بكثرة همومه، ويجعل ذلك فرصة لذكر جهاد الشهيد وفضل تحمُّله الآلام وصلابة عزيمته وقوة روحه. هذا الحوار الروحاني أرفع وأسمى مِنَ الخواطر الدنيوية، يرفع الفكر والقلب والوجدان إلى سمو التأملات السمائية بأسلوب أخّاذ بعيد عن الزخرفة اللفظية مليء بالروح القوية. وأخيرًا يطلب القديس

(٥٤) بالرجوع إلى الموسوعة المذكورة وجدنا أن هذا المقال هو رقم ٧٣. (الناشر).

ساويرس مِنَ القديس الشهيد برلاها أن يُزيل عنه الهموم، ويوفِّر له الراحة حتى يتسنى له إذا ما إتسع وقته بزوال همومه، أن يُطيل الكلام عن القديس الشهيد ويُسهب في مديحه لكي يؤول ذلك لمجد الرب يسوع مُخلصنا الصالح.

واخترنا هذه السيرة لأنَّ السنكسار لم يذكر جميع القديسين، ولكي نُلقي بعض الضوء على بعض الشخصيات التي لم يُكتب عنها شيء، ليس لصغر شأنها أو لعدم استحقاقها، لأنَّ التاريخ مليء بأمثال هؤلاء القديسين. والقديس ساويرس في مستهل هذه السيرة يُنبِّهنا إلى تقدير أمثال هؤلاء القديسين حق قدرهم كغيرهم مِنَ الذين تداولتهم أقلام الكُتَّاب وألسنة المتحدثين.

على أن السنكسار ذكر قصة الأربعين شهيدًا، لكنه لم يذكر أسماءهم.

بركتهم المقدسة تكون معنا آمين

مليكه حبيب يوسف　　　　يوسف حبيب

استشهاد القديس برلاها

يقول القديس ساويرس: يبدو لي كأني أرى الشيخ القديس الشهيد برلاها يُلقي عليّ نظرة فاحصة، ويتهم سكوتي بحمية، وليس فقط على سبيل الحماسة، بل أيضًا بحق عادل. أراه يتهمني هكذا قائلاً: "ألا تسمع يا هذا، الرسول بولس يؤكِّد قائلاً: «لأَنْ لَيْسَ عِنْدَ اللهِ مُحَابَاةٌ» (رو٢:١١)، (كو٣:٢٥).

كيف يكون ذلك؟ إنك مرتَيْن حتى الآن قد عملت مديحًا غنيًا للأربعين شهيدًا الذين أُعطى لهم هذا الهيكل المُقدس، وإني في نفس الوقت كنت شريكًا لهم وأنت لم تهتم بجهادي. إنها السنة الثالثة ولم تختصني بكلمة مديح واحدة، أو تحث مؤمنًا على الفضيلة بتبصيره بمعاركي. لا أرغب في المدائح، بل في فائدة إخوتي. قد تعلَّمت أن أرنم لله الذي له التسبيح في الجماعة مع النبي داود: «مِنْ قِبَلِكَ تَسْبِيحِي فِي الْجَمَاعَةِ الْعَظِيمَةِ» (مز٢٢:٢٥). هذه الجماعة العظيمة التي لا يفوقها في العظمة شيء، هي التي سوف تجتمع في يوم الدينونة، حينما تقف كل الخليقة العاقلة في جمع واحد برعدة أمام الديان وسوف يقوم مثل ملك مُحاطًا بحاملي الحِراب والملائكة ورؤساء الملائكة ولكل الجيش العقلي. كما هو مكتوب: «يَدْعُو السَّمَاوَاتِ مِنْ فَوْقُ وَالأَرْضَ إِلَى مُدَايَنَةِ شَعْبِهِ» (مز٥٠:٤)؛ يعني أنه يفصل الذين أكملوا الأشياء السماوية عن الذين مارسوا الأمور

الأرضية، لأولئك يُعطي الراحة والإقامة فوق، وهؤلاء يتركهم مثل الأرض ينحنون إلى أسفل، وبعد أن يخزوا يُصْلَون في نار جهنم.

هذا ما بدأ به القديس ساويرس المقال، يبرز لنا بصورة ناطقة ما يدور بخلده عن الصلة الروحية بينه وبين القديس وتجاوب المشاعر بينهما، ويُجسِّم لنا بجلاء تدريبًا ورياضة روحية مُنزَّهة عن الأمور الأرضية، ثم يُصوِّر لنا رده على الشيخ فيقول: لدى سماع هذه الكلمات أهبّ لدافع عن نفسي أمام الشيخ المملوء مِنَ الأيام التي قضاها في الفضيلة والحياة الحقيقية. إن كتاب القانون ذاته يأمرني أن أقف أمام الشيخ إكرامًا وتبجيلاً لشخصه «مِنْ أَمَامِ الأَشْيَبِ تَقُومُ وَتَحْتَرِمُ وَجْهَ الشَّيْخِ وَتَخْشَى إِلَهَكَ» (لا١٩:٣٢) وفي دفاعي أزجى له في نفس الوقت مديحًا.

إني أعرف يا أبانا أنك وأنت في جسد هزيل أظهرت قدرة وحمية هادرة، وبصبرك قد رفعت هذه الحمية عاليًا. لكن ماذا أصنع أنا الذي تساورني آلاف الهموم؟ إني عاجز تمامًا عن أن أغوص في اللغة لعرض هذه المعاني المُقدسة بطريقة ممتازة، وأخشى أن أراني أُنقِّص من قدر فضائلك، ولست أرفعها لأني مقتنع بأن بطولة الممالك العظيمة لا تحتاج إطلاقًا إلى بهرج الألفاظ البليغة، لكن مجرد التلاوة وحدها كاف لكي يرفع السامعين حتى السماء. وفي الواقع قد أتيت بما كان يجب أن تقوله بلا نقصان؛ وكانت لك الحكمة والتهيُّؤ لها بسبب سنك الكبير، وكانت لك صولة الشباب لا

يعتريها وهن الشيخوخة في إيمانك وآلامك. أظهرت بصبرك أنه ليس لك صلابة الشباب فحسب، بل أنت أشد صلابة مِنَ الماس أو أي مادة أخرى. إنك أكثر صحة وأكثر صلابة مِنَ الشباب، فهو لا يستطيع أن يتحمل هذه العذابات.

حينما سأله القاضي: "ما هي المسيحية؟" ردّ هذا الحكيم بالروح بهذا القول الجامع: "إنها حقيقة التعاليم والاِستعداد لحياة مجيدة". ولما أراد القاضي في دهشة أن يتعلم أيضًا: "ما هو الله الذي يؤمن به المسيحي؟" قال له إنه يتعهد بعبادة الله الآب وابنه الوحيد ربنا يسوع المسيح والروح القدس، لكنه لن يقبل أبدًا أن يعبد خلائق. كما يعبدها الوثنيون الجُهلاء".

عند هذه الكلمة تصوَّر القاضي أن عِلم اللاهوت عند الصديق جاء مؤيِّدًا لما هو قابع فيه مِنَ الخطأ، فقال ساخرًا: "إنك أنت نفسك تخدم الخليقة، وقد اعترفت أيضًا أنك بعد الآب تعبد الابن الذي أرسله ضرورة، والذي خلقه أبوه نفسه"(٥٥) وقد أفحم القديس القاضي الذي كان في سُكر عبادة الأصنام يعبد أشياء عديدة وآلهة مولودة في أزمنة مُختلفة حسب الروايات، قال: "تأمَّل أيها القاضي، إن الله "الكلمة" مولود بغض النظر عن

(٥٥) هذا ما زعمه القاضي الوثني حسب فهمه الضيق من إيمان المسيحيين بالابن. وحقًّا مَن يكرمه يُكرِم الآب، وهو القائل «اَلَّذِي رَآنِي فَقَدْ رَأَى الآبَ» (يو١٤: ٩). ولو كان القاضي يقبل الأمور اللاهوتية لفهم من العبادة عبادة الآب والابن والروح القدس.

الوقت وبدون بداية: لأنه الكلمة والمجد ولا يُمكن أن يُحسَب مع الخلائق، لأنَّ الخليقة ليست نسلاً".

وليرتد الأريوسيون بهذه الكلمات، ويعلموا أن أفكارهم غريبة عن إيمان الشهداء.

فالتفت حينئذ القاضي إلى العذابات، مُنهزمًا في هذه النقطة. وعندما جلد الصدَّيق بقسوة، سمعه يقول بأنه لا يشعر بشيء في تلك المُعاملة السيئة. وأنه بعد أن أمر بأن يُمزِّقوه بواسطة أظافر للعذاب، كان يسمع نفس الكلمات البطولية، مع أن جسد الشهيد كله كان مُسلَّخًا. وأمر القاضي أيضًا أن يُعلَّق هذا الشجاع في المشنقة؛ وانكسرت عظمة الترقوة، بسبب العنف وسقطت العظام الأخرى من مفاصلها الطبيعية، ومع ذلك كان ذلك القاضي الذي فقد عقله يُطالبه بأن يُضحّي للآلهة؛ أما الذي كان يتحمل الألم، وكأنه لا يشعر بشيء، فكان يؤكد أنه لا يتألم.

كان القاضي في جنونه بأوامره يتجاسر ويتعدَّى حدود الطبيعة. فكان يأمر أن يفتحوا راحة يد الصديق وهو مُعلَّق في الهواء، وأن يضعوا فيها جمرًا مُلتهبًا مُضافًا إليه البخور؛ وأمر أن يُقام مذبح تحته، حتى إذا قلب يده يعتبر أنه قدَّم بخورًا للشياطين. لكن ببساطة يقال له: "كيف يمكن أيها التافه أن اللحم وقد فقد وعى آلام الجسد يميل يده ليُحرِق بخورًا. إن هذا الأمر لا يُقدَّم إتهامًا ضد الشهيد، كما أن أحدًا لا يقول أنه يُكرم

الشياطين عندما يسقط دمه وهو يسيل من جسده على المذبح بدون إرادته". إن الشهادة في حقيقة الأمر هي في موقف الروح الصلب الشجاع، وليس بتحميل الجسد ما ليس له، لذلك فإن الذي أسس هذه المعارك المُقدَّسة كان يقول: «وَلاَ تَخَافُوا مِنَ الذِينَ يَقْتُلُونَ الْجَسَدَ وَلَكِنَّ النَّفْسَ لاَ يَقْدِرُونَ أَنْ يَقْتُلُوهَا، بَلْ خَافُوا بِالْحَرِيِّ مِنَ الذِي يَقْدِرُ أَنْ يُهْلِكَ النَّفْسَ وَالْجَسَدَ كِلَيْهِمَا فِي جَهَنَّمَ» (مت١٠:٢٨). ومع هذا فلما كان الشهيد يعلم بشأن هذه المسألة أن الخير سوف يفسد مع الشر، ودحضًا لضلال هذا الأمر، صبر وأبقى يده في وضع ثابت تؤذيها النار ببطء دون أن يغلبه الجمر.

لنتعلم إذن نحن أنفسنا من هذه اليد غير المُتغيّرة أن يكون لنا روح صحيح ثابت غير متزعزع. بماذا يجيب يوم الدينونة أولئك الذين ينكرون التقوى ليس فقط بالروح بل أيضًا بأعمالهم، الذين انحازوا للتعاليم التي تحتوي على تجديف؟

لنرجو أن يد الشهيد هذه، اليد التي تُتوَّج، أن تُعطي للكنيسة بطريقة غير منظورة كل بركة روحية؛ فهي في الواقع مليئة بآلاف الخيرات، لأنها فازت بشهادتها الخاصة خارج كل باقي الجسد.

في هذه الليلة الصيفية القصيرة، يا أبانا، دبجت لك هذا المقال المُختصر؛ لأنَّ الليلة الصيفية التي للأربعين شهيدًا القديسين تتيح لنا أن نتلذَّذ بالمعارك في حرية تامة ونسترسل في المقال ونطنب. وإذا كنت بصلواتك تُخفِّف همومنا، وإذا كنت توفر لنا راحة يومية، فربما يكون لنا

إستعداد لتعليقات علنية وروحية أطول وأكثر قبولاً لديك، لمجد المسيح الإله المُخلِّص، **له يليق المجد والكرامة والقدرة إلى أبد الدهور آمين.**



جرن المعمودية

سلسلة مقالات الأنبا ساويرس

البطريرك الأنطاكي

٦

جرن المعمودية

مقال للقديس ساويرس عن الإستعداد لدخول جرن المعمودية

ألقى القديس ساويرس هذا المقال في عشية بدء الصوم

وكان قد أغلق بيت المعمودية المُقدَّس

مترجم عن الفرنسية مِنَ الكتاب الثاني مِنَ الجزء الثامن من مجموعة

PATROLOGIA ORIENTALIS

R. Graffin – F. Nau

Les Homélies Cathédrales de Sévère d'Antioche

ترجمه عن السريانية ونشره

Maurice Brière

مليكه حبيب يوسف   يوسف حبيب

١٩٦٩م

الاِستعداد والتطهير

في أثناء أيام الصوم المجيدة هذه، نريد أيضًا أن نُذكِّركم بسبب الدخول المُقدَّس في هذا المكان مرة واحدة في السنة عندما نحتفل، على قدر الإمكان، بتذكار اليوم الذي حمل ربنا يسوع المسيح بإرادته في الجسد صليب الخلاص، وأنه بعد أن دُفن قام، وأهلك بدفنه المُحيي فساد القبور، وخلع بنزوله في المناطق السُفلى مِنَ الأرض مملكة الجحيم المُخيفة القاسية التي لم يمكن خلعها، فإننا نُطهِّر أنفسنا مُقدَّمًا أثناء الأربعين يومًا التي تسبق ذلك اليوم،(٥٦) بأن نصوم ونمتنع ليس فقط عن الأطعمة الخاصة بالمتعة التي تثير عنف الرغبات الشريرة، لكن نصوم أيضًا عن كل شر، لكي نشترك في الذبيحة الطاهرة غير الدموية للحمل الذي يُقدِّم قربانًا، الحمل الروحي الإلهي، «**إِذًا لِنُعَيِّدْ لَيْسَ بِخَمِيرَةٍ عَتِيقَةٍ وَلاَ بِخَمِيرَةِ الشَّرِّ وَالْخُبْثِ بَلْ بِفَطِيرِ الإِخْلاَصِ وَالْحَقِّ**» (١كو٥:٨) ولا نحمل شيئًا مِنَ الإنسان العتيق الذي دخل في الفساد، ونتبيَّن بالأحداث ذاتها «**إِنْ كَانَ أَحَدٌ فِي الْمَسِيحِ فَهُوَ خَلِيقَةٌ جَدِيدَةٌ. الأَشْيَاءُ الْعَتِيقَةُ قَدْ مَضَتْ. هُوَذَا الْكُلُّ قَدْ صَارَ جَدِيدًا**» (٢كو٥:١٧). حتى أننا بذلك مِنَ الآن فصاعدًا، بصنعنا ذكر القيامة كل يوم أحد، وبتكريمنا اليوم الذي يحمل اسم ربنا ومُخلِّصنا، نتمتع

(٥٦) إن القديس ساويرس وهو يُلقي هذا المقال يُشير إلى يوم القيامة المقدسة مُنبِّهًا سامعه إلى الحرص والتيقُّظ طول فترة الصوم المقدس ليستحقوا بركات اليوم العظيم المُشار إليه. ويشير فيه بتكريم يوم الأحد وفيه ذكر القيامة.

بنفس الذبيحة مرات كثيرة وبطريقة دائمًا جديدة، ونُطهِّر أنفسنا كذلك مُقدمًا في أيام التوبة والتطهير هذه قبل اليوم الذي فيه جعل المسيح المطعون في جنبه بحربة الجندي، الدم وماء الحياة يخرجان لنا، وأصعد ينبوع المغفرة الذي يسيل بصفة مستمرة بعد ذهاب الروح وبعد موته المُحيي. بالتأكيد ليس غريبًا أن الذين يعتمدون في موت المسيح يلبسون الحياة.

لنُكرِّم إذن هذا الينبوع الإلهي الذي جرى من خالق السموات، الذي يُعطي الحياة الأبدية لمن يولد منه، ويرتوي منه. لنُكرمه بالتطهير الذي ذكرناه، ونحن ننظر إليه دائمًا بعين الروح، حتى نصل في يوم القيامة بأقدام طاهرة مع المسيح، ونسير في الطريق المسلوك الذي لم يكن سلكه أحد وهو الطريق المُتجدِّد دائمًا، ونذهب بنفس الروح. لأنَّ كل الطرق التي تؤدي إلى الحياة الآتية تمتاز بأنها لا تعرف الشيخوخة أو الفساد. يجب أن ننظر إلى اليوم الذي فُتح فيه الجنب المُحيي المُضيء، جنب المسيح، وإلى يوم القيامة كأنهما يوم واحد، ولو أنهما مختلفان. الماء والدم كانا في الواقع علامتَيْن للقيامة؛ إنهما يُشيران بوضوح إلى أنَّ الذي تألَّم وكان مُزمعًا أن يُدفَن، من ناحية كان خليقًا أن يُحسب، كما يقول داود، فقط مع الذين ينزلون إلى الجحيم، لكن ليس مع الذين يبقون فيه، ومن ناحية أخرى يُبيِّن نفسه حرًا مِنَ الأموات ويقوم لأنه الله الحيّ «حُسِبْتُ مِثْلَ الْمُنْحَدِرِينَ إِلَى الْجُبِّ. صِرْتُ كَرَجُلٍ لاَ قُوَّةَ لَهُ. بَيْنَ الأَمْوَاتِ فِرَاشِي مِثْلُ

الْقَتْلَى الْمُضْطَجِعِينَ فِي الْقَبْرِ الَّذِينَ لاَ تَذْكُرُهُمْ بَعْدُ وَهُمْ مِنْ يَدِكَ انْقَطَعُوا. وَضَعْتَنِي فِي الْجُبِّ الأَسْفَلِ فِي ظُلُمَاتٍ فِي أَعْمَاقٍ» (مز٨٨:٤-٦).

لنستعد إذن خشية البعد عن طريق المياه الحيّة، ونظهر غير مستحقين كلية بعدم إكرامنا له بخطواتنا النجسة.

الماء الحيّ

فما هو هذا الطريق الذي يؤدي إلى هذا الينبوع؟ **لقد أعلنه إشعياء النبي بعد أن أخذ عنه الشكل والرمز قائلاً هكذا:** «حِينَئِذٍ تَتَفَتَّحُ عُيُونُ الْعُمْيِ وَآذَانُ الصُّمِّ تَتَفَتَّحُ. حِينَئِذٍ يَقْفِزُ الأَعْرَجُ كَالإِيَّلِ وَيَتَرَنَّمُ لِسَانُ الأَخْرَسِ لأَنَّهُ قَدِ انْفَجَرَتْ فِي الْبَرِّيَّةِ مِيَاهٌ وَأَنْهَارٌ فِي الْقَفْرِ. وَيَصِيرُ السَّرَابُ أَجَمًا وَالْمَعْطَشَةُ يَنَابِيعَ مَاءٍ. فِي مَسْكَنِ الذِّئَابِ فِي مَرْبِضِهَا دَارٌ لِلْقَصَبِ وَالْبَرْدِيِّ. وَتَكُونُ هُنَاكَ سِكَّةٌ وَطَرِيقٌ يُقَالُ لَهَا «الطَّرِيقُ الْمُقَدَّسَةُ». لاَ يَعْبُرُ فِيهَا نَجِسٌ بَلْ هِيَ لَهُمْ. مَنْ سَلَكَ فِي الطَّرِيقِ حَتَّى الْجُهَّالُ لاَ يَضِلُّ. لاَ يَكُونُ هُنَاكَ أَسَدٌ. وَحْشٌ مُفْتَرِسٌ لاَ يَصْعَدُ إِلَيْهَا. لاَ يُوجَدُ هُنَاكَ. بَلْ يَسْلُكُ الْمَفْدِيُّونَ فِيهَا. وَمَفْدِيُّو الرَّبِّ يَرْجِعُونَ وَيَأْتُونَ إِلَى صِهْيَوْنَ بِتَرَنُّمٍ وَفَرَحٌ أَبَدِيٌّ عَلَى رُؤُوسِهِمِ. ابْتِهَاجٌ وَفَرَحٌ يُدْرِكَانِهِمْ. وَيَهْرُبُ الْحُزْنُ وَالتَّنَهُّدُ» (إش٣٥:٥-١٠).

ما هي إذن الأرض التي كانت أولاً صحراء بلا مياه، فجُعلت أخيرًا خصبة بينبوع مياه حيّة، إن لم تكن هي الكنيسة؟ في البدء لم تكن أقدام الرب تطؤها، وكانت محرومة من معرفته، وكانت يابسة بسبب العطش الناتج من عبادة الأوثان. كانت تستقي من مياه الناموس أو من مياه الأنبياء، لكنها الآن أصبحت تفيض تمامًا بينبوع لحمّام التجديد، فإذًا هي كمثل بحر كبير جدًا تتدفق فيه كل جداول إسرائيل الجزئية، أعني نبوات موسى والنبوات المُتعلقة بالمسيح.

يجب أن نربط هذا أيضًا بكلمة داود القائلة: «فِي الْجَمَاعَاتِ بَارِكُوا اللهَ الرَّبَّ أَيُّهَا الْخَارِجُونَ مِنْ عَيْنِ إِسْرَائِيلَ» (مز٦٨:٢٦). في هذه الأرض اشتركت الطيور التي حلَّقت وطارت بواسطة الحياة الإنجيلية مِنَ الأعمال الأرضية حتى بلغت السماء. كانت أولاً بلا صوت، فصارت أخيرًا مثل الوحوش الأسطورية ذات الصوت الساحر.[٥٧] ورنمت الجماعات بأقوال إلهية بنفس الطريقة التي أظهر بها مُعلمو الكنيسة الممتازون أنفسهم. هكذا أيضًا كان القديسون يجدون لذتهم في الخلوة والزهد في الأشياء العالمية المادية. فكما أنتجت الأرض الغابات، وتزيَّنت بخواص الفردوس؛ أنتج القديسون وكان إنتاجًا لضروب مختلفة مِنَ الحياة، فيأتون بثمار مائة

---

(٥٧) وحوش أسطورية نصفها امرأة ونصفها الآخر عصفور أو سمكة. وكانت ذات أصوات حلوة ساحرة. والسيرين Les sirènes في الواقع نوع مِن الوحوش الأسطورية التي لها صوت رائع، تُغني كثيرًا ويُقال أنها تُحب سكنى الأماكن الجرداء.

وستين وثلاثين. أنتجت الأرض أيضًا الغاب[٥٨] الذي يمكن أن ننفخ فيه ونُرنِّم التسابيح.

تُرى أيّة ثمار مصدرها مِنَ الذي روى الأرض القاحلة وهو ينبوع الحياة؟ إنَّ الطريق الذي يؤدي إليه مُقدَّس وطاهر، ولا يمكن للأسود وللذين يُشبهون الحيوانات المفترسة النجسة أن يصلوا إليه، بل أولئك الذين تطهَّروا واستناروا بالمعمودية المُقدَّسة، كانوا متفرقين وسط الشعوب، لكنهم كانوا ينمون تحت نواميس وعادات مختلفة، وقد اجتمعوا الآن بفعل النعمة والشركة في جسد المسيح الواحد.

فلنطرد إذن من قلوبنا كل هوى الحيوان المتوحش أي تلك الرغبات الحيوانية النجسة الخاصة بالأهواء السفلية، والخطف، والغش نحو إخوتنا، والسُخط، والغضب، والمرارة، والأساليب الجشعة، والإهانة سواء كانت تؤذي الآذان أو تخرج مِنَ اللسان.

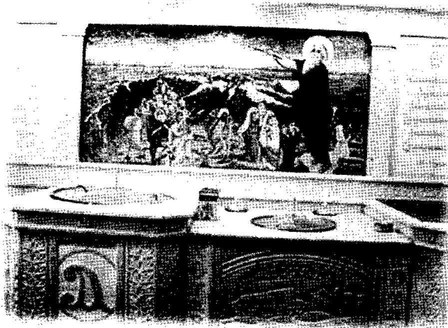
سمعتم فعلاً أنَّ الطريق طاهر ومُقدَّس. إذا كنتم تسيرون فيه كما يليق وباِستعداد، فإنَّ إشعياء النبي ذاهب من جديد للقائكم بهذه الكلمات المُقدَّسة، يُهنِّئكم على اِستعدادكم، ويدفعكم حتى المدخل بتهنئته إذ يقول: «اِفْتَحُوا الأَبْوَابَ لِتَدْخُلَ الأُمَّةُ الْبَارَّةُ الْحَافِظَةُ الأَمَانَةَ. ذُو الرَّأْيِ الْمُمَكَّنِ تَحْفَظُهُ سَالِمًا سَالِمًا لأَنَّهُ عَلَيْكَ مُتَوَكِّلٌ» (إش٢٦:٢، ٣)،

(٥٨) يشير به إلى ثمار الكلمة المزروعة في الأرض الجيدة.

«طَرِيقُ الصِّدِّيقِ اسْتِقَامَةٌ. تُمَهِّدُ أَيُّهَا الْمُسْتَقِيمُ سَبِيلَ الصِّدِّيقِ» (إش٢٦:٧).

ليُعطِكم الرب نفسه، بعد أن تكونوا قد تهيَّأتم واستعددتم أن تنالوا أيضًا الدخول إلى ملكوت السموات بسلام لأجل تمجيده تعالى، **لأنَّ له يليق التسبيح مع الآب والابن والروح القدس الآن وكل أوان وإلى دهر الدهور آمين.**





ضريبة الدرهمين

سلسلة مقالات القديس الأنبا ساويرس

البطريرك الأنطاكي

٧

ضريبة الدرهمَيْن

مترجم عن الفرنسية مِنَ الكتاب الثاني مِنَ الجزء العشرين من مجموعة

PATROLOGIA ORIENTALIS

R. Graffin – F. Nau

Les Homélies Cathédrales de Sévère d'Antioche

Homélie LXXXI

Publiée par Maurice Brière

Paris 1927

مليكه حبيب يوسف　　　　يوسف حبيب

١٩٦٩م

مقال ٨١

على المكتوب في إنجيل متى البشير:

«وَلَمَّا جَاءُوا إِلَى كَفْرَنَاحُومَ تَقَدَّمَ الَّذِينَ يَأْخُذُونَ الدِّرْهَمَيْنِ إِلَى بُطْرُسَ وَقَالُوا: «أَمَا يُوفِي مُعَلِّمُكُمُ الدِّرْهَمَيْنِ؟»» (مت١٧:٢٤)



المعارف الروحية

قبل أن يشرع القديس في التفسير، يستهل المقال بتمهيد عن **الكنوز الروحية المُذخرة في كلمة الله**، تلك الكنوز التي يجدها مَن يبحث عنها بنشاط ويجدّ في طلبها.

كثيرًا ما أخذت بالكلمة المقدسة الواردة في سفر الأمثال التي تقول: «مَجْدُ اللَّهِ إِخْفَاءُ الأَمْرِ وَمَجْدُ الْمُلُوكِ فَحْصُ الأَمْرِ» (أم٢٥:٢). فكيف يتمجَّد الله بأن تكون كلماته مخفية وليست ظاهرة؟ سوف تعرف ذلك بوضوح متى علمت قوة الكلمة. فما هو خفي يدفعك إلى البحث عن الغنى الذي تفيض به الكلمات الإلهية، فحينما تبرق الرمال الذهبية على الأرض تثير بريق التربة "تراب الذهب" في العلماء والخبراء الرغبة في القيام بالحفريات بحثًا عما هو مُخبَّأ، خلافًا لِمَ يكون مخفيًا تمامًا وغير ظاهر يجعلنا نفقد الأمل، أو حتى لا يخطر ببالنا على الإطلاق البحث وراءه.

وهكذا الحال بخصوص الكتب المقدسة المُلهَم بها مِنَ الله. فمن ناحية بأسلوبها الواضح البسيط السهل الفهم ومعانيها الظاهرة السهلة المأخذ الواضحة البيان، فهي للذين يُقابلونها مثل الذهب بدراسة أسرارها الغزيرة جدًا تدفع إلى البحث عن الغنى بالحكمة وتُلهب فينا الرغبة في تمجيد الله بما نكتسبه حتى أن مَن وجد بعض المعاني الإلهية عن طريق رغبته في المعرفة ومحبته للعمل واستضاء حسب قوته بضوئها، يصرخ مع النبي المُرتل: «أُغَنِّي لِلرَّبِّ لأَنَّهُ أَحْسَنَ إِلَيَّ» (مز١٣:٦)، ويقول: «هَا قَدْ سُرِرْتَ بِالْحَقِّ فِي الْبَاطِنِ فَفِي السَّرِيرَةِ تُعَرِّفُنِي حِكْمَةً» (مز٥١:٦)، لذلك كان مُخلِّصنا يقول لليهود الذين يتمسَّكون بالحرف: «فَتِّشُوا الْكُتُبَ لأَنَّكُمْ تَظُنُّونَ أَنَّ لَكُمْ فِيهَا حَيَاةً أَبَدِيَّةً. وَهِيَ الَّتِي تَشْهَدُ لِي» (يو٥:٣٩). فيُسبِّح الله إذ يجد الحياة المُخبَّأة والحياة الأبدية. هكذا يتمجَّد الله في أن تكون كلماته مخفيَّة. لأنَّ ما يكون سهل الفهم قد يُترَك بسهولة، ولكن ما تبذل فيه جهودات شاقة فذلك تحتفظ به بعناية لأنه مالنا الخاص ويحوي في ذاته جزاء محبة العمل، وبالحقيقة أن التمتع بالدراسة في العالم الحاضر والسعادة في الحياة المُقبلة قد اختص بهما القاضي العادل مَن يحيوا هذه الحياة. لذلك كتب أحد الأنبياء مُعرِّفًا أن ذلك لا يحدث فينا تلقائيًا. ولكنه بعد بحث جاد: اشعلوا لكم نور المعرفة بينما يكون ما زال هناك وقت، أطلبوا الرب حتى تأتي إليكم ثمار العدل. «اِزْرَعُوا لأَنْفُسِكُمْ بِالْبِرِّ. احْصُدُوا

بِحَسَبِ الصَّلاَحِ. احْرُثُوا لأَنْفُسِكُمْ حَرْثًا فَإِنَّهُ وَقْتٌ لِطَلَبِ الرَّبِّ حَتَّى يَأْتِيَ وَيُعَلِّمَكُمُ الْبِرَّ» (هو١٠:١٢).

وإننا نُشعل لأنفسنا نور المعرفة بالتطهير الذي ينتج عن الأعمال الفاضلة، وبالمواظبة والتعوُّد على التدريب بالكتب المقدسة. إن هذه الكتب بالحقيقة تُخفي في ذاتها مجد الله، وهي بدورها مُدّخر فيها مجد الله واستعلانه، حتى لتبدو كأنها لم تتح للإدراك ولو يسيرًا. ونقل بعض المُفسِّرين هذا بالعبارة التالية: "إن مجد الله يحجب الكلمة". وبالحقيقة إن اتفاق المعنى وتتابعه مصونان من وجهتَيْن: فاليهود عندهم الكتب المقدسة ويعتقدون أن الحياة الأبدية لهم بينما لا يملكونها، ومن ناحية أخرى إنّا تبعنا فهم الكتب المقدسة بالمعرفة التي في المسيح وننال بذلك الحياة الحقيقية التي لا نهاية لها. لذلك يقول ربنا إذ يُعرِّفنا بعمق الكلمة الإنجيلية: «لاَ تُعْطُوا الْقُدْسَ لِلْكِلاَبِ، وَلاَ تَطْرَحُوا دُرَرَكُمْ قُدَّامَ الْخَنَازِيرِ، لِئَلا تَدُوسَهَا بِأَرْجُلِهَا وَتَلْتَفِتَ فَتُمَزِّقَكُمْ» (مت٧:٦).

إن الأشياء المُقدَّسة لا يفهمها الكثيرون، وهي تظل مخفية ولا يراها الدنسون الذين ليسوا أطهارًا. هكذا اللؤلؤة تُستخرَج من قاع البحر ومن القوقع حيث تكون مجهولة، لكن حينما تُكتشف تُرسِل أشعة وضوءًا على كل ما يحيط بها، ولها ضياؤها الذاتي. فهذه المعاني المقدسة تُلهِب الرغبة في تسبيح الله الخالق.

بعد هذا العرض الرائع يبدأ القديس تفسير الآية: «وَلَمَّا جَاءُوا إِلَى كَفْرَنَاحُومَ تَقَدَّمَ الَّذِينَ يَأْخُذُونَ الدِّرْهَمَيْنِ إِلَى بُطْرُسَ وَقَالُوا: «أَمَا يُوفِي مُعَلِّمُكُمُ الدِّرْهَمَيْنِ؟»» (مت١٧:٢٤). سنبحث أولاً ماذا كانت ضريبة الدرهمَيْن هذه؟ وماذا كان مصدرها التاريخي.



مصدر ضريبة الدرهمين

حينما كان فرعون يُقاوم الوصية الإلهية ويُعارضها ولا يريد أن يعتق بني إسرائيل مِنَ العبودية القاسية، كانت مصر مضروبة بآفات مؤلمة مُتتابعة، دون أن يكون ذلك دافعًا لفرعون على تحسين مُعاملته أو تغيير ميوله. واستمرت مصر في تقليد عادات مَن تولّوا الحكم تنفيذ الأوامر البالغة القسوة. وكانت آخر النكبات قتل الأبكار مِنَ البشر والبهائم والخراف، دون أبكار بني إسرائيل الذين لم يُمسّوا.

ضريبة أبكار بني إسرائيل

قد أمر الله أن يُترك الأبكار من بني إسرائيل ليكونوا مُكرّسين له، حتى بذلك لا ينسى شعبه المعونات الإلهية. فحينما أمر بذلك بعد وقت قصير من إعطائه الناموس والقواعد المُتعلّقة بالذبائح وبالطقوس

المُقدَّسة، أعطى الأمر لموسى النبي في الصحراء أن يعمل تعداداً لمَن كانوا تحت قيادته، ويفصل الأسباط، ويُنظِّم ويُحدِّد الترتيب الذي يلزم أن يستأنفوا السير بموجبه وينصبوا الخيام، في الوقت الذي كانوا فيه يقطعون مرحلة في كل يوم. وأفرز بالضبط في هذا الوقت سبط لاوي للكهنوت وسائر الخدمات الخاصة بخيمة الشهادة بدلاً مِنَ الأبكار. ويجدر بنا أن نذكر كلمات الكتب المُقدسة المُلهَم بها مِنَ الله التي تقول: «وَقَال الرَّبُّ لِمُوسَى: وَهَا إِنِّي قَدْ أَخَذْتُ اللاوِيِّينَ مِنْ بَيْنِ بَنِي إِسْرَائِيل بَدَل كُلِّ بِكْرٍ فَاتِحِ رَحِمٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيل فَيَكُونُ اللاوِيُّونَ لِي. لأَنَّ لِي كُل بِكْرٍ. يَوْمَ ضَرَبْتُ كُل بِكْرٍ فِي أَرْضِ مِصْرَ قَدَّسْتُ لِي كُل بِكْرٍ فِي إِسْرَائِيل مِنَ النَّاسِ وَالبَهَائِمِ. لِي يَكُونُونَ. أَنَا الرَّبُّ» (عد٣:١١-١٣).

فدية النقود

لم يكتفِ بذلك لأجل هذه الوصية، ولم يجعل من هذا البدل شيئًا عامًا. فقد أمر أن تُعدّ الرؤوس واحدة واحدة، وبعد أن تم تعداد سبط لاوي ووجد ٢٢.٠٠٠، وكانت أبكار بني إسرائيل تزيد بعدد ٢٧٣، سمح بأن تقبل النقود فدية عنهم قائلاً: «وَأَمَّا فِدَاءُ المِئَتَيْنِ وَالثَّلاثَةِ وَالسَّبْعِينَ الزَّائِدِينَ عَلى اللاوِيِّينَ مِنْ أَبْكَارِ بَنِي إِسْرَائِيل. فَتَأْخُذُ خَمْسَةَ شَوَاقِل لِكُلِّ رَأْسٍ. عَلى شَاقِلِ القُدْسِ تَأْخُذُهَا. عِشْرُونَ جِيرَةً الشَّاقِلُ» (عد٣:٤٦، ٤٧).

إنَّ الدرهمَيْن والشاقل هما نفس الشيء، كما قال: «عِشْـرُونَ جِيرَةً الشَّاقِلُ»، وفي سفر الخروج حينما أمر بني إسرائيل أن يُقدِّموا مبلغًا ثابتًا مِنَ المال لصيانة وصنع الخيمة، ذكر أنَّ الدرهمَيْن عشرون جيرة: «الشَّاقِلُ هُوَ عِشْرُونَ جِيرَةً» (خر٣٠:١٣). وقد ألزم بدفع ضريبة الدرهمَيْن التي كانت تُقدَّم لرؤساء الكهنة من أجل الزائدين عن اللاويين، وكان كل أبكار بني إسرائيل يدفعونها لأولاد هارون. وبعد أن تقرَّرت عليهم الضريبة درهمَيْن كأمر إلزامي رُفعت عن كل رأس منهم إلى خمسة دراهم.

دلالة الضريبة

إن هذه الضريبة تشير إلى سر كبير للذين يستطيعون أن ينظروا ولو قليلاً في أعماق الروح. فإنَّ **كل مولود بكر هو صورة لآدم بكر جنسنا،** الذي بعد أن خدعته الخطية وغلبه الغذاء المُحرَّم، سلَّم نفسه للخطية بحواسه الخمس، البصر والسمع والشم والذوق واللمس. ومثل حواء رأى أنَّ الشجرة كانت جيدة للأكل تُسرّ العين عند النظر إليها، وأنها رائعة وجميلة عند التأمل فيها، فأكل من ثمرتها بعد أن أخذها من حواء وكانت أعطته إياها.

ويتبع ذلك أنَّ في الكلمة المقدسة إنباءً ودرسًا لنا نحن الذين يجب علينا أن نهتم بالخدمة المُقدَّسة، بما أننا من سلالة آدم بالمولد وتستعبدنا الخطية

بحواسنا الخمسة، فإننا نقوم بما قام به الأبكار الذين أعطوا عن أنفسهم خمسة دراهم كانوا يُقدِّمونها للرب، فنحفظ أنفسنا ونُكرِّسها لله، ونعطي خمسة دراهم مِنَ النقود. وهذه الدراهم هي التجربة وأعمال الفضائل التي تُطهِّر النفس.

إنَّ إمتحان الذهب والفضة إنما يكون بالنار. «اَلْبُوطَةُ لِلْفِضَّةِ وَالْكُورُ لِلذَّهَبِ كَذَا الإِنْسَانُ لِفَمِ مَادِحِهِ» (أم٢٧:٢١) يقول الكتاب المقدس، حتى أن مَن لا يكون في هذه الحالة، بالضبط مثل بكر المصريين، يقتله الملاك المُهلِك، لأنه محكوم عليه بشباك الموت.

المسيح وضريبة الدرهمين

كانت هذه الضريبة القانونية مطلوبة مِنَ المسيح أيضًا لأنه مولود بكر، ولو أنَّ كثيرين كانوا يجهلون السر المُتعلِّق بالعذراء أمه سواء قبل الميلاد أو بعد الميلاد. **ومع ذلك فقد كان مُستثنى منها لأسباب عديدة:**

أولاً: **المسيح هو آدم الجديد**، آدم الثاني، فمن ناحية هو من نفس جنس آدم الأول، ومن ناحية أخرى هو مِنَ السماء لأنه إله مِنَ اله، وليس مِنَ التراب، فلم يتواضع لدرجة تراب الخطية، ولم يسمع القول «لأَنَّكَ تُرَابٌ وَإِلَى تُرَابٍ تَعُودُ» (تك٣:١٩) لكنه أظهر في ذاته طبيعتنا بلا عيب. «وَجُعِلَ مَعَ الأَشْرَارِ قَبْرُهُ وَمَعَ غَنِيٍّ عِنْدَ مَوْتِهِ» (إش٥٣:٩)، «الَّذِي لَمْ يَفْعَلْ خَطِيَّةً، وَلاَ وُجِدَ فِي فَمِهِ مَكْرٌ» (١بط٢:٢٢). كيف إذن يكون مَن لم يكن

خاضعًا للخطية خاضعًا لضريبة الدرهمَيْن المطلوبة من أجل خطية آدم أبينا الأول؟ «أَوْ أَيَّةُ امْرَأَةٍ لَهَا عَشْرَةُ دَرَاهِمَ، إِنْ أَضَاعَتْ دِرْهَمًا وَاحِدًا أَلاَ تُوقِدُ سِرَاجًا وَتَكْنُسُ الْبَيْتَ وَتُفَتِّشُ بِاجْتِهَادٍ حَتَّى تَجِدَهُ؟ وَإِذَا وَجَدَتْهُ تَدْعُو الصَّدِيقَاتِ وَالْجَارَاتِ قَائِلَةً: افْرَحْنَ مَعِي لأَنِّي وَجَدْتُ الدِّرْهَمَ الَّذِي أَضَعْتُهُ» (لو١٥:٨، ٩).

إنه **هو الذي كنس البيت** حسب المثل المذكور في الأناجيل، أي الذي طهّر العالم بدمه. هو الذي أوقد السراج، أي جسده ذاته المُضيء بالطهارة والقداسة. والوصايا المُضيئة أكثر مِنَ الكل واردة في الأناجيل. **هو الذي فتَّش بعناية ووجد الدرهم** أي الصورة الإلهية الملكية لروحنا التي كانت مدفونة في تراب الأهواء السميك.

فالدرهم فعلاً عملة نحاسية عليها صورة ملكية، ونظرًا لأنَّ الناس يتداولونه كثيرًا هنا وهناك، قد يعلوه صدأ النحاس والقذارة.

إنه **هو الذي يدعو جيرانه**، جيوش الملائكة الذين في السماء وهم قريبون منه يخدمونه «ثُمَّ تَرَكَهُ إِبْلِيسُ، وَإِذَا مَلاَئِكَةٌ قَدْ جَاءَتْ فَصَارَتْ تَخْدِمُهُ» (مت٤:١١) فكيف يكون عادلاً أن يُطالَب بضريبة الدرهمَيْن؟

ثانيًا: كان غير خاضع لهذه الضريبة لأنَّ المال الذين كانوا يجمعونه مِنَ الأبكار فعلاً كان يُعطى لرؤساء الكهنة، وقد أصبح المسيح إلهنا حسب التدبير الإلهي «**رَسُولَ اعْتِرَافِنَا وَرَئِيسَ كَهَنَتِهِ**» كما يقول بولس الرسول،

فهو كرئيس كهنة يكون لزامًا ضمن الذين يأخذون وليس ضمن الذين يعطون الضريبة. ثم أنه رئيس الكهنة الأعظم الكائن إلى الأبد على طقس ملكيصادق الذي اجتاز السموات الكائن والذي أصبح أعلى مِنَ الكل «لاَحِظُوا رَسُولَ اعْتِرَافِنَا وَرَئِيسَ كَهَنَتِهِ الْمَسِيحَ يَسُوعَ» (عب٣:١) «فَإِذْ لَنَا رَئِيسُ كَهَنَةٍ عَظِيمٌ قَدِ اجْتَازَ السَّمَاوَاتِ، يَسُوعُ ابْنُ اللهِ، فَلْنَتَمَسَّكْ بِالإِقْرَارِ» (عب٤:١٤)، «كَذَلِكَ الْمَسِيحُ أَيْضًا لَمْ يُمَجِّدْ نَفْسَهُ لِيَصِيرَ رَئِيسَ كَهَنَةٍ، بَلِ الَّذِي قَالَ لَهُ: «أَنْتَ ابْنِي أَنَا الْيَوْمَ وَلَدْتُكَ». كَمَا يَقُولُ أَيْضًا فِي مَوْضِعٍ آخَرَ: «أَنْتَ كَاهِنٌ إِلَى الأَبَدِ عَلَى رُتْبَةِ مَلْكِي صَادِقَ»» (عب٥:٥، ٦)، «لأَنَّهُ كَانَ يَلِيقُ بِنَا رَئِيسُ كَهَنَةٍ مِثْلُ هَذَا، قُدُّوسٌ بِلاَ شَرٍّ وَلاَ دَنَسٍ، قَدِ انْفَصَلَ عَنِ الْخُطَاةِ وَصَارَ أَعْلَى مِنَ السَّمَاوَاتِ» (عب٧:٢٦)

كيف يُعطي ضريبة الدرهمَيْن للذين يخدمون في هيكل مصنوع بيد إنسان، لخدّام الظِل الذين يُباشرون الكهنوت لزمن محدود، للذين بإبراهيم أعطوا العشور لملكي صادق؟

ثالثًا: كان عمانوئيل غير خاضع لها لسبب آخر، إذ **كان مزمعًا أن يعطي بموته ضريبة أخرى ترمز إلى الدرهمَيْن** اللذَيْن يُشار بهما إلى نفسه وجسده، وأن يُسمَّر على الصليب ليمحو صكّ الخطية القائم ضد كل الجنس البشري، وأن يكسر بموته الخاص الموت العام الذي وقع ثقله على كل العالم. لأنه كان واحدًا من اثنين: أي مِنَ اللاهوت ومن الناسوت، وهما كاملان، ولم يكن بعد الاتحاد مُنقسمًا إلى اثنين. بعد أن تألم بالجسد، ولم يزل غير

قابل الألم لأنه الله، يُهيء لنا بالقيامة، فيقول في الأناجيل تارة: «وَالْخُبْزُ الَّذِي أَنَا أُعْطِي هُوَ جَسَدِي الَّذِي أَبْذِلُهُ مِنْ أَجْلِ حَيَاةِ الْعَالَمِ» (يو٦:٥١) وطورًا: «وَأَنَا أَضَعُ نَفْسِي عَنِ الْخِرَافِ» (يو١٠:١٥).

وقد فصل بإرادته الجسد عن النفس حينما ذاق الموت، وفي الموت انفصال النفس عن الجسد. لكن نفسه لم تُترك في الجحيم، كما هو مكتوب، فهو يضعها وله أيضًا أن يأخذها، ولم يرَ جسده فسادًا: «لأَنَّكَ لَنْ تَتْرُكَ نَفْسِي فِي الْهَاوِيَةِ. لَنْ تَدَعَ تَقِيَّكَ يَرَى فَسَادًا» (مز١٦:١٠)، «سَبَقَ فَرَأَى وَتَكَلَّمَ عَنْ قِيَامَةِ الْمَسِيحِ أَنَّهُ لَمْ تُتْرَكْ نَفْسُهُ فِي الْهَاوِيَةِ وَلاَ رَأَى جَسَدُهُ فَسَادًا» (أع٢:٣١).

يحق لنا أن نعتبر الروح والجسد ضريبة عقلية، فالروح فعلاً على صورة الله تقبل العدل والحكمة والفضائل الأخرى، فهي تُبيِّن الصورة الملكية مثل درهم. وحواس الجسد تخدم العمليات العقلية وتُبيِّن كما يبيّن الشمع ختم الصورة الملكية، وقد اكتسبت نوعًا مِنَ الاِستعداد.

وشأن هذَيْن العنصرَيْن في الإنسان الجسد والروح شأن قطعة عملة الدرهمَيْن. خلق الله الإنسان على صورة الله، وهو مِنَ الروح والجسد بدون اختلاط، إنه شخص واحد، أقنوم واحد وطبيعة واحدة.

ضلالة أريوس وأبولنير [٥٩]

بماذا يُجيب على هذا أريوس وأبولنير الذي كان مريضًا حقًّا بنقص العقل؟ فقد زعم أحدهما أنَّ النفس لم تشترك في التجسد الإلهي، والآخر ظن أنَّ العقل لم يشترك في التجسّد الإلهي. أين فعلاً فداء الصورة الملكية إذا كان الله قد اتحد فقط مع جسد أو مع نفس بدون عقل؟ ومن ناحية أخرى كيف يُعقل أنَّ الله الكلمة يترك جانبًا ما هو عاقل ويُعطينا ما تنقصه الأشياء الرئيسية؟

أضواء الإنجيل

أرأيت كيف كان ذلك المجد مستورًا فأضاءته لنا كلمات الإنجيل حينما فحصناها قليلاً، فلا نبتعد بل لنثابر على هذا الفحص. ومتى رأينا مجدًا أعظم يفوق ويسمو على المجد الذي بحثنا عنه سابقًا، نقول مع بولس الرسول: «فَإِنَّ الْمُمَجَّدَ أَيْضًا لَمْ يُمَجَّدْ مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ لِسَبَبِ الْمَجْدِ الْفَائِقِ» (٢كو٣:١٠).

لماذا دفع المسيح ضريبة الدرهمين

كان مخلصنا الصالح يستطيع أن يُقدِّم الأسباب السابق ذكرها التي تُبيِّن أنه لم يكن لِزامًا عليه أن يدفع ضريبة الدرهمَيْن، لأنه لم يكن خاضعًا

(٥٩) أبوليناريوس أسقف اللاذقية، وقد حوكم فى مجمع القسطنطينية المسكوني الثاني سنة ٣٨١م.

لها، لأنه آدم **الجديد** وباكورة جنسنا الذي بلا عيب، وأنه رئيس الكهنة ليس الزمني بل الأبدي، يفدينا مِنَ الخطية بأدائه ضريبة عقلية، لكنه لم يذكر هذه الأسباب وكتمها لأنها تليق بالتدبير الإلهي.

«**وَلَمَّا جَاءُوا إِلَى كَفْرَنَاحُومَ**»، وكانت معروفة أنها بلدته لأنه كان يُقيم ويبقى فيها كثيرًا، لأنه بعد القبض على يوحنا المعمدان، اختارها مقامًا بدلاً مِنَ الناصرة، ويقول متَّى الرسول: «وَلَمَّا سَمِعَ يَسُوعُ أَنَّ يُوحَنَّا أُسْلِمَ، انْصَرَفَ إِلَى الْجَلِيلِ. وَتَرَكَ النَّاصِرَةَ وَأَتَى فَسَكَنَ فِي كَفْرِنَاحُومَ الَّتِي عِنْدَ الْبَحْرِ فِي تُخُومِ زَبُولُونَ وَنَفْتَالِيمَ» (مت٤:١٢، ١٣)، «**تَقَدَّمَ الَّذِينَ يَأْخُذُونَ الدِّرْهَمَيْنِ إِلَى بُطْرُسَ وَقَالُوا: أَمَا يُوفِي مُعَلِّمُكُمُ الدِّرْهَمَيْنِ؟**» (مت١٧:٢٤). وهم يتقدّمون بالأخص في مدينته على سبيل الإنذار. لقد اقتربوا بكل نوع مِنَ الاحترام والإكرام، لم يكلموه أو يُخاطبوه حالاً، لكنهم قالوا لبطرس ليس بعجرفة كجباة ضرائب قائلين: "ليدفع معلمكم الدرهمَيْن"، بل بالحري قالوا بوداعة واتضاع «**أَمَا يُوفِي مُعَلِّمُكُمُ الدِّرْهَمَيْنِ؟**» (مت١٧:٢٤).

وقد يكون فيها شيء مِنَ التهكم لأنه كما ذكرنا، كانت ضريبة الدرهمَيْن تُدفع لرؤساء الكهنة، وكان لهؤلاء الكهنة مشاعر حسد نحو يسوع، وكانوا يتهمونه بمُخالفة الناموس وتعدِّي السبت، فربما كان جُباة هذه الضريبة، إذ يخدمون هؤلاء الحاسدين ويشتركون في الرأي معهم،

يسألون السؤال بطريقة تهكمية كأنهم يقولون: "لماذا في ذلك أيضًا يتعدّى الناموس، ولا يخضع لأوامره؟". وبالفعل فإنَّ هذه الكلمة ذاتها (معلمكم) تبدو كأنها تحتوى على هذه الإشارة. فإذا افترضنا ذلك، فلماذا إذن قد ردّ بطرس الرسول وهو يعرف نيّة مُعلِّمه الذي يُنادي بالحرية، ويريد أن يدفع هذه الضريبة مُتمِّمًا التدبير الإلهي، على الذين سألوه.

وبعد أن دخل التلاميذ البيت، لم يتأخر ويستعلم لماذا حضر جُباة الضريبة لمُقابلة بطرس، وهو العارف بكل شيء، لكنه قال له أولاً: **«مَاذَا تَظُنُّ يَا سِمْعَانُ؟ مِمَّنْ يَأْخُذُ مُلُوكُ الأَرْضِ الْجِبَايَةَ أَوِ الْجِزْيَةَ، أَمِنْ بَنِيهِمْ أَمْ مِنَ الأَجَانِبِ؟»** (مت١٧:٢٥). بيَّن بقوله: «مُلُوكُ الأَرْضِ» أنه هو نفسه بالأخص ابن ملك السماء، ويشترك معه في الملكوت ويأخذ نفس الكرامة، ومن ناحية أخرى، بيَّن بقوله: «أَمِنْ بَنِيهِمْ أَمْ مِنَ الأَجَانِبِ؟» أنه هو نفسه ابنه الحقيقي لأنه مولود مِنَ الله الآب حسب الطبيعة والجوهر. فكيف إذن ندعو مثل أريوس وأمونيوس خليقة أو غير مساوٍ للآب، مَن يملك مع الآب، وهو ابن وليس غريبًا، بل ابنه الذاتي الحقيقي؟ أو كيف يُعطي الابن، الإله مِنَ الإله، الضريبة للآب السماوي؟

من ذلك نعلم بوضوح أنَّ ضريبة الدرهمَيْن، حسب ما ذكرنا، ضريبة دينية وليست رومانية، وكانت تُدفَع لله، وليس لقيصر، لأنه لو كانت تُدفع لقيصر لكان يقول ضرورة: «أَعْطُوا إِذًا مَا لِقَيْصَرَ لِقَيْصَرَ وَمَا لِلَّهِ لِلَّهِ»

(مت٢٢:٢١) وليس: «فَإِذًا الْبَنُونَ أَحْرَارٌ »[٦٠] (مت١٧:٢٦) بقوله هذا قد أكَّد أيضًا شهادة بطرس الرسول، حينما كان مُلهَمًا مِن فوق مِن الله، وصرخ قائلاً: «أَنْتَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ الْحَيِّ» (مت١٦:١٦). بعد هذه الشهادة قد تزعزع بطرس وملأه الخوف بسبب النبوة المُتعلِّقة بالصليب والآلام الخلاصية، وقال: «حَاشَاكَ يَا رَبُّ! لاَ يَكُونُ لَكَ هَذَا!»، وقد سمع المسيح يُخاطبه بتأنيب شديد حيّ قائلاً: «اذْهَبْ عَنِّي يَا شَيْطَانُ!» بهذا أرجعه إلى الإيمان الأول، قائلاً هو نفسه إنه ابن الله، ومُبيِّنًا أن هذا التأنيب إنما كان حكمًا لما أصابه مِنَ الخوف والوهن وليس على الشهادة الإلهية التي لم يُعلنها له لحم أو دم، لكن الآب السماوي.

ومع ذلك يقول من هو مُستَثنى مِنَ الضريبة، ابن الله الآب، الإله مِنَ الإله: «**وَلَكِنْ لِئَلا نُعْثِرَهُمْ، اذْهَبْ إِلَى الْبَحْرِ وَأَلْقِ صِنَّارَةً، وَالسَّمَكَةُ الَّتِي تَطْلُعُ أَوَّلاً خُذْهَا، وَمَتَى فَتَحْتَ فَاهَا تَجِدْ إِسْتَارًا، فَخُذْهُ وَأَعْطِهِمْ عَنِّي وَعَنْكَ**» (مت١٧:٢٧). يُعلِّمنا بوضوح ألا نُعثر إخوتنا فيما يختص بعطية الذهب، وألا نحتقر الأموال إلا إذا لم يكن قد وكَّل إلينا العناية والحفاظ على الأموال المُتعلِّقة بالفقراء واليتامى أو الآخرين. لا يجب فعلاً أن نُشرِع في مُمارسة الكمال بأموال الغير، لكن يجب أن نُحافظ على العدل حسب قواعد الحق، ولا يجب بحجّة التقوى أن نتنازع وأن نشتهي ما ليس لنا.

---

(٦٠) مَعْفون.

ومن ناحية أخرى، نتعلم أيضًا، حسب قول بولس الرسول، أن نُعطي لكل ذي حق حقه «فَأَعْطُوا الْجَمِيعَ حُقُوقَهُمْ: الْجِزْيَةَ لِمَنْ لَهُ الْجِزْيَةُ. الْجِبَايَةَ لِمَنْ لَهُ الْجِبَايَةُ. وَالْخَوْفَ لِمَنْ لَهُ الْخَوْفُ. وَالإِكْرَامَ لِمَنْ لَهُ الإِكْرَامُ» (رو١٣:٧).

لكن إذا كان جُباة الضريبة قد قالوا بشيء مِنَ التهكُّم وهم يخدمون أفكار الحسد التي لرؤساء الكهنة، كما يقولون عن شخص يتعدّى الناموس «أَمَا يُوفِي مُعَلِّمُكُمُ الدِّرْهَمَيْنِ؟»، فإن قوله: «وَلَكِنْ لِئَلا نُعْثِرَهُمْ»، نطق به كيلا يُعطيهم فرصة أو سببًا للاتهام يقول: «مَا جِئْتُ لأَنْقُضَ بَلْ لِأُكَمِّلَ» (مت٥:١٧). لهذا السبب كان يقول أيضًا ليوحنا المعمدان: «اسْمَحِ الآنَ، لأَنَّهُ هَكَذَا يَلِيقُ بِنَا أَنْ نُكَمِّلَ كُلَّ بِرٍّ» (مت٣:١٥). وقد اعتاد الكتاب أن يُسمِّي حفظ الناموس برًا، وهذا ما شهد به بولس الرسول إذ كتب عن نفسه: «مِنْ جِهَةِ الْبِرِّ الَّذِي فِي النَّامُوسِ بِلاَ لَوْمٍ» (في٣:٦). وبنفس الطريقة حينما تذمَّر الفريسيون باطلاً، أمر المسيح باحتقارهم مُعلِّمًا إيانا ألا نُعطي أي اعتبار للذين يُعارضون التعليم والقوانين الإلهية، وألا نهتم إلا بالله.

«اذْهَبْ إِلَى الْبَحْرِ وَأَلْقِ صِنَّارَةً، وَالسَّمَكَةُ الَّتِي تَطْلُعُ أَوَّلاً خُذْهَا، وَمَتَى فَتَحْتَ فَاهَا تَجِدْ إِسْتَارًا، فَخُذْهُ وَأَعْطِهِمْ عَنِّي وَعَنْكَ» (مت١٧:٢٧) بيَّن أنه مالك البحر وخالقه وسيده وكل ما فيه وكذلك كل شيء لأنه ابن الله الآب. وفي هذا أيضًا نجد كلمة أسرارها مخفيَّة، يتمجَّد بها قائلها الحكيم وحده، الذي يُعطي الفهم بسبب نقطة صغيرة فهمناها، دون أن نصل إلى غنى

الدراسة الذي تفيض به الكلمات المُقدسة والمعروف لديه. فعلاً، لأنه قال لبطرس وأندراوس أخيه: «هَلُمَّ وَرَائِي فَأَجْعَلُكُمَا صَيَّادَيِ النَّاسِ» (مت٤:١٩)، «هَلُمَّ وَرَائِي فَأَجْعَلُكُمَا تَصِيرَانِ صَيَّادَيِ النَّاسِ» (مر١:١٧)، وأيضًا لبطرس وحده: «مِنَ الآنَ تَكُونُ تَصْطَادُ النَّاسَ!» (لو٥:١٠).

صيد الناس

جعل المسيح من واقعة صيد السمك بتدبيره العجيب دعوة لنوع عجيب مِنَ الصيد. السمكة هي صورة الكنيسة. كانت تغشاهم فيما مضى قذارة وجحود عبادة الأصنام. الناس غرقى في بحار الشك واضطراب الأهواء العالمية كأنهم في جب عميق لكنهم صعدوا بفضل سنارة الرسل، أي بفضل كلمتهم التي تُعلِّم وتصيد وتمسك لأجل معرفة الله الذي دعانا «مِنَ الظُّلْمَةِ إِلَى نُورِهِ الْعَجِيبِ» (١بط٢:٩). **وقد تنبَّأ إرميا أيضًا بخصوص صيد الرسل هذا قائلاً**: «هَئَنَذَا أُرْسِلُ إِلَى صَيَّادِينَ كَثِيرِينَ يَقُولُ الرَّبُّ فَيَصْطَادُونَهُمْ ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ أُرْسِلُ إِلَى كَثِيرِينَ مِنَ الْقَانِصِينَ فَيَقْتَنِصُونَهُمْ عَنْ كُلِّ جَبَلٍ وَعَنْ كُلِّ أَكَمَةٍ وَمِنْ شُقُوقِ الصُّخُورِ» (إر١٦:١٦).

هؤلاء الرجال، بعد أن أُصطيدوا وبعد أن تعلَّموا بكلمة الحق، انفتحت أفواههم، نبتوا وأثمروا مُعلمي الكنيسة الذين كانت كلماتهم أثمن بكثير مِنَ الذهب والفضة. لأنه لذلك قال: «وَالسَّمَكَةُ الَّتِي تَطْلُعُ أَوَّلاً

خُذْهَا» لكي يُعلن بهذا عمق الضلال الذي صعدنا منه، ومن جهة أخرى يُعلن اليسر في التعليم وخلو ممارسته مِنَ الضنك. لأنه في نفس الوقت الذي فيه أُلقيت السنارة الروحية، حالاً تبع الصيد من نفسه. فلكي يظهر فعلاً أنَّ صيد تلك السمكة كان سرًا وإتمامًا لرمز وليس فقط معجزة، لم يقُل: "سوف تجد في هذه السمكة إستارًا قد ابتلعته ووصل إلى بطنها"، لكنه قال: «وَمَتَى فَتَحْتَ فَاهَا تَجِدْ إِسْتَارًا» مُبيِّنًا أنه سيمسك الإستار في فمها بينما ينفذ الوصية الإلهية، وأنه «عِنْدَ اللَّهِ كُلُّ شَيْءٍ مُسْتَطَاعٌ» (مت١٩:٢٦)، ويُبيِّن أيضًا موهبة التعليم التي يلزم أن يحملها هؤلاء الذين صادتهم سنارة الرسل الإنجيلية.

والإستار نوع مِنَ الدينار مِنَ الذهب أو مِنَ الفضة يقوم مقام الضـريبة عن يسوع وعن بطرس. ويُشبه تعليم كلام الله وأحكامه الذهب والفضة، وهذا ما تُعرِّفنا به الكُتب المُلهَم بها مِنَ الله التي تقول تارة: «أَحْكَامُ الرَّبِّ حَقٌّ عَادِلَةٌ كُلُّهَا. أَشْهَى مِنَ الذَّهَبِ وَالإِبْرِيزِ الْكَثِيرِ وَأَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ وَقَطْرِ الشِّهَادِ» (مز١٩:٩، ١٠) وطورًا: «لِسَانُ الصِّدِّيقِ فِضَّةٌ مُخْتَارَةٌ» (أم١٠:٢٠)، وأيضًا: «كَلاَمُ الرَّبِّ كَلاَمٌ نَقِيٌّ كَفِضَّةٍ مُصَفَّاةٍ فِي بُوطَةٍ فِي الأَرْضِ مَمْحُوصَةٍ سَبْعَ مَرَّاتٍ» (مز١٢:٦).

ويُعرِّفنا قوله: «فَخُذْهُ وَأَعْطِهِمْ عَنِّي وَعَنْكَ» أن بطرس أيضًا كان مولودًا بكر يخضع كذلك لضريبة الدرهمَيْن، وأفسح المجال بهذا للتفكير في أشياء أعلى، فيسوع المسيح ربنا بطبيعته كان مُعفى مِنَ الضريبة، لا

يعرف الخطية، وكان بريئًا في كل شيء، لكنه دفع ضريبة الدرهمَيْن، مُبيِّنًا أنه كان ينبغي أيضًا أن يتحمَّل الموت حسب الجسد، ليس لأنه كان مُلزمًا بأن يموت، لكن لأنه كان يُتمِّم التدبير الإلهي لأجلنا. من هنا ينتج أنه ضمّ بطرس إليه قائلاً: «فَخُذْهُ وَأَعْطِهِمْ عَنِّي وَعَنْكَ»، يرمز إلى دفع دين الخطية حسب التدبير، وما حقّ على بطرس وعلى كل البشرية. ويعتبر الكتاب الإلهي موته دينًا بالنسبة لنا، إذ يقول: «إِذْ مَحَا الصَّكَّ الَّذِي عَلَيْنَا فِي الْفَرَائِضِ، الَّذِي كَانَ ضِدًّا لَنَا، وَقَدْ رَفَعَهُ مِنَ الوَسَطِ مُسَمِّرًا ايَّاهُ بِالصَّلِيبِ» (كو٢:١٤). وثمنًا بالنسبة للفادي المُخلِّص إذ يقول: «لأَنَّكُمْ قَدِ اشْتُرِيتُمْ بِثَمَنٍ. فَمَجِّدُوا اللهَ فِي أَجْسَادِكُمْ وَفِي أَرْوَاحِكُمُ الَّتِي هِيَ لِلَّهِ» (١كو٦:٢٠)، «قَدِ اشْتُرِيتُمْ بِثَمَنٍ فَلاَ تَصِيرُوا عَبِيدًا لِلنَّاسِ» (١كو٧:٢٣).

كيف نُسدّد الدين

يقول القديس: كنت أريد الآن أن آتي أيضًا إلى كلمات الإنجيل الأخرى، لكني أرى أنَّ المقال يطول. وأنتم لا تشبعون مِنَ الإنصات، لكن المثل يُنذرنا أن نعرف القياس حتى في الأمور التي من هذا النوع، فيقول: «أَوَجَدْتَ عَسَلاً؟ فَكُلْ كِفَايَتَكَ لِئَلاَّ تَتَّخِمَ فَتَتَقَيَّأَهُ» (أم٢٥:١٦). وأختم مقالي بتذكرتي إياكم بهذه الكلمة: إن المسيح وهو مُعفى وغير مُلزم، قد دفع الدين من أجلنا، دفع الدرهمَيْن، وأظهر تدبير الآلام الخلاصية، بينما نحن مدينون بآلاف الديون، ننساها جميعًا. فهلا ذكرت أنه يجب أن ندفع

لمن سدَّد الدين لأجلنا، للفادي المُخلِّص؟ ألا ترى أن مُقرضينا نحن الذين نتصرف بلا أمانة، يجوبون كل مكان من هنا ومن هناك، ومعهم إثبات قروضهم ليس في شكل كمبيالات مكتوبة، بل الكتب المُقدَّسة السماوية التي لا يستطيع أن يقول أحد ضدها شيئًا، وهي تصرخ: «مَنْ لَهُ ثَوْبَانِ فَلْيُعْطِ مَنْ لَيْسَ لَهُ، وَمَنْ لَهُ طَعَامٌ فَلْيَفْعَلْ هَكَذَا» (لو٣:١١). وأنت يا مَن عندك أثواب كثيرة، لا تُعطي للفقير ولا حتى قطعة بالية، وبالملابس المتنوعة التي ترتديها بدورها وتُظهرها مختلفة حسب الموسم، تريد أن يُلاحظك الناس ويثنوا عليك، لأنَّ غرضك ليس مجرد أن تدفأ وتكتسي، لكن بالأكثر أن تكون مرموقًا. وحقًا يدعو الكتاب الإلهي الملابس «كِسْوَةٌ» إذ يقول: «فَإِنْ كَانَ لَنَا قُوتٌ وَكِسْوَةٌ فَلْنَكْتَفِ بِهِمَا» (١تي٦:٨) لكي يُعلِّمنا أنها للضرورة فقط وليست لتُستخدم للتباهي. لكنك لا تحسب للكلمات الإلهية حسابًا وهي أرفع بكثير وأفضل جدًا مِنَ الذهب والحجارة الثمينة، وأكثر لمعانًا وبريقًا مِنَ الفضة، وهي التي أظهرت صفتها السمكة المذكورة في الأناجيل، وأنت لا تعمل حسابها لا في القراءات ولا في الأفكار ولا في الأعمال الصالحة.

إن يدك تتألق بخواتم الذهب، فكيف تخبئها أمام محكمة المسيح الرهيبة، حينما تُبكِّت بُخلك، وحينما يتهمها المُقترضون الذين تصرف وجهك عنهم الآن، في حين أنهم عُراة؟ إن الإحسان نحو المُحتاجين جميل، هذا ما لا تجهله. ومرارًا عديدة أيضًا، حينما تميل نحو بعضهم فتأتي به إليّ

وتقول لي: "أعطه وقيِّد اسمه في كشف الأرامل أو العَجَزَة، أهذا هو طريق سداد الدين؟ إنك تعرف النصح فيما يتعلق بالحصول على الدين، ولا تعرف أن تنصح نفسك أبدًا! إني كما ترى، لست في حاجة إلى نصيحتك، كما يشهد بالفعل جميع الفقراء الذين يقفون في كل لحظة حولي. أما أنت، فلا أعرف كيف تسد أذنك عن كلماتك ذاتها، وكيف تكون لنفسك مستشارًا وأنت تميل إلى البُخل الممقوت والاقتصاد. وإذا كان لك أن تشتري شيئًا ثمينًا، فقبل كل شيء توجِّه اهتمامك نحو نفسك خاصة، ولكن حينما يُعرض عليك ملكوت السموات شراءه، فإنك تذهب لتنصح وتُهمِل نصيحة نفسك.

اضطررت أن أقول هذا، لا لكي أُثقِّل عليكم، لكن بالأحرى كثيرًا لكي أُخلِّصكم من ثِقل الغضب الآتي، ولكي أُلهِب فيكم بمناخس الكلام الرغبة في الاِستعداد، ولكي تُعِدّوا أنفسكم للحياة الأبدية. ليتنا ننالها جميعًا بنعمة ومحبة الله العظيم مُخلِّصنا يسوع المسيح **الذي له المجد مع الآب والروح القدس الآن وكل أوان وإلى دهر الداهرين، آمين.**



مَنْ هو أعظم في ملكوت السموات

سلسلة مقالات القديس الأنبا ساويرس

البطريرك الأنطاكي

٨

مَن هو أعظم في ملكوت السموات

عن كلمة الإنجيل: «فِي تِلْكَ السَّاعَةِ تَقَدَّمَ التَّلاَمِيذُ إِلَى يَسُوعَ قَائِلِينَ: «فَمَنْ هُوَ أَعْظَمُ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ؟» (مت١٨:١)

مُترجم عن الفرنسية مِنَ الكتاب الثاني مِنَ الجزء العشرين من مجموعة

PATROLOGIA ORIENTALIS

R. Graffin – F. Nau

Les Homélies Cathédrales de Sévère d'Antioche

Homélie LXXXII

Publiée par Maurice Brière

Paris

مليكه حبيب يوسف		يوسف حبيب

مُقدمة المقال



إنَّ مائدة روحية غزيرة مِنَ الكتب الإنجيلية، تدفعني من جديد إلى الاستمتاع بالأفكار الإلهية الموضوعة في الكلمات المُقدَّسة، وهي إذ تجعل عين عقلي الباحثة بالأخص فاحصة وخارقة تقول: «افْتَحْ عَيْنَيْكَ تَشْبَعْ خُبْزًا» (أم٢٠:١٣) لأنَّ الذين يُبصرون قليلاً يتغذّون باللبن، أما الغذاء الكامل، خبز الدراسة فيُغذِّي ويُشبع العقل، ولا يُسمِّن البطن، فإنه يُقدَّم للذين يستطيعون فتح أعينهم العقلية جيدًا كعادة مُكتسبة.

لنتدبّر إذن ما تضمنته هذه الكلمات: «**فِي تِلْكَ السَّاعَةِ تَقَدَّمَ التَّلاَمِيذُ إِلَى يَسُوعَ قَائِلِينَ: «فَمَنْ هُوَ أَعْظَمُ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ؟**»» (مت١:١٨).

يُعلِّمنا النص المُقدَّس بدقة في قوله: «فِي تِلْكَ السَّاعَةِ» سبب الاستفهام. أنَّ مُخلِّصنا كان وقت دفع الدرهمَيْن قد ضمّ بطرس إلى نفسه في قوله: «تَجِدْ إِسْتَارًا، فَخُذْهُ وَأَعْطِهِمْ عَنِّي وَعَنْكَ» (مت٢٧:١٧)، وفي الحال في نفس ذلك اليوم، تألَّم التلاميذ الآخرين من جرَّاء أمر بشري، إذ سقطوا في هوى الغيرة. لكن ربما تقول: "دع عنك هذا، هل ترى أن الرسل قد غلبهم الهوى؟" نعم أقول ولا أستحي من ذلك بتاتًا.

تدرُّج الرسل في الكمال

إنَّ الرسل بطبيعتهم كانوا هم أيضًا بشرًا، واشتركوا في نفس الطينة مثلنا، وآدم هو أبوهم الأول. وكما هو مكتوب فقد سحبوا نزعة الميل إلى الشر شيئًا فشيئًا منذ الصبا، وأخرجوا نفوسهم مِنَ الوحل بواسطة التربية العملية وتعاليم وإرشادات مُعلِّمهم، وغسلوا الإنسان العتيق. ومع مُداومة التقدُّم، صعدوا إلى إرتفاع عال حتى أنهم لم يبدوا بعد ذلك كبشر ولم يتركوا لنا بعد ذلك أي عذر، نحن الذين من جنسهم، بجبن نُظهِر عدم إكتراثنا وإهمالنا، ولا نصل إلى نفس الدرجة، بل لا نصل إلى ظِل أو إلى مظهر صغير جدًا، وفي هذه المسيرة نحو الأمور العلوية.

ومع ذلك، فإنَّ الرسل في ذلك الوقت، نظرًا لأن إستعداداتهم كانت ناقصة جدًا، بدا عليهم حسدهم لبطرس، وهم الذين فيما بعد وصلوا إلى درجة كبيرة مِنَ الكمال حتى أنهم اعترفوا كتابة أنهم أيضًا خُطاة وعشَّارون، وسجلوا فضائل الرسل زملائهم في كتاباتهم تسجيلاً مثل النقش على الحجر ثباتًا.

فنحن **نجد مرقس البشير** قد كتم أعمال بطرس، ولم يذكرها في كتابه، مثال ذلك التطويب الذي سمعه من فم المُخلِّص حينما قال: «طُوبَى لَكَ يَا سِمْعَانُ بْنَ يُونَا، إِنَّ لَحْمًا وَدَمًا لَمْ يُعْلِنْ لَكَ، لَكِنَّ أَبِي الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ» (مت١٦:١٧)، ولا حينما قال «وَأَنَا أَقُولُ لَكَ أَيْضًا: أَنْتَ بُطْرُسُ، وَعَلَى هَذِهِ

الصَّخْرَةِ أَبْنِي كَنِيسَتِي، وَأَبْوَابُ الْجَحِيمِ لَنْ تَقْوَى عَلَيْهَا» (مت١٦:١٨) ولا حينما قال له: «وَأُعْطِيكَ مَفَاتِيحَ مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ، فَكُلُّ مَا تَرْبِطُهُ عَلَى الأَرْضِ يَكُونُ مَرْبُوطًا فِي السَّمَاوَاتِ. وَكُلُّ مَا تَحُلُّهُ عَلَى الأَرْضِ يَكُونُ مَحْلُولاً فِي السَّمَاوَاتِ» (مت١٦:١٩)، ولا حينما أمره قائلاً: «اذْهَبْ إِلَى الْبَحْرِ وَأَلْقِ صِنَّارَةً، وَالسَّمَكَةُ الَّتِي تَطْلُعُ أَوَّلاً خُذْهَا، وَمَتَى فَتَحْتَ فَاهَا تَجِدْ إِسْتَارًا، فَخُذْهُ وَأَعْطِهِمْ عَنِّي وَعَنْكَ» (مت١٧:٢٧).

وبينما لم يذكر كل هذه الوقائع بشأن بطرس، يذكر ضعفاته، أن يسوع زجره فسمع كلمات: «اذْهَبْ عَنِّي يَا شَيْطَانُ! أَنْتَ مَعْثَرَةٌ لِي، لأَنَّكَ لاَ تَهْتَمُّ بِمَا لِلَّهِ لَكِنْ بِمَا لِلنَّاسِ» (مت١٦:٢٣) وأنه خاف من خادمة صغيرة، وأنه أنكر السيد المسيح ثلاث مرات.

فإنهم كانوا على هذه الحال أولاً، ثم توصلوا بروح التواضع على قدر استطاعة البشر، إلى **الاقتداء بالمسيح يسوع الله مُخلّصنا** الذي «أَخْلَى نَفْسَهُ، آخِذًا صُورَةَ عَبْدٍ، صَائِرًا فِي شِبْهِ النَّاسِ» (في٢:٧).

عندما نخسهم في ذلك الوقت الحسد، إذ سمع بطرس كلمات السيد: «وأَعْطِهِمْ عَنِّي وَعَنْكَ»، سألوا المسيح: «**فَمَنْ هُوَ أَعْظَمُ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ؟**». تأمل كيف تثير ضعفاتهم مسائل وعلامات تزيد الفضيلة التي كانوا يتعلمونها. إنهم يتناقشون بخصوص الأولوية وبخصوص المكان الأعظم في ملكوت السموات، بينما نحن أنفسنا لنا فيما بيننا منافسة عكسية وشريرة، من شأنها أن تنزل إلى الأرضيات وترعى في الوحل فتجعل

أشواك العالم وهمومه تنمو. مَن الذي يبني بيتًا فخمًا ويضيف ما ليس له على ما له أو ينهب مال القريب؟ مَن الذي يأخذ بالقوة ما يغله ملك ليس له، في بعض الأحيان يتصرف بعنف لكي يُبعد الأرملة واليتيم، إني أستحي أن أذكر أيضًا الملاهي والخلافات التي يذكيها الحسد، تلك التي تحدث أثناء مشاهدة سباق الخيول وعلى المسرح، وأيضًا المشاعر المُضادة التي يشتركون فيها. إني أرى فعلاً الذين يُسلِّمون أنفسهم لهذه الأهواء وهم ثملون في غلوائهم لا يشعرون حتى بالأمور الأرضية، فضلاً عن ضعف إحساسهم بملكوت السموات.

رذيلة الحسد

إنَّ المسيح طبيب أرواحنا ومالكها، لم يستصوب حسد التلاميذ حتى من أجل الخير. من ناحية يحق لنا أن نكون غيورين من أجل الخير وأن نتقدَّم، ومن ناحية أخرى يجب أيضًا أن نفكر في أنَّ انتصارات إخوتنا هي انتصاراتنا، لأنَّ الشيطان يُخبِّئ شباكه المُستترة في الأعمال الحسنة الظاهرة خاصة. لذلك كان قايين أيضًا ينازع أخاه طريقًا حسنًا، فكانت الضحية وعطية الله والقربان هي موضوع اهتمام قايين وهابيل، ولكن من هذه الغيرة الحسنة، ومن هذه المُنافسة لأجل ما هو كامل، يسقط قايين في شر حسد تولَّد منه القتل، وتدنَّست به اليد الأخوية، وما كان ليُصيبه ذلك لو لم

يُفكِّر أنَّ مدح هابيل غريب عنه وليس له. حبًا منه في المكان الأول وفي المجد الباطل.

إنَّ ربنا يسوع المسيح كان يريد أن يخلع جذور هذا الهوى من قلب رسله القديسين، فلذلك نطق بهذه الكلمة حسب الترتيب المُتبع لتأكيد الأقسام (جمع قسم) قائلاً: «اَلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنْ لَمْ تَرْجِعُوا وَتَصِيرُوا مِثْلَ الأَوْلاَدِ فَلَنْ تَدْخُلُوا مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ» (مت١٨:٣) ماذا في قوله: «اَلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ»؟ أو "آمين أقول لكم". لفظة أمين مُترجمة إلى اللغة اليونانية معناها "ليكن ذلك"، فكأنه يقول "ما يلزم أن يكون أقوله لكم. لأنه ينتج عن كلماتي أن يكون هنالك شيء". إن الخلق والصُنع اللذَيْن كانا عند بدء هذا العالم يشهدان أيضًا أنهما تمَّا بالكلمة الإلهية «قَالَ اللهُ: «لِيَكُنْ نُورٌ» فَكَانَ نُورٌ ... «لِيَكُنْ جَلَدٌ فِي وَسَطِ الْمِيَاهِ» (انظر تك ص١). فكما أنه حينما كان يريد أن يُبيِّن أن كلماته لا تزول أبدًا ويُلقي المخافة في آذان سامعه، كان يقول في الأنبياء: «بِذَاتِي أَقْسَمْتُ» (إش٤٥:٢٣)، «أَقْسَمْتُ بِنَفْسِي» (إر٢٢:٥) مستعملاً من أجلنا القسم حسبما يفعل البشر، هكذا أيضًا هنا نطق بهذه الكلمة (آمين) «اَلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ» بدلاً من أن يقول "أقسم بكلماتي التي يجب ضرورة أن تنتهي بالنفاذ، وأنه يجب أن تؤمنوا بها كما تؤمنون بما هو لازم الوقوع فعلاً وليس إيمانًا بما يُقال فقط". لذلك نحن أيضًا نضيف هكذا كلمة (آمين) إلى تسبحته تعالى

في كل ما يأتي منه، ونرى أن ذلك كان وهو كائن حاليًا، ونؤمن أنَّ ذلك يجب أن يكون ضرورة.

إنكار الإنسان العتيق

لم يقُل: "إن لم تصبحوا مثل الأطفال الصغار"، بل «**إِنْ لَمْ تَرْجِعُوا وَتَصِيرُوا مِثْلَ الأَوْلاَدِ فَلَنْ تَدْخُلُوا مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ**» (مت١٨:٣). «إِنْ لَمْ تَرْجِعُوا» تحمل في معناها أنه يجب أن نُنكر الإنسان العتيق المملوء بالأهواء ونحيد عنه كلية، إن نسيه أحد نسيانًا ليس كاملاً فلا يستطيع أن يصير مثل طفل. لقد جاء المسيح فعلاً لكي يظهر أيضًا ويغسل النموذج القديم ويظهر طبيعتنا طبيعة جديدة، دون أن يكون فيها لوثة "بقعة" أو تجعيد أو شيء من هذا. لذلك كان بولس الرسول يقول: «إِذًا إِنْ كَانَ أَحَدٌ فِي الْمَسِيحِ فَهُوَ خَلِيقَةٌ جَدِيدَةٌ. الأَشْيَاءُ الْعَتِيقَةُ قَدْ مَضَتْ. هُوَذَا الْكُلُّ قَدْ صَارَ جَدِيدًا» (٢كو٥:١٧). في الرجوع ننسى العادات القديمة الشريرة. هكذا كان أيضًا داود النبي يرتل: «لاَ تَذْكُرْ عَلَيْنَا ذُنُوبَ الأَوَّلِينَ. لِتَتَقَدَّمْنَا مَرَاحِمُكَ سَرِيعًا لأَنَّنَا قَدْ تَذَلَّلْنَا جِدًّا» (مز٧٩: ٨) لأن عبارة «تَرْجِعُوا وَتَصِيرُوا» تشير إلى **التحوّل إلى حياة جديدة**، وأن الحالة المختلفة التي تنتهي إلى ما هو كامل قد أعلنها لنا صموئيل النبي حينما كان يقول لشاول: «فَيَحِلُّ عَلَيْكَ رُوحُ الرَّبِّ فَتَتَنَبَّأُ مَعَهُمْ وَتَتَحَوَّلُ إِلَى رَجُلٍ آخَرَ» (١صم١٠:٦). وقال أيضًا الكتاب المقدس مؤكِّدًا ذلك: «وَكَانَ عِنْدَمَا أَدَارَ

كَتِفَهُ لِيَذْهَبَ مِنْ عِنْدِ صَمُوئِيلَ أَنَّ اللَّهَ أَعْطَاهُ قَلْبًا آخَرَ. وَأَتَتْ جَمِيعُ هَذِهِ الآيَاتِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ» (١صم١٠:٩).

هناك أيضًا تحويل الخير إلى شر، ذلك الذي أشارت إليه مُقدِّمًا امرأة لوط التي نظرت إلى الوراء إلى سدوم وأصبحت عمود ملح، وذلك ما نهى عنه المسيح وأمر به الرسل وأوصانا أن نحذر منه ونهرب منه، حينما قال هكذا: «أُذْكُرُوا امْرَأَةَ لُوطٍ» (لو١٧:٣٢)، وأيضًا «لَيْسَ أَحَدٌ يَضَعُ يَدَهُ عَلَى الْمِحْرَاثِ وَيَنْظُرُ إِلَى الْوَرَاءِ يَصْلُحُ لِمَلَكُوتِ اللهِ» (لو٩:٦٢).

بعد أن تغيّر الرسل تغييرًا مُضادًا للتغيير الذي ذكرناه، ولم ينظروا أبدًا إلى ورائهم، ولم يعودوا لأي شيء مما للحياة القديمة – (لأن هذا هو ما تنطوي عليه هذه الكلمة أن يتغيّروا ويُصبحوا مثل الأطفال الصغار) – وبعد القيامة أخذوا الروح القدس من مُخلِّصنا إذ نفخ في وجوههم فبلغوا منذ ذلك الحين إلى الإنسان «الْجَدِيدَ الَّذِي يَتَجَدَّدُ لِلْمَعْرِفَةِ حَسَبَ صُورَةِ خَالِقِهِ» (كو٣:١٠)، كانوا يسمعونه يقول لهم: «يَا غِلْمَانُ أَلَعَلَّ عِنْدَكُمْ إِدَامًا؟» (يو٢١:٥).

انظر كيف أنه مثل طبيب قد أتاح لهم هذه الفرصة جيدًا، حتى أنه لم يعد هنالك شيء يُسبِّب الألم. لأنه لم يقل: "من يتغيّر ويصبح مثل هذا الطفل الصغير"، بل قال «إِنْ لَمْ تَرْجِعُوا وَتَصِيرُوا مِثْلَ الأَوْلاَدِ فَلَنْ تَدْخُلُوا مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ» (مت١٨:٣). يقول: "أنتم مُتشاجرون بخصوص

الأولوية وتحلمون بالمكان الأول، لكن احذروا فإنه يلزمكم عرق كثير وأتعاب كثيرة لكي تنالوا فقط الدخول إلى الملكوت".

قال متَّى البشير: «فِي تِلْكَ السَّاعَةِ تَقَدَّمَ التَّلاَمِيذُ إِلَى يَسُوعَ قَائِلِينَ: «فَمَنْ هُوَ أَعْظَمُ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ؟»» (مت١٨:١)، **وقال لوقا البشير** أنهم فكّروا مَن كان الأعظم «وَدَاخَلَهُمْ فِكْرٌ مَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ أَعْظَمَ فِيهِمْ؟» (لو٩:٤٦). **وقال مرقس البشير** أنهم تكلموا فيما بينهم لكي يعرفوا مَن كان الأعظم «وَجَاءَ إِلَى كَفْرِنَاحُومَ. وَإِذْ كَانَ فِي الْبَيْتِ سَأَلَهُمْ: «بِمَاذَا كُنْتُمْ تَتَكَالَمُونَ فِيمَا بَيْنَكُمْ فِي الطَّرِيقِ؟» فَسَكَتُوا، لأَنَّهُمْ تَحَاجُّوا فِي الطَّرِيقِ بَعْضُهُمْ مَعَ بَعْضٍ فِي مَنْ هُوَ أَعْظَمُ» (مر٩:٣٣، ٣٤).

اختلاف الوقائع وثبوت صحتها

إنَّ الوقائع التي يذكرها كل واحد منهم تختلف، لكنها الثلاث كلها حقيقية وحدثت بهذا الترتيب وهذا النظام، لأنه **أولاً فكّر الرسل، ثم ثانيًا تكلّموا فيما بينهم كما لو كانوا يفحصون معًا ويتناقشون، ثم ثالثًا توصَّلوا إلى أن يسألوا السؤال**، وقال كل واحد مِنَ الكُتَّاب الحق إذ لم يذكر سوى إحدى الوقائع التي تتابعت الواحدة بعد الأخرى. فليس هناك لبس بالكذب أو بأي تناقض إذا قال أحدهم شيئًا بطريقة ناقصة ومُختصرة، إنما يكون هناك تناقض إذا كان أحد يقلب بروايته المُضادة ما قاله آخرون،

وليس ثمة تناقض إذا كان يقول ما لم يذكروه. وذلك شأن الروايات التاريخية، فقد يحدث كثيرًا أن يروي إنسان نفس الرواية لسامعين كثيرين في أوقات مختلفة، فلا يذكر كل شيء في كل وقت، بل ما لم يذكره لأحد يُضيفه للآخر، وقد يصبح ما كان واضحًا مِنَ الروايات في زمن ما عما قليل مُحاطًا بالنسيان.

وقائع ما حدث في طريق دمشق

ونستطيع أن نتبيّن ذلك فورًا من سفر أعمال الرسل. فإنَّ لوقا البشير الذي ذكر ثلاث مرات في نفس السفر ما حدث على طريق دمشق، مرة يرويه هو بنفسه، ومرتَيْن يجعل بولس الرسول يرويه. فهو يرجع إلى نفس الأحداث بطريقة مُطابقة وليست متناقضة أبدًا، ومن ناحية أخرى لزم أن يزيد أو يُنقِص مما قيل في مكان آخر، دون أن يخرج عن الحقيقة في شيء، ودون أن يكون هناك أي مجال للإدعاء كذبًا. لأنه:

- ❖ كتب أحيانًا: «فَسَقَطَ عَلَى الأَرْضِ وَسَمِعَ صَوْتًا قَائِلاً لَهُ: «شَاوُلُ، شَاوُلُ! لِمَاذَا تَضْطَهِدُنِي؟» فَقَالَ: «مَنْ أَنْتَ يَا سَيِّدُ؟» فَقَالَ الرَّبُّ: «أَنَا يَسُوعُ الَّذِي أَنْتَ تَضْطَهِدُهُ. صَعْبٌ عَلَيْكَ أَنْ تَرْفُسَ مَنَاخِسَ»، (أع٩:٤، ٥).
- ❖ وأحيانًا: «فَسَقَطْتُ عَلَى الأَرْضِ وَسَمِعْتُ صَوْتًا قَائِلاً لِي: شَاوُلُ شَاوُلُ لِمَاذَا تَضْطَهِدُنِي؟ فَأَجَبْتُ: مَنْ أَنْتَ يَا سَيِّدُ؟ فَقَالَ لِي: أَنَا يَسُوعُ النَّاصِرِيُّ الَّذِي أَنْتَ تَضْطَهِدُه» (أع٢٢:٧، ٨).

❖ وأحيانًا أنه سمع الصوت في لغة عبرية، يقول: «فَلَمَّا سَقَطْنَا جَمِيعُنَا عَلَى الأَرْضِ سَمِعْتُ صَوْتًا يُكَلِّمُنِي بِاللُّغَةِ الْعِبْرَانِيَّةِ: شَاوُلُ شَاوُلُ لِمَاذَا تَضْطَهِدُنِي؟ صَعْبٌ عَلَيْكَ أَنْ تَرْفُسَ مَنَاخِسَ» (أع٢٦:١٤).

❖ وأحيانًا بطريقة بسيطة بهذه العبارات: «وَفِي ذَهَابِهِ حَدَثَ أَنَّهُ اقْتَرَبَ إِلَى دِمَشْقَ فَبَغْتَةً أَبْرَقَ حَوْلَهُ نُورٌ مِنَ السَّمَاءِ» (أع٩:٣).

❖ وأحيانًا «فَحَدَثَ لِي وَأَنَا ذَاهِبٌ وَمُتَقَرِّبٌ إِلَى دِمَشْقَ أَنَّهُ نَحْوَ نِصْفِ النَّهَارِ بَغْتَةً أَبْرَقَ حَوْلِي مِنَ السَّمَاءِ نُورٌ عَظِيمٌ» (أع٢٢:٦).

❖ وأيضًا: «رَأَيْتُ فِي نِصْفِ النَّهَارِ فِي الطَّرِيقِ أَيُّهَا الْمَلِكُ نُورًا مِنَ السَّمَاءِ أَفْضَلَ مِنْ لَمَعَانِ الشَّمْسِ قَدْ أَبْرَقَ حَوْلِي وَحَوْلَ الذَّاهِبِينَ مَعِي» (أع٢٦:١٣).

❖ وحينًا: «وَأَمَّا الرِّجَالُ الْمُسَافِرُونَ مَعَهُ فَوَقَفُوا صَامِتِينَ يَسْمَعُونَ الصَّوْتَ وَلاَ يَنْظُرُونَ أَحَدًا» (أع٩:٧).

❖ وحينًا «وَالَّذِينَ كَانُوا مَعِي نَظَرُوا النُّورَ وَارْتَعَبُوا وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَسْمَعُوا صَوْتَ الَّذِي كَلَّمَنِي» (أع٢٢:٩).

فقد كان بين الذين يصحبونه مَن سمعوا الصوت ولم يروا النور، وآخرون رأوا النور ولم يسمعوا الصوت، فكلا الأمرين حدثا على حد سواء. إنَّ هذه الأمور وأخرى مُشابهة لها يمكن أن تحدث مرات كثيرة في

الروايات، وهي لا تجرح الحقيقة بتاتًا. **فإن كان لوقا البشير وحده وهو يروي نفس الحدث، قد رواه بهذه الطريقة المختلفة دون أن يُخالف الحقيقة، فما العجب إذا كان بشيرون كثيرون يكتب الواحد ما لم يذكره الآخر، دون أن يرفض ما لم يروه هو نفسه أو يصفه بالتناقض؟**

يجب أن نعرف أن مرقس ولوقا كتبا أن يسوع قال للرسل: «اَلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: مَنْ لاَ يَقْبَلُ مَلَكُوتَ اللَّهِ مِثْلَ وَلَدٍ فَلَنْ يَدْخُلَهُ» (مر١٠:١٥) (لو١٨:١٧).

ضرورة الفحص وتفتيش الكتب

أفيطلب منا أن نكون كالماعز نهرف بما لا نعرف، وعلى اِستعداد ألا نفحص ما يختص بالكلمات المُتعلِّقة بملكوت السموات؟ ليس ذلك أبدًا. لأنَّ ما يقوله متَّى البشير يُلقي ضوءًا على قوة الوصية، إنه يطلب منك أن تتغير، فنهدم الحياة التي هرمت في الخطايا وأن نتخذ من جديد أعمال الحق الجديرة بروح مولود جديدًا، روح تجهل الخبث وهي منه براء.

إنَّ الهوى المقصود هو الذي رام السيد أن يشفيه، هو بالفعل الحسد، الغيرة، حب المجد الباطل. لذلك قدَّم طفلاً صغيرًا، في أصغر سن، لا يحقد للإهانة، ولا ينفخه المديح والإطراء. وبناء على ذلك قال وهو يضع أمامهم المثال ويحمله بين يديه: «وَمَنْ قَبِلَ وَلَدًا وَاحِدًا مِثْلَ هَذَا بِاسْمِي فَقَدْ قَبِلَنِي» (مت١٨:٥) فإن مَن لم يعد مثل هذا الطفل، وتعدَّى هذا السن أي بساطة

الروح هذه، فأصبح له الإحساس بالخبث، فقد خسر صورة الطفل الصغير ولن يصلح مثالاً ليقبل المسيح.

في الواقع إن الذي ليس له شيء عتيق في نفسه، وقد تجدَّد مثل طفل صغير بالفضائل، يكون مُتشبِّهًا بالمسيح بنفس الطريقة **إذ يقول بولس الرسول**: «فَأَطْلُبُ إِلَيْكُمْ أَنْ تَكُونُوا مُتَمَثِّلِينَ بِي» (١كو٤:١٦)، «كُونُوا مُتَمَثِّلِينَ بِي كَمَا أَنَا أَيْضًا بِالْمَسِيحِ» (١كو١١:١)، **ومثل يوحنا الذي كتب**: «أَجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ لَهُ: «الْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكَ: إِنْ كَانَ أَحَدٌ لاَ يُولَدُ مِنْ فَوْقُ لاَ يَقْدِرُ أَنْ يَرَى مَلَكُوتَ اللَّهِ» (يو٣:٣).

وإنما قدَّم مثل الطفل الصغير، لكي ينأى بنا مِنَ الشر، ويكبح جماح الكبرياء، وليس لكي يُبيِّن الفهم والحكمة اللذَيْن نُجابه بهما كلمات الإيمان وبشارة ملكوت السموات. فقال هنا مُميِّزًا بوضوح: «فَمَنْ وَضَعَ نَفْسَهُ مِثْلَ هَذَا الْوَلَدِ فَهُوَ الأَعْظَمُ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ» (مت١٨:٤)، وفي مكان آخر: «هَا أَنَا أُرْسِلُكُمْ كَغَنَمٍ فِي وَسْطِ ذِئَابٍ، فَكُونُوا حُكَمَاءَ كَالْحَيَّاتِ وَبُسَطَاءَ كَالْحَمَامِ» (مت١٠:١٦). فبخصوص الرأس الذي هو الإيمان، يجب أن نستعمل الحكمة، على مثل الثعبان الذي يحذر من أن يُصاب في رأسه، دون أن يهتم كثيرًا حينما يُصاب في أعضائه الأخرى، ويجب أن نتمثَّل بوداعة الحمام، كما قلت في أن ننأى عن الشر وبأساليب العمل التي نُباشرها في الحياة.

إنَّ بولس الرسول كان يتمسَّك بهذا التصنيف وهذا التمييز إذ كتب إلى أهل كورنثوس: «أَيُّهَا الإِخْوَةُ لاَ تَكُونُوا أَوْلاَدًا فِي أَذْهَانِكُمْ بَلْ كُونُوا أَوْلاَدًا فِي الشَّرِّ وَأَمَّا فِي الأَذْهَانِ فَكُونُوا كَامِلِينَ» (١كو١٤: ٢٠). إنَّ الله ولو أنه قد أخفى غنى السر العظيم عن الحكماء والفُهماء فأعلنه لنا، بينما نحن أطفال صغار: «فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ أَجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ: «أَحْمَدُكَ أَيُّهَا الآبُ رَبُّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لأَنَّكَ أَخْفَيْتَ هَذِهِ عَنِ الْحُكَمَاءِ وَالْفُهَمَاءِ وَأَعْلَنْتَهَا لِلأَطْفَالِ» (مت١١: ٢٥)، إلا أنه يدفعنا بذلك إلى كمال الأفكار.

إن الحكمة بعد أن مزجت زجاجة التعليم، وأعدت المائدة الروحية، كانت تصيح بصوت عال: "مَن كان جاهلاً فليلتفت إلىّ" وكانت تقول لناقصي الفهم: "تعالوا كلوا خبزي وأشربوا خمري الذي مزجتة لكم"، فهي لا تأمر أن يستمر المدعوين في جهلهم، وأي منفعة تكون إذن وراء هذه الدعوة أو هذا الغذاء؟ لكنها تزيد «أتركوا الحماقة وأحيوا، أطلبوا الحكمة لتحيوا، وبالمعرفة قوِّموا العقل «اَلْحِكْمَةُ بَنَتْ بَيْتَهَا. نَحَتَتْ أَعْمِدَتَهَا السَّبْعَةَ. ذَبَحَتْ ذَبْحَهَا. مَزَجَتْ خَمْرَهَا. أَيْضًا رَتَّبَتْ مَائِدَتَهَا» (أم٩: ١، ٢). «مَنْ هُوَ جَاهِلٌ فَلْيَمِلْ إِلَى هُنَا». وَالنَّاقِصُ الْفَهْمِ قَالَتْ لَهُ: «هَلُمُّوا كُلُوا مِنْ طَعَامِي وَاشْرَبُوا مِنَ الْخَمْرِ الَّتِي مَزَجْتُهَا. اُتْرُكُوا الْجَهَالاَتِ فَتَحْيُوا وَسِيرُوا فِي طَرِيقِ الْفَهْمِ» (أم٩: ٤-٦).

لأنه إذا كنا بذلك قد أمرنا أن نتبع حالة الطفل الصغير، فكيف كان بولس الرسول يقول: «لَكِنَّنَا نَتَكَلَّمُ بِحِكْمَةٍ بَيْنَ الْكَامِلِينَ وَلَكِنْ بِحِكْمَةٍ

لَيْسَتْ مِنْ هَذَا الدَّهْرِ وَلاَ مِنْ عُظَمَاءِ هَذَا الدَّهْرِ الَّذِينَ يُبْطَلُونَ. بَلْ نَتَكَلَّمُ بِحِكْمَةِ اللهِ فِي سِرٍّ: الْحِكْمَةِ الْمَكْتُومَةِ الَّتِي سَبَقَ اللهُ فَعَيَّنَهَا قَبْلَ الدُّهُورِ لِمَجْدِنَا» (١كو٢:٦، ٧)، «لأَنَّهُ مَنْ عَرَفَ فِكْرَ الرَّبِّ فَيُعَلِّمَهُ؟ وَأَمَّا نَحْنُ فَلَنَا فِكْرُ الْمَسِيحِ» (١كو٢:١٦) وأيضًا «الَّذِي بِحَسَبِهِ حِينَمَا تَقْرَأُونَهُ تَقْدِرُونَ أَنْ تَفْهَمُوا دِرَايَتِي بِسِرِّ الْمَسِيحِ» (أف٣:٤).

يليق بنا أن نبحث لماذا لم يكتفِ ربنا وإلهنا يسوع المسيح بأن يقول لتلاميذه: "إن لم تتغيروا وتصبحوا مثل أطفال صغار"، بل لماذا بعد أن أحضر أولاً هذا الطفل الصغير، أقامه في وسطهم، ولماذا كان يستعمل الكلمات هكذا. وذلك لأنه كان يريد أن يوضح لهم جليًّا ويجعل تعليمه واضحًا جدًا، ولكي يمس الواقع وعلى الخصوص يكشف الهوى ويضع الداء أمام أعينهم. ونرى الأنبياء أيضًا كثيرًا ما كانوا يفعلون أفعالاً مُماثلة لنفس هذا السبب:

نرى إرميا النبي يكسر آنية فخار (إرميا إصحاح ١٩) بينما ينظر إليه أولئك الذين كانت كلمات النبوة تخصّهم «ثُمَّ تَكْسِرُ الإِبْرِيقَ أَمَامَ أَعْيُنِ الْقَوْمِ الَّذِينَ يَسِيرُونَ مَعَكَ» (إر١٩:١٠).

ومرة نرى حزقيال النبي يرسم أورشليم على لِبنة، **ومرة أخرى** يأخذ مجمرة من حديد في يده، **ومرة** يحلق شعر رأسه وذقنه ويرمي بعضه في النار، ثم يقص بعضه قليلاً قليلاً ويذر منه في الهواء، لكي يُبيِّن حال الأسر في

أورشليم وحريقها، وقتل سكانها، وأنَّ الذين يبقون فيها لابد أن يتفرقوا وتحملهم الرياح إلى كل مكان إلى أقاصي الأرض.

«وَأَنْتَ يَا ابْنَ آدَمَ فَخُذْ لِنَفْسِكَ سِكِّينًا حَادًّا، مُوسَى الْحَلاَّقِ تَأْخُذُ لِنَفْسِكَ. وَأَمْرِرْهَا عَلَى رَأْسِكَ وَعَلَى لِحْيَتِكَ. وَخُذْ لِنَفْسِكَ مِيزَانًا لِلْوَزْنِ وَاقْسِمْهُ وَأَحْرِقْ بِالنَّارِ ثُلْثَهُ فِي وَسَطِ الْمَدِينَةِ إِذَا تَمَّتْ أَيَّامُ الْحِصَارِ. وَخُذْ ثُلْثًا وَاضْرِبْهُ بِالسَّيْفِ حَوَالَيْهِ، وَذَرِّ ثُلْثًا إِلَى الرِّيحِ. وَأَنَا أَسْتَلُّ سَيْفًا وَرَاءَهُمْ. وَخُذْ مِنْهُ قَلِيلاً بِالْعَدَدِ وَصُرَّهُ فِي أَذْيَالِكَ. وَخُذْ مِنْهُ أَيْضًا وَأَلْقِهِ فِي وَسَطِ النَّارِ وَأَحْرِقْهُ بِالنَّارِ. مِنْهُ تَخْرُجُ نَارٌ عَلَى كُلِّ بَيْتِ إِسْرَائِيلَ» (حز٥:١-٤)، «وَأَنْتَ يَا ابْنَ آدَمَ فَخُذْ لِنَفْسِكَ لِبْنَةً وَضَعْهَا أَمَامَكَ، وَارْسِمْ عَلَيْهَا مَدِينَةَ أُورُشَلِيمَ. وَاجْعَلْ عَلَيْهَا حِصَارًا، وَابْنِ عَلَيْهَا بُرْجًا، وَأَقِمْ عَلَيْهَا مِتْرَسَةً، وَاجْعَلْ عَلَيْهَا جُيُوشًا، وَأَقِمْ عَلَيْهَا مَجَانِقَ حَوْلَهَا. وَخُذْ أَنْتَ لِنَفْسِكَ صَاجًا مِنْ حَدِيدٍ وَانْصِبْهُ سُورًا مِنْ حَدِيدٍ بَيْنَكَ وَبَيْنَ الْمَدِينَةِ، وَثَبِّتْ وَجْهَكَ عَلَيْهَا فَتَكُونَ فِي حِصَارٍ وَتُحَاصِرَهَا. تِلْكَ آيَةٌ لِبَيْتِ إِسْرَائِيلَ» (حز٤:١-٣).

ومُجمل القول أنَّ الرب من أجل رحمته منحهم العودة إلى بابل، وبنفس الكيفية أقام الرب يسوع رب الأنبياء طفلاً صغيرًا في وسطهم حتى لا يحسب هوى الغيرة أمرًا بسيطًا، لكنه الشرارة التي تُشعِل كل حريق، منه كان الحسد والقتل كما فعل قايين.

وهو أيضًا يُرهِب حينما يستأنف الكلام ويقول «**وَمَنْ أَعْثَرَ أَحَدَ هَؤُلاَءِ الصِّغَارِ الْمُؤْمِنِينَ بِي فَخَيْرٌ لَهُ أَنْ يُعَلَّقَ فِي عُنُقِهِ حَجَرُ الرَّحَى وَيُغْرَقَ فِي لُجَّةِ الْبَحْرِ**» (مت١٨:٦).

إنَّ الغيرة يمكن أن تؤدي بشخص حتى إلى قتل أخيه. لكن المسيح يقول إنه إذا كان أحد بسبب غيرته أو بسبب هوى آخر، يعثر أخاه ويجعله يصدم، فسوف يُعاقب عقابًا شديدًا أيسر منه له أن يُعلَّق في عنقه حجر رحى ويُطرَح في البحر ويهوى إلى قاع البحر. لقد استعمل هذا المثل فعلاً لأنه كان يريد أن يُبيِّن شدة العذاب الذي يُصيب مَن كان شريرًا وصار سببًا للمعاثر.



يبدو أنَّ هذه الكلمة شبيهة بقوله: «قَدْ سَمِعْتُمْ أَنَّهُ قِيلَ لِلْقُدَمَاءِ: لاَ تَقْتُلْ، وَمَنْ قَتَلَ يَكُونُ مُسْتَوْجِبَ الْحُكْمِ. وَأَمَّا أَنَا فَأَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ كُلَّ مَنْ يَغْضَبُ عَلَى أَخِيهِ بَاطِلاً يَكُونُ مُسْتَوْجِبَ الْحُكْمِ، وَمَنْ قَالَ لأَخِيهِ: رَقَا، يَكُونُ مُسْتَوْجِبَ الْمَجْمَعِ، وَمَنْ قَالَ: يَا أَحْمَقُ، يَكُونُ مُسْتَوْجِبَ نَارِ جَهَنَّمَ» (مت٥:٢١، ٢٢).

فقال «هَؤُلاَءِ الصِّغَارِ الْمُؤْمِنِينَ بِي»، ليس لكي نفهم أنه لا خطورة في أن نعثر الذين لا يؤمنون بلا سبب، لأنه حسب وصية بولس الرسول يجب أن نكون بلا عثرة لليهود وللأمم ولكنيسة الله «كُونُوا بِلاَ عَثْرَةٍ لِلْيَهُودِ وَلِلْيُونَانِيِّينَ وَلِكَنِيسَةِ اللهِ» (١كو١٠:٣٢). ولكنه قال ذلك لكي يجعل الاتهام بالتحزُّب أمامهم أكبر وأشمل. وفي الواقع هو يقول: "لا تفتكروا وقد تصرَّفتم بدافع الحسد نحو بطرس، أني لهذا حزين وأنطق بهذا الألم، فإنه حتى لو كان الأمر يتعلق بأصغر واحد ممن يؤمنون بي، فمع ذلك يجب أن تستحوا من أجل وحدانية شركة الإيمان، حتى وإن لم يكن من أجل شيء آخر".

هكذا كان بولس الرسول يقول لأهل كورنثوس: «فَالآنَ فِيكُمْ عَيْبٌ مُطْلَقًا لأَنَّ عِنْدَكُمْ مُحَاكَمَاتٍ بَعْضِكُمْ مَعَ بَعْضٍ. لِمَاذَا لاَ تُظْلَمُونَ بِالْحَرِيِّ؟ لِمَاذَا لاَ تُسْلَبُونَ بِالْحَرِيِّ؟ لَكِنْ أَنْتُمْ تَظْلِمُونَ وَتَسْلُبُونَ وَذَلِكَ لِلإِخْوَةِ» (١كو٦:٧، ٨). إنَّ هذه الكلمة «**وَذَلِكَ لِلإِخْوَةِ**» تتضمن فعلاً مزيدًا مِنَ الاتهام، وهو لا يسمح بسبب تمييز بين البعض بأن نسيء التصرُّف نحو الذين هم ليسوا إخوة، ولو أنَّ العقوبة تكون أشد للذين أعثروا إخوتهم، لأنه لا تمسكهم حتى وحدانية شركة التبني الإلهي والنعمة والكرامة ذاتها والخبز الوحيد السري.

الويل لمن تأتي به العثرة

وبعدما ألقى المسيح المخافة في قلوب الرسل بما فيه الكفاية بكل ما قيل، وليس فقط الرسل، ولكن أيضًا للذين يقرأون هذه الكلمات، زاد فجعل مِنَ التهديد أمرًا عامًا، إذ صاح بحزن قائلاً: «**وَيْلٌ لِلْعَالَمِ مِنَ الْعَثَرَاتِ! فَلاَ بُدَّ أَنْ تَأْتِيَ الْعَثَرَاتُ، وَلَكِنْ وَيْلٌ لِذَلِكَ الإِنْسَانِ الَّذِي بِهِ تَأْتِي الْعَثْرَةُ!**» (مت١٨:٧)، إنه يقول "لستم أنتم أيها الرسل الذين أقول لكم هذا، لكني أقوله لكل الجنس البشري أيضًا. حينما أترك الكلام عن الحسد الذي أظهرتموه الآن بعضكم لبعض، وأخصّ بكلمتي سقوط الطبيعة البشرية الذي حدث بالحيلة، حينئذ أحزن وأئن «**فإنَ اللهَ خَلَقَ الإنْسانَ لِعَدَمِ الفَساد وجعَلَه صورةَ ذاتِه الإلهِيَّة لكِن بِحَسَدِ إبليسَ دَخَلَ المَوتُ إلى العالَم**» (حك٢:٢٣، ٢٤)، لأنَّ آدم، الإنسان الأول، قد خُدع وأطاع وصية الوسواس التي أملاها الحسد. كذلك اشتهيتم المكان الأول في ملكوت السموات حينما زعزعكم هوى المجد الباطل. لقد اشتهى ذاك أشياء أعظم حينما ظن أنه إذا أكل من تلك الشجرة بالرغم مِنَ الوصية الإلهية، سوف يكون مثل الله، لأنَّ ذلك ما كان أغراه به ذاك الذي خدعه.

من هنا أتى حسد قايين. فبعد أن تملَّكته محبة المجد الباطل، وأثارته درجة التفضيل التي أختُصّ بها أخوه، سقط في عثرة الجسد وفي دنس القتل الذي يأتي مِنَ الحسد. لأننا نُسمِّي الابتعاد عن الطريق المستقيم والترنُّح على

القدمين عثرة، كما قد يحدث من حركة طارئة، كأن يخطو أحد في ظِل فوق أحد قدميه ويتعرض للسقوط في حفرة، هكذا بالفعل تكون المعثرة بالحقيقة التي فيها السقوط والخطر من كل جانب، وتنأى بالمرء عن الأفكار السليمة، مثلاً حينما انتقل قايين مِنَ الذبيحة والرغبة في الشعور بعشرة الله إلى الحسد.

ففي كل مرة يفعل فيها الإنسان عملاً شريرًا ويُخطِّط ضد قريبه بمكر مكتوم، لأنه لا يكون السبب في ضرر ذاك الذي أثار المعثرة فحسب، بل كما يحدث كثيرًا، يكون السبب في ضرر ذاك الذي أُثيرت المعثرة ضده أيضًا، فماذا لو كان هابيل خشى الحسد وقتل هو أولاً أخاه؟، ألا يكون قد أضر بنفسه، بعد أن يكون قد انتصر على الحاسد بهذا الانتصار المليء بالشر؟

لذلك قال النبي المُرتِّل، وكأنه يشرح العثرة: «احْفَظْنِي يَا رَبُّ مِنْ يَدَيِ الشِّرِّيرِ. مِنْ رَجُلِ الظُّلْمِ أَنْقِذْنِي. الَّذِينَ تَفَكَّرُوا فِي تَعْثِيرِ خُطُواتِي. أَخْفَى لِي الْمُسْتَكْبِرُونَ فَخًّا وَحِبَالاً. مَدُّوا شَبَكَةً بِجَانِبِ الطَّرِيقِ. وَضَعُوا لِي أَشْرَاكًا» (مز١٤٠:٤، ٥) إنها موضوعة فعلاً بالقرب من طريق الفضائل، وهي تعرقل الخُطى بسهولة، وتجعل مَن كان غير ساهر يعثر، وهي تبدو كثيرًا في مظهر الخير مثل الشيطان الذي يتحوَّل إلى ملاك نور.

ضلالة الحاسدين

بنفس الطريقة كان اليهود يظنون أنهم يُجاهِدون من أجل الناموس، وكانوا ينظقون ضد يسوع بالحكم الذي هو تجديف، فكانوا ناقصي الفهم لدرجة أنهم تخطّوا كل الحدود في حسدهم الإله المُتأنِّس، فصلبوه ومات ودُفن في القبر، ثم قام من بين الأموات، فبيَّنت القيامة أنه كان يستطيع أن يذهب ولا يدعهم يمسكونه.

إنَّ ضد المسيح سوف يأتي أيضًا يُسبِّب العثرات في الساعة الأخيرة وسط قلق هذا العالم، كما هو مكتوب فعلاً: «**وَلِكَثْرَةِ الإِثْمِ تَبْرُدُ مَحَبَّةُ الْكَثِيرِينَ**» (مت٢٤:١٢). هو أيضًا سوف يكون وسط العثرات «لأَنَّهُ سَيَقُومُ مُسَحَاءُ كَذَبَةٌ وَأَنْبِيَاءُ كَذَبَةٌ وَيُعْطُونَ آيَاتٍ عَظِيمَةً وَعَجَائِبَ، حَتَّى يُضِلُّوا لَوْ أَمْكَنَ الْمُخْتَارِينَ أَيْضًا» (مت٢٤:٢٤). ولما كان مُخلِّصنا يعلم ذلك مُقدَّمًا لذلك كان يقول: «وَيْلٌ لِلْعَالَمِ مِنَ الْعَثَرَاتِ! فَلاَ بُدَّ أَنْ تَأْتِيَ الْعَثَرَاتُ، وَلَكِنْ وَيْلٌ لِذَلِكَ الإِنْسَانِ الَّذِي بِهِ تَأْتِي الْعَثْرَةُ!» (مت١٨:٧).

فإذا كان لابد أن تأتي العثرات، فكيف يُلام إذن مَن يعثِر إذا كان مدفوعًا، وما يحدث من أجل الضرورة يستحق المغفرة ولا يكون صاحبه خاضعًا للإتهام؟

ذلك لأنَّ الذين يعثرون قد زرعوا العثرات قسرًا وهم أولاً رموا بذار أسبابها حتى تصيب العثرات. ومثلاً قد يقول الطبيب وهو يرى مريضًا أصابه المرض بسبب ما، ثم اشتدت عليه العِلَّة حتى أوشك أن يصل به إلى الجنون: "الويل لمن كان مريضًا بسبب الجنون" هنا في الواقع لا نُنادي بالويل والثُّبور لظرف هذا المرض القاسي، بل بما كان سبب الجنون لا يقول أحد إن ضرورة العثرات مرتبطة بطبيعتنا وهي من نصيبنا نرثها بمولدنا، فلم يقُل ربنا "الويل للجنس البشري" بل «**وَيْلٌ لِلْعَالَمِ**»، بما إعتاد مِنَ المعيشة التي تتمسك بالخطايا، ثم الويل لأولئك الذين يعيشون تلك المعيشة. لذلك كان يقول أيضًا لتلاميذه: «**لَوْ كُنْتُمْ مِنَ العَالَمِ لَكَانَ الْعَالَمُ يُحِبُّ خَاصَّتَهُ. وَلَكِنْ لأَنَّكُمْ لَسْتُمْ مِنَ العَالَمِ، بَلْ أَنَا اخْتَرْتُكُمْ مِنَ العَالَمِ، لِذَلِكَ يُبْغِضُكُمُ الْعَالَمُ**» (يو١٥:٩).

دينونة العالم

كان الرسل أيضًا جزءًا مِنَ البشر الذين يعيشون في العالم، لكن لأنهم لم يكونوا عائشين في الخطايا، لم يكونوا مِنَ العالم. وكتب أيضًا يوحنا: «**لأَنَّ كُلَّ مَا فِي الْعَالَمِ شَهْوَةَ الْجَسَدِ، وَشَهْوَةَ الْعُيُونِ، وَتَعَظُّمَ الْمَعِيشَةِ، لَيْسَ مِنَ الآبِ بَلْ مِنَ العَالَمِ**» (١يو٢:١٦). وأيضًا «**نَعْلَمُ أَنَّنَا نَحْنُ مِنَ اللهِ، وَالْعَالَمَ كُلَّهُ قَدْ وُضِعَ فِي الشِّرِّيرِ**» (١يو٥:١٩)، لذلك دُعي المُخادِع رئيس العالم «اَلآنَ دَيْنُونَةُ هَذَا الْعَالَمِ. اَلآنَ يُطْرَحُ رَئِيسُ هَذَا الْعَالَمِ خَارِجًا» (يو١٢:٣١) نظرًا لأنه أُس الخطية ورئيسها.

فإذن ليست طبيعة الإنسان سبب العثرات، لكنه العالم، أي **المعيشة الشـريرة البائسة المُتمسِّكة بالخطايا ومرض الفكر.** فإنه بالحقيقة السيد المسيح له المجد يقصد العالم إذ يقول «لاَ بُدَّ أَنْ تَأْتِيَ الْعَثَرَاتُ» (مت١٨:٧).

وبولس الرسول أيضًا حينما رأى منازعات عند أهل كورنثوس، قال «لأَنَّهُ لاَبُدَّ أَنْ يَكُونَ بَيْنَكُمْ بِدَعٌ أَيْضًا لِيَكُونَ الْمُزَكَّوْنَ ظَاهِرِينَ بَيْنَكُمْ» (١كو١١:١٩) يزهر النبات مِنَ الحبوب، ذلك ما لابد أن يحدث ضرورة.

وهكذا قال مخلصنا، عندما كان يُنوِّه إلى حسد التلاميذ لبطرس، هذه الكلمة المُتعلِّقة بالعثرات وهو يُبيِّن أنَّ العثرات لا تولِّدها الكراهية نحو الأخوة فحسب، بل المحبة الشـريرة أيضًا، يُقدِّم الدواء الشافي مِنَ المرض الناتج مِنَ الحسد فيقول في الكتاب: «**فَإِنْ أَعْثَرَتْكَ يَدُكَ أَوْ رِجْلُكَ فَاقْطَعْهَا وَأَلْقِهَا عَنْكَ. خَيْرٌ لَكَ أَنْ تَدْخُلَ الْحَيَاةَ أَعْرَجَ أَوْ أَقْطَعَ مِنْ أَنْ تُلْقَى فِي النَّارِ الأَبَدِيَّةِ وَلَكَ يَدَانِ أَوْ رِجْلاَنِ. وَإِنْ أَعْثَرَتْكَ عَيْنُكَ فَاقْلَعْهَا وَأَلْقِهَا عَنْكَ. خَيْرٌ لَكَ أَنْ تَدْخُلَ الْحَيَاةَ أَعْوَرَ مِنْ أَنْ تُلْقَى فِي جَهَنَّمَ النَّارِ وَلَكَ عَيْنَانِ**» (مت١٨:٨،٩)

علاج الحسد والعثرات

إنه تعالى يجعل ذلك قانونًا بخصوص الأمراض التي تحكمها حالة اليد والعين، لأنك إن لم تقطع الجزء المريض، فلست تخسر نفسك فحسب، بل

أنك لن تخلِّص عضوك. لنكن فعلاً كالأعضاء بعضًا لبعض. وأوصى بذلك بولس الرسول إذ قال: « **لِذَلِكَ اطْرَحُوا عَنْكُمُ الْكَذِبَ وَتَكَلَّمُوا بِالصِّدْقِ كُلُّ وَاحِدٍ مَعَ قَرِيبِهِ، لأَنَّنَا بَعْضَنَا أَعْضَاءُ الْبَعْضِ**» (أف٤:٢٥). ما هو العجب في هذا العلاج؟ إنَّ العهد القديم يوصي ويأمر إذا كان أحد يعثر بألا يُقطع فقط، بل يُقتل أيضًا. وفي كتاب التثنية كتب موسى: «وَإِذَا أَغْوَاكَ سِرًّا أَخُوكَ ابْنُ أُمِّكَ أَوِ ابْنُكَ أَوِ ابْنَتُكَ أَوِ امْرَأَةُ حِضْنِكَ أَوْ صَاحِبُكَ الذِي مِثْلُ نَفْسِكَ قَائِلاً: نَذْهَبُ وَنَعْبُدُ آلِهَةً أُخْرَى لمْ تَعْرِفْهَا أَنْتَ وَلا آبَاؤُكَ مِنَ الهَةِ الشُّعُوبِ الذِينَ حَوْلكَ القَرِيبِينَ مِنْكَ أَوِ البَعِيدِينَ عَنْكَ مِنْ أَقْصَاءِ الأَرْضِ إِلى أَقْصَائِهَا فَلا تَرْضَ مِنْهُ وَلا تَسْمَعْ لهُ وَلا تُشْفِقْ عَيْنُكَ عَليْهِ وَلا تَرِقَّ لهُ وَلا تَسْتُرْهُ بَل قَتْلاً تَقْتُلُهُ. يَدُكَ تَكُونُ عَليْهِ أَوَّلاً لِقَتْلِهِ ثُمَّ أَيْدِي جَمِيعِ الشَّعْبِ أَخِيرًا. تَرْجُمُهُ بِالحِجَارَةِ حَتَّى يَمُوتَ لأَنَّهُ التَمَسَ أَنْ يُطَوِّحَكَ عَنِ الرَّبِّ إِلهِكَ الذِي أَخْرَجَكَ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ مِنْ بَيْتِ العُبُودِيَّةِ» (تث١٣:٦-١٠).

أمر مخلصنا أن نقطع هذه الأعضاء حينما تعثرنا، لأنه في بهاء القيامة في ملكوت السموات سوف تأخذ الطبيعة ما هو كامل، وهناك لن يكون شخص أعور أو أعرج أو ناقص في جسده، أو تكون أعضاؤه مُصابة بجرح آخر. لأنه لو كان الأمر كذلك، لكان الشهداء الذين قُطعت أعضاؤهم واحدًا واحدًا يبقون بلا جسد. فإنَّ القيامة فعلاً هي عود جديد إلى الحالة الأولى، لأنه مكتوب «تُرْسِلُ رُوحَكَ فَتُخْلَقُ. وَتُجَدِّدُ وَجْهَ الأَرْضِ»

(مز١٠٤: ٣٠). أيُشكِّل الفُخاري إناءه جيدًا، والله الذي يُشكِّل خليقته من جديد يتركها ناقصة الأعضاء الرئيسية؟.

ما دمنا نعرف ذلك، فلنهرب إذن مِنَ الحسد ومحبة المجد الباطل والمشاعر الشريرة التي يكرها الله، حتى نخلص تمامًا مِنَ العثرات، وننال ملكوت السموات **بالمسيح يسوع ربنا الذي يليق له المجد مع أبيه الصالح والروح القدس الآن وكل أوان وإلى دهر الداهرين آمين.**



المرأة الخاطئة

سلسلة مقالات القديس الأنبا ساويرس

البطريرك الأنطاكي

٩

المرأة الخاطئة

مُترجم عن الفرنسية مِنَ الكتاب الثالث مِنَ الجزء السادس والعشرين من مجموعة

PATROLOGIA ORIENTALIS

R. Graffin – F. Nau

Les Homélies Cathédrales de Sévère d'Antioche

Homélie CXVIII

عن اليونانية فالسريانية وترجمة إلى الفرنسية العالِم الأثري

Maurice Brière

مليكه حبيب يوسف   يوسف حبيب

١٩٦٩م

مقدمة



هذا كنز آخر من كنوز القديس ساويرس أودعه خواطره عن المرأة الخاطئة التي سكبت الطيب على السيد، إنَّ القديس ساويرس في هذا المقال يُصوِّر باللفظ ما يعجز عن تصويره كبار الشعراء، حس مُرهَف، وصفاء مُبدِع، ينساب منه القول رقراقًا فعَّالاً مؤثِّرًا يمس سويداء القلب، إذ يصوِّر لنا السيد وهو يرى ما يُعانيه البشر من قوى الشر والظلام، فيحرم الضحايا سلامة الفطرة وصفاء النفس إذ تهزمهم الظلال ويُكبِّلهم الشيطان.

لقد ترآف السيد ذو المراحم العالية على تلك المرأة ففك قيودها وغفر لها وطهَّرها من ذنوبها، وكان في هذا منتهى العجب.

من هنا انهمرت سيول الغفران جزاء وفاقًا لما سكبته مِنَ الطيب دليلاً على محبتها التي صادفت قبولاً مِنَ السيد رغم إعترض الكثيرين.

وهكذا يجد الخطاة الذين تفيض قلوبهم بالمحبة مثل تلك المرأة، تجاوبًا ليس فقط في النجاة من صراع النفس العنيف، بل في التطهير والغفران، فينسون دموعهم ويعود إليهم سرورهم.

ما أفظع الخطية، تلك التي أحرقت قلب المرأة، فلولا أن تداركها الله بمراحمه لفنيت مثل زهر العشب أو يبست وأُلقيت في التنور.

وما أرحم تلك اليد التي أنقذتها من يد البشر القُساة، وكانت تترامى تحت أمواجه تتقاذفها حتى أتت بها إلى المصير الذي كانت ستلقاه على أيديهم في لمحة، وفي حضـرة السيد، وعند أقدامه المقدسة كانت المعجزة، فإذ قد عرفنا ذلك فلنحذر الانزلاق في مزالق الخطية والاستهتار استهانة وتغافلاً. فلن يكون إلا الدينونة الرهيبة ليس أمام البشر القساة فحسب، بل أمام كرسي الملك الديان الرهيب.

وفي هذا المقال أبان لنا القديس شيئًا من عصارة القلب التي بذلتها المرأة ابتغاء إصلاح السيرة وتطهير النفس عند ذلك النور البرَّاق.

نرجو أن ينمو ويزهر فينا الجهاد الروحي، وأن يجعلنا الرب مستحقين للحياة الأبدية. ولإلهنا المجد والعظمة إلى أبد الدهور، آمين.





توبة امرأة خاطئة

كما أنَّ الذين يتأملون لوحة مرسومة بطريقة كاملة تلفت النظر، أو تبرهم صورة جميلة جدًا لرجل أو لامرأة، يظهر فيها الفن وبهاء الألوان، مصنوعة بعناية حتى لتصل إلى أعلى درجات الجمال، يُعلِّقون عيونهم ويثبتونها عليها باجتهاد كثير، وإذ يلبثون صامتين أمام المنظر يتلذَّذون بطريقة ما ويتمتعون به حتى الشبع مُتعلِّقين بالرؤيا التي يعتزّون بها جدًا، وبينما يتقدمون ويجيئون ويذهبون، لا يزال في فكرهم ما شاهدته أعينهم وانتزعوا عنه إنتزاعًا هكذا وأني حينما سمعت عن المرأة في كتاب الأناجيل المُلهَم بها مِنَ الله. لقد رسم امرأة ذات سيرة سيئة، وصوَّرها لنا بالكلمات وأحضرها أمام أعيننا بطريقة أكثر وضوحًا وبيانًا من أي لوحة أو أي صورة يبرز فيها الفن، امرأة ذات سيرة سيئة تتوب فجأة نادمة على الشر، وإذ عرفت ما يتبع تغيَّرت بطريقة سرِّية بسرعة فائقة، فخلعت عنها الوصمة وبدت كأنها تمثال للكمال واضح وككتاب أمام كل الناس.

فبعد أن أرْهفتُ سمعي على أمرها، وبعد أن أُخذت بهذه الصورة الحيَّة النافعة جدًا التي لا تتميز بمظهرها الخارجي فحسب، بل بما إحتوته مِنَ الأفكار التي في العمق، لأني لا أستطيع أن أبرز هذه المتعة، فأخرج وآتي علانية، لكي أقول عنها من جديد أيضًا أمامكم، بأي طريقة كانت، في محبة للعلم فائقة.

لأنه هكذا يكون شأن أولئك الذين تُثيرهم الرغبة في شيء ما، إنهم يحبون أن يُكرِّروا كثيرًا ما يعتزّون به فيذكرونه كثيرًا بفمهمن ويُحاولون أن يجعلوه أكثر إيجابية عن طريق الرواية، لكي يشركوا الذين يُنصتون إليهم أيضًا في رغبتهم حقيقة ويمتدحوا ما يُحبّون مما يتكلمون عنه.

لكن إذا رضيتم، نضع أمامكم ثانية الرسم، ونتمثَّل الصورة من جديد حسب الأناجيل المقدسة كنموذج.

«وَسَأَلَهُ وَاحِدٌ مِنَ الفَرِّيسِيِّينَ أَنْ يَأْكُلَ مَعَهُ فَدَخَلَ بَيْتَ الْفَرِّيسِيِّ وَاتَّكَأَ. وَإِذَا امْرَأَةٌ فِي الْمَدِينَةِ كَانَتْ خَاطِئَةً إِذْ عَلِمَتْ أَنَّهُ مُتَّكِئٌ فِي بَيْتِ الْفَرِّيسِيِّ جَاءَتْ بِقَارُورَةِ طِيبٍ. وَوَقَفَتْ عِنْدَ قَدَمَيْهِ مِنْ وَرَائِهِ بَاكِيَةً وَابْتَدَأَتْ تَبُلُّ قَدَمَيْهِ بِالدُّمُوعِ وَكَانَتْ تَمْسَحُهُمَا بِشَعْرِ رَأْسِهَا وَتُقَبِّلُ قَدَمَيْهِ وَتَدْهَنُهُمَا بِالطِّيبِ» (لو٧:٣٦- ٣٨).

محبة الرب يسوع

تُبكتني محبة الرب يسوع، أو بالحري تبكتني المعجزة. وفي الواقع أننا نعجب من حلم الله الذي يتجلَّى في تغيير الشر بواسطة الخير. فهو يقبل أن يشترك في مائدة واحدة مع الفريسيين الحسودين، هؤلاء القتلة الذين يُحاربون ضده، ويأكل الحسد قلوبهم لمجرد رؤيته، ولا يقدرون أن ينظروا إليه، فحقّ عليهم قول إشعياء النبي: **«الَّذِينَ يَقُولُونَ لِلرَّائِينَ: «لاَ تَرُوا» وَلِلنَّاظِرِينَ: لاَ تَنْظُرُوا لَنَا مُسْتَقِيمَاتٍ. كَلِّمُونَا بِالنَّاعِمَاتِ. انْظُرُوا مُخَادِعَاتٍ.**

حِيدُوا عَنِ الطَّرِيقِ. مِيلُوا عَنِ السَّبِيلِ. اعْزِلُوا مِنْ أَمَامِنَا قُدُّوسَ إِسْرَائِيلَ» (إش٣٠: ١٠، ١١).

وهو تعالى يفعل ذلك لكي يدعوهم إلى السلام بينما كادوا يتميزون غضبًا، فلكي يقطع كل عذر حين كانوا لا يتغيّرون. فعلاً، لا شيء مثل الاشتراك في المائدة وفي الغذاء يستطيع أن يؤلِّف بينهم، حتى بين الأعداء الذين يُحاربون بعضهم بعضًا كثيرًا جدًا.

هكذا أيضًا يجمع سر التقوى العظيم أعضاء الكنيسة في جسد واحد، له هذا الهدف: وحدة التفكير في الثالوث الأقدس، ووحدة الاشتراك في النور المتألق من هناك، كما يقول المسيح أيضًا الواحد مِنَ الثالوث الأقدس: **«لِيَكُونَ الْجَمِيعُ وَاحِدًا، كَمَا أَنَّكَ أَنْتَ أَيُّهَا الآبُ فِيَّ وَأَنَا فِيكَ، لِيَكُونُوا هُمْ أَيْضًا وَاحِدًا فِينَا، لِيُؤْمِنَ الْعَالَمُ أَنَّكَ أَرْسَلْتَنِي»** (يو١٧: ٢١).

أقول، إننا نحتفل بسر التقوى العظيم بمائدة مقدسة وبوليمة واحدة مشتركة، نشترك فيها بنفس الشرف، تذكرنا بكلمات بولس الرسول الذي يدعونا في نفس الوقت للاتفاق المُرضي، ويدوي صوته بما يجب أن يعمل: **«بِكُلِّ تَوَاضُعٍ، وَوَدَاعَةٍ، وَبِطُولِ أَنَاةٍ، مُحْتَمِلِينَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فِي الْمَحَبَّةِ. مُجْتَهِدِينَ أَنْ تَحْفَظُوا وَحْدَانِيَّةَ الرُّوحِ بِرِبَاطِ السَّلاَمِ. جَسَدٌ وَاحِدٌ، وَرُوحٌ وَاحِدٌ، كَمَا دُعِيتُمْ أَيْضًا فِي رَجَاءِ دَعْوَتِكُمُ الْوَاحِدِ»** (أف٤: ٢-٤)، وأيضًا: **«فَإِنَّنَا نَحْنُ الْكَثِيرِينَ خُبْزٌ وَاحِدٌ جَسَدٌ وَاحِدٌ لأَنَّنَا جَمِيعَنَا نَشْتَرِكُ فِي الْخُبْزِ الْوَاحِدِ»** (١كو١٠: ١٧).

كبرياء الفريسي وإنسحاق الخاطئة

وبينما كان الفريسي يتناول طعامه مع المعلم الحكيم المُعطي هذه التعاليم المقدسة، الله، بعيدًا عن الرسميات، وبينما كان متكئًا معه على نفس المائدة ينظر إلى وجهه، كان لا يرى ولا يفهم عظمة ذاك الذي تنازل حتى إليه. وحينما كان يرفع جبينه بكبرياء، كان يُفكِّر أيضًا أنه كان قد صنع معروفًا ليسوع وأن يسوع مدين له بالشكر.

لكن المرأة الخاطئة فيما كانت واقفة سرًا في الخلف لا تحسب نفسها مستحقة لنظرة تلك العينَيْن المملوئتَيْن بالرحمة والسلام الإلهي، عرفت: الذي لم ينظر إليها، الذي كان متكئًا على المائدة، وفي صمت قدَّمت له التماسًا كما لمن يسمع القلب. كانت فعلاً تذرف الدموع ينبعث منها صوت، وكانت تسيل بغزارة وتسقط على قدميه الإلهيتَيْن. فكانت تغتسل بطريقة خفيَّة من خطاياها، إذ تغسل قدميه، لأنه نظير الدموع غمرتها سيول نِعم التطهير. فضلاً عن إكرامها له بالطيب تدهن به قدميه باهتمام وتُقدِّم له مجدًا يليق بالله، فاختلطت دموع توبتها والاعتراف مع عبير الطيب وتقبلها الله رائحة زكية.

كان الفريسي يرى ذلك فتشتعل فيه نار الحسد والشك دون أن يتأمل بفهم. قال في نفسه شرًا، ومن الفكر كان الهوى يتعجَّل الانفجار إلى الخارج بينما لا يزال في الداخل يعمل في الحاسد، فماذا كان صدى الأفكار التي كان

يسوع يسمعها حتى وإن كانت خفيَّة؟ يقول الكتاب: «**فَلَمَّا رَأَى الْفَرِّيسِيُّ الَّذِي دَعَاهُ ذَلِكَ، تَكَلَّمَ فِي نَفْسِهِ قَائِلاً: لَوْ كَانَ هَذَا نَبِيًّا، لَعَلِمَ مَنْ هَذِهِ الامَرْأَةُ الَّتِي تَلْمِسُهُ وَمَا هِيَ! إِنَّهَا خَاطِئَةٌ**» (لو٧:٣٩).

أي نبي، أيها الفريسي، يُبغض الخطاة ويرفض لمسهم مبتعدًا عنهم كأنجاس؟ هلا تسمع الكتب المقدسة، أفلا تعرف أنهم ألقوا لصًّا سوريًا ميتًا على عظام أليشع النبي فعاد إلى الحياة بلمسها؟ «وَفِيمَا كَانُوا يَدْفِنُونَ رَجُلاً إِذَا بِهِمْ قَدْ رَأَوُا الْغُزَاةَ، فَطَرَحُوا الرَّجُلَ فِي قَبْرِ أَلِيشَعَ. فَلَمَّا نَزَلَ الرَّجُلُ وَمَسَّ عِظَامَ أَلِيشَعَ عَاشَ وَقَامَ عَلَى رِجْلَيْهِ» (٢مل١٣:٢١). كيف لا تقودك إلى الحق صور الناموس السالفة؟ هذه فعلاً سبق أن عملها الأنبياء حتى ترى أن يسوع لم يُقِم الآخرين فحسب بل قام هو نفسه، لأنَّ هذا لله وحده الذي يستعمل سلطانه الذاتي، فتؤمن أنه هو ذاته حقًا الذي قال: «أَنَا هُوَ الْقِيَامَةُ وَالْحَيَاةُ» (يو١١:٢٥) وهو الذي صنع مثل هذه المعجزات بواسطة الأنبياء أيضًا، فيتعلم المرء أولاً أن يحذو حذو آبائه، ويتدرَّج منها إلى كمال الإيمان بالمسيح. هكذا بالتالي لم تفُت المسيح لمسة المرأة كما ظن هذا الفريسي، لكنه عرف بوضوح أنها بالحري لمسته بقلبها، وليس بيديها، وقد ارتضى ذلك.

ولكي يأتي يسوع بالفريسي إلى هذه الفكرة، كلَّمه بأمثال كاشفًا سِقم تفكيره. قال: «**كَانَ لِمُدَايِنٍ مَدْيُونَانِ. عَلَى الْوَاحِدِ خَمْسُمِئَةِ دِينَارٍ وَعَلَى الآخَرِ خَمْسُونَ. وَإِذْ لَمْ يَكُنْ لَهُمَا مَا يُوفِيَانِ سَامَحَهُمَا جَمِيعًا. فَقُلْ: أَيُّهُمَا يَكُونُ**

أَكْثَرَ حُبًّا لَهُ؟ فَأَجَابَ سِمْعَانُ وَقَالَ: أَظُنُّ الَّذِي سَامَحَهُ بِالأَكْثَرِ. فَقَالَ لَهُ: بِالصَّوَابِ حَكَمْتَ» (لو٧:٤١-٤٣).

أيها الفريسي، إنَّ نظرك غليظ، تفحص لمس اليد، وتحكم أن هذه المرأة ليست طاهرة. أما أنا فأنظر إلى عمق فكرها حيث تركزت كل هذه، إنها شعرت بخطاياها، وبكت، وأحبَّت، وقدَّمت هذا الزيت المُعطَّر كبرهان على محبتها. ولذلك فقد اهتممت بمحبتها، تلاحظ عنايتي الإلهية دائمًا حركة روحها، وأسبق وأذهب لِمَ بعد ذلك، لأجل محبتها منحتها مُقدَّمًا تاركًا لها ديونًا عديدة، قبل أن تحكم أنت نفسك أن اللمس الخارجي نجس، لأنَّ المرأة قد تطهَّرت مُقدَّمًا مِنَ الداخل. هكذا بالتالي لم تكن خاطئة، يا هذا، تلك التي حسبتها خاطئة. إذ أنها بعد أن عرفت غنى العطية، وزنته بالمحبة الزائدة.

أرأيت كيف تتألق الصورة؟ لنبحث إذن وننظر إلى ما هو خفي وأكثر تألُّقًا. إنَّ هذا الفريسي في الواقع **يُمثِّل صورة مجمع اليهود** الذي سكن كلمة الله أولاً بالقرب منه، لم يكن معروفًا سوى في فلسطين، كما لو كان في بيت واحد، بينما كان يظهر بجانب خيمة الشهادة، كما يقول بفم ناثان النبي للملك داود الذي كان يريد أن يبني هيكلاً: «لأَنِّي لَمْ أَسْكُنْ فِي بَيْتٍ مُنْذُ يَوْمَ أَصْعَدْتُ إِسْرَائِيلَ إِلَى هَذَا الْيَوْمِ، بَلْ سِرْتُ مِنْ خَيْمَةٍ إِلَى خَيْمَةٍ وَمِنْ مَسْكَنٍ إِلَى مَسْكَنٍ» (١ أي١٧:٥).

هكذا اشترك معهم في المائدة الروحانية حينما وضع أمامهم وصايا الناموس مبدئيًا، مثل حروف الهجاء في تعليم الأولاد الصغار، على أنها من ناحية أخرى كانت تحمل كمال العبادة في الخدمة الروحانية. وحينما أرسل الله أنبياءه الذين لم يعلموا ويرشدوا لأجل حاضرهم فحسب، بل للمستقبل بالنبوة. وأخيرًا قام في وسطهم حسب التدبير الإلهي، وظهر بتجسُّد الكلمة وعاش بينهم « هُوَ وَجَدَ طَرِيقَ التَّأَدُّبِ بِكَمَالِهِ وَجَعَلَهُ لِيَعْقُوبَ عَبْدِهِ وَلإِسْرَائِيلَ حَبِيبِهِ. وَبَعْدَ ذَلِكَ تَرَاءَى عَلَى الأَرْضِ وَتَرَدَّدَ بَيْنَ الْبَشَرِ» (باروخ ٣:٣٧، ٣٨). وساعدهم بطرق شتّى، وبالرغم منهم أيضًا، وفي غاية التدبير الإلهي اِتخذ مكانه على المائدة، ثم اضطجع في أورشليم كما في بيت يهودي، ثلاثة أيام في قبره.

لذلك كان يقول: «لَمْ أُرْسَلْ إِلاَّ إِلَى خِرَافِ بَيْتِ إِسْرَائِيلَ الضَّالَّةِ» (مت١٥:٢٤)، وأيضًا كان يأمر تلاميذه قائلاً: «بَلِ اذْهَبُوا بِالْحَرِيِّ إِلَى خِرَافِ بَيْتِ إِسْرَائِيلَ الضَّالَّةِ» (مت١٠:٦) إذ أنه في كل شيء كان يُفضِّل ذلك لكي يُبيِّن لهم أنهم يصيرون غرباء عن كل مغفرة إذا لم يؤمنوا.

وبينما كانوا يتكئون على المائدة دون عمل، ودون أن يغتذوا غذاء الذين يرغبون في الأمور الإلهية، فإنهم حينما ذاقوا شبعوا حالاً ونطقوا بشتائم «فَسَمِنَ يَشُورُونَ وَرَفَسَ. سَمِنْتَ وَغَلُظْتَ وَاكْتَسَيْتَ شَحْمًا! فَرَفَضَ الإِلهَ الذِي عَمِلهُ وَغَبِيَ عَنْ صَخْرَةِ خَلاصِهِ» (تث٣٢:١٥).

حينئذ دخلت فجأة المرأة الخاطئة في البيت. إن الكنيسة قد حضرت من نفسها، فهي التي أختيرت من بين الأمم في كل المسكونة، وقد آمنت طوعًا بالمسيح الذي كان عند المائدة مع الأشرار وناكري الجميل.

وحسنًا جدًا قال الكتاب: «وَإِذَا امْرَأَةٌ فِي الْمَدِينَةِ كَانَتْ خَاطِئَةً» (لو٧:٣٧) ليس بأسلوب واحد، بل بكل الطرق المختلفة من جهة الخطية وخاصة العهارة، واعتاد الكتاب فعلاً أن يطلقها على كل خطية على وجه العموم، وبالأخص ترك عبادة الله وخدمته، فهي في كل مرة تؤدي إلى عبادة الأصنام الميّتة، والحجارة والأخشاب، بدلاً من عبادة الله الواحد وحده.

وهذا ما يقوله داود أيضًا مُرنِّمًا لله: «مَنْ لِي فِي السَّمَاءِ؟ وَمَعَكَ لاَ أُرِيدُ شَيْئًا فِي الأَرْضِ. قَدْ فَنِيَ لَحْمِي وَقَلْبِي. صَخْرَةُ قَلْبِي وَنَصِيبِي اللهُ إِلَى الدَّهْرِ. لأَنَّهُ هُوَذَا الْبُعَدَاءُ عَنْكَ يَبِيدُونَ. تُهْلِكُ كُلَّ مَنْ يَزْنِي عَنْكَ» (مز٧٣:٢٥-٢٧) ويقول أيضًا: «وَعَبَدُوا أَصْنَامَهُمْ فَصَارَتْ لَهُمْ شَرَكًا. وَذَبَحُوا بَنِيهِمْ وَبَنَاتِهِمْ لِلأَوْثَانِ وَأَهْرَقُوا دَمًا زَكِيًّا دَمَ بَنِيهِمْ وَبَنَاتِهِمِ الَّذِينَ ذَبَحُوهُمْ لأَصْنَامِ كَنْعَانَ وَتَدَنَّسَتِ الأَرْضُ بِالدِّمَاءِ وَتَنَجَّسُوا بِأَعْمَالِهِمْ وَزَنُوا بِأَفْعَالِهِمْ» (مز١٠٦:٣٦-٣٩).

وكذلك في سفر القضاة أيضًا: «فَحَمِيَ غَضَبُ الرَّبِّ عَلَى إِسْرَائِيلَ، فَدَفَعَهُمْ بِأَيْدِي نَاهِبِينَ نَهَبُوهُمْ، وَبَاعَهُمْ بِيَدِ أَعْدَائِهِمْ حَوْلَهُمْ، وَلَمْ يَقْدِرُوا بَعْدُ عَلَى الْوُقُوفِ أَمَامَ أَعْدَائِهِمْ. حَيْثُمَا خَرَجُوا كَانَتْ يَدُ الرَّبِّ عَلَيْهِمْ لِلشَّرِّ كَمَا تَكَلَّمَ الرَّبُّ وَكَمَا أَقْسَمَ الرَّبُّ لَهُمْ. فَضَاقَ بِهِمُ الأَمْرُ جِدًّا» (قض٢:١٤، ١٥).

فكانت الكنيسة إذن قد أتت مثل هذه الأعمال، وكانت تنمو فيها هذه العادات، كانت خاطئة وخطيئتها متنوعة عديدة الأشكال.

وفي كلمة الإنجيل القائلة: «وَإِذَا امْرَأَةٌ فِي الْمَدِينَةِ كَانَتْ خَاطِئَةً» (لو٧:٣٧) دلالة كبيرة. فهي كانت مشهورة بطريقة ما في كل المدينة بسبب الشر، وعُرف عنها في كل مدينة لدى الناس أنها خاطئة، وهي لا تتقرب مجردة، لكن بعد اعترافها بالمسيح بعين المعرفة. ويقول الكتاب: «**إِذْ عَلِمَتْ أَنَّهُ مُتَّكِئٌ فِي بَيْتِ الْفَرِّيسِيِّ، جَاءَتْ بِقَارُورَةِ طِيبٍ**» (لو٧:٣٧).

أحضرت بفرح وعاءً مِنَ المرمر مملوءًا بالعطر، رمزًا إلى الإيمان المجيد الحقيقي الطاهر الذي يحوي قوام الفضائل الزكية كما يحوي الوعاء الزجاجي الرائحة الزكية، ويشير إلى العطر العقلي.

حينما وقفت مِنَ الخلف، أي بعد المجمع، إذ أنها كانت مدعوة ومقبولة في المرتبة الثانية، وهذا أيضًا ما كان الرسل أنفسهم يقولونه لليهود الذين لم يؤمنوا ولم يطيعوا الإنجيل.

اختيار الكنيسة

«كَانَ يَجِبُ أَنْ تُكَلَّمُوا أَنْتُمْ أَوَّلاً بِكَلِمَةِ اللهِ وَلَكِنْ إِذْ دَفَعْتُمُوهَا عَنْكُمْ وَحَكَمْتُمْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُسْتَحِقِّينَ لِلْحَيَاةِ الأَبَدِيَّةِ هُوَذَا نَتَوَجَّهُ إِلَى الْأُمَمِ. لأَنْ هَكَذَا أَوْصَانَا الرَّبُّ: قَدْ أَقَمْتُكَ نُورًا لِلأُمَمِ لِتَكُونَ أَنْتَ خَلاَصًا إِلَى أَقْصَى الأَرْضِ. فَلَمَّا سَمِعَ الأُمَمُ ذَلِكَ كَانُوا يَفْرَحُونَ وَيُمَجِّدُونَ كَلِمَةَ الرَّبِّ» (أع١٣:٤٦-٤٨).

في ذلك الوقت كانت الكنيسة التي أختيرت من بين الأمم تفرح وتُمجِّد كلمة الرب، بعد أن قبلتها بفرح. وتمثَّلت قديمًا امرأة خاطئة، تبكي على ما كانت تفعله فيما مضى وتفرح بما قد بدأ وما تنتظره أيضًا، وهي تقبل بدون تخاذل. لا تقبل بدون بذل، بل وهي تدهن قدمي يسوع بالطيب وتتشبث بخطواته بممارسة الفضائل.

لذلك أيضًا، حينما يفحصها ويُقارنها ويضعها أمام المجمع، كان المسيح يقول لذلك الفريسي برمز: «**قُبْلَةً لَمْ تُقَبِّلْنِي، وَأَمَّا هِيَ فَمُنْذُ دَخَلْتُ لَمْ تَكُفَّ عَنْ تَقْبِيلِ رِجْلَيَّ**» (لو٧:٤٥).

فإذا كان المجمع قديمًا قد قام ببعض الأشياء التي أمر بها، فإنه لم يفعل ذلك عن محبة، بل بالحري عن خوف، في ذلة وبأسلوب العبيد، لذلك أيضًا، حينما كان الله يُعطيهم الوصايا كان يُهدِّد بصنوف العذاب التي كانت موضوعة في طريقهم والتي كانت تحدث في الحال، لكي يذعنوا للوصايا خشية أن يُصيبهم بعد وقت قليل ما يُصيب العبيد، فلم يكونوا يطيعون بمحبة الأبناء لآبائهم.

وهذا ما كان بولس الرسول يقوله حينما كتب رسالته لأهل رومية: «إِذْ لَمْ تَأْخُذُوا رُوحَ الْعُبُودِيَّةِ أَيْضًا لِلْخَوْفِ بَلْ أَخَذْتُمْ رُوحَ التَّبَنِّي الَّذِي بِهِ نَصْرُخُ: يَا أَبَا الآبُ» (رو٨:١٥).

لأنه كان يقول أيضًا في هذه الوصية: «فَتُحِبُّ الرَّبَّ إِلهَكَ مِنْ كُلِّ قَلبِكَ وَمِنْ كُلِّ نَفْسِكَ وَمِنْ كُلِّ قُوَّتِكَ» (تث٦:٥)

فلم يكن الذين أُعطي لهم الناموس يحفظون تلك الوصية عن محبة، بل عن خوف فقط. حينئذ تكون الوصية شاملة منيعة وعامة. فهو يقول: «مَنْ أَحَبَّ أَبًا أَوْ أُمًّا أَكْثَرَ مِنِّي فَلاَ يَسْتَحِقُّنِي، وَمَنْ أَحَبَّ ابْنًا أَوِ ابْنَةً أَكْثَرَ مِنِّي فَلاَ يَسْتَحِقُّنِي،وَمَنْ لاَ يَأْخُذُ صَلِيبَهُ وَيَتْبَعُنِي فَلاَ يَسْتَحِقُّنِي. مَنْ وَجَدَ حَيَاتَهُ يُضِيعُهَا، وَمَنْ أَضَاعَ حَيَاتَهُ مِنْ أَجْلِي يَجِدُهَا» (مت١٠:٣٧-٣٩)، لأنه يريد أن تكون المحبة المتفرقة بين الناس التي يشترك فيها الوطن والجنس وقرابة الزيجة والصداقة وكل الأشياء الخارجية تكون مجتمعة له وحده.

هذا ما أظهرته الكنيسة حقيقة كابنة، كما يليق بالتبني، وبحماس ألقت بنفسها نحو الأخطار التي واجهتها من أجله، حينما أكَّدت بشارتها بجهاد الاستشهاد وبالعذابات التي تحمَّلتها من أجل التقوى، حتى شملت كل الكرة الأرضية.

فمع أن الأناجيل تنذر بالنار التي لا تُطفأ: «وَإِنْ أَعْثَرَتْكَ يَدُكَ فَاقْطَعْهَا. خَيْرٌ لَكَ أَنْ تَدْخُلَ الْحَيَاةَ أَقْطَعَ مِنْ أَنْ تَكُونَ لَكَ يَدَانِ وَتَمْضِيَ إِلَى جَهَنَّمَ إِلَى النَّارِ الَّتِي لاَ تُطْفَأُ. حَيْثُ دُودُهُمْ لاَ يَمُوتُ وَالنَّارُ لاَ تُطْفَأُ. وَإِنْ أَعْثَرَتْكَ رِجْلُكَ فَاقْطَعْهَا. خَيْرٌ لَكَ أَنْ تَدْخُلَ الْحَيَاةَ أَعْرَجَ مِنْ أَنْ تَكُونَ لَكَ رِجْلاَنِ وَتُطْرَحَ فِي جَهَنَّمَ فِي النَّارِ الَّتِي لاَ تُطْفَأُ. حَيْثُ دُودُهُمْ لاَ يَمُوتُ وَالنَّارُ لاَ تُطْفَأُ. وَإِنْ أَعْثَرَتْكَ عَيْنُكَ فَاقْلَعْهَا. خَيْرٌ لَكَ أَنْ تَدْخُلَ مَلَكُوتَ اللهِ أَعْوَرَ مِنْ أَنْ تَكُونَ لَكَ عَيْنَانِ وَتُطْرَحَ فِي جَهَنَّمَ النَّارِ حَيْثُ دُودُهُمْ لاَ يَمُوتُ وَالنَّارُ لاَ تُطْفَأُ» (مر٩:٤٣-٤٨). فإنها لا تثب بتأثير الخوف بطريقة

العبيد، لأنَّ ما يكون بعيد المسافة لا يبدو للكثيرين مخيفًا. فقد تحمَّلت الكنيسة صنوف العذاب لأجل المسيح عن محبة، وأظهرت نفسها قوية به.

لذلك أيضًا كان يسوع يقول لهذا الفريسي: «**وَأَمَّا هِيَ فَمُنْذُ دَخَلْتُ لَمْ تَكُفَّ عَنْ تَقْبِيلِ رِجْلَيَّ**» (لو٧:٤٥). وهذا أيضًا يُبيِّن مقدار المحبة للمسيح. فلم يقُل: «مَنْ أَحَبَّ أَبًا أَوْ أُمًّا أَكْثَرَ مِنِّي فَلاَ يَسْتَحِقُّنِي، وَمَنْ أَحَبَّ ابْنًا أَوِ ابْنَةً أَكْثَرَ مِنِّي فَلاَ يَسْتَحِقُّنِي» (مت١٠:٣٧).

وهذه صفة أولئك الذين حباهم الله نعمه، لهم أن يقولوا ذلك وهم مطمئنون ويختاروا دون شك ما يرغبون. لأنَّ هذه المرأة بعد أن اشتعلت فيها هذه المحبة، كانت تُقبِّل قدميه وتحني رأسها وهي تمسح الدموع بشعرها، وبعد أن سمع بطرس الرسول «إِنْ كُنْتُ لاَ أَغْسِلُكَ فَلَيْسَ لَكَ مَعِي نَصِيبٌ»، قال خائفًا: «يَا سَيِّدُ، لَيْسَ رِجْلَيَّ فَقَطْ بَلْ أَيْضًا يَدَيَّ وَرَأْسِي» (يو١٣:٨، ٩).

وفي اشتعال محبتها جعلت رأسها الخاطئة تلمس قدميه الإلهيَّيْن، وبينما كانت تغتسل بالماء الذي يأتي مِنَ الدموع التي كانت تسيل وتنزل على أقدام يسوع، كانت رأسها مليئة بكل معرفة، بينما كانت قديمًا لا تشعر بالخطايا التي كانت ترتكبها بسبب العادة القديمة.

فضفيرة الشعر تبدو كأنها شيء لا يُحس، تقطع دون أن تُسبِّب ألمًا في الجسم كما تُسبِّبه الأعضاء إذا قُطعت منه. فيحنما كانت المرأة الخاطئة

تمسح قدميّ ربنا يسوع المسيح بشعرها، كانت تنكر انعدام الشعور. لذلك أيضًا كانت تشعر بغفران خطاياها، وكانت تحب كثيرًا: «**قَدْ غُفِرَتْ خَطَايَاهَا الْكَثِيرَةُ، لأَنَّهَا أَحَبَّتْ كَثِيرًا. وَالَّذِي يُغْفَرُ لَهُ قَلِيلٌ يُحِبُّ قَلِيلاً**» (لو٧:٤٧).

قيل ذلك لتعليم هذا الفريسي وكل الجمع الذين يُفكِّرون في الناموس أن المرأة وهي لم تكمل حق الناموس عليها، كانت تحتاج لمغفرة صغيرة، لأنَّ الذي يشعر شعورًا تامًا يعرف جيدًا أنه يحتاج إلى مغفرة عظيمة، فيُغفَر له كثيرًا، ينظر إلى كل المحبة كأنها قليلة، ويقول ما هو مكتوب في نشيد الأنشاد: «إِنْ أَعْطَى الإِنْسَانُ كُلَّ ثَرْوَةِ بَيْتِهِ بَدَلَ الْمَحَبَّةِ تُحْتَقَرُ احْتِقَارًا» (نش٨:٧).

إذن إن كان أحد يريد أن يُحب المسيح، فلا يكن ذلك بمحبة غير فعَّالة، بل ليمسحه بعطر الفضائل، مُلازِمًا كل وصية، وليس فقط مُلازِمًا هذه الوصية وغير مُلازِم لتلك، لأنَّ الطيب شامل لكل الوصايا. هكذا أيضًا يكون عبير رئيس الكهنة والمُعلِّم. فموسى كان يسمع الله يقول: «وَأَنْتَ تَأْخُذُ لَكَ أَفْخَرَ الأَطْيَابِ. مُرًّا قَاطِرًا خَمْسَ مِئَةِ شَاقِلٍ وَقِرْفَةً عَطِرَةً نِصْفَ ذلِكَ: مِئَتَيْنِ وَخَمْسِينَ وَقَصَبَ الذَّرِيرَةِ مِئَتَيْنِ وَخَمْسِينَ وَسَلِيخَةً خَمْسَ مِئَةٍ بِشَاقِلِ الْقُدْسِ وَمِنْ زَيْتِ الزَّيْتُونِ هِينًا.[٦١] وَتَصْنَعُهُ دُهْنًا مُقَدَّسًا لِلْمَسْحَةِ. عِطْرَ عِطَارَةٍ صَنْعَةَ الْعَطَّارِ. دُهْنًا مُقَدَّسًا لِلْمَسْحَةِ يَكُونُ ... وَتُكَلِّمُ بَنِي

(٦١) نوع من المعايير.

إِسْرَائِيلَ قَائِلاً: يَكُونُ هَذَا لِي دُهْنًا مُقَدَّسًا لِلْمَسْحَةِ فِي أَجْيَالِكُمْ» (خر٣٠: ٢٣-٢٥، ٣١).

يجب إذن علينا كما أننا قد مُسحنا، أن نجعل أيضًا الأطياب المذكورة في الناموس تتضوع من كلمة التعليم وليس من زهرة أخرى غريبة، فلا يبدو لها رائحة مُصطنعة، ولا نأتي بها إلى خزي دفين وفق روايات الوثنيين، لأنَّ مثل هذه الأساليب ليس فيها شذى الفضائل، بل بالحري سم مُميت. ويجب أيضًا أن تكون هذه العطور المذكورة في الناموس موزونة بالموازين التي يذكرها العارفون بفن العطارة والكهنة مُعلِّمو الأرثوذكسية، وأن نطرد بعيدًا ما يخرج عن سلطانهم ونعتبره كُفرًا، حتى وإن كان الذي يقوله آتيًا مِنَ السماء، كما يقول بولس الرسول: « وَلَكِنْ إِنْ بَشَّرْنَاكُمْ نَحْنُ أَوْ مَلاَكٌ مِنَ السَّمَاءِ بِغَيْرِ مَا بَشَّرْنَاكُمْ، فَلْيَكُنْ «أَنَاثِيمَا»!» (غلا١: ٨)

وبهذه الطريقة يمتزج عطر التعليم الخالي مِنَ التغيير بعطر أعمال السامعين، ونكون جميعًا حسب قول بولس الرسول: «**لأَنَّنَا رَائِحَةُ الْمَسِيحِ الذَّكِيَّةِ**» (٢كو٢: ١٥).

له المجد إلى أبد الدهور آمين.



القديسان الشهيدان

سَرجيُوس (أبو سرجة)

وواخُس

سلسلة مقالات القديس الأنبا ساويرس
البطريرك الأنطاكي

١٠

الشابان الشهيدان

سرجيوس (أبو سرجة) وواخُس

استبقى المؤمنون القديس ساويرس في قنسرين Kinnesrin للاحتفال بالقديس سرجيوس الشهيد، فأخذ يصف هذا الاحتفال، ويُبيِّن موضوع هذا الشهيد وصديقه الشهيد واخُس اللذان فازا بإكليل الشهادة.

مُترجم عن الفرنسية مِنَ الكتاب الثاني مِنَ الجزء الرابع من مجموعة

PATROLOGIA ORIENTALIS

R. Graffin – F. Nau
Les Homélies Cathédrales de Sévère d'Antioche
Traduction syriaque de Jacques d'Édesse
Homélie LVII
Publié et traduite par Rubens Duval,
Professeur au collège de France, Paris

مليكه حبيب يوسف يوسف حبيب

١٩٦٩م

مقدمة





للقديس ساويرس بطريرك أنطاكية مؤلَّفات مُنوَّعة عديدة تختص بسير القديسين. ومنها سيرة القديسَيْن الشابَيْن الشهيدَيْن سرجيوس وصديقه واخُس، ونرجو مِنَ الرب يسوع أن تكون هذه السيرة نافعة لقارئيها وسامعيها. وتُعيِّد الكنيسة القبطية للقديس واخوس في ٤ بابه، وللقديس سرجيوس في ١٠ منه.

كان القديس سرجيوس شابًا برتبة قائد في بلاط الملك مكسيميانوس[٦٢] ولما رأى هذا الملك أنَّ القديس وصديقه واخُس يُصِرَّان على الإيمان بالمسيح أرسلهما إلى أنطيوخس حاكم سوريا ليُعذِّبهما. فعذَّب القديس واخُس عذابًا شديدًا ثم أمر بذبحه، فذبحوه وطرحوه في النهر مُثقلاً بحجارة، فقذفته المياه على شاطئ قريب من مساكن بعض القديسين والنسَّاك،

(٦٢) كان قائدًا للجيش في عهد دقلديانوس، ثم أصبح قيصرًا على بلاد الغرب سنة ٢٨٦م، وقد أتى بنفسه إلى مصر وأشعل نار الاضطهاد ضد المسيحيين، وبقى إلى سنة ٣٠٥م حيث اعتزل عقب اعتزال دقلديانوس.

وتقدَّم بعضهم حيث كان جسد القديس لحمله ودفنه، ولشد ما كانت دهشتهم عندما وجدوا عقابًا وأسدًا يحرسانه، وأخذوا جسده بكرامة عظيمة.

وظل القديس سرجيوس حزينًا على صديقه إلى أن رآه في رؤيا مُنيرًا ومُستريحًا، فتعزَّت نفسه كثيرًا. وبعد هذا أمر الحاكم أن يُسمَّر بالمسامير الطويلة في رجليه، فسمروه وأرسلوه إلى الرصافة (إحدى بلاد الشام) مربوطًا بأذناب الخيل، فكان يجري دمه على الأرض إلى أن صادفوا في الطريق جارية عذراء، فاستقوا منها ماء. ولما رأت الجارية القديس أسفت عليه ورقَّت لشبابه وجمال منظره، فقال لها القديس: "إتبعيني إلى الرصافة لتأخذي جسدي"، فتبعته وهناك أمر الحاكم بقطع رأسه، فتقدَّمت الجارية وأخذت الدم الذي خرج من عنقه المقدس في جزَّة مِنَ الصوف.

أما جسده فحُفظ إلى أن انقضى زمان عبادة الأوثان حيث بنوا له بيعة عظيمة بالرصافة، حضر تأسيسها خمسة عشر أسقفًا.

وتوجد في القاهرة بمصر القديمة كنيسة شهيرة باسم القديس سرجيوس يُطلقون عليها كنيسة (أبو سرجة) من أقدم الكنائس الأثرية، وبها المغارة الأثرية أسفل الهيكل القبلي حيث هربت العائلة المقدسة.



المقال السابع والخمسون

الذين يستقبلون الغرباء استقبال الأحبَّاء الأصدقاء، ويجمعون أشهر الأطعمة وأفضلها، ينتهزون فرصة الوليمة لكي يستقبلوا الذين أتوا إليهم. هكذا صنع إبراهيم حينما استقبل الثلاثة ملائكة، أو بالحري الله نفسه الذي ظهر في شكل الملائكة، وفي شكل الرجال، وهو في الصورة يُعرِّفنا بأنه جوهر واحد في ثلاثة أقانيم.

وهذا ما بيَّنه الكتاب المقدس في قوله: «وَظَهَرَ لَهُ الرَّبُّ عِنْدَ بَلُّوطَاتِ مَمْرَا وَهُوَ جَالِسٌ فِي بَابِ الْخَيْمَةِ وَقْتَ حَرِّ النَّهَارِ فَرَفَعَ عَيْنَيْهِ وَنَظَرَ وَإِذَا ثَلاَثَةُ رِجَالٍ وَاقِفُونَ لَدَيْهِ. فَلَمَّا نَظَرَ رَكَضَ لاِسْتِقْبَالِهِمْ مِنْ بَابِ الْخَيْمَةِ وَسَجَدَ إِلَى الأَرْضِ وَقَالَ: يَا سَيِّدُ إِنْ كُنْتُ قَدْ وَجَدْتُ نِعْمَةً فِي عَيْنَيْكَ فَلاَ تَتَجَاوَزْ عَبْدَكَ» (تك١٨:١-٣).

ركض نحوهم وهو يُخاطب الثلاثة كأنه يُخاطِب واحدًا. وفي الحال بعد أن غيَّر شكل الخِطاب، كان يُكلِّمهم قائلاً: «لِيُؤْخَذْ قَلِيلُ مَاءٍ وَاغْسِلُوا أَرْجُلَكُمْ وَاتَّكِئُوا تَحْتَ الشَّجَرَةِ» (تك١٨:٤). وإذ توجَّه للمُقابلة كان يُخاطِب الله، رب الكل، وكان الله يرد عليه.

لكن ما جعلني أتكلم هو أن صديق الغرباء هذا كان يأمر سريعًا أن تُعِد الخبز، بينما كان هو نفسه، كما لو كان هذا من عمله، يتعجَّل طريقه إلى البقر، ولم يُعطِ أوامره لأحد، مع أنه كان يأتمر بأمره ثلثمائة وثمانية

عشر عبدًا مولودين في البيت فضلاً عن الذين كان اشتراهم بماله. «**ثُمَّ رَكَضَ إِبْرَاهِيمُ إِلَى الْبَقَرِ وَأَخَذَ عِجْلاً رَخْصًا وَجَيِّدًا وَأَعْطَاهُ لِلْغُلاَمِ فَأَسْرَعَ لِيَعْمَلَهُ**» (تك١٨:٧).

قال القديس: أنتم أيضًا، قد فعلتم مثل إبراهيم باحتفالكم بمجيء شخصي الحقير، وبجمعكم من كل جانب الأطعمة الروحانية التي تستطيع أن تُغذِّي الروح بفهم. لقد أعددتم مائدة فخمة بخدمات المزامير، وبالصلوات، وبالمثابرة على الحضور إلى الكنيسة، وبالتناول مِنَ المائدة المقدسة. واستبقيتمونا ولم تسمحوا أبدًا أن نعود إلى مقرنا قبل أن نشترك في هذه الوليمة المُبهِجة، ونفرح معكم ونحتفل في نفس الوقت معكم بتذكار جهاد القديس سرجيوس الشهيد.

كيف إذًا أردُّ على هذه الدعوة وهذه الوليمة الرسمية وإلى عيد هذا القديس الجديد بكل إعجاب؟ أأظل صامتًا دون أن آتي للذين دعوني ببعض الكلمات التي تُكمِّل العيد، وتضيف إليه البهجة والجلال، حتى لا أشابه بعض الشرهين مِنَ المدعوين أو المُتطفِّلين الذين يتعلقون بالموائد ولا هَمّ لهم إلا ملء بطونهم بعد الشبع. فإنَّ أمثال هؤلاء لا يرفعون نظرهم قط نحو السموات ولا يحمدون من أعطى الأطعمة النافعة اللائقة بمثل هذا التنوع وهذا الاختلاف لحفظ الحياة، وربما أيضًا، إذا أردت أن الركون إلى الصمت، لا تسمح لي روعة معارك الشهيد.

يبدو لي أني أرى مَن تذكره حديثًا، أبان شهادته، أراه يقف أمام مكسيميان الطاغية مع واخس الذي كان يقوم بنفس الخدمة، وكان نظيره في الجهاد. مع واخس لا نُفرِّق في مقالنا بين الواحد والآخر، فقد جمعهما إكليل الشهادة معًا. تشابها في الشكل والعظمة. كلاهما كان شابًا كما كانت الروح أيضًا. كانا يخدمان ويُعدَّان في صفوف المُحاربين عند الملك، ويشغلان المكان الأول، فكانا برتبة قائد **وكان سرجيوس رئيسًا وواخس مساعده تربطهما روح التقوى الواحد، يُدعيان مسيحيَّيْن، وكانا مسيحيَّيْن بالفعل، وقد خاضا نفس المعركة لأجل الحق.**

كتب بعض الأفراد للملك ضدهما يتهمونهما ويدينونهما أنهما لا يذبحان للأوثان ولا يُقدِّمان تقدمة الخمر للشياطين، فاستشاط الملك غيظًا الذي كان ميالاً للانتقام، وقالوا له: "أنه بصداقته توصلا إلى مثل هذه الجرأة". ولم يُصدِّق الملك في البداية، وقادهما إلى هيكل زفس الإله النجس ذو الاسم الكاذب. وأكل مع وزرائه مِنَ الذبائح الدنسة وحاول أن يُغري هذَيْن البطلَيْن بالأكل من هذا الطعام الدنس.

فسمع منهما الرد أنه لا يجب أن نذبح للأصنام الميِّتة أو لصور الشياطين الأشرار الذين لهم فم ولا يتكلمون، وآذان ولا يسمعون. وبمثل هذه الأشياء كان النبي المُرتِّل يستهزئ بها من عدم إحساسها وانعدام حركتها: «لَهَا أَفْوَاهٌ وَلاَ تَتَكَلَّمُ. لَهَا أَعْيُنٌ وَلاَ تُبْصِرُ. لَهَا آذَانٌ وَلاَ تَسْمَعُ. كَذَلِكَ لَيْسَ فِي أَفْوَاهِهَا نَفَسٌ!» (مز١٣٥: ١٦، ١٧).

فاستشاط غضبًا في تجبُّره وكبريائه، وأمر أن تُقطَع أحزمتهما وأن تُرفع عن رقبتيهما الحُلي الذهبية التي جرت العادة أن تُعلَّق على أعناق المُحاربين الذين يتقدمون إلى الملوك. وأمر أن يُقادا إلى السوق بملابس النساء. لكنهما في هذا كانا يعرفان كيف يُعارضانه بأعمالهما ذاتهما. فهذان المُعترفان اللذان لا يُقهران من كل جانب قد تعلَّما كيف تكون المُعاملة مع الخبيث، كما يقول داود النبي: «مَعَ الطَّاهِرِ تَكُونُ طَاهِرًا. وَمَعَ الأَعْوَجِ تَكُونُ مُلْتَوِيًا» (مز١٨:٢٦) وأفادا من حيل المُخادِع وتعسُّفه.

قالا: "يا مَنْ تُحارِب الله، أتظن أنك تثبط أرواحنا بشكل أنثى؟ تستطيع بالقوة أن تلبس الأجساد ملابس النساء، ولكنك لن تُلبِس أرواحنا المتوثِّبة رداء الجُبن. ولنُرينَّكَ بالوقائع اعتقادنا في الوصية التي نطق بها الله بواسطة موسى النبي: «لا يَكُنْ مَتَاعُ رَجُلٍ عَلى امْرَأَةٍ وَلا يَلبِسْ رَجُلٌ ثَوْبَ امْرَأَةٍ لأَنَّ كُل مَنْ يَعْمَلُ ذَلِكَ مَكْرُوهٌ لدَى الرَّبِّ إِلهِكَ» (تث٢٢:٥). وذلك لا يعوق النساء – أغلب النساء خاض المعارك كالرجال من أجل الديانة، وحمل إكليل النصر على المُخادِع، فكيف يحول بيننا هذا الرداء أيها المهزار؟ ألا ترى أنه منفصل عن الجسد تمامًا لأنه غريب عنه ونحن بعيدون عن أن يضرنا إذ نرتفع نحو فكرة سامية، ولا يغرب عن بالنا أن نقتدي بربنا ومُخلصنا يسوع المسيح الذي حين ألبسه اليهود الكفار إكليل الشوك وهم يستهزئون به، أعلن في البداية برمز، السر العميق المُخفى الذي به أخذ على عاتقه، مثل خروف، خطية العالم، ومحا تلك الخطية التي

كانت قد أنبتت لنا الأشواك والحسك كُليَّة. هكذا نحن أيضًا، بشجاعة في صبر وجهاد الاستشهاد لا نبالي بالميوعة والخوف ونحن في ملابس النساء هذه. لأنَّ المسيح يُمارس سلطان الله الآب بمظاهر وطرق شبيهة".

بينما كان هذان البطلان يتأملان ويقولان هذه الكلمات وغيرها من نفس النوع، وهم يقودونهما إلى وسط المدينة، ناداهما الطاغية فجأة، وأخذ يُكلِّمهما كأنهما قد زلا، وأخذ يستهزئ بسر الديانة العظيم. قال: "أي حاجة لكما، أيها العديمي الفهم، أن تعبدا ابن النجار الذي حكم عليه اليهود بعذاب الصليب لأنه كان يتعدّى الناموس ويثير الاضطرابات في شعبهم؟".

عند سماع هذه الكلمات، ردّ القديسان – وكانا يُصلِّيان – ردًا مُفحمًا بطريقة إلهية: "**لم يولد المسيح مثل آلهتكم الجديرة بالسخرية البائسة، فإنها مولودة مِنَ الزنا. لكن لأنَّه الله، فهو حقًا ابن النجار، هو كلمة وحكمة الله الآب، هو الحياة ذاتها، وهو مولود مِنَ الآب قبل إنشاء العالم بدون جسد وغير قابل للآلام. وقد خلقنا وخلق السماء والأرض وخلق مِنَ العدم كل خليقة ... وأراد أن يصير إنسانًا دون استحالة وبإرادته لأجلنا نحن الذين كنا ساقطين بسبب الخطية، ولد مِنَ الروح القدس ومن مريم العذراء دون استحالة ودون خطية. وباحتماله الموت بالجسد على الصليب بإرادته، أعلمنا أن تحمّل هذا الموت لم يكن لنفسه لكن لأجلنا، بقيامته من بين الأموات في اليوم الثالث فك رباطات الجحيم، والدليل على ذلك أنَّ كثيرين من أجساد الصديقين الذين كانوا مدفونين قاموا وأسرعوا نحو المدينة المقدسة**".

عند سماع هذه الكلمات، ظل الطاغية كالأخرس لا صوت له، وكان كمن أخذه دوار أو أصابه الشلل بسبب هذه المعلومات اللاهوتية. فلم يدر ماذا يفعل، فقد غلبته شجاعتهما. فأمر أن يُقادا إلى منطقة من بلاد العجم كانوا يسمونها وادي الفرات، فيُسلَّما إلى أنطيوخس الذي كان رئيسًا للقوات في هذا البلد، وكان قد دُعي ليتولى القيادة. وكان هذا الملك الكافر يظن أنه سوف يحيق بهما الخزي والمهانة.

وأطاع أنطيوخس الأمر الصادر إليه بقدر الإمكان، وسألهما وفحص سلوكهما بالتحقيق والاختبارات. ولما رأى أن ذلك لا يثنيهما عن رأيهما، أمر أن يوضع القديس سرجيوس في السجن فورًا. أما المغبوط واخس فكان الأمر أن يضربوه على بطنه وعلى ظهره بأعصاب البقر. وبعد أن تحمَّل الضربات العديدة، وتكاد ألا تُحصَى، دون أن يضعف في روحه أو ينطق لسانه بكلمة واحدة تدل على الخور أو الجُبن، **أسلم الشهيد أخيرًا روحه المُكلَّلة للمسيح صاحب الجهاد**، وألقوا جسده في الصحراء. وكانت الوحوش الضارية تحرسه بطريقة معجزة فلم يصبه ضرر إلى أن جاء بعض الإخوة الأبرار الذين اعتادوا ممارسة أعمال الرحمة الإلهية ولفّوه في كفن ودفنوه في القبر.

أما سرجيوس فقد خاض معارك أسمى، بينما كان يظهر واخس له أثناء الليل ويدعوه إلى مساكن الطوباويين ويبث فيه روح الشجاعة التي لا

يمكن التعبير عنها والفرح. وقد اخترع هذا القاضي البالغ القسوة نوعًا مِنَ العذاب المُر يصعب احتماله. فقد جهَّز أحذية بها مسامير مُدبَّبة، وأمر أن توضع رجلي القديس فيها، وأن يركض أما عربته من قلعة إلى أخرى تبعد عنها تسعة أميال. وكان سرجيوس يفعل ذلك بتهليل قائلاً حسب إرشادات بولس الرسول: «وَحَاذِينَ أَرْجُلَكُمْ بِاسْتِعْدَادِ إِنْجِيلِ السَّلاَمِ» (أف٦:١٥)، كثير عليّ المُشابهة، فإنَّ قدمي المسيح مُخلِّصنا اخترقتهما المسامير بسببي. إني أئن أيضًا بسبب عدم تشابه دق المسامير، فإن يدي لم تُسمَّرا أيضًا مثلما سُمِّرت يداه.

وبعد أن تقوّى الشهيد بهذه الكلمات التي كان يستند عليها بثقة وبقوة كالعصا، تقدَّم وأكمل سعيه في الطريق المرسوم. وفي الليل شُفي بنعمة الله من جراحات قدميه، وكانا في حالة سيئة من غزات المسامير العديدة المؤلمة وكانت تُسبِّب ألمًا مُبرحًا لأنها كنت مسامير حادة ومستقيمة.

وبينما كان يجب على هذا القائد عديم الشفقة والرحمة أكثر مِنَ الحيوان المفترس، أن يؤمن بواسطة هذه المعجزة، زاد في حماقته. وأمر الطاغية أن يركض القديس النشيط وفي رجليه نفس الأحذية بنفس الطريقة هذه المسافة. أما القديس فأسرع في التنفيذ وهو يقول: "أركض الآن أيضًا مثلما أركض أمام مذبح المسيح، «لِمَاذَا أَخَافُ فِي أَيَّامِ الشَّرِّ عِنْدَمَا يُحِيطُ بِي إِثْمُ مُتَعَقِّبِيَّ؟» (مز٤٩:٥) حسب قول المُرتل، أكون جبانًا لو فكّرت أني أمشي على الأرض وليس في الطريق الذي يؤدي إلى السماء.

وبعد أن أنهى سعيه مثل بولس الرسول، وحفظ الإيمان، قطعوا رأسه، وأنهى جهاده. في مكان يدعى "**رصافا**" يرقد تراب جسده المُكرَّم، وتجرى منه آلاف المعجزات والأشفية. لقد قدَّس كل الطريق الذي يؤدي إليه بالدم الذي سال من قدميه، وقد أعمى بقطرات هذا الدم عين الثعبان الشريرة التي ترقبنا «وَأَضَعُ عَدَاوَةً بَيْنَكِ وَبَيْنَ الْمَرْأَةِ وَبَيْنَ نَسْلِكِ وَنَسْلِهَا. هُوَ يَسْحَقُ رَأْسَكِ وَأَنْتِ تَسْحَقِينَ عَقِبَهُ» (تك٣:١٥).

نحن إذًا، حينما يزرع الشيطان في قلوبنا أفكارًا شريرة، يجب علينا أن نُراقِب المبادئ كما يُراقِب الرأس الأقدام، فنراقب أفكارنا الغير معروفة، فإنه بواسطة الكلمات والأعمال الخارجية يدفعنا العدو بمحبة اللذة إلى الخطية ويجعلنا نهلك. ويهرع سكان البلد بنشاط ويقظة من عبودية الشيطان، فلا تضرّهم في شيء، ويذهبون نحو النُصب المُكرَّم الشريف الذي لشهادة القديس سرجيوس ويأخذون على أنفسهم معرفة الله التي في المسيح.

ترون أيها الأصدقاء الأعزاء: ما هي أغذية الوليمة التي استبقيتموني لأجلها، اظهروا إذن هذه الوليمة بطريقة كاملة. امنحوني صلواتكم، بطلبكم مِنَ المسيح الله القادر على كل شيء أن يُهيء لي عودًا حسنًا مرضيًا لديه إلى مدينة أنطاكية. **له المجد والسلطان مع الآب والروح القدس الآن وكل أوان وإلى الأبد، آمين.**



القديسة الشهيدة

دروسيس ابنة الإمبراطور

الروماني تراجان

سلسلة مقالات القديس أنبا ساويرس
البطريرك الأنطاكى

القـــديسة الشهيـــدة دروسيس

ابنة الإمبراطور الروماني تراجان

عيدها ١٤ ديسمبر في أنطاكية، و١٢ سبتمبر عند اليونانيين

المقال رقم ١٠٠ مُترجم عن الفرنسية مِنَ الكتاب الثاني مِنَ الجزء الثاني والعشرين من مجموعة

PATROLOGIA ORIENTALIS

R. Graffin – F. Nau

Les Homélies Cathédrales de Sévère d'Antioche

Traduction Syriaque de Jacques d'Édesse

Editées et traduites en français par Ignagio Guidi.

مليكه حبيب يوسف يوسف حبيب

١٩٦٩م

إلى الذين يسألون: ما هي فعالية الكلمة الإلهية «تُوبُوا، لأَنَّهُ قَدِ اقْتَرَبَ مَلَكُوتُ السَّماوَاتِ» (مت٢:٥) يجدر بنا أن نُعرِّفهم بالعذراء دروسيس الشجاعة جدًا، ونمسك عن الكلام، لأنَّ ما يمكن أن تراه أمام عينيك لا داعي لإظهاره باللسان.

فإنه حينما ترى شابة صغيرة جدًا تجاوزت مرحلة الطفولة، تربت فوق البرفير الملكي، هي ابنة تراجان الذي تملَّك على الرومان، تربت في القصر الملكي، ولها السيادة على صولجان الملك الأبوي بصفتها وارثة، وكانت تزدان بكل زهور هذا العالم، لها كل الخيرات، تفيض عليها كل أنواع المباهج التي تفتن الحواس وتجعلها تهيم اشتياقًا؛ حينما ترى فتاة كهذه تركض متعدّية كل هذا كأنه تراب أو حلم: وتسمو فوق الأشياء الأرضية متَّجهة إلى نداء المسيح مُباشرة، فترتبط كلية بالرجاء السمائي والمسكن الطوباوي، أفلا تقول أنَّ ملكوت السموات قد اقترب؟ بلى إنه قريب وحاضر.

وبخصوص الذين هم عبيد للملذَّات المُخزية، فهُم تحت سلطان الخطية، حسبما كتبه بولس الرسول إلى أهل رومية: «إِذًا لاَ تَمْلِكَنَّ الْخَطِيَّةُ فِي جَسَدِكُمُ الْمَائِتِ لِكَيْ تُطِيعُوهَا فِي شَهَوَاتِهِ» (رو٦:١٢)، وبنفس الطريقة فإنَّ الذين تتملك الأفكار الإلهية السماوية على عقولهم، الذين بحسب كلمة بولس الرسول نفسه قد قدَّموا لله أعضاءهم كأسلحة بر، وهكذا أيضًا أعمال الروح لإتمام أوامره تعالى للجيوش السمائية، وفيها يُرتِّل داود النبي:

«بَارِكُوا الرَّبَّ يَا جَمِيعَ جُنُودِهِ خُدَّامَهُ الْعَامِلِينَ مَرْضَاتَهُ» (مز١٠٣:٢١)، وبينما يحيون هذه الحياة الأرضية يجعلون ملكوت السموات منهم قريبًا ويسلكون تحت سلطانه سلوك الأرواح السمائية العقلية، يتجهون إليه وهم يحملونه في داخلهم ويحيطون به؛ وهذا ما قاله مُخلِّصنا لتلاميذه: «هَا مَلَكُوتُ اللهِ دَاخِلَكُمْ» (لو١٧:٢١).

إنَّ الصلاة النموذجية العظيمة اللائقة بالله التي تركها لنا مُخلِّصنا تشهد أيضًا أنَّ ملكوت الله وملكوت السموات يتضمن هذا: أن نريد ونعمل الأشياء السماوية وكل ما يريده الله، وأن نمزج أفكارنا بمشيئة الله. لأنّ بعد أن نقول: «لِيَأْتِ مَلَكُوتُكَ» نقول: «لِتَكُنْ مَشِيئَتُكَ كَمَا فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ عَلَى الأَرْضِ» (مت٦:١٠) مُظهرين أنَّ ملكوت الله هو هذا: مثل مدينة تحكمها القوانين حكمًا حسنًا، تنقاد الروح بالأشياء التي تُرضِي الله وتكون هذه الأشياء مُتسلِّطة عليها، وتكون بجملتها تحت حكمه وحده خاضعة لربوبيته، لا تفكر في شيء غريب؛ حتى تكون المشيئة الإلهية مُكمَّلة أيضًا على الأرض بواسطتنا، كما هي في السماء بواسطة الجيوش السمائية بها؛ وحتى أيضًا في هذا ليس هناك سوى ملكوت واحد يأتي مِنَ العلا إلى الأرضيات، ومن الأرضيات إلى العلا، راسخ تسوده الوحدة في الطاعة وتوافق المشتركين حسب المُراد من قولنا: «**لِيَأْتِ مَلَكُوتُكَ. لِتَكُنْ مَشِيئَتُكَ كَمَا فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ عَلَى الأَرْضِ**».

حينما تشترك دروسيس في هذا الملكوت وتستضيء بنور مشيئة الله دون أن تشبع منه، وتدوس بقدميها المملكة الأرضية، فهي تقول: ''**توبوا لأنكم ترون أنَّ ملكوت السموات قد تملَّك فيّ، وهو كائن حالاً بينكم**''. تلك التي كانت سيدة الأرض، التي ملكت كل الأرض، أي شيء آخر كان يستطيع أن يقنعها بأن تحتقر فجأة كل شيء، سوى هذا المسكن وهذه الراحة السمائية؟

وكان كل مَن يرى ذلك يتعجب ويُدهَش في قرارة نفسه، فيُقر قائلاً: ''حقًا إذًا يعترف المسيحيون بملكوت السموات''، حتى مَن كانوا في هذه الحياة الدنيا لا عربون لرجاء الآخرة لديهم، ولم يستضيئوا بنور سماوي إلهي، غير سالكين بالروح، لم يتركوا الأرضيات لينقادوا إلى ما هو فوق قائمين بطريقة ما في المساكن العلوية.

ليست الملكات مَن يقنعن بالترجي بدون أساس بدل البرفير والسلطان الملكي، بل يجب الاعتقاد أنَّ المسيح يُظهِر بالمرئيات حقيقة كلماته التي هي أيضًا فوق الإيمان. أن تترك فتاة شابة بيت أبويها مأخوذة بجمال شاب أو بالأموال العظيمة والمتعة، أو بغرور العالم والفتنة والإغراء ولا سيما السعي وراء الجنس اللطيف، فهذا يمكن أن نجده بسهولة في الروايات القديمة وكذلك في الزمان الغابر؛ وأيضًا في زمننا توجد أمثلة عديدة شريرة من هذا النوع. أما أن تصل دروسيس الشُجاعة بأعمال الإدارة، إلى ديانة غير مألوفة في خاصتها، وإلى إيمان المسيحيين الذي يتطلب منها أن تحتقر آلهة

عديدة مشهورة غير موجودة، ذلك الذي يعلم العفة والقوة في سائر طرق الكمال، ولو أدى الأمر أن يكون مُضطهدًا مُلاحقًا مُعذَّبًا، فهذا هو العسير.

فى هذه المُعاناة الشاقة لا يقتصر الأمر أن يُقاسي منها إيمان المسيحيين فقط من ناحية القوانين والملوك وذوي الحكم والسلطان، أو من ناحية الذين يُنظِّمون اجتماعات الجنود أو جريًا على عادات الأجداد المُنتشرة في كل مكان وعبادة الشياطين، وقد تسلَّطوا حتى كأنهم يحكمون العالم؛ بل إن ما همَّت بفعلِه دروسيس كان من عمل هذه النار التي قال عنها المسيح إلهنا في الأناجيل: «جِئْتُ لأُلْقِيَ نَارًا عَلَى الأَرْضِ، فَمَاذَا أُرِيدُ لَوِ اضْطَرَمَتْ؟» (لو١٢:٤٩).

هذه النار حينما سرت في روح الشهيدة، أشعلت وأحرقت إذًا كل الأفكار الأرضية الدنيوية مثل القش، وبعد أن استحوذت على كل عقلها تحوطه مثل العليقة التي رآها موسى النبي مُشتعلة ولا تُحرَق، «ظَهَرَ لَهُ مَلاَكُ الرَّبِّ بِلَهِيبِ نَارٍ مِنْ وَسَطِ عُلَّيْقَةٍ فَنَظَرَ وَإِذَا الْعُلَّيْقَةُ تَتَوَقَّدُ بِالنَّارِ وَالْعُلَّيْقَةُ لَمْ تَكُنْ تَحْتَرِقُ» (خر٣:٢) بعد أن أصعدت إلى فوق لهبًا يبرق، رفعت الفتاة الشابة كطائر في الهواء، ورفعتها إلى السماء؛ منذ ذلك الحين كانت منشغلة كلية ومُرتبطة بالجمال الأسمى، فكانت لا تُبالي بما يجذبها نحو الأرض.

حينما نتأمل بعناية في هذه الأمور، نُعجَب بالتأكيد كم قوَّى ربنا يسوع المسيح طبيعتنا وثبَّتها. كانت حواء فعلاً مخلوقة أولاً «وَبَنَى الرَّبُّ الإِلَهُ الضِّلْعَ الَّتِي أَخَذَهَا مِنْ آدَمَ امْرَأَةً وَأَحْضَرَهَا إِلَى آدَمَ» (تك٢:٢٢) أو حسب قول الكتاب كانت الأولى التي بناها الله، لأنَّ لفظ البناء يدل على أن الخليقة كانت شيئًا صلبًا ثابتًا، لم يجعلها ضعيفة، أعصابها متوترة، بل قوية. وكان لها كالرجال باكورة الطبيعة، تحظى بالمسكن في الفردوس الإلهي، سعيدة خالية مِنَ القلق، تتغذى بحرية من كل الأشجار؛ لكن حرَّم عليها أن تتذوق ثمرة شجرة واحدة، لكي يمتحن الله حرّية روحها وتقبُّلها للطاعة.

وبينما هي في هذه الحالة خدعها المُنافِق وأقنعها بأن تأكل بالرغم مِنَ الوصية، ولما سقطت بسبب ميل اللذة العارم، جذبها إلى الأرض، وبعد أن اتجهت نحو الجسد جعلها عبدة الخطية. لهذا السبب سمعت مع آدم الذي اشترك معها في تعدِّي الوصية: «بِعَرَقِ وَجْهِكَ تَأْكُلُ خُبْزًا حَتَّى تَعُودَ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي أُخِذْتَ مِنْهَا. لأَنَّكَ تُرَابٌ وَإِلَى تُرَابٍ تَعُودُ» (تك٣:١٩).

لكن دروسيس العجيبة حقًا كانت من نفس الطبيعة مثلنا، تلك الطبيعة التي رزحت طويلاً تحت الخطية وداستها الشياطين كما يقول داود النبي: «شَاخَتْ مِنْ كُلِّ مُضَايِقِيَّ» (مز٦:٧)، وكانت ضعيفة واهنة بالنسبة لأعمال الكمال، كانت تعيش عيشة الترف والبذخ في ميوعة واسترخاء، وكما كان الأمر في الفردوس فإنه في ملذات هذا العالم ومباهجه الكاذبة

الفانية الشبيهة بالحلم، في مقامها في القصر الملكي الذي كان لأبيها، لم ترَ هناك أي غرس صالح يرفعها إلى الله، فيه متعة تتفق مع الناموس. في هذه الحالة لم يخدعها الشيطان ولم يحركها وهو الذي يسرق بمهارة كل الناس حتى الذين يفتخرون في قلبهم أنهم لا يُقهَرون.

لأنه أي شيء كان ناقصًا مِنَ الأشياء التي تستطيع أن تحارب النفس الثابتة؟ هلا يُحارب النفس رونق الذهب ووفرته؟ هلا يُحارب النفس ويجذبها إليه بريق الحجارة الكريمة ذات الألوان المتنوعة التي تستطيع أن تغري حتى العيون التي تنظر بعفة؟

ومن ناحية أخرى هلا تهب لمُحاربة الروح فخامة الملابس الملكية. وعظمة وجمال المباني المُشيَّدة. ذلك الجمال الذي يرتفع مِنَ الأرض حتى السقف ويُنافس منظر الحقول المزدهرة؟

وقال مرة نبوخذ نصر ملك البابليين وهو مُنتفخ في روحه بمثل هذه الأشياء: «أَلَيْسَتْ هَذِهِ بَابِلَ الْعَظِيمَةَ الَّتِي بَنَيْتُهَا لِبَيْتِ الْمُلْكِ بِقُوَّةِ اقْتِدَارِي وَلِجَلاَلِ مَجْدِي!» (دا٤:٣٠). وفى الحال بسبب كبريائه وعجرفة كلماته، حُكم عليه بالبلاهة وجنون أفكاره؛ هكذا يستطيع ذلك أن يسقط مِنَ الخير حتى الفكر الثابت!

أأتكلم عن المائدة التي كانت تزخر بالولائم الرسمية يجمعون بها الأطعمة من كل مكان، مِنَ الأرض ومن البحر، والتى تثير الشهية بندرتها

وصعوبة العثور عليها، وتجعل البطن تشتاق إليها حتى تجذب المعتدل المتقشِّف، فما بالك بالشرِهْ.

هل أذكر العدد الكبير للتابعين، نخبة المجد الذين يأتون من كل أمة ومن كل جنس، وخدمة جناح النساء، وكل ما بالداخل يملأ الخيال بالعجب وبالخوف، وتقليد الخادمات من نفس السن، والزينة والحُلي، تلك الأشياء التي تحبها النساء وتبتغيها لدرجة أنه أيسر عليهن أن ينسين استنشاق الهواء أو الأكل أو الشرب من أن ينسيها؟

وهذا ما يشهد به أيضًا إرميا النبي إذ يكتب: «هَلْ تَنْسَى عَذْرَاءُ زِينَتَهَا أَوْ عَرُوسٌ مَنَاطِقَهَا؟ أَمَّا شَعْبِي فَقَدْ نَسِيَنِي أَيَّامًا بِلاَ عَدَدٍ» (إر٢:٣٢).



لكن دروسيس كانت قد عرفت الله. فلم تذكر نفسها ونسيت ما تفتتن به المرأة، وأقفلت عينيها عن كل المحسوسات، بعد أن ثبَّتت نظرها نحو السماء، واستأسرت بها الأشياء العلوية، فلم تبحث عن سواها ولم تهتم سوى بالأشياء التي في السماء حيث المسيح جالس عن يمين الله. «فَإِنْ كُنْتُمْ قَدْ قُمْتُمْ مَعَ الْمَسِيحِ فَاطْلُبُوا مَا فَوْقُ، حَيْثُ الْمَسِيحُ جَالِسٌ عَنْ يَمِينِ اللهِ» (كو٣:١).

لهذا السبب لم تكن تسمع ما سمعته حواء إذ يقول: «لأَنَّكَ تُرَابٌ وَإِلَى تُرَابٍ تَعُودُ» (تك٣:١٩) بل سمعت: "أنت سماء وإلى السماء تصعدين". صعدت مرتفعة مثل يمامة على أجنحة روحانية. ولما وجدت نفسها خارج المساكن الملكية **لم تتعاظم واختبأت سرًا مع العذارى اللواتي كُن يعشن حياة الرهبنة النسكية المتواضعة، وكن يعترفن بالمسيحية التي كانت حينئذ مُحاطة بأخطار كثيرة. كانت رفيقة لهن في حياة الرهبنة الصارمة، وفى السلوك الطاهر وفى رجاء الله، ثم أخيرًا في طريق الاستشهاد، وهو الطريق الذي سلكته من أجل روحها**، بينما قالت مع بولس الرسول: «قَدْ جَاهَدْتُ الْجِهَادَ الْحَسَنَ، أَكْمَلْتُ السَّعْيَ، حَفِظْتُ الإِيمَانَ، وَأَخِيرًا قَدْ وُضِعَ لِي إِكْلِيلُ الْبِرِّ، الَّذِي يَهَبُهُ لِي فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ الرَّبُّ الدَّيَّانُ الْعَادِلُ، وَلَيْسَ لِي فَقَطْ، بَلْ لِجَمِيعِ الَّذِينَ يُحِبُّونَ ظُهُورَهُ أَيْضًا» (٢تي٤:٧، ٨).

بينما سلَّمت هنا جسدها المُكرَّم تصدّر عنه روح البطولة فكانت قوية شجاعة عديمة الكسل سريعة الاستجابة، وعلى أهُبَّة الاِستعداد، وانضمت بروحها لتلك الأرواح لتحيا في شركة معهن وهن يُحارِبن بشجاعة وجدارة بطريقة مُشابهة لطريقتها. وتركن أجسادهن تيبس مثل جلدة الطبلة من جرّاء أعمال الكمال، أو تركن أجسادهن تهلك في العذابات التي احتملتها لأجل الديانة مع هذه الأرواح وقد تخلصت بفرح من رباط الجسد، تتأمل مُقدَّمًا في هذا الخلاص وتتوق إليه، يصعد الرؤساء الروحانيين والطغمات

الملائكية في نفس الوقت إلى السماء ويُرنِّمون وقد نلن الأكاليل بالتأكيد، يُرنِّمون أنشودة النصر التي قالها النبي داود في كلمات قليلة: «مِنْ قُدَّامٍ الْمُغَنُّونَ. مِنْ وَرَاءٍ ضَارِبُو الأَوْتَارِ. فِي الْوَسَطِ فَتَيَاتٌ ضَارِبَاتُ الدُّفُوفِ» (مز٦٨:٢٥).

لماذا إذن نحن حينما نسمع ذلك لا نرغب، ولو متأخرين في أي وقت كان، في مزايا السماء التي يتّجه إليها طريق الأرواح العاقلة وسيرها الطبيعي إلى فوق؟ بالعكس كما لو كانت لنا روح خنزير أو أي حيوان، ننظر إلى البطن وما أسفل، وبطريقة جنونية ننسى شبهنا مع الله. لا نهتم بالصبر وبالسيرة الطاهرة، ولا نُقدِّر البتولية أيضًا، لأجل الاِستعداد للمساكن السمائية، والعيش المشترك مع الملائكة، وعظمة النعيم المُعد للذين يعيشون في التقوى. بالحقيقة ليس هذا سهلاً علينا أن نعيه. ويقول الكتاب: «مَا لَمْ تَرَ عَيْنٌ وَلَمْ تَسْمَعْ أُذُنٌ وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَى بَالِ إِنْسَانٍ: مَا أَعَدَّهُ اللهُ لِلَّذِينَ يُحِبُّونَهُ» (١كو٢:٩).

ليس كذلك نحتفل بذكرى الشهيدة. لأنَّ ذكرى الشهداء الحقيقية إنما تكون في التمثُّل بكمالهم. لهذا السبب أيضًا نصنع هذه الذكرى، وإننا نتذكر الشهداء ونحتفل بأعيادهم، لكي بالمُحاكاة في الصبر والرجاء نصير كاملين: «آلاَمَ الزَّمَانِ الْحَاضِرِ لاَ تُقَاسُ بِالْمَجْدِ الْعَتِيدِ أَنْ يُسْتَعْلَنَ فِينَا» (رو٨:١٨) ونفيق مِنَ الغفلة في الانشغالات الدنيوية، ونتعلم أية نهاية

يهدف إليها جهاد المسيحيين، ولا نُحمَل بغته عُراة فقراء في غاية القبح لا مؤونة لنا للخلاص.

أنتِ أيتها المرأة تمتدحين بتولية دروسيس، فاقتدى حقًا بمَن تمتدحين حتى تفوزي بالمسيح عريسًا؛ لأنكِ سمعتِ ماذا يقول بولس الرسول لأجلكِ: «لأَنِّي خَطَبْتُكُمْ لِرَجُلٍ وَاحِدٍ، لأُقَدِّمَ عَذْرَاءَ عَفِيفَةً لِلْمَسِيحِ» (٢كو١١:٢) وأيضًا: «إِنَّ بَيْنَ الزَّوْجَةِ وَالْعَذْرَاءِ فَرْقًا: غَيْرُ الْمُتَزَوِّجَةِ تَهْتَمُّ فِي مَا لِلرَّبِّ لِتَكُونَ مُقَدَّسَةً جَسَدًا وَرُوحًا. وَأَمَّا الْمُتَزَوِّجَةُ فَتَهْتَمُّ فِي مَا لِلْعَالَمِ كَيْفَ تُرْضِي رَجُلَهَا» (١كو٧:٣٤).

لكنك تقولين أنَّ ذلك مُستصعب وليس بالشيء الهيّن. لكنه سهل اتباعه للروح التي مسَّتها محبة الله. فعلى الأقل احملي نير الزواج، لكن احتفظي به بشرف بحفاظكِ على الطهارة. وإذا كان زوجكِ قد رحل عن هذا العالم فلا تتخذي زوجًا ثانيًا. وإذا كنتِ تتطلعين إلى زواج ثانٍ، وذلك مُباح لأجل ضرورة الجسد، فلا تتركي نفسك لثالث، بالأخص إذا كنتِ قد تعدَّيتِ سن الشباب، وكان الموت أو كانت الشيخوخة تقترب إليكِ. لأنه إذا كان الزواج الثاني مُباحًا، فإني لا أستطيع أن أقول شيئًا فيما يختص بالزواج الثالث إلا أنه غير مُباح، لأنه حتى الأذن يكون في حدود مُعيّنة ولا معيشة مُشتركة بغير ضابط.

أتمتدح الشهيدة التي احتقرت المجد الملكي والخيرات؟ إذًا فاظهر حقيقة مديحك، وأعطِ من أموالك للفقراء، أو افعل شيئًا مُختلفًا وأقل استحقاقًا، لا تشتهي ما للغير، وكن بعيدًا عن الشيء المسروق أو المأخوذ ظُلمًا. لا ترتبك بمثل هذه الأمور خشية أن تظهر أمام القاضي وهي في حوزتك فتكون عليك ولو لم تُرِدْ، حينئذ تشتهي أن تخبِّئها وتُبعِدها ولا تستطيع. لأنَّ صور أعمالنا ترتبط بنا دون أن تفترق عنَّا تابعة لنا كالظل.

أنت تمتدح أيها الفاضل صبر خادمة المسيح في الجهاد المقدس، فتعلم في مديحك **أن تتحمل الإهانات من أجل الديانة، حينما تتطلب الظروف منك ذلك**، تعلم أن تعترف أمام الناس بالإيمان الصحيح، وألا تتغير حسب الظروف، تعلّم أن تمتدح أولئك الذين جاهدوا حتى الدم «لَمْ تُقَاوِمُوا بَعْدُ حَتَّى الدَّمِ مُجَاهِدِينَ ضِدَّ الْخَطِيَّةِ» (عب١٢:٤). تعلّم أن تتبع من ناحية أخرى الديانة التي ما جرى ذكرها على اللسان وتمتدح بالتعظيم ما بقى وقت.

بصور الكمال الباهرة والتمنيات القلبية تريد دروسيس الشُجاعة أن ننظم لها أكاليل المدائح. لم أتكلم عن الأمور الداخلية وليس أحد ممَن يمتلكون يريد أن يعطيها مِنَ الخيرات الخارجية الزائدة عن حاجته؟ كل الرجال وكل النساء يهرعون كثيرًا إلى هذا الهيكل المقدس يُقيمون صلواتهم ويُقدِّمون طلباتهم، ويفرحون بمعونة وصلوات الشهيدة، وينالون الشفاء والصحة والهبات المختلفة من كل نوع التي يطلبها كل أحد.

ولكن ليس مَن ينتبه إلى إكرام الخدمة الكهنوتية المقدسة، أو أعمدة الفضة الموضوعة بجانبها التي تحمل القبة التي تظل رؤوسهم، إنها عارية وبلا منظر، بها أسياخ من حديد، ترمز للسماء ولكنها لم تُغَطَ بالفضة. حقًا ليس من جهة الجمال فحسب، بل من جهة المجد الأسني أيضًا، يبدو لي، أن بُناة الكنائس المقدسة قد تصوّروا هذه القبة وقرَّروا لدى إقامتها أنها تمثل السماء، وترتفع بواسطة الأقواس وبواسطة التاج حتى تُشكِّل نصف الدائرة العُليا مُعلَّقة في الهواء، وتنتهي في الوسط في شبه صرة البطن، لكي تُبيِّن أننا نحن الذين نُتمِّم الوظائف الكهنوتية تحت هذه القبة نقف داخل السماء مثل الجند غير المُتجسِّدين نحتفل بطريقة سرِّية بالقداسات.

ومع ذلك فلم يتنازل أحد أن يُقدِّم جنيهًا مِنَ الفضة لأجل هذا العمل التقوي. وإن كان كل واحد قد أعطى جنيهًا فقط، وكذلك الذين يملكون القليل، فما كان يشعر كل مَن يُعطي بما أعطى، بينما يكفي حاصل ما نجمعه من كل واحد لتغطية المبلغ اللازم ويفيض. ولا أقول إن فردًا واحدًا مِنَ المؤمنين يستطيع أن يُقدِّم الكل ممَن ينامون على الفراش الوثير ويتناولون طعامهم في أطباق مِنَ الفضة يحملها خدم عديدون.

ماذا أقول أيضًا عن النساء اللواتي يذهبن جميعًا إلى الحمامات، ومعهن آنية فضة تزن بضع أرطال يحملنها وسط الميادين جالسات على مقاعد تتألق بالفضة، وحتى لُجم البغال لا تخلو منها. فإذا ما حضرت ابنة ملك إلى

مدينتنا مخطوبة لأحد، فإنَّ كلا منكم ضرورة يتعجَّل بأن يجعل نفسه ظاهرًا بالأكثر عند الفتاة المخطوبة، فيُقدِّم كهدية لغرفة العرش أثمن الحُلي الذهبية والتحف الكثيرة الثمن.

ولكن لأجل أم الشهداء التي تنازلت عن المملكة الأرضية وأصبحت ابنة ملك الملوك الآب السماوي، عروس المسيح، تتكاسلين وتُهملين، ترددين أن تعطي شيئًا مما لكِ، فأمددي يداكِ وأعطي بسرور ولا تمسكي. فإنكِ تنالين الثواب الوفير لأنَّ عريسها ليس ناكرًا للجميل أو فقيرًا. إنه يُعطى لأولادكِ الصحة التي هي أثمن بكثير من مواهب عديدة، ويهبهم روحًا ثاقبًا في دراستهم، وغيرها مما يُسَر به الآباء من أجل بنيهم. إنه يُعطي زوجكِ مع الصحة الجيدة وفرة المكاسب الشريفة، ولبيتكِ الخيرات مع البركة والنعمة مِنَ العلا، ويعقب هذا بعد مُغادرة الأرض ملكوت السموات. ليتنا نناله بالنعمة والرأفة ومحبة البشر اللواتي لمُخلِّصنا يسوع المسيح الذي يليق به التسبيح والمجد والسلطان مع الآب والروح القدس الآن وكل أوان وإلى دهر الداهرين أمين.



الميلاد

سلسلة مقالات القديس الأنبا ساويرس

البطريرك الأنطاكي

١٢

الميــلاد

مُترجم مِنَ الكتاب مِنَ الجزء الثامن من مجموعة

PATROLOGIA ORIENTALIS

R. Graffin – F. Nau

Les Homélies Cathédrales de Sévère d'Antioche

Homélie LXIII

Publiée et traduite par Maurice Brière, Paris

يُقرأ في عيد الميلاد أو في عيد الغطاس

مليكه حبيب يوسف

يوسف حبيب

١٩٦٩م

مُقدِّمة



مما لا شك فيه أنَّ هذا المقال كان حديثًا أو خطبة وجَّهها ذلكم الخطيب المُفوَّه القديس ساويرس البطريرك في عيد الميلاد. وهو فيه كالبحر الزاخر وصوته كالرعد المُدوّي البعيد المدى في شتّى الأقطار، تبرق خلاله أضواء المعاني، فتخطف الأبصار، ولها التأثير العجيب. ولا غرو فهو يُلقي باللآلئ عندما تهدر أمواجه، ترى مدى تأثير كلامه فيما قاله بشأن الاحتفالَيْن السابقَيْن. وهو يغوص إلى العمق بحثًا عن اللآلئ يهديها إلى أبنائه.

وطريق التأثير بالخطاب إنما يكون بإبراز المعاني في صورة تتميز بالوضوح والعمق معًا وبالدقة والبراعة في العرض كما يؤثر في سامعيه بشخصيته المتألقة وروحانيته الفائقة وعلمه الغزير.

وليس ذلك فحسب، بل هو كرئيس كهنة لا يوجِّه الخطاب كمؤرخ أو قَصصي، بل كأب روحي وطبيب سماوي، دُفعت إليه أجلّ أسرار الرعاية، وأُعطي سلطان الخدمة ومفاتيح الحياة، فضلاً عن ذلك فهو منار الهداية الأعلى والراعي الأمثل.

وفي الكلمة المكتوبة الأمر يختلف، فلا يصل إلى النقاط البارزة من خلال السطور إلا القوي المُلاحظة الحاد النظر، ويفيد في ذلك التأمل

واستلهام ذكرى شخصية ذلكم الخطيب الذي كان يطلب من صاحب الاحتفال كلمة حيّة، على حد قوله، فلزم لنبرز صور الحياة في المقال وضع العناوين اللازمة لتنبيه القارئ إلى ما يأخذه من بين السطور، كما لحقنا التمهيد البارِع الذي يستهل به القديس المقال بما يُناسِب القارئ.

وفي الترجمة، توخّينا أن نوصل المعاني الدقيقة التي قصد إليها المُتحدِّث القديس، ولم نهدف إلى الزخرف اللفظي أو الصورة الخارجية حتى تتقابل فطنة القارئ وتأمُّله عند الهدف المنشود.



عرض مقدمة القديس ساويرس

عن المقال ٦٣

استهل القديس ساويرس المقال بمقدمة طويلة أبدى فيها – وهو البطريرك الراسخ والعلامة القديس والعبقري اللامع الذي طبقت شهرته مشارق الأرض ومغاربها – تهيُّبه مِنَ الخوض في الحديث عن جلال الأحداث التي وقعت عند ميلاد المسيح. يقول للشعب المؤمن في ذلك الزمان:

لقد احتفلت مرتَيْن بهذا العيد معكم، ولم يكن بياني قاصرًا عن أن يمد المؤمنين بالغذاء الروحي، بل كانت الكلمة غنية جدًا من هذه الناحية. وتتوقعون بمشاعركم التقيَّة كلمات وفيرة متواضعة تتناولونها بالتأمل، فيمكنكم تحليلها فيما بينكم لكي ترفعوها إلى علو لائق بالله.

ثم انتقل إلى الكلام عن الكيفية التي تأتي بها الثمار. فكما أن الأرض الخصبة التي يعني بزرعها تغل بعد البذار سنبلاً مرتفعًا مليئًا هكذا الروح التي ترعاها القيادة الحسنة والمتدربة على الإيمان حسب الأرثوذكسية. ثم يحث القديس المؤمنين قائلاً:

إنَّ ثقتي لكبيرة في أن تحضروا بنفس الحماس بعد أن فتحتم لي قلوبكم وتقبَّلتم هذه الأفكار تقبُّلاً حسنًا. وتتدفق المعاني البيِّنات.

لا أخشى بعد، إنَّ إرادة الله تقودني إلى الاحتفال بالعيد الحالي للمرة الثالثة.

لو كان الحديث مُعادًا تزدرون بهذه الوجبة مثلكم مثل الذين يتناولون أصنافًا مِنَ الطعام مُعدَّة مِنَ اليوم السابق، ولو انتهجت نهجًا جديدًا فأني أخشى عندما أغوص إلى عمق النظريات ألا أجد نهاية. ومع ذلك فلأن الذي نتطلَّع إليه في الاحتفال الحاضر هو **الغني القدير**، فلا يجب أن نتوانى بل نطلب منه نحن الضعفاء فهمًا حيًا وكلمة حيّة، فهو يُعطي الكلمة للذين يُبشِّرون بسر الديانة الكبير بقوة عظيمة. «الرَّبُّ يُعْطِي كَلِمَةً. الْمُبَشِّرَاتُ بِهَا جُنْدٌ كَثِيرٌ» (مز٦٨:١١).

وبما أنَّ الكلمة لي فسوف أُعالج الموضوع الحاضر على نحو ما تُضرَب الأرض الذهبية بالمعول. وبعد أن استخلص اليسير أتناوله بالبحث وأُفصِّله تفصيلاً ليكون منه موضوعًا ذهبيًا خطيرًا.

هلا تتداولها الألسنة تلك الأحداث التي وقعت عند ميلاد المسيح؟ مَن الذي يحول دون فيض ينابيع الكلام الغزيرة؟

إنَّ الحديث عنه أجلّ من كل قول. ولو تركت للساني العنان يسمو نحو ما يتعلَّق بجوهر الله الكلمة أو كنت أطير وأُحلِّق دفعة واحدة بقدرة مُعبِّرًا بالألفاظ عما في خاطري، فأحسبني قد ارتفعت عن الأرض بقدر ما يرتفع العصفور الصغير الذي يبدأ في الطيران من عشّه منذ اللحظة الأولى. فهو

يستطيع أن يطير في المناطق القريبة مِنَ الأرض، ثم يعود إلى أسفل. لكنه ليس في استطاعته أن يطير في الأجواء العُليا. وهكذا الحال بالنسبة لنا، فعلى قدر اقترابنا مِنَ العلو نعرف إلى أي حد نحن بعيدون عنه.

وإني إذا جعلت عيني على عمق تنازله وتجسُّده المملوء محبة للبشر لموقن أني لو جاهدت لأهبط دفعة واحدة بروحي إلى عمق ليس له حدود، يعتريني الوهن والكلل، كالسابح في بحر أو الناظر من أعلى قمم الصخور. إن قسوة البصائر لتقصر عن إدراك العمق المنيع، نعم أنها تقصر عن الخوض في مناقشة هذه المسائل. وحينما ننزع إلى التأمل في تنازل الله الكلمة، فبعد موجات هائلة مِنَ الألفاظ والأفكار، نصل إلى ما قاله سُليمان الحكيم: «كُلُّ هَذَا امْتَحَنْتُهُ بِالْحِكْمَةِ. قُلْتُ: «أَكُونُ حَكِيمًا». أَمَّا هِيَ فَبَعِيدَةٌ عَنِّي. بَعِيدٌ مَا كَانَ بَعِيدًا وَالْعَمِيقُ الْعَمِيقُ مَنْ يَجِدُهُ؟» (جا٧: ٢٣، ٢٤).

أجل، مَن ذا الذي يستطيع بذهنه أن يجمع بين وجهتي النظر القائمتَيْن دفعة واحدة، فيجمع بين الارتفاع والعمق؟ إنَّ الكتاب الإلهي يقول عنه أنه «فَوْقَ كُلِّ رِيَاسَةٍ وَسُلْطَانٍ وَقُوَّةٍ وَسِيَادَةٍ، وَكُلِّ اسْمٍ يُسَمَّى لَيْسَ فِي هَذَا الدَّهْرِ فَقَطْ بَلْ فِي الْمُسْتَقْبَلِ أَيْضًا» (أف١: ٢١).

هو الكائن قبل كل الأشياء الذي به يوجد الكل، وهو الذي نزل إلى العالم.



ظهور الله الأبدي

نزل إلى الأماكن الدُنيا في الأرض، باتحاد أقنومه بجسدنا ونفسنا العاقلة.[٦٣]

مَن لا ينبض قلبه أو لا يأخذه العجب في رجفة مُتعجِّبًا، وفي صمت يُعطي مجدًا لإلهنا. لقد أخضع نفسه لكل هذا التواضع بإرادته وهو غير محتاج، إنه غني وكامل، **تنازل من أجل خلاصنا فتجسَّد واحتمل في جسده الآلام التي قبلها لأجلنا حتى الصليب.**

ياللعجب! إن مَن يملك وحده الأبدية، النور المنيع، شمس البر، بسببنا نحن الذين بخطيئتنا جلبنا العار على جبلتنا الأولى الإلهية، فسقطنا من مسكننا الأول، أعني الفردوس المفروش في الشرق، ونُفينا إلى الغرب، فأصبحنا بعيدين تمامًا عن النور الإلهي، بسببنا ظهر في المشرق بعد أن اشترك بطريقة عجيبة في كياننا – اشترك في بذار إبراهيم، ونما حسب الجسد من أصل يسَّى وداود، وهكذا ظهر للذين كانوا جالسين في ظلمات الجهل وظل الموت.

(٦٣) في هذا الجزء وما يليه يوضِّح لنا القديس الثمار المرجوة مِن سماع الكلمة التي أشار إليها في مُستهل الخطاب. وهو بدوره يُقدِّم لنا تحليلًا رائعًا يصل بالكلمة إلى علو لائق بالله على حد قوله. يُبيِّن لنا كيف تصل إلينا هذه الثمار، وكيف تمس كياننا كما يُبيِّن أنواعها في عرض رائع سهل المأخذ.

النبوات عن الظهور

بشَّر إرميا النبي قبل الوقت بهذا الظهور العجيب الذي يليق جدًا بالله قائلاً: **«هَا أَيَّامٌ تَأْتِي يَقُولُ الرَّبُّ وَأُقِيمُ لِدَاوُدَ غُصْنَ بِرٍّ فَيَمْلِكُ مَلِكٌ وَيَنْجَحُ وَيُجْرِي حَقًّا وَعَدْلاً فِي الأَرْضِ. فِي أَيَّامِهِ يُخَلَّصُ يَهُوذَا وَيَسْكُنُ إِسْرَائِيلُ آمِنًا وَهَذَا هُوَ اسْمُهُ الَّذِي يَدْعُونَهُ بِهِ: الرَّبُّ بِرُّنَا»** (إر٢٣:٥، ٦).

إنَّ هذه النبوة تختص بلا نزاع بالمسيح، هذا ما يقوله كل المشتغلين بالكتاب المقدس، حتى ولو جزئيًا. لأنه بعد داود لم يملك أي ملك صِدِّيق، نظرًا لأنَّ كل الذين خلفوا داود كانوا مُذنبين، باستثناء حَزَقيًا ويوشيًا، وهما اللذان تنبأ بعدهما إرميا بهذه النبوة. فقبل الكلمات التي ذكرناها، كان يقول عن يكُنيا (كُنْياهو) الذي صار ملكًا بعد وفاة يوشيًا: «هَلْ هَذَا الرَّجُلُ «كُنْيَاهُو» وِعَاءٌ خَزَفٍ مُهَانٍ مَكْسُورٍ أَوْ إِنَاءٌ لَيْسَتْ فِيهِ مَسَرَّةٌ؟» (إر٢٢:٢٨).

ومن جِهة أخرى فإنه مِنَ المؤكَّد تمامًا أنَّ كلمات النبوة، تنحدر إلى الزمن التالي والزمن المستقبل. ومع ذلك فإن الاسم (غصن بر) لن يُعطَى بجدارة لأحد آخر مِنَ الذين تملَّكوا سوى **للمسيح**، فهو شمس البر الذي جعل أشعة معرفة الله تُضيء لنا، كما مارس أيضًا العدل والحق على الأرض حينما بسط على كل الأرض نواميسه ذات العدالة العُليا المُطلقة، وفي أيامه أيضًا خلص يهوذا وسكن يعقوب في أمان.

في الواقع إنَّ فترة انقسام الشعب إلى قسمَيْن: إسرائيل ويهوذا منذ زمن الملك سليمان ما تزال حتى النهاية، فهناك مملكتان منفصلتان. لكن بصفة عامة كل الذين كانوا منفصلين قد خضعوا وأطاعوا على حدٍ سواء بشارة المسيح وملكوته، وأخذوا نيرًا واحدًا. وعلى أي حال فإنه بسبب يهوذا الذي ترجمته "المعترف"،[٦٤] وبسبب إسرائيل الذي ترجمته "العقل الذي يرى الله" يُطلق يهوذا الذي خلص على أولئك الذين في الوقت الحالي قد اقتربوا مِنَ الإنجيل وهم في منزلة المعترفين، وندعو "إسرائيل الساكن في أمان"، على أولئك الذين آمنوا وجازوا مرحلة التأمل، فهُم بذلك يعرفون الله أو يرونه، وهم ثابتون بالمعرفة آمنين، وكأنهم يسلكون ويستريحون فيما عرفوه.

وهذان الفريقان يؤلِّفان جسد الكنيسة الوحيد، وهما موضوعان تحت سلطان المسيح وحده الذي يُعلن عنه إرميا النبي أيضًا بجدارة أنه يُدعى "يهوصادق Josedec" وهو ما معناه في الترجمة اليونانية "بر الله"، والمسيح هو بر الله الآب، وهو أيضًا الحكمة والقدرة. اسمع بولس الرسول الذي يكتب لأهل كورنثوس: «**وَمِنْهُ أَنْتُمْ بِالْمَسِيحِ يَسُوعَ الَّذِي صَارَ لَنَا حِكْمَةً مِنَ اللهِ وَبِرًّا وَقَدَاسَةً وَفِدَاءً**» (١كو١:٣٠).

---

(٦٤) يعني أيضًا (يحمد) (الناشر)

حينما تنبّأ إرميا بهذه النبوة عن يسوع قائلاً: "سوف يُدعى يهوصادق" (بر الله) عرف بدقة تامة وبوضوح تام مَن هو الذي يتنبأ عنه من بين كلماته، وكأنه يرى بعينيه ذاتهما أيضًا، فاستنار بظهور ذاك الذي كان حينئذ آتيًا وهو الذي نراه الآن، وهكذا في فرحة صرخ قائلاً: "إنه في الأنبياء" وهو يشير إليه كما بالإصبع قائلاً: "إنه هو الذي كان في الأنبياء والذي أوحى إليهم والذي جعلهم بطرق مختلفة يُعلنون هذه النبوات المُتعلِّقة بشخصه ذاته».

بخصوص ذلك الظهور، ظهور الله الكلمة الذي تأنَّس لأجلنا، يقول زكريا النبي أيضًا بطريقة إلهية تمامًا: «**هُوَذَا الرَّجُلُ «الْغُصْنُ» اسْمُهُ. وَمِنْ مَكَانِهِ يَنْبُتُ وَيَبْنِي هَيْكَلَ الرَّبِّ**» (زك٦:١٢).

يا لعظمة دِقَّة النبوة، مَن الذي لا يُسبِّح ذلك الذي نطق بوضوح بهذه الكلمات قبل سنين عديدة بواسطة خدَّامه ذاته، الذي في آخر الأيام حقَّق الكلمات التي قيلت قبل الوقت؟ "اسمه شرق"، [٦٥] يقول النبي فعلاً إنه نور نور الآب،[٦٦] «**كَانَ النُّورُ الْحَقِيقِيُّ الَّذِي يُنِيرُ كُلَّ إِنْسَانٍ آتِيًا إِلَى الْعَالَمِ**» (يو١:٩) لذلك دُعي باسم لائق.

فإنَّ من خواص النور والشمس أن يُنيرا مِنَ الأعالي، ويُسلِّطا أشعتهما على الكون لإضاءته وإشراكه في الضوء الذي ينبعث منهما. وأن شمس البر

(٦٥) النص الفرنسي: Son nom est orient

(٦٦) النص الفرنسي: La lumière de la lumière du Père

الذي لا يُدنى منه «**الَّذِي وَحْدَهُ لَهُ عَدَمُ الْمَوْتِ، سَاكِنًا فِي نُورٍ لاَ يُدْنَى مِنْهُ**» (١تي٦:١٦) أخذ على عاتقه أن يتجسَّد ويتأنَّس لأجلنا، أشرق لنا حينما أخذ شكل العبد وتنازل هو نفسه بإرادته قد أشرق لنا. وقد تنازل هكذا متواضعًا جدًا وأظهر ذاته قليلاً قليلاً، وأنارنا بكل لاهوته.

لذلك حينما بشَّر زكريا مُقدَّمًا بهذا العجب، قال: «هُوَذَا الرَّجُلُ «الْغُصْنُ» اسْمُهُ. وَمِنْ مَكَانِهِ يَنْبُتُ وَيَبْنِي هَيْكَلَ الرَّبِّ» (زك٦:١٢).

وقد شرح داود هذه الفكرة بطريقة أخرى حينما تكلَّم عن هذا الإشراق الذي يحدث في الدنيا، فقال "أشرق مِنَ المغرب"[(٦٧)] (في الظلمة). ويصيح هو أيضًا مع يوحنا المعمدان للذين كان يتعيَّن عليهم أن يصيروا شهودًا لإشراقه: «أَعِدُّوا طَرِيقَ الرَّبِّ. اصْنَعُوا سُبُلَهُ مُسْتَقِيمَةً» (مت٣:٣، مر١:٣، لو٣:٤) «قَوِّمُوا طَرِيقَ الرَّبِّ» (يو١:٢٣)، فيقول داود: «أَعِدُّوا طَرِيقًا لِلرَّاكِبِ فِي الْقِفَارِ بِاسْمِهِ يَاهْ وَاهْتِفُوا أَمَامَهُ» (مز٦٨:٤).

في الواقع ولو أنه حجب مجده الخاص حسب التدبير الإلهي إذ أشرق في الظلمة، إلا أنه مع ذلك الرب. لأنه حتى حينما صار إنسانًا، لم يتخلّ عن كونه رب وإله. وفعلاً لو أنَّ المُرنِّم أعلن أن الشمس تُشرق في الغرب "أو في

(٦٧) النص الفرنسي حرفيًّا il s'est leré a l'occident، والمقصود بذلك أنه أشرق للذين في الظلمة ووادي ظلال الموت، جنس البشر الذي حطمته الخطية وهبط إلى الجحيم، ومن المغارة والمذود أشرق للخليقة.

الظلام" كان الضوء المُشرق. وبنفس الطريقة إذ كانت حالتنا غاربة وكانت سوداء من جرَّاء الخطية محرومة مِنَ العمل الإلهي، فقد جعلها كلمة الله مُشرقة حينما بارك عبورنا إلى هذه الحالة الجديدة حيث صرنا نفيض عدلاً وطهارة، ونتزيَّن بالفضائل الأخرى، بتجسُّده الذي به صنعت أعمال النور وكل ما هو خير بين البشر.

إذا أراد ملك أن يذهب إلى مدينة صغيرة غير معروفة وعاجزة تمامًا عن احتمال مجيئه، فإنه في الغالب يجعل نفسه صغيرًا، ويُزيل عظمة كبرياء المظاهر والمجد الذي يُحيط به لكي يصير مُحتَملاً من هذه المدينة. ولكنه رغم ذلك لا يستطيع إلا أن يدخل كملك مُتنازلاً بصفة عامة عن مظاهر رتبته. هكذا أيضًا ابن الله، كلمة الآب الغير مُدرَك، الأبدي، أراد أن يأتي في صورة بشرية في هذا العالم وهو عنده على حد تعبير أحد أنبيائه كنقطة يملأه بطريقة إلهية «هُوَذَا الأُمَمُ كَنُقْطَةٍ مِنْ دَلْوٍ وَكَغُبَارِ الْمِيزَانِ تُحْسَبُ. هُوَذَا الْجَزَائِرُ يَرْفَعُهَا كَدُقَّةٍ!» (إش٤٠:١٥) على قدر ما كان ذلك مُستطاعًا، فقد تواضع.

تواضع من مجده الذاتي وجاء إلى الإهانة(٦٨) - ففي ذلك فعلاً أخلى ذاته وأصبح هكذا مُمكنًا الوصول إليه – وبأسلوب لا مثيل له، وبطريقة فائقة خاصة تسمو على كل الطرق الأخرى، دخل إلى عالمنا من باب إلهي ملكي،

(٦٨) النص الفرنسي: Il s'est humilié de sa propre gloire et est Venu à l'humiliation

يعني البتولية، بميلاده في الجسد مِنَ الروح القدس ومن العذراء والدة الإله.

ↂ

الخلاص والتجديد

هذا الميلاد الفائق بدون بذار، الذي به أتى المسيح من سبط يهوذا الذي كانت مريم تنحدر منه بعائلتها، تنبَّأ عنه يعقوب أول الآباء في بضع كلمات تحوي كل غنى هذا السر، قائلاً: "يهوذا شبل، إنه من جنسي، يا ابني، قد صعدت" إنه يدعو المسيح شبلاً لأنه يملك الرتبة الملكية، ويملك المناعة، وفي الجسد يأخذ الجنس من سبط يهوذا. وقد اعترف لأجلنا (نحن الذين ليست لنا أية حرية لدى الله) قائلاً: «**فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ أَجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ: أَحْمَدُكَ أَيُّهَا الآبُ رَبُّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لأَنَّكَ أَخْفَيْتَ هَذِهِ عَنِ الْحُكَمَاءِ وَالْفُهَمَاءِ وَأَعْلَنْتَهَا لِلأَطْفَالِ. نَعَمْ أَيُّهَا الآبُ لأَنْ هَكَذَا صَارَتِ الْمَسَرَّةُ أَمَامَكَ**» (مت١١:٢٥، ٢٦).

إن كلمة "يهوذا" كما قلنا معناها "المعترف". فكان يقول، وهو يتأمل في ذاك الذي اعترف لأجلنا بعينيه اللتَيْن تريان المستقبل قبل الوقت بالرغم من بعد المسافة: "إنه من جنسي يا ابني قد صعدت" مطلقًا جنسه ذاته على القديسة العذراء التي منها أتى المسيح ونما بدون بذار.

أين هم إذًا، عند سماع هذه الكلمات، أنصار حماقة أفتيخوس (أوطاخي)؟ أفلا ينضمون حتى إلى أول البطاركة الذي يقول: "إنه من جنسي يا ابني قد صعدت"؟ لنستهزئ بحماقتهم ونعترف بأن جسد المسيح المُقدَّس هو من جوهرنا.

إنَّ مريم فعلاً هي من جنسنا، وكذلك يعقوب أبوها الأول، لأننا مكوَّنون من طينة واحدة كما يقول سفر أيوب: «هَئَنَذَا حَسَبَ قَوْلِكَ عِوَضًا عَنِ اللهِ. أَنَا أَيْضًا مِنَ الطِّينِ جُبِلْتُ» (أي٣٣:٦).

الذي خلق وكوَّن، جاء ليُصلِح ويخلق من جديد، ليست خليقة أخرى، لكن تلك الخليقة التي كانت قد سقطت وخضعت لفساد الخطية، وذلك بواسطة التجسُّد الإلهي، حينما ألقى بنفسه مثل خميرة في كل مجموع الجنس البشري، وصار آدم الثاني، وخلَّصنا بقيامته، وجعلنا نعبر مِنَ الحالة الأرضية الزائلة إلى الحياة السمائية الغير فاسدة. أفلا تشعرون أنكم تحرمون البشر مِنَ الخيرات التي من هذا النوع، وتجعلونهم غُرباء عن هذا التجسُّد الذي يُعين به من سقطوا؟ أتظنون أنه يُمكن أن يُصيب جسدنا دنس وهو مُتَّحد بالله الكلمة؟ إنه لا يوجد سوى شيء واحد يمكن أن يُدنِّس، إنه فساد الخطية.

الخليقة طاهرة

وأين يكون أثر للخطية، حيث تجسَّد الله الكلمة بدون استحالة، وحيث الأم عذراء حتى بعد الولادة، وحيث ينزل الروح القدس، لا تعرف رجلاً والميل الجسدي مرفوض تمامًا وغير موجود.(٦٩)

لماذا تتغاضون عن كل هذه النفخات الطاهرة ذات الرائحة الإلهية الزكية، وتنصرفون عما هو زكي يسر شذاه الأنفس، فتنحدرون في وحل أفكاركم الغير نقية، ولا أقول وحل طبيعتنا، لأنه لو كان لحمنا غير طاهر، لَمَ كان يجب أن يكوِّنه منذ البدء، أيضًا ذاك الذي صنع كل الأشياء جميلة وجيدة وحسنة جدًا. لكن إن كانت هذه الخليقة طاهرة ولم تُسبِّب لجابلها ضررًا أو دنسًا، فكيف لا يكون التشكيل الثاني أطهر؟ وكيف لا يكون، مع عظم الفارق، هذا التشكيل الذي به أراد الخالق تعالى أن يُظهِر نفسه في الجسد لائقًا بالله أكثر؟

لكن احذروا من أن تلقوا بنا بهذا الأسلوب في روايات المنيكيين الخرافية، فإنَّ مَن حسب الجسد خارج السر غير طاهر، فقد تصوَّر أن له أيضًا خالقًا آخر، كما كانوا يفعلون. إنهم في الواقع يستحقون الرثاء لسبب

(٦٩) النص الفرنسي: Ou la concupiscence est entièrement exclue et absente et fait défaut

مزدوج: فهم يسرِقون ويُسرَقون. أما نحن فإننا نؤمن بأن الذي قال بخصوص خِرافه: «اَلسَّارِقُ لاَ يَأْتِي إِلاَّ لِيَسْرِقَ وَيَذْبَحَ وَيُهْلِكَ، وَأَمَّا أَنَا فَقَدْ أَتَيْتُ لِتَكُونَ لَهُمْ حَيَاةٌ وَلِيَكُونَ لَهُمْ أَفْضَلُ» (يو١٠:١٠)، يستطيع كذلك أن يجعلكم تستردون خيراتكم، لأنكم سرقتم وخسرتم، ويجعلكم تحيون لأنكم كنتم فعلاً ضحايا عدم الإيمان.

وقول بولس الرسول من ناحيته يتفق مع كلمة يعقوب: "إنه من جنسي يا بني قد صعدت".[٧٠] فهو يكتب إلى أهل غلاطية بهذه العبارات: **«وَلَكِنْ لَمَّا جَاءَ مِلْءُ الزَّمَانِ، أَرْسَلَ اللهُ ابْنَهُ مَوْلُودًا مِنِ امْرَأَةٍ، مَوْلُودًا تَحْتَ النَّامُوسِ، لِيَفْتَدِيَ الَّذِينَ تَحْتَ النَّامُوسِ، لِنَنَالَ التَّبَنِّيَ»** (غلا٤:٤، ٥).



(٧٠) النص الفرنسي: C'est de ma race, mon fils, que tu es monté.

الله رفع المرأة

هذه الكلمة «**مِنِ امْرَأَةٍ**» تُبيِّن أن عمانوئيل وُلِد في الجسد من جوهر العذراء. لم يقل "**بامرأة**" حتى لا يُعطي فرصة لذوي الأفكار الرديئة أن يُسمّوا ميلاده عبورًا بطريقة رمزية، ويؤكِّدوا أنه عبر كما في قناة ومثل البرق. كذلك تبيِّن أنَّ التجسُّد حقيقي وليس وهمًا «**وَبَيْنَمَا هُمَا هُنَاكَ تَمَّتْ أَيَّامُهَا لِتَلِدَ**» (لو٢:٦).

وإني عندما أتأمل بعمق أكثر في الكتب المقدسة، ألاحظ سرًا آخر أعظم. فآدم لم يكن قد خدعه الشيطان، لكن المرأة، بعد أن خُدعت، كانت هي الأولى في التعدّي، فإنَّ الله الكلمة الذي أراد أن يشفي هذا التعدّي، قد رفع المرأة إلى كرامة أعظم. لأنه حينما يشفي الله أو يُصحِّح، فإنه لا يحضر المريض الشيء الأساسي فقط، لكنه يمنحه علاوة على ذلك الغنى الذي لم يكن له. هذا ما صنعه أيضًا لأجلنا، لم يخلصنا بقيامته من حكم الموت ومن الفساد فحسب، بل قادنا أيضًا إلى ملكوت السموات بدلاً مِنَ الفردوس، وجعلنا أولادًا وورثة لله بدلاً من عبيد.

ما هي إذًا هذه الكرامة الأعظم التي حُسبت المرأة مستحقة لها؟ أقول بوضوح: عندما يُعطي بولس الرسول للرجل السلطة والمكان الأول، ويخص المرأة بالمرتبة التالية ويقول أنه يجب أن تكون المرأة متواضعة، يقول: «لأَنَّ الرَّجُلَ لَيْسَ مِنَ الْمَرْأَةِ بَلِ الْمَرْأَةُ مِنَ الرَّجُلِ» (١كو١١:٨).

لكنه يحق أن يُقال عنا إننا وجدنا بالمرأة وليس مِنَ المرأة، لأنه بالنسبة لنا فإن الزرع يسبق ولا سيما أننا به نتكوَّن. أما المسيح الذي حُبل به بدون بذار، فبالعكس قد وُجِد ليس بالمرأة بل مِنَ المرأة، وقد رفعها إلى رتبة رفيعة.

في بدء الخليقة كانت المرأة من آدم، ثم في التجسُّد كان المسيح آدم الثاني، مِنَ المرأة. وهذه تفوق تلك لأنَّ التكوين الثاني إلهيًا أكثر مِنَ الأول.

فيما أنكن أيتها النساء حسبتن مستحقات لمثل هذه الكرامة بواسطة العذراء والدة الإله، فأعطين إذًا لأزواجكن نصائح جيدة تقودهم إلى الحياة الأبدية. إذا وجدتن أنهم يتراخون في القيام بواجبهم وفي إعلامكن، فانصتن إليهم باحترام. وإذا كنتن تجدن أنهم على النقيض موثقون برغبات العالم وهمومه وأنهم يختنقون بفكرة جمع الذهب، وأنهم يمضون لياليهم دون أن يناموا، ويتساءلون بقلق مَن هو المدين الذي سوف يزجّون به في السجن، ومَن الذي سوف يجرّونه أمام المحكمة، وعلى بيت أي رجل ينقضون بحجة أنه مُثقل بالدين وغارق في الهموم، أو من يعرُّونه مِنَ الثوب الضروري، فلا تقضين معهم وقتًا مليئًا بالبؤس واللعنة، ولا تنشطن بكلماتكن كما بالهواء شعلة محبة المال. لكن في فكر يستلهم محبة الله، وبشجاعة أسمعتهم كلمات حكيمة واطفئن فيهم الرغبة في التعلق بوفرة الأموال وحدها.

المرأة وإصلاح الأسرة

يتبسط القديس في الحديث مصورًا ناحية اجتماعية من نواحي عصـره، نجد له مثيلاً في ظروف أخرى متعدِّدة، فيقول مُبيِّنًا حوار الزوجة الفاضلة اللبقة.

لتقل كل واحدة منكن لزوجها: قد أعطانا الله بركة كافية لنا، ونحن نتمتع بالسلام والسعادة من فوق، ومن كل ناحية تتدفق علينا الأموال. وإننا نفرح فعلاً بأعمالك التي باركها مُعطي الخيرات بإضافته خيراته ذاتها. ومتى رأيتن أنه سرَّه هذا الضرب مِنَ الحديث واستعذبه وأظهر نفسه جوَّادًا وتخلَّى عن تشدُّده وقسوته، فزيدي بعد ذلك: يا صديقي اِظهِر إذًا مشاعر المحبة للبؤساء، لا تُطالِب بهذه الدقة سداد الديون، اقبل جزءًا وأخِّر دفع الباقي قليلاً أو حتى أتركه، إذا كانوا بوساء للغاية. نحن في السـرور مُقيمون، أما هم ففي الدموع، نحن نشبع ونتمتع بالفائض، أما هم فليس لهم سوى الخبز وربما كانوا يُصيبون الخبز بمقدار أو لا يفي بالحاجة.

من ناحيتي سأحضر في نفس الوقت بعض ما عندي أيضًا مع إظهار كرمك ولن أُحيِّرك بهموم هذه السنة، إني أتنازل عن هذا الثوب الذي كنت مزمعًا أن تصنعه لي أو هذه الحُلى الذهبية أو هذا المبلغ لتلك الزينة الأخرى، لن تشتري لي شيئًا مطلقًا، إنَّ الملابس الموجودة تكفيني، إنَّ

الرحمة نحو الفقراء تكون لي ثوبًا مُشرِّفًا جدًا أكثر كثيرًا من كل الثياب الغالية. حسبي ذلك الجمال الداخلي الذي لا يذبل وما برح مقبولاً لدى الله، ليس ذلك الخارجي الذي يذبل ويسقط مثل الزهرة. بذلك أكوِّن لأولادي كنزًا ثمينًا لا يستطيع أحد أن يأخذه.

فحينما يسمعكِ زوجكِ تتحاجين هكذا، فإنه حتى إذا كان مثل الحيوان المتوحش فإنه خليق أن يُغيِّر نزعاته ويُحسن لمدينيه. لأنه لا يوجد إنسان حتى ولو كانت له كل الفصاحة وكل مهارة أهل البلاغة، يستطيع هكذا أن يقنع الرجال مثل النساء الشريفات الطاهرات.

لذلك فإذا كنتن لا تفعلن الخير حينما يكون في استطاعتكن أن تفعلنه، فاسمعن الكتاب المقدس الذي يحسب لكنَّ هذه الخطية «**فَمَنْ يَعْرِفُ أَنْ يَعْمَلَ حَسَنًا وَلاَ يَعْمَلُ، فَذَلِكَ خَطِيَّةٌ لَهُ**» (يع٤:١٧).

كذلك حينما ترون أزواجكن يدفعونكن نحو الملذَّات ونحو الطرق المسلوكة التي تؤدي إلى الانغماس في الملذّات إلى دفنيه[٧١] Daphné ، ونحو الحياة الرخوة المُسرفة التي به. فاجعلن نَصب أعينكن مجد والدة الإله وكتاب التعاليم المقدسة، وبعد أن تستخلصي منه روحًا طاهرًا، اجعلنَّه يسكن فيكن. ادفعن أزواجكن نحو الخير وأعطين لهم درسًا قائلات: لنكرم حياتنا يا زوجي بالنزاهة والطهارة، وبحياة بيتنا وبالسلوك

(٧١) وهو شارع من شوارع أنطاكية كان مشهورًا كمكان للهو.

الطاهر نصنع مِنَ الزواج سرًا، ومن الفراش موضعًا طاهرًا، لا تكن مسائل العلاقة الجسدية موضوعًا للبحث عن الرغبات الشريرة، بل مسكنًا لا يُنطق به مُعطى مِنَ الله من أجل إنجاب الأولاد.

بهذه الكلمات تضعن حدًا لتصرفات أزواجكن العنيفة البعيدة عن الفهم، فضلاً عن ذلك فإنَّ الملائكة سوف يتهلَّلون من أجلكن ويفرحون بخصوصكن، وكذلك العذراء القديسة الطوباوية وكل جمع القديسين، وسوف يُكلِّلكن المسيح بطريقة غير منظورة، وهو الذي يحارب من أجل الفضيلة، الذي كان مِنَ المرأة وليس بالمرأة، الذي بالمرأة وضع فيكن هذا الثبات وهذه الشجاعة.

أما فيما يختص بتربية الأولاد، لا تتخاذلن إرضاء لأزواجكن حينما يصحبونهم إلى التمثيليات وإلى ما يُفسِد. اجتهدن أن تقدِّمنّهم إلى الكنيسة. قاومن اللهو الضار الذي لا يليق بخصال القديسين المتألِّقة، مما يؤثر فيهم، وتعجلنهم قائلات بطريقة حازمة في نفس الوقت: "لا يستطيع مَن ينصرف إلى التمثيلبات وأمثالها خارج الناموس، أن يحتفل بأعياد الله كما يجب". فإذا كانوا يتربُّون في هذه التقاليد وهذه العادات، فحينما يكبرون ويبلغون سن النضوج ليس من ناحية العمر فحسب، لكن أيضًا من حيث الفضيلة، يتمثَّلون بالقائل: «دَعُوا الأَوْلاَدَ يَأْتُونَ إِلَيَّ وَلاَ تَمْنَعُوهُمْ لأَنَّ لِمِثْلِ هَؤُلاَءِ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ» (مت١٩:١٤). فإنهم يصيرون

لكن في شيخوختكنّ سندًا وتعزية في كل ضيق، لأنهم على بيِّنة مِنَ الأقوال الأخرى: «أَكْرِمْ أَبَاكَ وَأُمَّكَ كَمَا أَوْصَاكَ الرَّبُّ إِلهُكَ لِتَطُول أَيَّامُكَ وَلِيَكُونَ لكَ خَيْرٌ على الأَرْضِ التِي يُعْطِيكَ الرَّبُّ إِلهُكَ» (تث٥:١٦).

ماذا أوحى الحديث عن الميلاد إلى القديس ساويرس؟

ترى أني لم أقل باطلاً في مستهل هذا المقال، أننا لو اتخذنا حبة صغيرة من منجم الحكمة ثم أعملنا فيها الفكر، لكوَّنّا منها موضعًا كبيرًا، وها نحن بعد أن توسعنا كثيرًا لم نجد نقطة واحدة من هذه الكلمات أو من هذه المعاني، كما يقول أيوب: «هَا هَذِهِ أَطْرَافُ طُرُقِهِ وَمَا أَخْفَضَ الْكَلاَمَ الَّذِي نَسْمَعُهُ مِنْهُ! وَأَمَّا رَعْدُ جَبَرُوتِهِ فَمَنْ يَفْهَمُ؟» (أي٢٦:١٤).

تريدون إذًا أن نجعل هذا الحديث ممتازًا أكثر، وأن نُطعِّمه بمختلف الآراء العميقة كما نُطعِّم بالأحجار الكريمة. إنَّ النهار يتركنا ضرورة، ونحن يجب أن نضبط طول المقال حسب الوقت، لأننا مُلزمون أن نعترف بالزمن في كل شيء. ومع ذلك فلكي لا نترك هذا الموضوع خاليًا من كل زينة، فسوف نُزيِّنه بحل لمسألة واحدة.

بما أنَّ العذراء والدة الإله هي بعائلتها من نسل سبط يهوذا[٧٢] وداود، فكيف كان جبرائيل الملاك يقول له: «وَهُوَذَا أَلِيصَابَاتُ نَسِيبَتُكِ هِيَ أَيْضًا حُبْلَى» (لو١:٣٦) وهذه الأخيرة كانت زوجة زكريا الكاهن الذي ينتمي لسبط اللاويين. في الواقع لم يكن يوافق الناموس أن يتخذ مَن ينتمي إلى سبط مُعيَّن زوجة له من سبط آخر، لأنَّ الرب يقول على لسان موسى في سفر العدد

نسب العذراء

«فَلا يَتَحَوَّلُ نَصِيبٌ لِبَنِي إِسْرَائِيل مِنْ سِبْطٍ إِلى سِبْطٍ بَل يُلازِمُ بَنُو إِسْرَائِيل كُلُّ وَاحِدٍ نَصِيبَ سِبْطِ آبَائِهِ. وَكُلُّ بِنْتٍ وَرَثَتْ نَصِيبًا مِنْ أَسْبَاطِ بَنِي إِسْرَائِيل تَكُونُ امْرَأَةً لِوَاحِدٍ مِنْ عَشِيرَةِ سِبْطِ أَبِيهَا لِيَرِثَ بَنُو إِسْرَائِيل كُلُّ وَاحِدٍ نَصِيبَ آبَائِهِ فَلا يَتَحَوَّل نَصِيبٌ مِنْ سِبْطٍ إِلى سِبْطٍ آخَرَ بَل يُلازِمُ أَسْبَاطُ بَنِي إِسْرَائِيل كُلُّ وَاحِدٍ نَصِيبَهُ» (عد٣٦:٧-٩).

ولهذا السبب حينما كُتبت سلسلة نسب يوسف، أدرجت الأنساب حسب الرجال وليس حسب النساء، ولابد أنَّ نسب القديسة مريم العذراء قد تبيَّن في نفس الوقت، فهي تنتمي بحسب الناموس لنفس السبط الذي ينتمي إليه خطيبها. كيف إذًا تكون القديسة العذراء نسيبة أليصابات؟

---

(٧٢) «فَإِنَّهُ وَاضِحٌ أَنَّ رَبَّنَا قَدْ طَلَعَ مِنْ سِبْطِ يَهُوذَا، الَّذِي لَمْ يَتَكَلَّمْ عَنْهُ مُوسَى شَيْئاً مِنْ جِهَةِ الْكَهَنُوتِ» (عب٧:١٤)

زعم البعض أنَّ ذلك لأنهما كانتا إسرائيليتان، وكانتا أصلاً من نفس الشعب، لذلك دعاهما الملاك جبرائيل نسيبتَيْن. وإنما نُسمِّي القريب الذي ينتمي إلى نفس الشعب نسيبًا. وذلك استنادًا إلى قول بولس الرسول في الرسالة إلى أهل رومية، لما كان على وشك الكلام عن الذين آمنوا بين الأمم الأخرى وأيضًا بين اليهود، فإنه يُسمِّي اليهود إنسباء قائلاً: «فَإِنِّي كُنْتُ أَوَدُّ لَوْ أَكُونُ أَنَا نَفْسِي مَحْرُومًا مِنَ الْمَسِيحِ لأَجْلِ إِخْوَتِي أَنْسِبَائِي حَسَبَ الْجَسَدِ الَّذِينَ هُمْ إِسْرَائِيلِيُّونَ وَلَهُمُ التَّبَنِّي وَالْمَجْدُ وَالْعُهُودُ وَالاشْتِرَاعُ وَالْعِبَادَةُ وَالْمَوَاعِيدُ» (رو٩:٣، ٤).

بَيْدَ أنَّنا لا نجد في أي مكان شيئًا مماثلاً بخصوص أليصابات ومريم، ولما كانت نساء كثيرات ينتمين إلى نفس الشعب، فلم يقل الملاك هذه الكلمة للعذراء مجرد علامة: «**هُوَذَا أَلِيصَابَاتُ نَسِيبَتُكِ**»، فإنه نظرًا لأنه كان خادم الإعلانات الإلهية والأوامر الروحانية، لم ينطق بهذه الكلمة بصفة عامة. وكما كان الملاك الذي ظهر ليوسف في الحلم يقول له: «**يَا يُوسُفُ ابْنَ دَاوُدَ**» (مت١:٢٠) لكي يُذكّره بالوعد الذي وعد الله به أن يكون المسيح من نسل داود، هكذا الحال أيضًا هنا، فعبارة «هُوَذَا أَلِيصَابَاتُ نَسِيبَتُكِ» هنا مملوءة بسر[٧٣] يليق بالله. وحسب رأيي أنَّ هذا لم يفت العذراء أيضًا لأنها كانت مملوءة مِنَ الروح القدس، لذلك جرت في الحال خاضعة بفرح إلى أليصابات.

---

(٧٣) سنذكره في الفقرة التالية.

المسيح الملك والكاهن الأعظم

حيث أنَّ المسيح ملك الملوك «الْمُبَارَكُ الْعَزِيزُ الْوَحِيدُ، مَلِكُ الْمُلُوكِ وَرَبُّ الأَرْبَابِ» (١تي٦:١٥) هو الله ورب الكون، وحيث أنه علاوة على ذلك كان مدعوًّا كاهنًا أعظم بعد التأنُّس، إذ أنه قدَّم ذاته ذبيحة وقربانًا لكي يطهر خطية العالم، ولأنه هو نفسه يؤدي عنا اعترافنا نحوه ونحو الآب، **يقول بولس الرسول**: «مِنْ ثَمَّ أَيُّهَا الإِخْوَةُ الْقِدِّيسُونَ، شُرَكَاءُ الدَّعْوَةِ السَّمَاوِيَّةِ، لاَحِظُوا رَسُولَ اعْتِرَافِنَا وَرَئِيسَ كَهَنَتِهِ الْمَسِيحَ يَسُوعَ» (عب٣:١) فلذلك كان قرار السماء أن يكون اجتماع بين سبط يهوذا الملكي وسبط لاوي الكهنوتي، حتى يكون المسيح الملك والكاهن الأعظم، من نسل هذَيْن السبطَيْن بعائلته في الجسد.

وفي الخروج: «وَأَخَذَ هَارُونُ أَلِيشَابَعَ بِنْتَ عَمِّينَادَابَ أُخْتَ نَحْشُونَ زَوْجَةً لَهُ فَوَلَدَتْ لَهُ نَادَابَ وَأَبِيهُوَ وَأَلِعَازَارَ وَإِيثَامَارَ» (خر٦:٢٣) قبل أن تخرج الوصية التي تُنهي عن اتخاذ زوجة من سبط آخر، اِتخذ هارون رئيس الكهنة حسب الناموس زوجة من سبط يهوذا: أليشابع (أليصابات) بنت عمِّيناداب، وكان عمِّيناداب من نسل يهوذا بعائلته. وحتى لا يُفكِّر أحد أنه عمِّيناداب آخر، فإن الكتاب المقدس يطرح جانب الخطأ فيُبيِّن بوضوح قائلاً: «بِنْتَ عَمِّينَادَابَ أُخْتَ نَحْشُونَ».

انظروا تدبير الروح القدس وسمو الحكمة والتدبير كيف جعل امرأة

زكريا، والدة المعمدان، نسيبة مريم والدة الإله، أليصابات، الأمر الذي يعود بنا إلى الوراء حتى أليصابات (أليشابع) تلك التي تزوَّجها هارون والتي بها حدث اتحاد السبطَيْن، والذي يُعلِن لنا بوضوح أنه بأليصابات هذه يكون النسب مع مريم العذراء.

لا يقل أحد أنَّ الأَسر لدى البابليين قد ألقى بلبلة بين الشعب اليهودي حتى أنه منذ ذلك الوقت لم يكن هناك تمييز بين الأجناس، وكان كل العائدين من بابل يجدون مشقة كبيرة في جمع أولاد هارون واللاويين الباقين الذين كانوا يهتمون بعادات أجدادهم، ولم يُشير المؤرخ إلى السبط الذي ينتمي إليه العائدون فقط، ولكن أيضًا إلى البلدان والقرى.

وقد تكلم لوقا البشير أيضًا عن زكريا بهذه العبارات التي تُبيِّن لنا دقته: «كَانَ فِي أَيَّامِ هِيرُودُسَ مَلِكِ الْيَهُودِيَّةِ كَاهِنٌ اسْمُهُ زَكَرِيَّا مِنْ فِرْقَةِ أَبِيَّا، وَامْرَأَتُهُ مِنْ بَنَاتِ هَارُونَ وَاسْمُهَا أَلِيصَابَاتُ» (لو١:٥).

إنَّ ربنا يسوع المسيح الذي قال عن نفسه: «لأَنَّهُ هَكَذَا يَلِيقُ بِنَا أَنْ نُكَمِّلَ كُلَّ بِرٍّ» (مت٣:١٥)، لم يدع شيئًا مما يختص بالدقة يسقط. لكنه بعد أن لاحظ كل الأشياء، اعتبرها واتمَّها، لأنَّ المسيح هو بداية ونهاية الناموس والأنبياء، وهو إله العهد القديم والجديد، وقد أشرق لأجلنا أيضًا في الجسد في آخر الأيام. **له المجد والقدرة مع الآب والروح القدس إلى أبد الدهور، آمين.**



الكتبة والفريسيّون

سلسلة مقالات الأنبا ساويرس

البطريرك الأنطاكي

١٣

الكتبة والفريسيون

عن كلمة المسيح مُخلِّصنا في الأناجيل التي قالها للفريسيين والكتبة «وَأَمَّا أَنْتُمْ فَتَقُولُونَ: مَنْ قَالَ لأَبِيهِ أَوْ أُمِّهِ: قُرْبَانٌ هُوَ الَّذِي تَنْتَفِعُ بِهِ مِنِّي. فَلاَ يُكْرِمُ أَبَاهُ أَوْ أُمَّهُ. فَقَدْ أَبْطَلْتُمْ وَصِيَّةَ اللّهِ بِسَبَبِ تَقْلِيدِكُمْ!» (مت١٥:٥، ٦) «لَيْسَ مَا يَدْخُلُ الْفَمَ يُنَجِّسُ الإِنْسَانَ، بَلْ مَا يَخْرُجُ مِنَ الفَمِ هَذَا يُنَجِّسُ الإِنْسَانَ» (مت١٥:١١)

مُترجم عن الفرنسية مِنَ الكتاب الثاني مِنَ الجزء العشرين من مجموعة

PATROLOGIA ORIENTALIS

R. Graffin – F. Nau

Les Homélies Cathédrales de Sévère d'Antioche

Homélie LXXIX

Publiée par Maurice Brière, Paris

مليكه حبيب يوسف   يوسف حبيب

١٩٦٩م

تمهيد القديس لتفسير الآية

قد مرّ وقت طويل منذ أن تحدَّثت إليكم في الكنيسة، لأني كنت منشغلاً في شن الحرب على الهراطقة أو المتمردين. فلو كنت مالكًا لناصية البيان للزم كما يقول قانون بولس الرسول أن أقنعكم وأحثَّكم حسب التعليم الصحيح، وفي نفس الوقت أدحض آراء المُعارضين «مُلاَزِمًا لِلْكَلِمَةِ الصَّادِقَةِ الَّتِي بِحَسَبِ التَّعْلِيمِ، لِكَيْ يَكُونَ قَادِرًا أَنْ يَعِظَ بِالتَّعْلِيمِ الصَّحِيحِ وَيُوَبِّخَ الْمُنَاقِضِينَ» (تي١:٩).

إنَّ بعد العودة من أسر بابل، كان هناك مَن يعملون بهِمة بكل قوتهم وكل قدرتهم لكي يُعيدوا بناء الهيكل المقدس وأسوار أورشليم، بينما كان البربر حولهم يحسدونهم. فكانوا يريدون أولاً وقبل كل شيء أن يشتركوا في هذا العمل نفاقًا منهم ورياء لإظهار تديّنهم الذي لا وجود له، وبذلك يخفون مكرهم الشرير، وكانوا يسمعون القول «لَيْسَ لَكُمْ وَلَنَا أَنْ نَبْنِيَ بَيْتًا لإِلَهِنَا» (عز٤:٣). ثم كانوا يحاولون أيضًا أن يقلبوا لهم ظهر المجن بجسارة ويحاربوهم ويحولوهم عن نشاطهم. لكنهم كانوا يجدونهم يعرفون كيف يبنون ويُحاربون في نفس الوقت، كما يشهد بذلك الكتاب المقدس في هذا التعبير: «الْبَانُونَ عَلَى السُّورِ بَنُوا وَحَامِلُو الأَحْمَالِ حَمَلُوا. بِالْيَدِ الْوَاحِدَةِ يَعْمَلُونَ الْعَمَلَ وَبِالأُخْرَى يُمْسِكُونَ السِّلاَحَ. وَكَانَ الْبَانُونَ يَبْنُونَ وَسَيْفُ كُلِّ وَاحِدٍ مَرْبُوطٌ عَلَى جَنْبِهِ وَكَانَ النَّافِخُ بِالْبُوقِ بِجَانِبِي» (نح٤:١٧، ١٨).

وبما أنه يبدو لنا أنه ليس في الاستطاعة أن نقوم بهذَيْن العملَيْن في وقت واحد، فإما أن نحارب ونكون على أهبَّة القتال من أجل معركة الرب، وإما أن نبني الكنيسة بتعاليم وإرشادات. وأشرع الآن، وقد أخذت بعض الراحة، في أن أفتح فمي الروحي لأقبل الروح القدس «فَغَرْتُ فَمِي وَلَهَثْتُ لأَنِّي إِلَى وَصَايَاكَ اشْتَقْتُ» (مز١١٩:١٣١). وحسب قول بولس الرسول، أقولها كلمة قصيرة بذهني يمكن أن تعلِّم الآخرين، وإن لم تتميز بالغزارة بل تفيض حسب الحال، ولها دوي هائل بواسطة اللسان «**وَلَكِنْ فِي كَنِيسَةٍ أُرِيدُ أَنْ أَتَكَلَّمَ خَمْسَ كَلِمَاتٍ بِذِهْنِي لِكَيْ أُعَلِّمَ آخَرِينَ أَيْضًا أَكْثَرَ مِنْ عَشْرَةِ آلاَفِ كَلِمَةٍ بِلِسَانٍ**» (١كو١٤:١٩).

بعض الناس فعلاً، يلومون صمتي ويقولون بأنه ليس مِنَ الرجاحة في شيء أن نصمت، فيسألوننا أسئلة عديدة، بعضها شأن الأطفال الصغار جدًا، والبعض الآخر من ناحية أخرى ممَن هم أكثر تقدُّمًا في السن وأشد قوة، لكنهم مع ذلك يحتاجون إما إلى اللبن أو إلى قطعة خبز، بل قطعة خبز مُفتَّتة ومقطوعة إلى أجزاء صغيرة، كان يلزمهم أن تكون لهم حواس مدربة قد صقَّلها التعليم المُحكم، فيكون في استطاعتهم أن يأخذوا طعامًا كاملاً «لأَنَّكُمْ إِذْ كَانَ يَنْبَغِي أَنْ تَكُونُوا مُعَلِّمِينَ لِسَبَبِ طُولِ الزَّمَانِ، تَحْتَاجُونَ أَنْ يُعَلِّمَكُمْ أَحَدٌ مَا هِيَ أَرْكَانُ بَدَاءَةِ أَقْوَالِ اللهِ، وَصِرْتُمْ مُحْتَاجِينَ إِلَى اللَّبَنِ لاَ إِلَى طَعَامٍ قَوِيٍّ. لأَنَّ كُلَّ مَنْ يَتَنَاوَلُ اللَّبَنَ هُوَ عَدِيمُ

الْخِبْرَةِ فِي كَلاَمِ الْبِرِّ لأَنَّهُ طِفْلٌ، وَأَمَّا الطَّعَامُ الْقَوِيُّ فَلِلْبَالِغِينَ، الَّذِينَ بِسَبَبِ التَّمَرُّنِ قَدْ صَارَتْ لَهُمُ الْحَوَاسُّ مُدَرَّبَةً عَلَى التَّمْيِيزِ بَيْنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ» (عب٥:١٢-١٤).

وإننا نخشى من سكوتنا أن نُعطي مكانًا لمرثاة إرميا التي تقول «لَصِقَ لِسَانُ الرَّاضِعِ بِحَنَكِهِ مِنَ الْعَطَشِ. الأَطْفَالُ يَسْأَلُونَ خُبْزًا وَلَيْسَ مَنْ يَكْسِرُهُ لَهُمْ» (مرا ٤:٤).

يحسُن إذًن أن نُقدّم جهرًا إحدى هذه النقاط التي تشكّك فيها بعض الأفراد خاصة، وأن نفعل ذلك بعناية ونُقدّم طعامًا ونُعدّ للآذان تعاليم عامة أمام الكنيسة.

في يوم الأحد الماضي، بعد أن سمع البعض قراءة الإنجيل المقدسة (وما كانت آذانهم غير مُبالية) سألوا هذا السؤال: ماذا يعني ما قاله ربنا للكتبة والفريسيين: «**وَأَمَّا أَنْتُمْ فَتَقُولُونَ: مَنْ قَالَ لأَبِيهِ أَوْ أُمِّهِ: قُرْبَانٌ هُوَ الَّذِي تَنْتَفِعُ بِهِ مِنِّي. فَلاَ يُكْرِمُ أَبَاهُ أَوْ أُمَّهُ. فَقَدْ أَبْطَلْتُمْ وَصِيَّةَ اللهِ بِسَبَبِ تَقْلِيدِكُمْ!**» (مت١٥:٥، ٦).

ويشرع القديس في الرد بهذا الترتيب البديع.

فرائض الشريعة الموسوية

بما أنَّ بني إسرائيل كانت لهم اِستعدادات بدائية جدًا، ونمت فيهم عادات بربرية، وكانوا لا يستطيعون أن يُفيدوا بالقوانين طهارة الروح، لذلك عنيت شريعة موسى بأن تجعلهم يتقدَّمون بواسطة تطهيرات جسدية، حتى أن مَن يمتنع عن تدنيس جسده ربما يصل بذلك أخيرًا، حينما يكون قد تعلَّم بنفسه، إلى أن يهرب أيضًا من دنس الروح وأن يبتعد عن الأعمال الميتة في الخطايا.

لهذا السبب بالحقيقة، فإنَّ موسى نفسه كان يأمر قائلاً: «مَنْ مَسَّ مَيِّتًا مَيِّتَةَ إِنْسَانٍ مَا يَكُونُ نَجِسًا سَبْعَةَ أَيَّامٍ» (عدد١٩:١١).

ومن ناحية أخرى، إذ يتقدَّم داود ويخطو إلى الأمام ويسمو في فهمه الوصايا وروحها، ويغلو عن حرفية الكلام، كان يُرنِّم: «إِلَيْكَ وَحْدَكَ أَخْطَأْتُ وَالشَّرَّ قُدَّامَ عَيْنَيْكَ صَنَعْتُ لِكَيْ تَتَبَرَّرَ فِي أَقْوَالِكَ وَتَزْكُوَ فِي قَضَائِكَ» (مز٥١:٤)، «طَهِّرْنِي بِالزُّوفَا فَأَطْهُرَ. اغْسِلْنِي فَأَبْيَضَّ أَكْثَرَ مِنَ الثَّلْجِ» (مز٥١:٧)، «رُدَّ لِي بَهْجَةَ خَلاَصِكَ وَبِرُوحٍ مُنْتَدِبَةٍ اعْضُدْنِي» (مز٥١:١٢).

لكن شيوخ الشعب الذين **كانوا بعيدين عن هذه الروح، وقد أعماهم الحرف**، كانوا يتوقفون ويلتزمون بأكثر عناية وبأكثر تدقيق بفرائض الناموس المتعلقة بالجسد، لدرجة أنهم كانوا يُطبِّقونها حتى على الأشياء

الجامدة، ويُصرُّون على تطهيرها أو غسلها وتغطيسها في الماء، سواء السرير أو الأرض أو السَبَتْ أو الغلاية، إذا سقطت فوق هذه الأشياء إحدى الجثث، أو إذا تدنَّست بلمس أي سائل أو أي جسم من هذا النوع.

تفسير الآية

وكان نفس الشيء أيضًا بالنسبة لعدم السماح لهم بأن يأكلوا بأيادي غير مغسولة. إنَّ مرقس البشير قد ذكر كل هذه العادات في مجموعها، وكل واحدة منها حسب نوعها، حينما كتب قائلاً: «**لأَنَّ الْفَرِّيسِيِّينَ وَكُلَّ الْيَهُودِ إِنْ لَمْ يَغْسِلُوا أَيْدِيَهُمْ بِاعْتِنَاءٍ، لاَ يَأْكُلُونَ، مُتَمَسِّكِينَ بِتَقْلِيدِ الشُّيُوخِ. وَمِنَ السُّوقِ إِنْ لَمْ يَغْتَسِلُوا لاَ يَأْكُلُونَ. وَأَشْيَاءُ أُخْرَى كَثِيرَةٌ تَسَلَّمُوهَا لِلتَّمَسُّكِ بِهَا، مِنْ غَسْلِ كُؤُوسٍ وَأَبَارِيقَ وَآنِيَةِ نُحَاسٍ وَأَسِرَّةٍ**» (مر٧:٣، ٤).



كان الكتبة والشيوخ والفريسيون المملوؤن غيرة من أجل هذه العادات، يتمسَّكون بها بهدف الكسب الحرام أولاً، حتى أنَّ الذين كانوا يقعون في حبائلهم كان يلزمهم أن يترددوا عليهم كثيرًا بحجة أنهم تدنَّسوا، وذلك ليُقدِّموا ذبيحة لتطهيرهم، أو لكي يسألوهم ويتعلموا ويدفعوا أيضًا أجرًا عن التعليم

الإضافي اللازم لهذه المسائل، لذلك كان ربنا نفسه يُندِّد بأمثال هذه التعاليم قائلاً: «**وَيْلٌ لَكُمْ أَيُّهَا الْكَتَبَةُ وَالْفَرِّيسِيُّونَ الْمُرَاؤُونَ لأَنَّكُمْ تُنَقُّونَ خَارِجَ الْكَأْسِ وَالصَّحْفَةِ، وَهُمَا مِنْ دَاخِلٍ مَمْلُوآنِ اخْتِطَافًا وَدَعَارَةً. أَيُّهَا الْفَرِّيسِيُّ الأَعْمَى: نَقِّ أَوَّلاً دَاخِلَ الْكَأْسِ وَالصَّحْفَةِ لِكَيْ يَكُونَ خَارِجُهُمَا أَيْضًا نَقِيًّا**» (مت٢٣: ٢٥، ٢٦).

وكانوا يُكثرون كلماتهم طلبًا للمجد الباطل، ظنًّا منهم أنه بفرائض وتقاليد ينالون درجة المُشرِّعين وسلطانهم.

وإذا كانت لهم مثل هذه الاِستعدادات القاسية، «حِينَئِذٍ جَاءَ إِلَى يَسُوعَ كَتَبَةٌ وَفَرِّيسِيُّونَ الَّذِينَ مِنْ أُورُشَلِيمَ قَائِلِينَ: **لِمَاذَا يَتَعَدَّى تَلاَمِيذُكَ تَقْلِيدَ الشُّيُوخِ فَإِنَّهُمْ لاَ يَغْسِلُونَ أَيْدِيَهُمْ حِينَمَا يَأْكُلُونَ خُبْزًا؟**» (مت١٥: ١، ٢).

يجدر بنا أن نعلم **لماذا قال «كَتَبَةٌ وَفَرِّيسِيُّونَ الَّذِينَ مِنْ أُورُشَلِيمَ»**، ولم يقل فقط «كَتَبَةٌ وَفَرِّيسِيُّونَ»؟ **وسنذكر سبب ذلك فيما يلي**: كان هناك اثني عشر سبطًا موزَّعة في أرض الميعاد، وكان سبط يهوذا وسبط بنيامين يشغلان الجزء الموجود منها حول أورشليم، بينما كانت العشرة أسباط الأخرى متفرِّقة في الأجزاء الباقية. وقد تمرَّدت هذه الأسباط الأخيرة وانفصلت وابتعدت مع يربعام، بينما كان سليمان يملك، وجعلوا العبادة لعجول الذهب بدلاً مِنَ الله.

وبعد أسر سبط يهوذا وسبط بنيامين وبعد أن نقلهم نبوخذنصّر إلى الحبشة، رجعوا منها وكان لا يزال من ينتمون إلى هذَيْن السبطَيْن يشغلون نفس بقعة الأرض، وبالتالي مدينة أورشليم أيضًا، وكان لهم أيضًا اهتمام بحفظ الناموس وتقاليد آبائهم حفظًا كاملاً. أما العشرة أسباط الأخرى فقد أسرهم شلمنصر الأشوري في أيام هوشع ملك إسرائيل، وأسكنهم على الحدود، وأرسل بدلاً منهم قومًا إلى بلادهم من بابل والأمم والمناطق المُجاورة كانت الوحوش قد أهلكتهم حتى جاء أحد الكهنة الأسرى إليهم وعلَّمهم ناموس موسى.

هؤلاء المستعمرون كانوا يخدمون بدون تمييز إله الناموس والشياطين، كما يقول الكتاب المقدس: «**فَكَانَ هَؤُلاَءِ الأُمَمُ يَتَّقُونَ الرَّبَّ وَيَعْبُدُونَ تَمَاثِيلَهُمْ، وَأَيْضًا بَنُوهُمْ وَبَنُو بَنِيهِمْ. فَكَمَا عَمِلَ آبَاؤُهُمْ هَكَذَا هُمْ عَامِلُونَ إِلَى هَذَا الْيَوْمِ**» (٢مل١٧:٤١).

هكذا كان كل الذين سكنوا فيما بعد، جعلوا مقامهم في هذه المناطق، وكانوا هم أيضًا مرضى ضرورة بغلاظة العبادة الممتزجة وما بها من تشويش وإرتباك. هذا ما اختص به الكتبة والفريسيون في أورشليم في الآية: «حِينَئِذٍ جَاءَ إِلَى يَسُوعَ كَتَبَةٌ وَفَرِّيسِيُّونَ الَّذِينَ مِنْ أُورُشَلِيمَ» فكانوا في إحدى أمهات المدن حيث الهيكل وحيث توجد الذبيحة القانونية، وهم الذين كانوا يُنادون عاليًا بحفظ هذه التقاليد حفظًا تامًا، ويحملون بين أضلعهم العجرفة والكبرياء الذي يتأتى عنها، ويُسمُّونها "وقار الشيوخ"

ويدينون الإنسان الذي يأكل دون أن يغسل يديه، ويعتبرون ذلك غلطة كبيرة جدًا.

فماذا كان ردّ يسوع، الله، الكلمة، حكمة الآب؟ إنه لا يعفيهم مِنَ التوبيخ يعلنهم به. وكان يمكنه أن يقول لهم "إنَّ الرسل لا يحتاجون لغسل الأيدي الجسدية، بعد أن حملوا صليبهم وتبعوني، وهم أطهار من كل عمل شرير، وقد غسلوا في الطهارة أيدي قلوبهم العقلية، وأنهم يعيشون حياة بسيطة، لا تُقيِّدهم المهنة وإنما تتقدَّم إليهم تلقائيًا حسبما يتفق، لدرجة أنهم أحيانًا يفركون بعض السنابل، وهكذا يسدُّون حاجتهم إلى الطعام".

لا يحق إذن أن نلوم البعض في هذه الحالة إذا كانوا يأكلون دون أن يغتسلوا، كما لا يحق أن نلوم العصافير التي تجمع الحبوب. لأنهم بعد أن استحموا في سمو الكمال وغسلوا وطهَّروا الإنسان الداخلي من كل شر، قد بيَّنوا أن تقليد الشيوخ الذي يغسل الأيادي الخارجية غير ضروري.

بنفس الأسلوب كان بطرس الرسول فعلاً يسمع القول: «الَّذِي قَدِ اغْتَسَلَ لَيْسَ لَهُ حَاجَةٌ إِلاَّ إِلَى غَسْلِ رِجْلَيْهِ، بَلْ هُوَ طَاهِرٌ كُلُّهُ» (يو١٣:١٠).

وأيضًا كان يمكن أن يقول لهم: "ولكن التلاميذ لم يتعدّوا التقليد كما تقولون أنتم أنفسكم، لأنه ليس عن احتقار ولا عن كسل ولا عن خيانة ولا عن حياة متعة، قد تخطّوا التقليد، لكنهم أحاطوا قصور التقليد الذي ينحصر فقط في طهارة الجسد، بسمو الروح وتألُّقها، كما أنَّ مَن يقبل

الوصية التي تأمر بعدم الغضب ويحفظها، فإنه يُبيِّن أن الوصية التي تُنهي عن القتل (خر٢٠:١٣) تكون نافلة، لأنَّ مَن لا يصل إلى حد الغضب، كيف يصل إلى القتل؟"

إذًا لم يقُل ربنا بهذه العبارات، بل أشار إلى العكس كما سنُبيِّن ذلك بعد. فهبَّ ينقض اللوم الذي حمله الكتبة والفريسيون للرسل، ولامهم هم أنفسهم بدوره بشدَّة. لأنه بعد أن ذكرهم تقليد الشيوخ، لم يقُل "لماذا يتعدَّى الشيوخ هم أنفسهم أيضًا وصية الله بسبب تقليدهم" وإلا كان يتصوّر الفريسيون أنفسهم أنَّ الأمر لا يتعلق بعيب هو فيهم أنفسهم، وأنهم أخذوا على عاتقهم الدفاع عن الآخرين، وبذلك يدفعون السامع لتأييدهم.

لكنه قال: «وَأَنْتُمْ أَيْضًا، لِمَاذَا تَتَعَدَّوْنَ وَصِيَّةَ اللَّهِ بِسَبَبِ تَقْلِيدِكُمْ؟» (مت١٥:٣). وهكذا أرجع الاتهام ضدَّهم، وتجنَّب سماع اللوم والحكم ضد الشيوخ، حتى البعيدين منهم.

وصية إكرام الوالدين

لننظر إذًا في أي شيء كان تعدّي الوصية. قال السيد: «فَإِنَّ اللَّهَ أَوْصَى قَائِلاً: أَكْرِمْ أَبَاكَ وَأُمَّكَ وَمَنْ يَشْتِمْ أَبًا أَوْ أُمًّا، فَلْيَمُتْ مَوْتًا. وَأَمَّا أَنْتُمْ فَتَقُولُونَ: مَنْ قَالَ لأَبِيهِ أَوْ أُمِّهِ: قُرْبَانٌ هُوَ الَّذِي تَنْتَفِعُ بِهِ مِنِّي. فَلاَ يُكْرِمُ أَبَاهُ أَوْ أُمَّهُ. فَقَدْ أَبْطَلْتُمْ وَصِيَّةَ اللَّهِ بِسَبَبِ تَقْلِيدِكُمْ!» (مت١٥:٤-٦).

ترى كيف أنه في البداية وفي النهاية يوجِّه إليهم سبب الاتهام، فيقول تارة «وَأَمَّا أَنْتُمْ فَتَقُولُونَ» وطورًا «بِسَبَبِ تَقْلِيدِكُمْ» دون أن يذكر الشيوخ بتاتًا.

ورُبَّ مُعترِض يقول: "يبدو لي أنَّ الأشياء المكتوبة ليست لها علاقة بعضها ببعض، فما هو العامل المُشترك بين لوم الفريسيين والكتبة للتلاميذ لأنهم لا يغسلون أيديهم، وبين الوصيّة التي تأمر بإكرام الأب والأم.

لكن إذا أنت أمعنت النظر، فلسوف ترى أن الأشياء المكتوبة تتفق جيدًا جدًا فيما بينها، وأنها قريبة جدًا من بعضها، وليست بعيدة على الإطلاق.

كان الشيوخ والفريسيين والكتبة **مرضى بداء البُخل**، كما قلت، فكانوا يرتاحون إلى البحث الذي يدور حول التقاليد، وحينما وجدوا أنَّ الوصية التي تقول: «أَكْرِمْ أَبَاكَ وَأُمَّكَ لِتَطُولَ أَيَّامُكَ عَلَى الأَرْضِ الَّتِي يُعْطِيكَ الرَّبُّ إِلَهُكَ» (خر١٢:٢٠) تضرّهم أو تسحب منهم الربح الذي كانوا يحرصون عليه، حينئذ فكَّروا ماذا يخترعون وإلى أين يذهبون، هم يعترضون ويُقيمون ضدها أكبر الوصايا في الرتبة والقوة، تلك الوصية التي شرَّعت وأمرت: «إِسْمَعْ يَا إِسْرَائِيلُ: الرَّبُّ إِلَهُنَا رَبٌّ وَاحِدٌ. فَتُحِبُّ الرَّبَّ إِلَهَكَ مِنْ

كُلِّ قَلبِكَ وَمِنْ كُلِّ نَفْسِكَ وَمِنْ كُلِّ قُوَّتِكَ» (تث٦:٤، ٥) وذلك بقصد هدم الوصية الأخرى.

كان البنون فعلاً يُيسِّرون لآبائهم النفع بكل ما عسى أن يجدوه، وكانوا يعطونهم إياه، لدرجة أن ما كانوا يحصلون عليه كان يبدو كأنه ملك للآباء وليس للبنين. هذا ما يعرِّفنا به أيضًا يعقوب أبو الآباء، إذ أن شمعون ولاوي نهبا مدينة شكيم بعد أن أخذاها حسب قانون الحرب، وكان أبوهما هو الذي تركها عند موته ليوسف، كما لو كان حصل عليها هو ذاته، قائلاً: «وَأَنَا قَدْ وَهَبْتُ لَكَ سَهْمًا وَاحِدًا فَوْقَ إِخْوَتِكَ أَخَذْتُهُ مِنْ يَدِ الأَمُورِيِّينَ بِسَيْفِي وَقَوْسِي» (تك٤٨:٢٢).

ومع ذلك كان البنون أنفسهم يعتبرون أنفسهم أنهم لا يملكون شيئًا من مكاسبهم الشخصية ومن أرباحهم، وفي كل شيء كانوا يتنازلون إلى والديهم خشية أن يتعدّوا بذلك بعض الشيء الناموس الذي يأمر بإكرامهم.

ففيم إذًا كان الاعتراض في تقليد الشيوخ الموقَّر؟ في أنه للأبناء أن يُعلنوا مُقدَّمًا ويُشهِدوا مُقدَّمًا بطريقة ما إذ يقولون لأبيهم وأمهم: "كل ما يمكن أن تستفيدوا منه مني أو كل ما يمكن أن تنتفعوا به منا أو يؤول إلى المنفعة، هو قربان سبق أن قدَّمته وقد جعلته جانبًا وكرسته لله". فكان الآباء في إرتباكهم يجدون أنفسهم داخلين في معركة ضد الناموس الخطير الذي يأمر بأن يكون الله مُكرَّمًا فوق الكل، فيلتزمون بالموافقة، ولا

يجرأون حتى على لمس الأشياء التي سبق إعطاؤها بموجب وعد الأشياء المنذورة التي وضعت جانبًا لأنها أشياء مقدسة. بهذه الطريقة المكرة كان البنون الذين يطلقون آباءهم مِنَ الدين الذي أمر به الناموس يشتركون مع الشيوخ في هذه العطايا الممقوتة.

وقد أوضح مرقس البشير بأكثر وضوح ما كتبه متى البشير بقوله: «**وَأَمَّا أَنْتُمْ فَتَقُولُونَ: إِنْ قَالَ إِنْسَانٌ لأَبِيهِ أَوْ أُمِّهِ: قُرْبَانٌ، أَيْ هَدِيَّةٌ، هُوَ الَّذِي تَنْتَفِعُ بِهِ مِنِّي فَلاَ تَدَعُونَهُ فِي مَا بَعْدُ يَفْعَلُ شَيْئًا لأَبِيهِ أَوْ أُمِّهِ**» (مر٧:١١، ١٢)، وفي اللغة العبرية كلمة "قربان" معناها تقدمة أو عطية موضوعة جانبًا ومُكرَّسة لله.

لهذا السبب فإنَّ رؤساء الكهنة الذين دفعوا ليهوذا ثمن خيانته للمسيح واعتبروها ضد الله إذ لم يُريدوا أن يشتركوا في نجاسة الثلاثين مِنَ الفضة، قالوا: «لاَ يَحِلُّ أَنْ نُلْقِيَهَا فِي الْخِزَانَةِ لأَنَّهَا ثَمَنُ دَمٍ» (مت٢٧:٦). وهكذا كانوا يعطون اسم "**قربان**" لصندوق العطايا والتقدمات التي تُقدَّم لله. وجاء في رسالة يهوذا: «وَيْلٌ لَهُمْ لأَنَّهُمْ سَلَكُوا طَرِيقَ قَايِينَ، وَانْصَبُّوا إِلَى ضَلاَلَةِ بَلْعَامَ لأَجْلِ أُجْرَةٍ، وَهَلَكُوا فِي مُشَاجَرَةِ قُورَحَ» (يه١١)، وأيضًا بعد ذلك بقليل: «هؤُلاَءِ هُمْ مُدَمْدِمُونَ مُتَشَكُّونَ، سَالِكُونَ بِحَسَبِ شَهَوَاتِهِمْ، وَفَمُهُمْ يَتَكَلَّمُ بِعَظَائِمَ، يُحَابُونَ بِالْوُجُوهِ مِنْ أَجْلِ الْمَنْفَعَةِ» (يه١٦).

فتأمل إذًا الآن كيف يدفع مُخلصنا إتهام الفريسيين بطريقة لائقة ومستورة، بتبكيتهم وتوجيه اللوم إليهم بدوره. فكما كان هؤلاء يأخذون على الرسل أنهم لا يتطهَّروا لأنهم كانوا يأكلون دون أن يغسلوا أيديهم، كذلك أظهر ربنا له المجد أنه أيضًا كان ينقصهم الطهارة الحقيقية، لأنهم كانوا يهدمون وصية الله ببخلهم، بينما كان الرسل يجتهدون ليس فقط حتى لا يكونوا بخلاء، بل أيضًا لكي يكونوا فقراء تمامًا. لأنَّ مَن له مثل هذا الاِستعداد، هو ذاته الذي تكون يداه طاهرتَيْن. اسمع إشعياء النبي الذي يقول: «السَّالِكُ بِالْحَقِّ وَالْمُتَكَلِّمُ بِالاِسْتِقَامَةِ الرَّاذِلُ مَكْسَبَ الْمَظَالِمِ النَّافِضُ يَدَيْهِ مِنْ قَبْضِ الرَّشْوَةِ الَّذِي يَسُدُّ أُذُنَيْهِ عَنْ سَمْعِ الدِّمَاءِ وَيُغَمِّضُ عَيْنَيْهِ عَنِ النَّظَرِ إِلَى الشَّرِّ هُوَ فِي الأَعَالِي يَسْكُنُ. حُصُونُ الصُّخُورِ مَلْجَأُهُ. يُعْطَى خُبْزَهُ وَمِيَاهُهُ مَأْمُونَةٌ» (إش٣٣:١٥، ١٦).

فهذا يتفق أيضًا مع دحض البخل، وكأنه يقول: "إذا كنتم أنتم أيها الفريسيون والكتبة قد اخترعتم في قساوتكم أن تخفوا تحت الوصية العُظمى التي تأمر بأن «تُحِبُّ الرَّبَّ إِلهَكَ مِنْ كُلِّ قَلبِكَ وَمِنْ كُلِّ نَفْسِكَ وَمِنْ كُلِّ قُوَّتِكَ» (تث٦:٤، ٥) الوصية الأصغر التي تأمر بإكرام الآباء قائلين بتقليدكم سائرين في طمعكم في الربح: «مَنْ قَالَ لأَبِيهِ أَوْ أُمِّهِ: قُرْبَانٌ هُوَ الَّذِي تَنْتَفِعُ بِهِ مِنِّي. فَلاَ يُكْرِمُ أَبَاهُ أَوْ أُمَّهُ» (مت١٥:٥) فكيف لا تتركون الرسل الأطهار الذين تتمثَّل فيهم عظمة الكمال الشامل حسب الإنسان الداخلي، ليتركوا تقليدكم غير الخالص حقيقة بشأن طهارة اليدين وحَسبه البياض الخارجي، ولا يعبأ بما في الداخل، كما يحدث للقبور المبيضة

«تَظْهَرُ مِنْ خَارِجٍ جَمِيلَةً، وَهِيَ مِنْ دَاخِلٍ مَمْلُوءَةٌ عِظَامَ أَمْوَاتٍ وَكُلَّ نَجَاسَةٍ» (مت٢٣:٢٧) كما يقول الإنجيل في مكان آخر.

بعد أن لاشى الرب يسوع بهذه الكلمات اتهام الفريسيين، ولم يفعل الرب ذلك فحسب، بل أظهر أنهم هم أنفسهم مُمسكون بموضوع إتهامهم، مسَّهم بطريقة حكيمة إلهية، وأظهر أنه بالقلب وليس بالحميم الخارجي نحكم بالطهارة وغيرها، مُشيرًا أيضًا إلى النبي إشعياء بقوله: «**يَا مُرَاؤُونَ! حَسَنًا تَنَبَّأَ عَنْكُمْ إِشَعْيَاءُ قَائِلاً: يَقْتَرِبُ إِلَيَّ هَذَا الشَّعْبُ بِفَمِهِ، وَيُكْرِمُنِي بِشَفَتَيْهِ، وَأَمَّا قَلْبُهُ فَمُبْتَعِدٌ عَنِّي بَعِيدًا**» (مت١٥:٧، ٨).

بعد أن أظهر أنَّ النبي قد دعا تعاليم الفريسيين تعاليم بشرية ليس فيها ما يهتم بالناموس أو بما لله، وكل ما فيها بشري، وبعد أن ذكر الشعب أيضًا، ينقل إليه في الحال في ذلك الزمان مُعلِّمًا إيانا كما هو مكتوب: «أَرَيْتُكَ طَرِيقَ الْحِكْمَةِ. هَدَيْتُكَ سُبُلَ الاِسْتِقَامَةِ» (أم٤:١١)، فهو يقول مُخاطِبًا الجمع: «**ثُمَّ دَعَا الْجَمْعَ وَقَالَ لَهُمُ: اسْمَعُوا وَافْهَمُوا. لَيْسَ مَا يَدْخُلُ الْفَمَ يُنَجِّسُ الإِنْسَانَ، بَلْ مَا يَخْرُجُ مِنَ الفَمِ هَذَا يُنَجِّسُ الإِنْسَانَ**» (مت١٥:١٠، ١١).

يقول أنَّ الفريسيين إذ يهتمّون بوصايا الشيوخ البشرية، كانوا يلومونني بسؤالهم: «لِمَاذَا يَتَعَدَّى تَلاَمِيذُكَ تَقْلِيدَ الشُّيُوخِ فَإِنَّهُمْ لاَ يَغْسِلُونَ أَيْدِيَهُمْ حِينَمَا يَأْكُلُونَ خُبْزًا؟» (مت١٥:٢) وأنا أقول ليس فقط أنَّ الرسل أرفع من هذه الوصايا، لكن أيضًا أنَّ الوقت قد حان فلن نعود نهتم بتعاليم

الناموس وما بها من غِلظة وما يتعلق بالأطعمة. فقد كان الناموس يأمرنا أن نأكل من هذا الشيء أو ذاك، وأن نبتعد عن هذا الشيء أو ذاك، ليس لأنَّ في الأطعمة الطهارة التي هي حسب الروح، أو النجاسة، لكن لكي لا نقبل على كل شيء مثل البهائم المتوحِّشة بفم ليس له ضابط، ولكي لا نجعل الله غاية للطعام، لذلك قال أيضًا: «فَرِيضَةً دَهْرِيَّةً فِي أَجْيَالِكُمْ فِي جَمِيعِ مَسَاكِنِكُمْ: لاَ تَأْكُلُوا شَيْئًا مِنَ الشَّحْمِ وَلاَ مِنَ الدَّمِ» (لا٣:١٧). ذلك لأنه يُسمِّن الجسد ويؤدي إلى الفسق، بما يذكر بالحيوان المتوحش والبربرية. وبما أنَّ كلمة الإنجيل تأمرنا أن ننظر إلى طيور السماء: «أُنْظُرُوا إِلَى طُيُورِ السَّمَاءِ: إِنَّهَا لاَ تَزْرَعُ وَلاَ تَحْصُدُ وَلاَ تَجْمَعُ إِلَى مَخَازِنَ، وَأَبُوكُمُ السَّمَاوِيُّ يَقُوتُهَا. أَلَسْتُمْ أَنْتُمْ بِالْحَرِيِّ أَفْضَلَ مِنْهَا» (مت٦:٢٦) وأن نسعى مثلها نحو الطعام البسيط الذي يأتي مِنَ الحبوب بدون تكلُّف، فلذلك يكون زائدًا عن الحاجة أن نعمل ترتيبًا خاصًا بأنواع الأطعمة لأنه يقول: «لَيْسَ مَا يَدْخُلُ الْفَمَ يُنَجِّسُ الإِنْسَانَ، بَلْ مَا يَخْرُجُ مِنَ الفَمِ هَذَا يُنَجِّسُ الإِنْسَانَ» (مت١٥:١١) أي ما يخرج مِنَ القلب، «لأَنْ مِنَ القَلْبِ تَخْرُجُ أَفْكَارٌ شِرِّيرَةٌ: قَتْلٌ، زِنىً، فِسْقٌ، سِرْقَةٌ، شَهَادَةُ زُورٍ، تَجْدِيفٌ» (مت١٥:١٩).

ماذا ينفعك إذًا أيها الفريسي ألا تأكل شحمًا ومع ذلك تصل إلى الشهوات التي تخرج مِنَ القلب وتُدنِّس الإنسان؟ لأنه مِنَ القلب تأتي أولاً حركة اللذة عمدًا. أو أي منفعة تكون لك حينما تمتنع عن دم الحيوانات الغير العاقلة، بينما تصير قاسيًا مثل الحيوان المتوحش وتهرق دم الإنسان؟

وهكذا تنسى حقًا ما يريده الناموس لأنك تبحث عما يدخل الفم ولا يُنجِّس الإنسان، ولا تُبالي بما يخرج مِنَ الفم ويُنجِّس الإنسان. لأنه من أجل ما يخرج مِنَ الفم كان الناموس منذ البدء، ومن أجل هذا قد أمرت أن تمتنع عما يدخله.

فإذا قال أحد: "لو كان ما يدخل الفم لا ينجِّس، فماذا فيما كان يطلب مِنَ الشهداء أن يأكلوا ما ذُبح للأوثان؟".

نُجيب أنَّ مَن كان له هذه المشاعر قد نسى أن الطعام لم يُذكر لذاته، بل لأنه ممتزج بالتجديف. وهو يُنجِّس الإنسان ليس لأنه طعام، لكن لأنه يتصف بالتجديف والنجاسة، وأما كون التجديف يخرج مِنَ القلب، فهذا شيء معلوم. ولا سيما إذا كان لا يقرّ سلفًا أن يُقدِّم الخضوع لله، وكان مستعدًا للتجديف، فما كان يلزمه أن يتذوَّق تلك الذبيحة النجسة. وقد شهد بولس الرسول في رسالته إلى أهل كورنثوس أنَّ الطعام ذاته لا يستطيع أن يُنجِّس، بل أن الاِستعداد الروحي الذي به يؤخذ الطعام هو الذي يُنجِّس، فقال: «**وَإِنْ كَانَ أَحَدٌ مِنْ غَيْرِ الْمُؤْمِنِينَ يَدْعُوكُمْ وَتُرِيدُونَ أَنْ تَذْهَبُوا فَكُلُّ مَا يُقَدَّمُ لَكُمْ كُلُوا مِنْهُ غَيْرَ فَاحِصِينَ مِنْ أَجْلِ الضَّمِيرِ. وَلَكِنْ إِنْ قَالَ لَكُمْ أَحَدٌ: «هَذَا مَذْبُوحٌ لِوَثَنٍ» فَلاَ تَأْكُلُوا مِنْ أَجْلِ ذَاكَ الَّذِي أَعْلَمَكُمْ وَالضَّمِيرِ. لأَنَّ لِلرَّبِّ الأَرْضَ وَمِلأَهَا**» (١كو١٠:٢٧، ٢٨).

لهذا السبب قد جاهد المكابيين جيدًا في المعركة وفقًا للناموس، لأنهم لم يريدوا أن يتعدّوا الناموس ويأكلوا لحم الخنزير بطريقة نجسة.

كانت الفرائض الرمزية سائدة إلى ذلك الوقت، وكان السلوك بحسب حرفية الناموس هو المعمول به، لأنَّ كل مَن كان يأكل ما هو مُحرَّم كان يتدنَّس ويصير نجسًا ليس لمجرد تناوله طعامًا، لكن لأنه كان يأكل شيئًا مُحرَّمًا.

إلغاء حرفية الناموس

وبعد مجيء المسيح **ألغى الحرف**، وأكَّد ما يخرج روح الناموس بالحياة الإنجيلية السامية، **فضبط ما يخرج مِنَ الفم وما يخرج مِنَ القلب** ويُدنِّس الإنسان أيضًا، **وحقق نظرة الشهوة بعقاب الزنا، وحقَّق حركة الغضب بعقاب القتل**. فمنذ ذلك الحين ما يدخل الفم لا يُدنِّس الإنسان بعد، لأنَّ الذي يحيا في المسيح بطريقة إنجيلية سامية ليس تحت فرائض ناموسية بخصوص الأطعمة.

أما مع الفريسيين الذين لم يفهموا في ذلك الوقت هذه الكلمة، وكانوا يظنون أنَّ حفظ الناموس ينحصر في الأطعمة، فكانوا مِنَ العاثرين، وكذلك مع الرسل الذين اختبروا نفس الشعور أيضًا، فكان يتصرَّف بحلم وبهدوء.

وفي حديثه عن هذا الموضوع أخيرًا فصل الخطاب: «**وَأَمَّا الأَكْلُ بِأَيْدٍ غَيْرِ مَغْسُولَةٍ فَلاَ يُنَجِّسُ الإِنْسَانَ**» (مت١٥:٢٠) حتى ليتبيِّن قوله عن موضوع ما يُنجِّس الإنسان وليس عن حفظ الوصية الخاصة بالأطعمة.

وقد بيَّن بطرس الرسول في سفر الأعمال أنه منذ البدء كان يبدو ذلك صعبًا حتى على الرسل، وذلك حينما رأى في رؤياه الملاءة من كل الطيور والزواحف والدواب وسمع الكلمات القائلة «قُمْ يَا بُطْرُسُ اذْبَحْ وَكُلْ» (أع١٠:١٣)، فردّ: «كَلاَّ يَا رَبُّ لأَنِّي لَمْ آكُلْ قَطُّ شَيْئًا دَنِسًا أَوْ نَجِسًا» (أع١٠:١٤).

وقد أوضح الرسل بطريقة مُميِّزة أنهم عُثروا، قالوا: «**أَتَعْلَمُ أَنَّ الْفَرِّيسِيِّينَ لَمَّا سَمِعُوا الْقَوْلَ نَفَرُوا؟**» (مت١٥:١٢).

لذلك فقد هاجم يسوع الفريسيين بشدَّة قائلاً: «**فَأَجَابَ وَقَالَ: كُلُّ غَرْسٍ لَمْ يَغْرِسْهُ أَبِي السَّمَاوِيُّ يُقْلَعُ. اُتْرُكُوهُمْ. هُمْ عُمْيَانٌ قَادَةُ عُمْيَانٍ. وَإِنْ كَانَ أَعْمَى يَقُودُ أَعْمَى يَسْقُطَانِ كِلاَهُمَا فِي حُفْرَةٍ**» (مت١٥:١٣، ١٤). أطلق على الفرع من فروع التقاليد الفريسية التي تتمسك بحرفية الناموس، غرس لم يغرسه الله، تلك تثير الجدل، جوفاء، ليس لها مغزى، وهي لا تتفق مع الناموس الذي وضعه الله تعالى.

وفعلاً نجد أنَّ الكفرة لم تنقصهم طلاقة اللسان النجس الذي يُحارِب الله. ولهذا السبب قد وصف السيد المسيح الفريسيين بالعُميان لأنهم ثبَّتوا

عينهم على الحرف ولم يريدوا أن ينظروا إلى الروح والمعنى الداخلي. وقد ترتَّب على ذلك أيضًا أنه تعالي أمر بالإعراض عنهم حينما عثروا بدون سبب، إذ قال: «أُتْرُكُوهُمْ. هُمْ عُمْيَانٌ قَادَةُ عُمْيَانٍ. وَإِنْ كَانَ أَعْمَى يَقُودُ أَعْمَى يَسْقُطَانِ كِلاَهُمَا فِي حُفْرَةٍ» (مت١٥:١٤). ولكي يُبعِد الجموع أيضًا عن تعليم الفريسيين المُهلِك، فقد بيَّن أنه ثمة خطورة كبيرة في إتخاذنا قادة عميان للاسترشاد بهم في طريق الأعمال الواجبة.

إلا أنه حينما قال جُباة الدرهمَيْن للرسل: «أَمَا يُوفِي مُعَلِّمُكُمُ الدِّرْهَمَيْنِ؟» (مت١٧:٢٤). بعد أن بيَّن أنه مُعفى وغير خاضع للضريبة لأنه ابن حقيقي للملك وإله مِنَ إله، قال لبطرس «وَلَكِنْ لِئَلا نُعْثِرَهُمْ، اذْهَبْ إِلَى الْبَحْرِ وَأَلْقِ صِنَّارَةً، وَالسَّمَكَةُ الَّتِي تَطْلُعُ أَوَّلاً خُذْهَا، وَمَتَى فَتَحْتَ فَاهَا تَجِدْ إِسْتَارًا، فَخُذْهُ وَأَعْطِهِمْ عَنِّي وَعَنْكَ» (مت١٧:٢٧) مُعلِّمًا إيانا في الأعمال الدنيوية وفي كل ما يتعلَّق بالخيرات والأموال، ألا نحتقر الذين يُعثَرون، وألا نعبأ بالذين هم أشبه بالفريسيين يحفظون التعليم الإلهي ويتذكَّرونه بغيرة حينما يعثرون.

لأنه حينما كان اليهود والوثنيون يعثرون ويستهزئون بالبشارة وبالصليب، لم يكن بولس الرسول في ذلك ليسكت، بل بالعكس كان يقول: «وَلَكِنَّنَا نَحْنُ نَكْرِزُ بِالْمَسِيحِ مَصْلُوبًا: لِلْيَهُودِ عَثْرَةً وَلِلْيُونَانِيِّينَ جَهَالَةً!» (١كو١:٢٣) هكذا يجب علينا إذًا أن نؤدي أعمالنا الروحية

اللاهوتية حتى لو كان الوثنيون واليهود أو أي عدو آخر لله، يتمزَّق من جرَّاء عثرته.

يجب أن نبتعد عن تقاليد الفريسيين وما يشبهها أيضًا، فإنَّ منها تنحدر تلك الأشياء التي تُدعى أحجية، وتلك السيور الجلدية المربوطة بخيوط الكتان، يُعلِّقها بعض الناس في رقابهم أو في أي عضو آخر، لأنَّ المسيح ربنا يقول في الإنجيل عن الفريسيين «وَكُلَّ أَعْمَالِهِمْ يَعْمَلُونَهَا لِكَيْ تَنْظُرَهُمُ النَّاسُ: فَيُعَرِّضُونَ عَصَائِبَهُمْ وَيُعَظِّمُونَ أَهْدَابَ ثِيَابِهِمْ» (مت٢٣:٥).

ويُروى في سفر الأعمال أنَّ المناديل والعصائب التي كانوا يأخذونها من على جسد بولس الرسول كانت تُذهِب الأمراض إذا وضعوها على المرضى «حَتَّى كَانَ يُؤْتَى عَنْ جَسَدِهِ بِمَنَادِيلَ أَوْ مَآزِرَ إِلَى الْمَرْضَى فَتَزُولُ عَنْهُمُ الأَمْرَاضُ وَتَخْرُجُ الأَرْوَاحُ الشِّرِّيرَةُ مِنْهُمْ» (أع١٩:١٢). لكنهم كانوا يفعلون ذلك بحسب عادة من عادات الشعب بدون علم بولس ولم يكن بولس يعلم ذلك. والكتاب المُقدَّس يوصي: «أَمَرِيضٌ أَحَدٌ بَيْنَكُمْ؟ فَلْيَدْعُ شُيُوخَ الْكَنِيسَةِ فَيُصَلُّوا عَلَيْهِ وَيَدْهَنُوهُ بِزَيْتٍ بِاسْمِ الرَّبِّ، وَصَلاَةُ الإِيمَانِ تَشْفِي الْمَرِيضَ وَالرَّبُّ يُقِيمُهُ، وَإِنْ كَانَ قَدْ فَعَلَ خَطِيَّةً تُغْفَرُ لَهْ» (يع٥:١٤، ١٥).

ترى أنَّ زيت القديسين الذي ندهن به حسب الوصية يُخلِّص ليس فقط مِنَ المرض، بل أيضًا من كثرة الخطايا. إذًا فما يكون مسموحًا بعمله بطريقة صحيحة وما يمكن أن تكون له منفعة مثل هذه، لماذا تخطئ في

فعله وتخسره، حينما ينصبّ اهتمامك على الأربطة والشرائط التي تضعها حول يدك أو حول عنقك؟ ربما تُعلِّقها أنت على جسدك بعد أن تكون قد أخذتها مِنَ القديسين فعلاً، أما آخرون فقد يُعلِّقونها بعد أن يكونوا قد أخذوها من اختراع شيطاني أو سحر.

بما إذًا نُميِّز الفرق لنتفادى الخسارة؟ في الواقع حتى لو كنت أنت نفسك لا تخسر شيئًا كما قلت، إلا أنك تُسبِّب للآخرين ما يُحرجهم بقدوتك. لذلك كان بعض المسيحيين في كورنثوس، ليس عن طريق عبادة الأصنام، بل حسب عادة غير معقولة، يذهبون إلى الولائم ويجلسون على الموائد ويقولون مثلكم أنهم لا يخسرون شيئًا البتة بذلك، فنجد بولس الرسول يكتب لهم: «**لأَنَّهُ إِنْ رَآكَ أَحَدٌ يَا مَنْ لَهُ عِلْمٌ مُتَّكِئًا فِي هَيْكَلِ وَثَنٍ أَفَلاَ يَتَقَوَّى ضَمِيرُهُ إِذْ هُوَ ضَعِيفٌ حَتَّى يَأْكُلَ مَا ذُبِحَ لِلأَوْثَانِ؟ فَيَهْلِكَ بِسَبَبِ عِلْمِكَ الأَخُ الضَّعِيفُ الَّذِي مَاتَ الْمَسِيحُ مِنْ أَجْلِهِ. وَهَكَذَا إِذْ تُخْطِئُونَ إِلَى الإِخْوَةِ وَتَجْرَحُونَ ضَمِيرَهُمُ الضَّعِيفَ تُخْطِئُونَ إِلَى الْمَسِيحِ. لِذَلِكَ إِنْ كَانَ طَعَامٌ يُعْثِرُ أَخِي فَلَنْ آكُلَ لَحْمًا إِلَى الأَبَدِ لِئَلاَّ أُعْثِرَ أَخِي**» (١كو٨:١٠-١٣).

يجب إذًا أن نقطع هذه العادات الغير معقولة إذا عرفنا أنَّ بها نتسبَّب للغير أن يُصيبهم الضرر. قلت لكم هذا، ليس لكي أنصب لكم فخًّا، بل لكي أجعلكم وقت تعليمكم قادرين على فحص الأمور ومتمكنين مما يليق بكم أن تفعلوه، ولكي أقنعكم ألا تحكموا على شيء قبل الوقت.

ولا تقولوا إن هذا البطريرك قد أعطاكم وصية شديدة جدًا وصعبة جدًا لأنَّ عظمة هذا اللقب تزيد أيضًا من مسؤوليتي، وأني أرتاح بالرغم من ذلك، مُنتظرًا وقت الكلام بمثابرة، كقول سُليمان في سفر الجامعة: «لِلسُّكُوتِ وَقْتٌ وَلِلتَّكَلُّمِ وَقْتٌ» (جا٣:٧).

فكل ما نفعله إذًا فإننا نفعله رأفة بأرواحكم حتى إذا فعلتم الخير ليس عن اضطرار بل برضاكم تصيرون كاملين: «فَكُونُوا أَنْتُمْ كَامِلِينَ كَمَا أَنَّ أَبَاكُمُ الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ هُوَ كَامِلٌ» (مت٥:٤٨) **له يليق المجد مع المسيح والروح القدس الآن وكل أوان وإلى دهر الداهرين آمين.**





القديسة تكلا

البتول أولى الشهيدات

سلسلة مقالات الأنبا ساويرس

البطريرك الأنطاكى

معها نصوص أخرى

١٤

القديسة تكلا البتول

أولى الشهيدات

الجزء الأول

مُترجم عن الفرنسية مِنَ الكتاب الأولى مِنَ الجزء الخامس والعشرين عن مجموعة:

PATROLOGIA ORIENTALIS

R. Graffin – F. Nau

Les Homélies Cathédrales de Sévère d'Antioche

Traduites et publiés par Maurice Brière

مليكه حبيب يوسف   يوسف حبيب

١٩٧٠م

مقدمة



للقديس ساويرس البطريرك الأنطاكي مقال رائع عن القديسة تكلا. وإننا نرى بعد طول الإمعان أنَّ **القديس الذي لمع نجمه في استقصاء السير المقدسة وأجهد فكره ليُبرِز لنا هذه السيرة بما هو جدير بها مِنَ التبجيل، خليق بأن يُبرَز تُراثه**، فآثرنا أن نأتي للقارئ بترجمة السيرة التي دبجها القديس وذلك لفائدة القُراء حتى بعد مُضاهاة حوادثها واستجلاء محاسنها يتم النفع الكبير وتتضح في ذهن القارئ المعاني الرائعة التي كانت تمتاز بها هذه الشهيدة الفريدة أولى شهيدات المسيحية في العصور الأولى. وإليك السيرة بما تضمنته مِنَ العرض والتمهيد.



حينما أسمع داود النبي يرمز بروح النبوة إلى الكنيسة ويُصوِّرها مُقدَّمًا، ويوجِّه الكلمة إلى رئيسها، الذي هو المسيح، ويقول: «جُعِلَتِ الْمَلِكَةُ عَنْ يَمِينِكَ بِذَهَبِ أُوفِير» (مز٤٥:٩)، ففي الحال وفى نفس اللحظة يتجه عقلي نحو الشهيدة الشجاعة تكلا، وأراها مثل دعامة حيّة تصدر عنها كلمات النبوة تتلوها الحوادث نفسها، وكانت أيضًا تمتلك فضائل كل الكنيسة، إذ تسلمتها كلها جملة.

الكنيسة هي المجمع، هي اجتماع المؤمنين بالمسيح؛ تتكون من كل واحد منهم، وهم أعضاؤها ويكوّنون جسدًا واحدًا، رائعًا، عجيبًا، عظيمًا للغاية، يصنعه ويرتبه العماد الإلهي والوصايا الإنجيلية، فيشغل المكان الأول من جهة نظر الجمال.

قال حقًا بولس الرسول بشأنها حينما كتب مع داود النبي: «**أَحَبَّ الْمَسِيحُ أَيْضًا الْكَنِيسَةَ وَأَسْلَمَ نَفْسَهُ لأَجْلِهَا، لِكَيْ يُقَدِّسَهَا، مُطَهِّرًا إِيَّاهَا بِغَسْلِ الْمَاءِ بِالْكَلِمَةِ، لِكَيْ يُحْضِرَهَا لِنَفْسِهِ كَنِيسَةً مَجِيدَةً، لاَ دَنَسَ فِيهَا وَلاَ غَضْنَ أَوْ شَيْءٌ مِنْ مِثْلِ ذلِكَ، بَلْ تَكُونُ مُقَدَّسَةً وَبِلاَ عَيْبٍ**» (أف٥:٢٥-٢٧).

أرأيت كيف يكون اتفاق الكلمات والأقوال؟ صرخ داود النبي قائلاً: «قامت الْمَلِكَةُ عَنْ يَمِينِكَ»، فرد عليه بولس الرسول صارخًا: «لِكَيْ يُحْضِرَهَا لِنَفْسِهِ كَنِيسَةً مَجِيدَةً».

فإنَّ عبارة «جُعِلَتِ الْمَلِكَةُ عَنْ يَمِينِكَ» تبين اِستعداد الكنيسة وتهلّلها فيما يختص بالإيمان. لقد حضرت بسرعة مُلبِّية دعوة الرب. وأي شيء أجدر بأن يكون أسرع تقبّلاً من دعوة المسيح؟ يقول دعا أندراوس وبطرس الرسولَيْن وللحال أطاعا.

«**هَلُمَّ وَرَائِي فَأَجْعَلُكُمَا صَيَّادَيِ النَّاسِ**» (مت٤:١٩)، تركا السمك والشباك أيضًا وتبعاه. وهكذا ترك ابنا زبدى السفينة وأباهما عند دعوتهما.

وإذ سمع متَّى بينما كان جالسًا في مكان الجباية يتأهَّب للأعمال الصعبة وللأرباح المُغتصَبة وللضرائب الباهظة: «اتْبَعْنِي» (مت٩:٩) نسى أيضًا كل شيء وتبعه، ونسى أنه كان عشَّارًا.

وسترى أيضًا، طبقًا لتعاليم الرسل، أنَّ هناك أشياء أعظم من تلك، حدثت باسم يسوع المسيح الناصري. كان بطرس الرسول يتكلم في اليهودية بعد قيامة المسيح من بين الأموات، مع الذين صلبوه، ومازالت الآلام قريبة؛ فكان الذين يسمعونه يؤمنون حتى آمن ثلاثة آلاف دفعة واحدة.

كان بولس الرسول يُخاطِب شعب أثينا، وكان يجذب إليه الأريوباغيين، هؤلاء القضاة الأشدَّاء الذين كان مِنَ الصعب تغييرهم ولم يكن هناك في الحكم مَن هو أصلب عودًا وأقوى مراسًا منهم، كان ينطلق كالطائر فيأخذ المدن والأمم أيضًا بكلمة الإيمان وكان يصطاد كما بشبكة.

حينما اجتمع شمل الكنيسة هناك، قامت بالقرب مِنَ الملك، مثل شبكة سريعة جدًا، ولم تتميز بشدة السرعة فحسب، ولكنها أيضًا كانت كاملة. أتمَّت بلوغ الغاية اللائقة. كما يؤكِّد ذلك أيضًا ما جاء في المزمور: «جُعِلَتِ الْمَلِكَةُ عَنْ يَمِينِكَ» (مز٤٥:٩) فكان للملكة أيضًا أن تبقى بجانب الملك قريبة منه، وهي لا ينقصها شيء ما من أي نوع كان.

بعد أن كفَّت الكنيسة عن مشورة الآلهة الكاذبة والأهواء المخزية، وبعد أن تغيرت وأخذت حياة جديدة طاهرة، قامت بالكمال بعد السلوك

القديم الدنس، واشتركت مع الملك في الكرامة وفى الاسم ودخلت معه قاعة العُرس لأنها إذ تقول في نشيد الأناشيد: «أَدْخَلَنِي الْمَلِكُ إِلَى حِجَالِهِ» (نش١:٤). واعترف بها الملك وسمعت بدورها: «يَا حَمَامَتِي يَا كَامِلَتِي» (نش٥:٢) يقصد أنها كاملة وروحانية.

وفى هذا المعنى ظهرت الروح تحت شكل الحمامة. ومن جهة أخرى كقول داود النبي تلبس الملابس الموشاة بالذهب «جُعِلَتِ الْمَلِكَةُ عَنْ يَمِينِكَ بِذَهَبِ أُوفِير» (مز٤٥:٩)، «كُلُّهَا مَجْدٌ ابْنَةُ الْمَلِكِ فِي خِدْرِهَا. مَنْسُوجَةٌ بِذَهَبٍ مَلاَبِسُهَا» (مز٤٥:١٣).

وذلك بسبب مجموعة الفضائل المختلفة مثل العدل والشجاعة والطهارة والحكمة وما يتفرع منها مِنَ الفضائل التي تحلَّت بها كالثياب متنوعة الأشكال. ومن ناحية أخرى، فيما يختص بالجمال، فهي تمتاز بشكل واحد ولون واحد. منسوجة كلها مِنَ الذهب. فهي كاملة فيما يتعلق بدالتها عند الله وتعد أولئك الذين يجتهدون في الفضائل. وهكذا يتوهج النور فيمَن يشتركون في النعمة ليس بدون جهد أو من غير ما هدف، كيفما اتفق. لم ترتفع الكنيسة كذلك إلى مثل هذا المجد إلا حينما انضمت وأطاعت السيد المسيح، كما تفعل الفتاة لأبيها ولسيدها، حينما تعلَّقت به مثلما تتعلق بملكها، وسمعته منذ البدء يقول: «اسمعي يَا بِنْتُ وَانْظُرِي وَأَمِيلِي أُذْنَكِ وَانْسَيْ شَعْبَكِ وَبَيْتَ أَبِيكِ» (مز٤٥:١٠).

ربما يقول لي أحد إذ يسمع هذه الكلمات: "لقد نسيت يا هذا أنك تمتدح الكنيسة ولست تمتدح القديسة تكلا" فليستمع بالحقيقة إلينا كما يليق في نفس الوقت.

انتظر حتى تتبين جمال الصورة الأصلية التي كانت رسمتها لك الكلمة صورة حيّة كأنها على لوحة، وحينئذ تُدرك بالدليل أنَّ صورة الشهيدة بهذا الرسم الجميل أشبه، أنك متسرع لا تُعطي مكانًا للكلمة ذاتها، وتتابعنا في ذلك كأنك توقف الاِنطلاق وتُقاطع المسيرة ذاتها كمن تُلهبه السياط، فافحص ما قلته بخصوص القديسة تكلا تتبين ببساطة أنَّ الشهيدة تُمثِّل وترمز إلى الكنيسة، وأنَّ ما قيل سلفًا إنما هو تلميح واضح.

كان هناك بولس الرسول يُعلِّم في أيقونية وهي المدينة التي لها المكان الأول في إيبارشية الليكاؤنيين، أو بالحري حيث كان المسيح يتكلم. وتكلا بجنسها وبغناها تشغل المركز الأول في المدينة. وكانت تُخفي تحت جمال الجسد المجد الذي يتبع هذه الميزات. وكانت تمتلك تلك الخيرات الميسرة؛ كانت تجلس خفية عند حافة نافذة في أعلى المنزل، ترى الحكيم نفسه وتسمع كلماته. وفورًا تتضح رؤية الكنيسة التي تنبَّأ عنها داود النبي. لقد استمعت بطاعة كفتاة، فانصتت ونسيت شعبها وبيت أبيها، وأعزها الملك وقامت عن يمينه في ثياب الفضائل الشاملة بسبب كلمات الحياة المُقبلة وملكوت السموات، عندما مس شفتيها القول الحق القائل أنَّ الأرواح

الطاهرة هي التي تدخل متألقة مع العريس في نفس الوقت، وهي تشعل مصابيح الطهارة بالزيت، حينئذ أحبت البتولية وفازت بها فوق كل شيء.

اضطرت أمها إذ كانت مملوءة بالإعجاب بخيمة هذا العالم، تُقيِّدها فتنته فيما يختص بالتدبير للجسد، فتتصور لابنتها خدر العُرس، والراقصات، والحفلات الصاخبة التي اعتاد عبدة الأوثان إقامتها في الاستقبال وما إليها مِنَ الأغاني والعروض والترفه في مثل هذه الحفلات، فكانت مُهتمة بزواجها، وإنجاب الأطفال، وإعانتها في شيخوختها. لأنَّ النساء اللواتي يحببن المراثي قد تعوَّدن البكاء على ما هو متوقع، كأنهن بالفعل فيه، ويذكرن سلسلة الأحزان الطويلة والدموع في هذه المراثي.

ولما تعبت أم الشهيدة من مُحاولة تغيير الفتاة الشابة عن اهتمامها التقي بالدين، نادت لنجدتها خطيبها ويُدعى تاميريس Thamyris. فجاء راكضًا تُلهبه الرغبة، وأخذ يُحاول عن طريق الإطراء، في هواه المشبوب، أن يجعلها ترق بأغانيه. وكانت صامتة تنظر بصرامة في وهن كلماته تاركة إياها تذهب مع الريح، مُتجاهلة أمره، ومُرتبطة حقًا بكلمات بولس الرسول، مُتعلِّقة في الإنسان الباطن بها تتصور الأمور المُقبلة، وتُفكِّر أنها لم تعد بعد تعيش لاهتمام الجسد. أما تاميريس الذي كان فريسة الهوى الشرير وخاليًا مِنَ اليقين، فقد تحوّل عن حبه إلى الكراهية، وهكذا يكون حال أولئك الذين يفقدون ما يؤثرون وما يكون عزيزًا لديهم.

كان بولس الرسول قد أُقتيد، وكانت هناك قوات كبيرة ومُعدَّات حربية، فجاءوا به إلى الوالي. ولما اقترب بولس من محكمة الأمير وتكلم عن الطهارة والإيمان كعادته، عمل تاميريس الترتيبات لكي يزج ببولس الرسول في السجن. أما تكلا، من ناحية أخرى، فقد أتت ليلاً لتقف بجانب السجين الحكيم في قيوده – لإنها سمعته أيضًا يقول: «لَكِنَّ كَلِمَةَ اللهِ لاَ تُقَيَّدُ» (٢تى٢:٩)، كانت تغترف بغزارة من فيض تعاليمه التي تنساب مواردها وتُقبّل قيوده التي تجرى منها القداسة جرّها تاميريس إلى القاضي، كما جرّ معها ذلك السجين المُقيّد في السلاسل والبشير في نفس الوقت.

فجلد بولس الرسول ثم طرده، ومن جهة أخرى سلَّم تكلا – وقد عرفت من قيود معلمها كيف تتألم من أجل المسيح – إلى نار مُتقدة. ولم يصدر هذا الحكم ضدها من قبل القاضي وحده، ولكن قبل كل شيء كان المسؤول عنه والدة تكلا أيضًا وجمهور المدينة مِنَ الرجال والنساء. إذ يدعون عليها كسر الزواج ومُخالفة قوانين الطبيعة.

أما هي فإذ قبلت الإله الذي تجسَّد مِنَ العذراء وتأنس بدون استحالة – ووهبت له بتوليتها وكرّست نفسها له، رسمت علامته في مواجهة النار، فسارت فوق الحطب، وتجرَّأت أن تواجه اللهب. وفى الحال حدث برق وزوبعة زعزعت الأرض وانفصلت سحابة من فوق هطل منها الغيث غزيرًا، مخلوطًا بالبرد، فأطفأ النار. وكان بعض الذين حولها قد هلك والبعض الآخر هرب، وخلصت تكلا، لأنَّ ما أراده الله فهو فاعله.

أترون كيف أنَّ الشهيدة في نهاية الأمر شابهت الأم، أقول: لا، بل شابهت الكنيسة في رفعتها، ويقول مُخلِّصنا: «**وَعَلَى هَذِهِ الصَّخْرَةِ أَبْنِي كَنِيسَتِي، وَأَبْوَابُ الْجَحِيمِ لَنْ تَقْوَى عَلَيْهَا**» (مت١٦:١٨)، لذلك فإن اللهيب لم يغلب الشُجاعة تكلا.

وربما يقول لنا أحد جهرًا: "فيم كانت الفتاة صورة مصغّرة من صورة الأم؟" نعم، كانت بجانب الملك وكان عملها كاملاً. ألم ترتد مثل الملكة؟ تنوعت محاسن ثيابها، فكانت مُغطّاة بكل ثياب وكل زينة الفضائل، وحينما سارت هكذا وسط النار، ألم يثبت أنَّ كل ما لها مِنَ الذهب الخالص، وأنَّ النار امتحنته وما هو بكاذب؟!.

وفى تمثُّل الفتيات بالأم **اشتهت كثيرات بتولية القديسة تكلا وشهادتها**، وإن قصرن عن أن يكنّ مثلها في كل شيء. ورنَّم داود النبي سلفًا وقال: «**وَفِي أَثَرِهَا عَذَارَى صَاحِبَاتُهَا. مُقَدَّمَاتٍ إِلَيْكَ. يُحْضَرْنَ بِفَرَحٍ وَابْتِهَاجٍ. يَدْخُلْنَ إِلَى قَصْرِ الْمَلِكِ**» (مز٤٥:١٤، ١٥)، وقوله «فِي أَثَرِهَا» يُبيِّن أنهن ذهبن وراء أمهاتهن؛ لأنه هكذا كان النبي داود يصرخ أيضًا لله: «كَمَا يَشْتَاقُ الإِيَّلُ إِلَى جَدَاوِلِ الْمِيَاهِ هَكَذَا تَشْتَاقُ نَفْسِي إِلَيْكَ يَا اللهُ» (مز٤٢:١)، وفى قوله «صَاحِبَاتُهَا» تبيان أقرب الشبه، فلم يأتين إلى هيكل الملك بطريقة غيرها.

بعد أن رُفعت تكلا إلى هذا الشرف، وتحمَّلت عذاب اللهيب وشهدت للمسيح، كانت تسمع مع التلاميذ من جديد تعليم بولس الرسول، إذ كانت تريد أن تتعلم وتعرف أنه يجب أن تتألم كثيرًا من أجل عمانوئيل إلهنا. وفعلاً قصَّت شعرها بسبب الأذى الذي يأتيها من جمالها، فجعلت لروحها الشجاعة الهيئة الخارجية التي تتناسب معها. وكانت تتعلق بالحق وتعظ في نفس الوقت معه. كانت هي أيضًا تلميذته، فكان لها اِستعداد المُعلِّم.

لا يقل أحد: "وكيف كان بولس الرسول يكتب إلى أهل كورنثوس: «لِتَصْمُتْ نِسَاؤُكُمْ فِي الْكَنَائِسِ لأَنَّهُ لَيْسَ مَأْذُونًا لَهُنَّ أَنْ يَتَكَلَّمْنَ بَلْ يَخْضَعْنَ كَمَا يَقُولُ النَّامُوسُ أَيْضًا» (١كو١٤:٣٤)، أو أمر حكام الكنائس المقدسة قائلين: "لا يجوز للمرأة أن تقص شعرها ولا أن تلبس ملابس رجل؟"[٧٤] فإنَّ هذه التوصيات وقد عُملت بعناية قائمة بالنسبة للبعض القليل ولا تكون بالنسبة للآخرين. وأنَّ القوانين يؤخذ بها عدد كبير، ولا تتقرَّر حسب فرد أو اثنين بل هي لكل الناس عامة. كانت تكلا تمتلك فعلاً القوة الواقعية قبل الشكل الخارجى؛ أما الآخرون فكان ينقصهم التدريب. وبعد الخطر، حتى بالنسبة لمَن في استطاعتهن أن يتشبَّهن بالشهيدة، لا يكون بعد مسموحًا لهن أن يفعلن ما فعلته. لأنَّ عليهن الخضوع للأحكام العامة، إذ أن وصية الناموس تأمرنا: «لا تَنْقُل تُخُمَ

(٧٤) انظر: J. S Assemani, Bibliotheca orientalis t. 111 pars 11 p.889

صَاحِبِكَ الذِي نَصَبَهُ الأَوَّلُونَ فِي نَصِيبِكَ الذِي تَنَالُهُ فِي الأَرْضِ التِي يُعْطِيكَ الرَّبُّ إِلهُكَ لِتَمْتَلِكَهَا» (تث١٩:١٤).

وافت القديسة الشُجاعة في شكل رجل ثابتة من أجل الديانة إلى أنطاكية، لم تستطع أن تختبئ. لأنَّ مُطاردي جمالها ومُضطهدي دينها هاجموها. الأولون يُحاولون أن يدفعوها إلى النجاسة، والآخرون نحو عبادة الأصنام، وكانوا يختلفون لأجلها، ولكن العذراء الشهيدة كانت منيعة بالنسبة للفريقَيْن على حد سواء.

وكان شخص يُدعى إسكندر مريضًا بالهوى الشرير كدأب تاميريس، جنّ جنونه بسبب جمال القديسة، وفشل ولم يصل إلى هدفه. أمر القاضي بأن تُعطَى تكلا طعامًا للوحوش وكان في ذلك متعنتًا. أما ذلك الرجل الذي كان يتلقفه نوعان مِنَ الهوى ويحترق بالميوعة والقساوة معًا، وكان متردّدًا بينهما، فقد خاب فأله في حبه، فاندفع إلى القسوة وجمع من كل مكان أنواعًا مِنَ الحيوانات المفترسة.

ولكن القديسة التي كانت مستعدة لأنَّ تتحمل كل شيء لم تقهرها كل هذه الوحوش، وبالصلاة وبالتضرّع قصرت عن القدرة على القطع بأنيابها، **وكانت القديسة مضطجعة بين الحيوانات المتوحشة غير المُستأنسة، بدون خوف.**

فليسمع ذلك الكفرة الذين يفغرون أفواههم للآلة الموسيقية الأسطورية المليئة بالتفاهات، فيزعمون أنها تُسكِّن الوحوش بأنغامها!! ليتأمل اليهود كيف أطفأت قديسة واحدة النار المتأججة، كالثلاثة فتية، فمرت عبر اللهب دون أن تحترق، وظهرت مناعتها. إنها تُمثِّل دانيال، أرادوا إرهابها ليس بالأسود فحسب بل بأنواع مختلفة مِنَ الحيوانات المتوحشة. ليعترفوا على أثر مثل هذه العجائب أنَّ الله إله الناموس والأناجيل هو واحد. فلا تخدعهم الآمال الباطلة، وليفهموا بواسطة الأشياء الممتازة أن المسيح قد أتى، ولا ينتظروا.

فإنَّ إشعياء النبي، إذ كان في ألم، صرخ قائلاً: «أَيَّتُهَا النِّسَاءُ الْمُطْمَئِنَّاتُ قُمْنَ اسْمَعْنَ صَوْتِي. أَيَّتُهَا الْبَنَاتُ الْوَاثِقَاتُ اصْغِينَ لِقَوْلِي» (إش٣٢:٩)، لكن لا واحدة منهن سمعت لما يجب. أما تكلا وكانت غنيّة بكل الأشياء التي تجلب السعادة في الدنيا، الحسب والنسب، والجمال والغنى، فإنها ذهبت إلى أبعد من أقوال النبي، لأنها سمعت كلمات بولس الرسول دون أن يناديها برجاء. ونظير هذا الرجاء وحده، تركت كل شيء، مُتشبِّهة بالتاجر المذكور في الإنجيل: «فَلَمَّا وَجَدَ لُؤْلُؤَةً وَاحِدَةً كَثِيرَةَ الثَّمَنِ، مَضَى وَبَاعَ كُلَّ مَا كَانَ لَهُ وَاشْتَرَاهَا» (مت١٣:٤٦) كما يقول مُخلِّصنا الصالح.

وكما أن آدم الذي كان مخلوقًا على صورة الله، قبل أن يتعدّى الوصية، كانت تحوطه الحيوانات المتوحشة وكان كملك يُعطي جميعها أسماء، كصاحب القطيع؛ هكذا كانت أيضًا تكلا، إذ تجرَّدت مِنَ الإنسان العتيق

وتطهَّرت، فكانت الصورة الإلهية، كقول بولس الرسول «إِذًا إِنْ كَانَ أَحَدٌ فِي الْمَسِيحِ فَهُوَ خَلِيقَةٌ جَدِيدَةٌ» (٢كو٥:١٧).

فكانت الحيوانات المتوحشة في حكم المُستأنسة بالنسبة لها. وبعد أن عبرت ذلك بدون أذى، وجاهدت في نفس الوقت ضد عذابات كثيرة وتزيَّنت بالأكاليل المتنوعة، **ذهبت إلى سلوكية. وأكملت فيها سعيها بسلام وحفظت الإيمان، (انظر ٢تي٤:٧). ويرقد جسدها في هيكل مُقدَّس وشهير وتُجرى بواسطتها أشفية وعجائب،** اِتخذت طريقها بروحها نحو صفوف الملائكة ونحو المساكن السمائية.

هي من هناك تنظر وتزور بفرح وسلام مدينة سلوكية، التي هي مدينتنا، من جهة بسبب جسدها، ومن جهة أخرى بسبب جهادها، لأنها في هذه المدينة جاهدت؛ وأني مقتنع أنها تساعد بصفة خاصة هذه المدينة وتعتني بها. وحتى الآن تميل نحو الجهاد الذي يقوم من أجل الدين، وبه تأتي الأكاليل وتعلن الانتصارات. وتميل أيضًا إلى هذا المكان الذي جاهدت فيه، مثل المصارعين الذين ينتصرون، فإنَّ المكان الذي كانوا يصطفّون فيه بين الصفوف حتى بعد النصر يصبح عزيزًا.

من أجل ذلك وضعنا هذا المقال، وقدَّمناه للمسيح مُخلِّصنا، وكرَّسناه له تحت اسم إسطفانوس حقًا وتحت اسم تكلا. هذا أول الشهداء الرجال، وهذه أولى الشهيدات لمجد الله، لكي بذلك تكمل وصية مُعلمنا بولس

الرسول: «لأَنَّكُمْ قَدِ اشْتُرِيتُمْ بِثَمَنٍ. فَمَجِّدُوا اللهَ فِي أَجْسَادِكُمْ وَفِي أَرْوَاحِكُمُ الَّتِي هِيَ لِلَّهِ» (١كو٦: ٢٠)، حقًّا لقد مجدته ببتوليتها وبشهاداتها.

فيجب عليكن أنتن أيضًا، إذ لكنّ بعد والدة الإله، صورة للكمال مثل هذه، أعني أولى الشهيدات، أن تنظرن نحوها، وأن تتشبهن بجمالها العقلي، وأن تُلوَّن أرواحكن بألوان الفضائل. وأنتن أيضًا اللواتي تحت نير الزواج، يُمكنكن أن تعشن على نفس الصورة في حياة كريمة طاهرة، حتى حينما يتمجَّد اسم المسيح تنلن جميعكن الكرامة والنعمة التي تأتي من فوق. لأنَّ الذي يقول: «**فَإِنِّي أُكْرِمُ الَّذِينَ يُكْرِمُونَنِي، وَالَّذِينَ يَحْتَقِرُونَنِي يَصْغُرُونَ**» (١صم٢: ٣٠) لا يكذب. **له المجد والسلطان الآن وكل أوان وإلى أبد الدهور أمين.**





القــديسـة تكــلا البـتول

أولى الشهيـــدات

الجزء الثاني

عن

مخطوطات الأديرة (البرَموس)

وفى نهاية السيرة ميمر عن البتولية عن مخطوطات الأديرة

مقدمة لمخطوطة البرَموس وما بعدها

هذه سيرة أولى الشهيدات في المسيحية العذراء السامية في طهارتها، المُتألقة في قداستها، البتول القديسة تكلا، في القرن الأول المسيحي. عاصرت بولس الرسول وسمعت بأذنيها تعاليمه ورأت عظمة أقواله بعينيها؛ فبهرتها حتى استخفت بكل مجد العالم في سبيل عزمها ونذر بتوليتها، وقد كرَّست نفسها وجسدها للمسيح حتى لترتسم في سيرتها صورة البتولية الطاهرة، إقتداء بسيدتنا كلنا فخر جنس البشر القديسة والدة الإله، السماء الثانية، مريم العذراء.

أحرى بنا أن نُطوِّب في هذا المجال العذراء القديسة مريم التي من مجدها انتشر أزكى عبير أفاحه الله على صاحبة السيرة، فتشبهت بها وأكرمت وسمت. يتبين لنا من بين سطور هذه السيرة النقية نفحات طيبات ونسمات أرق من نسمات الصبح المُنير تدفع البرء إلى النفوس، وتبعث بالأضواء إلى القلوب النابضة بحياة المسيحية العارفة بالديانة النقية.

نعم، **يا ليت لنا لغة الملائكة حتى نفهم عظمة مجد البتولية.** لكِ الله أنتِ أيتها القديسة تكلا! شابهت المصدر الصافي والمجمرة الذهبية حاملة العنبر ينبوع البركات ومعدن الطهر في الأرض والسماء. وقديمًا أخذ القديسون يمدحون مجد البتولية ويُقرِّبون إلى أفهام الناس صورتها النقية

بارعة وسماتها الزكية التي لا تراها إلى النفس الطاهرة. وقد أتينا بآراء أئمة الدين مِنَ العلماء القديسين مما يختص بهذه القديسة.

ونظرًا لأنَّ القديس **مار يعقوب السروجي** العلَّامة صاحب التشبيهات الرائعة والصور الناطقة أخذ في ميمره الذي أتينا به في آخر السيرة يُحلِّق في سماء مجد البتولية يقطف لنا من معانيها البعيدة المنال ما يقرِّب صورتها إلى وجداننا، ويُثبِّتها في قرارة نفوسنا، مثل أريج طيب في ضوء خاطف تشتمّه الأنفس لكي لا يلبث أن يذهب عنا فيدفعنا الحنين إلى اجتلاء آثاره ومشاهدة أنواره. إنها نفحات طيبات إذا اجتمعت معانيها وانتظمت مع هذه السيرة ظهرت أبرع جمالاً أقل ما يتناسب مع طهارة صاحبتها. وفيها أجمل قدوة وأعز ذكرى للجميع بالأخص للفتيات يترسمون من بين السطور الخُطى، ويستلهمون البركة والنعمة من مُعطي النعم أبي الأنوار.

ولإلهنا المجد والعظمة إلى أبد الدهور أمين

يوسف حبيب

القديسة تكلا البتول الشهيدة

حياتها الأولى وإيمانها:

إنَّ القديسة تكلا العذراء النقية التي تمدحها بيعة الله شرقًا وغربًا، هي الأولى بين الشهيدات، كما أنَّ القديس استفانوس هو أول الشهداء. وهي قدوة الفتيات المسيحيات خصوصًا العذارى. **وُلدت بأيقونية.** كان أبواها من عبدة الأوثان. وكانت ذات فكر ثاقب شديدة الرغبة في العلوم، فعيَّن والدها لها مُعلمين ماهرين، وكان علمها النادر مُقترنًا بجمال بارع. هكذا كانت القديسة تكلا حينما خرج بولس الرسول من أنطاكية ووصل إلى مدينة أيقونية، وبشَّر هناك بالإنجيل المقدس. ولما تكاثر المؤمنون وانتشر اسم الرسول اشتهت أن تراه وتسمع تعليمه، فمضت إلى حيث كان الرسول يُعلِّم، وكثيرًا ما ابتهجت جدًا عندما بيّن لها سمو النصرانية وأوضح عدل وصاياها الطاهرة. وتاقت إلى أن تخاطبه. فلما رآها عرف حالاً أنَّ الله اختارها لخدمته، وتقديس اسمه، فاهتم بتعليمها زمانًا طويلاً، وآمنت بالمسيح إيمانًا متينًا وارتاحت إلى البراري ارتياحًا، فنذرت لله بتوليتها لكي تكون مُتعبِّدة لسيدنا يسوع المسيح، وشرعت تسلك في طريق الفضائل الإنجيلية. ولما رأت الرسول مرشدها مسجونًا لكونه مسيحيًا، باعت لساعتها ما لها مِنَ الحُلي الثمينة لكي تغيثه في ضيقته. **هذا ما رواه القديس يوحنا ذهبي الفم، حيث قال للشعب القسطنطيني في**

مقالته الخامسة والعشرين على أعمال الرسل: "ها أنَّ القديسة تكلا في ابتداء تنصّرها، قدَّمت ما عندها مِنَ الجواهر لإسعاف بولس الرسول، وأنتم القدماء في هذه الديانة والمُفتخرون بالاسم المسيحي لا تساعدون المسيح بشيء تتصدَّقون به على الفقراء.

وكانت القديسة تكلا تقضي زمانها منفردة في مناجاة الله جلّ شأنه، مُتأملة قضايا الشريعة الإنجيلية، ولما كان التغيير الباطن لابد أن يظهر سريعًا في الخارج، سألتها أمها: "من أين لكِ هذا الاحتشام الجديد؟ وكيف ترفضين التزّين بالحُلي خلافًا لجميع العذارى. ألفتِ الوحدة والانفراد والصلاة؟" فقالت لها تلك الآنية الحكيمة: "لقد سمعت تعليم الديانة المسيحية واستنرت بأنوار حقائقها الساطعة، وتحققت بُطلان عبادة الأوثان، فأسأل الله أن يصنع بكِ كما صنع بي، ويُمزِّق عن عينيك برقع الغباوة، ويُنجيكِ من هذه العبادة التي توصلك إلى جهنم وبئس العاقبة. ثم اعلمى يا أمي أني نذرت عفتي لله تعالى نذرًا دائمًا، وبناء على ذلك فمن المستحيل أن أرتبط مع أحد بالزواج".

رفضها الزواج واستشهادها:

وكان قد خطبها رجل شريف الأصل، فلما سمعت والدتها هذا الكلام أخبرته بما قالت، فأخذا وكل الأقارب يبذلون كل جهد في أن يُرجعوا القديسة عن عزمها بحفظ البتولية. وإذ كانوا كل يوم يُضيِّقون عليها،

خرجت من بيت أمها لتذهب إلى القديس بولس فيجعلها في مكان أمين. إلا أن خطيبها لما عرف بهربها، قبض عليها وأتى بها وبأمها إلى الحاكم طالبين أن يلزمها بالزواج، وترك الديانة المسيحية.

ولما رآها الحاكم مُصِرّة على عزمها مع توعُّده لها، قال لها: "اذهبي مع أمكِ إلى هيكل آلهتنا، وقدِّمي معها ذبيحة للأوثان، وإلا فتُطرَحين في النار".

أجابت البتول بشجاعة مقرونة بالاحتشام: "إني لا أؤمن إلا بالإله الواحد خالق الجميع، ورب الكل، لا إله سواه، وأما آلهتكم فما هي إلا أصنام شيطانية، وحاشا لي أن أعبد هذه الآلهة الكذبة، فهل من إله غير المسيح؟ له وحده أسجد، وأياه أحب. أما آلهتكم فهي أعمال أيديكم. إني أحتقرهم وأرزلهم وأبغضهم، ويعجز أن ينقلني عن عبادة السيد المسيح الذي أحبه أكثر مما أحب نفسي كل عذاب مهما كان شديدًا، فلا أخاف النار ولا السيف ولا بقية آلات العقوبات".

فظن المُغتصب أنَّ كلام البتول إنما ناشئًا عن العجرفة والغباوة، وخطر له أنها تُغيِّر عزمها متى رأت النار مُتقدة. فأضرموا أمامها نارًا عظيمة، ثم تقدموا ليلقوها وسطها. أما هي فرسمت علامة الصليب المقدس، ودخلت من تلقاء نفسها وسط اللهيب، فلم تمسها النار البتّة، وهطل بغتة مطر غزير مع أن السماء كانت صافية. وفر الناس هاربين، ولم تُحرِق النار شيئًا من ثيابها حتى ولا شعرة واحدة من شعرها.

ثم دخلت بيت أحد المسيحيين، وأقامت زمانًا تُمارس رياضة العبادة أثناء الليل وأطراف النهار شاكرة الله جلّت رحمته.

وفي تلك الأثناء جاء إلى المدينة حاكم جديد. فلما عرف ما كان من أمر تكلا، أمر بإحضارها، ولما مثلت أمامه سألها هل هي مسيحية، فأجابته بطلاقة أنها مسيحية أمام أعيان الأمم واليهود. فأمر أن تُقدَّم إلى ميدان الوحوش الضارية. واجتمع الشعب حول الحلبة، وأُطلقت الوحوش، ووافت القديسة بشجاعة وسرور، وإذ رأت الوحوش تدنو منها رسمت علامة الصليب المُقدس، فجلست جميع الوحوش عند قدميها كالكلاب المُستأنَسة تلحس قدميها بألسنتها، وتتملقها بأذنابها. فلم يرعو من غيّه، بل أمر أن يُعلِّقوا القديسة برجليها على ذنبي ثورَيْن بريَّيْن مُفترسَيْن، فلم يتحرك الثوران مع أنهم كانوا ينخسونها بمنخس محمي.

فاستولى حينئذ الذهول على الحاكم، وقال للبتول بصوت لطيف: "أخبريني أيتها الفتاة، ما الذي يرد هذه الوحوش المُفترسة عن أن تؤذيكِ؟" قالت البتول: "**إني أَمَة الإله الحي**". فوقع في قلبه خوف عظيم، وطلب ورقة وكتب عليها: "إني أطلق تكلا التقية عبدة الإله الحي"، وسلّم الورقة إلى البتول، فذهبت بها سالمة.

وقضت بقية أيام حياتها في منزل مُنفرد بقرب مدينة سلوكية، وآمن على يدها خلق لا يكاد يُحصَى له عدد، لأنّ استقامة سيرتها كانت لكل مَن يراها برهانًا جليًّا مُقنِعًا عن الديانة المسيحية، ولهذا لقَّبها بعض الآباء بـ

(**رسول سلوكية**). ثم انتقلت إلى دار النعيم وهي في خلوتها في **اليوم الثالث والعشرين من شهر توت** بعد انتهاء الجيل الأول للمسيح. وكان عمرها نحو ثمانين سنة. ودُفنت في مدينة سلوكية، وقد بُني على قبرها في عهد الملوك المسيحيين بعد الاضطهاد الكبير كنيسة على اسمها. وفى هذا اليوم تذكار هذه القديسة أولى الشهيدات التي تُعادل الرسل. ووُرد اسمها في السنكسار تحت هذا اليوم، ولكنه لم تُذكَر سيرتها.

مخطوط دير البرَموس

ويقول مخطوط دير البرَموس: "إنَّ اسم القديسة تكلا تلميذة بولس الرسول وابنته الروحية شهير جدًا في الكنيسة الجامعة". ويشهد القديس ماتوديوس الذي عاش في أواخر القرن الثالث أنها وُلدت في ليكاؤنيا، وكانت مُتعمِّقة في دراسة الفلسفة الدينية، بارعة في الشعر؛ وكانت فصيحة اللسان، ولم تكن جرأتها في الخُطب لتُخرجها عن حدود الاحتشام اللائق بجنسها. وحينما بلغت تلك الصفات التي تتحلى بها هذه الابنة التمام، أرشدها القديس بولس الرسول إلى قواعد الإيمان الحقيقي، وقد أضافت إلى ذلك درسها العلوم الإلهية. فاقتناع القديسة تكلا بحقائق الإيمان بالمسيح، ودخولها في المسيحية كان في نحو السنة الخامسة والأربعين للمسيح، في الوقت الذي كان فيه القديس مُبشِّرًا بالإيمان في مدينة أيقونية رأس إقليم ليكاؤنيا.

ويقول القديس **أمبروسيوس** إنَّ هذه القديسة كانت وقتئذ فتاة حدثة، وكانت موعودة بالزواج لشاب أممي من أشرف عائلات المدينة المذكورة. وكان غنيًا باستحقاقات جزيلة مِنَ المال والعلم والكرامة. غير أنه حالما سمعت هذه الفتاة إنذار القديس بولس عن الحياة الأبدية، وعن استحقاق حفظ البتولية الفائق الثمن، قد رفضت تلك الزيجة واعتمدت على حفظ العذرية كي تتفرغ بأكثر اهتمام لعبادة الله راغبة عن كل الكرامات وعن التنعُّم الدنيوي بأسره، فوالداها إذ كانا أمميَّيْن، ولم يعلما ما هو اِلتزام ابنتهما نحو العريس السماوي الذي كانت قد كرَّست له بتوليتها سرًا، قد شرعا يُحرِّضانها على إتمام وعد الزيجة المُتَفَق عليه مع الشاب، فرفضت رفضًا باتًا. بالإضافة إلى اجتهاد العريس وأهله وأقرباء الجهتَيْن والمعارف والأصدقاء، بل أيضًا واجتهاد والى المدينة عينه الذي حينما رأى ثبات عزم هذه الفتاة على عدم قبول الزيجة، قد هدَّدها بالقصاص والعذاب، غير أنَّ ذلك جميعه قد ذهب سُدى من حيث أنَّ القديسة استمرت على عزمها بثبات عجزت معه الوسائط. قد تفرَّغت مُهتمة بالأعمال الصالحة التي تكسب بها رضى عريسها الإلهي يسوع المسيح، مُتعلِّمة مِنَ القديس بولس الرسول. فقد كانت تستخرج الدُهن الزكي من زهرة الزنبق أي تُضيف إلى حفظ طهارتها البتولية، كما يُفسِّر هذا الكلام الاِستعاري القديس إغريغوريوس أسقف نيصص، تلك الأمانة والتقشفات، وقهر الإرادة وضبط الحواس باطنًا وظاهرًا بنوع يُصيِّرها ميتة عن جميع الأشياء العالمية.

وقد استحال هيام الشاب إلى بغضة قتّالة بعد أن تحقّق له عدم الفوز بما كان يرجو، ومن ثم استعمل مقدرته التي تخولها له الوظائف التي تولاها في تلك المدينة، واستخدم سلطة القضاة أيضًا الذين كانوا أقرباءه وخِلاَّنه، في أن ينتقم لذاته مِنَ القديسة، وتقدمت الشكايات أنها مسيحية، وأُحضرت أمام القضاة المُغرضين، وحُكم بأن تُطرَح للوحوش الضارية لتفترسها، فَسيقت إلى المشهد العام، وهناك عُريت من كل رداء، ولكن إحتشامها البتولى وبرارتها كما يقول القديس أمبروسيوس كانا لها في هذا الوقت نظير آزار يستر عُريها، ثم أُدخلت على هذه الصورة إلى الفسحة التي بها كانت السِباع مُطلَقة من قيودها وأُغلق وراءها. وكان وجهها باشًا، وبشجاعة فريدة وثبات تنتظر الأُسُد الزائرة كي تأتي وتفترسها. ولكن الباري تعالى قد نزع عن تلك الوحوش الضارية القوة الغضبية، فلم تُسبِّب للقديسة الشهيدة أدنى ضرر. بل تقدَّمت تلعق قدميها بكل أنس.

إنَّ القضاة لما رأوا نجاة هذه العذراء مِنَ الأسد، أمروا بإخراجها من هناك وطرحها في موقد نار مُضطرمة بشدة. غير أنَّ الله الذي أنقذها مِنَ الوحوش قد أخمد عنها قوة النار أيضًا فلم تحترق بها **حسب ما أوضح القديس إغريغوريوس النزينزي**.

وعلى هذه الصورة لم تقدر أن تضرها قساوة ذاك العريس المُتقدة مع غضب والديها اللذَيْن قد استحالا حتى صارا جلاّدَيْن لتعذيبها. ولكن

العزَّة الضابطة الكل قد تنازلت لإنقاذها، حتى طُلب إليها أن تذهب إلى حيث تشاء، الأمر الذي قد أعطاها الفرصة لتترك بيت أبيها وكل التنعُّم والعِزَّة والشرف الزمني، فتذهب باحثة عن القديس بولس الرسول لتقبل منه الإرشادات الخلاصية. ثم سافرت إلى أمكنة مُنفردة حيث صرفت باقي أيام حياتها مُباشرة أعمال الصلاح، واقتناء الفضائل السامية، مُثابرة على الصلاة ومُناجاة ختنها السماوي.

عرض موضوع شهادة القديسة ورأى القديسين فيها

في هذا الجزء نعرض أقوال القديسين العلماء المُعترف بهم، ويُعتبَرون مِنَ الحجج القوية. وهم مجموعة مِنَ الشخصيات المسيحية العملاقة ومن فطاحلها المُتضلِّعين الثقاة. **يقول القديس ماتوديوس:** "إنه كما أنَّ القديسة تكلا قد فاقت على البتولات الأخريات في إتقان الفضائل، فهكذا قد سمت عليهن في احتمال الجهاد والمُجاهرة التي كانت تظهر بها بأكثر إشراق وشجاعة فائقة. وعلى قدر ما كان جسمها رقيقًا لطيفًا ضعيفًا أكثر من ذلك كانت غيرتها وتضحيتها. هذا ما علمناه بالتحقيق مما يخص هذه الشهيدة وما احتملته لأجل محبة المسيح يسوع.

وجميع الآباء القديسون وسائر الكتبة القدماء الذين تكلموا عن هذه العظيمة في البتولات قد مدحوها مشيرين إلى أنها قد نالت مع إكليل

البتولية إكليل الشهادة أيضًا. لا بل اعتبروها أولى الشهيدات في العذارى. كما أنَّ القديس استفانوس هو أول الشهداء الرجال، وبهذا اللقب أي"**أولى الشهيدات**" تكرمها الكنيسة اليونانية، ولئِن كان الرأي العام يُحقِّق أنَّ هذه القديسة لم تمت بين عذابات الاستشهاد، بل أنها قد أنهت حياتها المقدسة بسلام وبموت طبيعي في "سلوكية"، ولكن مع ذلك تضفي الكنيسة الجامعة عليها صفة الشهيدة، كما تُعطي هذه الصفة لكل مَن احتملوا عذابًا من أجل الإيمان بالمسيح تكفي لأن يعدمهم الحياة الزمنية، لكنهم نجوا بفعل فائق الطبيعة، وعاشوا بعد ذلك، وأخيرًا رقدوا بسلام، كما قد حدث لهذه القديسة. وتحتفل الكنيسة الرومانية بتذكارها في ٢٣ أيلول، وتحتفل كنيستنا القبطية بعيدها في ٢٣ توت كما هو وارد في السنكسار.



وقد أضحى اسم هذه القديسة مُكرَّمًا مُعتبرًا في كل الأزمنة. حتى أنه حينما تُمدح قديسة ما في أجيال الكنيسة المزدهرة بأكثر جمال ويُعطَى لها ألقاب شريفة، كانت تُدعى تكلا الجديدة مبالغة في مدحها. فهكذا **أوسابيوس** يدعو قديسة شهيدة كانت أخذت إكليل الشهادة في زمانه، ومثله

القديس إيرونيموس يُعظِّم القديسة ملاني الرومانية بتسميته إياها "تكلا الجديدة". ولأجل هذه الغاية نفسها قد اجتهدت **القديسة اميليا والدة القديس باسيليوس الكبير** بأن تخص ابنتها القديسة ماكرينا بهذا الاسم أي "تكلا الجديدة".

والقديس إبيفانيوس يُشبِّه القديسة تكلا بإيليا النبي وبالقديس يوحنا الإنجيلي، وبأعظم القديسين الآخرين المُكرمين. **والقديس أمبروسيوس** يُقدِّم القديسة تكلا لجميع العذارى المسيحيات كنموذج ومِثال حي أكمل يجب إتباعه منهن بعد القديسة والدة الإله ملكة السماء والأرض الكُلّيّة الطوبى سيدة العذارى.

ماذا تتعلم فتياتنا من هذه السيرة

لتتعلم الفتيات البتولية مِنَ القديسة تكلا، وأن حفظ البتولية والطهارة تُفضَّل أي نجاح آخر زمني. وليتعلمن الواسطة الملائمة التي تساعد على حفظ هذا الكنز، فمن القديسة يتعلمن أنَّ حفظ البتولية إنما يكون بالانفراد والأمانة والصلاة والتأمل المُتصل بحقائق الديانة، وكانت القديسة تكلا تستمعها بشوق زائد من فم القديس بولس الرسول، ومُسطَّرة في رسائل هذا القديس ومُحرَّرة في كتب أخرى كثيرة جيدة.

ليتعلمن أخيرًا أن يُجاهدن بكل شجاعة ضد الأعداء غير المنظورين والمنظورين أيضًا، الذين يُحاولون سلب هذه الذخيرة الثمينة منهن.

فالقديسة تكلا قد احتاجت إلى الجهاد ولم يثبط عزمها غضب الولاة والوحوش الضارية، والنار الآكلة والحديد أيضًا، وبواسطة العون الإلهي قد خرجت منتصرة غير خائرة. ويلزم البتولات أن يُحاربن أنواعًا آخرين مِنَ الأعداء، يُحاربن تعاليم العالم الفاسد، والخداع والغش والمواعيد الباطلة والمثل المشككة الضارة التي يرونها في الكثيرات من بني جنسهن اللاتي يُفكرن بأن يجمعن بين العبادة وواجبات الديانة مع أباطيل العالم ورخاوة العيشة والاجتماعات العالمية والنزه الخطرة. فالانتصار على خداع العالم ليس بأقل شأنًا مِنَ الانتصار على أسلحة العالم نفسها كما يرى القديس أغسطينوس.

فإذا ما هن انتصرن على غش العالم ومواعيده الخداعة، يتسلمن أيضًا عند نهاية حياتهن في حال النعمة مِنَ الله إكليلاً مجيدًا نظير القديسة البتول عروس المسيح تكلا أولى الشهيدات، مكافأة عن جهادهن تحت راية خَتَن أنفسهن الإلهي، وهكذا يملكن معه في سعادته إلى الأبد. ولم نرَ في كتابات الأقدمين والمُحدثين ما هو أشد فعالية وتأثيرًا مما كتبه القديس مار يعقوب في ميمره، وننقله إليك بعد تنقيحه وتهذيبه في الجزء التالي.



الميمر الثامن والثلاثون
لمار يعقوب أسقف مدينة سروج
على البتولية والزيجة الفُضلى.

تصاعد إثم العالم في الأرض كمثل الدخان، وتكاثرت رواسبه، وعميت به الخليقة جميعها. العالم بحر وأمواجه المرتفعة هي الخطايا، تهب أعاصير الخطية وتُحرِّكه فتموج أمواجه. خطايا العالم لا تُحدّ بأشكالها. كما يرتطم النازلون إلى البحر بأمواجه هكذا ينغمس الداخلون إلى العالم بخطاياه. إنَّ الخطايا في العالم والأمواج في البحر كثيرة جدًا. إنَّ فيها الموت الزُّؤام. في البحر الأمواج متعالية حتى أنها تُغرِق، وفى العالم الخطايا مُحيطة بالبشر لتُنجِّس. يتكَّدر البحر على التجار فيغرقون، ويضطرب العالم على داخليه ليخنقهم. وتشبه أنفس الناس في العالم الشرير السفينة التي تنزل إلى البحر وهي مُعرَّضة للغرق. كم مِنَ التجار غرقوا في اليم؟ طوبي لمَن أهلك الغنى في المد العظيم، فافلتت النفس وهي أكرم المقتنيات. **إنَّ النازل إلى العالم يُعاني أكثر مِنَ النازل إلى البحر،** لأنَّ الإنسان يختنق فيه والغنى قائم. الويل لمَن يستفيد من غنى العالم الشرير، ويخنق نفسه بأثمه وشروره. كثيرة هي قروح النفس وجراحتها، وأما الزنا فَداء شرير أمرّ منها جميعًا. تعمل الخطايا جميعها خارجًا عن الجسد، وأما مَن يزني بجسده فيخطئ كما

كُتب،[٧٥] أنه يُهلك جسمه ويُفسد نفسه، ويُخطئ بجسده المشوب بالنجاسة. خارجًا عن الجسد السرقة والكذب ومحبة الغنى وشهادة الزور والظلم، وهي لا تُفسد جسد الإنسان ما لم يختلط في النجاسة. وإن كانت هذه الخطايا الخارجة عن الجسد قاتلة، لكن من يزني بجسده يخطئ، فبجسده يفسد، بجسده يزل، وبجسد يهلك. خطايا العالم جميعها شريرة، كلها قاتلة، بجميعها الموت، وطريقها جميعًا إلى الجحيم، جميعها تقتل قتلاً. لكن جسد الإنسان بالزنا يهلك.

لم يُبغض الله شيئًا مثل الزنى، ومن أجله أنزل الطوفان. انظروا الفساد الذي كان في الأرض، كم سجد البشر للأصنام أجيالاً بعد أجيال وأُقيمت التماثيل في الشعوب.

شرف البتولية

البتولية طريق مرتفعة. إنها شاهقة الارتفاع وليس شيء أعلى منها ارتفاعًا في العالم. البتولية قوام جميع الحسنات. قياسًا على كل ارتفاع لتجدن البتولية أرفع منزلة إذ يليها جميع العالم. هي الرتبة الأولى التي أقام فيها آدم وتباهى بها قبل أن يأكل مِنَ الشجرة. بهذه الرتبة المُمجَّدة المرتفعة الممتلئة حُسنًا قامت حواء قبل أن تتكلم مع الحية. كان آدم قبل أن يأكل

(٧٥) «كُلُّ خَطِيَّةٍ يَفْعَلُهَا الإِنْسَانُ هِيَ خَارِجَةٌ عَنِ الْجَسَدِ لَكِنَّ الَّذِي يَزْنِي يُخْطِئُ إِلَى جَسَدِهِ» (١كو٦: ١٨) (الناشر)

قائمًا بدرجة الكمال، لأنَّ البتولية هي الحُسن الطبيعي، ولا يقبل حُسن البتولية زيادة. فهي تزهو مع الملائكة فوق العالم. أتت من لدن آدم، وبلغت نوحًا، وأظهرت حُسنها لإبراهيم.

البتولية مرتفعة تسمو في العلاء، وتجوز إلى مكان مركبة النور الإلهية. لم تنحنِ لآل إبراهيم، ولا لزواج نوح البار الذي عمَّر الأرض، لأنها في آفاق غبريال كل يوم تتفرَّس، وبغير التصاق تخدم اللاهوت مثل ميخائيل. تسير بالوحدة مُصاحبة الملائكة، تنظر إلى القوات العالية الخفية. ليس ثمة التصاق أو زواج بينها.

أجنحة البتولية عظيمة بها تُحلِّق فوق جام سمائي مُرتفع بعيدًا عن اهتمامات المسكن والأرضيات، ولا تطلب أن تقيم في العالم وتثبت فيه، لا تهتم قط بالبنين أو البنات بل تحب الاسم الحسن وتفتخر به.

هذا العالم ليس موضع البتولية، فلا تقيم لها فيه ميراثًا باليًا. تولي وجهها المكان العالي بين الملائكة المرتفعين.

البتولية والعفة

الذي يثبت في البتولية هو مِنَ **الروحانيين**، والذي يتزوج ويسير في طريق الحق هو مِنَ **القديسين**، والذي يتنازل إلى الزنا هو **الحيوان**.

البشر جنس واحد في ثلاث طغمات: منهم مَن يسير بالبتولية مع الروحانيين بالطرق المرتفعة عن التدابير العالمية، ومنهم مَن يسير في

الطريق الطاهرة الخالية مِنَ اللوم والهوان في الزيجة الصالحة، وهناك آخرون ينزلون إلى الزنا وبئست الحياة فهم بالوحوش والحيوانات أشبه.

وتمثل البتولية والعفة والزنا الملائكة والبشر والحيوانات. فالبتولية أصحابها من طغمة غبريال ومعهم تسرع في الطريق المرتفع عن الزواج. وفى طريق العفة الحسنة، نوح وإبراهيم الممتلئان حُسنًا إلهيًا مع كل القديسين. ومع الزناة بنات قايين في الطريق الممتلئة فخاخًا وهوانًا.

يقوم البتول مع صفوف غبريال، ويحظى بالمتكأ مع إبراهيم من في الزيجة وكان عفيفًا. أما مَن كان زانيًا فهو في الطريق التي للزناة. وإنَّ طريق الزناة ظاهرة وكذا طريق القديسين. وإنَّ الدرجة المرتفعة التي أقام فيها آدم من قبل أن يُخطئ فهي البتولية التي كانت مختلطة مع الملائكة.

إنَّ حد حُسن البتولية هو مريم التي صارت للإله. في البطن حلّ في البتول وأعطاها إكليل البتولية. طريقها أرفع من كل الطرق، وليس ثمة حُسن يبلغ حُسن البتولية. ولا طهارة في العالم تُعادلها؛ من كل مساكن الأرض ومجالسه لم يحسن له أن يحل إلا في البتولية. حين وضع تدبيره لينزل إلى الأرض ويسكن فيها اختارها من أجل حُسنها وحلّ فيها. وأرانا ظاهرًا أنه يحب البتولية حتى تصير البتول أمه جسدانيًا ...

حسُن في عينيه أن يحلّ بالجسم الكلي الطُهر الذي للبتول، وفيها يأتي للميلاد ثانيًا جسدانيًا. روح القدس جلاها وحسّنها، أعني البتول، والرب

القدوس نزل وحلّ فيها من أجل حُسنها. ومن رام أن ينظر إلى حُسن البتولية فبمريم يتأمل حملها لسيد الحُسن، تفرَّس فيها وانظر إلى أي حد ترى السماء أوضع منها، نعم إلى أي حد ارتفعت الأم البتول عن كل المرتفعين، ومن ثم صور لك مثال البتولية. هوذا الحُسن جميعه منها. الخليقة الأولى كانت ممتلئة حُسنًا إذ لم تفسد. البتولية بغير زواج هي الجوهرة. فتأمل مقدار رفعتها وانظر إلى هوة الزنا. تلك في السماء بين الملائكة وهذه في الأعماق ... البتولية بين الملائكة، يليها المتزوجون متكئون مع إبراهيم في الملكوت، وفى أسفل هوة عظيمة ممتلئة نارًا يصْلَى فيها الزناة والفَسَقَة.

لا يعلو ارتفاع البتولية إلا الأزلي أنها رأس جميع الحسنات. لقد ورثت جنان شجرة الحياة، وأهَّلت لذلك الفردوس الممتلئ بالخيرات، اتكأت على صدر ابن الله وتعلَّمت منه الأسرار المخفية مِنَ التلاميذ ... هي عروس الملك، مخطوبة له لتفرح معه، يتطلَّع فيرى حُسنها. إنها تنظر الله كل يوم ليكون خَتنها. قد قبلت الخاتم وخُطبت لغير المائت، ومع الأموات لم ترتبط.

تتباهى بذلك النور العظيم. لا يُدانيه العرش الزمني، لأنَّ عُرسها عندما تنحلّ السماء والأرض، ويدعو البوق وتقوم الموتى من قبورهم ويكون الصراخ: «**هُوَذَا الْعَرِيسُ مُقْبِلٌ، فَاخْرُجْنَ لِلِقَائِهِ**»،[٧٦] حينئذ ترفع البتولية

---

(٧٦) (مت٢٥: ٦) (الناشر).

رأسها لاستقبال العريس فهي تنتظر ذلك العُرس لتفرح بالعريس المُتكئ مع القديسين. الذي تنتظره مع الملائكة. وبتبجيل عظيم يعقد فرحها في النور، ويمتد بين الأشجار الروحانية، في بيت الملكوت يسطع النور والبهاء، وبأساس بيتها تبرق اللهب. إنه مُستقر متسع مرصوف ممتلئ نورًا عظيمًا.

فى فرح العريس بالعروس إذ صعدت مِنَ الجهاد يوضع لها أكاليل النور العظيم. فتتعزى بعد الانتظار وتفرح لأنها عبرت خوف السلاطين وازدادت بالعالم، العالم الشرير ذي الفخاخ والشهوات المؤدية إلى الهلاك. هناك تسر لأنَّ جوهرتها لم تُسرَق في المكان الذي عاث فيه اللصوص والسُرَّاق فسادًا. تفرح لأنَّ سفينتها المُتعبة لم تتأذ في العالم الشرير.

فى العُرس ترتفع رأس البتولية فهي تنتظره، ولأجله ازدرت بالحُسن الزمني. لأجل هذا الحُسن السمائي أبغضت كل حُسن باطل، وشبعت من خيرات العريس الملك. في النور رضيت أن تُبغِض اهتمام الجسد وهي بثياب النور تتباهى.

مُبارَك هو الذي أعطى إكليل المجد، ويتمجَّد اسمه القدوس إلى الأبد، وإلى أبد الآبدين، آمين.



عن أماكن اللهو
ومداومة التناول
من الأسرار المقدسة

سلسلة مقالات القديس الأنبا ساويرس
البطريرك الأنطاكي
١٥

عن أماكن اللهو

ومداومة التناول مِنَ الأسرار المقدسة

المقال رقم ٥٤ مُترجم عن الفرنسية مِنَ الكتاب الثاني
مِنَ الجزء الرابع من مجموعة

PATROLOGIA ORIENTALIS

R. Graffin – F. Nau

Les Homélies Cathédrales de Sévère d'Antioche

Traduction Syriaque de Jacques d'Edesse

Publiées et traduites par Rubens Duval

Professeur au Collége de France. Paris 1906

مليكه حبيب يوسف   يوسف حبيب

١٩٧٠م

عن الذين يذهبون للمسرح بعد الصلاة



إنَّ رؤية المسرحيات الهزلية مُضادة للناموس. يجب أن نتقي بأعمال التوبة الغضب القائم ونشترك في الأسرار المقدسة مرات كثيرة.



مرة أخرى أتقدم بينما تقصرني تمام المقدرة عن الكلام أو التعليم، وفيهما نفع جزيل. أراني في ظلمة أدركتها سحابة الهموم المادية التي تربط الكنيسة المقدسة غير المادية بطريقة غير لائقة. فبعض الأشخاص يُحمِّلونها أحمالًا غريبة لا علاقة لها بالخدمة الدينية. أفلا يضار رجال الدين بإثارة الاضطرابات الخارجية داخل الكنيسة؟ إني عن اضطرار أشعر أني مدفوع عنوة بهذه الضرورة الحاضرة، فمثلي مثل إنسان يحترق في النار. نعم أني مُجْبَر، ليس عن اختيار.

ما هو العجب إذا كنت وأنا أبرز من نفسي قروحًا عديدة لا تحصى، أتحمل هذا الألم ولا أستطيع إلى السكوت سبيلا؟ إن إرميا النبي الذي تكرَّس من بطن أمه، يرى أن شعبه يستهزئون بأقواله بدلاً من أن يحزنوا، وما كانوا يشعرون أو يرتجفون خشية الغضب الذي كان يتهددهم. كاد النبي يركن إلى الصمت، لكنه اشتعل واحترق قلبه واضطر إلى الكلام. لذلك كان يقول: «**لأَنِّي كُلَّمَا تَكَلَّمْتُ صَرَخْتُ. نَادَيْتُ: «ظُلْمٌ وَاغْتِصَابٌ!» لأَنَّ كَلِمَةَ الرَّبِّ صَارَتْ لِي لِلْعَارِ وَلِلسُّخْرَةِ كُلَّ النَّهَارِ. فَقُلْتُ: «لاَ أَذْكُرُهُ وَلاَ أَنْطِقُ**

بَعْدُ بِاسْمِهِ». فَكَانَ فِي قَلْبِي كَنَارٍ مُحْرِقَةٍ مَحْصُورَةٍ فِي عِظَامِي فَمَلِلْتُ مِنَ الإِمْسَاكِ وَلَمْ أَسْتَطِعْ» (إر ٢٠: ٨-٩).

كفى بذلك مثالًا. إن عقدة لساني ليست محكمة، تأتي زوبعة الحوادث، ويسود الاضطراب عند الذين يحاربون الكلمة المستقيمة. ولو أني أفكر مثل إرميا، فإنه بالنسبة لي أيضًا كانت كلمة الرب بابًا للإهانة والاستهزاء، وراودني القول ضرورة، كما قال النبي: «**لاَ أَذْكُرُهُ وَلاَ أَنْطِقُ بَعْدُ بِاسْمِهِ**» (إر ٢٠: ٩). إني أصلي لكي يوضع على شفتاي باب فاضطر إلى الصمت الكامل، وإلا فإنَّ الضحك والاستهزاء الظاهر على كلمات الرب لن يدعاني أعظ عن الصلوات في الكنيسة. والدموع، والاعتراف بالخطايا، والصوم، وبالاختصار وضع الأمور في نصابها وهو مترتب على التوبة، بسبب ما هذه تهددنا عن كثب ونراه فوق رؤوسنا، وأن سماعه لمرعب.

أتذهبون إذًا، أو بالحري كثيرون منكم، لأنه لا يجب أن أتهمكم جميعكم لمشاهدة سباق الخيل وإلى أماكن التهريج ومسارح الترف وتقولون بأنكم ما انقطعتم عن الصلوات وعن الاجتماعات في الكنيسة وأنتم تشتركون في مشاهدة المسرحيات؟ ألا سمعت بولس الرسول الذي كتب إلى أهل كورنثوس: «**لاَ تَقْدِرُونَ أَنْ تَشْرَبُوا كَأْسَ الرَّبِّ وَكَأْسَ شَيَاطِينَ. لاَ تَقْدِرُونَ أَنْ تَشْتَرِكُوا فِي مَائِدَةِ الرَّبِّ وَفِي مَائِدَةِ شَيَاطِينَ**» (١كو ١٠: ٢١) ألم يقل الحكيم حسنًا جدًا: «**واحِدٌ يَبْنِيَ وآخر يَهدِم فماذا يَنتَفِعانِ سِوى التَّعَب؟ واحِدٌ يُبارِكُ وآخَرُ يَلعَن أَيَّهُما يَستَجيبُ الرَّبّ**

دُعاءَه؟ منِ اْغتَسَلَ مِن لَمْسِ المَيتِ ثُمَّ عادَ فلَمَسَه فماذا نَفَعَه غُسْلُه؟ كذلك الإِنْسانُ الَّذي يَصومُ عن خَطاياه ثُمَّ يَعود يَرتَكِبُها مَن يَستَجيبُ صَلاتَه وماذا يَنفَعُه تَواضُعُه؟!» (حكمة يشوع ٣١: ٢٣-٢٦).

هذا حال الذين يتصرفون ضد الناموس وهم ممتلئون شرًا. يتصوَّرون أنهم يشتركون في المائدة المقدسة والكأس المقدسة، وهم يأكلون ويشربون ويفعلون ما يحلو لهم. ويشهد الكتاب المقدس عن أمثال هؤلاء الناس قائلًا: «**لأَنَّهُمْ يَطْعَمُونَ خُبْزَ الشَّرِّ وَيَشْرَبُونَ خَمْرَ الظُّلْمِ**» (أم ٤: ٧١).

ربما تقول: وأي شر في النظر إلى سباق الخيل؟

إنه شر مستطير وأني آتٍ بالرد صراحة:

أولًا: إنَّ كل عرض قصد به الولاء لأحد الآلهة الذين يسمون باسم كاذب، ويُقام تكريمًا له، فلنبتون Neptune عرض الخيول، ولمرقور Mercure عرض المصارعين الذين يحاربون وحدهم، ولارتيميس Artémis عرض المصارعين الذين يحاربون الحيوانات، ولباكوس Bacchus الروايات المسرحية. كيف يرتضى الله مسرة الشياطين؟! كيف نركض نحو هذه المناظر التي أنكرناها وفقًا للأحكام حينما انخرطنا في خدمة المسيح؟

لنشترك في أعمال الطاعة له، ونكون مستعدين لنستحق العماد الإلهي الخلاصي. هذه المناظر هي في الواقع من أعمال الشيطان، وتكريم لأعياده التي جحدناها.

ثانيًا: حتى إذا قلت "إنَّ المسرحيات ليس الغرض منها تكريم الشياطين، لكن لأجل سرورنا" فإننا نُغضب الخالق إذا كنا نستعمل الحيوانات غير العاقلة بطريقة مُضادة لوصاياه. لقد خلق كل حيوان منها لكي يُكمل إحتياجاتنا في العالم، وليس لأجل نشوة زائدة وغير نافعة. فالحصان قد أُعطى للناس حتى يستطيع مَن يمتطيه أن يُتِم تنقلاته بسرعة، فيخرجون ضد المُحاربين الذين يأتون إليهم. إنه عون لهم يساعدهم في الحرب ضد الأعداء. هذا أيضًا ما قاله ذلك الذي كان يُكلِّم أيوب وسط الزوبعة والسحاب «**فَقَالَ الرَّبُّ لأَيُّوبَ مِنَ العَاصِفَةِ**» (أي٣٨:١) وقال: «**هَلْ أَنْتَ تُعْطِي الْفَرَسَ قُوَّتَهُ وَتَكْسُو عُنُقَهُ عُرْفًا؟ أَتُوثِبُهُ كَجَرَادَةٍ؟ نَفْخُ مِنْخَرِهِ مُرْعِبٌ. يَبْحَثُ فِي الْوَادِي وَيَقْفِزُ بِبَأْسٍ. يَخْرُجُ لِلِقَاءِ الأَسْلِحَةِ. يَضْحَكُ عَلَى الْخَوْفِ وَلاَ يَرْتَاعُ وَلاَ يَرْجِعُ عَنِ السَّيْفِ. عَلَيْهِ تَصِلُّ السِّهَامُ وَسِنَانُ الرُّمْحِ وَالْحَرْبَةِ. فِي وَثْبِهِ وَغَضَبِهِ يَلْتَهِمُ الأَرْضَ وَلاَ يُؤْمِنُ أَنَّهُ صَوْتُ الْبُوقِ. عِنْدَ نَفْخِ الْبُوقِ يَقُولُ: هَهْ! وَمِنْ بَعِيدٍ يَسْتَرْوِحُ الْقِتَالَ صِيَاحَ الْقُوَّادِ وَالْهُتَافَ**» (أي٣٩:١٩-٢٥)

ومكتوب أيضًا في الأمثال «**اَلْفَرَسُ مُعَدٌّ لِيَوْمِ الْحَرْبِ أَمَّا النُّصْرَةُ فَمِنَ الرَّبِّ**» (أم ٢١:٣١)

جعل هذا الحيوان من أجل خدمة حياة الإنسان وليس لكي تهلكه بأن تجعله يدور حول السيرك سبع مرات، وأنت تُخرج العربة تلو العربة، وتسحق رجليه بسرعة العجلات، ولا لكي تتهلل وتصفق حينما يسقط

سقطة بائسة مؤسفة. ليس هذا ما يأمرك به ويُعلمك إياه الكتاب الإلهي، بل بالعكس. حينما يفعل هكذا، تنطق عليك الكلمات المكتوبة الدالة على القسوة والظلم، القائلة «**الصِّدِّيقُ يُرَاعِي نَفْسَ بَهِيمَتِهِ أَمَّا مَرَاحِمُ الأَشْرَارِ فَقَاسِيَةٌ**» (أم١٢:١٠)

إنَّ قول بولس الرسول «**أَلَعَلَّ اللهَ تُهِمُّهُ الثِّيرَانُ؟**» (١كو٩:٩) له معنى آخر، وفعلاً حينما يُكلِّم أهل كورنثوس كان يقول أنه يلزم «**أَنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَ بِالإِنْجِيلِ مِنَ الإِنْجِيلِ يَعِيشُونَ**» (١كو٩:١٤) «**مَنْ تَجَنَّدَ قَطُّ بِنَفَقَةِ نَفْسِهِ؟ وَمَنْ يَغْرِسُ كَرْمًا وَمِنْ ثَمَرِهِ لاَ يَأْكُلُ؟ أَوْ مَنْ يَرْعَى رَعِيَّةً وَمِنْ لَبَنِ الرَّعِيَّةِ لاَ يَأْكُلُ؟ أَلَعَلِّي أَتَكَلَّمُ بِهَذَا كَإِنْسَانٍ؟ أَمْ لَيْسَ النَّامُوسُ أَيْضًا يَقُولُ هَذَا؟ فَإِنَّهُ مَكْتُوبٌ فِي نَامُوسِ مُوسَى: «لاَ تَكُمَّ ثَوْرًا دَارِسًا». أَلَعَلَّ اللهَ تُهِمُّهُ الثِّيرَانُ؟**» (١كو٩:٧-٩)

هكذا إذًا ما تضمّنته الوصية القانونية التي تأمر بألا تَكُمّ ثورًا دارسًا، وما جعل الله الناموس لمجرد العدل نحو الثيران. أي مكروه إذن وما يضرينا لو نستبدل حلبة السباق بالخدمة الخاصة بها بعناية، ولا نسرف بالاهتمام بملء بطونها في غير مناسبة.

إنه بهذه الوصية يُعلِّمنا أنه مِنَ العدل أنَّ الذين يعملون يتغذّون من نتاج تعبهم. لذلك يضيف بعد ذلك «**أَمْ يَقُولُ مُطْلَقًا مِنْ أَجْلِنَا؟ إِنَّهُ مِنْ أَجْلِنَا مَكْتُوبٌ. لأَنَّهُ يَنْبَغِي لِلْحَرَّاثِ أَنْ يَحْرُثَ عَلَى رَجَاءٍ وَلِلدَّارِسِ عَلَى الرَّجَاءِ أَنْ يَكُونَ شَرِيكًا فِي رَجَائِهِ**» (١كو٩:١٠).

مِنَ الواضح جدًا أنَّ الله يعتني بكل شيء ويهتم بكل شيء ويحب كل شيء. يقول داود النبي في المزامير «**تَفْتَحُ يَدَكَ فَتُشْبِعُ كُلَّ حَيٍّ رِضىً**» (مز١٤٥:١٦). ويقول الحكيم أيضًا «**لكِنَّكَ تَرحَمُ جَميعَ النَّاس لأنَّكَ على كُلِّ شَيءٍ قَدير وتَتَغاضَى عن خَطايا النَّاسِ لِكَي يَتوبوا**» (حك١١:٢٣) وكتب أيضًا «**رَحمَة الإِنسانِ لِقَريبه أَمَّا رَحمَةُ الرَّبِّ فلِكُلِّ ذي جَسَد: يُوَبِّخ وُيؤَدِّبُ وُيعَلِّمُ ويَرُدُّ كالرَاعي رَعِيَّتَه**» (يشوع بن سيراخ ١٨:١٣).

ليس لأنَّ بعض أنواع الحيوانات قد أعطيت للناس لكي يقتلوها ويأكلوها، لا يلزمنا أن نعاملها برفق في حياتها، ونشفق عليها، ولا نجعل من تعب الجياد وإنهاكها وموتها تجارة باطلة، لأجل لذّة أو لعبة شيطانية. وعلينا نحن الذين يجب علينا أن نقتدي بالله أن نكون رحماء «**فَكُونُوا رُحَمَاءَ كَمَا أَنَّ أَبَاكُمْ أَيْضًا رَحِيمٌ**» (لو٦:٣٦).

إنَّ عرض الجياد عن طريق التفنّن في المشاهد الماكرة مِنَ الشيطان يمارس فيها هذا التنافس الذي يشبه السحر، وضرب من ضروب القتل القاسية غير القانونية يقوم بها المحترفون الذين يُظهِرون أنفسهم شجعانًا ضد الصغير الضعيف. هذه المناظر يمكن أن تُغضب الله جدًا. إنها تستحق رعودًا عديدة وبروقًا ملتهبة. حتى إذا كان اللعب لا تشوبه مثل هذه الأشياء فإننا نحكم حسب ثماره «**لأَنْ مِنَ الثَّمَرِ تُعْرَفُ الشَّجَرَةُ**» (مت١٢:٣٣). هذا قرار المسيح الرب الصادق. ولكن ما هي ثمار معارك الجياد هذه؟ إنها خلافات وتجديف، معارك واضطراب، ضجيج وهجمات

بقذف الحجارة، حرب بين المواطنين، حريق وقتال. ولطالما سقط الأبرياء مِنَ المشاهدين في إحدى الخطايا. إما أن يصرخ، أو يتشاجر، أو يجدف، أو يترك نفسه يستبد به الغضب بما لحقه مِنَ الإهانة. فأي عقاب يكون لذلك؟ عندما يحيد الإنسان عن الله ويبتعد عنه؟ هل هناك من عقاب أشد؟

واسمع بخصوص الضوضاء التي تعتبر أقل الأشياء الأخرى: «**وَقَالَ الرَّبُّ: إِنَّ صُرَاخَ سَدُومَ وَعَمُورَةَ قَدْ كَثُرَ وَخَطِيَّتُهُمْ قَدْ عَظُمَتْ جِدًّا**» (تك١٨:٢٠) هذا يكفي لكي يُبيّن عاقبة الضوضاء. يقول الرب أيضًا بواسطة إشعياء «**إِنَّ كَرْمَ رَبِّ الْجُنُودِ هُوَ بَيْتُ إِسْرَائِيلَ وَغَرْسَ لَذَّتِهِ رِجَالُ يَهُوذَا. فَانْتَظَرَ حَقًّا فَإِذَا سَفْكُ دَمٍ وَعَدْلاً فَإِذَا صُرَاخٌ**» (إش٥:٧)

إنَّ الصراخ موضوع الاتهام. وهل يستحق التشاجر المديح؟ ليس هذا أبدًا. انظر كيف يضعها الله، بواسطة حزقيال النبي، موضوع اللوم الكبير حينما يقول «**لَكِنَّ بَيْتَ إِسْرَائِيلَ لاَ يَشَاءُ أَنْ يَسْمَعَ لَكَ، لأَنَّهُمْ لاَ يَشَاؤُونَ أَنْ يَسْمَعُوا لِي. لأَنَّ كُلَّ بَيْتِ إِسْرَائِيلَ صِلاَبُ الْجِبَاهِ وَقُسَاةُ الْقُلُوبِ**» (حز٣:٧).

ربما تتساءل لماذا تُحسب المشاجرة مِنَ العصيان وقساوة القلب. إنَّ بولس الرسول يضع كل الرذائل معًا كأنها من طبيعتها أن تحزن وتغضب الروح القدس. وهو يكتب فعلاً «**تُحْزِنُوا رُوحَ اللهِ الْقُدُّوسَ الَّذِي بِهِ خُتِمْتُمْ لِيَوْمِ الْفِدَاءِ. لِيُرْفَعْ مِنْ بَيْنِكُمْ كُلُّ مَرَارَةٍ وَسَخَطٍ وَغَضَبٍ وَصِيَاحٍ وَتَجْدِيفٍ مَعَ كُلِّ خُبْثٍ**» (أف٤:٣٠، ٣١).

لماذا إذًا نذهب إلى عرض سباق الخيول؟ إننا نفعل ذلك لكي تحملنا كل هذه الرذائل أشبه شيء بتيار فاسد وسط بحيرة، ولا نذهب لكي نصلي لله في هدوء أن يغفر لنا خطايانا. ننشغل بأمور العالم ونُجرَف ضد إرادتنا إلى الضوضاء أو إلى كلمة التجديف أو إلى الغضب.

لكن إذا سمحتم، لنفحص المسارح والأماكن المخصصة للعرض، وسنرى أنها ضارة ومفسدة، وليست كما يحسبونها موضوع لهو ومرح. إني أترك جانبًا الفرقة الموسيقية، والرقص الجماعي الصاخب الذي يُسيء إلى رجولة الرجال، وتلك الأغاني التي تعلِّم الميوعة، وتحل قوة الروح، وتزرع فيها سعير الأهواء، فتطوقها حتى تنوء تحت عبء المجون والملذات. وماذا تقول عن المشاهدين للتمثيل الهزلي ومنهم المستهزئون؟ يثيرون سخط الله وغضبه، نضحك لدى رؤيتنا رجلًا يصفع آخر قد خلقه الله، ونفخ في وجهه نفخة الحياة، وقد شرفه كلمة الله المتأنس لأجلنا أيضًا، حينما قام مِنَ الأموات ونفخ في وجه تلاميذه قائلًا: «**اقْبَلُوا الرُّوحَ الْقُدُسَ**» (يو٢٠: ٢٢)؛ وأنَّ مَن كان موضع تكريم كثير يُضرب ويُهان ويُزدرى به.

نعتقد أنَّ ذلك يثير شيئًا كثيرًا مِنَ الرهبة والرعب حتى عند القوات السمائية. ثم قل لي، أتضحك على الأشياء التي يجب أن تبكي منها وتنتحب عليها؟

أين الاتحاد المُكَرَّم، أيصبح موضع مزاح؟ أين المجتمع العفيف؟ إنه مثل الزاني تسحقه السخرية. فهل تكون أعضاء الجسد وإنجاب الأطفال

وبقاء جنسنا موضع استهزاء بطريقة مشينة كريهة؟ فأين السر المليء بالحياة والطهارة؟

احترم شكلك الذي خلقه الله أيها الإنسان، احترم شكلك الذي خلقه الله الاحترام كله. احترم الخليقة الثانية الإلهية التي من أجلها شاركك كلمة الله باتخاذه جسدًا مِنَ العذراء. لماذا تضحك من ذاتك، مثل أولئك المجانين الذين يمزقون أجسادهم ويأكلون لحمهم بدون شعور؟

لماذا إذًا تنوح لدى سماع أخبار الجرائم وتود لو هلك المخطئ جزاءً وفاقًا لما ارتكبه من وزر، وتحزن وأنت ترى مطلع الشمس. إني أخالك تظن أنَّ كل شيء قد انقلب رأسًا على عقب ...

إنك تكتب ضد الزاني حكمًا بالسجن وتقرر أنَّ الموت عقاب خفيف له ... لكن حينما تشاهد المسرحيات الفاسدة في مسارح اللهو الممقوت، فإنك تنفجر ضاحكًا، وتظهر شعورك لاهيًا وتزعم أنَّ العرض باعث للسرور والمرح.

بأي عين سوف تنظر إلى زوجتك حينما تدخل البيت؟ كيف تطالبها بالطاهرة وأنت تشاهد الفسق الظاهر في تلك العروض الماجنة غير اللائقة. لقد جمعت العديد مِنَ الأهواء، وغذّيت عقلك بصور الرذائل وهي مثل النار المحرقة. ربما يقول قائل: "ماذا أعمل ومسرح الألعاب مفتوح يناديني لمشاهدة العرض".

لو كان مغلقًا ما لزم السؤال. إنه بذلك تكون الضرورة أوجبت عدم الذهاب وليست الإرادة. وبما أنَّ المسرح مفتوح، فمُر أمامه راكضًا بثبات

وحزم، ودع اللاهين لا تزرهم وإن كانوا وقوفًا على قدم الاِستعداد. اظهر أن كل هذا باطل وليس له منفعة. فإذا كانوا يعدّون المسرح ويجهزونه ويجذبون مَن يأخذون مكانهم فيه بحميه ويخدعونهم، لا يكفي عذرًا. إن مَن يسرق الملابس يستطيع أن يقول أيضًا أنه رأى الملابس والذهب وكان مُجرَّبًا بالإغراء مخدوعًا. ومَن ينظر نظرة الشهوة دون حذر، يعتذر بجمال النساء. أبذلك نعتبره غير مذنب؟ ولكننا لا نجهل أنَّ مَن يبتعد بثبات عن الإغراء ما استطاع إلى ذلك سبيلا يستحق الإكليل ومجازاة النصر لأنه يمارس الفضيلة. فاهرب إذن بكل قوتك من مشاهدة العروض التي فيها اختناق الروح. إنها هوة الشيطان بما يزيّنه مِنَ المكر ويدبره مِنَ الخسارة التي نتحملها دون أن نشعر. وأنَّ فيها الهلاك المؤكد بسهولة.

إذا كان أحد يجُرّك إلى ذلك، فجُرّه في اتجاه مُضاد إلى الكنيسة قائلاً له كلمة الكتاب المقدس هذه: «**لاَ تَمِلْ يَمْنَةً وَلاَ يَسْرَةً. بَاعِدْ رِجْلَكَ عَنِ الشَّـرِّ**» (أم٤: ٢٧). اظهر له بفيض الكلام الفرق بين الطريقَيْن، مُبيّنًا نهاية كل منهما. ادحض الميل إلى هذا اللهو القصير المدى، إن حالته فانية. اجعل فيه المخافة، صف له محكمة المسيح القادمة. وقُده إلى رجاء الحياة الأبدية السعيدة المُعدَّة للصديقين. وأحِطهُ بعنايتك، لا تجعله يخسر خلاصه. مَن تراه يقاوم كثيرًا في الجهاد، ويجتهد أن يكسب بمكر أو بعنف يحاول أن يجُرّك إلى الرذيلة، حينئذ الجأ إلى الزجر وارفض بعض الصداقة أو بعض الصحبة الشريرة، اسرع بالهرب مِنَ الشرير. تذكّر المُشرِّع الروحاني الذي

يأمرك بأن تغضب وليس أن تخطئ هكذا غضب فينحاس، وعندما ضرب الزناة وطعنهم بحربته، حينئذ توقفت الآفة.

«فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ فِينَحَاسُ بْنُ أَلِعَازَارَ بْنِ هَارُونَ الكَاهِنُ قَامَ مِنْ وَسَطِ الجَمَاعَةِ وَأَخَذَ رُمْحًا بِيَدِهِ وَدَخَل وَرَاءَ الرَّجُلِ الإِسْرَائِيلِيِّ إِلى القُبَّةِ وَطَعَنَ كِلَيْهِمَا الرَّجُل الإِسْرَائِيلِيَّ وَالمَرْأَةَ فِي بَطْنِهَا. فَامْتَنَعَ الوَبَأُ عَنْ بَنِي إِسْرَائِيل» (عد ٢٥: ٧-٨).

هكذا غضب موسى أكثر الناس وداعة واتضاعًا، ضد الذين كانوا يتعدون وصايا الله، بينما كان يتحمل بوداعة وتواضع إهاناته الشخصية. حينما قامت عليه عائلة داثان وأبيرام وجميع عائلة قورح بطريقة مهينة بسبب الحسد، سقط رئيس مُشرِّعي الشعب على وجهه على الأرض أمامهم، وهو يرجو شاتميه ألا يُعرِّضوا أنفسهم للغضب الآتي من فوق. ولما استمروا في عصيانهم وكبريائهم، أُرسلوا في النهاية إلى جهنم (عد ١٦: ٢٤) إلخ.

يجب علينا أن نتحمَّل باتضاع وبنزعة فلسفية الإهانات والظلم الذي يصيبنا، أما تلك التي تكون موجَّهة ضد الله وضد مجده فيجب علينا أن نكون مُتيقظين لمحاربتها بأقسى ما يمكن. لذلك قال أحد الأنبياء: "ليصبح الإنسان محاربًا شجاعًا"... إن التواضع والوداعة في غير فهم هما من خواص الخراف وليس من خواص العقلاء. لذلك وجد الغضب في نفوسنا، لكي يحثنا نحو الشجاعة، لنستعمله ضد ميوعة الأهواء، ونجاهد به من أجل نواميس الله ومن أجل الحق أيضًا.

لكني لا أعرف لماذا أراني بعد العظة التي ألقيتها عليكم في الكنيسة، وكنت أتوقع أن أراكم تفعلون أعمالاً حسنة، لا أزال أتكلم عن وسائل تجنُّب الشر، مُتحدِّثًا عن الفضيلة والرزيلة. إننا نحتاج إلى أن نُمارس الأعمال الحسنة كثيرًا لكي ننجو من ذلك الغضب العتيد الذي يتخذ طريقه الآن إلى مدن أخرى. لم يبتعد بعد عن مدينة الإسكندرية ولا يزال يلتهم الناس الأصحاء، إنه يزداد وينتشر. لتعودوا إلى التوبة فتمقتون ليس فقط المسارح، بل الكباريهات ومتاجر الخمور، ومحال اللحوم النيئة والمطبوخة والأطعمة الفاخرة من كل نوع. وفي الحداد تتغذون فقط بالخبز والخضروات اليابسة، لا تفعلون شيئًا آخر سوى أن تتضرعوا إلى الله كل الأيام بصلوات حارة.

لنتمسك إذًا بهذه الضراعة لكي نُظِهر التوبة عن طيب خاطر، وعلاوة على منفعة تجنّب الغضب، ننال الثواب المجزي ونتجنب الغضب الآتي، ولا اتجاه نحو الخير إلا وله ثوابه. إن كنا عُرضة لمثل هذه الأهوال تُصيبنا، فماذا نحن فاعلون لكي نهرب منها؟ قبل أن تقع تلك الأهوال فلنعكف ساهرين في حكمة. فإنه إذا كنا بهذا التأديب والمخافة لا نتوب، أفلا نكون جهلاء وغرباء عن الله، ونُسلَّم للهلاك الكامل، ونسقط في الجب العميق؟

هذا نجده بديهيًا في قول إرميا النبي، فهو يقول: «**تَأَدَّبِي يَا أُورُشَلِيمُ لِئَلاَّ تَجْفُوكِ نَفْسِي. لِئَلاَّ أَجْعَلَكِ خَرَابًا أَرْضًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ**» (إر ٦: ٨).

إني في رعب وارتجاف أتوقف عند هذه الكلمات: ناطقًا بصوت عال بهذه الآية من كتب بولس الرسول: «**فَإِذًا حَسْبَمَا لَنَا فُرْصَةٌ فَلْنَعْمَلِ الْخَيْرَ لِلْجَمِيعِ، وَلاَ سِيَّمَا لأَهْلِ الإِيمَانِ**» (غل٦: ١٠). إننا في حاجة شديدة لكثير من بُعد النظر. إننا نتوقع صدمة الشياطين ضدنا، لنتقوى بجدار المعونة الإلهية التي هي مخافة الله. «**مَلاَكُ الرَّبِّ حَالٌّ حَوْلَ خَائِفِيهِ وَيُنَجِّيهِمْ**» (مز٣٤: ٧).

إنَّ ملاكًا واحدًا حافظًا حولك لهو بمثابة قوة جيش كبير، فهو يقوم مقام جمع مِنَ العسكر. وهناك أيضًا ملاك حارس مُوكَّل بحفظ كل مَن يخاف الرب. لذلك حينما نتكلم عن أناس ذوي عفّة نقول: (في سفر أعمال الرسل ص ١٢) الملاك حينما قرع بطرس على باب البيت وكان مقبوضًا عليه وموضوعًا في السجن بأمر هيرودس، قال الناس في الداخل للفتاة التي كانت تُنبئ بحضوره وهم غير مصدقين وفي حيرة: "إنه ملاكه". وما العجب في ذلك؟ إنَّ لكل طفل صغير ملاكه الحارس المُعيَّن الخاص به. ويقول الرب في الإنجيل: «**أُنْظُرُوا، لاَ تَحْتَقِرُوا أَحَدَ هَؤُلاَءِ الصِّغَارِ، لأَنِّي أَقُولُ لَكُمْ إِنَّ مَلاَئِكَتَهُمْ فِي السَّمَاوَاتِ كُلَّ حِينٍ يَنْظُرُونَ وَجْهَ أَبِي الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ**» (مت١٨: ١٠) وليس وجه الله مرئيًا. كيف نرى الكائن غير المرئي؟ لكنها عادة الكتاب المقدس أن يدعو العمل الذي يعمله الله لأجلنا وجهًا. هكذا قال المرتل: «**وَجْهَكَ يَا رَبُّ أَطْلُبُ. لاَ تَحْجُبْ وَجْهَكَ عَنِّي**» (مز٢٧: ٨،٩). «**أَضِئْ بِوَجْهِكَ عَلَى عَبْدِكَ**» (مز٣١: ١٦)، إذًا الملائكة ينظرون أي

يتأملون في أعمال الله وعنايته بالأطفال الصغار، فيحفظونهم بسهرهم بعناية ويقظة.

افهمن إذًا أيتها النساء، أي ضرر لهؤلاء الأطفال الصغار تتسبَّبنَ فيه حينما ترسلنهم إلى المسارح؟ أنتن تحرمن من تحببنهم مِنَ المعونة والحفظ الملائكي، وتعدونهم لنصيبهم خسارة الخبيث. هذا من أعمال الأعداء وليس شأن الأمهات. لنركض إذن كلنا إلى الكنيسة، الشبان والشيوخ، والرجال والنساء، الجميع من كل نوع حتى بذلك نجعل حفظ الملائكة لنا غير مضطرب، وبالأخص باشتراكنا في الأسرار المقدسة التي نتطهّر بمقدرتها ونتقوى. حينئذ يبقى الملائكة قريبين ليس فقط لأجل حفظنا، بل إكرامًا لسيدهم، ويكونون ثابتين ومواظبين على حفظ أرواحنا وأجسادنا مثل مساكن ملائكية يسكن فيها ملك الملوك.

لا يقل لي أحد: إني أخشى التناول مِنَ الأسرار المقدسة وأفرز نفسي عنها. إن بولس الرسول يستوقفني فعلاً حينما يقول: «**لأَنَّ الَّذِي يَأْكُلُ وَيَشْرَبُ بِدُونِ اسْتِحْقَاقٍ يَأْكُلُ وَيَشْرَبُ دَيْنُونَةً لِنَفْسِهِ غَيرَ مُمَيِّزٍ جَسَدَ الرَّبِّ**» (١كو١١: ٢٩) ولهذا السبب أتقرَّب بحذر مرة أو مرتَيْن في السنة مِنَ المائدة الرهيبة.

قل لي أهذا تعتبره مانعًا أن يقول بولس الرسول بأن تُطَهّر نفسك كل يوم فتتمتَّع بهذا الطعام الخالِد الذي يجب ألا تأكل وتشرب منه بدون استحقاق؟ إذا كانوا يذكرونك حينما تذهب لمقابلة ملك بأنه يجب عليك

أن تدخل بطريقة لائقة وبمظهر متواضع، فإننا لا نقول إنهم بذلك يبعدونك عن مسكن الملوك، بل بالحري إنهم يشجعونك على الدخول والتمتع بالكرامة بتقدمك بطريقة لائقة.

وأيضًا حينما تتقرب مرة واحدة في السنة، فأنك لا تتطهر مقدمًا لطول السنة، بطريقة لائقة بهذا اليوم الذي فيه تريد أن تتقرب. وإن لم يكن الأمر كذلك فما معنى تفكيرك الخاطئ؟ فأنك حينما تكون قد جمعت دنس شهور عديدة وكوّمت الخطايا، فأنك بالأحرى تتقرب بطريقة غير لائقة. لأنَّ مَن يتقرب باستمرار، يعرف أنه مستعد تمامًا لكي يتقدم أمام ملك الملوك ويحييه ويقبله في داخله. فهو يتجنب خطايا كثيرة بكل قوته وكل مقدرته. أما أنت بعد أن تحدد مرة واحدة تتناول فيها ثم تتمتع بعد ذلك، فإنك تواجه مهلة طويلة، وفي اطمئنان بدون خوف تأتي ما تستمرؤه حتى ذلك اليوم، فلا يكون مدخلًا لملك الملوك، إذ يجد مسكنك مغلقًا.

يجب علينا إذن أن نتطهر على قدر الإمكان ونتقدم باستمرار مِنَ الطاهر وحده. إنَّ الشمس تراها العيون السليمة، لكن هذا ليس عاصمًا لِمَن كان نظرهم ضعيفًا، بل هم يحتقرون علاج أنفسهم ويحرمون كلية من ضياء أشعتها.

ألا تعرف أنَّ هذه الذبيحة الروحانية غير الدموية كانت ترمز إليها الذبيحة التي كانت تتم قديمًا بواسطة الدم، حينما كانوا كل صباح وكل مساء يقدمونها تكفيرًا عن الخطايا؟ فيجب أن نعرف أنه لا يوجد سوى

ذبيحة واحدة هي ذاتها التي كانت حسب الناموس تقدم في الصباح وفي بدء معرفة الله، وهي حسب الإنجيل قد ذبحت حتى نهاية العالم بطريقة روحية أكثر كمالًا. وكانت تدعى أيضًا ذبيحة دائمة بدون انقطاع؟

لو حذا الناس حذوك فتقدموا مرة واحدة في السنة، لكانت الذبيحة بلا تقدمة، ولانقطعت صفة الاستمرار، الكفارة تتوقف، والمذبح يظل بدون خدمة. مَن يحمل خطية العالم الذي يحتاج إلى التطهير في كل وقت؟ ترى في كم مِنَ الأمور غير المقبولة كنا نسقط لو أطعنا ما تمليه عليه خواطرنا الداخلية بدلاً من أن نطيع الناموس.

إذن فلنشغل أنفسنا بالأعمال الحسنة بكل الوسائل، ونشترك في الذبيحة المحيية. لأنه لا يمكن لأحد أن يؤمن ولا يشترك فيها.

مَن يريد أن يحيا الحياة الحقيقية لا يستطيع أن يحيا بدون أن يستنشق الهواء. فإننا نحن الذين آمنا بالمسيح نحيا به ونتحرك. «**فَإِنْ كُنَّا قَدْ مُتْنَا مَعَ الْمَسِيحِ نُؤْمِنُ أَنَّنَا سَنَحْيَا أَيْضًا مَعَهُ**» (رو٦: ٨)، «**لأَنَّنَا إِنْ عِشْنَا فَلِلرَّبِّ نَعِيشُ وَإِنْ مُتْنَا فَلِلرَّبِّ نَمُوتُ. فَإِنْ عِشْنَا وَإِنْ مُتْنَا فَلِلرَّبِّ نَحْنُ**» (رو١٤: ٨). **له المجد الدائم إلى الأبد آمين.**



الصعود

سلسلة مقالات الأنبا ساويرس

البطريرك الأنطاكي

١٦

الصعود

مُترجم عن الفرنسية مِنَ الكتاب الأول مِنَ الجزء الثاني عشر من مجموعة

PATROLOGIA ORIENTALIS

R. Graffin – F. Nau

Les Homélies Cathédrales de Sévère d'Antioche

Homélie LXXI

Publiée par Maurice Brière

Paris

مليكه حبيب يوسف يوسف حبيب

١٩٧٠م

مقدمة



اشتهر القديس ساويرس بمقالاته اللاهوتية ونرى فيها الكثير مِنَ المعاني الدقيقة والأفكار العميقة يبرزها بمهارة بانتقاء ما يناسبها مِنَ الألفاظ. وهذه المقتطفات مِنَ المقال الحادي والسبعون من مقالات الأب القديس ساويرس البطريرك الأنطاكي عن صعود الرب مخلصنا يسوع المسيح المترجم مِنَ الكتاب الأول مِنَ الجزء الثاني عشر من مجموعة:

Patrologia Orientalis, R. Graffin – F. Nau.
Tome Xll, Fase. 1, Homélie LXXI Les Homélies Cathédrales de Sévère d'Antioche

ترجمه إلى السريانية الأسقف يعقوب الرهاوي في القرن السادس ثم ترجمه إلى اللغة الفرنسية ونشره موريس بريير Maurice Briére وترجمناه إلى العربية. وفي الترجمة توخينا التدقيق لنعطي النصوص الصورة الأصلية التي قصد إليها القديس، وراعينا أن نلبس المعاني الألفاظ الأنسب والعبارات الأدق. وفي بعض الأفكار اللاهوتية التي برع فيها المؤلف وأبدع حتى بلغ ذروة الإعجاز. ذكرنا في الهامش النص الفرنسي

والحقيقة أنَّ جميع لغات العالم غير قادرة على نقل صورة بعض الأفكار اللاهوتية إلى الناس إلا بمقدار. وقد اضطررنا في القليل مِنَ الحالات إلى بعض التصرف مما تقتضيه الترجمة وخواص كل لغة مع عدم الإخلال بالأصول.

ولإلهنا المجد والعظمة إلى أبد الدهور آمين.

مليكه حبيب يوسف **يوسف حبيب**

١٩٧٠م



قال القديس ساويرس

إني احتفل بتقاليد الرسل القديسين التي سلمها لنا أعمدة[٧٧] هذه الكنيسة كميراث أبدي، بعد أن تسلموها كل واحد بدوره على نحو ما يتسلم الابن من أبيه، فنمت على أيديهم وكانت معرفة السر تزدهر في القلوب.

وقال داود: «**عَابِرِينَ فِي وَادِي الْبُكَاءِ يُصَيِّرُونَهُ يَنْبُوعًا. أَيْضًا بِبَرَكَاتٍ يُغَطُّونَ مُورَةَ. يَذْهَبُونَ مِنْ قُوَّةٍ إِلَى قُوَّةٍ. يُرَوْنَ قُدَّامَ اللهِ فِي صِهْيَوْنَ**» (مز ٨٤: ٦،٧).

ومن هذه التقاليد يدوي صوت الكنيسة عاليًا اليوم، مُعلِّمًا بذلك أنه لأجلنا نحن، صعد المسيح إلى السموات.

حقًا كما تعمد المسيح لأجلنا، كان يُطّهر المياه ويُقدّسها، ولم تكن ليتطهر بها، وأني يكون ذلك لمَن هو نور النور، الذي لا يعرف خطيئة، أنه لأجلنا صلب، كما هو مكتوب، أنه ارتفع إلى الكمال بالآلام، «**مَعَ كَوْنِهِ ابْنًا تَعَلَّمَ الطَّاعَةَ مِمَّا تَأَلَّمَ بِهِ. وَإِذْ كُمِّلَ صَارَ لِجَمِيعِ الَّذِينَ يُطِيعُونَهُ سَبَبَ خَلاَصٍ أَبَدِيٍّ**» (عب ٥: ٨،٩).

إنَّ ذلك الذي هو بطبيعته كامل في كل شيء يجعلنا نحن المحتاجين نكمل به بخلاص كامل وشفاء كامل؛ كان في الجسد يصارع الموت

---

(٧٧) رعاة Pasteurs.

ويكسر شوكته وهو هو الذي يملأ السماء والأرض. الأشياء المرئية وغير المرئية. صعد جسديًا فوق كل السموات، فحملنا معه نحن الذين كنا مطرودين مِنَ السماء، أو بالحرى كنا غير مستحقين أن نطأ الأرض.

وكما أننا حينما نُبشِّر بفضل القيامة نُبيِّن أنَّ بها قمنا من سقطة الخطية القديمة، هكذا في اليوم الأربعين من قيامة مخلصنا من بين الأموات إذ صعد على عرش مُلكِه الموضوع فوق السماء نعلم أننا أصبحنا سماويين. ذلك الذي هو «**فَوْقَ كُلِّ رِيَاسَةٍ وَسُلْطَانٍ وَقُوَّةٍ**» (أف ١: ٢١) باكورة جنسنا. «**وَلَكِنِ الآنَ قَدْ قَامَ الْمَسِيحُ مِنَ الأَمْوَاتِ وَصَارَ بَاكُورَةَ الرَّاقِدِينَ**» (١كو ١٥: ٢٠).

فبالفعل اتخذ كلمة الله نسل إبراهيم «لأَنَّهُ حَقًّا لَيْسَ يُمْسِكُ الْمَلاَئِكَةَ، بَلْ يُمْسِكُ نَسْلَ إِبْرَاهِيمَ» (عب ٢: ١٦)، حينما كان مِنَ المرأة، وتحت الناموس. «**وَلَكِنْ لَمَّا جَاءَ مِلْءُ الزَّمَانِ، أَرْسَلَ اللهُ ابْنَهُ مَوْلُودًا مِنِ امْرَأَةٍ، مَوْلُودًا تَحْتَ النَّامُوسِ**» (غل ٤: ٤). حينما اشترك مثلنا في الدم والجسد اللذيْن لهما نفس عاقلة، «**فَإِذْ قَدْ تَشَارَكَ الأَوْلاَدُ فِي اللَّحْمِ وَالدَّمِ اشْتَرَكَ هُوَ أَيْضًا كَذلِكَ فِيهِمَا، لِكَيْ يُبِيدَ بِالْمَوْتِ ذَاكَ الَّذِي لَهُ سُلْطَانُ الْمَوْتِ، أَيْ إِبْلِيسَ**» (عب ٢: ١٤)، حينما شابهنا في كل شيء، نحن إخوته، ما خلا الخطية. «**مِنْ ثَمَّ كَانَ يَنْبَغِي أَنْ يُشْبِهَ إِخْوَتَهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ، لِكَيْ يَكُونَ رَحِيمًا، وَرَئِيسَ كَهَنَةٍ أَمِينًا فِي مَا لِلّهِ حَتَّى يُكَفِّرَ خَطَايَا الشَّعْبِ**» (عب ٢: ١٧).

فلا نتعجب إذا كان عمانوئيل، باكورة جنسنا، قد صعد إلى هذا الارتفاع؛ فإنه في الواقع "لم يضمر اختطافًا أن يكون مساويًا لله"؛ يعني لم يكن كجبار اقتحم الملكوت، ولم يكن اختطف العرش بغير حق، حينما قدر وحكم بأنه مساو لله،(٧٨) مع أنه كان في شكل الله، وفي جوهر(٧٩) الله، أخلى ذاته واتخذ شكل العبد، وبدون تغيير تأنس حقًا، وليس ظاهريًا، وكان يحيا في شبه الناس، ومن الخارج ظهر كإنسان، «**لَكِنَّهُ أَخْلَى نَفْسَهُ، آخِذًا صُورَةَ عَبْدٍ، صَائِرًا فِي شِبْهِ النَّاسِ**» (في ٢: ٧،٨). لم يحتقر أو يرفض رتبة العبد في شيء، بل حينما أخذ على عاتقه مرة واحدة أن يكون إنسانًا حقيقيًا عاش كإنسان مع الناس، مُظهرًا الشبه معنا في كل شيء ما عدا الخطية وحدها.

لم يظهر رجلاً غريبًا فهو يملك كإله سمو الطبيعة. كان يعمل التدبير الإلهي بحكمة وبنعمة نحونا، فكان وهو الكامل يُرى وهو ينمو مع السن في الحكمة والنعمة. «**وَأَمَّا يَسُوعُ فَكَانَ يَتَقَدَّمُ فِي الْحِكْمَةِ وَالْقَامَةِ وَالنِّعْمَةِ، عِنْدَ اللهِ وَالنَّاسِ**» (لو ٢: ٥٢).

---

(٧٨) جاء في النص الفرنسي ما يلي:

Lorsqu'il s'est lui-même estimé et Jugé l'égal de Dieu

(٧٩) وقد ورد في النص الفرنسي في البترولوچيا الكلمات الأربع التالية متفرقة في أجزاء مختلفة وهي:

١- Nature ، ٢- Personne ، ٣- Hypostase ou substance ، ٤- Essence

فكلمة Essence في النص عاليه، ومعناها ما يتكون منه طبيعة الشيء، أدق معنى لها في علم اللاهوت ما نعبر عنه بالجوهر.

جاع، عطش، وتحمل تعب الطريق، وكان يُخضع ذاته بإرادته للآلام الأخرى. أعني الآلام البعيدة عن الخطية.

إنَّ خطيئة آدم كانت العصيان وتعدِّي الوصية. بينما كان المسيح، آدم الثاني، يبذل نفسه فداء فيمحو الخطية. إنَّ الوصية التي أخذها مِنَ الآب هي خلاصنا. فبتنفيذه هذه الوصية وإطاعته للآب، كان يقدم لنا مثال الحياة الأفضل، يشفي العصيان بالطاعة والعصيان مصدر الشرور، منه خرج تيار الخطية الجارف فدخل الموت إلى جنس البشر كله وتملك فيه. وأصبح ضروريًا أن يُقدِّم المسيح الطاعة بدلاً منا، فيذهب حتى إلى الموت الذي كان آدم يستحقه بعصيانه، وبهذا غرس نعمة الخلود بقيامته. وهذا ما كان يقوله بولس الرسول: «**وَإِذْ وُجِدَ فِي الْهَيْئَةِ كَإِنْسَانٍ، وَضَعَ نَفْسَهُ وَأَطَاعَ حَتَّى الْمَوْتَ مَوْتَ الصَّلِيبِ. لِذَلِكَ رَفَّعَهُ اللهُ أَيْضًا، وَأَعْطَاهُ اسْمًا فَوْقَ كُلِّ اسْمٍ لِكَيْ تَجْثُوَ بِاسْمِ يَسُوعَ كُلُّ رُكْبَةٍ مِمَّنْ فِي السَّمَاءِ وَمَنْ عَلَى الأَرْضِ وَمَنْ تَحْتَ الأَرْضِ، وَيَعْتَرِفَ كُلُّ لِسَانٍ أَنَّ يَسُوعَ الْمَسِيحَ هُوَ رَبٌّ لِمَجْدِ اللهِ الآبِ**» (فى ٢: ٨-١١).

يا لعمق حكمة الله وعلمه!! يا لِغِنى التدبير الإلهي!! كيف إنَّ ما يليق بالله المتعالي العظيم تجده في الأشياء المتفقة مع التدبير الإلهي. «**لِذَلِكَ رَفَّعَهُ اللهُ أَيْضًا، وَأَعْطَاهُ اسْمًا فَوْقَ كُلِّ اسْمٍ**» (في ٢: ٩).

أطاع حتى الموت، وتحمل موت الصليب. صُلب وتألم حسب الجسد، «**الَّذِي إِذْ كَانَ فِي صُورَةِ اللهِ ... أَخْلَى نَفْسَهُ، آخِذًا صُورَةَ عَبْدٍ، صَائِرًا فِي شِبْهِ النَّاسِ**» (في ٢: ٦،٧) بتأنسه.

معنى عبارة «أخذ شكل العبد» أنه حُسِب معنا نحن الذين نخضع لحاجة الجسد، وقد بذل ذاته فداء عنا لخلاص البشر.

لذلك مكتوب أيضًا أن الله أعطاه اسمًا فوق كل اسم، لأنه من نفس الجوهر كالآب(٨٠) وهو سيد الكون، أعطاه لأجلنا نحن الذين تعود علينا هذه العطية، ولنا أيضًا جعل نفسه باكورة. ولو لم يكن هو نفسه بالجوهر إنسان وإله، بل كانت له طبيعتان - كما يزعم النسطوريون الجهلاء - لَمَ كان ممكنًا أن يُعطَى الاسم «الذي هو فوق كل اسم».

وفي الواقع يستطيع الله أن يفعل كل ما يريد. لكنه لا يريد سوى ما هو جدير، وما كان جديرًا باسمه شيء غير مُنظَّم. لأنَّ الذي أبدع الترتيب فيما هو موجود، لا يمكن أن يريد شيئًا غير مُرتَّب. لأنه كما أنه قدير، أو قل القدرة ذاتها، فهو أيضًا الترتيب ذاته والانتظام.

وتوجد حالات يصنع فيها الله معجزات مختلفة تفوق الطبيعة، لكنها مع ذلك لا تكون ضد كلماته. فكيف إذن مَن يقول: «**مِنْ مَشْرِقِ الشَّمْسِ إِلَى مَغْرِبِهَا اسْمُ الرَّبِّ مُسَبَّحٌ**» (مز ١١٣: ٣)، ويقول أيضًا على لسان نبي آخر: «**أَنَا الرَّبُّ هَذَا اسْمِي وَمَجْدِي لاَ أُعْطِيهِ لِآخَرَ**» (إش ٤٢: ٨)، كيف يُعطى اسمًا فوق كل اسم لغير الله الكلمة؟

(٨٠) النص الفرنسي: "en tant qu'il est de la même essence que le Père et qu'il est le maître de univers".

إنَّ بولس الرسول يقول عنه: «**رُفِعَ فِي الْمَجْدِ**» (١تي ٣: ١٦) ويقول أيضًا: «**اَلَّذِي نَزَلَ هُوَ الَّذِي صَعِدَ أَيْضًا فَوْقَ جَمِيعِ السَّمَاوَاتِ، لِكَيْ يَمْلأَ الْكُلَّ**» (أف ٤: ١٠).

فمَن يتجاسر بعد سماع هذه الكلمات أن يُقسِّم الرب الإله الوحيد يسوع المسيح؟ إذا كان الذي نزل هو أيضًا ذاته الذي صعد فوق كل السموات حتى الشرف الرفيع اللائق بالله، فكيف يؤمنون أنه اثنان وليس واحدًا؟

لهذا السبب إذا كان يقول هو نفسه إلى نيقوديموس في الأناجيل: «**وَلَيْسَ أَحَدٌ صَعِدَ إِلَى السَّمَاءِ إِلاَّ الَّذِي نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ، ابْنُ الإِنْسَانِ الَّذِي هُوَ فِي السَّمَاءِ**» (يو ٣: ١٣). فإنَّ ذلك الذي تجسد من والدة الإله مريم هو ذاته كلمة الله الكائن قبل الدهور، الكائن في السموات الذي يملأ الكل. وهذا لا يُخالف قول بولس الرسول: «**يَسُوعُ الْمَسِيحُ هُوَ هُوَ أَمْسًا وَالْيَوْمَ وَإِلَى الأَبَدِ**» (عب ١٣: ٨).

ومع ذلك كان اليهود الذين يُعلِّمون آراء كآراء الضلالة النسطورية وهم خصوم عميان، عندما كان الرب يسوع يصرخ: «**أَنَا هُوَ الْخُبْزُ الَّذِي نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ**» (يو ٦: ٤١) كانوا يصرخون ضده مُجدِّفين قائلين: «**أَلَيْسَ هَذَا هُوَ يَسُوعَ بْنَ يُوسُفَ، الَّذِي نَحْنُ عَارِفُونَ بِأَبِيهِ وَأُمِّهِ؟ فَكَيْفَ يَقُولُ هَذَا: إِنِّي نَزَلْتُ مِنَ السَّمَاءِ؟**» (يو ٦: ٤٢).

والمسيح الذي يعلم أفضل مِنَ اليهود ومن النسطوريين أنه واحد وهو ذاته لا ينقسم إلى طبيعتَيْن بعد الاتحاد، والذي كان يرى أيضًا أنَّ بعض المتصلين به شكوا فيما قاله بشأن الخبز وترددوا، كان يقول مهتمًا: «**أَهَذَا يُعْثِرُكُمْ؟ فَإِنْ رَأَيْتُمُ ابْنَ الإِنْسَانِ صَاعِدًا إِلَى حَيْثُ كَانَ أَوَّلاً!**» (يو ٦: ٦٢،٦٣).

فإذا كان يملأ الكل، فكيف إذًا يقول: «**صَعِدَ أَيْضًا فَوْقَ جَمِيعِ السَّمَاوَاتِ، لِكَيْ يَمْلأَ الْكُلَّ**» (أف ٤: ١٠)؟

إنَّا نقول أنه حينما تجسد ظهر للذين على الأرض. وذهب إلى الذين هم تحت الأرض حينما نزل إلى الجحيم. فبقى أن يذهب أيضًا إلى الذين هم في السماء، بعد تجسّده، لكي يملأ الكل بالربح الذي يفيض مِنَ التجسّد بخلاصه البشر من لعنة الخطية ورباطات الموت، وبإعلانه الآخرين بأعماق حكمته.

ولقد عرفت القوات السمائية أيضًا غنى الحكمة الإلهية في كامل وفرته، ذلك الغنى المستتر بسبب التدبير الإلهي، بما كان يُردِّده أولئك الذين جعلهم ميلاد عمانوئيل في دهشةٍ فظهروا مُسبِّحين الله قائلين: «**الْمَجْدُ لِلَّهِ فِي الأَعَالِي، وَعَلَى الأَرْضِ السَّلاَمُ، وَبِالنَّاسِ الْمَسَرَّةُ**» (لو ٢: ١٤). وكتب بولس الرسول إلى أهل أفسس مؤكدًا ذلك بطريقة واضحة جدًا في هذه الآية: «**لِكَيْ يُعَرَّفَ الآنَ عِنْدَ الرُّؤَسَاءِ وَالسَّلاَطِينِ فِي السَّمَاوِيَّاتِ بِوَاسِطَةِ الْكَنِيسَةِ بِحِكْمَةِ اللهِ الْمُتَنَوِّعَةِ**» (أف ٣: ١٠)

أمام المتجسد تجثو كل ركبة. «**لِكَيْ تَجْثُوَ بِاسْمِ يَسُوعَ كُلُّ رُكْبَةٍ مِمَّنْ فِي السَّمَاءِ وَمَنْ عَلَى الأَرْضِ وَمَنْ تَحْتَ الأَرْضِ**» (في ٢: ١٠) ويعترف الجميع بسلطانه: «**وَيَعْتَرِفَ كُلُّ لِسَانٍ أَنَّ يَسُوعَ الْمَسِيحَ هُوَ رَبٌّ لِمَجْدِ اللهِ الآبِ**» (في ٢: ١١).

ولا توجد أمة أو لسان، إلا واعترف بضرورة الإيمان بالمسيح، الذي به وفيه يعرفون الآب، لأنَّ الذي رأى الابن رأى الآب (يو ١٤: ٩)، ومجد الابن هو مجد الآب.

وتدحض هذه الكلمات أيضًا حماقة أريوس وأمونيوس اللذَيْن قالا بأنَّ ابن الله مخلوق وأنه لا يساوي الآب. فإنه في الواقع ليس مِنَ العدل أن يعطى الاسم «الذي هو فوق كل اسم» لأحد المخلوقات أو لأحد الذين ليسوا مثل الله الآب بالجوهر. لأنه لو كان الابن مخلوقًا وكان واحدًا مِنَ المخلوقات ومحسوبًا منهم، لما كان اسمه "فوق كل اسم". وأنه أعلى من كل خليقة وأنه ليس بين الكائنات المخلوقات من يشبهه.

ولذلك فإنَّ الأولين والقدماء وأكثر العبرانيين فهمًا للإلهيات، الذين بهم أعلنت الأقوال الإلهية والنبوات الخالية مِنَ الخطأ، كانوا يدعونه أيضًا "الذي لا يمكن أن يُسمَّى" أو "مَن يسمو ويسبق ويرتفع فوق كل اسم"، وبولس الرسول من ناحيته دعاه: "ذلك الذي هو فوق كل اسم".

إنَّ عمانوئيل هو فوق كل خليقة، إله بطبيعته. كان الثلاثة فتية يمجدون الرب وسط اللهب ووسط نار مخيفة للغاية. وكانوا يقبلون معهم

الملائكة والسلاطين وكل الخليقة الروحانية الحساسة في ذلك الخورس الروحاني، لكنهم كانوا لا ينسبون المجد والرفعة فوق الكل إلا لسيد الكون فقط.

مَن ذا الذي يستطيع أن ينطق بالمديح الذي يليق بكرم وعظمة محبة المسيح وتنازله الغير محدود؟!!

قديمًا كان موسى يصعد على جبل سيناء ويظل أربعين يومًا لا يتناول فيها أي طعام ويصوم عن الخبز والماء، لكي يرى فقط ظهور مجد الله، وكان هذا المجد له تحت شكل نار مختلطة بالظلام والدخان.

لكن المسيح، كلمة الله، النور الحقيقي بدون اختلاط، قد اِنطلق مِنَ العلا وتوغل في عمق الأرض في المناطق السفلى مِنَ الأرض وأخرجنا من هنا وأصعدنا نحن الذين كنا غارقين في الخطية والموت.

بعد أن قام المسيح مِنَ الأموات، عاش أربعين يومًا مع التلاميذ وأكل وشرب عدة مرات مؤكدًا بذلك هذا التدبير الإلهي حسب الجسد الذي يفوق التصور. وهكذا صعد إلى السماء وهو يحملنا جميعًا في ذاته، لأنه كان قد تجسد في طبيعتنا.

لِمَ تشك أيها الإنسان ولا تؤمن بقيامة الأموات وبملكوت السموات؟!، بينما الذي يضمنها لك هو السيد المسيح الذي تجسد من جنسك وقام مِنَ الأموات وصعد إلى السموات ودخلها؟

في الواقع، إن لم يكن قد تجسد بطبيعتنا، حسب غرور أفتيخوس، لكان قد بطل رجاؤنا المستقبل، ولكنا نتحمل نفس ما تحمله الذين يخدعهم

المرابون، أولئك الذين أخذوا عِوضًا عن الدنانير الحقيقية مِنَ الذهب والفضة، ما يبدو كالذهب وهو من داخل نحاس.

ولنسمع بولس الرسول يقول: «**فَإِنَّهُ إِذِ الْمَوْتُ بِإِنْسَانٍ بِإِنْسَانٍ أَيْضًا قِيَامَةُ الأَمْوَاتِ. لأَنَّهُ كَمَا فِي آدَمَ يَمُوتُ الْجَمِيعُ هَكَذَا فِي الْمَسِيحِ سَيُحْيَا الْجَمِيعُ**» (١كو ١٥: ٢١،٢٢).

وبينما كان السيد المسيح يصعد إلى السماء، كان التلاميذ ينظرون إليه متعجبين. وكانوا متعلقين به بأرواحهم وهم يشخصون نحوه بأعينهم ويرفعون أبصارهم، يسمعون ما يقول الرجلان اللذان وقفا بهم بلباس أبيض: «**أَيُّهَا الرِّجَالُ الْجَلِيلِيُّونَ مَا بَالُكُمْ وَاقِفِينَ تَنْظُرُونَ إِلَى السَّمَاءِ؟ إِنَّ يَسُوعَ هَذَا الَّذِي ارْتَفَعَ عَنْكُمْ إِلَى السَّمَاءِ سَيَأْتِي هَكَذَا كَمَا رَأَيْتُمُوهُ مُنْطَلِقًا إِلَى السَّمَاءِ**» (أع ١: ١١). ولم يتوقف التلاميذ عن النظر إليه وهكذا كانوا يحيون وكانوا يستعدون للرؤيا المستقبلة.

وإنَّ تلك الكلمات لم تكن موجهة إليهم فقط، بل إلى كل المؤمنين أيضًا عن طريقهم؛ ونحن أيضًا ننظر إليه ونفكر في الشرف الذي أولانا إياه بفضل الباكورة التي فوق في كل رئاسة وكل سلطان.

ويقول القديس ساويرس مُنذرًا بعض قومه في ذلك الوقت: وأنت لا تشعر بهذا الشرف وتجري إلى مكان تدريب الحيوانات المفترسة لترى أُناسًا من جنسك يصارعونها فتمزقهم إربًا بلا فائدة. أولئك الذين هم من نفس

الطينة ولهم نفس الصورة العاقلة الإلهية ولهم نفس التبنّي ومن نفس الخليقة الثانية، الذين يشتركون في الباكورة الوحيدة التي صعدت فوق السموات وتملَّكت على النفوس العلوية الروحانية غير المادية.

كيف أتكلم بدون دموع؟ كيف أبيّن لك جسامة الخطيئة؟ بعد أن أتى بنا من لا شيء إلى الوجود، وشرّفنا بالسلطان على الوحوش والطيور والحيوانات وعلى كل الأرض حتى كانت الوحوش تخدمنا خاضعة لنا، وكان الدب والذئب يكنان سلامًا نحو الإنسان. فلتقنعك الوحوش نفسها، فقد كانت كسائر قطيع حيوانات المرعى تجتمع حول آدم، حينما كان يعطيها أسماء بطريقة خاصة وكان يميز كل نوع باسمه، ولكن الآن بعد أن أنتُزع عنا هذا السلطان بسبب الخطية، لم نعد نحمل في أنفسنا السمة الطاهرة التي للصورة الإلهية، فإننا نخشى قساوة الوحوش الضارية. نتذكر سلطاننا القديم فتنكشف خطية جنسنا.

فلننظر إلى الإنسان الجديد الذي أعادنا إلى ملكوت السموات بدلاً مِنَ السلطان الذي كان لنا على الأرض والذي كنا فقدناه، وجعلنا مخوفين ليس لدى الوحوش الضارية فحسب، بل لدى الشياطين، وأيضًا مُكرَّمين عند الملائكة.

هذا ما يعلمه دانيال الذي أخزى أمامه الأسود، عندما كان محبوسًا في الجب. وهذا أيضًا ما تؤكده القديسة تكلا التي جازت التجربة وكانت صابرة جدًا في البتولية وفي الإيمان، وكذلك الجمع الغير مُحصى مِنَ الشهداء

الذين أوقفوا الغضب الرهيب لمختلف الوحوش الضاربة، مترسمين المسيح باكورة جنسنا؛ وقد اقتبلوا القول الإلهي مثل بولس الرسول الذي يقول: «**كُونُوا مُتَمَثِّلِينَ بِي كَمَا أَنَا أَيْضًا بِالْمَسِيحِ**» (١كو١١: ١).



ويختتم القديس ساويرس الخطاب فيقول: إنه لا زال عندي أقوال كثيرة مؤثرة؛ فأني أنهي المقال احترامًا لهذا العيد العظيم المحبوب، متضرعًا إلى المسيح الذي رُفع لأجلنا، الذي صعد إلى السماء، أن يرفع إلى السماء عقولنا المتجهة إلى أسفل، بنعمته ومحبته ورحمته، **له يليق أيضًا المجد مع الآب والروح القدس الآن وكل أوان وإلى دهر الداهرين آمين.**



السامري الصالح

سلسلة مقالات الأنبا ساويرس

البطريرك الأنطاكي

١٧

السامري الصالح

المثل المذكور في إنجيل لوقا البشير:«إِنْسَانٌ كَانَ نَازِلاً مِنْ أُورُشَلِيمَ إِلَى أَرِيحَا، فَوَقَعَ بَيْنَ لُصُوصٍ، فَعَرَّوْهُ وَجَرَّحُوهُ، وَمَضَوْا وَتَرَكُوهُ بَيْنَ حَيٍّ وَمَيْتٍ» (لو١٠:٣٠)

ويشمل المقال عتابًا موجَّهًا إلى الذين لم يقدِّموا قِطعًا مِنَ القماش
لأجل الذين يُقاسون مِنَ القروح أو بعض الأمراض الأخرى،
وكانت هذه هي العادة أثناء الصوم

مُترجم عن الفرنسية مِنَ الكتاب الأول مِنَ الجزء الثالث والعشرين من مجموعة

PATROLOGIA ORIENTALIS

R. Graffin – F. Nau

Les Homélies Cathédrales de Sévère d'Antioche

ترجمه عن السريانية ونشره

Maurice Brière, Paris

مليكه حبيب يوسف   يوسف حبيب

١٩٧٠م

لقد تألمت كثيرًا بروحي، وكان جرحي عميقًا، كنت في غمرة مِنَ الألم، حينما رأيتكم في الأحد السابق، تستمعون بغير إكتراث إلى تلاوة الإنجيل المقدسة الإلهية، وتمرّون على قوة الكلمة التي سمعتموها بآذانكم فقط، دون أن يكون قلبكم حارًا في نفس الوقت بتلك الأقوال. ولكني كي لا أجعل كلمتي مؤلمة بإصراري منذ البداية على اللوم، فإني مُذكِّركم أولاً بما تُلي، وعلى قدر استطاعتي، أشرحه لكم بمقدار، ثم أصل بذلك إلى إتهامي إياكم، باقتيادكم بالإقناع إلى ما هو كامل كأخوة، وليس بالتهجم عليكم كمذنبين كما يفعل المُدَّعي العام.

لنرَ ما تضمَّنته كلمات الإنجيل، ولنفهم المعنى الذي تنطوي عليه. سأل ناموسي وهو المتأمل في وصايا ناموس موسى الذي يُعد بتعليمها للذين لا يعرفونها، سأل يسوع يُجرِّبه قائلاً: «مَاذَا أَعْمَلُ لأَرِثَ الْحَيَاةَ الأَبَدِيَّةَ؟» (لو١٠:٢٥).

وبعد أن قال له مُخلِّصنا: «مَا هُوَ مَكْتُوبٌ فِي النَّامُوسِ» وأضاف: «كَيْفَ تَقْرَأُ؟» (لو١٠:٢٦) لكي يُبيِّن له غروره، لأنه كان يقرأ للآخرين وهو لا يفهم، قام بكبرياء وتلا الوصايا بلسانه، فاغرًا فاه قائلاً: «فَتُحِبُّ الرَّبَّ إِلهَكَ مِنْ كُلِّ قَلبِكَ وَمِنْ كُلِّ نَفْسِكَ وَمِنْ كُلِّ قُوَّتِكَ» (تث٦:٥)، «فَإِذَا سَمِعْتُمْ لِوَصَايَايَ الَّتِي أَنَا أُوصِيكُمْ بِهَا اليَوْمَ لِتُحِبُّوا الرَّبَّ إِلهَكُمْ وَتَعْبُدُوهُ مِنْ كُلِّ قُلُوبِكُمْ وَمِنْ كُلِّ أَنْفُسِكُمْ» (تث١١:١٣)، «لاَ تَنْتَقِمْ وَلاَ تَحْقِدْ عَلَى أَبْنَاءِ شَعْبِكَ بَلْ تُحِبُّ قَرِيبَكَ كَنَفْسِكَ. أَنَا الرَّبُّ» (لا١٩:١٨).

بعد أن كرَّر هذه الوصايا بروح العجرفة، أمره يسوع إلهنا الطيب الحكيم، وهو يستعمل الوداعة مع العتاب، بأن يفعل بما قال، «بِالصَّوَابِ أَجَبْتَ. اِفْعَلْ هَذَا فَتَحْيَا» (لو١٠:٢٨).

ولكن الناموسي كان يسأل من جديد، وكأنه يحتجّ بأنه يريد أن يتعلَّم: "ومن نعتبره قريبًا ينطبق عليه أمر الناموس أن يُحبه الإنسان كنفسه؟" حينئذ ردّ يسوع بمثل قائلاً:



«إِنْسَانٌ كَانَ نَازِلاً مِنْ أُورُشَلِيمَ إِلَى أَرِيحَا، فَوَقَعَ بَيْنَ لُصُوصٍ، فَعَرَّوْهُ وَجَرَّحُوهُ، وَمَضَوْا وَتَرَكُوهُ بَيْنَ حَيٍّ وَمَيْتٍ. فَعَرَضَ أَنَّ كَاهِنًا نَزَلَ فِي تِلْكَ الطَّرِيقِ ، فَرَآهُ وَجَازَ مُقَابِلَهُ. وَكَذَلِكَ لاَوِيٌّ أَيْضًا، إِذْ صَارَ عِنْدَ الْمَكَانِ جَاءَ وَنَظَـرَ وَجَـازَ مُقَابِلَهُ. وَلَكِنَّ سَامِرِيًّا مُسَافِرًا جَاءَ إِلَيْهِ، وَلَمَّا رَآهُ تَحَنَّنَ، فَتَقَدَّمَ وَضَمَدَ جِرَاحَاتِهِ، وَصَبَّ عَلَيْهَا زَيْتًا وَخَمْرًا، وَأَرْكَبَهُ عَلَى دَابَّتِهِ، وَأَتَى بِهِ إِلَى فُنْدُقٍ وَاعْتَنَى بِهِ. وَفِي الْغَدِ لَمَّا مَضَى أَخْرَجَ دِينَارَيْنِ وَأَعْطَاهُمَا لِصَاحِبِ الْفُنْدُقِ، وَقَالَ لَهُ: اعْتَنِ بِهِ، وَمَهْمَا أَنْفَقْتَ أَكْثَرَ فَعِنْدَ رُجُوعِي أُوفِيكَ» (لو١٠:٣٠-٣٥).

قل الآن دون أن تنظر إليَّ بعينَيْن شريرتَيْن فاحصتَيْن، أيها الناموسي، مَن هو قريبك، أو مَن أصبح قريبًا لمَن كان مُحتاجًا إلى العناية من أجل الأعمال ذاتها؟

فإنك كثيرًا ما تظن فعلاً عن جهل أنَّ الذي يشترك معك في نفس الديانة أو نفس الجنسية هو قريبك، أما أنا فإني أقول وأُعيِّن أنَّ الذي يشترك في نفس الطبيعة البشرية هو قريبك. كما رأيت أنَّ مَن كان يرفع رأسه متشبِّهًا باللابس الكهنوت، والذي كان يتفاخر بتسميته لاوي ويقوم بوظائف الخدمة الكهنوتية ويمارسها حسب الناموس، ومَن يفخرون أيضًا – كما تفعل أنت – بمعرفتهم الوصايا الإلهية، لم يُفكِّروا أنَّ ذلك الذي هو من نفس جنسهم، ذلك العريان المُغطَّى بالجراح التي لا شفاء منها، مُلقى على الأرض، على وشك أن يموت في لحظة، كان إنسانًا!! لكنهم احتقروه كأنه حجر أو قطعة مِنَ الخشب المرفوض. بخلاف السامري الذي كان لا يعرف وصايا الناموس، الذي اشتهر بينكم بالغباء والجهل. وهكذا تكلَّم الحكيم: « السَّاكِنُونَ فِي جَبَلِ السَّامِـرَةِ، وَالْفِلِسْطِينِيُّونَ وَالشَّعْبُ الأَحْمَقُ السَّاكِنُ فِي شَكِيمَ» (حكمة يشوع٥٠:٢٦) لقد عرف هذا السامري الطبيعة البشرية، وفهم مَن هو القريب، مَن كان في نظركم أيها القضاة بعيدًا جدًا صار قريبًا جدًا لهذا الذي يحتاج إلى العلاج. فلا تقصر تعريف القريب في خِسَّة يهودية فتظن بمقاييس ضيقة أنَّ آباء جنسك، كما يقول

إشعياء النبي هم وحدهم أقرباء، لأنَّ كل شخص نبسط عليه روح المحبة هو القريب.

«أَلَيْسَ أَنْ تَكْسِرَ لِلْجَائِعِ خُبْزَكَ وَأَنْ تُدْخِلَ الْمَسَاكِينَ التَّائِهِينَ إِلَى بَيْتِكَ؟ إِذَا رَأَيْتَ عُرْيَانًا أَنْ تَكْسُوهُ وَأَنْ لاَ تَتَغَاضَى عَنْ لَحْمِكَ» (إش٥٨:٧).

وطبقًا لهذا المعنى البسيط الماثل أمامنا، يكون لكلمات المثل الذي نحن بصدده، هذا المغزى وهذا التفسير المُتفق مع الكلمات ذاتها، فلا ننظر نظرة سطحية فقط، إذ أنه توجد تأملات عميقة وروحانية جدًا لمَن يستطيعون أن يتأملوا العبارات بطريقة روحية، على قدر إدراكهم. لأنَّ كل واحدة من هذه العبارات مُفعمة بالمعاني، فتُبيِّن الأمثال عددًا مِنَ الأشياء الواضحة المفهومة للجميع، فتجذب السامعين، ومن ناحية أخرى تخفي عددًا كبيرًا مِنَ المعاني المُختلفة، فتثير الرغبة في البحث عنها.

لذلك كان التلاميذ أنفسهم مُعتادين أن يقولوا لمُخلِّصنا: «فَسِّرْ لَنَا مَثَلَ زَوَانِ الْحَقْلِ» (مت١٣:٣٦)، وقال بطرس أيضًا: «فَسِّرْ لَنَا هَذَا الْمَثَلَ» (مت١٥:١٥). ومرة أخرى أيضًا سأل التلاميذ نفس السؤال: «لِمَاذَا تُكَلِّمُهُمْ بِأَمْثَالٍ؟ فَأَجَابَ وَقَالَ لَهُمْ: لأَنَّهُ قَدْ أُعْطِيَ لَكُمْ أَنْ تَعْرِفُوا أَسْرَارَ مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ، وَأَمَّا لِأُولَئِكَ فَلَمْ يُعْطَ» (مت١٣:١٠، ١١).

فبمناسبة هذا المثل الذي أمامنا الذي نعتزم شرحه، لنركض نحو الناحية الروحانية لهذه المعاني المخفية، سائلين الروح الإلهي الذي يوزع لكل واحد العطايا الخاصة كما يشاء، أن يكشف لنا على قدر ضعفنا عن الأفكار النافعة، وأن يجعل الذين يتدبَّرونها ينتفعون بها دون أن يفت في عضدهم ارتفاعها.

«وَلَكِنَّ هَذِهِ كُلَّهَا يَعْمَلُهَا الرُّوحُ الْوَاحِدُ بِعَيْنِهِ قَاسِمًا لِكُلِّ وَاحِدٍ بِمُفْرَدِهِ كَمَا يَشَاءُ» (١كو١٢:١١).

كيف ساق إليهم هذا المثل؟ «إِنْسَانٌ كَانَ نَازِلاً مِنْ أُورُشَلِيمَ إِلَى أَرِيحَا، فَوَقَعَ بَيْنَ لُصُوصٍ، فَعَرَّوْهُ وَجَرَّحُوهُ، وَمَضَوْا وَتَرَكُوهُ بَيْنَ حَيٍّ وَمَيْتٍ» (لو١٠:٣٠)

لم يقل مخلصنا "كانوا نازلين"، بل قال «إِنْسَانٌ كَانَ نَازِلاً». إنَّ المسألة مسألة البشرية جمعاء. فبالحقيقة بسبب تعدِّي آدم للوصية قد سقطت من مسكن الفردوس العالي المرتفع الهادئ. الذي دعي لذلك بحق أورشليم، ومعناها سلام الله، إلى أريحا التي هي مدينة في وادٍ منخفض يخنقه الحر.

فهو يُعلِّمنا أنَّ حياة الأهواء في هذا العالم تفصل عن الله، وتجر نحو أسفل، وتُسبِّب الاختناق بحرارة الشهوات المُخزية، وتنتج القلق وتدني إلى الموت.

بعد أن سقطت البشرية إلى هذا الدرك، وبعد أن انقلبت وانجذبت إلى أسفل، وانقادت رويدًا رويدًا إلى هوة السقوط، هاجمها جمع مِنَ الشياطين

فجردوها من ثياب الكمال على نحو ما تفعل عصابة مِنَ اللصوص، لم يتركوا لها بقية من قوة أو مسحة مِنَ الطهارة أو العدل أو الحكمة أو أي شيء مما يُمثِّل الصورة الإلهية، وهكذا وئدت بجراح الخطايا المختلفة المُتكرِّرة، وبالجملة قاتل الشياطين البشرية وتركوها بين حية وميتة.

وهذا بالحقيقة يُبيِّن جيدًا ما اختص به هذا المثل من عمق تدركه بالتأمل، لأنَّ من عادة اللصوص والسُرَّاق أن يُحدثوا أولاً الإصابات والجروح حتى يُجرِّدوا الجريح بعد ذلك من ملابسه، ليس هناك في أغلب الأحيان ما يدعوهم إلى إحداث إصابة بعد ذلك. ولكن الشياطين وهم بمثابة اللصوص لا يستطيعون إلى ذلك سبيلاً ما لم يرفعوا عنه ثياب الفضائل أولاً، وبعد ذلك يجرحونه بدون شفقة حتى الموت، لأنهم لا يريدون منا ملابسنا، بل ما يريدونه بالحقيقة هو خسارتنا وموتنا، لذلك قال ربنا بحكمة: «**فَعَرَّوْهُ وَجَرَّحُوهُ**» (لو١٠:٣٠)

فعندما كانت البشرية مُلقاة على الأرض، وما هي إلا دقات حتى تفقد الوعي وتنتهي، رآها الناموس المُعطَى بواسطة موسى. وهذا في الواقع ما يشير إليه بعد ذلك بالكاهن وباللاوي أيضًا، لأنَّ الناموس هو طبيب الكهنوت اللاوي. رآها لكن من ناحية أخرى كان ينقصه النشاط والقوة فلم يستطع أن يجلب الشفاء الكامل، ولم يُقِم البشرية التي كانت مُلقاة على الأرض، ولأنه كان ينقصه النشاط، بدأ تبعًا لذلك نحو هذه المسيرة بدون نتيجة.

ويقول بولس الرسول: «الَّذِي هُوَ رَمْزٌ لِلْوَقْتِ الْحَاضِرِ، الَّذِي فِيهِ تُقَدَّمُ قَرَابِينُ وَذَبَائِحُ لاَ يُمْكِنُ مِنْ جِهَةِ الضَّمِيرِ أَنْ تُكَمِّلَ الَّذِي يَخْدِمُ» (عب٩:٩) ، «وَلَيْسَ بِدَمِ تُيُوسٍ وَعُجُولٍ، بَلْ بِدَمِ نَفْسِهِ، دَخَلَ مَرَّةً وَاحِدَةً إِلَى الأَقْدَاسِ، فَوَجَدَ فِدَاءً أَبَدِيًّا» (عب٩:١٢).

لذلك لم يقل ربنا: "إن الكاهن واللاوي بعدما رأيا الرجل بين حيّ وميت مُلقى على الأرض، جازا عنه، لكنه قال: «**فَعَرَضَ أَنَّ كَاهِنًا نَزَلَ فِي تِلْكَ الطَّرِيقِ، فَرَآهُ وَجَازَ مُقَابِلَهُ. وَكَذلِكَ لاَوِيٌّ أَيْضًا، إِذْ صَارَ عِنْدَ الْمَكَانِ جَاءَ وَنَظَرَ وَجَازَ مُقَابِلَهُ**» (لو١٠:٣١، ٣٢).

كلاهما لم يتخطّ الرجل فيتركه جانبًا دون أن يراه، بل وقف أمامه ورآه وفكّر في شفائه ولمسه، ولما وجد أنه غير قادر على شفائه وقد غلبته خطورة جراحاته أي الأهواء، حينئذ رجع إلى الوراء راكضًا، وهذا هو ما تظهره عبارة: «**جَازَ مُقَابِلَهُ**».

وأخيرًا يقول: «**وَلكِنَّ سَامِرِيًّا مُسَافِرًا جَاءَ إِلَيْهِ، وَلَمَّا رَآهُ تَحَنَّنَ، فَتَقَدَّمَ وَضَمَدَ جِرَاحَاتِهِ، وَصَبَّ عَلَيْهَا زَيْتًا وَخَمْرًا، وَأَرْكَبَهُ عَلَى دَابَّتِهِ، وَأَتَى بِهِ إِلَى فُنْدُقٍ وَاعْتَنَى بِهِ**» (لو١٠:٣٣، ٣٤).

هنا يدعو المسيح نفسه بحق سامريًا، يُخاطِب ناموسيًا يفتخر في ذاته كثيرًا بالناموس، اهتم بأن يُبيِّن بقوله إنه ليس الكاهن ولا اللاوي، وعلى وجه العموم ليس الذين كانوا يعتقدون أنهم يسلكون حسب وصايا موسى

عندهم القدرة، بل هو ذاته الذي أتى لكي يُكمل إرادة الناموس مُبيِّنًا بالوقائع ذاتها مَن هو القريب بالحقيقة، وما تنطوي عليه العبارة «تُحِبُّ قَرِيبَكَ كَنَفْسِكَ» وهو الذي كان اليهود يقولون له شاتمين: «أَلَسْنَا نَقُولُ حَسَنًا: إِنَّكَ سَامِرِيٌّ وَبِكَ شَيْطَانٌ؟» (يو٨:٤٨)، وهو الذي كانوا يتهمونه كثيرًا بتعدّي الناموس.

وبمعنى آخر لا أحد يرى في تسمية المسيح بـ "السامري" ما هو غير جدير، ولو أنها تبدو بطريقة ما أنها تسميّة غير مُناسبة لجلاله الأقدس.

فحينما أسر شلمنصر الأشوري شعب إسرائيل ونفاه عند نهر "مادي" كما هو مكتوب في سفر الملوك الرابع، أرسل من بابل بعض الأهلين بدلاً مِنَ الأسرى، وأسكنهم تلك المدن. وكانت الأسود تفتك بهم لأنهم لم يكونوا يعيشون طبقًا لعادات الأجداد كما عاش الذين يسلكون حسب ناموس موسى، فأرسل رجلاً من بين الأسرى وكان مِنَ الكهنة، لكي يُعلِّمهم تلك العادات. وهكذا احتل البابليون تلك المدن مُسمِّين أنفسهم سامريين لأنهم حرَّاس البلد.

«فِي السَّنَةِ التَّاسِعَةِ لِهُوشَعَ أَخَذَ مَلِكُ أَشُّورَ السَّامِرَةَ، وَسَبَى إِسْرَائِيلَ إِلَى أَشُّورَ وَأَسْكَنَهُمْ فِي حَلَحَ وَخَابُورَ نَهْرِ جُوزَانَ وَفِي مُدُنِ مَادِي» (٢مل١٧:٦)، «وَأَتَى مَلِكُ أَشُّورَ بِقَوْمٍ مِنْ بَابِلَ وَكُوثَ وَعَوَّا وَحَمَاةَ وَسَفَرْوَايِمَ وَأَسْكَنَهُمْ فِي مُدُنِ السَّامِرَةِ عِوَضًا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَامْتَلَكُوا السَّامِرَةَ وَسَكَنُوا فِي مُدُنِهَا.

وَكَانَ فِي ابْتِدَاءِ سَكَنِهِمْ هُنَاكَ أَنَّهُمْ لَمْ يَتَّقُوا الرَّبَّ، فَأَرْسَلَ الرَّبُّ عَلَيْهِمِ السِّبَاعَ فَكَانَتْ تَقْتُلُ مِنْهُمْ. فَقَالُوا لِمَلِكِ أَشُّورَ: «إِنَّ الأُمَمَ الَّذِينَ سَبَيْتَهُمْ وَأَسْكَنْتَهُمْ فِي مُدُنِ السَّامِرَةِ لاَ يَعْرِفُونَ قَضَاءَ إِلَهِ الأَرْضِ، فَأَرْسَلَ عَلَيْهِمِ السِّبَاعَ فَهِيَ تَقْتُلُهُمْ لأَنَّهُمْ لاَ يَعْرِفُونَ قَضَاءَ إِلَهِ الأَرْضِ». فَأَمَرَ مَلِكُ أَشُّورَ: «ابْعَثُوا إِلَى هُنَاكَ وَاحِدًا مِنَ الْكَهَنَةِ الَّذِينَ سَبَيْتُمُوهُمْ مِنْ هُنَاكَ فَيَذْهَبَ وَيَسْكُنَ هُنَاكَ وَيُعَلِّمَهُمْ قَضَاءَ إِلَهِ الأَرْضِ». فَأَتَى وَاحِدٌ مِنَ الْكَهَنَةِ الَّذِينَ سَبُوهُمْ مِنَ السَّامِرَةِ وَسَكَنَ فِي بَيْتِ إِيلَ وَعَلَّمَهُمْ كَيْفَ يَتَّقُونَ الرَّبَّ» (٢مل١٧:٢٤-٢٨).

ومَن ذا الذي يُعارِض في أنَّ المسيح هو الحافظ الحقيقي لكل الأرض، وأنه مالك الكون، و «بِهِ نَحْيَا وَنَتَحَرَّكُ وَنُوجَدُ» (أع١٧:٢٨).

ويجب أن نعلم أنَّ البعض يقولون إنَّ ثمة وقائع أخرى من أجلها دُعي السكان "سامريين"، فلقد احتلوا جبل السامرة، بعد أن اشتراه ملك إسرائيل بوزنتَيْن مِنَ الفضة من شامر صاحب الجبل، كما هو مكتوب: «وَاشْتَرَى جَبَلَ السَّامِرَةِ مِنْ شَامِرَ بِوَزْنَتَيْنِ مِنَ الْفِضَّةِ، وَبَنَى عَلَى الْجَبَلِ. وَدَعَا اسْمَ الْمَدِينَةِ الَّتِي بَنَاهَا بِاسْمِ شَامِرَ صَاحِبِ الْجَبَلِ «السَّامِرَةَ»» (١مل١٦:٢٤).

ومع ذلك نريد أن نستخلص من هذه الكلمة معنى يليق بما نحن ماضون في شرحه، فلا نناقش موضوع المعنى المُتغيِّر أو السبب الذي من أجله كانت هذه التسمية، لأنه يوجد وراء كل هذه المعاني شيء ثابت وحقيقي في نفس الوقت، فهذا السامري الذي كان في الطريق، وهو المسيح،

قد رأى إذًا الجريح على الأرض. واتخذ حقًا طريقه ولم يمضِ دون أن يهتم به، لأنَّ سبب اتخاذه طريقه بالذات لكي يفتقدنا.

«مُبَارَكٌ الرَّبُّ إِلَهُ إِسْرَائِيلَ لأَنَّهُ افْتَقَدَ وَصَنَعَ فِدَاءً لِشَعْبِهِ» (لو١:٦٨) ، «بِأَحْشَاءِ رَحْمَةِ إِلَهِنَا الَّتِي بِهَا افْتَقَدَنَا الْمُشْرَقُ مِنَ العَلاَءِ» (لو١:٧٨) نحن الذين من أجلنا نزل على الأرض وأقام معنا، أنه لم يُرَ فقط، لكنه عاش مع الناس، حينما تأنَّس بالحقيقة بدون استحالة بطريقة تفوق كل تصوُّر. لأنَّ من شأن الأطباء الحقيقيين أن يعيشوا صحبة مرضاهم ولا يبتعدوا عنهم قبل شفائهم.

وهكذا كان أيضًا يسكب النبيذ، أي الكلمة التي تعلِّم، وتضمد القروح، وقد أعطانا فعلاً لنشرب نبيذ التوبة، كما يقول النبي في المزامير: «أَرَيْتَ شَعْبَكَ عُسْرًا. سَقَيْتَنَا خَمْرَ التَّرَنُّحِ» (مز٦٠:٣). ولم نكن بالحقيقة لنستطيع تحمله صرفًا، لأنَّ خطورة الجراح الخبيثة وحالتها التي لا شفاء منها كانت لا تتحمل مثل هذا اللذع، ولذلك خلطه بالزيت.

كان أيضًا يأكل مع العشارين والخطاة، وكان يقول للفريسيين الذين كانوا ينحون باللائمة، يتهمونه وينتقدون: «فَاذْهَبُوا وَتَعَلَّمُوا مَا هُوَ: إِنِّي أُرِيدُ رَحْمَةً لاَ ذَبِيحَةً، لأَنِّي لَمْ آتِ لأَدْعُوَ أَبْرَارًا بَلْ خُطَاةً إِلَى التَّوْبَةِ» (مت٩:١٣).

وقد حمل على دابته مَن كان موضوع مثل هذا الاهتمام والعناية. بالحقيقة كما هو مكتوب: «وَالإِنْسَانُ فِي كَرَامَةٍ لاَ يَبِيتُ. يُشْبِهُ الْبَهَائِمَ الَّتِي تُبَادُ» (مز٤٩: ١٢)، «إِنْسَانٌ فِي كَرَامَةٍ وَلاَ يَفْهَمُ يُشْبِهُ الْبَهَائِمَ الَّتِي تُبَادُ» (مز٤٩: ٢٠).

فقد جلب الإنسان على نفسه هوى الشهوة الدنسة حتى أظهر المسيح بعد أن جعل نفسه باكورة جنسنا، وهو الذي لا يعرف خطية، أولاً في ذاته لكي نرتفع وسمونا فوق الأهواء الحيوانية، ودسناها بأقدامنا، «لَكِنَّ أَحْزَانَنَا حَمَلَهَا وَأَوْجَاعَنَا تَحَمَّلَهَا. وَنَحْنُ حَسِبْنَاهُ مُصَاباً مَضْرُوباً مِنَ اللَّهِ وَمَذْلُولاً» (إش٥٣: ٤)، لأنه في ذاته يحملنا: «لأَنَّنَا أَعْضَاءُ جِسْمِهِ، مِنْ لَحْمِهِ وَمِنْ عِظَامِهِ» (أف٥: ٣٠).

وفضلاً عن ذلك قد أتى به إلى الفندق، «**فَتَقَدَّمَ وَضَمَدَ جِرَاحَاتِهِ، وَصَبَّ عَلَيْهَا زَيْتاً وَخَمْراً، وَأَرْكَبَهُ عَلَى دَابَّتِهِ، وَأَتَى بِهِ إِلَى فُنْدُقٍ وَاعْتَنَى بِهِ**» (لو١٠: ٣٤).

وهو الكنيسة التي أصبحت تستطيع أن تستقبل وتأوي كل الناس. فإننا لم نعُد حسب ضيق الظل الناموسي والعبادة الرمزية: «لا يَدْخُل عَمُّونِيٌّ وَلا مُوآبِيٌّ فِي جَمَاعَةِ الرَّبِّ» (تث٢٣: ٣)، «فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ قُرِئَ فِي سِفْرِ مُوسَى فِي آذَانِ الشَّعْبِ وَوُجِدَ مَكْتُوباً فِيهِ أَنَّ عَمُّونِيّاً وَمُوآبِيّاً لاَ يَدْخُلُ فِي جَمَاعَةِ اللَّهِ إِلَى الأَبَدِ» (نح١٣: ١)، بل نسمع: «فَاذْهَبُوا وَتَلْمِذُوا جَمِيعَ الأُمَمِ

وَعَمِّدُوهُمْ بِاسْمِ الآبِ وَالابْنِ وَالرُّوحِ الْقُدُسِ» (مت٢٨:١٩)، وأيضًا: «بَلْ فِي كُلِّ أُمَّةٍ الَّذِي يَتَّقِيهِ وَيَصْنَعُ الْبِرَّ مَقْبُولٌ عِنْدَهُ» (أع١٠:٣٥).

وبعد أن أتي به إلى الفندق، «اِعْتَنَى بِهِ» (لو١٠:٣٤). أي بعد أن تشكَّلت الكنيسة من اجتماع الأمم التي كانت تموت في عبادة الآلهة العديدة، أصبح المسيح نفسه هو الساكن فيها ويسير، كما هو مكتوب، ويمنح كل نعمة روحية، «فَإِنَّكُمْ أَنْتُمْ هَيْكَلُ اللهِ الْحَيِّ، كَمَا قَالَ اللهُ: إِنِّي سَأَسْكُنُ فِيهِمْ وَأَسِيرُ بَيْنَهُمْ، وَأَكُونُ لَهُمْ إِلَهًا وَهُمْ يَكُونُونَ لِي شَعْبًا» (٢كو٦:١٦).

ويتبع ذلك أنه أيضًا أعطى دينارين لصاحب الفندق، «**وَفِي الْغَدِ لَمَّا مَضَى أَخْرَجَ دِينَارَيْنِ وَأَعْطَاهُمَا لِصَاحِبِ الْفُنْدُقِ**» (لو١٠:٣٥) ويُفهم من هذا أنه يرمز للرسل، وكذلك للرعاة والمُعلِّمين الذين خلفوهم، حينما صعد إلى السماء بعد أن خوَّلهم الأمر بالاهتمام بصفة خاصة بالمريض. وأضاف قائلاً: «**اعْتَنِ بِهِ، وَمَهْمَا أَنْفَقْتَ أَكْثَرَ فَعِنْدَ رُجُوعِي أُوفِيكَ**» (لو١٠:٣٥).

ويُسمّى العهدين القديم والجديد دينارَيْن: الأول مُعطَى بواسطة ناموس موسى والأنبياء، والثاني بواسطة الأناجيل وتعاليم الرسل، وهما كلاهما مِلك لله الواحد، وكالدنانير يحملان صورة واحدة لهذا الملك العليّ، ويطبعان نفس الصورة الملكية في قلوبنا، ويُثبّتانها بالكلمات المقدسة، لأنَّ الناطق بها هو بالحقيقة أيضًا روح واحد.

ليهلك ماني وقبله مركسيون الكافرَيْن اللذَيْن يُقسِّمان هذَيْن العهدَيْن بين آلهة مختلفة! فإنَّ هذَيْن الدينارَيْن كانا لملك واحد، وقد أعطاهما المسيح في نفس الوقت وبنفس الشرف إلى صاحب الفندق. وتسلَّمها رُعاة الكنائس المقدسة، ونموهما بتعاليمهم بأتعاب وأعمال، وصرفوهما وبالأحرى زادوهما بصرفهما، لأنه هكذا المال العقلي، لا ينقص بالصرف بل يتضاعف ويزداد، حينما يأتي ربنا في اليوم الأخير، سوف يقول كل واحد: "يا رب قد أعطيتني وزنتَيْن، هوذا بعد أن صرفتهما عن نفسي، قد ربحت ثنتَيْن آخرَيْن زدت بهما القطيع وضاعفته"، وسوف يرد عليهم المسيح قائلاً: «نِعِمَّا أَيُّهَا الْعَبْدُ الصَّالِحُ الأَمِينُ! كُنْتَ أَمِينًا فِي الْقَلِيلِ فَأُقِيمُكَ عَلَى الْكَثِيرِ. ادْخُلْ إِلَى فَرَحِ سَيِّدِكَ» (مت٢٥:٢٣).



فبعد أن قرأت قديمًا كتقليد الآباء، آتي الآن إلى موضوع اللوم، فقد دعاكم الواعظ مُناشدًا إياكم أن تُقدِّموا قطعًا صغيرة مِنَ القماش لأجل مجيء المسيح المرهوب، لمنفعة العناية بمرضى البرص وإراحة أجسادهم التي دبت فيها العفونة والرائحة الكريهة مثل قبر متحرك، أو المرضى بأي مرض آخر.

بالاختصار لم يظهر على أي أحد منكم أنه سمع هذا النداء، إلا أن تكون امرأة أو إثنتَيْن عن طريق الصدفة قد ألقت قطعًا وبقايا قذرة من ملابس قديمة مُستعملة مُمزَّقة جدًا، وحكمت أنها ترضي الناموس وتفي بالالتزام المُعتاد، لكنها تصرَّفت في رياء وكأنها قدَّمت أقمشة.

ومع ذلك فبعد الناموس والأنبياء، لم يتركنا المسيح جانبًا، فبينما لم يكن لدينا رجاء وكنا في عِداد مَن هم قاب قوسين أو أدنى مِنَ الموت، نزل مِنَ العلا واشترك في ذات الجوهر مثلنا فيما عدا الخطية، وارتضى أن يتأنس بدون استحالة، فيقبل أيضًا موت الصليب والقبر والنزول إلى الجحيم، بينما هو بطبيعته الله، تحمَّل كل هذا بتأنّسه، ومرّ بطريقة فائقة بكل هذه الحالات ليُقيمنا نحن الذين سقطنا، «تَبَدَّدَتْ عِظَامُنَا عِنْدَ فَمِ الْهَاوِيَةِ» (مز١٤١:٧) كقول داود النبي.

لم نكن نستطيع أن ننهض وكنا مدفونين أسفل، حتى أننا لم نكن نستطيع فقط أن نرفع أعيننا نحو السماء، كما يقول بولس الرسول، بعد أن

«نَزَلَ إِلَى أَقْسَامِ الأَرْضِ السُّفْلَى» (أف٤:٩) أخرج منها الذين لم يكن لهم رجاء في الخلاص قط، حينما اقترب جدًا مِنَ البعيدين.

لذلك يسأل الناموسي مُبيِّنًا له عِظم محبته الفائقة: «**فَأَيُّ هَؤُلاَءِ الثَّلاَثَةِ تَرَى صَارَ قَرِيبًا لِلَّذِي وَقَعَ بَيْنَ اللُّصُوصِ؟**» (لو١٠:٣٦).

أما نحن الذين نسمع هذه الكلمات، أو بالحري الذين حُسبنا مُستحقين لها، فلم نعطه قطعة واحدة من قماش حتى القماش المُستعمَل. مع أنَّ الذي يسأل هو نفسه الذي يقول: «**الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: بِمَا أَنَّكُمْ فَعَلْتُمُوهُ بِأَحَدِ إِخْوَتِي هَؤُلاَءِ الأَصَاغِرِ، فَبِي فَعَلْتُمْ**» (مت٢٥:٤٠)

قل لي إنّا نعلن أن يوسف الرجل الذي مِنَ الرامة أهل لمثل هذه الكرامة، ذلكم هو الذي طلب من بيلاطس أن يسمح له بدفن جسد يسوع المُحيي وغطّاه بأكفان من كتان، وننسى أننا نحن أيضًا إذ لنا إمكانية الحصول على نفس الشرف ونفس الكرامة مثله أو أكثر منه، في كل مرة يكون في استطاعتنا أن نريح المسيح المجروح، فإننا نحرم أنفسنا هذه الهبات الممتازة، ونرفض فضلاً عظيمًا.

لكن إذا قام بيننا ملك إذن لكُنا نعطيه كل الملابس التي في منازلنا، وأيضًا الملابس الحريرية التي نخرجها مِنَ الخزائن لهذه المناسبة، حتى يرتديها ويمشي عليها ويستعملها بلا لياقة، فتحمل أيضًا معه، وذلك أملاً في بعض الكرامة الزمنية. والمسيح ملك الأرواح العلوية والسلاطين

والقوات السمائية، الذي يتقدَّم إلينا مجروحًا في كل جسده، وبعد أن يُعطي ملكوت السموات لأجل قطعة صغيرة مِنَ القماش، يذهب دون أن نصنع من أجله شيئًا. انظروا إلى جسامة جهلكم وطبيعته واقبلوا نحو أبناء جنسنا المُعذَّبين.

لا يقل لي أحد إن اليوم الذي كان يجب فيه أن نُلقي قطع القماش قد مضى! إذا كان ثمّة وصية في الناموس أن يعملوا الفصح في الشهر الأول عند العبرانيين، وكان لأحد أن يمتنع عن الاحتفال لسبب مقبول، كان يمكنه أن يُقدِّم ذبيحة الفصح في الشهر الثاني «قُل لِبَنِي إِسْرَائِيل: كُلُّ إِنْسَانٍ مِنْكُمْ أَوْ مِنْ أَجْيَالِكُمْ كَانَ نَجِسًا لِمَيِّتٍ أَوْ فِي سَفَرٍ بَعِيدٍ فَليَعْمَلِ الفِصْحَ لِلرَّبِّ. فِي الشَّهْرِ الثَّانِي فِي اليَوْمِ الرَّابِعَ عَشَرَ بَيْنَ العِشَاءَيْنِ يَعْمَلُونَهُ. عَلى فَطِيرٍ وَمُرَارٍ يَأْكُلُونَهُ» (عد٩:١٠، ١١). فكيف يُعقَل حينما يكون الأمر متعلقًا بالشفقة ومُساعدة الفقراء، ألا يكون الوقت لائقًا ومُناسبًا، فنمتنع عن عمل ما يليق وكأن الوقت قد مضى، بينما تقول الكتب: «لاَ تَمْنَعِ الْخَيْرَ عَنْ أَهْلِهِ حِينَ يَكُونُ فِي طَاقَةِ يَدِكَ أَنْ تَفْعَلَهُ. لاَ تَقُلْ لِصَاحِبِكَ: «اذْهَبْ وَعُدْ فَأُعْطِيَكَ غَدًا» وَمَوْجُودٌ عِنْدَكَ» (أم٣:٢٧، ٢٨)، «لاَ تَفْتَخِرْ بِالْغَدِ لأَنَّكَ لاَ تَعْلَمُ مَاذَا يَلِدُهُ يَوْمٌ» (أم٢٧:١).

لا تؤجِّلوا إذن كلماتي إلى السنة القادمة، بل تصوّروا أنَّ اليوم هو يوم الأحد الماضي، وليُقدِّم كل واحد منكم قطعة القماش المُعلَّقة في رقبته

المستعملة عادة كمنديل، وأنتِ أيتها المرأة، سُرّي المسيح بإعطائكِ الملابس التي تحملينها على يدكِ. هذه الأشياء فعلاً لا تساوي سوى القليل، لكنها تُعطي جزاءً سمائيًا وتُنجّي من كل مرض ومن كل جرح، وأنتم أنفسكم وأولادكم الذين يهمّكم جدًا خلاصهم، كما أعلم. لأنكم إن عدتم إلى بيوتكم بدون هذه القطع مِنَ القماش المذكورة، فسوف يكون هناك جمع مِنَ الملائكة معكم يدخلون البيت ويحفظونه. وأيضًا يكون المسيح ذاته رب الملائكة داخل مساكنكم.

بعد أن تصنعوا ذلك، لا تظنوا أنكم عملتم شيئًا عظيمًا. فإنَّ جدعون أحد قُضاة إسرائيل، بعد أن غلب المديانيين أو الإسرائيليين الذين حملوا السلاح ضده، قال أيضًا بعد النصر للذين خلّصهم واصطفوا معه في حرب: «أَطْلُبُ مِنْكُمْ طِلْبَةً: أَنْ تُعْطُونِي كُلُّ وَاحِدٍ أَقْرَاطَ غَنِيمَتِهِ». لأَنَّهُ كَانَ لَهُمْ أَقْرَاطُ ذَهَبٍ لأَنَّهُمْ إِسْمَاعِيلِيُّونَ. فَقَالُوا: «إِنَّنَا نُعْطِي». وَفَرَشُوا رِدَاءً وَطَرَحُوا عَلَيْهِ كُلُّ وَاحِدٍ أَقْرَاطَ غَنِيمَتِهِ» (قض٨:٢٤، ٢٥).

هؤلاء أعطوا مثل هذه الكمية مِنَ الذهب لرئيس المعركة. وذلك حينما كانوا قد اصطفوا معه في المعركة، لأنهم نجوا من عبودية زمنية، فهل يكون شيئًا عظيمًا بالنسبة لنا أن نُعطي قليلاً من قطعِ القماش للمسيح الذي خلّص جنسنا كله مِنَ المُخادِع ومن الشياطين الأعداء الذين لا يمكن مُصالحتهم الحقودين، وكسب المعركة التي ما كنا نستطيع أن نكسبها،

واعترفت القوات السمائية أنه عاد مِنَ المعركة منتصرًا، حينما صعد إلى العُلا بعد الآلام الخلاصية والقيامة، كقول المزمور: «اِرْفَعْنَ أَيَّتُهَا الأَرْتَاجُ رُؤُوسَكُنَّ وَارْتَفِعْنَ أَيَّتُهَا الأَبْوَابُ الدَّهْرِيَّاتُ فَيَدْخُلَ مَلِكُ الْمَجْدِ. مَنْ هُوَ هَذَا مَلِكُ الْمَجْدِ؟ الرَّبُّ الْقَدِيرُ الْجَبَّارُ الرَّبُّ الْجَبَّارُ فِي الْقِتَالِ!» (مز٢٤:٧، ٨).

فعلاً قد هزم بصليبه أمير الظلام والشر وجنوده الأشرار وأشهرهم جهارًا كما يقول بولس الرسول، وغطّاهم بالمهانة، «إِذْ مَحَا الصَّكَّ الَّذِي عَلَيْنَا فِي الْفَرَائِضِ، الَّذِي كَانَ ضِدًّا لَنَا، وَقَدْ رَفَعَهُ مِنَ الْوَسَطِ مُسَمِّرًا اِيَّاهُ بِالصَّلِيبِ، إِذْ جَرَّدَ الرِّيَاسَاتِ وَالسَّلاَطِينَ اشْهَرَهُمْ جِهَارًا، ظَافِرًا بِهِمْ فِيهِ» (كو٢:١٤، ١٥).

له يليق التسبيح والسلطان مع الآب والروح القدس الآن وكل أوان وإلى دهر الداهرين آمين.



أعطوا إذًا ما لقيصر

لقيصر وما لله لله

سلسلة مقالات الأنبا ساويرس

البطريرك الأنطاكي

١٨

أعطوا إذًا ما لقيصر لقيصر وما لله لله

عن الفصل من إنجيل متى البشير

«حِينَئِذٍ ذَهَبَ الْفَرِّيسِيُّونَ وَتَشَاوَرُوا لِكَيْ يَصْطَادُوهُ بِكَلِمَةٍ فَأَرْسَلُوا إِلَيْهِ تلاَمِيذَهُمْ مَعَ الْهِيرُودُسِيِّينَ قَائِلِينَ: يَا مُعَلِّمُ، نَعْلَمُ أَنَّكَ صَادِقٌ وَتُعَلِّمُ طَرِيقَ اللَّهِ بِالْحَقِّ، وَلاَ تُبَالِي بِأَحَدٍ، لأَنَّكَ لاَ تَنْظُرُ إِلَى وُجُوهِ النَّاسِ. فَقُلْ لَنَا: مَاذَا تَظُنُّ؟ أَيَجُوزُ أَنْ تُعْطَى جِزْيَةٌ لِقَيْصَرَ أَمْ لاَ؟ فَعَلِمَ يَسُوعُ خُبْثَهُمْ وَقَالَ: لِمَاذَا تُجَرِّبُونَنِي يَا مُرَاؤُونَ؟ أَرُونِي مُعَامَلَةَ الْجِزْيَةِ. فَقَدَّمُوا لَهُ دِينَارًا. فَقَالَ لَهُمْ: لِمَنْ هَذِهِ الصُّورَةُ وَالْكِتَابَةُ؟ قَالُوا لَهُ: لِقَيْصَرَ فَقَالَ لَهُمْ: أَعْطُوا إِذًا مَا لِقَيْصَرَ لِقَيْصَرَ وَمَا لِلَّهِ لِلَّهِ فَلَمَّا سَمِعُوا تَعَجَّبُوا وَتَرَكُوهُ وَمَضَوْا» (مت٢٢: ١٥-٢٢).

مترجم عن الفرنسية مِنَ الكتاب الرابع مِنَ الجزء الخامس والعشرين من مجموعة

PATROLOGIA ORIENTALIS

R. Graffin – F. Nau

Les Homélies Cathédrales de Sévère d'Antioche

ترجمة عن السريانية ونشره

Maurice Briére

مليكه حبيب يوسف   يوسف حبيب

١٩٧٠م

هل تريدون أن تذهبوا إلى فوَّهة ينبوع الحكمة المملوء بما قرأناه الآن. لكي تنهلوا منه تعليمًا روحيًا، وذلك على قدر استطاعتنا أن نعاير بكأس صغير يناسب حقارتنا حسب ما قاله بولس الرسول:

«لأَنِّي أَصْغَرُ الرُّسُلِ أَنَا الَّذِي لَسْتُ أَهْلاً لأَنْ أُدْعَى رَسُولاً لأَنِّي اضْطَهَدْتُ كَنِيسَةَ اللهِ» (١كو١٥:٩).

«لِي أَنَا أَصْغَرَ جَمِيعِ الْقِدِّيسِينَ أُعْطِيَتْ هَذِهِ النِّعْمَةُ، أَنْ أُبَشِّرَ بَيْنَ الأُمَمِ بِغِنَى الْمَسِيحِ الَّذِي لاَ يُسْتَقْصَى» (أف٣: ٨).

في الواقع أن ما صُنع وما قيل وقت تأنُّس مخلصنا كان يحدث حينئذ، وكتب لأجل تعليمنا، ويعطينا نماذج ودروسًا في الحياة الكاملة، مُرشدًا إيانا إلى ما يجب أن نفعله أو نقوله.

فلننظر إذن لنعرف ماذا كان وراء اجتماع الفريسيين والهيرودسيين، وماذا كانت التجربة التي نسجوها ليسوع. إنَّ مجمع اليهود الذي يتعدَّى الناموس ويتصرَّف بدون تفكير، بعد أن سمن وغلظ في روحه كما هو مكتوب:

«فَسَمِنَ يَشُورُونَ وَرَفَسَ. سَمِنْتَ وَغَلُظْتَ وَاكْتَسَيْتَ شَحْمًا! فَرَفَضَ الإِلهَ الذِي عَمِلهُ وَغَبِيَ عَنْ صَخْرَةِ خَلاصِهِ» (تث٣٢:١٥)، كان يسد أذنيه نحو وصايا الله.

لكن بسبب الكلمات والألقاب التي كانوا يضفونها عليهم كان تكريم الفضيلة تفضيلاً لها على القساوة، وإذ كان اليهود في حالة جنون،

كانوا يقاومون بالمُحاربة والمُخاصمة ما يكون كاملاً، وطغوا جدًا بتسميتهم وبألقابهم، وهم يسمعون الله يقول لآبائهم:

«فَالآنَ إِنْ سَمِعْتُمْ لِصَوْتِي وَحَفِظْتُمْ عَهْدِي تَكُونُونَ لِي خَاصَّةً مِنْ بَيْنِ جَمِيعِ الشُّعُوبِ. فَإِنَّ لِي كُلَّ الأَرْضِ» (خر١٩:٥).

أي أنَّ الشعب ينتصر ويمتاز على العدد الكبير لأنه خليقته وهو الذي جبل كل الناس، ولهم الخيرات إن هم فعلوا ما يليق بربوبيته، دون أن يُستعبَدوا لسيد آخر، سواء أكان هوى الخطية، أو إله كاذب، ولا يسمعون ذلك فحسب بل ينطبق عليهم ما قيل:

«وَأَنْتُمْ تَكُونُونَ لِي مَمْلَكَةَ كَهَنَةٍ وَأُمَّةً مُقَدَّسَةً» (خر١٩:٦)، شعبًا مُفرَزًا ومُقدَّسًا ومُكرَّسًا لله.

لكنه فات هؤلاء البؤساء عديمو الفهم أنَّ الاسم يلزم أن يكون على مُسمًّى، وهذه الأسماء إنما هي جديرة بشعب الله الكبير، المدعو خاصة الله، أولئك الذين حسب قول بولس الرسول قد قدَّموا أعضاءهم على أهُبَّة الاِستعداد كعبيد للبر للقداسة:

«لأَنَّهُ كَمَا قَدَّمْتُمْ أَعْضَاءَكُمْ عَبِيدًا لِلنَّجَاسَةِ وَالإِثْمِ لِلإِثْمِ هَكَذَا الآنَ قَدِّمُوا أَعْضَاءَكُمْ عَبِيدًا لِلْبِرِّ لِلْقَدَاسَةِ» (رو٦:١٩).

وبنفس الطريقة فإنَّ الشعب المقدس والكهنوت الملكي هم حسب قول بولس الرسول، قربان حي مُقدَّس ذو رائحة زكية:

«فَأَطْلُبُ إِلَيْكُمْ أَيُّهَا الإِخْوَةُ بِرَأْفَةِ اللهِ أَنْ تُقَدِّمُوا أَجْسَادَكُمْ ذَبِيحَةً حَيَّةً مُقَدَّسَةً مَرْضِيَّةً عِنْدَ اللهِ عِبَادَتَكُمُ الْعَقْلِيَّةَ» (رو١٢:١).

لذلك فإنَّ الله لم يكن يستخدم هذه الأسماء المُشرِّفة بتلك البساطة، إنما كان ذلك بعد أن قال أولاً: «فَالآنَ إِنْ سَمِعْتُمْ لِصَوْتِي وَحَفِظْتُمْ عَهْدِي تَكُونُونَ لِي خَاصَّةً مِنْ بَيْنِ جَمِيعِ الشُّعُوبِ. فَإِنَّ لِي كُلَّ الأَرْضِ. وَأَنْتُمْ تَكُونُونَ لِي مَمْلَكَةَ كَهَنَةٍ وَأُمَّةً مُقَدَّسَةً. هَذِهِ هِيَ الْكَلِمَاتُ الَّتِي تُكَلِّمُ بِهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ» (خر١٩:٥، ٦).

إذًا طالما كانت هذه الأسماء عند اليهود أسماء خالية كلية مِنَ الحقائق، فهم لا يستحقون؛ فقد كانوا يخطئون ويقولون لصموئيل: «اجْعَلْ لَنَا مَلِكًا يَقْضِي لَنَا كَسَائِرِ الشُّعُوبِ» (١صم٨:٥)، كان الله يرد على صموئيل قائلاً: «لَمْ يَرْفُضُوكَ أَنْتَ بَلْ إِيَّايَ رَفَضُوا حَتَّى لاَ أَمْلِكَ عَلَيْهِمْ» (١صم٨:٧).

وحسب نبوة إشعياء أحاط شعبه بسياج مثل كرمة، أي أنه أحاطه بمعونته ذاتها: «فَنَقَبَهُ وَنَقَّى حِجَارَتَهُ وَغَرَسَهُ كَرْمَ سَوْرَقَ وَبَنَى بُرْجًا فِي وَسَطِهِ وَنَقَرَ فِيهِ أَيْضًا مِعْصَرَةً فَانْتَظَرَ أَنْ يَصْنَعَ عِنَبًا فَصَنَعَ عِنَبًا رَدِيئًا» (إش٥:٢).

وحسب ما هو مكتوب، حينما وصلت خطاياهم إلى الذروة، وكانوا سادرين في غلوائهم حتى طفح الغضب الآتي من فوق: «يَمْنَعُونَنَا عَنْ أَنْ نُكَلِّمَ الأُمَمَ لِكَيْ يَخْلُصُوا حَتَّى يُتَمِّمُوا خَطَايَاهُمْ كُلَّ حِينٍ. وَلَكِنْ قَدْ أَدْرَكَهُمُ الْغَضَبُ إِلَى النِّهَايَةِ» (١تس٢:١٦)، فانزلقوا وسقطوا، حينئذ بالحقيقة، تحققت كلمات النبوة، وكذلك تهديد الله القائل:

«فَالآنَ أُعَرِّفُكُمْ مَاذَا أَصْنَعُ بِكَرْمِي. أَنْزِعُ سِيَاجَهُ فَيَصِيرُ لِلرَّعْيِ. أَهْدِمُ جُدْرَانَهُ فَيَصِيرُ لِلدَّوْسِ» (إش٥:٥).

وإنه بعد العودة من بابل، نسوا كل هذه المعونة، بعد أن استعرت الحروب وسُبي المقدونيين وأولادهم، أخيرًا صاروا تابعين للرومان، وكانوا أقوى الشعوب. تتبعوا لهم رغم أنوفهم، وكانوا في خطر فقدان العبادة الرمزية نفسها التي كانوا يعبدون الله بها. ومن المؤكد أنه قد سقط في عهد تيبر كلود قيصر Tibère Claude César وأيضًا في عهد غايوس قيصر Gaius César وفقًا لما جاء في كتب التاريخ، عدد كبير مِنَ اليهود وقُتلوا، حينما أراد الحاكم بيلاطس أن يقيم تمثالا لقيصر في هيكل الله.

فى الوقت الذي فيه كانت الحال باقية هكذا في أورشليم، كان هناك بعض الناس يقنعون شعب اليهود المُتكبِّر الأعمى، بألا يعودوا إلى دفع الجزية التي كانوا يدعونها في لغتهم الأصلية census أي إيداع لقيصر. وكان قادتهم ورؤساؤهم مِنَ الفريسيين الذين يدَّعون أنهم يعرفون الناموس بطريقتهم الخاصة، وأن تسميتهم تتفق والحقيقة ويفتخرون بذلك.

كان هؤلاء يُخادِعون ويُضِلون أيضًا كثيرين من أبناء الشعب، حينما كانوا يذكرون الكلمات الإلهية في غير معناها، فكانوا يدفعونهم إلى التمرد فيستكبرون حتى لا يسمعوا لغريب عن أمتهم.

وتارة كانوا يقولون كلمات موسى النبي هذه: «إِنَّ قِسْمَ الرَّبِّ هُوَ شَعْبُهُ. يَعْقُوبُ حَبْلُ نَصِيبِهِ» (تث٣٢:٩).

«فَإِنَّكَ تَجْعَلُ عَلَيْكَ مَلِكًا الذِي يَخْتَارُهُ الرَّبُّ إِلهُكَ. مِنْ وَسَطِ إِخْوَتِكَ تَجْعَلُ عَلَيْكَ مَلِكًا. لا يَحِلُّ لكَ أَنْ تَجْعَل عَليْكَ رَجُلاً أَجْنَبِيًّا ليْسَ هُوَ أَخَاكَ» (تث١٧:١٥).

وطورًا كانوا يُتمتِمون بكلمات إشعياء النبي ويُغيِّرون معنى النبوات فيقولون: «فَإِنَّ الرَّبَّ قَاضِينَا. الرَّبُّ شَارِعُنَا. الرَّبُّ مَلِكُنَا هُوَ يُخَلِّصُنَا» (إش٣٣:٢٢)، دون أن يعلموا أنَّ هناك أمرًا آخر لابد منه؛ وفقًا لقانونهم حقّ عليهم العقاب بسبب خطاياهم، وكان لِزامًا عليهم أن يخضعوا لِمَن كانوا يتفوّقون عليهم قوة حسب قانون الحرب، لأنَّ الرب كان يُعاقبهم بسبب خطاياهم.

وكان يهوذا الجليلي ينتمي أيضًا إلى هذا الفريق مِنَ الفريسيين، وهو الذي ذكره لوقا البشير في سفر الأعمال قائلاً:

«بَعْدَ هَذَا قَامَ يَهُوذَا الْجَلِيلِيُّ فِي أَيَّامِ الاِكْتِتَابِ وَأَزَاغَ وَرَاءَهُ شَعْبًا غَفِيرًا. فَذَاكَ أَيْضًا هَلَكَ وَجَمِيعُ الَّذِينَ انْقَادُوا إِلَيْهِ تَشَتَّتُوا» (أع٥:٣٧).

وكان هيرودس[٨١] رئيس ربع أي رئيسًا لإحدى الأربع الولايات الخاضعة لسلطان اليهود. كما قال أيضًا لوقا البشير على سبيل الرواية:

---

(٨١) هو هيرودس بن أغريباس، الذي حوكم بولس الرسول أمامه، كما هو مكتوب في سفر أعمال الرسل، وهو حفيد أرسطوبول بن هيرودس الأول: «ثُمَّ بَعْدَ أَيَّامٍ جَاءَ فِيلِكْسُ مَعَ دُرُوسِلاَّ امْرَأَتِهِ وَهِيَ يَهُودِيَّةٌ. فَاسْتَحْضَرَ بُولُسَ وَسَمِعَ مِنْهُ عَنِ الإِيمَانِ بِالْمَسِيحِ» (أع٢٤:٢٤). «وَكَانَ أَيْضًا يَرْجُو أَنْ يُعْطِيَهُ بُولُسُ دَرَاهِمَ لِيُطْلِقَهُ وَلِذَلِكَ كَانَ يَسْتَحْضِرُهُ مِرَارًا أَكْثَرَ وَيَتَكَلَّمُ مَعَهُ» (أع ٢٤:٢٦). وفي الجزء الثاني

«وَفِي السَّنَةِ الْخَامِسَةِ عَشْرَةَ مِنْ سَلْطَنَةِ طِيبَارِيُوسَ قَيْصَرَ، إِذْ كَانَ بِيلاَطُسُ الْبُنْطِيُّ وَالِيًا عَلَى الْيَهُودِيَّةِ، وَهِيرُودُسُ رَئِيسَ رُبْعٍ عَلَى الْجَلِيلِ، وَفِيلُبُّسُ أَخُوهُ رَئِيسَ رُبْعٍ عَلَى إِيطُورِيَّةَ وَكُورَةِ تَرَاخُونِيتِسَ، وَلِيسَانِيُوسُ رَئِيسَ رُبْعٍ عَلَى الأَبِلِيَّةِ» (لو٣:١).

كان هيرودس بدوره ينصح سكان أورشليم مُشفقًا عليهم ومُهتمًا بهم اهتمامه بأبناء جنسه وأعضاء أسرته، بأن يكونوا خاضعين للرومان وأن يدفعوا الجزية المفروضة عليهم. وكان هناك فريق آخر مِنَ الشعب يطيعون نصيحته، ويقبلون أن يدعوهم لذلك هيروديين، ويُعارضون الفريسيين ولا يقبلون روح التمرد السائدة بينهم.

على أنَّ الحزبَيْن اللذَيْن كانا يُعارضان بعضهما البعض صارا فيما بعد مُتفقَيْن واجتمعا معًا ضد يسوع؛ لأنَّ الشيطان كان يعرف كيف يُسلِّح

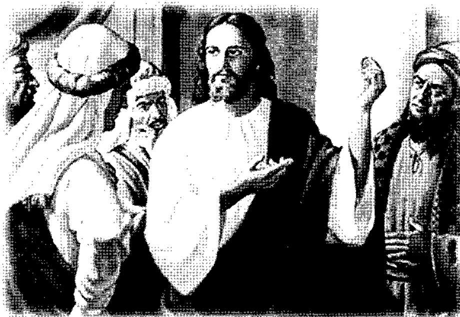
من كتاب ''خراب أورشليم'' بيَّن المؤلف أنَّ هيرودس نصح شعب اليهود كثيرًا بألا يتمرَّدوا على الرومان فيكونوا سببًا في خراب مدينتهم وضياع أمتهم. ولم يكن ذلك في زمن المسيح فلم يكن وُلد بعد، كما أن تسميه بعض اليهود بالهيروديين لم تحدث وقت تمردهم على الرومان، بل يرجع تاريخها إلى زمن المسيح، إلى نحو أربعين سنة قبل خراب أورشليم، وليس من أجل الهيروديين إنما دُعوا بالهيروديين نسبة إلى هيرودس الأول الذي ملك عليهم، وإلى حاكم الربع الذي حكم بالموت على يوحنا، وإلى هيرودس أنتيباس، وأيضًا هيرودس أغريبا، أي ذلك الذي ذكره المعلم، الذي مات في قيصرية كما هو مكتوب في سفر الأعمال: «وَأَمَّا هِيرُودُسُ فَلَمَّا طَلَبَهُ (طلب بطرس الرسول) وَلَمْ يَجِدْهُ فَحَصَ الْحُرَّاسَ، وَأَمَرَ أَنْ يَنْقَادُوا إِلَى الْقَتْلِ. ثُمَّ نَزَلَ مِنَ الْيَهُودِيَّةِ إِلَى قَيْصَرِيَّةَ وَأَقَامَ هُنَاكَ» (أع١٢:١٩). «فَفِي الْحَالِ ضَرَبَهُ مَلاَكُ الرَّبِّ لأَنَّهُ لَمْ يُعْطِ الْمَجْدَ لِلَّهِ فَصَارَ يَأْكُلُهُ الدُّودُ وَمَاتَ» (أع١٢:٢٣).

أولئك الذين كانوا بعضهم لبعض أعداء، ويجمعهم ويأتي بهم إلى الاتفاق من أجل إتمام ما يُرضيه، لذلك قال متَّى البشير في هذا المعنى:

«**حِينَئِذٍ ذَهَبَ الْفَرِّيسِيُّونَ وَتَشَاوَرُوا لِكَيْ يَصْطَادُوهُ بِكَلِمَةٍ**» (مت ٢٢: ١٥) وكأنه يقول: اشترك الخصوم الأعداء معًا حينئذ في المجمع.

ماذا كانت أهم المواضيع في الاجتماع؟ كان هدفها إحراج السيد المسيح «قُوَّةِ اللهِ وَحِكْمَةِ اللهِ» (١كو١: ٢٤)، بسؤال كله مكر وخِداع لكي يتصيَّدوا الله الكلمة في ردهِ بخصوص موضوع لم يُفحص ولم يُناقَش قبلاً:

يقول: «**حِينَئِذٍ ذَهَبَ الْفَرِّيسِيُّونَ وَتَشَاوَرُوا لِكَيْ يَصْطَادُوهُ بِكَلِمَةٍ. فَأَرْسَلُوا إِلَيْهِ تَلاَمِيذَهُمْ مَعَ الْهِيرُودُسِيِّينَ قَائِلِينَ: "يَا مُعَلِّمُ، نَعْلَمُ أَنَّكَ صَادِقٌ وَتُعَلِّمُ طَرِيقَ اللهِ بِالْحَقِّ، وَلاَ تُبَالِي بِأَحَدٍ، لأَنَّكَ لاَ تَنْظُرُ إِلَى وُجُوهِ النَّاسِ. فَقُلْ لَنَا: مَاذَا تَظُنُّ؟ أَيَجُوزُ أَنْ تُعْطَى جِزْيَةٌ لِقَيْصَرَ أَمْ لاَ؟"**» (مت٢٢: ١٥-١٧).



أولاً: يجب أن نعلم أنَّ بعض الرجال المُسلَّحين كانوا قد اندسوا مع الهيروديين، وهم من خَدَمْ الوالي بيلاطس البنطي؛ لأنَّ لوقا البشير يقول:

«فَرَاقَبُوهُ وَأَرْسَلُوا جَوَاسِيسَ يَتَرَاءَوْنَ أَنَّهُمْ أَبْرَارٌ لِكَيْ يُمْسِكُوهُ بِكَلِمَةٍ، حَتَّى يُسَلِّمُوهُ إِلَى حُكْمِ الْوَالِي وَسُلْطَانِهِ» (لو٢٠:٢٠)

كان هيرودس رئيسًا على الجليل في إحدى الأربع ولايات، وكان الجليل خاضعًا له.

كانوا يتوقعون أن يكون في رد السيد أحد أمرَيْن حتمًا، وحسبوا أنهم يستطيعون أن يُظهِروا جليًا المسيح يخطئ ضد ناموس موسى أو ضد سلطان الرومان. فإذا ردّ بأنه يجب أن تُعطَى الجزية، كان الفريسيون حتمًا يشهدون عليه زورًا لدى رؤسائهم بأنه يخالف ناموس موسى وأنه يُبعِدهم عن خدمة الله، وأنه يدفعهم نحو سلطان أجنبي ليس من جنسهم. لذلك يقول لوقا البشير: «**فَطَلَبَ رُؤَسَاءُ الْكَهَنَةِ وَالْكَتَبَةُ أَنْ يُلْقُوا الأَيَادِيَ عَلَيْهِ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ، وَلَكِنَّهُمْ خَافُوا الشَّعْبَ**» (لو٢٠:١٩)، لأنهم كانوا يسألونه وسط الجمع حتى يُهيِّجوا الشعب ضده.

وإذا لم يقُل بدفع الجزية، ففي الحال كان الهيرودسيون يضعون أيديهم عليه كمَن لا يخضع للسلطات الرومانية.

انظر ما أشد زيف الرياء، كيف أخفى اليهود كل العداوة وكل فكرة القتل تحت حجاب الإطراء الكريه، وكيف كان الذين ملأ الحقد قلوبهم يتظاهرون بغير ما يُبطنون.

مَن قيل عنهم: «فَشَتَمُوهُ وَقَالُوا: «أَنْتَ تِلْمِيذُ ذَاكَ، وَأَمَّا نَحْنُ فَإِنَّنَا تلاَمِيذُ مُوسَى. نَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ مُوسَى كَلَّمَهُ اللَّهُ، وَأَمَّا هَذَا فَمَا نَعْلَمُ مِنْ أَيْنَ هُوَ» (يو٩:٢٨، ٢٩)، هم أنفسهم الذين يدعونه «يَا مُعَلِّمُ» (مت٢٢:١٦).

كانوا يقولون أنه يُضِل الشعب: «قَدْ تَذَكَّرْنَا أَنَّ ذَلِكَ الْمُضِلَّ قَالَ وَهُوَ حَيٌّ: إِنِّي بَعْدَ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ أَقُومُ» (مت٢٧:٦٣).

ومن الحاسدين مَن كانوا يعملون للإبقاء على مراكزهم وهم جهلاء يقولون:

«هَذَا الإِنْسَانُ لَيْسَ مِنَ اللَّهِ، لأَنَّهُ لاَ يَحْفَظُ السَّبْتَ» (يو٩:١٦). وأن به شيطانًا «فَقَالَ لَهُ الْيَهُودُ: الآنَ عَلِمْنَا أَنَّ بِكَ شَيْطَانًا» (يو٨:٥٢).

هم أنفسهم كانوا يشهدون أنه يُعلِّم طريق الله بالحق: «يَا مُعَلِّمُ، نَعْلَمُ أَنَّكَ صَادِقٌ وَتُعَلِّمُ طَرِيقَ اللَّهِ بِالْحَقِّ» (مت٢٢:١٦).

وهم الذين كانوا يشهدون عليه زورًا كأنه يخدع الشعب: «قَدْ قَدَّمْتُمْ إِلَيَّ هَذَا الإِنْسَانَ كَمَنْ يُفْسِدُ الشَّعْبَ» (لو٢٣:١٤)، يقولون: «وَلاَ تُبَالِي بِأَحَدٍ، لأَنَّكَ لاَ تَنْظُرُ إِلَى وُجُوهِ النَّاسِ» (مت٢٢:١٦).

ولا يطلب هؤلاء المخادعون شيئًا آخر سوى مرضاة الناس إذ ينظرون إلى وجوههم.

«فَتَنَاوَلَ الْيَهُودُ أَيْضًا حِجَارَةً لِيَرْجُمُوهُ» (يو١٠:٣١)، مكروا به وهم يتصنَّعون الطاعة فسألوه هذا السؤال: «فَقُلْ لَنَا: مَاذَا تَظُنُّ؟ أَيَجُوزُ أَنْ

تُعْطَى جِزْيَةٌ لِقَيْصَرَ أَمْ لاَ؟» (مت٢٢:١٧). وما كانوا يعلمون بسبب جنونهم المسعور أنَّ هذا التقلّب الذي يترسمونه فجأة يبدو مُتكلفًا حتى لأقل الناس حظًا مِنَ الفهم، فكم يكون ظاهرًا لله الكلمة الذي يعرف الحركات الخفية العميقة.

وإذا كان هؤلاء الفريسيون أيضًا يستحون بطريقة ما، فإنهم في نفس الوقت أرسلوا تلاميذهم مع الهيروديين غير متخلِّين عن كبريائهم، وكان هؤلاء الهيروديون لا يتورَّعون عن قول كل شيء ويحسبون أنه قد تأخذه الكبرياء والزهو.

ماذا عمل إذًا حكمة الله وكلمته؟ لقد سمح بأن يفرغ كل هواهم وينكشف علنًا، دون أن يقاطعهم بما كانوا يثرثرون به دون جدوى، وحينئذ كطبيب ماهر، قطع هويتهم قطعًا بعد أن قال:

«**فَعَلِمَ يَسُوعُ خُبْثَهُمْ وَقَالَ: لِمَاذَا تُجَرِّبُونَنِي يَا مُرَاؤُونَ؟**» (مت٢٢:١٨)، وبعد أن بيَّن موبِّخًا أن ثوب الرياء الزائف قد بلى، حل مسألتهم بلطف وهدوء، قال: «**أَرُونِي مُعَامَلَةَ الْجِزْيَةِ. فَقَدَّمُوا لَهُ دِينَارًا. فَقَالَ لَهُمْ: لِمَنْ هَذِهِ الصُّورَةُ وَالْكِتَابَةُ؟ قَالُوا لَهُ: «لِقَيْصَرَ». فَقَالَ لَهُمْ: أَعْطُوا إِذًا مَا لِقَيْصَرَ لِقَيْصَرَ وَمَا لِلَّهِ لِلَّهِ**» (مت٢٢:١٩-٢١).

فإذا كان الدينار لقيصر – وهذا ما قلتموه – فيجب أن يُعطى لقيصر.

- ماذا؟ أتسمح لنا أن نخدم إنسانًا ولا نخدم الله؟ كيف لا يكون ذلك ضد الناموس؟

- لن يكون شيء من هذا، فإنَّ دفع الضريبة لقيصر لا يمنع خدمة الله، ولو أنكم تريدونه هكذا. لذلك يلزمكم أن تعطوا لله أيضًا ما لله، فإذا كان ما لقيصر عائدة لخدمة الله، فيجب أن يُقرِّبنا إلى الله وأما أنكم محكومون لقيصر، فيجب أن تُرجِعوا ذلك إلى خطاياكم وليس لله. ولقد كان بولس الرسول يلتزم بهذا التخصيص. فقد كتب إلى أهل رومية قائلاً:

«فَأَعْطُوا الْجَمِيعَ حُقُوقَهُمْ: الْجِزْيَةَ لِمَنْ لَهُ الْجِزْيَةُ. الْجِبَايَةَ لِمَنْ لَهُ الْجِبَايَةُ. وَالْخَوْفَ لِمَنْ لَهُ الْخَوْفُ. وَالإِكْرَامَ لِمَنْ لَهُ الإِكْرَامُ» (رو١٣:٧).

لكن يبدو أنَّ في هاتَيْن العبارتَيْن «أَرُونِي مُعَامَلَةَ الْجِزْيَةِ» (مت٢٢:١٩)، «لِمَنْ هَذِهِ الصُّورَةُ وَالْكِتَابَةُ؟» (مت٢٢:٢٠) معنى رفيعًا ما كانوا ليدركوه، فإنَّ السيد عندما كان يُراقِب سائليه، لم يكن يرى الروح التي خُلقت على صورة الله على شيء من أصالة الصورة الملكية، بل كان يراها وقد أصبحت كلها لحمًا وكانت تحمل كتابة ذلك القيصر الذي يرأس العالم، وهو الوسواس الشرير، لذلك قال موبِّخًا «أَرُونِي مُعَامَلَةَ الْجِزْيَةِ» (مت٢٢:١٩).

إذا كان الدينار مِنَ الله فأنتم نصيب الله، «إِنَّ قِسْمَ الرَّبِّ هُوَ شَعْبُهُ. يَعْقُوبُ حَبْلُ نَصِيبِهِ» (تث٣٢:٩).

وإذا كان لقيصر، وكنتم خاصته، فاخدموه ولا تطلبوا الله الذي لا تحملون علامة صورته.

ليفحص كل واحد منا عُمْلة روحه، ولنحرص جميعنا على الصورة الملكية الإلهية حسب وصايا بولس الرسول:

«وَلاَ تُشَاكِلُوا هَذَا الدَّهْرَ بَلْ تَغَيَّرُوا عَنْ شَكْلِكُمْ بِتَجْدِيدِ أَذْهَانِكُمْ لِتَخْتَبِرُوا مَا هِيَ إِرَادَةُ اللهِ الصَّالِحَةُ الْمَرْضِيَّةُ الْكَامِلَةُ» (رو١٢:٢)، ولنعطِ للجسد الطعام والكساء الضروريَّيْن. ولنعطِ كل الباقي إلى إنساننا الداخلي. ولنوجِّه بعناية كل فكر يقودنا ويُعلِّمنا ما يجب أن نفعله، ولنتمثل بذلك القول "أرني دينار الضريبة. لمَن هذه الصورة وهذه الكتابة؟" فإذا كانت تتعلق بنموذج الله وبصورته فلنقبلها، وإذا كانت تتعلق بنموذج قيصر وصورته، فلنرفض بعيدًا عنا ما لا يخصَّنا.

إنه شيء عظيم ونافع جدًا، أن نصلح ما يخصَّنا بأنفسنا، وقبل أن يقوم علينا يوم الدينونة ونسمع الديان بمرارة كثيرة وهو يُطلق هذه الكلمة "أرني دينار الضريبة. لمَن هذه الصورة وهذه الكتابة؟"، لأنه حينما نكون مرفوضين في ذلك الوقت، ونسمع حسب نبوة إرميا النبي «فِضَّةً مَرْفُوضَةً يُدْعَوْنَ. لأَنَّ الرَّبَّ قَدْ رَفَضَهُمْ» (إر٦:٣٠)، نُسلَّم للنار الأبدية.

عند سماعكن هذا، أيتها النساء اللواتي تُحببن الزينة، وتُزيّن مِنَ الخارج التمثال الذي يفسد، بالحُلي الذهبية والملابس النادرة، اسألن أنفسكن بشعور الوداعة، ومهما يكن من شيء، تحولن نحو العناية بجمال الروح، لأنَّ الجمال الخارجي سوف ينحل إلى تراب بعد كسر القيد بقليل.

أما تلك العناية فنافعة ومُفيدة لنا، وهي بصفة خاصة ضرورية فيما يتعلق بالإيمان أيضًا. إذا سألك أحد في جهالة السؤال التالى:

عن قول بولس الرسول: «إِنْ كَانَ أَحَدٌ يُبَشِّرُكُمْ بِغَيْرِ مَا قَبِلْتُمْ، فَلْيَكُنْ "أَنَاثِيمَا"» (غل١: ٩)

وأنه يجب ألا نقبل الذين يبشرون بإنجيل آخر حتى إذا كان عددهم كبيرًا جدًا لا يقع تحت حصر

أيصح أن يكون مجمع أساقفة كله أناثيما؟ فقل له أرني ذلك الدينار.

وإذا وجدت من يُقسِّم ربنا وإلهنا يسوع المسيح، فإنه الدينار المرفوض إذ هو منحرف عن السمة الحقيقية باتجاه كافر بازدواج الطبيعتَيْن بعد الاتحاد الذي لا يُنطق به، في الحال تدبَّر هذا السؤال: "لِمَن هذه الصورة؟" وسَلْ: ألم يكن مِنَ الله حقيقة، فإنَّ مَن يكن كذلك يُفصَل مِنَ الله.

فإن قلت: بلى ولكني أحترم كرامة الكهنوت. في الواقع أني أسمع أحد الأنبياء القديسين يقول: «لأَنَّ شَفَتَيِ الْكَاهِنِ تَحْفَظَانِ مَعْرِفَةً وَمِنْ فَمِهِ يَطْلُبُونَ الشَّرِيعَةَ لأَنَّهُ رَسُولُ رَبِّ الْجُنُودِ» (ملا٢:٧)

فهلا سمعت بولس الرسول يقول بالمسيح الذي كان يتكلم فيه: **«وَلَكِنْ إِنْ بَشَّرْنَاكُمْ نَحْنُ أَوْ مَلاَكٌ مِنَ السَّمَاءِ بِغَيْرِ مَا بَشَّرْنَاكُمْ، فَلْيَكُنْ "أَنَاثِيمَا"!»؟**

أنعتبر كرامة الملائكة مستحقة الاحترام إذا كان أحدهم ينزل مِنَ السموات ويغيّر الإيمان؟

ومن ناحية أخرى، تأمل وافحص أيضًا الكلمات التي ذكرتها:

«لأَنَّ شَفَتَيِ الْكَاهِنِ تَحْفَظَانِ مَعْرِفَةً وَمِنْ فَمِهِ يَطْلُبُونَ الشَّرِيعَةَ لأَنَّهُ رَسُولُ رَبِّ الْجُنُودِ» (ملا٢:٧)

فإنه يجب علينا أن نعتبر الكهنة أنفسهم كملائكة الرب القادر على كل شيء، إذا كانوا يحفظون معرفة الأشياء الإلهية، ولا يُخالفون الناموس، ويُعلِّمونه بأمانة لطالبيه.

فإن كانوا سببًا لعثرة الآخرين، فأي موضع يجب أن نضعهم فيه؟ إنه بالتأكيد يجب أن نضعهم مع الرعاة الغرباء.

فإن قلت: بل منهم مَن يفكرون حسب الأرثوذكسية.

إذن كان أحرى بهم أن يهربوا ويقولوا مع داود النبي: «لَمْ أَجْلِسْ مَعَ أُنَاسِ السُّوءِ وَمَعَ الْمَاكِرِينَ لاَ أَدْخُلُ. أَبْغَضْتُ جَمَاعَةَ الأَثَمَةِ وَمَعَ الأَشْرَارِ لاَ أَجْلِسُ. أَغْسِلُ يَدَيَّ فِي النَّقَاوَةِ فَأَطُوفُ بِمَذْبَحِكَ يَا رَبُّ» (مز٢٦:٤-٦).

يجب أيضًا أن يفكروا في وصية موسى التي تقول: «لاَ تَتْبَعِ الْكَثِيرِينَ إِلَى فِعْلِ الشَّرِّ وَلاَ تُجِبْ فِي دَعْوَى مَائِلاً وَرَاءَ الْكَثِيرِينَ لِلتَّحْرِيفِ» (خر٢٣:٢).

يجب أن يستحوا أن يحق عليهم هذا القول: «إِذَا رَأَيْتَ سَارِقًا وَافَقْتَهُ وَمَعَ الزُّنَاةِ نَصِيبُكَ» (مز٥٠:١٨).

وكما يقول القديس إغريغوريوس الثاؤلوغوس: "لا تكون الروح إلا قائمة بالكتابة الشريرة التي تخطّها اليد".

فإذا قلت هي الظروف قد غلبتهم وقد تابوا فيما بعد، لست أنا الذي أرد عليك بل باسيليوس الحكيم هو الذي يتولى ذلك بهذه العبارات موجَّهة للبعض:

"إن قال البعض أنهم تابوا، فليُظهِروا توبتهم كتابة بخصوص إيمان القسطنطينية والانشقاق مع الانفصال عن الهراطقة، ولا يخدعوا البسطاء. وعليهم أيضًا أن ينفصلوا عن الشركة مع مَن تكون لهم مثل هذه الآراء".

ولكن السماء قد سُرَّت بأن يكون بعضهم قد تابوا توبة حقيقية. والذين في هذه الحالة لا يصيبهم الشجب العام ضد مجمع خلقيدونية، فإنهم بالتوبة قد جعلوا أنفسهم خارجه. كما أنه لا يُحسَب معهم في الدينونة يهودي أو آري تاب وانتقل إلى الديانة، وكذلك الخارجون عنه، وهكذا الحال بشأن الذين أراقوا دم الصديق أسطفانوس يُدانون ولا يُحسب بولس الرسول معهم، وهو في نفس الوقت قد اشترك في نفس العمل، لأنَّ توبته تستثنيه من حُكم الجريمة.

وأيضًا إذا كان أحد يلعن الذين أنكروا المسيح، فليس بطرس الرسول منهم، مع أنه أنكر، لأنه تاب.

إذًا فلا يتخذن أحد الخطايا حججًا ويتصور السفسطات ضد قوانين الكنيسة المقدسة أمرًا هينًا، بحجة المحبة، بل ليتمسك بالقوانين ولا يدع مكانًا للشر، ولا ينظر إلى حجج واهية من هذا النوع، وهكذا يفوز بالحرية.

ولنتنبه أيضًا إلى قوانين الكتب المقدسة ومُعلمي الكنيسة المقدسة بخصوص الذين انفصلوا عنها، لا نفسد ما لنا ولا نأخذ أيضًا ما لغيرنا، كما يقول أيضًا القديس إغريغوريوس الثاؤلوغوس في مكان ما.

فإنَّ الإنسان ينحني لا لكي يسقط، لكن لكي يُقيم مَن يكون مطروحًا على الأرض، كقول بولس الرسول:

«لِكَيْ تَكُونَ النِّعْمَةُ وَهِيَ قَدْ كَثُرَتْ بِالأَكْثَرِينَ، تَزِيدُ الشُّكْرَ لِمَجْدِ اللهِ» (٢ كو٤:١٥).

الذي له المجد إلى أبد الدهور آمين.



القديس أثناسيوس الكبير

المعترف بطريرك المدينة

العظمى الإسكندرية

سلسلة مقالات القديس أنبا ساويرس
البطريرك الأنطاكى

١٩

القـــديس أثنـــا سيوس الكبـــير المعـــترف

بطـريـرك المــدينـة العظـمى الإسكنـــدرية

مترجم عن الفرنسية مِنَ الكتاب الرابع مِنَ الجزء الخامس والعشرين من مجموعة

PATROLOGIA ORIENTALIS

R. Graffin – F. Nau

Les Homélies Cathédrales de Sévère d'Antioche

Homélie XCI

مليكه حبيب يوسف   يوسف حبيب

١٩٧٠م

أمر سيد البرايا في الناموس المُعطَى بواسطة موسى النبي، أنه حينما تنتهي حياة رئيس الكهنة على الأرض ويذهب إلى الميراث الأفضل والحياة العتيدة، فمَن يخلفه يُدعى إلى كرامة رئاسة الكهنة على الفور، ويلبس رداءه ذاته. لذلك كان يقول أيضًا لموسى «خُذْ هَارُونَ وَأَلِعَازَارَ ابْنَهُ وَاصْعَدْ بِهِمَا إِلى جَبَلِ هُورٍ. وَاخْلعْ عَنْ هَارُونَ ثِيَابَهُ وَأَلبِسْ أَلِعَازَارَ ابْنَهُ إِيَّاهَا. فَيُضَمُّ هَارُونُ وَيَمُوتُ هُنَاكَ» (عد٢٠:٢٥، ٢٦).

لم يأمر بذلك إلا ليُعلِّمنا أنه يجب أن يكون الخَلَف مثل سَلَفه في مسلكه وكلمته، وينسج ذات الكمال بسرور، حتى يظهر الكهنوت أيضًا واحدًا، وحتى لا يظهر من يُباشرونه كأنهم كثيرون، بل كواحد حيث لا يختلطون بالشر.

إنَّ في ذلك مديحًا حقيقيًا لمن أنهى أيامه مِنَ السلف وكان بأعماله خالدًا، فإنه يظل حيًّا بأعمال خلفه الحي، وينظر إليه كما ينظر إلى صورة حية عاقلة.

فماذا أنا صانع إذًا، إذ أحتفل بذكرى أثناسيوس الكبير، وأنا لست في ثياب رئاسة الكهنوت التي له، ثياب الفضائل؟ هل يجب على أمثال هؤلاء الفقراء الذين في المجامع وفى الحفلات أن يطلبوا هذه الثياب ويتزيَّنوا بما للآخرين كأنه من مالهم الخاص؟

هل يجب أن أتسربل بمدائح الانتصارات الروحانية التي لرئيس الكهنة العظيم، أأتزيّن بها بالكلام وأُظهرها بدلاً مِنَ الأعمال؟ حتى هذا، فعلاً، قد

يكون له أيضًا منفعة لأجلنا؛ أعني حتى وإن كنا لا نخجل من شيء آخر، فعلى الأقل نخجل من نفس كلماتنا، لأنَّ مَن يمدح الكمال ينقاد ولو متأخرًا إلى مُمارسته.

ومع ذلك فبالنسبة لي، فإنه لأمر عظيم أن أُشبع آذانكم، إذ أضع إناء صغيرًا وأملأه بأعمال أثناسيوس الناجحة الطوباوية، وهي بحر عظيم هائل، إني أصرخ مِنَ الحكمة التي تستطيع أن تمزج جيدًا شرابًا من هذا النوع، فأقول هذه العبارات ذاتها التي جاءت في الأقوال الإلهية: «هَلُمُّوا كُلُوا مِنْ طَعَامِي وَاشْرَبُوا مِنَ الخَمْرِ الَّتِي مَزَجْتُهَا. اُتْرُكُوا الْجَهَالاَتِ فَتَحْيُوا وَسِيرُوا فِي طَرِيقِ الْفَهْمِ» (أم ٩:٥، ٦).

إنه فعلاً تعليم الحكمة والفهم وطريق المستقبل والحياة الإلهية التي بلا نهاية، هذا حقًّا ما أضعه أمامكم، وليس لكي أمدح سيرة القديس أثناسيوس – فما هي الكلمة التي يمكن بها التعبير؟ - ولكن لكي أقدِّم لمحة بسيطة فقط.



أثناسيوس، رئيس الكهنة العظيم، الراعي، المُعلم المجاهد من أجل الحق، ا لذي يمتلك دفعة واحدة كل هذه الأتعاب كأنها لقب واحد، والذي أظهر منها بأسلوب فائق لدرجة أنه يبدو كأنه يستأسر بكل لقب منها وحده.

ويمتاز بالأخير منها أكثر مِنَ الألقاب الأخرى. فقد كان محمولاً بطريقة سرية نحو رئاسة الكهنوت منذ أن كان في اللفائف، وكأنه يتغذى بغذاء مشترك بترقيته قُدمًا في الرتب المقدسة.

وجاءتنا هذه الرواية القديمة أنه حينما كان طفلاً صغيرًا، بينما كان الأطفال في سنه يلعبون أمام أبواب منزل على الساحة، رسموه أسقفًا وبطريركًا. لأنَّ الأطفال الصغار يميلون في معظم الأحيان إلى أن يبدعوا دفعة واحدة، ويحبون أن يُقلِّدوا أعظم الأعمال حتى أعمال الملك أيضًا، حسبما تأتي بهم حركة الروح. فبعد أن أخذ أثناسيوس بالحقيقة المكان الأول بناء على قرار الأطفال، أو بالحري بناء على حكم العناية الإلهية التي تعطي من بعيد الحركة الأولى لأكبر النباتات بواسطة البذار الصغيرة جدًا، رسم أثناسيوس من بعض الأطفال كهنة وشمامسة، وكان يُقلِّد على قدر الإمكان بقية الرتب الكنسية.

واليوم الذي حدث فيه ذلك اللعب بطريقة مقدسة بأسلوب الأطفال أو – أقوال الحق – تعيّن ذلك سلفًا بأسلوب إلهي وكامل، هذا اليوم كان يوم ذكرى بطرس رئيس الكهنة والشهيد.

وقد خرج **الأنبا ألكسندر البطريرك** إلى الساحة، وكان هو الذي يعتلي عرش كنيسة الإسكندرية المقدسة في ذلك الوقت. ولما اجتاز بجانب الأطفال في لعبهم وسمع كلمة مقدسة لفتت انتباهه، - فلم تكن أعمال أثناسيوس الطفل هذه موضوع لهو بالنسبة له – تحركت روحه بالله فتوقف

وسألهم ماذا يفعلون، وبعد أن علم وقد أخذ بطريقة إلهية جدًا، ما كان يتم، وكان يجول بخاطره أن هذه اللعبة تجري مجرى الرمز. فاستقبل عنده أثناسيوس والأطفال الذين رسمهم له أبناء، وأوقفهم داخل الكنيسة وعلَّمهم تعليمًا ممتازًا ومُهمًّا جدًا كما يُعلِّم الكبار، وجعلهم يتأملون الكلمات الإلهية ليل نهار ويتلقون بأسلوب فلسفي عميق تدريبات أخرى خاصة بالكهنوت المقدس ودرجاته، وكان يراقب كل واحد منهم ويُعدَّه لدرجته الخاصة سلفًا.

وكان أثناسيوس أكثرهم اجتهادًا، يتصرَّف بطريقة خاصة مقدسة تجدر بالكهنة، وكأنه يعمل داخل مقصورة، وكان ينمو في العلوم الكنسية ولا يذهب إطلاقًا إلى أي مكان، كما يروي الكتاب المقدس عن يشوع بن نون أنه لم يكن يخرج من خيمته.

على أنه قد درس العلوم الدنيوية عندما كبر. نهل منها لكي يتعلم ما يكفي لدحض تعاليم الخارجين ويُظهِر ضعفها، ويستخلص منها ما ينفع في استيعاب المسائل الإلهية، لتكون طوع بنانه، فمن النافع أن نعرف أيضًا جيدًا فساد الآراء المُخالفة لأجل إثبات الحق.

وبعد أن حصل أولاً على المعارف الخاصة بالشباب، رُسم في الرتبة الأولى، ثم تدرج في الرتب الكنسية وارتقى إلى الدرجات المقدسة، ليس عن طريق غير مُقدَّس، بل عن طريق مُقدَّس وطاهر جدًا، فأتى إلى رئاسة

الشمامسة إذ كان يشغل هذه الدرجة بسبب كماله، وكان يُزيِّن هذه الرتبة نفسها، ولم يكن يزدان بها.

في ذلك الوقت كان السعير الذي شبَّه أريوس يُسبِّب تشويشًا، إذ كان يُعلِّم بفصل الله الكلمة عن جوهر الله والآب، ويقول إنَّ خالق كل الخليقة الذي به كل شيء، مخلوق. فجمع الإمبراطور التقي المُحب للديانة المسيحية قسطنطين مجمع الثلاثمائة وثماني عشر الآباء والأساقفة القديسين في **نيقية، وهي مدينة في بيثينية** Bithynie كانت فيما مضى لا يعرفها الكثيرون، لكنها أصبحت شهيرة بسبب هذا المجمع. وكان على رأس المجمع **الأنبا ألكسندر بطريرك الإسكندرية. وكان عن يمينه أثناسيوس الشجاع مُساعدًا له.** وكان ليقف ضمن الشمامسة بسبب رتبته، ولأنه كان بالحقيقة غنيًا بكلمة الحكمة وكلمة المعرفة «الَّتِي أَجْزَلَهَا لَنَا بِكُلِّ حِكْمَةٍ وَفِطْنَةٍ» (أف١:٨) كما قال بولس الرسول، أُعطيت له الكرامة الأولى، فكان له المكان الأول في الجلسات، قبل أولئك الذين كانت لهم الدرجات الأولى من جهة مراكزهم. فما من كلمة حق أو فكرة بارعة عند الذين كانوا يُجاهدون لأجل الأرثوذكسية إلا وكان أثناسيوس أصلاً لها، كان يتذكر بسهولة الأقوال التي تنحاز إلى جنون أريوس، ويدحضها متيقظًا لِمَ خفي من أفكارهم الخبيثة. وكان منهم مَن يتشبثون بآراء مُضادة، ومن جهة أخرى كان هناك الذين يتأرجحون بين الفريقَيْن، يمزجون الخمر بالماء وهم منشغلون عن الحق يتاجرون بكلمة الدين. ولكن أثناسيوس وقد حفظ الديانة في نقاوتها

بدون اختلاط، قطع على أفكار الأشرار وبدعهم الخبيثة خط الرجعة، وهذا ما رواه هو نفسه بالتفصيل فيما كتبه للأفريقيين. ومنذ ذلك الحين قرر المجمع المقدس بالإجماع الحقيقة أن الابن ذاته الذي تأنَّس في آخر الأيام لأجل خلاصنا وأكمل التدبير الإلهي، هو مساوٍ للآب في الجوهر، وحسب المجمع الروح القدس مع الآب والابن، وعلَّم الإيمان، ووضع قانونًا لكل الأرض يتضمن هذا التعريف الخلاصي والاعتراف بالإيمان، الذي لا ينقصه شيء والذي فيه اعتمدنا، فهو في الواقع قد حُدِّد في كلمات قليلة المعاني والعبارات المكتوبة في الكتب المُلهم بها مِنَ الله، في أماكن متفرقة كثيرة منها.

وبعد هذا الجهاد رجع أثناسيوس إلى مدينته في صُحبة البابا ألكسندر البطريرك الطاعن في السن الذي كان قد كسب المعركة ضد أريوس بقوة الله وبمساعدة أثناسيوس، ثم انتقل مِنَ الجسد إلى أورشليم السماوية. **وجلس أثناسيوس على عرش القديس مرقس الرسول**، يُجابه المعارك والأخطار التي تحدث لأجل الإيمان، وكان لِزامًا عليه أن يخوضها، لأنَّ كلاب أريوس، كان بعضهم يعضه علانية، والبعض الآخر في الخفاء، كانوا يسنّون أسنانهم ضده هو وحده، فهو الذي يُدبِّر كل شيء حسنًا. ومن ناحية لم يستطيعوا مُطلقًا أن يتهموه لدى الإمبراطور التقي قسطنطين زورًا بخصوص الإيمان، ومن ناحية أخرى كانوا يَعْمَدون إلى إتهامات زور

مختنقة بدون مُبرِّر، منها أن أثناسيوس قد تجاسر أن يعطِّل ملاحة السفن التي تجلب القمح إلى الإمبراطورية.

وقد أطلق الإمبراطور لنفسه أن يقتنع بذلك وفى الحال حرَّر خطابًا بنفي القديس ظلمًا كدأبهم حين بيع يوسف أيضًا إلى فرعون وكان صالحًا، ويعرف فرعون أنَّ الرب الإله كان معه، وأخذه من جهة أخرى بتهمة زوجته المزورة التي اتهمت الشاب الصابر الطاهر بالزنا، لأنه في المعركة لأجل الكمال تُعطى الفرصة حتى للإعداء، في أوقات معينة، حتى يكون استعلان الأبطال وانتصارهم مع العسر واليسر ظاهرًا بالأكثر، وهدفهم في كلتا الحالتَيْن هدف واحد، ودون أن يتعالوا أو يرتفعوا، أو يخوروا وتُثبط عزيمتهم بلا فائدة.

بأي شيء آخر، إن لم يكن بهذا، كان بولس الرسول ثابتًا وناجحًا في كل هذه الحالات؟ فهو يقول: «فِي كَلاَمِ الْحَقِّ، فِي قُوَّةِ اللهِ بِسِلاَحِ الْبِرِّ لِلْيَمِينِ وَلِلْيَسَارِ. بِمَجْدٍ وَهَوَانٍ. بِصِيتٍ رَدِيءٍ وَصِيتٍ حَسَنٍ. كَمُضِلِّينَ وَنَحْنُ صَادِقُونَ. كَمَجْهُولِينَ وَنَحْنُ مَعْرُوفُونَ. كَمَائِتِينَ وَهَا نَحْنُ نَحْيَا. كَمُؤَدَّبِينَ وَنَحْنُ غَيْرُ مَقْتُولِينَ. كَحَزَانَى وَنَحْنُ دَائِمًا فَرِحُونَ. كَفُقَرَاءَ وَنَحْنُ نُغْنِي كَثِيرِينَ. كَأَنْ لاَ شَيْءَ لَنَا وَنَحْنُ نَمْلِكُ كُلَّ شَيْءٍ» (٢كو٦:٧-١٠).

كان أثناسيوس فريدًا تغمره الثقة وتحوطه أسلحة البر من كل جانب، فكان ثابتًا لا يُقهر، وأُقتيد قبل نفيه إلى إحدى مدن الغال (فرنسا) فكان يهتم بالحياة الفلسفية وكان مع الله وحده فلم يتركه خاملاً بل كان كمدينة

شهيرة ممتازة أُقيمت على جبل الفضائل كسراج لا يُمكن أن يُخفى تحت مكيال، بل على منارة فيُضيء بنوره الساطع لكل البيت الذي هو الكنيسة.

«لاَ يُمْكِنُ أَنْ تُخْفَى مَدِينَةٌ مَوْضُوعَةٌ عَلَى جَبَلٍ، وَلاَ يُوقِدُونَ سِرَاجًا وَيَضَعُونَهُ تَحْتَ الْمِكْيَالِ، بَلْ عَلَى الْمَنَارَةِ فَيُضِيءُ لِجَمِيعِ الَّذِينَ فِي الْبَيْتِ» (مت٥: ١٤، ١٥).

وحرّك الله حاكم القطاع الغربي مِنَ الإمبراطورية الرومانية، قسطنطين الصغير بن قسطنطين التقي صاحب النهاية الصالحة، الذي كان له نفس الاسم ونفس الأسلوب مثل أبيه، فأعاد البطل مِنَ النفي.

حرَّكه الله فأعاد أثناسيوس إلى مدينة الإسكندرية، بعد أن هدَّد بالحرب قنسطنس أخاه، وكان قد أُخذ جزئيًا في شباك الضلالة الأريوسية، هدَّده إن لم يرسله إلى الإسكندرية، بعد أن كتب من جهة أخرى إلى أهل الإسكندرية خطابًا أو مقالاً رسميًا يمتدح فيه أثناسيوس، وروى كل الوقائع الأخرى على التوالي، قال موجزًا "إن رؤساء الكهنة وحدهم يملكون حق إظهار الرضى في التجربة واحتمال الأتعاب، ومن جهة أخرى الفرح مع الرجاء والتأمل بالروح في المجد العتيد الذي يُخفى كل ما هو زمني وشتّى المتاعب في هذا العالم الحاضر".

ونفَّذ قسطنطين التقي هذا الأمر نفسه من جديد، فأولاه مدينته وكان قد صعد إلى رومية من أجل معارك مُشابهة، وأعطاه إكليل النصر.

لا أذكر المجامع الأريوسية المملوءة خبثًا، التي كان يتقدّم أمامها المُقتدى بالمسيح لكي يُحاكَم. لا أذكر فساد المُدَّعين والشهود الذين باعوا أنفسهم. فطالما هدم كل ما كانوا يفترون بكلمات قليلة حكيمة، إذ كان يملك القوة بسبب الحق. كان يتكلم بذاك الذي قال فعلاً:

«فَمَتَى أَسْلَمُوكُمْ فَلاَ تَهْتَمُّوا كَيْفَ أَوْ بِمَا تَتَكَلَّمُونَ، لأَنَّكُمْ تُعْطَوْنَ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ مَا تَتَكَلَّمُونَ بِهِ» (مت١٠:١٩)

ومع ذلك فإنَّ جنون الضلالة جعل الأشرار مسعورين لدرجة أنهم اتهموه بالقتل أيضًا، وهو الذي كانت له محبة الله ومحبة الناس بطريقة واحدة، وكان قد تدرَّب وتعلَّم في محبة الرب ومحبة القريب كالنفس. «فَقَالَ لَهُ يَسُوعُ: تُحِبُّ الرَّبَّ إِلهَكَ مِنْ كُلِّ قَلْبِكَ، وَمِنْ كُلِّ نَفْسِكَ، وَمِنْ كُلِّ فِكْرِكَ. هَذِهِ هِيَ الْوَصِيَّةُ الأُولَى وَالْعُظْمَى. وَالثَّانِيَةُ مِثْلُهَا: تُحِبُّ قَرِيبَكَ كَنَفْسِكَ» (مت٢٢:٣٧-٣٩).

اتهموه فعلاً بقتل شخص يُدعى أرسانيوس وأنه قطع يده لكي يمارس السحر. وكان الذين يتهمونه يحتفظون طرفهم بتلك اليد ويقولون: "إن أثناسيوس كان يخفيها، أما نحن فقد أخذناها منه تأييدًا لصحة الاتهام".

فحكموا على أثناسيوس بسبب هذه التهمة، لكن رب المعجزات والعجائب الذي أبطل الحكم الظالم الذي أصدره الشيوخ ضد سوسنة الطاهرة، دبَّر أن يقف أرسانيوس أمام القضاة بإرادته، - بينما كانوا قد دفعوا لمَن يتهمون أثناسيوس زورًا نظير هروب هذا الشخص ثمنًا كبيرًا

بالذهب كأن ذلك إحدى السلع التي تُباع – كيلا يراه أحد إطلاقًا حتى تنتهي قضية التهمة الزور. فلما وقف أمامهم وأخرج يديه اللتَيْن كانت مخفيتَيْن تحت ردائه وأراهما للمجتمعين، خرس هؤلاء الأموات الجاحدين بشأن الاتهام الزور، هؤلاء اللصوص رفعوا قضية القتل بجسد، ولكي يكونوا مصدقين أتوا بقصة اليد المُلفقة، فكانوا جامدين مثل الحجارة، وفى النهاية ولوا هاربين.

ماذا أقول بعد ذلك حين أمعن النظر في بحر أعماله؟ هل أُبيِّن مرات النفي، والهروب، والسفر، والصعود إلى رومية، ليس فقط رومية القديمة لكن أيضًا رومية الجديدة، ومرات السير على الطريق، والأسفار، والأخطار في البحر، والاستراحة والسكن في الصحراء؟ هل أذكر الأباطرة الذين كانوا يُهدِّدونه بالقتل، قنسطنس، وفالنس ويوليان Constance, Valens et Julien هؤلاء المرضى بآراء أريوس، وآراء عبدة الأصنام الذين كانوا ينظرون إلى حياة أثناسيوس كأنها تقوِّض أركان ديانتهم؟

لم يستسلم لأحد قسرًا، لكنه كان خالد حقًا، وكان يجاهد بأسلوب خالد في الجسد، يُعلن بجهاده ويخوض المعركة بأسلوب رسولي. «لأَنَّ هَذَا الْفَاسِدَ لاَ بُدَّ أَنْ يَلْبَسَ عَدَمَ فَسَادٍ وَهَذَا الْمَائِتَ يَلْبَسُ عَدَمَ مَوْتٍ» (١كو١٥:٥٣).

من أجل ذلك كان مُحتملاً لكل شيء. كان أيوب مثال الصبر في آلامه يضيق قائلاً: «أَلَيْسَتْ أَيَّامِي قَلِيلَةً؟ اتْرُكْ! كُفَّ عَنِّي فَأَبْتَسِمُ قَلِيلاً»

(أي١٠:٢٠). كذلك كان أثناسيوس في أثناء **الستة والأربعين سنة سني عهده** يُدير الدفة وسط البحار الهائجة في الزوابع، لم يترك مركب الإيمان الأرثوذكسي تغرق. وقد جلس على العرش مدة ستة سنوات متصلة، بينما هو قد أمضى أربعين سنة يُعاني الاضطهاد دون أن يقول «كُفَّ عَنِّي فَأَبْتَسِمُ قَلِيلاً» مؤكِّدًا عن نفسه الكلمة المقدسة القائلة: «اَلصِّدِّيقُ لَنْ يُزَحْزَحَ أَبَدًا وَالأَشْرَارُ لَنْ يَسْكُنُوا الأَرْضَ» (أم١٠:٣٠)؛ يركض دفعة واحدة بتعب شديد، يُفكِّر في مسؤولية الكرسي المقدس، وفي كل مرة كان ينحى عنه بسبب الإيمان المستقيم.

ماذا نقول عن قوته واستقامته اللتَيْن امتاز بهما تعليمه في كل كنيسة وكل أمة فضلاً عن كنيسة الإسكندرية الرسولية، مُنذِرًا في خطاباته وكان فيها مُلهمًا، بعمل لأجل السلام، مُوحِّدًا البعيدين، طاردًا الذئاب، يقذفهم بحجارة قوانين الإيمان وسهام الروح فجرح كجليات ليونتيوس وأوزويوس Leontius et Euzoius، وهم من جبابرة الأريوسيين الذين كانوا يُحاربون الله، فأسقطهم، وقلبهم وأظهرهم دنسين. فمنهم مَن كان بسبب تنعُّم ونجاسة حياته يتجاسر على قطع أعضائه الجنسية وحرمان نفسه منها حتى يكون بلا خوف مع مَن كان يحبها، ومنهم من جهة أخرى مَن كان بسبب محبة السلطة يستبدل كرسي بآخر ويملأ بطنه بشراهة ويزيد شروره.

لذلك كان هذا الاحتفال مع ذكراه دينًا نحو المُعلِّم المُجاهِد، فنكسب به أيضًا نفعًا لأنفسنا. لأنه حينما نمتدح رجلاً صالحًا، يعُم الشعوب السرور: «إِذَا سَادَ الصِّدِّيقُونَ فَرِحَ الشَّعْبُ» (أم٢٩:٢).

كانت تعاليمه الصحيحة كالقسطاس[٨٢] في دِقة ضبطها وشدّة استقامتها، وكانت أقواله أحكامًا وقوانين فيها فصل الخطاب. وفى جهاده ضد ضلالة أريوس، وبمهارته الفائقة في قيادة المعركة لم يدع إحدى الهرطقات الأخرى تجد له سبيلاً، مثل هرطقة دودور وتيودور، وكلاهما لم يكون مُختبرًا في الإيمان، فكانا يريان بالعين الواحدة وأعميان بالعين الأخرى، ويُقسِّمان كلمة الله المتجسد إلى اثنين؛ تعللا لكي يجاهدا في صف أريوس أو لتأييد أحد الآراء الأخرى التي تُعد مِنَ الهرطقة.

ولكن أثناسيوس كان يُقدِّم الأدلة واضحة في كل شيء؛ فوضع قانونًا أننا لا نعترف بطبيعتَيْن للمسيح الوحيد بعد الاتحاد، بل يجب أن نقول **بالطبيعة الواحدة للكلمة المتجسد،** La seule nature incarnée du Verbe، وفى نفس الوقت **بغير تغيير أو اختلاط أو انقسام التأنُّس الإلهي.**

ولما كان نسطوريوس وأنصار ديودور وتيودور الآخرين لا يجرؤون على اتهامه، فقد إستبدلوا وحرَّفوا الخطاب إلى ابكتيت Epictete، أحد تلاميذ أثناسيوس الحقيقيين، وقد أرسل نصه الأصلي، كما كان موجودًا إلى

(٨٢) أضبط الموازين وأقومها (المعجم الوسيط)، (الناشر).

الكنائس المقدسة في الشرق، حينما كان يفحم الخونة المُستعدين للكذب والبدع. فإنه حتى بعد أن انتقل أثناسيوس من هذا العالم، لا يزال يعلو جهاده بمقالاته الآن أيضًا.

نشأ هذا البطل المختار في مصر بمدينة الإسكندرية العظيمة المُحبَّة للمسيح. وكان يعلم بها وتمرَّس بالمعارك الدينية وفاقت انتصاراته فيها الكثير مِنَ الانتصارات، وليس الفوز في الألعاب الأولمبية شيئًا بجانبها، فهي قاصرة على الانقلاب والسقوط وتبادل الضرب كالكباش والجداء وذلك شيء بدني.

إنَّ المعارك التي يجدر بالمسيحيين خوضها هي تلك التي تنشب من أجل التقوى، أو تلك التي نخوضها ضد الأهواء المشينة وضد الشياطين الذين يشعلونها. إنَّ معارك كهذه كان فيها أثناسيوس البطل والمُعلِّم والمُربِّي.

اسقط الهوى بفكرة طاهرة، اغلب الشراهة بالقناعة، مُر راكضًا مِنَ الظلم إلى العدل. وليكن النصر لك على كل هوى حسب الأقوال المقدسة: «فَإِنَّ مُصَارَعَتَنَا لَيْسَتْ مَعَ دَمٍ وَلَحْمٍ، بَلْ مَعَ الرُّؤَسَاءِ، مَعَ السَّلاَطِينِ، مَعَ وُلاَةِ الْعَالَمِ، عَلَى ظُلْمَةِ هَذَا الدَّهْرِ، مَعَ أَجْنَادِ الشَّرِّ الرُّوحِيَّةِ فِي السَّمَاوِيَّاتِ» (أف٦:١٢).

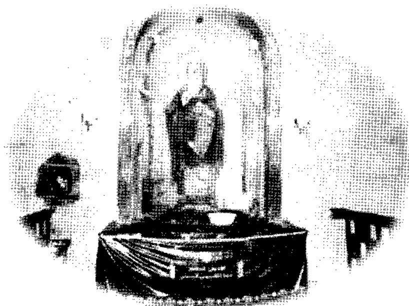
لماذا تفتح أبواب قصرك لمعارك الأجسام؟ لماذا تركض نحو اللهو في شوارع ديفني Daphne وتسرح عقلك فيها؟ لماذا تجاهد بشدة لأجل نصرة

أشياء أخرى وتهمل معركتك الخاصة؟ فتوجِّه اهتمامك إلى الولائم والسُكْر والحسد والأحاديث والمناقشات والجدل، والصراخ والهتافات غير المُنظَّمة التي تملأ الهواء؟

يا إخوتي، ليس أمرًا هينًا أن نحتقر ناموس الله بسبب لعبة أو بعض التسلية. فليس هناك عمل بلا عقاب أو ثواب.

هذا ما يُعلِّمنا إياه أثناسيوس اليوم ويُنذِرنا لنُعِد أنفسنا لملكوت السموات. فلنطلب أن يفتقدنا أيضًا وأن يُقدِّم الصلوات من أجلنا، مع الأنبياء والرسل والشهداء لكي نُحرِّر أنفسنا من فخاخ المُنافِق، **بالنعمة ومحبة الله العظيم مخلصنا يسوع المسيح الذي يليق به المجد والسلطان مع الآب والروح القدس الآن وكل أوان وإلى دهر الداهرين آمين.**





عرس قانا الجليل

سلسلة مقالات الأنبا ساويرس
البطريرك الأنطاكي
٢٠

عرس قانا الجليل

مليكه حبيب يوسف   يوسف حبيب

١٩٧٠

«وَفِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ كَانَ عُرْسٌ فِي قَانَا الْجَلِيلِ، وَكَانَتْ أُمُّ يَسُوعَ هُنَاكَ. وَدُعِيَ أَيْضًا يَسُوعُ وَتلاَمِيذُهُ إِلَى الْعُرْسِ. وَلَمَّا فَرَغَتِ الْخَمْرُ، قَالَتْ أُمُّ يَسُوعَ لَهُ: «لَيْسَ لَهُمْ خَمْرٌ». قَالَ لَهَا يَسُوعُ: «مَا لِي وَلَكِ يَا امْرَأَةُ! لَمْ تَأْتِ سَاعَتِي بَعْدُ». قَالَتْ أُمُّهُ لِلْخُدَّامِ: «مَهْمَا قَالَ لَكُمْ فَافْعَلُوهُ». وَكَانَتْ سِتَّةُ أَجْرَانٍ مِنْ حِجَارَةٍ مَوْضُوعَةً هُنَاكَ، حَسَبَ تَطْهِيرِ الْيَهُودِ، يَسَعُ كُلُّ وَاحِدٍ مِطْرَيْنِ أَوْ ثلاَثَةً. قَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «امْلأُوا الأَجْرَانَ مَاءً». فَمَلأُوهَا إِلَى فَوْقُ. ثُمَّ قَالَ لَهُمُ: «اسْتَقُوا الآنَ وَقَدِّمُوا إِلَى رَئِيسِ الْمُتَّكَإِ». فَقَدَّمُوا. فَلَمَّا ذَاقَ رَئِيسُ الْمُتَّكَإِ الْمَاءَ الْمُتَحَوِّلَ خَمْرًا، وَلَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ مِنْ أَيْنَ هِيَ، لكِنَّ الْخُدَّامَ الَّذِينَ كَانُوا قَدِ اسْتَقَوُا الْمَاءَ عَلِمُوا، دَعَا رَئِيسُ الْمُتَّكَإِ الْعَرِيسَ وَقَالَ لَهُ: «كُلُّ إِنْسَانٍ إِنَّمَا يَضَعُ الْخَمْرَ الْجَيِّدَةَ أَوَّلاً، وَمَتَى سَكِرُوا فَحِينَئِذٍ الدُّونَ. أَمَّا أَنْتَ فَقَدْ أَبْقَيْتَ الْخَمْرَ الْجَيِّدَةَ إِلَى الآنَ!». هذِهِ بِدَايَةُ الآيَاتِ فَعَلَهَا يَسُوعُ فِي قَانَا الْجَلِيلِ، وَأَظْهَرَ مَجْدَهُ، فَآمَنَ بِهِ تلاَمِيذُهُ» (يو٢:١-١١).

❧

إنَّ مَن يفتح نافذة عقله على اتساع الكتاب المُلهم به مِنَ الله ولا سيما الأناجيل المقدسة، يجد طُرقًا كثيرة للحياة الفُضلى، وسوف يجد أنها جميعها تؤدي إلى الله، وأنها مليئة بالقداسة، تعد من أجل المستقبل، وتدعو إلى الحياة الأبدية، لأنَّ الحياة الفضلى هي ألا نترك جانب الله، وسوف يعتقد أنه يسمعه يتكلم بفم إرميا النبي موجِّهًا كلامه إلى كل الذين يريدون أن يسمعوا: «قِفُوا عَلَى الطُّرُقِ وَانْظُرُوا وَاسْأَلُوا عَنِ السُّبُلِ الْقَدِيمَةِ: أَيْنَ هُوَ الطَّرِيقُ الصَّالِحُ؟ وَسِيرُوا فِيهِ فَتَجِدُوا رَاحَةً لِنُفُوسِكُمْ» (إر٦:١٦).

إنَّ كلمة الله الآب الذي تكلم قديمًا بفم أنبيائه: «اَللهُ، بَعْدَ مَا كَلَّمَ الآبَاءَ بِالأَنْبِيَاءِ قَدِيمًا، بِأَنْوَاعٍ وَطُرُقٍ كَثِيرَةٍ» (عب١:١) تجسَّد في آخر الزمان وتأنَّس بطريقة لا يُنطَق بها، حقيقة وبدون استحالة، مِنَ الروح القدس ومن جوهر القديسة مريم والدة الإله دائمة البتولية، وبذلك افتتح طريق البتولية، وهو الطريق الذي يحوي هذا العالم من جانب في الزمن الحاضر الذي يكتمل بإنجاب الأولاد بالوصية الإلهية القائلة: «أَثْمِرُوا وَاكْثُرُوا» (تك١:٢٨)، ومن جانب آخر يتعدَّاه إلى العالم الآتي الذي سوف تظهره القيامة جديدًا، لأنَّ الذين سيقومون يجب أن يكونوا كملائكة في السماء (مر١٢:٢٥) ولا يلزم أن يكونوا مُحتاجين إلى معونة الزواج، لأنهم يبقون دائمًا دون أن يعودوا إلى الوجود الدنيوي مرة أخرى ودون أن يموتوا.

بين الزواج والبتولية

إنَّ كلمة الله، إذ علم أن فخر العزوبة عسير الامتياز به حالة إخضاعه لقاعدة، وإذ أنه الإله حتَّم بقانون ما يلائم طاقة طبيعتنا، ولم يحدد بقوانين مكتوبة أنه يلزمنا أن نجتهد لنبقى متبتلين، حتى تكون البتولية موضوع غيرة إرادية، فهي الحالة الجميلة جدًا المتناهية في البهاء التي تقود إلى كرامة تعدل كرامة الملائكة. رغب الرب في وجودها دون أن يطلب منا ذلك. وبالأحرى يحملنا إليها بالمحبة، وليس يدفعنا إليها باضطرار القانون. فإن ما يتضمَّنه القانون يلزمنا ضرورة أن نفعله، لكن ما لا يحكمه القانون فهو خاص بمَن يختارونه طوعًا.

لذلك بولس الرسول، إذ يطيع إرادة إلهه وطبيبه، يكتب مُنذِرًا، وما كان جائزًا، ففيما يتعلق بذلك يعلم في نصيحة هكذا: «**وَأَمَّا الْعَذَارَى فَلَيْسَ عِنْدِي أَمْرٌ مِنَ الرَّبِّ فِيهِنَّ وَلَكِنَّنِي أُعْطِي رَأْيًا كَمَنْ رَحِمَهُ الرَّبُّ أَنْ يَكُونَ أَمِينًا**» (١كو٧:٢٥)، «**وَأَمَّا مِنْ جِهَةِ الأُمُورِ الَّتِي كَتَبْتُمْ لِي عَنْهَا فَحَسَنٌ لِلرَّجُلِ أَنْ لاَ يَمَسَّ امْرَأَةً**» (١كو٧:١).

وأيضًا: «فَأَظُنُّ أَنَّ هَذَا حَسَنٌ لِسَبَبِ الضِّيقِ الْحَاضِرِ. أَنَّهُ حَسَنٌ لِلإِنْسَانِ أَنْ يَكُونَ هَكَذَا: أَنْتَ مُرْتَبِطٌ بِامْرَأَةٍ فَلاَ تَطْلُبْ الانْفِصَالَ. أَنْتَ مُنْفَصِلٌ عَنِ امْرَأَةٍ فَلاَ تَطْلُبِ امْرَأَةً. لَكِنَّكَ وَإِنْ تَزَوَّجْتَ لَمْ تُخْطِئْ. وَإِنْ تَزَوَّجَتِ الْعَذْرَاءُ لَمْ تُخْطِئْ. وَلَكِنَّ مِثْلَ هَؤُلاَءِ يَكُونُ لَهُمْ ضِيقٌ فِي الْجَسَدِ. وَأَمَّا أَنَا فَإِنِّي أُشْفِقُ عَلَيْكُمْ» (١كو٧:٢٦-٢٨).

لقد دعاه ضيق في الجسد، ما يُضاف إلى هموم ومتاعب الزواج الدنيوية، ويقول فعلاً: «فَأُرِيدُ أَنْ تَكُونُوا بِلاَ هَمٍّ. غَيْرُ الْمُتَزَوِّجِ يَهْتَمُّ فِي مَا لِلرَّبِّ كَيْفَ يُرْضِي الرَّبَّ وَأَمَّا الْمُتَزَوِّجُ فَيَهْتَمُّ فِي مَا لِلْعَالَمِ كَيْفَ يُرْضِي امْرَأَتَهُ. إِنَّ بَيْنَ الزَّوْجَةِ وَالْعَذْرَاءِ فَرْقًا: غَيْرُ الْمُتَزَوِّجَةِ تَهْتَمُّ فِي مَا لِلرَّبِّ لِتَكُونَ مُقَدَّسَةً جَسَدًا وَرُوحًا. وَأَمَّا الْمُتَزَوِّجَةُ فَتَهْتَمُّ فِي مَا لِلْعَالَمِ كَيْفَ تُرْضِي رَجُلَهَا» (١كو٧:٣٢-٣٤).

وهو لا يقول ذلك لكي يكرهنا في الزواج كأنه دنس غير طاهر. فهو يعرف أنه طاهر حتى أنه يقول بخصوص زواج غير المؤمن بالزوجة المؤمنة، أو العكس: «لأَنَّ الرَّجُلَ غَيْرَ الْمُؤْمِنِ مُقَدَّسٌ فِي الْمَرْأَةِ وَالْمَرْأَةُ غَيْرُ الْمُؤْمِنَةِ

مُقَدَّسَةٌ فِي الرَّجُلِ، وَإِلاَّ فَأَوْلاَدُكُمْ نَجِسُونَ. وَأَمَّا الآنَ فَهُمْ مُقَدَّسُونَ» (١كو٧:١٤). وفي مكان آخر يكتب: «لِيَكُنِ الزِّوَاجُ مُكَرَّمًا عِنْدَ كُلِّ وَاحِدٍ، وَالْمَضْجَعُ غَيْرَ نَجِسٍ. وَأَمَّا الْعَاهِرُونَ وَالزُّنَاةُ فَسَيَدِينُهُمُ اللهُ» (عب١٣:٤).

حينما يريد أن يعرفنا بالأحداث ذاتها ويعلمنا بطريقة واضحة أنَّ الزواج طاهر وأنه **لا يفصل أبدًا عن الله**، فإنَّ ربنا وإلهنا يسوع المسيح أيضًا، الذي وُلد مِنَ العذراء بالجسد، الذي حافظ على بتولية والدته وذلك بعد الولادة أيضًا، الذي أظهر اتساع طريق البتولية لحياة العالم، قد أبهج وليمة العرس التي أُقيمت في قانا الجليل، في حضور العذراء أمه وتلاميذه، إذ أنهم كانوا مدعوين بسبب بعض الصداقة البشرية وبسبب بعض الأقرباء إذ كانوا معروفين.

وأن ذلك الذي يصنع كل شيء بحكمة – «مَا أَعْظَمَ أَعْمَالَكَ يَا رَبُّ! كُلَّهَا بِحِكْمَةٍ صَنَعْتَ. مَلآنَةٌ الأَرْضُ مِنْ غِنَاكَ» (مز١٠٤:٢٤) – قد بارك طبقًا للتدبير الإلهي وليمة العرس، وصنع كذلك أول معجزة. وهذا قد رواه يوحنا الإنجيلي وحده غبر الإنجيليين الآخرين، وهو الذي احتفظ ببتوليته وقضى حياته كلها دون أن يعرف علاقة الزواج الجسدية، وكان عزيزًا بصفة خاصة لدى المسيح يسوع ربنا، ومع ذلك فلو كان الزواج مكروهًا، للزم ألا يذكر هذه المعجزة بسبب الذين يهربون من علاقة الزواج الجسدية ويبحثون عن مُحاكاة الملائكة. ولننظر ما هي العلاقة التي صنعها الرب يسوع حينما كرَّم وليمة العرس.

العذراء تعلم بالمعجزة سلفًا

يقول يوحنا «**وَلَمَّا فَرَغَتِ الْخَمْرُ، قَالَتْ أُمُّ يَسُوعَ لَهُ: لَيْسَ لَهُمْ خَمْرٌ**» (يو٢:٣). من ذلك نتأكد أن الذين دعوه إلى وليمة العرس لم تكن عندهم أفكار عالية بخصوصه أي أفكار تليق بالله. فإنه كان يلزمهم لو كانت عندهم الأفكار اللائقة أن يرجوه أن يُعالِج إشكال فراغ الخمر، لأنَّ المُحتاج يطلب لكي ينال ما يحتاج إليه. وقد قلت أنهم دعوه إلى وليمة العرس لمعرفتهم له بطريقة بشرية، دون أن يعتبروا إطلاقًا رفعة ألوهيته.

وبينما مريم العذراء تترآف في فكرها قد عطفت على هؤلاء الأشخاص في حاجتهم وطلبت، فإنَّ يسوع تمهَّل في هذا الطلب حتى لا يظهر أنه يبحث عن المجد الباطل، كأن يفكر لأجل نفسه في هذا المجد مع الدقة، فتبدو أنها طلبت ذلك ظاهريًا، وأنه مُجيب صوب ظهور العلامات.

فبينما كان يجعل السامعين بعيدين عن هذا الرأي الخاطئ، موضحًا أنه لا يصنع شيئًا من أجل المجد الباطل، بل أنه يصنع كل شيء بعناية للمنفعة، ردّ عليها ردًّا قويًا معلِّمًا سامعيه، كما قلت، ومُعلِّمًا الحق، وليس مُريدًا الإنقاص من طلب والدته، فقال: «**مَا لِي وَلَكِ يَا امْرَأَةُ! لَمْ تَأْتِ سَاعَتِي بَعْدُ**» (يو٢:٤).

وقد عرَّفتنا العذراء مريم والدة الإله فعلاً أن هذه الكلمات لم تكن تأنيبًا، بل على سبيل التعليم بسبب الغرباء. إذ أنها لم تنسحب وتبتعد كمَن

وجَّه إليها تأنيبًا، ولم تصمت وتندم على جسارتها كأنها أختُصَّت باللوم. لكنها إذ كانت تعلم في روحها بما يحدث، قالت للخدام وكأنَّ يسوع لم يقل شيئًا على الإطلاق: «**مَهْمَا قَالَ لَكُمْ فَافْعَلُوهُ**» (يو٢:٥) وهي تريد أن تُبيِّن أيضًا شيئًا أعظم يليق بالله أكثر.

قال يسوع موافقًا فكرة أمه وإنما كانت تفكر فيما هو أعظم جدًا: «لَمْ تَأْتِ سَاعَتِي بَعْدُ» (يو٢:٤) كأنه يقول: "تعتقدين أنني فجأة أبحث عن تحقيق علاقات عظيمة، لكن اعلمي أنَّ هذه تحكمها مواقيت لائقة، حتى أنه ولا جزء صغير مِنَ الساعة يفوته توجيهي وترتيبي. فإني بالفعل أُظهِر قليلاً قليلاً ألوهيتي بالنسبة إلى نمو القامة الجسدية، ومع تقدُّم القامة الحقيقي أظهر كأني أنمو في الحكمة والنعمة،[٨٣] بالمعجزات والعجائب، لأني آتي هذه العجائب بطريقة تليق بالله، ولأني أكشف عنها مع ذلك على التوالي كما يتطلَّب ذلك أسلوب التدبير الإلهي، حتى إلى لحظة مِنَ الزمان صغيرة جدًا، إذ أن ما يتعلَّق بالأعمال الإلهية يحدث أيضًا للشيء الصغير بل الأصغر من كل شيء، حتى لو كنا نجهل ذلك تمامًا ويصعب علينا فهمه".

بهذا المعنى يوجد في موضع آخر مِنَ الإنجيل أيضًا ما يتعلق باليهود: «وَلَمْ يُلْقِ أَحَدٌ يَدًا عَلَيْهِ، لأَنَّ سَاعَتَهُ لَمْ تَكُنْ قَدْ جَاءَتْ بَعْدُ» (يو٧:٣٠).

---

(٨٣) «وَأَمَّا يَسُوعُ فَكَانَ يَتَقَدَّمُ فِي الْحِكْمَةِ وَالْقَامَةِ وَالنِّعْمَةِ، عِنْدَ اللهِ وَالنَّاسِ» (لو٢:٥٢)

وفي موضع آخر: «وَلَمْ يُمْسِكْهُ أَحَدٌ، لأَنَّ سَاعَتَهُ لَمْ تَكُنْ قَدْ جَاءَتْ بَعْدُ» (يو٨:٢٠). وكذلك: «قَدْ أَتَتِ السَّاعَةُ لِيَتَمَجَّدَ ابْنُ الإِنْسَانِ» (يو١٢:٢٣).

وإنه إلى تمام التدبير الإلهي حتى النهاية، حينما لم يتبق شيء مما كان معلومًا ومُقرَّرًا مُقدَّمًا بالنسبة له، بحكمة الله، كان الرب يسوع منيعًا تمامًا بالنسبة لجميع الناس. كان يجوز في وسطهم أيضًا حينما كانوا يرمونه بالحجارة «فَتَنَاوَلَ الْيَهُودُ أَيْضًا حِجَارَةً لِيَرْجُمُوهُ» (يو١٠:٣١)، «فَطَلَبُوا أَيْضًا أَنْ يُمْسِكُوهُ فَخَرَجَ مِنْ أَيْدِيهِمْ» (يو١٠:٣٩).

ولما وصل كل شيء إلى نهايته، مُكمَّلاً تمامًا ومنتهيًا للغاية حسب مسرَّة الله ورضائه، حينئذ بالحقيقة سلَّم ذاته طوعًا ذلك الذي كان يقول: «لَيْسَ أَحَدٌ يَأْخُذُهَا مِنِّي، بَلْ أَضَعُهَا أَنَا مِنْ ذَاتِي. لِي سُلْطَانٌ أَنْ أَضَعَهَا وَلِي سُلْطَانٌ أَنْ آخُذَهَا أَيْضًا» (يو١٠:١٨).

ما كان يقول ذلك لو كان خاضعًا لضرورات الساعات حسب أكاذيب الخرافات الوثنية. لذلك، حتى بعد أن قال لوالدته، من أجل السبب الذي ذكرته «لَمْ تَأْتِ سَاعَتِي بَعْدُ» (يو٢:٤). فأنه في الحال صنع علامة لا يمتلكها أبدًا مَن يكون خاضعًا للزمن. وفي نفس الوقت يُعلِّمنا إذا كنا مرة لا نطيع أمهاتنا اللواتي تأمرنّنا بعمل شيء في وقت غير مناسب، فيبدو الرفض كأنه يتضمَّن ما يليق وما يرضي كثيرًا. يُعلِّمنا أن نرضيهن في الحال بما يجب، سواء بصنعنا ما أمرن به، أو بطريق آخر بألا نتركهن إطلاقًا في حزنهن. يقول فعلاً: «أَكْرِمْ أَبَاكَ وَأُمَّكَ لِتَطُولَ أَيَّامُكَ عَلَى الأَرْضِ الَّتِي

يُعْطِيكَ الرَّبُّ إِلَهُكَ» (خر٢٠:١٢)، «أَكْرِمْ أَبَاكَ وَأُمَّكَ كَمَا أَوْصَاكَ الرَّبُّ إِلهُكَ لِتَطُول أَيَّامُكَ وَلِيَكُونَ لكَ خَيْرٌ على الأَرْضِ التِي يُعْطِيكَ الرَّبُّ إِلهُكَ» (تث٥:١٦).

وبفحصنا للكلمة بأكثر عناية، نجد أنَّ والدة الإله، بعد ميلادها ومنذ أن خدمت سر التدبير الإلهي، كانت ممتلئة مِنَ الروح القدس، وتعرف مُقدَّمًا ما سوف يحدث. وكانت حقًّا نبيّة. لأنه إن لم يكن الأمر هكذا، فكيف تُفكِّر العذراء أنَّ الرب يسوع يستطيع أيضًا أن يصنع خمرًا أمام أعين الجميع، تلقائيًا، من لا شيء مِنَ المرئيات؟ لكن لأنها كانت تعلم مُقدَّمًا ما سيحدث وأنَّ يسوع كان مزمعًا أن يأمر الخدم بأن يصبُّوا الماء لكي يحوِّله خمرًا، فهي أيضًا قد أعطتهم أمرًا مُقدَّمًا قائلة: «مَهْمَا قَالَ لَكُمْ فَافْعَلُوهُ» (يو٢:٥).

في هذا سبق العلم بشأن ما سوف يحدث مشتركًا بين يسوع وبين مريم العذراء، المسيح لأنه الله، والقديسة مريم العذراء لأنها تتصرَّف كنبيّة.

إعداد الحاضرين للمعجزة

وقد أراد فعلاً أن يبعد عن المعجزة كل شُبهة خيال، وقد شاء أن يصنع ذلك. لأنه لو كان تلقائيًا جعل الخمر ينبع ويظهر بطريقة عجيبة وسط الذين كانوا يأكلون، لكانوا ينظرون إليه كأنه كاذب، دون أن يؤمنوا، ولكان الأمر يبدو كأنه خدعة للعيون والتذوق، من أعمال الشياطين، مثلما

يحاول أولئك المشعوذين بطريقة خادعة، يعملون عملهم في الخيمة إذ يقلدون عملية صنع المعجزات.

لذلك فإنَّ الرب يسوع يجعل خلو الخمر يبقى طويلاً، حتى يشعر مَن كانوا يأكلون بأنه ينقصهم الخمر، وهكذا لا يتركون المعجزة تمر أيضًا، بل يعلمون بها بوضوح. ولم يكن ينتظر الساعة، ليس لهذا تأخر. وكيف يهتم ملك الدهور بسنوح الساعة، وينتظر ويراقب الفراغ في ذلك؟

تمام المعجزة

فبتحويله الماء خمرًا قد جنَّبنا أيضًا أن نتخيل في ذلك دعوى، وبذلك أظهر أنه خالق كل الأشياء كما لو كان قد خلق النبيذ مِنَ العدم. إذ هو أيضًا يحوِّل كذلك قطرات الندى ويصنع تفاحًا في شجر التفاح، وتينًا في شجر التين، وكل نوع مِنَ الأشجار.

تأملوا كيف أنَّ البشير يفصل المعجزة في ظروف مختلفة، مُحقِّقًا صحتها من كل جانب، ورافعًا عنها شبهة الخيال. يقول: «**وَكَانَتْ سِتَّةُ أَجْرَانٍ مِنْ حِجَارَةٍ مَوْضُوعَةً هُنَاكَ، حَسَبَ تَطْهِيرِ الْيَهُودِ، يَسَعُ كُلُّ وَاحِدٍ مِطْرَيْنِ**[٨٤] **أَوْ ثلاثَةً. قَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «امْلأُوا الأَجْرَانَ مَاءً». فَمَلأُوهَا إِلَى فَوْقُ**» (يو٢:٦، ٧).

---

(٨٤) المِطر، كما يقول إبيفانيوس، مقياس يسع اثنين وسبعين (سيتيها) setier، والسيتيه يسع رطلين ونصف، فيكون المِطر مائة وثمانين رطلاً (حوالي أربعة صفائح) أي ثلاثة مقاييس حسب مقياس الرها.

كان ناموس موسى يقضي بأن مَن لمس شيئًا نجسًا يغسل ملابسه ويغتسل بالماء. وبسبب كثرة مثل هذه التطهيرات، ولأنَّ بلاد فلسطين جافة جدًا ولا ترويها الينابيع أو الأنهار بل تأخذ الماء مِنَ الآبار أو الخزانات، كانت الأجران المذكورة تملأ ماء ويعدَّها اليهود لهذا الغرض، حتى يتطهَّروا في الحال. فتلك الأجران التي تصادف أن كانت فارغة، أمر الرب أن يملأها الخدم ماء، وكانت تستعمل الماء من مدة طويلة ولم يكن بها على الأطلاق أي رائحة أو أي شيء مما له علاقة بالخمر. فلو كان قد أمرهم بأن يستعملوا أيّة أوعية أخرى، لكان يمكن أن يُقال أنه بسبب بقاء بعض الثمالة فيها قد تأخذ بعض الشيء من صفة الخمر حينما يُسكَب الماء على بقايا الخمر، وأنَّ الذين كانوا يأكلون قد يشربون الماء على أنه خمر، إذ كانوا قد سكروا فصارت حاسة التذوُّق عندهم معدومة.

تأمل إذًا كيف أنه بذلك تستبعد كل شُبهة للتخيل. فليس التلاميذ هم الذين أمروا أن يملأوا الأجران، لكنهم الخدم، وهم الشهود الغرباء الذين لا يجلبون من أي مكان قسطًا في الشهادة، وكان الأمر لهم أن يملأوا تلك الأجران المُخصَّصة من مدة طويلة وليس أي أجران تُصادفهم. يقول الكتاب: «**فَمَلأُوهَا إِلَى فَوْقُ**» (يو٢:٧) حتى لم يكن ثمّة مكان لأي مزيج مِنَ الخمر. وحينئذ قال المسيح للخدم: «**اسْتَقُوا الآنَ وَقَدِّمُوا إِلَى رَئِيسِ الْمُتَّكَإِ. فَقَدَّمُوا**» (يو٢:٨).

إنَّ رئيس المُتَّكأ ليس أحد هؤلاء الذين يأخذون مكانهم على المائدة، لكنه رئيس صالة الوليمة ومستلزماتها، ويكون شغله الشاغل هو المرور وكأنه صائم، يضع الطباخين والخدم والسُقاة في أماكنهم. ويُرتِّب كل شيء في خدمة مَن يأكلون. إذًا يكون هو الشخص الذي أمر الرب بأن يُعطيه الخدم باكورة الماء المُتحوِّل خمرًا، وهو الساهر الذي يحتفظ بنقاوة الخمر وتمييز تذوّقها، حتى شهد أنَّ المشروب لم يكن نبيذًا فحسب، بل أن هذا النبيذ كان جيدًا جدًا وممتازًا، إذ قال للعريس: « كُلُّ إِنْسَانٍ إِنَّمَا يَضَعُ الْخَمْرَ الْجَيِّدَةَ أَوَّلاً، وَمَتَى سَكِرُوا فَحِينَئِذٍ الدُّونَ. أَمَّا أَنْتَ فَقَدْ أَبْقَيْتَ الْخَمْرَ الْجَيِّدَةَ إِلَى الآنَ!» (يو٢:١٠).

معنى عميق من معاني المعجزة

في هذا بهاء الكلمة الإنجيلية ومظهرها الخارجي حسب شرح المعجزة البسيط السهل المعروض أمامنا. ولكن لأولئك الذين يستطيعون أن ينزلوا باعتدال نحو عمق الأفكار – وليس أحد يستطيع أن يصل إلى درجة التأمل الكامل – ليس الغنى الموجود هنا غنى عاديًا، فإنَّ وليمة العرس تُبيِّن أنَّ المسيح جاء بحلوله بالجسد بين سكان الأرض كما في فرح ووليمة عرس. لأنه لم يأتِ ليُدين العالم، بل ليُخلِّص العالم، كما يقول البشير: «اَلَّذِي يُؤْمِنُ بِهِ لاَ يُدَانُ، وَالَّذِي لاَ يُؤْمِنُ قَدْ دِينَ، لأَنَّهُ لَمْ يُؤْمِنْ بِاسْمِ ابْنِ اللهِ الْوَحِيدِ» (يو٣:١٨) وحتى يخطب الكنيسة مثل عذراء طاهرة كما يقول بولس الرسول لأهل كورنثوس: «فَإِنِّي أَغَارُ عَلَيْكُمْ غَيْرَةَ اللهِ، لأَنِّي

خَطَبْتُكُمْ لِرَجُلٍ وَاحِدٍ، لأُقَدِّمَ عَذْرَاءَ عَفِيفَةً لِلْمَسِيحِ» (٢كو١١:٢) وكان يقول عنه يوحنا المعمدان أيضًا: «**مَنْ لَهُ الْعَرُوسُ فَهُوَ الْعَرِيسُ**» (يو٣:٢٩). وكان المسيح يقول أيضًا عن تلاميذه: «هَلْ يَسْتَطِيعُ بَنُو الْعُرْسِ أَنْ يَنُوحُوا مَا دَامَ الْعَرِيسُ مَعَهُمْ؟» (مت٩:١٥).

إنَّ وليمة العرس كانت إذًا صورة الخطوبة والزواج العقلي الذي صنعه المسيح، صورة اتحاده بأرواحنا، وهو عريس الكنيسة الطاهرة.

إنَّ والدة يسوع العذراء القديسة والدة الإله إذ كانت تريد أن تستدر الرحمة مِنَ المسيح، وكأنها تدعوه أن يهب خمر التعاليم، حينما كانت حاضرة في وليمة العرس وكانت ترى أنَّ النبيذ، ويشير إلى كلمة التعليم التي كانت قد أُعطيت لمجمع اليهود، قد فرغ، لأنَّ هؤلاء المُعلِّمين رؤساء الكهنة والفريسيين كانوا على مثال أصحاب المحلات يخلطون تعاليمهم الخاصة الضعيفة البشرية بماء الرياء والكبرياء، وهم الذين قال عنهم أيضًا إشعياء النبي: «صَارَتْ فِضَّتُكِ زَغَلاً وَخَمْرُكِ مَغْشُوشَةً بِمَاءٍ» (إش١:٢٢) وكانوا يتخذون وصايا الناس مواضيع لتعاليمهم حتى أن كل شيء كان يصير مشوبًا. فقالت العذراء والدة الإله باسم الكنيسة: «لَيْسَ لَهُمْ خَمْرٌ» (يو٢:٣)، لذلك ردّ يسوع قائلاً: «مَا لِي وَلَكِ يَا امْرَأَةُ! لَمْ تَأْتِ سَاعَتِي بَعْدُ» (يو٢:٤).

تفسير

لم يأتِ بعد الوقت الذي فيه الخمر الكامل السري قبل أن أحمل الصليب وأسفك دمي، ويأتي البارقليط على الذين على الأرض. وفي الوقت الحاضر سوف أغيِّر التعليم الذي يُشابِه الماء، التعليم البشري الذي سوف أحوِّله إلى حرارة ونشاط وقوة ولذّة مشروب روحاني، إذ أن النبيذ هو نموذج لذلك.

لم يكن مُمكنًا أن يتذوق مجمع اليهود هذا النبيذ، إذ كان ثملاً، وكان المسيح متكئًا معه على المائدة بسبب المحبة، وقد أشركه على قدر اللازم في تعاليم الوليمة، وليمة العرس، إذ هو يُعطي كثيرًا مِنَ التعاليم الرائعة.

رؤساء المُتّكأ هم تلاميذ موسى وتلاميذ إبراهيم، لأنَّ موسى كان أمينًا: «وَأَمَّا عَبْدِي مُوسَى فَلَيْسَ هَكَذَا بَل هُوَ أَمِينٌ فِي كُلِّ بَيْتِي» (عد١٢:٧)، «وَمُوسَى كَانَ أَمِينًا فِي كُلِّ بَيْتِهِ كَخَادِمٍ، شَهَادَةً لِلْعَتِيدِ أَنْ يُتَكَلَّمَ بِهِ» (عب٣:٥).

فبعد أن ذاقوا بطرف شفاههم عرفوا بوضوح وبإعلان الأنبياء أنه احتفظ بالخمر الجيدة التي هي التعاليم الإنجيلية، احتفظ بها للكنيسة، لآخرين في آخر الزمان. قال المسيح لليهود: «أَبُوكُمْ إِبْرَاهِيمُ تَهَلَّلَ بِأَنْ يَرَى يَوْمِي فَرَأَى وَفَرِحَ» (يو٨:٥٦).

هنا الخيرات والأرباح التي تليق بالكلمات الإلهية وتتفق معها. ولكن ما قاله البعض وهم يُخادعون يغيرون هذه المشاعر الحقيقية ويرسمون منها

طريقًا للخطأ بدوافع قوية وبطريقة مُضادة تؤدي إلى التجديف، فهذا هو ما يجب أن نهرب منه ونحوِّل عنه وجهنا. (هنا يشرع القديس ساويرس في نقد لاذع لأقوال أحد الكفرة في موضوع هذه المعجزة، ويقول القديس):

وقد ناقش البعض أيضًا أنَّ هذه المعجزة هي الأولى. فبينما يقول البعض أنَّ المسيح إلهنا صنع هذه المعجزة أولاً، إذ أنه في الوقت السابق في أيام تجسُّده، لم يحدث شيء كهذا، لأنه لم يرد أن يظهر نفسه قبل الوقت المُحدَّد حسب التدبير الإلهي. ولو كانت هناك معجزات قبل هذه لكان اليهود يصيرون في شك أكثر بخصوصه، وما كانوا يؤمنون، إذ أن هذا السن ليس هو السن اللائق، وأيضًا لكانوا يتعجَّلون سريعًا أن يقبضوا عليه ويُسمِّروه على الصليب. ومع ذلك فقد كان منيعًا بالنسبة لهم حتى إذا أرادوا أن يمسكوه، لم يقدروا بل بإرادته وحده أسلم ذاته. فيقول هؤلاء بأنه يبدو أنَّ المسيح لم يُبيِّن أيّة علامة في سنه المبكر قبل هذه المعجزة، لكن فقط في سن الثانية عشر كما روى لوقا البشير، حينما جلس مع مُعلِّمي اليهود في أورشليم وأدهشهم بأسئلته وبحكمة أجوبته.

ويُمكننا أن نسمع البعض الآخر الذين يبحثون بأكثر دقة يقولون إنَّ البشير قال إنَّ هذه المعجزة هي الأولى التي صنعها، ليس على الإطلاق لكنها الأولى في قانا الجليل، مُشيرين إلى أنه مرة أخرى في مكان آخر قد صنع معجزات.

وتبعًا لاختلاف الأشخاص والأزمنة والأماكن كانت هذه العلاقات تتم بحكمة بأساليب مختلفة. بطريقة عند اليهود الحسودين المُتكبِّرين الذين كانوا يعتقدون أنهم يعرفون الله وناموسه، وبأخرى عند الذين تحرّروا من مثل هذه الأهواء.

وحينما نزل المسيح إلى مصر بسبب جنون هيرودس، وكان لا يزال طفلاً صغيرًا، حسب نبوة إشعياء النبي، يزعزع تلك الأشياء المصنوعة بيد الإنسان: «وَحْيٌ مِنْ جِهَةِ مِصْـرَ: هُوَذَا الرَّبُّ رَاكِبٌ عَلَى سَحَابَةٍ سَرِيعَةٍ وَقَادِمٌ إِلَى مِصْرَ فَتَرْتَجِفُ أَوْثَانُ مِصْرَ مِنْ وَجْهِهِ وَيَذُوبُ قَلْبُ مِصْرَ دَاخِلَهَا» (إش١٩:١) أي التماثيل والأصنام وصور الشياطين التي كانت تسقط مغلوبة خاضعة في الحال للإله الحقيقي.

والعذراء والدة الإله، كانت تقول أيضًا كمن اعتادت أن ترى علامات وتعرف أنه صاحب المعجزات الباهرة: «لَيْسَ لَهُمْ خَمْرٌ» (يو٢:٣). هكذا كان يجب أن نفهم أنها كانت المعجزة الأولى مِنَ المعجزات التي تمت في قانا الجليل، أو المعجزة الأولى بعد عماد الرب يسوع.



شرح القديس يوحنا أسقف القسطنطينية

وقد كتب القديس يوحنا أسقف القسطنطينية(٨٥) شارحًا هذا الفصل مِنَ الإنجيل:

إذن المسيح في ذلك الزمان صنع مِنَ الماء خمرًا. وهو الآن لا يزال يغير الإرادات المائعة التي تنسكب وتنتشر. فإنه يوجد أناس لا يختلفون في شيء عن الماء، وهم هكذا باردون ومسترخون، وهم لا يتوقفون أبدًا. لنقدم هؤلاء الذين في هذه الحالة إلى ربنا لكي يُغيّر إرادتهم مثلما غيّر الماء إلى خمر، حتى لا ينسكبوا ولا ينتشروا، بل يكونون موضوع فرح بالنسبة لأنفسهم وبالنسبة للآخرين.

هل تلاحظون أنَّ النبيذ هو علامة التغيير إلى شيء أفضل، وعلامة الفرح الروحي، وأنَّ الماء أيضًا رمز هنا ليس للطهارة وللتقوى فحسب، لكنه رمز للترطيب وعدم التوقف والانسكاب والانتشار.

شرح القديس كيرلس

يستشهد القديس الكبير واللاهوتي النادر بأقوال القديس كيرلس ويُسمّيه **القديس الحكيم**. وفي هذه المعاني أروع ما يمكن أن تصل إليه العقول البشرية وكأنها الإلهام بسعادة البشر في دارهم هنا فينعمون

(٨٥) يبدو أنه القديس يوحنا فم الذهب.

بالبركات السماوية وهم على الأرض، ويتقدسون بتقديس الوجود البشري، وفي هذا منتهى الجلاء في التأمل وغاية الوضوح في الإرشاد. وأنها أقوال مأثورة لم يفت هذا القديس أن يستشهد بها، فحق علينا أن نوليها غاية اعتبارنا ونتدبَّرها بعقولنا وأفهامنا ونحفظها في سويداء قلوبنا. فإنه من أجل هذه المعاني الروحية يعظم اقتبالنا لنعمة هذه المعجزة تعظيمًا.

يقول القديس ساويرس: اسمعوا إذن القديس الحكيم كيرلس الذي كان راعيًا للمدينة العظمى المؤمنة الإسكندرية، وهو يشرح بطريقة لاهوتية هذا الفصل مِنَ الإنجيل، فقد كتب هذا:

«وَفِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ كَانَ عُرْسٌ فِي قَانَا الْجَلِيلِ» (يو٢:١). وإذ كان المعتاد أن يُقام احتفال بمناسبة العرس، فمن المؤكَّد تمامًا أنَّ والدة المخلص كانت حاضرة بكل وقار، وأنه إذ كان المسيح أيضًا مدعوًا، قد حضر مع تلاميذه لكي يصنع معجزة وليس ليشترك في الوليمة، وأيضًا مع ذلك لكي يُقدِّس بداية الوجود البشري، نريد أن نقول ذلك بالقدر الذي يتعلق بالجسد.

تأملات القديس ساويرس الروحية عن المعجزة

في هذا الجزء مِنَ الكتاب، يُطالعنا القديس بأسمى تأملاته الروحية في المعجزة، ويأتي إلينا بها رويدًا رويدًا حتى تبين الرؤية وتتحقق الفائدة والبركة الروحية للتأمل، والفاحص المتعمق أو الذي يحاول النزول إلى العمق، يقول:

يتبع فعلاً ليس فقط أن يمنح البركة للمدعوين الموجودين باتخاذه البشرية كلها كتلة واحدة وتحويلها إلى ما هو أفضل، بل أيضًا ليعد النعمة مُقدَّمًا للذين يُولدون بعد قليل، ويُقدِّس عبورهم إلى الوجود. ولنقبل أيضًا تشريعًا ثالثًا بهذا الخصوص عن قول الله في موضع ما للمرأة: «تَكْثِيرًا أُكَثِّرُ أَتْعَابَ حَبَلِكِ. بِالْوَجَعِ تَلِدِينَ أَوْلاَدًا» (تك٣:١٦).

كيف إذن كان لازمًا أن يدفع بعيدًا عنا هذه اللعنة؟ أو كيف كان يمكننا أن نهرب بطريقة أخرى من أحكام الزواج؟

فلأنه مُحب البشر، قد ألغى مخلصنا هذه اللعنة أيضًا، فبحضوره كرَّم الزواج، فإذا به تهليل وفرح للجميع لكي يطرد الحزن الأول الخاص بإنجاب الأطفال. فكما يقول بولس الرسول: «إِذًا إِنْ كَانَ أَحَدٌ فِي الْمَسِيحِ فَهُوَ خَلِيقَةٌ جَدِيدَةٌ. الأَشْيَاءُ الْعَتِيقَةُ قَدْ مَضَتْ. هُوَذَا الْكُلُّ قَدْ صَارَ جَدِيدًا» (٢كو٥:١٧).

إنَّ كلمة الله نزل إذن مِنَ السماء حتى باتحاده بالطبيعة البشرية كعريس، يقنعها بأن تحمل في أحشائها بذار الحكمة الروحية. وبسبب ذلك تُدعى البشرية "العروس" عن جدارة، ويُدعى مخلصنا "العريس"، وحينما يشرح الكتاب الإلهي مبتدئًا بالأشياء التي تنتمي إلى حالتنا، فيرتفع بالكلام إلى ما يفوق طبيعتنا.

إنَّ وليمة العرس قد اجتمعت في اليوم الثالث، أي في آخر الأزمنة، لأنَّ هذا العدد "ثلاثة" يدل على البداية والوسط والنهاية، وبهذا يكون مقياس كل وقت.

ويُشبه ذلك ما قاله أحد الأنبياء في موضع ما: «هَلُمَّ نَرْجِعُ إِلَى الرَّبِّ لأَنَّهُ هُوَ افْتَرَسَ فَيَشْفِينَا ضَرَبَ فَيَجْبِرُنَا. يُحْيِينَا بَعْدَ يَوْمَيْنِ. فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ يُقِيمُنَا فَنَحْيَا أَمَامَهُ. لِنَعْرِفْ فَلْنَتَتَبَّعْ لِنَعْرِفَ الرَّبَّ. خُرُوجُهُ يَقِينٌ كَالْفَجْرِ. يَأْتِي إِلَيْنَا كَالْمَطَرِ. كَمَطَرٍ مُتَأَخِّرٍ يَسْقِي الأَرْضَ» (هو٦:١-٣).

ضرب بسبب تعدِّي الوصية ما اعترى آدم حينما قال: «لأَنَّكَ تُرَابٌ وَإِلَى تُرَابٍ تَعُودُ» (تك٣:١٩). وهو ذاته ضمَّد جراحات مَن كان مضروبًا بالفساد وبالموت، في اليوم الثالث، أي ليس في الأزمنة الأولى ولا في الأزمنة المتوسطة، بل في الأزمنة الأخيرة، حينما أظهر الطبيعة جيدًا بعد أن تأنَّس لأجلنا إذ أقامها صحيحة في ذاته من بين الأموات، لذلك إذًا يُدعى أيضًا «بَاكُورَةَ الرَّاقِدِينَ» (١كو١٥:٢٠).

ويقول يوحنا البشير: «وَفِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ» (يو٢:١) حيث كان العرس، يعني في الزمان الأخير.

إنه يُعلِّمنا بخصوص المكان أيضًا: كانت المعجزة في قانا الجليل (يو٢:١). وفي ذلك ليتنبه من جديد مَن يحب التعليم. أنه لم يكن الاحتفال في أورشليم، بل كانت الوليمة خارج اليهودية، كانت في بلد الأمم، إذ أن

الجليل كان جزءًا منها كما يقول النبي: «وَلَكِنْ لاَ يَكُونُ ظَلاَمٌ لِلَّتِي عَلَيْهَا ضِيقٌ. كَمَا أَهَانَ الزَّمَانُ الأَوَّلُ أَرْضَ زَبُولُونَ وَأَرْضَ نَفْتَالِي يُكْرِمُ الأَخِيرُ طَرِيقَ الْبَحْرِ عَبْرَ الأُرْدُنِّ جَلِيلَ الأُمَمِ» (إش٩:١).

أعتقد إذن بالتأكيد:

١. أنَّ مجمع اليهود قد رفض العريس الآتي مِنَ السماء.

٢. أنَّ الكنيسة التي تُنتقَى من بين الأمم قد قبلته بفرح عظيم.

٣. لم يأتِ ربنا إلى وليمة العرس من نفسه.

٤. أنَّ أصوات القديسين الكثيرة قد دعته إليه.

بين الناموس والروح على ضوء المعجزة

ومن أعجب التأويل وأبرع التفسير ما قاله القديس ساويرس في التعليق على عدم وجود النبيذ. قال: لكن النبيذ كان ينقص الذين يأكلون. فيرى القديس بعيني بصيرته في هذه الحالة أنه فعلاً لم يحضر الناموس إلى الكمال شيئًا ما «إِذِ النَّامُوسُ لَمْ يُكَمِّلْ شَيْئًا. وَلَكِنْ يَصِيرُ إِدْخَالُ رَجَاءٍ أَفْضَلَ بِهِ نَقْتَرِبُ إِلَى اللهِ» (عب٧:١٩).

فكتاب موسى غير كافٍ لكي يُعطي السرور الكامل. ومع ذلك فحتى عند درجة اليقظة الطبيعية فينا لم تكن تتسع حتى تستطيع أن تخلصنا.

فيحق إذًا أن يُقال عنا أيضًا: «لَيْسَ لَهُمْ خَمْرٌ» (يو٢:٣). إنَّ إلهنا الغني في العطايا لا يهمل الطبيعة المُضطربة من جرّاء نقص الخيرات. لقد أظهر لنا خمرًا طيبة أفضل مِنَ الأولى «لأَنَّ الْحَرْفَ يَقْتُلُ وَلَكِنَّ الرُّوحَ يُحْيِي» (٢كو٣:٦).

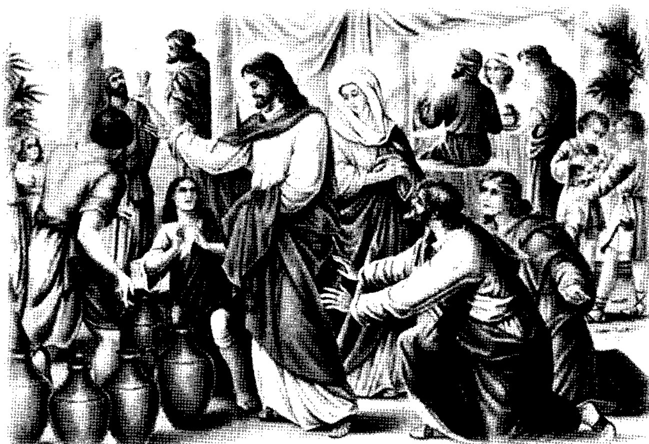
الناموس لا يملك الكمال في الخيرات، وأما التعاليم الإلهية الإنجيلية فتجلب بركة غنية جدًا. فكما أُعجب رئيس المُتَّكأ هذا بالخمر، أعتقد بالفعل أن كل واحد مِنَ المُعيَّنين للخدمة الكهنوتية الإلهية الذين أؤتمنوا على بيت المسيح مخلصنا، يكون في عجب وفي دهشة من كلمته التي تعلو الناموس.

إنَّ المسيح يأمر بأن يُعطَى الخمر لرئيس المُتَّكأ أو لأنه حسب كلمة بولس الرسول: «يَجِبُ أَنَّ الْحَرَّاثَ الَّذِي يَتْعَبُ يَشْتَرِكُ هُوَ أَوَّلاً فِي الأَثْمَارِ» (٢تي٢:٦).

لنُكرم الزواج، ونمدح البتولية كأنها الأرفع والأكرم، ولنمدح الاثنَيْن اللذَيْن يقودان إلى ملكوت السموات. ولا نمنع الزواج كالهراطقة، ولنُشجِّع إلى البتولية، ونتبع الرسول بولس الذي كتب إلى أهل كورنثوس: «إِذًا مَنْ زَوَّجَ فَحَسَنًا يَفْعَلُ وَمَنْ لاَ يُزَوِّجُ يَفْعَلُ أَحْسَنَ» (١كو٧:٣٨).

والمجد والعظمة والسلطان للآب والابن والروح القدس الإله الواحد الآن وكل أوان وإلى أبد الآبدين ودهر الداهرين أمين.





مقالة في ذكرى يوم رسامته بطريركاً

سلسلة مقالات الأنبا ساويرس

البطريرك الأنطاكي

٢١

مقالة

في ذكرى يوم رسامته بطريركًا

مُترجم عن الفرنسية مِنَ الكتاب الثاني مِنَ الجزء العشرين من مجموعة

PATROLOGIA ORIENTALIS

R. Graffin – F. Nau

Les Homélies Cathédrales de Sévère d'Antioche

Homélies LXXX

مليكه حبيب يوسف   يوسف حبيب

١٩٧٠م

مقال ٨٠[٨٦]



عن اليوم الذي أُقيم فيه على رأس المدينة، بعلامة مِنَ الله أخذ وضع الأيدي. **أُلقي هذا المقال في صالة القديس الشهيد رومانوس في بدء السنة الرابعة.** وهو أول مقال في هذه السنة.



إني أعتبر هذا اليوم جليلاً جدًا عندي، هذا اليوم الذي فيه وُضعتُ في الرئاسة، الذي مسحني الروح القدس أنا الصغير بمسحة الرئاسة، بعد أن مثل القرن، هذا اليوم الذي فيه سلَّمني الكنيسة وعهد إليّ بها كعروس مقدَّسة، بعد أن قادني إلى الخدر الروحي إذ يتم خطبتها فيكون اتحادها من هذا النوع خاليًا مِنَ الشوائب تدعَّمه أرثوذكسية الإيمان وطهارة السلوك. وأن مجتمع الكنيسة هو أول ما أطلق عليها اسم "المسيحيين" مثل رداء ملكي فاخر.

«فَحَدَثَ أَنَّهُمَا اجْتَمَعَا فِي الْكَنِيسَةِ سَنَةً كَامِلَةً وَعَلَّمَا جَمْعًا غَفِيرًا. وَدُعِيَ التَّلاَمِيذُ «مَسِيحِيِّينَ» فِي أَنْطَاكِيَةَ أَوَّلاً» (أع١١:٢٦) وقد ارتفعت هذه العروس تمامًا معه ومع الأقارب، حتى أن شهود هذا الاتحاد يقولون: "حقًّا إنه من جانب الرب اتفقت هذه الزوجة مع هذا الزوج، ورفضت أولئك

---

(٨٦) ٦ نوفمبر ٥١٥م. انظر Patr. Or. tome 16 p. 767

الذين انشقوا، وأظهرت أنهم كانوا يُقيمون على النفاق حتى أنَّ الذين يحيون بالروح القدس مثل يوحنا المعمدان يئنون ويصرخون وهم يخدمون الرب: «لاَ يَحِلُّ أَنْ تَكُونَ لَكَ» (مت١٤:٤)، وهذا بالحقيقة لأنهم يعتبروننا وينظرون إلينا وهم مملوؤون غيرة للرب القادر على كل شيء".

لأنَّ مَن انشق وكان مِنَ المفروض عليه أن يكون مع الكنيسة، فإنه في الحقيقة ليس معها، ولو تجاسر وجلس بالجسد على العرش البطريركي.

فلذلك في الماضي كان القرن المملوء بزيت الأسرار يُمسح به رؤساء الكهنة والملوك بطريقة رمزية، لكي نتعلم أن هذه المسحة لا تأتي من أسفل، ولا من هبة بشرية للذين يستحقونها، ولكنها نازلة من فوق من عند أبي الأنوار، ومن رأس كل رئاسة وكل سلطان وكل مقدرة، كما يقول الكتاب: «كُلُّ عَطِيَّةٍ صَالِحَةٍ وَكُلُّ مَوْهِبَةٍ تَامَّةٍ هِيَ مِنْ فَوْقُ، نَازِلَةٌ مِنْ عِنْدِ أَبِي الأَنْوَارِ، الَّذِي لَيْسَ عِنْدَهُ تَغْيِيرٌ وَلاَ ظِلُّ دَوَرَانٍ» (يع١:١٧)، «وَأَنْتُمْ مَمْلُوؤُونَ فِيهِ، الَّذِي هُوَ رَأْسُ كُلِّ رِيَاسَةٍ وَسُلْطَانٍ» (كو٢:١٠)، «فَوْقَ كُلِّ رِيَاسَةٍ وَسُلْطَانٍ وَقُوَّةٍ وَسِيَادَةٍ، وَكُلِّ اسْمٍ يُسَمَّى لَيْسَ فِي هَذَا الدَّهْرِ فَقَطْ بَلْ فِي الْمُسْتَقْبَلِ أَيْضًا» (أف١:٢١).

لأنه مِنَ الظاهر تمامًا أنَّ القرن مرتفع يعلو الرأس، وموضوعة في أعلى مكان، كما أنَّ الله الذي يُعطي المسحة هو فوق كل عرش وكل سلطان، وهو أعلى من كل أولئك المرتفعين وفوق كل شيء، «فَإِنَّهُ فِيهِ خُلِقَ الْكُلُّ: مَا فِي

السَّمَاوَاتِ وَمَا عَلَى الأَرْضِ، مَا يُرَى وَمَا لاَ يُرَى، سَوَاءٌ كَانَ عُرُوشًا أَمْ سِيَادَاتٍ أَمْ رِيَاسَاتٍ أَمْ سَلاَطِينَ. الْكُلُّ بِهِ وَلَهُ قَدْ خُلِقَ» (كو١:١٦). لذلك فإنَّ الذين مُسحوا بمسحة البطريركية، قد اغتنوا بالروح القدس من جرّاء هذه المسحة كما يليق بالرؤساء، وتقوّوا وتثبَّتوا به، وهم رأس كل الرؤساء، «رُدَّ لِي بَهْجَةَ خَلاَصِكَ وَبِرُوحٍ مُنْتَدِبَةٍ اعْضُدْنِي» (مز٥١:١٢) فيجب أن يكونوا قرن خلاص للجيش المنتظم في المعركة من أجل جهاد الرب وللجنود الروحانيين الذين يُجاهِدون أمام الشعب، ويقولون للذي مسحهم، «الرَّبُّ صَخْرَتِي وَحِصْنِي وَمُنْقِذِي. إِلَهِي صَخْرَتِي بِهِ أَحْتَمِي. تُرْسِي وَقَرْنُ خَلاَصِي وَمَلْجَإِي» (مز١٨:٢)، «بِكَ نَنْطَحُ مُضَايِقِينَا. بِاسْمِكَ نَدُوسُ الْقَائِمِينَ عَلَيْنَا» (مز٤٤:٥).

لذلك قال موسى وهو يبارك الشيخ يوسف والأسباط الذي خلفهم بالميلاد: «بِكْرُ ثَوْرِهِ زِينَةٌ لهُ وَقَرْنَاهُ قَرْنَا رِئْمٍ. بِهِمَا يَنْطَحُ الشُّعُوبَ مَعًا إِلَى أَقَاصِي الأَرْضِ. هُمَا رَبَوَاتُ أَفْرَايِمَ وَأُلُوفُ مَنَسَّى» (تث٣٣:١٧).

هذا قيل عن يوسف بطريقة تاريخية ورمزية، وهذا سبق أن قيل عنه بطريقة نبوية وتحقَّق بخصوص المسيح الذي كان يوسف رمزًا له. فقد باعه إخوته كما باع يهوذا المسيح. وقد أُلقي في الجب وصعد منه ثانية، كما وُضع المسيح في القبر وقام مِنَ الأموات. وقد نزعوا عنه رداءه المُتعدِّد الألوان، كما نزعوا عن مُخلِّصنا القميص الذي كان «بِغَيْرِ خِيَاطَةٍ، مَنْسُوجًا كُلُّهُ مِنْ فَوْقُ» (يو١٩:٢٣). وقد نزل إلى مصر، كما أنَّ عمانوئيل نزل في هذا العالم.

وقد وُضع في السجن وأخرج منه رئيس السُقاة خادم فرعون الذي كان محبوسًا، وملك على مصر، ورجع إلى أرض الميعاد ونزل مرة أخرى إلى مصر، كما ظهر ربنا في مناطق الجحيم، و«كَسَّرَ مَصَارِيعَ نُحَاسٍ وَقَطَّعَ عَوَارِضَ حَدِيدٍ» (مز١٠٧:١٦)، «أَنَا أَسِيرُ قُدَّامَكَ وَالْهِضَابَ أُمَهِّدُ. أُكَسِّرُ مِصْرَاعَيِ النُّحَاسِ وَمَغَالِيقَ الْحَدِيدِ أَقْصِفُ» (إش٤٥:٢)، وصرخ «قَائِلاً لِلأَسْرَى: اخْرُجُوا. لِلَّذِينَ فِي الظَّلاَمِ: اظْهَرُوا» (إش٤٩:٩)، وعاد بالجسد إلى السماء، وهو الذي يملأ الكون بطريقة غير جسدية بلا حدود، ولم يتركنا أيضًا، بل قال لتلاميذه: «لاَ أَتْرُكُكُمْ يَتَامَى. إِنِّي آتِي إِلَيْكُمْ» (يو١٤:١٨)، «وَهَا أَنَا مَعَكُمْ كُلَّ الأَيَّامِ إِلَى انْقِضَاءِ الدَّهْرِ» (مت٢٨:٢٠).

وإنَّ يسوع قد أكمل في ذاته البركة التي أعطاها موسى العظيم ليوسف، دفعة واحدة وبنفس الطريقة، بواسطة وصايا الأناجيل وتعاليم الرسل، وقد قلب بقرون حادة عبادة الأصنام التي كانت مُتأصِّلة في الأمم إلى أقاصي الأرض ونزعها واقتلعها.

وأطلق موسى بالضبط قرون وحيد القرن على البطاركة الذين مسحهم الله، فكانت تتوفر فيهم أنواع كثيرة مِنَ الفضائل، مما اكتسبوا من أعمال النشاط والتزموا به من حياة النسك، فيُكرِّسون أنفسهم للعمل، ويحتفظون حتى النهاية بقرون الفضائل كاملة غير مُنقسمة، مثل قرون وحيد القرن القوي الذي لا يُقهر. في سلوكهم لا ينقسمون إلى اثنين ولا يحاولون أن يخدموا الله والمال، «لاَ يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يَخْدِمَ سَيِّدَيْنِ، لأَنَّهُ إِمَّا أَنْ يُبْغِضَ

الْوَاحِدَ وَيُحِبَّ الآخَرَ، أَوْ يُلاَزِمَ الْوَاحِدَ وَيَحْتَقِرَ الآخَرَ. لاَ تَقْدِرُونَ أَنْ تَخْدِمُوا اللَّهَ وَالْمَالَ» (مت٦:٢٤)، «لاَ يَقْدِرُ خَادِمٌ أَنْ يَخْدِمَ سَيِّدَيْنِ، لأَنَّهُ إِمَّا أَنْ يُبْغِضَ الْوَاحِدَ وَيُحِبَّ الآخَرَ، أَوْ يُلاَزِمَ الْوَاحِدَ وَيَحْتَقِرَ الآخَرَ. لاَ تَقْدِرُونَ أَنْ تَخْدِمُوا اللهَ وَالْمَالَ» (لو١٦:١٣).

لا يُقسِّمون الإيمان أيضًا بتعاليم فاسدة مشجوبة كما قسم أريوس الكافر الألوهية الوحيدة للأقانيم الثلاثة الآب والابن والروح القدس إلى جواهر غريبة ومختلفة. لا يقطعون بسكين نسطور اليهودي التجسُّد الذي لا يُنطق به غير المُنقسِم الذي لله الكلمة، القائل بازدواج الطبيعتَيْن بعد الاتحاد. لا يظهرون خلاصنا كاذبًا مثل أفتيخوس [أوطاخي] الكافر، ولا ينزعونه بأسنان شريرة من مُخلِّصنا وطبيبنا بإعطائه جسدًا غريبًا، أو نوعًا من شبه الجسد، وليس الجسد الحقيقي من نفس الجوهر مثلنا، لكنه مُنزَّه عن كل خطية. لا يستبعدون العقل عن مجيء المسيح في الجسد كما فعل أبولنير(٨٧) الظالم عديم الفهم.

لا يتركوننا بدون شفاء في هذا الجزء الذي به خلقنا الله على صورته، مثل المنيكيين الذين تجاوزا كل حدود التجديف وكل استهزاء.

فكل هؤلاء قد تجاسروا فقسموا الإيمان البسيط الوحيد الشكل الذي لا ينقسم، لأنهم مُنقسمون في عقولهم بأفكار شريرة. لكن الذي مسحته النعمة من فوق، الذي حفظ هذا الإيمان في طهارته الذي يتسلَّح بكلمة

(٨٧) أبوليناريوس أسقف لاودكية (اللاذقية) (الناشر).

الحق كما بقرن وحيد القرن، يطرد أعداءه المُهاجمين في المعارك، ويرتل مع داود النبي المُرنِّم الإلهي قائلاً: «أَمَّا أَنَا فَأُخْبِرُ إِلَى الدَّهْرِ. أُرَنِّمُ لإِلَهِ يَعْقُوبَ. وَكُلَّ قُرُونِ الأَشْرَارِ أَعْضِبُ. قُرُونُ الصِّدِّيقِ تَنْتَصِبُ» (مز٧٥:٩، ١٠).

إنه يعترف ويؤمن بإله واحد الله الآب خالق ورب الكون، وبالكلمة الوحيد المولود مِنَ الآب قبل كل الدهور حسب الجوهر، الذي في الأيام الأخيرة بدون استحالة بموجب الاتحاد الأقنومي بفعل الروح القدس والعذراء والدة الإله تجسَّد آخذًا جسدًا من ذات الجوهر مثلنا له نفس عاقلة، الذي هو واحد بعد التجسَّد، هو إله وإنسان، وإنه في ذلك من ذات الجوهر مثل الله الآب، ومن ذات الجوهر مثلنا، إذ يكون واحدًا من اثنين بعد الاتحاد، دون أن يكون مُنقسمًا إلى اثنين. يؤمن بالروح القدس الذي هو من ذات جوهر الآب والابن، الأبدي. هكذا يكون الثالوث كاملاً، لم يفقد صفة الثالوثية لا بزيادة بسبب تجسد الابن، ولا بنقصان ولا تغيير، وهو يحفظ ويُخلِّص المعترفين الذين يعترفون به اعترافًا صحيحًا.

إذن صدق ما قلت أني أستفيد فائدة عظيمة حينما آتي إلى مثل هذا اليوم، وذلك ليس لأني صعدت إلى درجة عالية مِنَ المجد والسلطة المقدسة، ولكن لأنه ينقصني الكثير من صفات الرئاسة، وأزحف في الأعمال الأرضية في أسفل بينما أجلس عاليًا، ويلزمني أن أرتفع نحو السماء على أجنحة الفضائل.

حينما أُجدِّد في ذاكرتي تلك العهود التي قطعتها مع الله في ذلك الوقت، وإذ أفكر بأني مُلزَم بإتمامها، فإني ليعروني خوف ورعب حتى يكاد يأخذ مني الخوف كل مأخذ لا يبقى لي سوى القليل حتى أفقد أنفاسي. لأنَّ الكلمات التي تُقال في النص الطقسي وتُتلى على رأسي الممسوح هي كلمات لها قوة المُعاهدات، ولهذا تُسمَّى الرسامة وضع اليد مثل التوقيع على عقد.

فهذه الملابس الروحية التي يأخذها حينما يرتقي إلى الكهنوت بالنعمة، يجب أن يلبسها بالحق، دون أن يقنع بالافتخار فقط بالأسماء المُقدسة فيكون له منها المظاهر الخادعة مِنَ الخارج، بينما تكون ميوله في الداخل شريرة أولى بأن تجعل الدموع تسيل.

لأنه من ذا الذي يمكنه أن يصف شدة الخزي الذي يعتري أولئك الذين هم على هذه الحال في اليوم الأخير. يقول إشعياء النبي: «لأَنَّ كُلَّ سِلاَحِ الْمُتَسَلِّحِ فِي الْوَغَى وَكُلَّ رِدَاءٍ مُدَحْرَجٍ فِي الدِّمَاءِ يَكُونُ لِلْحَرِيقِ مَأْكَلاً لِلنَّارِ» (إش٩:٥). أي أنه بتركهم رداء الشرف يخزون لأنهم لم يُكرّموه، فيعطون الحساب عن السبب الذي من أجله اِتخذوا الباطل بدلاً مِنَ الحق، وفي الأناجيل من جهة أخرى يصرخ بوضوح في الوليمة الطوباوية: «يَا صَاحِبُ، كَيْفَ دَخَلْتَ إِلَى هُنَا وَلَيْسَ عَلَيْكَ لِبَاسُ الْعُرْسِ؟» (مت٢٢:١٢).

فلا يفتخر أحد بمسحته وبتعيينه المقدس وبمركزه، بل ينظر إلى أين تجره عظمة هذا الشرف، وليفكر حينما يكون قد تصرَّف بطريقة غير

لائقة، في العذاب العظيم المدخر له. ويقول الحكيم: «فإِنَّ **الصَّغير** أهْل الرَّحمَة. أَماَّ أَرْبابُ القُوَّةِ فبِقَوَّةٍ يُفحَصون» (حك٦:٧).

إنَّ حزقيال النبي يقول أيضًا أن الذين خوّلوا السلطة من هذا الفريق على الأرض سوف يتعذَّبون جزاء كبرياء تجبّرهم ويُقادون إلى الجبل السفلي، إذ يقول: «هُنَاكَ أَشُورُ وَكُلُّ جَمَاعَتِهَا. قُبُورُهُ مِنْ حَوْلِهِ. كُلُّهُمْ قَتْلَى سَاقِطُونَ بِالسَّيْفِ» (حز٣٢:٢٢)، «هُنَاكَ عِيلاَمُ وَكُلُّ جُمْهُورِهَا حَوْلَ قَبْرِهَا، كُلُّهُمْ قَتْلَى سَاقِطُونَ بِالسَّيْفِ الَّذِينَ هَبَطُوا غُلْفًا إِلَى الأَرْضِ السُّفْلَى، الَّذِينَ جَعَلُوا رُعْبَهُمْ فِي أَرْضِ الأَحْيَاءِ. فَحَمَلُوا خِزْيَهُمْ مَعَ الْهَابِطِينَ فِي الْجُبِّ» (حز٣٢: ٢٤)، «هُنَاكَ مَاشِكُ وَتُوبَالُ وَكُلُّ جُمْهُورِهَا. حَوْلَهُ قُبُورُهَا. كُلُّهُمْ غُلْفٌ قَتْلَى بِالسَّيْفِ، مَعَ أَنَّهُمْ جَعَلُوا رُعْبَهُمْ فِي أَرْضِ الأَحْيَاءِ. وَلاَ يَضْطَجِعُونَ مَعَ الْجَبَابِرَةِ السَّاقِطِينَ مِنَ الغُلْفِ النَّازِلِينَ إِلَى الْهَاوِيَةِ بِأَدَوَاتِ حَرْبِهِمْ، وَقَدْ وُضِعَتْ سُيُوفُهُمْ تَحْتَ رُؤُوسِهِمْ، فَتَكُونُ آثَامُهُمْ عَلَى عِظَامِهِمْ مَعَ أَنَّهُمْ رُعْبُ الْجَبَابِرَةِ فِي أَرْضِ الأَحْيَاءِ» (حز٣٢:٢٦، ٢٧).

يليق إذن بمَن تشرَّف بالسلطة والرئاسة، لا سيما الرئاسة الروحية، أن يقيس ذاته كل يوم تبعًا لعظمة الموهبة التي أخذها، دون أن يرتبك بالتصوُّر الظاهري، بل ليأخذ في الاعتبار أنَّ هناك سيفًا مُسلَّطًا فوق رأس مَن يسلك بطريقة غير لائقة تجلب عليه غضب الله، وقبل كل شيء ينظر إلى اليوم الأخير المملوء رهبة، وإلى الاتعاب والعذابات التي تأتي فيه، ولا

يستطيع أحد أن يهرب منها بشفاعة أحد، وبعد ذلك النار التي لا تُطفأ، والأهوال التي لا نهاية لها التي لا يستطيع أحد أن يتحملها.

فإنَّ الذي مسح شاول كان يقول أيضًا فيما بعد: «نَدِمْتُ عَلَى أَنِّي قَدْ جَعَلْتُ شَاوُلَ مَلِكًا، لأَنَّهُ رَجَعَ مِنْ وَرَائِي وَلَمْ يُقِمْ كَلاَمِي» (١صم١٥:١١). وهذه الكلمة «نَدِمْتُ» كُتبت لكي تُبيِّن أنَّ نداءات وعطايا الله **ليست إجبارية وإلزامية**، وأنها لا تدفع بالحرية. فإنه ليس لأنَّ الله قد مسح شاول ملكًا، كان يلزم ضرورة أن يجعله بارًا، هذا في الواقع من شأن شاول وهو حر الإرادة. وقد شهد بولس الرسول في رسالته إلى أهل رومية أنَّ الله لا يندم ويعرف كل الأشياء قبل حدوثها، إذ قال: «لأَنَّ هِبَاتِ اللهِ وَدَعْوَتَهُ هِيَ بِلاَ نَدَامَةٍ» (رو١١:٢٩). **لذلك يسمح أيضًا للتائب أن يرجع إلى الكرامة التي سقط منها، حتى تبقى عطايا الله ثابتة، لك أن تمتلكها بالفضيلة أو أن تفسدها بالخطية.**

ومنذ البدء بعد أن خلق الإنسان وجعله سيدًا على كل ما على الأرض، كان الشر يزيد – مع أنه منذ البدء قد عرف ما سوف يحدث – فقال بنفس الطريقة مُبيِّنًا أنَّ حرية الإرادة هي المسؤولة عن ذلك والإنسان له السيطرة الكاملة على ما يأتيه: «أَمْحُو عَنْ وَجْهِ الأَرْضِ الإِنْسَانَ الَّذِي خَلَقْتُهُ: الإِنْسَانَ مَعَ بَهَائِمَ وَدَبَّابَاتٍ وَطُيُورِ السَّمَاءِ. لأَنِّي حَزِنْتُ أَنِّي عَمِلْتُهُمْ» (تك٦:٧).

وبدلاً من هذه الكلمة «**حَزِنْتُ**»، نقل مترجم آخر «**نَدِمْتُ**». هذه الكلمات التي قيلت بطريقة يتقبَّلها البشر لكي تنزل إلينا وتمد إلى ضعفنا

أيدي المعونة، يجب أن نطبقها بمعاني لائقة بالله جديرة به. فإنَّ هذه الكلمة «نَدِمْتُ» تُظهِر في الواقع أيضًا محبة الله الكثيرة لنا، وكأنه يقول: "إنه بسبب ازدياد شركم أندم، بينما أميل نحو الشعور المُضاد، لأنَّ كفة العدل منذ ذلك الحين ترجح وفرة الجود الذي أظهرتم أنفسكم غير مُستحقين له".

ولماذا أتكلم عن شاول؟ فداود كان قد أخذ شهادة حسنة في الحكم الذي جاء من فوق القائل: «وَجَدْتُ دَاوُدَ بْنَ يَسَّى رَجُلاً حَسَبَ قَلْبِي الَّذِي سَيَصْنَعُ كُلَّ مَشِيئَتِي» (أع١٣:٢٢)، وبعد أن ارتكب أخطاء، ماذا كان يسمع؟ يقول الكتاب: «فَقَالَ نَاثَانُ لِدَاوُدَ: «أَنْتَ هُوَ الرَّجُلُ! هكَذَا قَالَ الرَّبُّ إِلَهُ إِسْرَائِيلَ: أَنَا مَسَحْتُكَ مَلِكًا عَلَى إِسْرَائِيلَ وَأَنْقَذْتُكَ مِنْ يَدِ شَاوُلَ وَأَعْطَيْتُكَ بَيْتَ سَيِّدِكَ وَنِسَاءَ سَيِّدِكَ فِي حِضْنِكَ، وَأَعْطَيْتُكَ بَيْتَ إِسْرَائِيلَ وَيَهُوذَا. وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ قَلِيلاً كُنْتُ أَزِيدُ لَكَ كَذَا وَكَذَا. لِمَاذَا احْتَقَرْتَ كَلاَمَ الرَّبِّ لِتَعْمَلَ الشَّرَّ فِي عَيْنَيْهِ؟ قَدْ قَتَلْتَ أُورِيَّا الْحِثِّيَّ بِالسَّيْفِ، وَأَخَذْتَ امْرَأَتَهُ لَكَ امْرَأَةً، وَإِيَّاهُ قَتَلْتَ بِسَيْفِ بَنِي عَمُّونَ. وَالآنَ لاَ يُفَارِقُ السَّيْفُ بَيْتَكَ إِلَى الأَبَدِ، لأَنَّكَ احْتَقَرْتَنِي وَأَخَذْتَ امْرَأَةَ أُورِيَّا الْحِثِّيِّ لِتَكُونَ لَكَ امْرَأَةً. هكَذَا قَالَ الرَّبُّ: هَئَنَذَا أُقِيمُ عَلَيْكَ الشَّرَّ مِنْ بَيْتِكَ، وَآخُذُ نِسَاءَكَ أَمَامَ عَيْنَيْكَ وَأُعْطِيهِنَّ لِقَرِيبِكَ، فَيَضْطَجِعُ مَعَ نِسَائِكَ فِي عَيْنِ هَذِهِ الشَّمْسِ. لأَنَّكَ أَنْتَ فَعَلْتَ بِالسِّرِّ وَأَنَا أَفْعَلُ هَذَا الأَمْرَ قُدَّامَ جَمِيعِ إِسْرَائِيلَ وَقُدَّامَ الشَّمْسِ» (٢صم١٢:٧-١٢).

وإذا كان داود النبي باعترافه بخطيئته وبندامته التي كانت بمعنى الكلمة لم يوقف عنف غضب الله، فإنَّ الشهادة الأولى والمسحة الملكية ما كانت لتنفعه إزاء القسوة التي تبعها.

ليسمع هذا بالخوف والارتجاف أولئك الراغبون في الرسامات أو محبة الملذَّات المُخزية، الذين يسعون فقط وراء الكرامة والطعام عن طريق الرسامة، وليس وراء العمل، الذين يجهلون لنا السمعة الجديدة المنتشرة أننا نجمع طعام الحياة الدنيا، كما لو كان ذلك غير مسموح به عن طريق آخر بممارسة مهنة حدادة أو صناعة العربات أو مهنة أخرى يدوية كانت أو عقلية.

لكن هل مِنَ الضروري أن يندفعوا نحو الوظائف المقدسة دون أن تتوفر فيهم النية المقدسة؟ بالحقيقة أننا لا نرى أبدًا جنديًا أعور أو أعرج يقف أمام الملك أو يدخل في خدمته، إلا أننا مع ذلك بينما تكون أعضاء إنساننا الداخلي مجروحة، فإننا نتجاسر ونتقدم أمام الملك السمائي أمام الله ونخدمه، وذلك في حين أننا نعرف أن الناموس يقول بوضوح: «وَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: قُلْ لِهَارُون: إِذَا كَانَ رَجُلٌ مِنْ نَسْلِكَ فِي أَجْيَالِهِمْ فِيهِ عَيْبٌ فَلاَ يَتَقَدَّمْ لِيُقَرِّبَ خُبْزَ إِلَهِهِ. لأَنَّ كُلَّ رَجُلٍ فِيهِ عَيْبٌ لاَ يَتَقَدَّمْ. لاَ رَجُلٌ أَعْمَى وَلاَ أَعْرَجُ وَلاَ أَفْطَسُ وَلاَ زَوَائِدِيٌّ وَلاَ رَجُلٌ فِيهِ كَسْرُ رِجْلٍ أَوْ كَسْرُ يَدٍ وَلاَ أَحْدَبُ وَلاَ أَكْشَمُ وَلاَ مَنْ فِي عَيْنِهِ بَيَاضٌ وَلاَ أَجْرَبُ وَلاَ أَكْلَفُ وَلاَ مَرْضُوضُ الْخُصَى. كُلُّ رَجُلٍ فِيهِ عَيْبٌ مِنْ نَسْلِ هَارُونَ الْكَاهِنِ لاَ يَتَقَدَّمْ لِيُقَرِّبَ وَقَائِدَ الرَّبِّ. فِيهِ عَيْبٌ لاَ يَتَقَدَّمْ لِيُقَرِّبَ خُبْزَ إِلَهِهِ. خُبْزَ إِلَهِهِ مِنْ

قُدْسِ الأَقْدَاسِ وَمِنَ الْقُدْسِ يَأْكُلُ. لَكِنْ إِلَى الْحِجَابِ لاَ يَأْتِي وَإِلَى الْمَذْبَحِ لاَ يَقْتَرِبُ لأَنَّ فِيهِ عَيْبًا لِئَلَّا يُدَنِّسَ مَقْدِسِي لأَنِّي أَنَا الرَّبُّ مُقَدِّسُهُمْ» (لا٢١:١٦-٢٣).

ففي الكهنوت اللاوي كانوا يبحثون عن هذه الأمراض الجسدية، ولكن في الخدمة الإنجيلية الروحية، يُبحَث عنها في الروح. فيجب على مَن يختص بممارسة الكهنوت أن يكون «**كَامِلاً، مُتَأَهِّبًا لِكُلِّ عَمَلٍ صَالِحٍ**» (٢تي٣:١٧) كما يقول بولس الرسول.

يجب أن تكون عينيه الروحية سليمة لا تغشاها ظُلمات العالم، يُثبِّت نظره بطهارة على الحسنات وعلى الأفكار السماوية.

يجب أن تكون الخطوات نحو الأعمال الحسنة مستقيمة وصحيحة، دون ترنُّح أو عرج، فيستطيع أن يقف بثبات دون تزعزُع على صخرة الإيمان، ويتقدَّم في طريق الوصايا، ويسير بموجبها جميعًا، فلا يسمح لنفسه أن يُتم أحداها ويتعثر بالأخرى. يجب أن يتحمَّل الصعوبات التي تعوق البشارة بالإنجيل والإيمان الأرثوذكسي، أو توقفها. وبعد أن يقوى بالرجاء المستقبل، يركض بدون تأخير قائلاً مثل بولس الرسول: «إِذًا أَنَا أَرْكُضُ هَكَذَا كَأَنَّهُ لَيْسَ عَنْ غَيْرِ يَقِينٍ. هَكَذَا أُضَارِبُ كَأَنِّي لاَ أَضْرِبُ الْهَوَاءَ» (١كو٩:٢٦).

وبعد نهاية الأعمال: «قَدْ جَاهَدْتُ الْجِهَادَ الْحَسَنَ، أَكْمَلْتُ السَّعْيَ، حَفِظْتُ الإِيمَانَ، وَأَخِيرًا قَدْ وُضِعَ لِي إِكْلِيلُ الْبِرِّ، الَّذِي يَهَبُهُ لِي فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ

الرَّبُّ الدَّيَّانُ الْعَادِلُ، وَلَيْسَ لِي فَقَطْ، بَلْ لِجَمِيعِ الَّذِينَ يُحِبُّونَ ظُهُورَهُ أَيْضًا» (٢تي٤:٧، ٨).

يجب أيضًا ألا يكون أحدب، بل يكون له القدرات اللازمة مِنَ الناحية العقلية «إِلَى أَنْ نَنْتَهِيَ جَمِيعُنَا إِلَى وَحْدَانِيَّةِ الإِيمَانِ وَمَعْرِفَةِ ابْنِ اللهِ. إِلَى إِنْسَانٍ كَامِلٍ. إِلَى قِيَاسِ قَامَةِ مِلْءِ الْمَسِيحِ» (أف٤:١٣).

ويجب ألا يقوم بأي عمل باطل، أو يسعى نحو ما لا يليق. وبهذا المعنى فعلاً، يجب أن نفهم المقصود بكسر اليد أو الرجل. فإنه يجب أن يكون الإنسان الداخلي غير ناقص في شيء من جهة السمع أو من جهة الذوق، بل يحس فعالية الدعوة الروحية الذكيّة والإلهام الإلهي، ويقول كما قال إسحق: «رَائِحَةُ ابْنِي كَرَائِحَةِ حَقْلٍ قَدْ بَارَكَهُ الرَّبُّ» (تك٢٧:٢٧). ومثل صموئيل حينما أتته الدعوة من فوق، فيرُد في الحال على من يُناديه قائلاً: «تَكَلَّمْ لأَنَّ عَبْدَكَ سَامِعٌ» (١صم٣:١٠).

يجب أن يقتني عمل الخير ليس فقط أمام الله، لكن أيضًا أمام الناس: «لاَ تُجَازُوا أَحَدًا عَنْ شَرٍّ بِشَرٍّ. مُعْتَنِينَ بِأُمُورٍ حَسَنَةٍ قُدَّامَ جَمِيعِ النَّاسِ» (رو١٢:١٧)، «مُعْتَنِينَ بِأُمُورٍ حَسَنَةٍ، لَيْسَ قُدَّامَ الرَّبِّ فَقَطْ، بَلْ قُدَّامَ النَّاسِ أَيْضًا» (٢كو٨:٢١).

كما يجب أن يكون المظهر الخارجي أيضًا في الملبس وطريقة السير موضوع مديح له، ولا يكون مستوجبًا للسخرية كأولئك الذين على وجوههم زوائد شبيهة بالسطة، أو الذين تكون عيونهم منتفخة، وألا

يكون له صلة أيضًا بتابعي التعاليم الهرطقية، ويبتعد عنهم ابتعاده عن المُصابين بالجرب والأمراض الجلدية «أُنَاسٍ فَاسِدِي الذِّهْنِ وَعَادِمِي الْحَقِّ، يَظُنُّونَ أَنَّ التَّقْوَى تِجَارَةٌ. تَجَنَّبْ مِثْلَ هؤُلاَءِ» (١تي٦:٥).

يجب ألا تكون كلمة التعليم التي يُلقيها ليست لها قدرة أن تثمر، فلا يكون مثل أولئك الذين بهم مرض يجعلهم غير قادرين على الإنجاب، بل تكون في كلمته تنمية لعدد الخراف، كقول بولس الرسول: «لأَنَّ جَمِيعَ الأَشْيَاءِ هِيَ مِنْ أَجْلِكُمْ، لِكَيْ تَكُونَ النِّعْمَةُ وَهِيَ قَدْ كَثُرَتْ بِالأَكْثَرِينَ، تَزِيدُ الشُّكْرَ لِمَجْدِ اللهِ» (٢كو٤:١٥).

لا يفتكر أحد أنه يخلو مِنَ العيوب لأننا لا نراها، فإذا نظرنا في مرآة الضمير، فسوف نجدها كلها فينا أو نجد عددًا كبيرًا منها، فمن ذا الذي لا يبكي ولا يئن عليها حتى يمحو عيوب هذه الأمراض المُشينة.

بهذه الكلمات وهذه المعاني، أريد ليس في هذا اليوم فحسب، بل في كل يوم، أن أغسل وأُطهِّر وأُجدِّد مسحتي وكهنوتي، ولا أترك أبدًا تذكار هذه الأحداث يقدم ويضيع. ويُبيِّن الكتاب المقدس تجديد المسحة أيضًا. ويعرفنا صموئيل مرة أنه مسح شاول ملكًا، وكان يقول من جديد: «هَلُمُّوا نَذْهَبْ إِلَى الْجِلْجَالِ وَنُجَدِّدْ هُنَاكَ الْمَمْلَكَةَ. فَذَهَبَ كُلُّ الشَّعْبِ إِلَى الْجِلْجَالِ وَمَلَّكُوا هُنَاكَ شَاوُلَ أَمَامَ الرَّبِّ فِي الْجِلْجَالِ، وَذَبَحُوا هُنَاكَ ذَبَائِحَ سَلاَمَةٍ أَمَامَ الرَّبِّ. وَفَرِحَ هُنَاكَ شَاوُلُ وَجَمِيعُ رِجَالِ إِسْرَائِيلَ جِدًّا» (١صم١١:١٤، ١٥).

وقد فعل ذلك لأنه كان يريد أن يُقدِّمه للشعب، وفي الوقت نفسه لاهتمامه بأن يُبيِّن بأكثر وضوح هذه الكرامة ويُعبِّر عنها في نفسه حتى لا ينسى حالته إذا مال عنها.

ويأمر الله كل الكنائس بإعلان واضح بواسطة النبي إشعياء: «أُنْصُتِي إِلَيَّ أَيَّتُهَا الْجَزَائِرُ وَلْتُجَدِّدِ الْقَبَائِلُ قُوَّةً. لِيَقْتَرِبُوا ثُمَّ يَتَكَلَّمُوا. لِنَتَقَدَّمْ مَعًا إِلَى الْمُحَاكَمَةِ» (إش١:٤١). يصرخ إلى الجزائر ويُسمِّيها هكذا لأنها تقوم وتتألق بين الأمم من خضم عبادة الأصنام المُرَّة، وتُقدم موانئ الدين الهادئة الآمنة للذين في الضلالة يهيمون. فهي بحق تُشبه الجزائر، لأنَّ من كل ناحية تضربها البحار العالية وتقصف بها زوابع التجارب، لكنها مزقتها وجعلتها ترغي وتزبد بالصبر والجهاد والإقدام، في رجاء الصخرة، المسيح ذراع الآب المُتعالي، كقول إشعياء النبي: «إِيَّايَ تَرْجُو الْجَزَائِرُ وَتَنْتَظِرُ ذِرَاعِي» (إش٥:٥١).

يجب إذن أن نتجدَّد كل حين، وأن ننسى ما هو وراء ونمتد إلى ما هو قدَّام، «**أَيُّهَا الإِخْوَةُ، أَنَا لَسْتُ أَحْسِبُ نَفْسِي أَنِّي قَدْ أَدْرَكْتُ. وَلَكِنِّي أَفْعَلُ شَيْئًا وَاحِدًا: إِذْ أَنَا أَنْسَى مَا هُوَ وَرَاءُ وَأَمْتَدُّ إِلَى مَا هُوَ قُدَّامُ**» (في١٣:٣).

هذا ما يُعلِّمنا إياه بولس الرسول أيضًا بقوله: «إِذًا إِنْ كَانَ أَحَدٌ فِي الْمَسِيحِ فَهُوَ خَلِيقَةٌ جَدِيدَةٌ. الأَشْيَاءُ الْعَتِيقَةُ قَدْ مَضَتْ. هُوَذَا الْكُلُّ قَدْ صَارَ جَدِيدًا» (٢كو١٧:٥).

بذلك يعني أنَّ مَن يملكه المسيح يجب أن يُبيِّن ذلك بأعمال جديدة، مُظهِرًا نفسه كما لو كان قد خُلق من جديد وأصبح إنسانًا جديدًا، وهذا ما يُنبئنا به أيضًا بقوله «الأَشْيَاءُ الْعَتِيقَةُ قَدْ مَضَتْ. هُوَذَا الْكُلُّ قَدْ صَارَ جَدِيدًا» (٢كو٥:١٧).

بعد هذه التوجيهات أشار القديس ساويرس إلى أحد القديسين المعروفين لحث المؤمنين، فيقول:

كان القديس رومانوس الذي امتاز بين الشهداء بالصبر والحكمة، يزداد باستمرار في هذا التجديد، ولا يكتفي بالفضائل التي اكتسبها بأعماله العديدة، بل كان يتعجَّل الشهادة كما لو لم يكن له زاد للخلاص. فبعد أن أطفأت الأمطار التي هطلت بالصلاة السعير الذي كان مُعدًّا له، سلَّم لسانه للسيف، وحرص أن يُبيِّن أن المعركة الواحدة تتضمَّن ألوانًا كثيرة مِنَ الاستشهاد، فقدَّم كل عضو من أعضائه. وفي ذلك لم يكن ليتوقف عن السير قُدمًا ابتغاء ما هو أعظم.

إني أعرف جيدًا أنه حتى بعد نيله إكليل الشهادة، لا تزال صلواته ترتفع لأجلنا حتى لا نكون بعيدين عن ملكوت السموات بالمسيح ربنا الذي يليق له المجد مع الآب والروح القدس الآن وكل أوان وإلى دهر الداهرين آمين.



طوبى للرحماء

لأنهم يُرحمون

سلسلة مقالات القديس الأنبا ساويرس

البطريرك الأنطاكي

٢٢

طوبى للرحماء لأنهم يُرحمون

عن الآيات التي في الإنجيل المُقدَّس القائلة:

«طُوبَاكُمْ أَيُّهَا الْمَسَاكِينُ، لأَنَّ لَكُمْ مَلَكُوتَ اللهِ. طُوبَاكُمْ أَيُّهَا الْجِيَاعُ الآنَ لأَنَّكُمْ تُشْبَعُونَ. طُوبَاكُمْ أَيُّهَا الْبَاكُونَ الآنَ لأَنَّكُمْ سَتَضْحَكُونَ» «وَلَكِنْ وَيْلٌ لَكُمْ أَيُّهَا الأَغْنِيَاءُ، لأَنَّكُمْ قَدْ نِلْتُمْ عَزَاءَكُمْ. وَيْلٌ لَكُمْ أَيُّهَا الشَّبَاعَى، لأَنَّكُمْ سَتَجُوعُونَ. وَيْلٌ لَكُمْ أَيُّهَا الضَّاحِكُونَ الآنَ لأَنَّكُمْ سَتَحْزَنُونَ وَتَبْكُونَ» (لو٦:٢٠، ٢١، ٢٤، ٢٥).

مُترجم عن الفرنسية مِنَ الكتاب الثالث مِنَ الجزء السادس والعشرين من مجموعة

PATROLOGIA ORIENTALIS

R. Graffin – F. Nau

Les Homélies Cathédrales de Sévère d'Antioche

Publiées et traduites par
Maurice Brière

مليكه حبيب يوسف　　　　يوسف حبيب

١٩٧١م

حينما أرى بعض الناس يستمعون إلى كلمات الإنجيل بعدم انتباه، ويضحكون بدون سبب من وصايا مُخلصنا، مُعتقدين أنَّ الوصايا مستحيلة وأنها لا تتفق مع الطبيعة، فإني أتعذَّب مثل هؤلاء التُجار الذين بحثوا عن اللآلئ الثمينة حسب قول ربنا، وبعد أن حصلوا على بعضها وأرهقوا أنفسهم جاهدين في الأعمال التُجارية، استسلموا في النهاية للراحة، فرأوا البعض ممَن لا خبرة لهم ولا دراية باستعمال هذه الأشياء حتى لربما يغطون اللؤلؤة الثمينة برصاص عديم القيمة أو بإحدى المواد التي لا بريق لها ولا قيمة أيضًا، فاغتاظوا وغضبوا، ثم هبّوا في حماس ضد هؤلاء الناس الذين لا يتذوقون الجمال وليس لهم به خبرة وهم يصيحون قائلين: "ماذا تفعلون أنتم الذين تخفون بريق اللؤلؤة وتألقها إذ تكسوها مادة قليلة القيمة وتضيفون إليها قُبحًا بدلاً من أن تكسوها جمالاً كنتم تتوقعونه؟ لقد كان يجب أن تؤلِّفوا بين الحجر الذي له بياض الثلج وبين الذهب الذي يُشبه الشمس وبذلك تكملون جمال المنظر الفريد بالتناسق بين الألوان الجميلة".

بين المساكين بالروح والأغنياء المُترفين

فإني كذلك حينما تُقرَأ كلمات الرب التي كتبها لوقا البشير «**طُوبَاكُمْ أَيُّهَا الْمَسَاكِينُ، لأَنَّ لَكُمْ مَلَكُوتَ اللهِ. طُوبَاكُمْ أَيُّهَا الْجِيَاعُ الآنَ لأَنَّكُمْ تُشْبَعُونَ. طُوبَاكُمْ أَيُّهَا الْبَاكُونَ الآنَ لأَنَّكُمْ سَتَضْحَكُونَ. وَلَكِنْ وَيْلٌ لَكُمْ أَيُّهَا الأَغْنِيَاءُ، لأَنَّكُمْ قَدْ نِلْتُمْ عَزَاءَكُمْ**» (لو٦:٢٠، ٢١، ٢٤).

بالاختصار كنت أشعر أنكم من ناحية لم تتوبوا بقلوبكم، ولم تحزنوا بسبب هذه الكلمات كدأبكم، ومن ناحية أخرى سمعت البعض يقول: "حاشا، لن يُصيبني شيء من هذا، أن أصبح فقيرًا أو بائسًا مُحتاجًا، أو أحزن وأبكي موت أحد أقربائي! بل بالعكس أرجو أن أمتلئ بالأموال والخيرات وأتمتع بها، وأرى الغِنى يأتيني من كل جانب، فيطيب لي العيش وأكون مسرورًا، ألهو وأغشى الملاهي، وأروِّح عن نفسي، وتكون حياتي خالية من كل حُزن!".

قول السيد المسيح: «طُوبَاكُمْ أَيُّهَا الْمَسَاكِينُ، لأَنَّ لَكُمْ مَلَكُوتَ اللهِ» (لو٦:٢٠) نور للبصيرة.

أني أصرخ في هؤلاء مثل هذا التاجر، بعد تجارة قد طال بي أمدها، حتى حان لي أن أركن للراحة، إلا أني ما كنت لأحتمل احتقارهم لهذه الأحجار الكريمة والدُرر العظيمة الثمينة.

أيها المُختارون:

إنَّ تلك الكلمات الحية حقيقة، الطاهرة المقدسة السماوية، حينما تقبلها الأنفس الذهبية المنثورة يتألَّق البريق الذي يشع منها، ولكن حينما تسقط في قلوب رصاصية أو بالحري في قلوب طينية، أو في قلوب الخنازير – حتى أستعمل ألفاظًا أكثر مُلاءمة، فهي تختفي وتستتر في ظُلمات عدم التبصُّر، بينما يغمضون أعينهم طواعية، وإن كانوا فتحوها قليلاً ما كان

البرق يمرّ دون أن يُرى. لذلك كان مُخلِّصنا يقول: «لاَ تُعْطُوا الْقُدْسَ لِلْكِلاَبِ، وَلاَ تَطْرَحُوا دُرَرَكُمْ قُدَّامَ الْخَنَازِيرِ، لِئَلا تَدُوسَهَا بِأَرْجُلِهَا وَتَلْتَفِتَ فَتُمَزِّقَكُمْ» (مت٧:٦).

فبعد أن داسوا بأقدامهم لعدم تبصُّرهم بريق الكلمات الإلهية وشوَّهوه ما استطاعوا، لأنهم لم يروا ولم يفهموا، يُحاولون مرارًا كثيرة أن يستغلوا المُناقشة، فيثيرون الاعتراضات، مُعتقدين بذلك أنهم يستطيعون أن يسقطونا ويغلبونا في المعارك.

إن أرادوا فليميلوا آذانهم ويُطهِّروها قليلاً مِنَ الخسة ويُنصتوا إلى رفعة الكلمات الإنجيلية ويستمعوا إلى صوت العقل. لم يُقرِّر الكتاب المقدس أبدًا أنَّ مَن كان صفر اليدين مِنَ الخيرات هو المسكين، ولا عكس ذلك أن الإنسان الممتلئ بالخيرات هو الغني. ولكنه يُعلن الطوبى لذاك الذي يكون مسكينًا في فكره مسكنة تستحق المديح، وديعًا في أسلوبه، يعرف فضل الله فيما أعطاه ولا يشتهي ما لم يُعطَ له. فلو أنَّ أحدًا لا يملك شيئًا ولكنه يشتهي الخيرات، فإنه يكون مختنقًا بشهوة الغِنى، يمتلك القليل ولا يكتفي بالقوت والكِساء حسبما حدَّده قانون الرسول بولس عن الكفاف، إذ يقول: «فَإِنْ كَانَ لَنَا قُوتٌ وَكِسْوَةٌ فَلْنَكْتَفِ بِهِمَا» (١تي٦:٨).

مَن كان هكذا فهو ليس المسكين المُطوَّب، بل هو في الواقع غني بائس، فإنه بسبب الطمع والرغبة في الحصول على أكثر حاجته، يريد في قرارة نفسه أن يكون غنيًا ويتَّجه في ذلك اتجاهًا شريرًا.

فإنَّ ما نجده في إنجيل لوقا البشير بصفة عامة «طُوبَاكُمْ أَيُّهَا الْمَسَاكِينُ، لأَنَّ لَكُمْ مَلَكُوتَ اللهِ» (لو٦:٢٠). يقول متى البشير موضحًا معناه الخاص: «طُوبَى لِلْمَسَاكِينِ بِالرُّوحِ، لأَنَّ لَهُمْ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ» (مت٥:٣).

الأغنياء المغبوطون

فمَن له الخيرات الوفيرة وينعم بامتلاكها، فليسمع بولس الرسول الذي كتب إلى تيموثاوس: «أَوْصِ الأَغْنِيَاءَ فِي الدَّهْرِ الْحَاضِرِ أَنْ لاَ يَسْتَكْبِرُوا، وَلاَ يُلْقُوا رَجَاءَهُمْ عَلَى غَيْرِ يَقِينِيَّةِ الْغِنَى، بَلْ عَلَى اللهِ الْحَيِّ الَّذِي يَمْنَحُنَا كُلَّ شَيْءٍ بِغِنًى لِلتَّمَتُّعِ. وَأَنْ يَصْنَعُوا صَلاَحًا، وَأَنْ يَكُونُوا أَغْنِيَاءَ فِي أَعْمَالٍ صَالِحَةٍ، وَأَنْ يَكُونُوا أَسْخِيَاءَ فِي الْعَطَاءِ كُرَمَاءَ فِي التَّوْزِيعِ، مُدَّخِرِينَ لأَنْفُسِهِمْ أَسَاسًا حَسَنًا لِلْمُسْتَقْبَلِ، لِكَيْ يُمْسِكُوا بِالْحَيَاةِ الأَبَدِيَّةِ» (١تي٦:١٧-١٩).

ومَن ذا الذي يفعل ذلك بالحقيقة؟

هو ذلك الذي يملك مالاً، ليس لنفسه، بل للمحتاجين، فلا يكون مثل ذلك الغني الذي يرثى لحاله، بل يصح عليه أنه ذلك المسكين بالروح ووارث ملكوت السموات.

ألم يكن **أيوب الصديق** في حالة الأزمنة الصعبة وفي سبيل التقوى والفضيلة غير المسلوك يُفكِّر تفكيرًا كاملاً بحسب الإنجيل؟ كان في أحلام

الملوك ينعم بوفرة الممتلكات، وفي عدم اهتمامه بالمادة اِتخذ لنفسه أسلوب الحياة الفقيرة، فلم يكن مُتشبِّثًا بالغنى الذي كان يأخذ طريقه إليه، بل كان يغترف منه بيد سخيَّة غنية ولا يخفيه في الأرض، لكي ينال الحرية، ويقول الرب الذي علَّمه، بعد تجربة القروح الغريبة، مُقرًّا من جهة ولأجل تعليمنا لكي نتمثَّل به من جهة أخرى: «إِنْ كُنْتُ قَدْ جَعَلْتُ الذَّهَبَ عُمْدَتِي أَوْ قُلْتُ لِلإِبْرِيزِ: أَنْتَ مُتَّكَلِي. إِنْ كُنْتُ قَدْ فَرِحْتُ إِذْ كَثُرَتْ ثَرْوَتِي وَلأَنَّ يَدِي وَجَدَتْ كَثِيرًا، فَهَذَا أَيْضًا إِثْمٌ يُعْرَضُ لِلْقُضَاةِ لأَنِّي أَكُونُ قَدْ جَحَدْتُ اللهَ مِنْ فَوْقُ» (أي٣١:٢٤، ٢٥، ٢٨).

فهو من ناحية يُبيِّن بهذه الكلمات أنه يحتقر المادة، ومن ناحية أخرى يبين مقدار الثروة التي كان ينفقها عن سعة بغيَّة أن يصير مسكينًا بالروح، غنيًا في سخاء وكرم ومحبة. فلنستمع إليه يقول: «غَرِيبٌ لَمْ يَبِتْ فِي الْخَارِجِ. فَتَحْتُ لِلْمُسَافِرِ أَبْوَابِي» (أي٣١:٣٢). وأيضًا قبل ذلك: «إِنْ كُنْتُ مَنَعْتُ الْمَسَاكِينَ عَنْ مُرَادِهِمْ أَوْ أَفْنَيْتُ عَيْنَيِ الأَرْمَلَةِ أَوْ أَكَلْتُ لُقْمَتِي وَحْدِي فَمَا أَكَلَ مِنْهَا الْيَتِيمُ! » (أي٣١:١٦، ١٧).

إبراهيم قدوة للأغنياء

بنفس هذا الأسلوب كان أبونا إبراهيم أيضًا غنيًا، فكانت لديه الأملاك الكثيرة من كل نوع، وفضلاً عن ذلك كان مسكينًا بالروح يحتقر المادة كل يوم، بعيدًا عن شهوة الملكية الزائدة عن الحاجة، لدرجة أنه بعد أن حارب

خمسة ملوك وكانوا قد أتوا لمُحاربة سدوم وعمورة، وانتصر عليهم في المعركة وأسرهم، كان **يحتقر الغنيمة** ويقول لملك سدوم الذي كان قد هبّ لمساعدته ويأمل أن يُكرمه بجزء منها: «رَفَعْتُ يَدِي إِلَى الرَّبِّ الإِلَهِ الْعَلِيِّ مَالِكِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، لاَ آخُذَنَّ لاَ خَيْطًا وَلاَ شِرَاكَ نَعْلٍ وَلاَ مِنْ كُلِّ مَا هُوَ لَكَ فَلاَ تَقُولُ: أَنَا أَغْنَيْتُ أَبْرَامَ. لَيْسَ لِي غَيْرَ الَّذِي أَكَلَهُ الْغِلْمَانُ. وَأَمَّا نَصِيبُ الرِّجَالِ الَّذِينَ ذَهَبُوا مَعِي: عَانِرَ وَأَشْكُولَ وَمَمْرَا فَهُمْ يَأْخُذُونَ نَصِيبَهُمْ» (تك١٤: ٢٢-٢٤).

إن هذه التعبيرات وهذه الألفاظ كانت نابعة حقيقة من فكر مسكين بالروح. يقول: "إني أحتقر النصيب الذي يليق بي بسماحة، يكفي خدمي وعشيرتي أن يأكلوا فقط، أما الذين ذهبوا معي في نفس الوقت وساندوني، فليُعطَوا نصيبهم مِنَ الغنيمة". باطل ما يأتي مِنَ المجد الباطل، هل أبدو كريمًا بتقديم هدايا مما للغير.

بل يستطيع المرء أن يُمارس الحياة الفلسفية الحكيمة جيدًا بما له. هذا ما كان يفعله بولس الرسول أيضًا، إذ يوصي الذين يُبشِّرون بالإنجيل والذين يُلازمون المذبح بأن يعيشوا مِنَ الإنجيل ومن المذبح: «أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ فِي الأَشْيَاءِ الْمُقَدَّسَةِ مِنَ الْهَيْكَلِ يَأْكُلُونَ؟ الَّذِينَ يُلاَزِمُونَ الْمَذْبَحَ يُشَارِكُونَ الْمَذْبَحَ. هَكَذَا أَيْضًا أَمَرَ الرَّبُّ: أَنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَ بِالإِنْجِيلِ مِنَ الإِنْجِيلِ يَعِيشُونَ» (١كو٩: ١٣، ١٤). فكان يترك نصيبه بأسلوبه الرفيع

ويقول: «أَمَّا أَنَا فَلَمْ أَسْتَعْمِلْ شَيْئًا مِنْ هَذَا وَلاَ كَتَبْتُ هَذَا لِكَيْ يَصِيرَ فِيَّ هَكَذَا. لأَنَّهُ خَيْرٌ لِي أَنْ أَمُوتَ مِنْ أَنْ يُعَطِّلَ أَحَدٌ فَخْرِي، فَمَا هُوَ أَجْرِي؟ إِذْ وَأَنَا أُبَشِّرُ أَجْعَلُ إِنْجِيلَ الْمَسِيحِ بِلاَ نَفَقَةٍ حَتَّى لَمْ أَسْتَعْمِلْ سُلْطَانِي فِي الإِنْجِيلِ» (١كو٩: ١٥، ١٨).

ومَن يتنازل عما هو خاضع لسلطانه، فإنه يستحق المدح لسماحته، ومَن يكن بلا رحمة حتى فيما يختص بالآخرين يُشجب.

إنَّ أبانا إبراهيم كان كريمًا في الصرف بسبب غناه، وهذا ما تشهد به ممارسته للضيافة، لدرجة أنه كان يجلس عند الظهر بالقرب من باب خيمته (تك١٨) وينتظر لكي يستضيف أحد الغرباء العابرين، وهكذا استضاف بالحقيقة الملائكة كما يقول بولس الرسول، أو بالحري استضاف الله ذاته في شكل رجال وفي شكل ملائكة «لاَ تَنْسُوا إِضَافَةَ الْغُرَبَاءِ، لأَنْ بِهَا أَضَافَ أُنَاسٌ مَلاَئِكَةً وَهُمْ لاَ يَدْرُونَ» (عب١٣: ٢).

هذه حال المساكين بالروح المُطوَّبة، فلا يخضع الغني في غناه لأصحابه ويكون عبدًا مُسخَّرًا في الأعمال. إنَّ الغنى فيما يملك الإنسان من أمره، فيملك الجواد ما يأتيه ويستأثر به حائلاً بينه وبين مقومات البخل، وقد يبلغ بالبخيل الأمر ألا يستطيع أن يُبسِط يده ويُعطي صدقة واحدة لأحد، مثل هذا الغنى يجعل صاحبه يبدو مملوكًا بعد أن كان مالكًا.

كان مُخلِّصنا يدين هذه العبودية التي تستدعي الشفقة، فيقول:

أسرى خدمة المال:

«لاَ يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يَخْدِمَ سَيِّدَيْنِ، لأَنَّهُ إِمَّا أَنْ يُبْغِضَ الْوَاحِدَ وَيُحِبَّ الآخَرَ، أَوْ يُلاَزِمَ الْوَاحِدَ وَيَحْتَقِرَ الآخَرَ. لاَ تَقْدِرُونَ أَنْ تَخْدِمُوا اللهَ وَالْمَالَ» (مت٦:٢٤)، «لاَ يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يَخْدِمَ سَيِّدَيْنِ، لأَنَّهُ إِمَّا أَنْ يُبْغِضَ الْوَاحِدَ وَيُحِبَّ الآخَرَ، أَوْ يُلاَزِمَ الْوَاحِدَ وَيَحْتَقِرَ الآخَرَ. لاَ تَقْدِرُونَ أَنْ تَخْدِمُوا اللهَ وَالْمَالَ» (لو١٦:١٣).

وليس بمُحرَّم أن يصير المرء غنيًا، أما أن يخدم الإنسان شهوة الغنى فيكون بها مُقيَّدًا كعبد حقير، فهذا ما ينهانا عنه.

فلا نكن إذن مسترخين في حياتنا، فاترين في أفكارنا، ولا نحزن، بل نُسرّ بالحري لدى سماع الحكم بالنجاة مِنَ الدينونة: «وَلَكِنْ وَيْلٌ لَكُمْ أَيُّهَا الأَغْنِيَاءُ، لأَنَّكُمْ قَدْ نِلْتُمْ عَزَاءَكُمْ» (لو٦:٢٤)، «فَقَالَ يَسُوعُ لِتَلاَمِيذِهِ: الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّهُ يَعْسُرُ أَنْ يَدْخُلَ غَنِيٌّ إِلَى مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ!» (مت١٩:٢٣).

فإنَّ الكلمة لا تخص كل الذين في وفرة مِنَ الثراء، بل فقط من يضعون كل فكرهم في الخيرات والممتلكات، ويتركون أنفسهم تأسرها الأفكار، وهم ليسوا مساكين بالروح.

وهذا ما بيّنه مرقس الرسول حينما ينقل بوضوح فكرة مُخلِّصنا، فيكتب هذه العبارات: «فَتَحَيَّرَ التَّلاَمِيذُ مِنْ كَلاَمِهِ. فَأَجَابَ يَسُوعُ أَيْضًا

وَقَالَ لَهُمْ: يَا بَنِيَّ، مَا أَعْسَرَ دُخُولَ الْمُتَّكِلِينَ عَلَى الأَمْوَالِ إِلَى مَلَكُوتِ اللّهِ!» (مر١٠:٢٤).

إنَّ ما يُغلق ملكوت السموات أمام الناس ليس هو امتلاكه للخيرات، بل أن يضع ثقته فيها. ومَن ذا الذي يضع ثقته في الأموال إلا الذي لا يسمع كلمة ربنا القائلة: «لاَ تَكْنِزُوا لَكُمْ كُنُوزًا عَلَى الأَرْضِ حَيْثُ يُفْسِدُ السُّوسُ وَالصَّدَأُ، وَحَيْثُ يَنْقُبُ السَّارِقُونَ وَيَسْرِقُونَ. بَلِ اكْنِزُوا لَكُمْ كُنُوزًا فِي السَّمَاءِ، حَيْثُ لاَ يُفْسِدُ سُوسٌ وَلاَ صَدَأٌ، وَحَيْثُ لاَ يَنْقُبُ سَارِقُونَ وَلاَ يَسْرِقُونَ، لأَنَّهُ حَيْثُ يَكُونُ كَنْزُكَ هُنَاكَ يَكُونُ قَلْبُكَ أَيْضًا» (مت٦:١٩-٢١).

ولكن عند ذلك ربما تقول: "ماذا أترك إذن لورثتي؟".

- بقدر ما تركه هذا الفيلسوف العظيم أيوب، وإبراهيم البار، وإسحق ويعقوب أيضًا.

في الواقع أنه لن ينقص شيء مع سخاء نعمة الله حتى يكون في ذلك تعارض مع الجود في عطيتك، إنه يُعطيك آلاف المصادر للخيرات حينما تكون غنيًا، وبما تنفقه في التقوى تكون "مسكينًا بالروح".

أيهما أفضل وأكثر نفعًا، أن تترك ميراثًا لأولادك كنزًا سماويًا، او كنزًا مخفيًا في الأرض يخفي معه قلبك أيضًا؟ الكنز السماوي به نصبح أغنياء في حرص، أو فقراء يحق عليهم الثناء، أولئك الذين يصيرون أغنياء حسب الناموس.

لأنَّ الذين كانوا من عشيرة إبراهيم كانوا متنبهين لهذه النقطة، كانوا يتركون ميراثًا مملوءًا بركة لخلفهم.

الخيرات الأرضية تعقب البركة:

حينما كان إسحق يُبارِك يعقوب كان يبتدئ بالبركة أي الميراث بالسماء: «فَلْيُعْطِكَ اللهُ مِنْ نَدَى السَّمَاءِ وَمِنْ دَسَمِ الأَرْضِ وَكَثْرَةَ حِنْطَةٍ وَخَمْرٍ» (تك٢٧:٢٨). لأنَّ كل خيرات الأرض تُضاف أيضًا إلى خيرات السماء في نفس البركة، لأنَّ كل الباقي يُزاد للذين يطلبون ملكوت الله: «لَكِنِ اطْلُبُوا أَوَّلاً مَلَكُوتَ اللهِ وَبِرَّهُ، وَهَذِهِ كُلُّهَا تُزَادُ لَكُمْ» (مت٦:٣٣).

لكن الترتيب بالنسبة لعيسو كان عكسيًا، فقد ظهر أنه غير مستحق للبركة، ولم يبدأ الميراث بالسماء. فماذا قال له أبوه؟ «هُوَذَا بِلاَ دَسَمِ الأَرْضِ يَكُونُ مَسْكَنُكَ وَبِلاَ نَدَى السَّمَاءِ مِنْ فَوْقُ» (تك٢٧:٣٩).

أرأيت كيف يسبق مَن يلي نزولاً هنا الأعلى، وذلك لا يكون أيضًا خاليًا تمامًا من فيض الله بسبب سماحة كرم الله، الذي يُمطِر على الأبرار والأشرار، ويجعل الشمس تُشرِق على الأشرار وعلى الأبرار «فَإِنَّهُ يُشْرِقُ شَمْسَهُ عَلَى الأَشْرَارِ وَالصَّالِحِينَ، وَيُمْطِرُ عَلَى الأَبْرَارِ وَالظَّالِمِينَ» (مت٥:٤٥).

تأمل إذن كيف تتلاءم دقة كلمات الكتاب المقدس مع ما يحق عليها. فمن ناحية قال بشأن ما بدأه ببركة السماء تلك كلمة البركة التي وُضعت في

المكان الأول: «فَلْيُعْطِكَ اللهُ مِنْ نَدَى السَّمَاءِ وَمِنْ دَسَمِ الأَرْضِ وَكَثْرَةَ حِنْطَةٍ وَخَمْرٍ» (تك٢٧:٢٨)، ومن ناحية أخرى لم يضع أولاً فيما بدأه بالأرض هذه الكلمة «لِيُعْطِكَ اللهُ»، بل «هُوَذَا بِلاَ دَسَمِ الأَرْضِ يَكُونُ مَسْكَنُكَ وَبِلاَ نَدَى السَّمَاءِ مِنْ فَوْقُ» (تك٢٧:٣٩). ذلك أنه حينما يكون هناك الإقدام للعالم فقط لا تكون هناك بركة مثالية عالية.

المساكين بالروح لا يُغلِّظون أفكارهم بالانتفاخ:

إذن طوبي للمساكين بالروح، الودعاء في روحهم، الذين هم معتدلون، ولا يُغلِّظون أفكارهم بانتفاخ الغنى ولا يتعلَّقون بما لا يبقى وبما يزول. أي الفقراء بسبب قانون الروح القدس، وِفقًا لما قاله مُخلِّصنا الصالح لتلاميذه: «اَلرُّوحُ هُوَ الَّذِي يُحْيِي. أَمَّا الْجَسَدُ فلاَ يُفِيدُ شَيْئًا. اَلْكلاَمُ الَّذِي أُكَلِّمُكُمْ بِهِ هُوَ رُوحٌ وَحَيَاةٌ، وَلَكِنْ مِنْكُمْ قَوْمٌ لاَ يُؤْمِنُونَ» (يو٦:٦٣، ٦٤).

مفهوم الروح في الكتاب

فإنَّ كلمة روح حينما نجدها في الكتب الإلهية بطريقة غير مُحدَّدة، دون أن يكتب معها شيء، فهي تعني على العموم إما روح الإنسان، وإما روح الله القدوس.

فعن المعنى الأول يُشير إليها ما هو مكتوب في سفر زكريا النبي فيما يختص بالله: «بَاسِطُ السَّمَاوَاتِ وَمُؤَسِّسُ الأَرْضِ وَجَابِلُ رُوحِ الإِنْسَانِ فِي دَاخِلِهِ» (زك١٢:١).

ويُشبه ذلك أيضًا ما قاله الملك حَزَقيا حينما كان مريضًا وكانت روحه على وشك أن تخرج من جسده، يقول إشعياء النبي: «مَسْكَنِي قَدِ انْقَلَعَ وَانْتَقَلَ عَنِّي كَخَيْمَةِ الرَّاعِي. لَفَفْتُ كَالْحَائِكِ حَيَاتِي. مِنَ النَّوْلِ يَقْطَعُنِي. النَّهَارَ وَاللَّيْلَ تُفْنِينِي» (إش٣٨:١٢).

هذا أيضًا ما قيل في سفر باروخ النبي: «إِفتَحْ عَينَيكَ وانظُرْ، فلَيسَ الأَمْواتُ في مَثْواهم، وقد أُخِذَت أَرواحُهم عن أَحْشائِهم، يَعتَرِفونَ لِلرَّبِّ بالمَجدِ والبِرّ، بلِ النَّفْسُ الكَئيبةُ لِلغاية، والَّذي يَمْشي مُنحَنِيًا ضَعيفًا، والعُيونُ الكَليلة، والنَّفْسُ الجائِعة، همُ الَّذينَ يَعتَرِفونَ لَكَ بالمَجْدِ والبرِّ يا رَبّ» (با٢:١٧، ١٨).

ويُشبه ذلك أيضًا ما قاله ربنا في الأناجيل: «أَمَّا الرُّوحُ فَنَشِيطٌ وَأَمَّا الْجَسَدُ فَضَعِيفٌ» (مت٢٦:٤١). وما كتبه بولس الرسول إلى أهل كورنثوس: «لأَنْ مَنْ مِنَ النَّاسِ يَعْرِفُ أُمُورَ الإِنْسَانِ إِلاَّ رُوحُ الإِنْسَانِ الَّذِي فِيهِ؟ هَكَذَا أَيْضًا أُمُورُ اللهِ لاَ يَعْرِفُهَا أَحَدٌ إِلاَّ رُوحُ اللهِ» (١كو٢:١١).

وعن المعنى الثاني تشير أيضًا بطريقة غير مُحَدَّدة تلك الكلمات التي قالها الرسول: «اسْلُكُوا بِالرُّوحِ فَلاَ تُكَمِّلُوا شَهْوَةَ الْجَسَدِ» (غلا٥:١٦). وأيضًا: «غَيْرَ مُتَكَاسِلِينَ فِي الاجْتِهَادِ حَارِّينَ فِي الرُّوحِ عَابِدِينَ الرَّبَّ» (رو١٢:١١). وأيضًا: «وَأَمَّا ثَمَرُ الرُّوحِ فَهُوَ: مَحَبَّةٌ فَرَحٌ سَلاَمٌ، طُولُ أَنَاةٍ لُطْفٌ صَلاَحٌ، إِيمَانٌ» (غلا٥:٢٢). وفي مكان آخر: «لأَنَّ الرُّوحَ يَفْحَصُ كُلَّ شَيْءٍ حَتَّى أَعْمَاقَ اللهِ» (١كو٢:١٠).

وقد حاول البعض مع ذلك أن يفهموا المقصود بلفظة الروح في قوله: «طُوبَى لِلْمَسَاكِينِ بِالرُّوحِ» (مت٥:٣) إنه الروح الشرير الذي كان يقول عنه بولس الرسول حينما كتب إلى أهل أفسس: «الَّتِي سَلَكْتُمْ فِيهَا قَبْلاً حَسَبَ دَهْرِ هَذَا الْعَالَمِ، حَسَبَ رَئِيسِ سُلْطَانِ الْهَوَاءِ، الرُّوحِ الَّذِي يَعْمَلُ الآنَ فِي أَبْنَاءِ الْمَعْصِيَةِ» (أف٢:٢). حتى أن المُطوَّبين يكونون من أولئك الفقراء الذين تحرَّروا من روح العدو ومن كل حركة وكل هوى شرير.

لكن هذا ليس صحيحًا. فإننا لا نجد فعلاً في أي مكان آخر مِنَ الكتب المقدسة أنَّ الإشارة إلى الروح الشرير والوسواس تكون بطريقة عامة غير محدودة، بل تكون حتمًا مع إضافة مثل: «إِذَا خَرَجَ الرُّوحُ النَّجِسُ مِنَ الإِنْسَانِ يَجْتَازُ فِي أَمَاكِنَ لَيْسَ فِيهَا مَاءٌ، يَطْلُبُ رَاحَةً وَلاَ يَجِدُ» (مت١٢:٤٣)، «مَتَى خَرَجَ الرُّوحُ النَّجِسُ مِنَ الإِنْسَانِ، يَجْتَازُ فِي أَمَاكِنَ لَيْسَ فِيهَا مَاءٌ يَطْلُبُ رَاحَةً، وَإِذْ لاَ يَجِدُ يَقُولُ: أَرْجِعُ إِلَى بَيْتِي الَّذِي خَرَجْتُ مِنْهُ» (لو١١:٢٤). وأيضًا: «وَلَمَّا خَرَجَ مِنَ السَّفِينَةِ لِلْوَقْتِ اسْتَقْبَلَهُ مِنَ الْقُبُورِ إِنْسَانٌ بِهِ رُوحٌ نَجِسٌ» (مر٥:٢)، «لأَنَّهُ أَمَرَ الرُّوحَ النَّجِسَ أَنْ يَخْرُجَ مِنَ الإِنْسَانِ» (لو٨:٢٩). وأيضًا: «فَلَمَّا رَأَى يَسُوعُ أَنَّ الْجَمْعَ يَتَرَاكَضُونَ، انْتَهَرَ الرُّوحَ النَّجِسَ قَائِلاً لَهُ: «أَيُّهَا الرُّوحُ الأَخْرَسُ الأَصَمُّ، أَنَا آمُرُكَ: اخْرُجْ مِنْهُ وَلاَ تَدْخُلْهُ أَيْضًا!» (مر٩:٢٥).

بالروح القدس تُطرَد الروح الشريرة

يُمكننا أن نفهم بتقوى أيضًا الآية التي نحن بصددها حسب هذا الرأي، فيكون معناها "طوبى للذين بواسطة الروح القدس قد طردوا بعيدًا عنهم جميع الأهواء المُخزية وهم فقراء منها وكانوا أطهارًا يقولون الحق بالأكثر" لأنه حيث يسكن الروح الإلهي يكون حتمًا هروب الأعداء وتضاءلهم والقضاء عليهم.

لنصر إذن «مَسَاكِينِ بِالرُّوحِ» بكل وسيلة، ولتكن لنا أفكار معتدلة، لتُخفِّف من حمل المال الثقيل ومن أحمال الممتلكات والأهواء، حتى لا يُغلَق بكثرتها وكبر حجومها أمامنا الباب الضيق المحصور لملكوت السموات: «مَا أَضْيَقَ الْبَابَ وَأَكْرَبَ الطَّرِيقَ الَّذِي يُؤَدِّي إِلَى الْحَيَاةِ، وَقَلِيلُونَ هُمُ الَّذِينَ يَجِدُونَهُ!» (مت٧:١٤)، إذن «طُوبَى لِلْمَسَاكِينِ بِالرُّوحِ» (مت٥:٣).

تخيلات المجد الباطل:

في الواقع أنَّ الذين يحتقرون امتلاك المادة تخاذلاً منهم في سبيل الروح والقوانين الإلهية، ويصرفون من أجل شهوات الجسد وتخيّلات المجد الباطل باسراف كثير بلا فائدة، هؤلاء يلزمنا أن نرثي لحالهم من أجل اسرافهم، كما أننا لا ندعو مُحبي اللهو كرماء.

ويبدو لي أنَّ دلالة لفظة المساكين في قول لوقا البشير بصفة عامة: «طُوبَاكُمْ أَيُّهَا الْمَسَاكِينُ، لأَنَّ لَكُمْ مَلَكُوتَ اللهِ» (لو٦:٢٠) ليست مطلقة ولا ينقصها التحديد الخاص حسب قول متى البشير: «طُوبَى لِلْمَسَاكِينِ بِالرُّوحِ» (مت٥:٣) ففي الواقع ورد بعد هذه التطويبات قوله: «**طُوبَاكُمْ إِذَا أَبْغَضَكُمُ النَّاسُ، وَإِذَا أَفْرَزُوكُمْ وَعَيَّرُوكُمْ، وَأَخْرَجُوا اسْمَكُمْ كَشِرِّيرٍ مِنْ أَجْلِ ابْنِ الإِنْسَانِ**» (لو٦:٢٢)، وبهذا تشمل كل التطويبات بنفس الطريقة، وفضلاً عن ذلك فهي تتفق مع جميعها.

اشتراط الطوبى بالارتباط بالمسيح

«طُوبَاكُمْ أَيُّهَا الْمَسَاكِينُ» (لو٦:٢٠) يجب أن نفهم أنه مكتوب أيضًا معها: «مِنْ أَجْلِ ابْنِ الإِنْسَانِ». بمعنى «طُوبَاكُمْ أَيُّهَا الْمَسَاكِينُ» بسبب «ابْنِ الإِنْسَانِ» وهذا يعني نفس الشيء كقوله: «طُوبَى لِلْمَسَاكِينِ بِالرُّوحِ» (مت٥:٣).

الجحود باب التجديف

كثيرون فعلاً ليسوا مساكين من أجل ابن الإنسان أو من أجل المسيح، لا يشكرون الله في حالة الفقر الذي يأتي بسبب الحرمان والضيق، ولا يعرفون الجميل وهم يُجدِّفون ضد الله. طوبى للرحماء من أجل ابن الإنسان «لِلرُّحَمَاءِ، لأَنَّهُمْ يُرْحَمُونَ» (مت٥:٧). يروق للبعض أن يفعلوا ذلك لكي

يظهروا للناس، أولئك ليسوا مُطوَّبين. «طُوبَى لِصَانِعِي السَّلاَمِ» (مت٥:٩) إذا كانت وداعتهم من أجل ابن الإنسان.

في الواقع إننا نرى البعض يؤسسون السلام مع بعضهم البعض على القسوة والاتفاق السوء الذي يقوله دواد النبي في المزامير: «لأَنِّي غِرْتُ مِنَ الْمُتَكَبِّرِينَ إِذْ رَأَيْتُ سَلاَمَةَ الأَشْرَارِ» (مز٧٣:٣)، «طُوبَى لِلأَنْقِيَاءِ الْقَلْبِ» (مت٥:٨) من أجل ابن الإنسان.

لا يُنقى القلب بدون المسيح:

مَن يستطيع أن يكون نقي القلب دون أن ينظر نحو ابن الإنسان؟ فإذا حوَّل المرء نظره عن التأمل في ابن الإنسان يصير خارجًا وبعيدًا عن نقاوة القلب بالكلية، لذلك كتب يوحنا اللاهوتي: «أَيُّهَا الأَحِبَّاءُ، الآنَ نَحْنُ أَوْلاَدُ اللهِ، وَلَمْ يُظْهَرْ بَعْدُ مَاذَا سَنَكُونُ. وَلَكِنْ نَعْلَمُ أَنَّهُ إِذَا أُظْهِرَ نَكُونُ مِثْلَهُ، لأَنَّنَا سَنَرَاهُ كَمَا هُوَ. وَكُلُّ مَنْ عِنْدَهُ هَذَا الرَّجَاءُ بِهِ، يُطَهِّرُ نَفْسَهُ كَمَا هُوَ طَاهِرٌ» (١يو٣:٢، ٣) .

البقاء في الطهارة إكرامًا لجسد المسيح:

وكتب أيضًا إغناطيوس لابس الإله إلى بوليكارب بهذه العبارات: "إذا كان أحد يستطيع أن يبقى في الطهارة إكرامًا لجسد ربنا يسوع، فليبق في الاتضاع، لكن إن كان يفتخر فقد ضاع". فإنه يبدو في الواقع أن بقاءه في الطهارة ليس من أجل ابن الإنسان.

شواهد الوداعة:

«طُوبَى لِلْوُدَعَاءِ» (مت٥:٥) من أجل ابن الإنسان. فإنَّ أولئك هم الذين بسبب القوانين نفسها يحرمون الغضب، والضجّة والحقد والتجديف وكل قساوة وما أوضحه بولس الرسول تفصيلاً: «لِيُرْفَعْ مِنْ بَيْنِكُمْ كُلُّ مَرَارَةٍ وَسَخَطٍ وَغَضَبٍ وَصِيَاحٍ وَتَجْدِيفٍ مَعَ كُلِّ خُبْثٍ» (أف٤:٣١).

هؤلاء هم الذين يجب أن نطوّبهم، وليس أولئك الذين يشبهون المجانين عديمي الإحساس، فقد أصبحوا خارج الطبيعة. لأنَّ هؤلاء بحق لن ينالوا أكاليل الفضيلة كما أنه لن يكفي ما يُصيبهم مِنَ العقاب من أجل القسوة.

«طُوبَى لِلْجِيَاعِ وَالْعِطَاشِ إِلَى الْبِرِّ» (مت٥:٦) مِنَ المؤكَّد أن ذلك يكون من أجل ابن الإنسان. فإنَّ الذين يطلبون المسيح وهم جياع وعطشى إليه، يبحثون عن البر الحقيقي وليس عما يسر الناس مطلقًا، الأمر الذي يتسبَّب عنه مرارًا كثيرة الكذب. لأنَّ كثيرين بعد أن ألقوا المقالات الطويلة عن البر، والعدل، لم يستطيعوا أن يجدوا ما هو عادل حقًّا.

بهذا المعنى يُعلِّمنا سفر المزامير المقدس كيف نُميِّز العدل الحقيقي: «تُحَطِّمُهُمْ بِقَضِيبٍ مِنْ حَدِيدٍ. مِثْلَ إِنَاءِ خَزَّافٍ تُكَسِّرُهُمْ» (مز٢:٩). كذلك فإن هذه العبارات: «طُوبَاكُمْ أَيُّهَا الْبَاكُونَ الآنَ لأَنَّكُمْ سَتَضْحَكُونَ» (لو٦:٢١) وأيضًا: «طُوبَى لِلْحَزَانَى، لأَنَّهُمْ يَتَعَزَّوْنَ» (مت٥:٤) متَّفقة مع نفس المعنى، ويُفهم منها أيضًا أنها من أجل ابن الإنسان.

وفي الواقع ليست كل الأحزان وهي أصل تعبنا ودموعنا، تأتي من أجل ابن الإنسان أو نُثاب عنها الطوبى من عند الله، وفي ذلك كان بولس الرسول أيضًا يقول:

الحزن بحسب مشيئة الله

«لأَنَّ الْحُزْنَ الَّذِي بِحَسَبِ مَشِيئَةِ اللهِ يُنْشِئُ تَوْبَةً لِخَلاَصٍ بِلاَ نَدَامَةٍ، وَأَمَّا حُزْنُ الْعَالَمِ فَيُنْشِئُ مَوْتًا» (٢كو٧:١٠). ومن الناس مَن يحزن من أجل العالم ويأسف على الحرمان من شهوات الجسد ويجعل من خسارته لشيء مِنَ الأشياء السارة سببًا لأنينه، هكذا كان الإسرائيليون حينما تذكروا أواني اللحم في مصر، كانوا يبكون في الصحراء ويثيرون نهم بطونهم الشرهة ويطلبون من موسى أن يُشبِع رغبتهم، حتى قال موسى لله «مِنْ أَيْنَ لِي لَحْمٌ حَتَّى أُعْطِيَ جَمِيعَ هَذَا الشَّعْبِ. لأَنَّهُمْ يَبْكُونَ عَلَيَّ قَائِلِينَ: أَعْطِنَا لَحْمًا لِنَأْكُلَ» (عد١١:١٣).

الحزن المكروه

ويقع في ذلك الحزن المُتبلِّد المكروه المشجوب أيضًا أولئك الذين يبقون صامتين بسبب عطايا تافهة بسيطة ويشتهون أموال الغير ظلمًا، كما كتب آخاب ملك إسرائيل الذي اشتهى أن يأخذ كرم نابوت دون موافقته، يقول الكتاب: «فَدَخَلَ أَخْآبُ بَيْتَهُ مُكْتَئِبًا مَغْمُومًا مِنْ أَجْلِ قَوْلِ نَابُوتَ

الْيَزْرَعِيلِيِّ: «لاَ أُعْطِيكَ مِيرَاثَ آبَائِي». وَاضْطَجَعَ عَلَى سَرِيرِهِ وَحَوَّلَ وَجْهَهُ وَلَمْ يَأْكُلْ خُبْزًا» (١مل٢١:٤) فنال موضوع شهوته بعد أن قتل هذا الرجل.

بهذا الحزن المكروه مِنَ الله نجد أيضًا أولئك الذين ينتحبون على موت أحبائهم في غير اعتدال أو لياقة، فيجلبون التجديف وليس الإيمان فيما يختص برجاء القيامة، وهم الذين يقول عنهم بولس الرسول: «ثُمَّ لاَ أُرِيدُ أَنْ تَجْهَلُوا أَيُّهَا الإِخْوَةُ مِنْ جِهَةِ الرَّاقِدِينَ، لِكَيْ لاَ تَحْزَنُوا كَالْبَاقِينَ الَّذِينَ لاَ رَجَاءَ لَهُمْ» (١تس٤:١٣).

الحزن على الخطأ

مَن هو إذن مِنَ الحزانى يكون مغبوطًا يبكي من أجل ابن الإنسان؟ إنه ذلك الذي يسكب الدموع على خطاياه ويطلب أن يتطهَّر ويكون قريبًا مِنَ المسيح، وكان سبب حزنه هو الانفصال عن الله لأنه أخطأ، يقول مع داود: «لأَنَّنِي أُخْبِرُ بِإِثْمِي وَأَغْتَمُّ مِنْ خَطِيَّتِي» (مز٣٨:١٨)، «جَعَلْتُ لِبَاسِي مِسْحًا وَصِرْتُ لَهُمْ مَثَلاً» (مز٦٩:١١)، «كَمَنْ يَنُوحُ عَلَى أُمِّهِ انْحَنَيْتُ حَزِينًا» (مز٣٥:١٤)، «جَدَاوِلُ مِيَاهٍ جَرَتْ مِنْ عَيْنَيَّ لأَنَّهُمْ لَمْ يَحْفَظُوا شَرِيعَتَكَ» (مز١١٩:١٣٦).

فإنه بالتطهير بمثل هذه المُمارسات يرتفع الإنسان إلى درجة كبيرة ويتنهَّد حُبًا في الآخرين أيضًا الذين يستدعي حالهم الأنين، ويقول مُرنِّمًا: «الْحَمِيَّةُ أَخَذَتْنِي بِسَبَبِ الأَشْرَارِ تَارِكِي شَرِيعَتِكَ» (مز١١٩:٥٣). بهذه

الطريقة أيضًا كان إرميا النبي حزينًا إذ يرى مواطنيه يُخطئون ويفرحون، يقول: «لَمْ أَجْلِسْ فِي مَحْفَلِ الْمَازِحِينَ مُبْتَهِجًا. مِنْ أَجْلِ يَدِكَ جَلَسْتُ وَحْدِي لأَنَّكَ قَدْ مَلأْتَنِي غَضَبًا» (إر١٥:١٧).

كذلك كان صموئيل النبي وقد كان يرى منذ طفولته ما هو خفي، وأضحى مشهورًا بين الأنبياء والقضاة، فإنه عندما رأى شاول الذي كان قد مسحه ملكًا، قد أخطأ وكان مُسيئًا لاحتقاره وصايا الله، وكان مرفوضًا بعيدًا عن رضى الله، فبينما كان صموئيل النبي يحيد عنه كان يبكي على خطيته، إلى أن كشف الله له أن هذه الخطية لا شفاء منها. ويجدر بنا أن نستمع إلى كلمات الكتاب المُلهَم به مِنَ الله: «وَلَمْ يَعُدْ صَمُوئِيلُ لِرُؤْيَةِ شَاوُلَ إِلَى يَوْمِ مَوْتِهِ، لأَنَّ صَمُوئِيلَ نَاحَ عَلَى شَاوُلَ، وَالرَّبُّ نَدِمَ لأَنَّهُ مَلَّكَ شَاوُلَ عَلَى إِسْرَائِيلَ. فَقَالَ الرَّبُّ لِصَمُوئِيلَ: «حَتَّى مَتَى تَنُوحُ عَلَى شَاوُلَ، وَأَنَا قَدْ رَفَضْتُهُ عَنْ أَنْ يَمْلِكَ عَلَى إِسْرَائِيلَ؟ امْلأْ قَرْنَكَ دُهْنًا وَتَعَالَ أُرْسِلْكَ إِلَى يَسَّى الْبَيْتَلَحْمِيِّ، لأَنِّي قَدْ رَأَيْتُ لِي فِي بَنِيهِ مَلِكًا» (١صم١٥:٣٥، ١:٣٦).

بنفس هذا الأسلوب أيضًا كان بولس الرسول يتصرَّف حينما كتب إلى أهل كورنثوس: «أَنْ يُذِلَّنِي إِلَهِي عِنْدَكُمْ، إِذَا جِئْتُ أَيْضًا وَأَنُوحُ عَلَى كَثِيرِينَ مِنَ الذِينَ أَخْطَأُوا مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَتُوبُوا عَنِ النَّجَاسَةِ وَالزِّنَا وَالْعَهَارَةِ الَّتِي فَعَلُوهَا» (٢كو١٢:٢١).

الحزن لاسترداد كرامة النفس

توجد أيضًا درجة عليا عند صفوة الذين يشعرون بالحزن وهم مِنَ المغبوطين. فقد يأخذ الإنسان في اعتباره كرامته بعد أن يُطهِّر نفسه مِنَ المادة، ويعرف لنفسه كرامتها، وكيف أنها بعد أن سقطت مِنَ الفردوس ونُبذت بعيدًا من نعمة الخلود، لبست قمصان الجلد التي ترمز إلى حالة الموت، فيشتهي الانطلاق مع المسيح كقول بولس الرسول: «فَإِنِّي أَنَا الآنَ أُسْكَبُ سَكِيبًا، وَوَقْتُ انْحِلاَلِي قَدْ حَضَرَ» (٢تي٤:٦)، «فَإِنِّي مَحْصُورٌ مِنَ الاثْنَيْنِ: لِيَ اشْتِهَاءٌ أَنْ أَنْطَلِقَ وَأَكُونَ مَعَ الْمَسِيحِ. ذَاكَ أَفْضَلُ جِدًّا» (في١:٢٣)، «فَإِنَّنَا نَحْنُ الَّذِينَ فِي الْخَيْمَةِ نَئِنُّ مُثْقَلِينَ، إِذْ لَسْنَا نُرِيدُ أَنْ نَخْلَعَهَا بَلْ أَنْ نَلْبَسَ فَوْقَهَا، لِكَيْ يُبْتَلَعَ الْمَائِتُ مِنَ الْحَيَاةِ» (٢كو٥:٤).

عطش النفس إلى الله

كان **داود النبي** أيضًا يتألم من جرّاء هذا الحنين والشوق، إذ قال: «عَطِشَتْ نَفْسِي إِلَى اللهِ إِلَى الإِلهِ الْحَيِّ. مَتَى أَجِيءُ وَأَتَرَاءَى قُدَّامَ اللهِ! صَارَتْ لِي دُمُوعِي خُبْزًا نَهَارًا وَلَيْلاً إِذْ قِيلَ لِي كُلَّ يَوْمٍ أَيْنَ إِلهُكَ» (مز٤٢:٢، ٣).

وأنطونيوس العظيم أيضًا كان يتحمَّل حينما كان يصعد وسط أمواج حياة النسك الطاهر، حتى درجة التحرُّر مِنَ الجسد، وكان يفكر فيما يليق برفعة الروح، وكان يُجهِد نفسه وينتحب في كل مرة يضطر إلى أن ينزل إلى

طعام الجسد. وقد كُتب عنهم: «طُوبَاكُمْ أَيُّهَا الْبَاكُونَ الآنَ لأَنَّكُمْ سَتَضْحَكُونَ» (لو٦:٢١).

ويدعو لوقا السرور والتعزية (**ضحكًا**) بينما لم يكتب متى البشير «لأَنَّكُمْ سَتَضْحَكُونَ»، بل «لأَنَّهُمْ يَتَعَزَّوْنَ» (مت٥:٥).

ويدعو الكتاب الإلهي عادة السرور ضحكًا، لذلك بعد أن ولدت سارة إسحق، قالت: «قَدْ صَنَعَ إِلَيَّ اللهُ ضِحْكًا. كُلُّ مَنْ يَسْمَعُ يَضْحَكُ لِي» (تك٢١:٦). وقال أيوب أيضًا عن الله: «عِنْدَمَا يَمْلأُ فَمَكَ ضَحِكًا وَشَفَتَيْكَ هُتَافًا» (أي٨:٢١).

أما ضحك الجهلاء، فيشجبه سفر الحكمة قائلاً: «لأَنَّهُ كَصَوْتِ الشَّوْكِ تَحْتَ الْقِدْرِ هَكَذَا ضِحْكُ الْجُهَّالِ هَذَا أَيْضًا بَاطِلٌ.» (جا٧:٦).

أين هم أولئك الذين يُضيِّعون طول اليوم في مشاهدة العروض، ويذهبون ليلاً إلى أماكن اللهو الدنس، ويصيحون مثل الغربان بكلمات مضحكة، إنهم قوم ممقوتون يجلبون العار على الصغار فضلاً عن الرجال الكاملين؟

لكني ربما أستمع إلى مَن يردّ عليّ في ذلك قائلاً: "لماذا تشتمنا دون أن تكون أنت ذاتك مجروحًا في شيء؟ أنستهزئ بالاجتماعات التي تتم في الكنيسة؟ أكنا نحث غيرنا على الذهاب إلى الملاهي؟ ألا فاصمت إذن كما إننا صامتون".

من السهل أن نقول لهم: "أنتم طريق منزلق ينحدر إلى أسفل، هو طريق الملذّات يجرف فجأة الكثيرين مرة واحدة في غير حاجة إلى أي كلمة أخرى. أما أنا فإذ أُدرَّب في طريق الفضيلة المُتعِب الوعر ذي المنحدرات، فإني أحتاج إلى أوتار روحانية كثيرة، حتى بعد جهد أجذب واحدًا واحدًا إلى المستويات العُليا. فليس يكتسح النهر في فيضانه السهول المُغطّاة بالسنابل والكروم والأشجار التي تُثمِر الفاكهة وغير المثمرة، إذا أغلف الزارع المدخل أمام المياة الجارفة".

لنكن هادئين إذن ونتوقف عن الضحك غير اللائق وعن الإباحية، قبل أن يجئ الموت الذي لا مفر منه، ولنحزن حقًا في غير مُعاناة الجهَّال غير المتعلمين ذوي الأفكار السقيمة، ونسمع كلمات الأناجيل المقدسة القائلة: «طُوبَاكُمْ أَيُّهَا الْبَاكُونَ الآنَ لأَنَّكُمْ سَتَضْحَكُونَ» (لو٦:٢١)، «طُوبَى لِلْحَزَانَى، لأَنَّهُمْ يَتَعَزَّوْنَ» (مت٥:٤).

المجد والتسبيح للمسيح الذي يرفعنا إلى مثل هذه الرفعة وإلى هذا السمو في الفضيلة في حياة النسك. له المجد إلى الأبد آمين.



القديس باسيليوس
والقديس إغريغوريوس
الثاؤلوغوس الناطق بالإلهيات

سلسلة مقالات الأنبا ساويرس

البطريرك الأنطاكي

٢٣

القديس باسيليوس

والقديس إغريغوريوس الثاؤلوغوس

الناطق بالإلهيات

مُترجم عن الفرنسية مِنَ الكتاب الثالث الثالث مِنَ الجزء السادس والعشرين من مجموعة

PATROLOGIA ORIENTALIS.

R. Graffin – F. Nau

Les Homélies Cathédrales de Sévère d'Antioche

Publiées et traduites par Maurice Brière

Homélie CXVI

مليكه حبيب يوسف　　　　يوسف حبيب

١٩٧٠م

أفتكر حقًا أن اليوم الحاضر يوحي إليّ في كل عام ليس بذكرى باسيليوس وإغريغوريوس فحسب، بل بذكرى رئاسة الكهنوت. هذا يوم التكفير، مثله مثل اليوم المذكور في الناموس الذي كان بموجبه يدخل رئيس الكهنة إلى قدس الأقداس مرة واحدة في كل سنة في اليوم العاشر مِنَ الشهر السابع، أي في الهيكل الكامل المُبَارك الطاهر، «وَيَكُونُ لَكُمْ فَرِيضَةً دَهْرِيَّةً أَنَّكُمْ فِي الشَّهْرِ السَّابِعِ فِي عَاشِرِ الشَّهْرِ تُذَلِّلُونَ نُفُوسَكُمْ وَكُلَّ عَمَلٍ لاَ تَعْمَلُونَ: الْوَطَنِيُّ وَالْغَرِيبُ النَّازِلُ فِي وَسَطِكُمْ» (لا١٦:٢٩).

فإنَّ العدد "سبعة" إشارة إلى القداسة والبركة والطهارة. والكتاب الموحى به مِنَ الله يشهد بذلك إذ يقول: «**وَبَارَكَ اللهُ الْيَوْمَ السَّابِعَ وَقَدَّسَهُ لأَنَّهُ فِيهِ اسْتَرَاحَ مِنْ جَمِيعِ عَمَلِهِ الَّذِي عَمِلَ اللهُ خَالِقًا**» (تك٢:٣).

ويروي الكتاب المقدس أنَّ **نوحًا** بعد أن بنى الفلك لكي يسبح ويسير مع السيل العجيب غير العادي، كان قد صدر إليه الأمر بأن يُدخل إليه ضمن الحيوانات الطاهرة والطيور، سبعة أزواج أي ذكور وأناثها «مِنْ جَمِيعِ الْبَهَائِمِ الطَّاهِرَةِ تَأْخُذُ مَعَكَ سَبْعَةً سَبْعَةً ذَكَرًا وَأُنْثَى. وَمِنَ الْبَهَائِمِ الَّتِي لَيْسَتْ بِطَاهِرَةٍ اثْنَيْنِ: ذَكَرًا وَأُنْثَى. وَمِنْ طُيُورِ السَّمَاءِ أَيْضًا سَبْعَةً سَبْعَةً: ذَكَرًا وَأُنْثَى. لاِسْتِبْقَاءِ نَسْلٍ عَلَى وَجْهِ كُلِّ الأَرْضِ» (تك٧:٢، ٣).

ويشير من جهة أخرى العدد "عشرة" إلى الكمال، كما تُعلِّمنا بذلك تقدمة العشور، وقول **يعقوب** الذي كان أول من نذر لله: «وَهَذَا الْحَجَرُ الَّذِي أَقَمْتُهُ عَمُودًا يَكُونُ بَيْتَ اللهِ وَكُلُّ مَا تُعْطِينِي فَإِنِّي أُعَشِّرُهُ لَكَ»

(تك٢٨:٢٢). وبالحري كان **إبراهيم** من قبله الذي أعطى لملكي صادق عُشر غنيمته «وَمُبَارَكٌ اللهُ الْعَلِيُّ الَّذِي أَسْلَمَ أَعْدَاءَكَ فِي يَدِكَ. فَأَعْطَاهُ عُشْرًا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ» (تك١٤:٢٠).

والناموس أيضًا يحتوي عشر وصايا، وأيضًا بذار كلمة الإنجيل التي إذا كان مقدارها عشر عشرات أي مائة تأتي بثمر كامل: «وَسَقَطَ آخَرُ عَلَى الأَرْضِ الْجَيِّدَةِ فَأَعْطَى ثَمَرًا، بَعْضٌ مِئَةً وَآخَرُ سِتِّينَ وَآخَرُ ثَلاَثِينَ» (مت١٣:٨)، «وَأَمَّا الْمَزْرُوعُ عَلَى لأَرْضِ الْجَيِّدَةِ فَهُوَ الَّذِي يَسْمَعُ الْكَلِمَةَ وَيَفْهَمُ. وَهُوَ الَّذِي يَأْتِي بِثَمَرٍ، فَيَصْنَعُ بَعْضٌ مِئَةً وَآخَرُ سِتِّينَ وَآخَرُ ثَلاَثِينَ» (مت١٣:٢٣).

وكذلك أيضًا **إسحق** حينما زرع الشعير كان يأتي به إلى مائة ضعف مِنَ الحبوب: «وَزَرَعَ إِسْحَاقُ فِي تِلْكَ الأَرْضِ فَأَصَابَ فِي تِلْكَ السَّنَةِ مِئَةَ ضِعْفٍ وَبَارَكَهُ الرَّبُّ» (تك٢٦:١٢). وأيضًا **داود النبي** المرتل صدر إليه الأمر بأن يُغنِّي على قيثارة لها عشرة أوتار: «عَلَى ذَاتِ عَشْرَةِ أَوْتَارٍ وَعَلَى الرَّبَابِ عَلَى عَزْفِ الْعُودِ» (مز٩٢:٣)، «يَا اللهُ أُرَنِّمُ لَكَ تَرْنِيمَةً جَدِيدَةً. بِرَبَابٍ ذَاتِ عَشَرَةِ أَوْتَارٍ أُرَنِّمُ لَكَ» (مز١٤٤:٩).

ماذا كان يتم إذن في يوم الكفارة هذا؟ «وَيُكَفِّرُ الْكَاهِنُ الَّذِي يَمْسَحُهُ وَالَّذِي يَمْلأُ يَدَهُ لِلْكَهَانَةِ عِوَضًا عَنْ أَبِيهِ. يَلْبَسُ ثِيَابَ الْكَتَّانِ الثِّيَابَ الْمُقَدَّسَةَ وَيُكَفِّرُ عَنْ مَقْدِسِ الْقُدْسِ. وَعَنْ خَيْمَةِ الاجْتِمَاعِ وَالْمَذْبَحِ

يُكَفِّرُ. وَعَنِ الْكَهَنَةِ وَكُلِّ شَعْبِ الْجَمَاعَةِ يُكَفِّرُ. وَتَكُونُ هَذِهِ لَكُمْ فَرِيضَةً دَهْرِيَّةً لِلتَّكْفِيرِ عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ جَمِيعِ خَطَايَاهُمْ مَرَّةً فِي السَّنَةِ. فَفَعَلَ كَمَا أَمَرَ الرَّبُّ مُوسَى» (لا١٦: ٣٢-٣٤).

أعتقد إذًا أنَّ ذلك هو مغزى اليوم الحاضر. وفيه كذلك نحتفل بذكرى هذَيْن الأبوَيْن القديسَيْن. وإذا قلنا أنهما يُباركان اليوم بداية العام، فإننا في ذلك لا نكون قد حِدنا عن اللياقة، لأنَّ باكورة البركة، تعيين سفير شهير أو قائد جيش تقي جدير بالمديح مِنَ المشرق، جلبها لنا هذان الرئيسان الحقيقيان، وهما المُكرَّسان المُعزَّزان للرب اللذان يستطيعان أن يصيحا مع بولس الرسول: «فَأَطْلُبُ إِلَيْكُمْ أَنْ تَكُونُوا مُتَمَثِّلِينَ بِي» (١كو٤: ١٦) ، «كُونُوا مُتَمَثِّلِينَ بِي كَمَا أَنَا أَيْضًا بِالْمَسِيحِ» (١كو١١: ١).

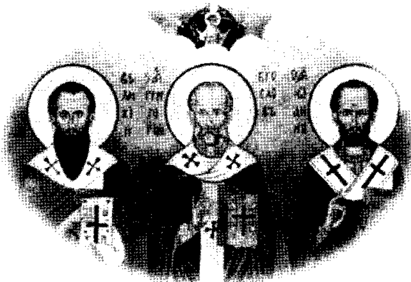
إنهما يظهران هكذا، إذ يُقدِّمان الآن أيضًا الذبائح العقلية، ويُمارسان الكهنوت ويصعدان الطلبات الطاهرة جدًا من أجل قدس الأقداس، من أجل المذبح، ومن أجلنا نحن الكهنة أنفسنا الذين نقف أمام قدس الأقداس أمام المذبح دون أن نكون مستحقين، كي لا نُدان لا من أجل السلوك ولا من أجل الكلمة، لأنَّ هذا ما تهدف إليه الذبيحة والصلاة من أجل المذبح، الذبيحة والصلاة من أجل قدس الأقداس، لكي على قدر استطاعتنا يظلان مقدسَيْن دون أن تلوثهما أعمالنا وفساد البدع.

وهذا بالفعل ما كان الله رب السموات والأرض يعيبه بمرارة شديدة بواسطة أنبيائه أيضًا، على البعض الذين يُدنِّسون اسمه وهيكله أيضًا

ويعطون الأمم فرصة للتجديف «كَهَنَتُهَا خَالَفُوا شَرِيعَتِي وَنَجَّسُوا أَقْدَاسِي. لَمْ يُمَيِّزُوا بَيْنَ الْمُقَدَّسِ وَالْمُحَلَّلِ، وَلَمْ يَعْلَمُوا الْفَرْقَ بَيْنَ النَّجِسِ وَالطَّاهِرِ، وَحَجَبُوا عُيُونَهُمْ عَنْ سُبُوتِي فَتَدَنَّسْتُ فِي وَسَطِهِمْ» (حز٢٢:٢٦)، «لِذَلِكَ فَقُلْ لِبَيْتِ إِسْرَائِيلَ. هَكَذَا قَالَ السَّيِّدُ الرَّبُّ: لَيْسَ لأَجْلِكُمْ أَنَا صَانِعٌ يَا بَيْتَ إِسْرَائِيلَ، بَلْ لأَجْلِ اسْمِي الْقُدُّوسِ الَّذِي نَجَّسْتُمُوهُ فِي الأُمَمِ حَيْثُ جِئْتُمْ» (حز٣٦:٢٢).

إذًا فإنه لأجلنا نحن الذين نُباشِر الكهنوت في كل وقت وبالأخص في هذا اليوم الحاضر لأجل كل الكنيسة أيضًا أحسب أن هذه الذبائح المعقولة والصلوات يُقدِّمها هذان الرئيسان العجيبان الكاملان باسيليوس وإغريغوريوس، وهما اللذان تنظر إليهما كأنهما رئيس كهنة حقيقي واحد، لأنَّ لهما روح واحدة، ولهما نفس الأفكار، وقد ركضا نحو قمة واحدة مرتفعة هي قمة الكمال. وبالفعل قد أظهرا في نفسيهما بالوقائع ذاتها رداء الرعاية الذي كان قديمًا يصفه الناموس حسب الشكل، وتحقَّق أخيرًا بالكمال بالإنجيل حسب الحقيقة.

«وَهَذِهِ هِيَ الثِّيَابُ الَّتِي يَصْنَعُونَهَا: صُدْرَةٌ وَرِدَاءٌ وَجُبَّةٌ وَقَمِيصٌ مُخَرَّمٌ وَعِمَامَةٌ وَمِنْطَقَةٌ. فَيَصْنَعُونَ ثِيَابًا مُقَدَّسَةً لِهَارُونَ أَخِيكَ وَلِبَنِيهِ لِيَكْهَنَ لِي. وَهُمْ



القديس باسيليوس الكبير، القديس إغريغوريوس الثاؤلوغوس، القديس يوحنا ذهبي الفم

يَأْخُذُونَ الذَّهَبَ وَالأَسْمَانْجُونِيَّ وَالأُرْجُوَانَ وَالْقِرْمِزَ وَالْبُوصَ.

فَيَصْنَعُونَ الرِّدَاءَ مِنْ ذَهَبٍ وَأَسْمَانْجُونِيٍّ وَأُرْجُوَانٍ وَقِرْمِزٍ وَبُوصٍ مَبْرُومٍ صَنْعَةَ حَائِكٍ حَاذِقٍ. يَكُونُ لَهُ كَتِفَانِ مَوْصُولاَنِ فِي طَرَفَيْهِ لِيَتَّصِلَ. وَزُنَّارُ شَدِّهِ الَّذِي عَلَيْهِ يَكُونُ مِنْهُ كَصَنْعَتِهِ. مِنْ ذَهَبٍ وَأَسْمَانْجُونِيٍّ وَقِرْمِزٍ وَبُوصٍ مَبْرُومٍ. وَتَأْخُذُ حَجَرَيْ جَزْعٍ وَتَنْقُشُ عَلَيْهِمَا أَسْمَاءَ بَنِي إِسْرَائِيلَ. سِتَّةً مِنْ أَسْمَائِهِمْ عَلَى الْحَجَرِ الْوَاحِدِ وَأَسْمَاءَ السِّتَّةِ الْبَاقِينَ عَلَى الْحَجَرِ الثَّانِي حَسَبَ مَوَالِيدِهِمْ. صَنْعَةَ نَقَّاشِ الْحِجَارَةِ نَقْشَ الْخَاتِمِ تَنْقُشُ الْحَجَرَيْنِ عَلَى حَسَبِ أَسْمَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ. مُحَاطَيْنِ بِطَوْقَيْنِ مِنْ ذَهَبٍ تَصْنَعُهُمَا. وَتَضَعُ الْحَجَرَيْنِ عَلَى كَتِفَيِ الرِّدَاءِ حَجَرَيْ تِذْكَارٍ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ. فَيَحْمِلُ هَارُونُ أَسْمَاءَهُمْ أَمَامَ الرَّبِّ عَلَى كَتِفَيْهِ لِلتِّذْكَارِ. وَتَصْنَعُ طَوْقَيْنِ مِنْ ذَهَبٍ. وَسِلْسِلَتَيْنِ مِنْ ذَهَبٍ نَقِيٍّ. مَجْدُولَتَيْنِ تَصْنَعُهُمَا صَنْعَةَ الضَّفْرِ. وَتَجْعَلُ سِلْسِلَتَيِ الضَّفَائِرِ فِي الطَّوْقَيْنِ.

«وَتَصْنَعُ صُدْرَةَ قَضَاءٍ صَنْعَةَ حَائِكٍ حَاذِقٍ كَصَنْعَةِ الرِّدَاءِ تَصْنَعُهَا. مِنْ ذَهَبٍ وَأَسْمَانْجُونِيٍّ وَأُرْجُوَانٍ وَقِرْمِزٍ وَبُوصٍ مَبْرُومٍ تَصْنَعُهَا. تَكُونُ مُرَبَّعَةً مَثْنِيَّةً طُولُهَا شِبْرٌ وَعَرْضُهَا شِبْرٌ. وَتُرَصِّعُ فِيهَا تَرْصِيعَ حَجَرٍ أَرْبَعَةَ صُفُوفِ حِجَارَةٍ. صَفُّ عَقِيقٍ أَحْمَرَ وَيَاقُوتٍ أَصْفَرَ وَزُمُرُّدٍ: الصَّفُّ الأَوَّلُ. وَالصَّفُّ الثَّانِي: بَهْرَمَانٌ وَيَاقُوتٌ أَزْرَقُ وَعَقِيقٌ أَبْيَضُ. وَالصَّفُّ الثَّالِثُ: عَيْنُ الْهِرِّ وَيَشْمٌ وَجَمَشْتٌ. وَالصَّفُّ الرَّابِعُ: زَبَرْجَدٌ وَجَزْعٌ وَيَشْبٌ. تَكُونُ مُطَوَّقَةً بِذَهَبٍ فِي تَرْصِيعِهَا. وَتَكُونُ الْحِجَارَةُ عَلَى أَسْمَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ اثْنَيْ عَشَرَ

عَلَى أَسْمَائِهِمْ. كَنَقْشِ الْخَاتَمِ كُلُّ وَاحِدٍ عَلَى اسْمِهِ تَكُونُ لِلاِثْنَيْ عَشَرَ سِبْطًا. «وَتَصْنَعُ عَلَى الصُّدْرَةِ سَلاَسِلَ مَجْدُولَةً صَنْعَةَ الضَّفْرِ مِنْ ذَهَبٍ نَقِيٍّ. وَتَصْنَعُ عَلَى الصُّدْرَةِ حَلْقَتَيْنِ مِنْ ذَهَبٍ. وَتَجْعَلُ الْحَلْقَتَيْنِ عَلَى طَرَفَيِ الصُّدْرَةِ. وَتَجْعَلُ ضَفِيرَتَيِ الذَّهَبِ فِي الْحَلْقَتَيْنِ عَلَى طَرَفَيِ الصُّدْرَةِ. وَتَجْعَلُ طَرَفَيِ الضَّفِيرَتَيْنِ الآخَرَيْنِ فِي الطَّوْقَيْنِ وَتَجْعَلُهُمَا عَلَى كَتِفَيِ الرِّدَاءِ إِلَى قُدَّامِهِ. وَتَصْنَعُ حَلْقَتَيْنِ مِنْ ذَهَبٍ وَتَضَعُهُمَا عَلَى طَرَفَيِ الصُّدْرَةِ عَلَى حَاشِيَتِهَا الَّتِي إِلَى جِهَةِ الرِّدَاءِ مِنْ دَاخِلٍ. وَتَصْنَعُ حَلْقَتَيْنِ مِنْ ذَهَبٍ. وَتَجْعَلُهُمَا عَلَى كَتِفَيِ الرِّدَاءِ مِنْ أَسْفَلُ مِنْ قُدَّامِهِ عِنْدَ وَصْلِهِ مِنْ فَوْقِ زُنَّارِ الرِّدَاءِ. وَيَرْبُطُونَ الصُّدْرَةَ بِحَلْقَتَيْهَا إِلَى حَلْقَتَيِ الرِّدَاءِ بِخَيْطٍ مِنْ أَسْمَانْجُونِيٍّ لِتَكُونَ عَلَى زُنَّارِ الرِّدَاءِ. وَلاَ تُنْزَعُ الصُّدْرَةُ عَنِ الرِّدَاءِ. فَيَحْمِلُ هَارُونُ أَسْمَاءَ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي صُدْرَةِ الْقَضَاءِ عَلَى قَلْبِهِ عِنْدَ دُخُولِهِ إِلَى الْقُدْسِ لِلتِّذْكَارِ أَمَامَ الرَّبِّ دَائِمًا. وَتَجْعَلُ فِي صُدْرَةِ الْقَضَاءِ الأُورِيمَ وَالتُّمِّيمَ لِتَكُونَ عَلَى قَلْبِ هَارُونَ عِنْدَ دُخُولِهِ أَمَامَ الرَّبِّ. فَيَحْمِلُ هَارُونُ قَضَاءَ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى قَلْبِهِ أَمَامَ الرَّبِّ دَائِمًا.

«وَتَصْنَعُ جُبَّةَ الرِّدَاءِ كُلَّهَا مِنْ أَسْمَانْجُونِيٍّ وَتَكُونُ فَتْحَةُ رَأْسِهَا فِي وَسَطِهَا. وَيَكُونُ لِفَتْحَتِهَا حَاشِيَةٌ حَوَالَيْهَا صَنْعَةَ الْحَائِكِ. كَفَتْحَةِ الدِّرْعِ يَكُونُ لَهَا. لاَ تُشَقُّ. وَتَصْنَعُ عَلَى أَذْيَالِهَا رُمَّانَاتٍ مِنْ أَسْمَانْجُونِيٍّ وَأُرْجُوَانٍ وَقِرْمِزٍ. عَلَى أَذْيَالِهَا حَوَالَيْهَا. وَجَلاَجِلَ مِنْ ذَهَبٍ بَيْنَهَا حَوَالَيْهَا. جُلْجُلَ ذَهَبٍ وَرُمَّانَةً جُلْجُلَ ذَهَبٍ وَرُمَّانَةً عَلَى أَذْيَالِ الْجُبَّةِ حَوَالَيْهَا. فَتَكُونُ عَلَى هَارُونَ

لِلْخِدْمَةِ لِيُسْمَعَ صَوْتُهَا عِنْدَ دُخُولِهِ إِلَى الْقُدْسِ أَمَامَ الرَّبِّ وَعِنْدَ خُرُوجِهِ لِئَلاَّ يَمُوتَ.

«وَتَصْنَعُ صَفِيحَةً مِنْ ذَهَبٍ نَقِيٍّ. وَتَنْقُشُ عَلَيْهَا نَقْشَ خَاتِمٍ «قُدْسٌ لِلرَّبِّ». وَتَضَعُهَا عَلَى خَيْطٍ أَسْمَانْجُونِيٍّ لِتَكُونَ عَلَى الْعِمَامَةِ. إِلَى قُدَّامِ الْعِمَامَةِ تَكُونُ فَتَكُونُ عَلَى جِبْهَةِ هَارُونَ. فَيَحْمِلُ هَارُونُ إِثْمَ الأَقْدَاسِ الَّتِي يُقَدِّسُهَا بَنُو إِسْرَائِيلَ جَمِيعِ عَطَايَا أَقْدَاسِهِمْ. وَتَكُونُ عَلَى جِبْهَتِهِ دَائِمًا لِلرِّضَا عَنْهُمْ أَمَامَ الرَّبِّ. وَتُخَرِّمُ الْقَمِيصَ مِنْ بُوصٍ وَتَصْنَعُ الْعِمَامَةَ مِنْ بُوصٍ وَالْمِنْطَقَةُ تَصْنَعُهَا صَنْعَةَ الطَّرَّازِ» (خر٢٨:٤-٣٩).

«هَذَا مَا تَصْنَعُهُ لَهُمْ لِتَقْدِيسِهِمْ لِيَكْهَنُوا لِي: خُذْ ثَوْرًا وَاحِدًا ابْنَ بَقَرٍ وَكَبْشَيْنِ صَحِيحَيْنِ وَخُبْزَ فَطِيرٍ وَأَقْرَاصَ فَطِيرٍ مَلْتُوتَةً بِزَيْتٍ وَرِقَاقَ فَطِيرٍ مَدْهُونَةً بِزَيْتٍ. مِنْ دَقِيقِ حِنْطَةٍ تَصْنَعُهَا. وَتَجْعَلُهَا فِي سَلَّةٍ وَاحِدَةٍ وَتُقَدِّمُهَا فِي السَّلَّةِ مَعَ الثَّوْرِ وَالْكَبْشَيْنِ. وَتُقَدِّمُ هَارُونَ وَبَنِيهِ إِلَى بَابِ خَيْمَةِ الاِجْتِمَاعِ وَتَغْسِلُهُمْ بِمَاءٍ. وَتَأْخُذُ الثِّيَابَ وَتُلْبِسُ هَارُونَ الْقَمِيصَ وَجُبَّةَ الرِّدَاءِ وَالرِّدَاءَ وَالصُّدْرَةَ وَتَشُدُّهُ بِزُنَّارِ الرِّدَاءِ وَتَضَعُ الْعِمَامَةَ عَلَى رَأْسِهِ وَتَجْعَلُ الإِكْلِيلَ الْمُقَدَّسَ عَلَى الْعِمَامَةِ وَتَأْخُذُ دُهْنَ الْمَسْحَةِ وَتَسْكُبُهُ عَلَى رَأْسِهِ وَتَمْسَحُهُ. وَتُقَدِّمُ بَنِيهِ وَتُلْبِسُهُمْ أَقْمِصَةً. وَتُنَطِّقُهُمْ بِمَنَاطِقَ هَارُونَ وَبَنِيهِ. وَتَشُدُّ لَهُمْ قَلاَنِسَ. فَيَكُونُ لَهُمْ كَهَنُوتٌ فَرِيضَةً أَبَدِيَّةً. وَتَمْلأُ يَدَ هَارُونَ وَأَيْدِيَ بَنِيهِ. تُقَدِّمُ الثَّوْرَ إِلَى قُدَّامِ خَيْمَةِ الاِجْتِمَاعِ فَيَضَعُ هَارُونُ وَبَنُوهُ أَيْدِيَهُمْ عَلَى رَأْسِ الثَّوْرِ. فَتَذْبَحُ الثَّوْرَ أَمَامَ الرَّبِّ عِنْدَ بَابِ خَيْمَةِ الاِجْتِمَاعِ. وَتَأْخُذُ مِنْ دَمِ

الثَّوْرِ وَتَجْعَلُهُ عَلَى قُرُونِ الْمَذْبَحِ بِإِصْبِعِكَ وَسَائِرَ الدَّمِ تَصُبُّهُ إِلَى أَسْفَلِ الْمَذْبَحِ. وَتَأْخُذُ كُلَّ الشَّحْمِ الَّذِي يُغَشِّي الْجَوْفَ وَزِيَادَةَ الْكَبِدِ وَالْكُلْيَتَيْنِ وَالشَّحْمَ الَّذِي عَلَيْهِمَا وَتُوقِدُهَا عَلَى الْمَذْبَحِ. وَأَمَّا لَحْمُ الثَّوْرِ وَجِلْدُهُ وَفَرْثُهُ فَتَحْرِقُهَا بِنَارٍ خَارِجَ الْمَحَلَّةِ. هُوَ ذَبِيحَةُ خَطِيَّةٍ. تَأْخُذُ الْكَبْشَ الْوَاحِدَ فَيَضَعُ هَارُونُ وَبَنُوهُ أَيْدِيَهُمْ عَلَى رَأْسِ الْكَبْشِ. فَتَذْبَحُ الْكَبْشَ وَتَأْخُذُ دَمَهُ وَتَرُشُّهُ عَلَى الْمَذْبَحِ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ. وَتَقْطَعُ الْكَبْشَ إِلَى قِطَعِهِ وَتَغْسِلُ جَوْفَهُ وَأَكَارِعَهُ وَتَجْعَلُهَا عَلَى قِطَعِهِ وَعَلَى رَأْسِهِ وَتُوقِدُ كُلَّ الْكَبْشِ عَلَى الْمَذْبَحِ. هُوَ مُحْرَقَةٌ لِلرَّبِّ. رَائِحَةُ سُرُورٍ. وَقُودٌ هُوَ لِلرَّبِّ. تَأْخُذُ الْكَبْشَ الثَّانِيَ. فَيَضَعُ هَارُونُ وَبَنُوهُ أَيْدِيَهُمْ عَلَى رَأْسِ الْكَبْشِ. فَتَذْبَحُ الْكَبْشَ وَتَأْخُذُ مِنْ دَمِهِ وَتَجْعَلُ عَلَى شَحْمَةِ أُذُنِ هَارُونَ وَعَلَى شَحْمِ آذَانِ بَنِيهِ الْيُمْنَى وَعَلَى أَبَاهِمِ أَيْدِيهِمِ الْيُمْنَى وَعَلَى أَبَاهِمِ أَرْجُلِهِمِ الْيُمْنَى. وَتَرُشُّ الدَّمَ عَلَى الْمَذْبَحِ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ. وَتَأْخُذُ مِنَ الدَّمِ الَّذِي عَلَى الْمَذْبَحِ وَمِنْ دُهْنِ الْمَسْحَةِ وَتَنْضِحُ عَلَى هَارُونَ وَثِيَابِهِ وَعَلَى بَنِيهِ وَثِيَابِ بَنِيهِ مَعَهُ فَيَتَقَدَّسُ هُوَ وَثِيَابُهُ وَبَنُوهُ وَثِيَابُ بَنِيهِ مَعَهُ. ثُمَّ تَأْخُذُ مِنَ الْكَبْشِ: الشَّحْمَ وَالأَلْيَةَ وَالشَّحْمَ الَّذِي يُغَشِّي الْجَوْفَ وَزِيَادَةَ الْكَبِدِ وَالْكُلْيَتَيْنِ وَالشَّحْمَ الَّذِي عَلَيْهِمَا وَالسَّاقَ الْيُمْنَى. فَإِنَّهُ كَبْشُ مِلْءٍ. وَرَغِيفًا وَاحِدًا مِنَ الْخُبْزِ وَقُرْصًا وَاحِدًا مِنَ الْخُبْزِ بِزَيْتٍ وَرُقَاقَةً وَاحِدَةً مِنْ سَلَّةِ الْفَطِيرِ الَّتِي أَمَامَ الرَّبِّ وَتَضَعُ الْجَمِيعَ فِي يَدَيْ هَارُونَ وَفِي أَيْدِي بَنِيهِ وَتُرَدِّدُهَا تَرْدِيدًا أَمَامَ الرَّبِّ. ثُمَّ تَأْخُذُهَا مِنْ أَيْدِيهِمْ وَتُوقِدُهَا عَلَى الْمَذْبَحِ فَوْقَ الْمُحْرَقَةِ رَائِحَةَ سُرُورٍ أَمَامَ الرَّبِّ. وَقُودٌ هُوَ لِلرَّبِّ. ثُمَّ تَأْخُذُ

الْقَصَّ مِنْ كَبْشِ الْمِلْءِ الَّذِي لِهَارُونَ وَتُرَدِّدُهُ تَرْدِيدًا أَمَامَ الرَّبِّ فَيَكُونُ لَكَ نَصِيبًا. وَتُقَدِّسُ قَصَّ التَّرْدِيدِ وَسَاقَ الرَّفِيعَةِ الَّذِي رُدِّدَ وَالَّذِي رُفِعَ مِنْ كَبْشِ الْمِلْءِ مِمَّا لِهَارُونَ وَلِبَنِيهِ فَيَكُونَانِ لِهَارُونَ وَبَنِيهِ فَرِيضَةً أَبَدِيَّةً مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ لأَنَّهُمَا رَفِيعَةٌ. وَيَكُونَانِ رَفِيعَةً مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ ذَبَائِحِ سَلاَمَتِهِمْ رَفِيعَتَهُمْ لِلرَّبِّ. الثِّيَابُ الْمُقَدَّسَةُ الَّتِي لِهَارُونَ تَكُونُ لِبَنِيهِ بَعْدَهُ لِيُمْسَحُوا فِيهَا وَلِتُمْلأَ فِيهَا أَيْدِيهِمْ. سَبْعَةَ أَيَّامٍ يَلْبِسُهَا الْكَاهِنُ الَّذِي هُوَ عِوَضٌ عَنْهُ مِنْ بَنِيهِ الَّذِي يَدْخُلُ خَيْمَةَ الاِجْتِمَاعِ لِيَخْدِمَ فِي الْقُدْسِ» (خر٢٩:١-٣٠).

«فَقَدَّمَ مُوسَى هَارُونَ وَبَنِيهِ وَغَسَّلَهُمْ بِمَاءٍ. وَجَعَلَ عَلَيْهِ الْقَمِيصَ وَنَطَّقَهُ بِالْمِنْطَقَةِ وَأَلْبَسَهُ الْجُبَّةَ وَجَعَلَ عَلَيْهِ الرِّدَاءَ وَنَطَّقَهُ بِزُنَّارِ الرِّدَاءِ وَشَدَّهُ بِهِ. وَوَضَعَ عَلَيْهِ الصُّدْرَةَ وَجَعَلَ فِي الصُّدْرَةِ الأُورِيمَ وَالتُّمِّيمَ. وَوَضَعَ الْعِمَامَةَ عَلَى رَأْسِهِ وَوَضَعَ عَلَى الْعِمَامَةِ إِلَى جِهَةِ وَجْهِهِ صَفِيحَةَ الذَّهَبِ الإِكْلِيلَ الْمُقَدَّسَ كَمَا أَمَرَ الرَّبُّ مُوسَى» (لا٨:٦-٩).

قد ارتديا الحُلة الكهنوتية بأعمالهما، بعد أن اغتسلا أولاً بمياه الفلسفة وحياة الرهبنة. لقد سار باسيليوس نحو حياة التوحُّد الطاهرة بعيدًا عن مساكن الناس المُنغمسين في المادة، وكان إغريغوريوس يرعى أباه المريض فكان يسلك في المدينة بالصبر الحقيقي زاهدًا في أسلوب حياة اللامبالاة. لدرجة أنه كان أحيانًا يجعل الصمت الكامل للسانه قاعدة.

وإذ شدَّا وسطيهما بحزام ضبط النفس والامتناع عن الشهوات، تمسكا بالبتولية، وغلبا بالقوة هياج الأهواء المُخزية وحرارتها. عاملا إنسان الشر العتيق بعنف وقاوماه، وأتيا بنفسيهما إلى الإنسان الجديد حسب الطبيعة، وبعد أن مرا معًا بهذا الحزم بكل ترتيب التعاليم المعقولة مُجتهدَيْن في الاهتمام بها، ذهبا إلى أوج الحكمة الإلهية، وذاقا ذبائحها واشتركا في سرابها «ذَبَحَتْ ذَبْحَهَا. مَزَجَتْ خَمْرَهَا. أَيْضًا رَتَّبَتْ مَائِدَتَهَا» (أم٩:٢) واشتهيا حلاوة الكلمات الإلهية، ورغبا فيها بطريقة حسِّية فلم يبتعدا عنها، بل تمتعا بها وامتلئا منها بكل قوتهما دون أن يشبعا.

ودَّعا البدع الكاذبة في التعاليم الدنيوية، واستخدما ضعفهما لكي يؤكِّدا الحق. هكذا قبل مسحهما بمسحة رئاسة الكهنوت، كانا قد لبسا الحُلة البهية التي تختلف باختلاف ألوان الفضائل وتنوِّعها، وهذا ما يشير إليه نموذج الملابس المذكور في الناموس، القرمز والكتان والمواد الشبيهة. كانا يلبسان التونية التي تنزل حتى القدمَيْن كاملة مِنَ الطرف الأول إلى الطرف الآخر، حتى أنه لا يوجد شيء لا تغطيه الفضيلة.

وأيضًا قد تمنطقا بالزنار الكهنوتي الذي يلتف حول التونية مُعطيًا بهاء في الشكل، ومن ناحية أخرى لا يضغط بقوة ويحفظ الطهارة. كانا يتذكران فعلاً ذلك الذي كلّم حزقيال وقال عن الكهنة: «وَلْتَكُنْ عَصَائِبُ مِنْ كَتَّانٍ عَلَى رُؤُوسِهِمْ، وَلْتَكُنْ سَرَاوِيلُ مِنْ كَتَّانٍ عَلَى أَحْقَائِهِمْ. لاَ يَتَنَطَّقُونَ

بِمَا يُعَرِّقُ» (حز٤٤: ١٨) لأنه يجب أن يبدأ الكهنة بمعاملة هجمات الشهوات القوية مُعاملة عنيفة، وأن يبدأوا بالاجتهاد في الأعمال، وسوف يمتلكون زنَّار لا يُعامل بعد بالعنف، بل يضمن الطهارة ويحفظها ويُذكِّر بها.

وقد لبسا أيضًا الحُلة الداخلية وهي ضمن الملابس الكهنوتية أيضًا، منسوجة ابتداء من أسفل كمثل تصاعد الفضائل، وتُعطي على قدر الاستطاعة معرفة الأسرار المخفية التي لا يُنطَق بها. كان قميص المسيح هو وحده القميص المنسوج ابتداء من فوق «ثُمَّ إِنَّ الْعَسْكَرَ لَمَّا كَانُوا قَدْ صَلَبُوا يَسُوعَ، أَخَذُوا ثِيَابَهُ وَجَعَلُوهَا أَرْبَعَةَ أَقْسَامٍ، لِكُلِّ عَسْكَرِيٍّ قِسْمًا. وَأَخَذُوا الْقَمِيصَ أَيْضًا. وَكَانَ الْقَمِيصُ بِغَيْرِ خِيَاطَةٍ، مَنْسُوجًا كُلُّهُ مِنْ فَوْقُ» (يو١٩: ٢٣).

لأنه الكلمة العليّ الذي يُنزِل علينا كنوز الحكمة والمعرفة ويسكبها من فوق «الْمُذَّخَرِ فِيهِ جَمِيعُ كُنُوزِ الْحِكْمَةِ وَالْعِلْمِ» (كو٢: ٣). لا يحتاج إلى التدريب على الفضائل، إذ أنه الذي لا يعرف خطية «لأَنَّهُ جَعَلَ الَّذِي لَمْ يَعْرِفْ خَطِيَّةً، خَطِيَّةً لأَجْلِنَا، لِنَصِيرَ نَحْنُ بِرَّ اللهِ فِيهِ» (٢كو٥: ٢١)، وهو يعطينا مثال الحياة الفُضلى بما كان يفعله حسب التدبير الإلهي.

هذان الشجيعان لم يكن لتنقصهما أيضًا العلامات الرمزية التي توضع فوق الأكتاف (خر٢٨: ٦-١٤)، فوضعا بتهليل واحدة منها على كل كتف. كانت هذه أيضًا مثل أحزمة موضوعة على الأكتاف، إذ كانت مثل

السلاسل منسوجة مِنَ الذهب ومن خيوط أخرى ذات ألوان جميلة. كانت تحيط بصدريهما وفي نفس الوقت تشد التونية الكهنوتية. كانت تُصوِّر محبة العمل ومُمارسة الفضائل العقلية. وكان يشير إليها الكتاب المقدس الذي يقول عن يسّاكر أحد أبناء يعقوب: "انزلق وهو يُحني كتفه لكي يعمل وأصبح إنسانًا يزرع الأرض".(٨٨)

كان مُخلِّصنا الصالح يلوم الفريسيين لأنهم «يَحْزِمُونَ أَحْمَالاً ثَقِيلَةً عَسِرَةَ الْحَمْلِ وَيَضَعُونَهَا عَلَى أَكْتَافِ النَّاسِ، وَهُمْ لاَ يُرِيدُونَ أَنْ يُحَرِّكُوهَا بِإِصْبِعِهِمْ» (مت٢٣:٤). ومن ناحية أخرى كان باسيليوس وإغريغوريوس يحملان الصبر ومحبة العمل ترمز إليها الشارات اللامعة على أكتافهما. كانا يُعطيان مثالاً للعمل للذين كانوا تحت سلطانهما، وبأعمالهما، وكانا يُشجِّعان بالقدوة الحسنة عليه، ويصيحان أن نير الإنجيل هيِّن وحمله خفيف «لأَنَّ نِيرِي هَيِّنٌ وَحِمْلِي خَفِيفٌ» (مت١١:٣٠).

وعلى صدرهما أيضًا كانت صدرة القضاء. وبالنسبة للحواس كانت حسب النموذج المذكور في الناموس نسيجًا مزدوجًا طوله مثل عرضه، وكانت مزينة أيضًا بالذهب وبألوان صبغة، فهي تزدان من فوق بأربعة صفوف مِنَ الحجارة الكريمة. وبالنسبة للمعنى العقلي كانت تشير إلى الطهارة المؤثرة المختبرة، فهي للروح رداء. وهذا فعلاً ما يرمز إليه الذهب،

(٨٨) «يَسَّاكَرُ حِمَارٌ جَسِيمٌ رَابِضٌ بَيْنَ الْحَظَائِرِ. فَرَأَى الْمَحَلَّ أَنَّهُ حَسَنٌ وَالأَرْضَ أَنَّهَا نَزِهَةٌ فَأَحْنَى كَتِفَهُ لِلْحِمْلِ وَصَارَ لِلْجِزْيَةِ عَبْداً» (تك٤٩: ١٤، ١٥) (الناشر).

كما ترمز الحجارة البراقة إلى الرأي الثابت السليم المُتصل بالأعمال الصالحة المُعلَن لكل الناس، الواضح غير المُتغيِّر.

وهي بعدد الأربعة صفوف تعني أن الصدرة كانت مُغلقة من كل ناحية كانت مثنية لأنَّ ذلك القماش كان مُبطَّنًا وملفوفًا على نفسه، وذلك كان يعني أنه يجب على الكاهن أن يُعامِل حركات فكره المعقولة كما لو كانت جديدة، ويُراجِعها حتى يكون في مأمن من كل جانب.

إذن حين كان هذان الرئيسان في الكهنوت يحملان صدرة القضاء المصنوعة بهذا الكمال، كانت لهم المعرفة، وكان لديهم الحق، «وَتَجْعَلُ فِي صُدْرَةِ الْقَضَاءِ الأُورِيمَ وَالتُّمِّيمَ لِتَكُونَ عَلَى قَلْبِ هَارُونَ عِنْدَ دُخُولِهِ أَمَامَ الرَّبِّ. فَيَحْمِلُ هَارُونُ قَضَاءَ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى قَلْبِهِ أَمَامَ الرَّبِّ دَائِمًا» (خر٢٨:٣٠)، «وَوَضَعَ عَلَيْهِ الصُّدْرَةَ وَجَعَلَ فِي الصُّدْرَةِ الأُورِيمَ وَالتُّمِّيمَ» (لا٨:٨).

فكانت الصدرة مشغولة بفن يقع تحت الحواس حسب كتاب الناموس، وبالنسبة للناحية العقلية كانت تشير إلى الإعلانات العالية عن الأشياء الإلهية وإلى ظهور الحق. فإنَّ مَن يمتلك في طهارته الحركة المعقولة مستنيرًا ومتقوِّيًا، يتألق بالنور الحقيقي.

بعد أن استنار هذان القديسان اللذان نحتفل بهما بذلك النور، أظهرا تعاليم غزيرة غنية، مليئة. كانا يُقوِّمان الأخلاق الشرسة المتوحشة

ويُهذِّبانها، فيجري التأمل الطبيعي في حكمة الخالق كما يجري من أماكن سرِّية، تلك الحكمة التي نراها في الخلائق المنظورة التي تملأ العالم. وكانا يُدركان سمو علم اللاهوت من فوق بالذهن والكلمة، على قدر ما تصل إليه الأفهام، وينقلانه إلى الآخرين برأي مُستساغ مُتَّزن.

وكما كانا يلبسان الرداء صُدرة القضاء كانا مُدبِّرَيْن ووكيلَيْن روحانيَّيْن لعمق الكتاب الإلهي، لا يحتقران جمال الحرف الظاهري وبساطته الخارجية، ويغترفان ويمتصَّان غنى الروح المُخفَى في الكتاب المقدس حسب درجات العلم الراسخ، ولا يسكران بكأس الجهل الذي يحوي مختلف التفسيرات الخاطئة أو الخيالية التي تشرَّبت بخداع وسفاهة الهراطقة، وزوَّدت جمال الحقيقة بالروايات الخيالية التي تليق بتفسير الأحلام.

كان الأفضل لهؤلاء أن يُهانوا حسب طريقة اليهود تبعًا لفهمهم السقيم للكتاب، من أن يصلوا بكبرياء جاهلة وقحة إلى القش الخفيف غير المعقول الذي يليق بالحيوانات، بدلاً مِنَ القمح المُغذِّي الذي يليق بالأرواح العاقلة.

وحقًا قال أحد الأنبياء في كلمات شبيهة: «إِنَّهُمْ يَزْرَعُونَ الرِّيحَ وَيَحْصُدُونَ الزَّوْبَعَةَ. زَرْعٌ لَيْسَ لَهُ غَلَّةٌ لاَ يَصْنَعُ دَقِيقًا. وَإِنْ صَنَعَ فَالْغُرَبَاءُ تَبْتَلِعُهُ» (هو٨:٧).

ولكن لم يكن باسيليوس الكبير وإغريغوريوس الثاؤلوغوس كذلك هما بالنسبة لي رداء العقل والأحكام والمعرفة والحق. وأني أقارن كلماتي الفقيرة من جميع الوجوه، بتعاليمهما المُلهَم بها مِنَ الله فإذا وجدت مع كثرة تأملي في تعاليمهما أن كلماتي لا تعكس صورة مُشابهة لما تُقدِّمه تعاليمهما، فإني في الحال أُصحِّحها واجتهد أن أرفعها إلى مستوى أشبه بتعاليمهما.

إنهما من أجل ذلك كان رداء آرائهما سميكًا صلبًا قويًا، لأنه حسب إحدى وصايا الناموس، كان مُعلَّقًا بتلك الكتافيات الموضوعة على أكتافهما، مجتمعًا ومرتبطًا بالصبر ومحبة العمل. وبالفعل يقول الكتاب بوضوح: «وَيَرْبُطُونَ الصُّدْرَةَ بِحَلْقَتَيْهَا إِلَى حَلْقَتَيِ الرِّدَاءِ بِخَيْطٍ مِنْ أَسْمَانْجُونِيٍّ لِتَكُونَ عَلَى زُنَّارِ الرِّدَاءِ. وَلاَ تُنْزَعُ الصُّدْرَةُ عَنِ الرِّدَاءِ» (خر٢٨:٢٨).

كانت الكتافية منسوجة مثل السلسلة، وكانت لها دروع صغيرة طويلة مرتبطة بها تجمعها بهذا الرداء، وكانت مصنوعة مِنَ الذهب بمزيج مِنَ ألوان كثيرة. وكان يمكن بسبب شكلها الدائري تسميتها عجلات أو أطباق صغيرة أو شيء من هذا القبيل. ولكنه يليق بالأكثر أن نُسمِّيها دروعًا صغيرة مستديرة، أو مستطيلة، لأنه يجب أن يُحاط رئيس الكهنة من أمامه ومن خلفه بدروع اليقظة فينذر، خشية أن تضرب فكرة مُعادية مِنَ الأرواح الشريرة هذا الراء، فيضطرب فحص الأحكام وتبعد عنه المعرفة والحق بسبب اختلاط الشر.

يجب أن يُقدِّم رئيس الكهنة هذا الدرع للذين يسمعون قضاءه، كمجاهد أول ورئيس أركان حرب، فيتعلموا ويشتركوا في نور المعرفة والحق، وأن يطرد عنهم كل سهم يأتي مِنَ الغُزاة. وهكذا دافع باسيليوس وإغريغوريوس عن الكنيسة، حينما قاوما بشجاعة ضربات وهجمات الأعداء أريوس وأمونيوس ومقدونيوس، وهما الآن أيضًا يُدافعان عن الكنيسة باستعدادهما ضد كل هرطقة فيقلبانها وينتصران عليها، "إنهما يحملان السلاح المقدس على جبهتيهما" (خر٢٨:٢٦-٢٨). ومع بولس الرسول ينظران «مَجْدَ الرَّبِّ بِوَجْهٍ مَكْشُوفٍ» (٢كو٣:١٨). إنهما يتوِّجان رأسيهما بتاج ذي مظهر جميل ناتج عن كل هذه الزينة. وعلى رأسيهما الإكليل الثلاثي المُستدير المُدبَّب الرفيع يظهر بشكل ما كأنه السماء، وهو يشير إشارة تامة بوضوح يليق بالكهنة، إلى أنهم مواطنو ملكوت السموات لابسو الفضائل المُتقدِّمة من أسفل إلى أعلى.

ليتنا جميعًا لا نظهر هناك غرباء في يوم الدين بالنعمة وبمحبة الله العظيم مخلصنا يسوع المسيح الذي له المجد مع الآب والروح القدس الآن وكل أوان وإلى دهر الدهور، آمين.



هوذا فتاي
الذي اخترته

سلسلة مقالات الأنبا ساويرس
البطريرك الأنطاكي

٢٤

هوذا فتاي الذي اخترته

أقوال القديس أنبا ساويرس عن نبوة إشعياء النبي التي ذكرها متى البشير:

«هُوَذَا فَتَايَ الَّذِي اخْتَرْتُهُ، حَبِيبِي الَّذِي سُرَّتْ بِهِ نَفْسِي. أَضَعُ رُوحِي عَلَيْهِ فَيُخْبِرُ الأُمَمَ بِالْحَقِّ. لاَ يُخَاصِمُ وَلاَ يَصِيحُ، وَلاَ يَسْمَعُ أَحَدٌ فِي الشَّوَارِعِ صَوْتَهُ. قَصَبَةً مَرْضُوضَةً لاَ يَقْصِفُ، وَفَتِيلَةً مُدَخِّنَةً لاَ يُطْفِئُ، حَتَّى يُخْرِجَ الْحَقَّ إِلَى النُّصْرَةِ. وَعَلَى اسْمِهِ يَكُونُ رَجَاءُ الأُمَمِ» (مت١٢: ١٨-٢١)

وعن قول مخلصنا يسوع المسيح:

«أَقُولُ لَكُمْ: كُلُّ خَطِيَّةٍ وَتَجْدِيفٍ يُغْفَرُ لِلنَّاسِ، وَأَمَّا التَّجْدِيفُ عَلَى الرُّوحِ فَلَنْ يُغْفَرَ لِلنَّاسِ. وَمَنْ قَالَ كَلِمَةً عَلَى ابْنِ الإِنْسَانِ يُغْفَرُ لَهُ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ عَلَى الرُّوحِ الْقُدُسِ فَلَنْ يُغْفَرَ لَهُ، لاَ فِي هَذَا الْعَالَمِ وَلاَ فِي الآتِي» (مت١٢: ٣١، ٣٢).

مُترجم عن الفرنسية مِنَ الكتاب الأول مِنَ الجزء الخامس والعشرين من مجموعة

PATROLOGIA ORIENTALIS R. Graffin – F. Nau

Les Homélies Cathédrales de Sévère d'Antioche

Homélie XCVIII

مليكه حبيب يوسف   يوسف حبيب

١٩٧٠م

تمهيد



يقول القديس ساويرس: إني أيقنت أنكم ما كنتم تستمعون إلى الكتاب المقدس بإهمال، بل بعناية عظمى، وبالأخص الأناجيل المقدسة، ولم يكن بالآذان الجسدية فحسب بل كان أيضًا بآذان القلب، حتى أنكم لا تقبلون التعبير الظاهري للكلمات ذاتها بدون فحص، إنما تبحثون أيضًا عن الحكمة الكامنة فيها. وأنَّ الروح القدس يعرف الذين يستمعون هكذا ويبحث عن الآذان التي لها هذه الصفة ويمتدحها قائلاً: «قَلْبُ الْفَهِيمِ يَقْتَنِي مَعْرِفَةً وَأُذُنُ الْحُكَمَاءِ تَطْلُبُ عِلْمًا» (أم١٨:١٥).

لذلك أريد الآن أن أعرض علنًا لِمَ كان للبعض فيما مضى موضع شك بعد قراءته، حتى سألني قوم عنه. وليتكم تصيرون أذكياء لتسمعوا الكلمات الإلهية. فإنه مِنَ المستحسن أيضًا أن تكون المنفعة التي تحصل من ورائها مشتركة بين الذين يشتركون في الخبز الواحد وفي الكأس الواحد، لأنه أيضًا بالحقيقة نحن الذين للمسيح كلنا جسد واحد، «كَأْسُ الْبَرَكَةِ الَّتِي نُبَارِكُهَا أَلَيْسَتْ هِيَ شَرِكَةَ دَمِ الْمَسِيحِ؟ الْخُبْزُ الَّذِي نَكْسِرُهُ أَلَيْسَ هُوَ شَرِكَةَ جَسَدِ الْمَسِيحِ؟ فَإِنَّنَا نَحْنُ الْكَثِيرِينَ خُبْزٌ وَاحِدٌ جَسَدٌ وَاحِدٌ لأَنَّنَا جَمِيعَنَا نَشْتَرِكُ فِي الْخُبْزِ الْوَاحِدِ» (١كو١٠:١٦، ١٧).

القضية الأولى

يجب إذًا أن نقول فيم كانت تلك الكلمات موضع الشك. قال متَّى البشير في الفصل الذي قُرأ حينئذ: «فَعَلِمَ يَسُوعُ وَانْصَرَفَ مِنْ هُنَاكَ. وَتَبِعَتْهُ جُمُوعٌ كَثِيرَةٌ فَشَفَاهُمْ جَمِيعًا. وَأَوْصَاهُمْ أَنْ لاَ يُظْهِرُوهُ، لِكَيْ يَتِمَّ مَا قِيلَ بِإِشَعْيَاءَ النَّبِيِّ الْقَائِلِ: هُوَذَا فَتَايَ الَّذِي اخْتَرْتُهُ، حَبِيبِي الَّذِي سُرَّتْ بِهِ نَفْسِي. أَضَعُ رُوحِي عَلَيْهِ فَيُخْبِرُ الأُمَمَ بِالْحَقِّ. لاَ يُخَاصِمُ وَلاَ يَصِيحُ، وَلاَ يَسْمَعُ أَحَدٌ فِي الشَّوَارِعِ صَوْتَهُ. قَصَبَةً مَرْضُوضَةً لاَ يَقْصِفُ، وَفَتِيلَةً مُدَخِّنَةً لاَ يُطْفِئُ، حَتَّى يُخْرِجَ الْحَقَّ إِلَى النُّصْرَةِ. وَعَلَى اسْمِهِ يَكُونُ رَجَاءُ الأُمَمِ» (مت١٢: ١٥-٢١).

إنَّ هذه العبارة: «هُوَذَا فَتَايَ الَّذِي اخْتَرْتُهُ، حَبِيبِي الَّذِي سُرَّتْ بِهِ نَفْسِي» من ناحية قيلت عن الابن باسم الله الآب. وفي قوله: «الَّذِي سُرَّتْ بِهِ نَفْسِي»، وقوله: «أَضَعُ رُوحِي عَلَيْهِ» ما يليق بالتدبير الإلهي وبأساليب التجسُّد المتواضعة.

حقًا لقد أخذ الله الكلمة الوحيد هذه الأقوال على نفسه حينما جعل نفسه باكورة كل الجنس البشري، باكورة طاهرة خالية مِنَ الخطية، وحينما اختبر بسببنا نحن الذين كنا مرفوضين ولسنا أخيارًا، إذ صارت المسرَّة من أجل ابن الله بسبب الذين كانوا مكروهين، وكان محبوبًا، أخذ الروح

كإنسان بسبب الذين كانوا فارغين مِنَ الروح، وهو بالحقيقة الذي له الروح بالجوهر كإله.

وهذا واضح، فإن الذي أنبأ بوضوح جدًا في إشعياء النبي، قال: «رُوحُ السَّيِّدِ الرَّبِّ عَلَيَّ لأَنَّ الرَّبَّ مَسَحَنِي لأُبَشِّرَ الْمَسَاكِينَ أَرْسَلَنِي لأَعْصِبَ مُنْكَسِرِي الْقَلْبِ لأُنَادِيَ لِلْمَسْبِيِّينَ بِالْعِتْقِ وَلِلْمَأْسُورِينَ بِالإِطْلاَقِ» (إش٦١:١).

أليس القول واضحًا معروفًا لدى الكافة؟ ألا تلمع معاني الكلمات مثل البرق المضيء؟ إنه يقول: "إنَّ الروح الذي فيَّ كإله كان على حسب التدبير الإلهي، لأني تنازلت لأدعو نفسي المسيح بما أني مُسحت لأجل العالم كله.

موضوع التساؤل الأول



هنا أمر يستحق التقصِّي: كيف قال عنه هذه الكلمة بالنبي إشعياء: «**وَلاَ يَصِيحُ**» (مت١٢:١٩) بينما يقول يوحنا البشير بوضوح: «وَفِي الْيَوْمِ الأَخِيرِ الْعَظِيمِ مِنَ العِيدِ وَقَفَ يَسُوعُ وَنَادَى قَائِلاً: «إِنْ عَطِشَ أَحَدٌ فَلْيُقْبِلْ إِلَيَّ وَيَشْرَبْ» (يو٧:٣٧). وكيف قال: «**وَلاَ يَسْمَعُ أَحَدٌ فِي الشَّوَارِعِ صَوْتَهُ**» (مت١٢:١٩) بينما قال مخلصنا الصالح بوضوح للذين أمسكوه وقت الآلام، بالحري للجموع – لأنه يجب ألا نخرج في شيء عن الكلمات المُلهَم بها مِنَ الله – : «كَأَنَّهُ عَلَى لِصٍّ خَرَجْتُمْ بِسُيُوفٍ وَعِصِيٍّ لِتَأْخُذُونِي! كُلَّ يَوْمٍ

كُنْتُ أَجْلِسُ مَعَكُمْ أُعَلِّمُ فِي الْهَيْكَلِ وَلَمْ تُمْسِكُونِي» (مت٢٦:٥٥). وبينما كان الرسل يقولون له: «يَا مُعَلِّمُ، الْجُمُوعُ يُضَيِّقُونَ عَلَيْكَ وَيَزْحَمُونَكَ، وَتَقُولُ: مَنِ الذِي لَمَسَنِي!» (لو٨:٤٥)، «وَكَانَ يَسُوعُ يَطُوفُ كُلَّ الْجَلِيلِ يُعَلِّمُ فِي مَجَامِعِهِمْ، وَيَكْرِزُ بِبِشَارَةِ الْمَلَكُوتِ، وَيَشْفِي كُلَّ مَرَضٍ وَكُلَّ ضَعْفٍ فِي الشَّعْبِ» (مت٤:٢٣)، «وَكَانَ يَسُوعُ يَطُوفُ الْمُدُنَ كُلَّهَا وَالْقُرَى يُعَلِّمُ فِي مَجَامِعِهَا، وَيَكْرِزُ بِبِشَارَةِ الْمَلَكُوتِ، وَيَشْفِي كُلَّ مَرَضٍ وَكُلَّ ضُعْفٍ فِي الشَّعْبِ» (مت٩:٣٥)، وكان يجول في الجليل وفي اليهودية حتى «ذَاعَ خَبَرُهُ فِي جَمِيعِ سُورِيَّةَ»، كما هو مكتوب في (مت٤:٢٤). كيف إذًا حسب كلمة إشعياء النبي لم يسمع أحد في الشوارع صوته؟

ومن ناحية أخرى كيف لم يكسر القصبة المرضوضة وهو الذي بكلمة واحدة فقط جعل شجرة التين تجف؟ كيف يتفق ذلك مع النبوة؟

التفسير

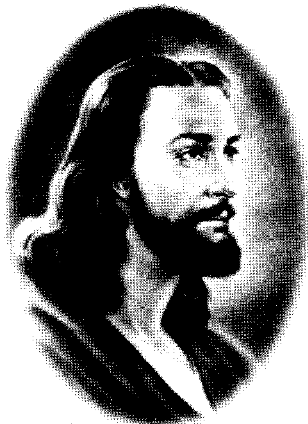
تأمل المعنى إذا أردت، وسوف ترى الاتفاق العظيم في كلمات الروح. في الواقع إنَّ هذه الكلمة «لاَ يَصِيحُ» لا يجب أن تُفهم أنها قيلت عن صيحة القانون والتعليم.

فأحيانًا يُقال أيضًا بطريقة لائقة بالله أنَّ المسيح يبدو بالحقيقة أنه يصرخ أو يصيح كثيرًا. ولكن عبارة «لاَ يَصِيحُ» قد قُصد بها الضجة أو

الصيحة التي تكون نتيجة المرارة والمُخاصمة، وتكون غريبة عن كل عذوبة.

لذلك فإنَّ البشير فعلاً حينما كان يشرح فكرة النبي إشعياء ذاتها قد وضع أولاً هذه العبارة: «**لاَ يُخَاصِمُ**»، وتلا بعد ذلك: «**وَلاَ يَصِيحُ**» (مت١٢:١٩) مُبيِّنًا بذلك أنها **الصيحة التي تأتي عن الخصام**، والتي قيل عنها أنَّ مخلصنا لا يصيح بها.

ويذكر ذلك **إشعياء النبي** بأسلوب مختلف وبطريقة غامضة، فيقول أولاً: «لاَ يَصِيحُ» وبدلاً من قوله: «لاَ يُخَاصِمُ» نجده يقول: «لاَ يَكِلُّ» (إش٤٢:٤) أي لا يتوقف عن الصياح.



هكذا حال الذين يصيحون بسبب المخاصمة والمناقشة، إنهم لا يتوقفون ولا يتساهلون ولا يتنازلون عن صراخهم، بل يصيحون بضجيج بدون توقف وبدون ترتيب في الهواء بلا فائدة.

وقد كتب **بولس الرسول** إلى أهل أفسس بخصوص هذا الضرب مِنَ الصياح: «لِيُرْفَعْ مِنْ بَيْنِكُمْ كُلُّ مَرَارَةٍ وَسَخَطٍ وَغَضَبٍ وَصِيَاحٍ وَتَجْدِيفٍ مَعَ كُلِّ خُبْثٍ» (أف٤:٣١). هي أيضًا صرخة أهل سدوم، فكان الرب يقول عنهم: «إِنَّ صُرَاخَ سَدُومَ وَعَمُورَةَ قَدْ كَثُرَ وَخَطِيَّتُهُمْ قَدْ عَظُمَتْ جِدًّا» (تك١٨:٢٠). وأيضًا كان يتهم إسرائيل بالنبي إشعياء قائلاً: «إِنَّ كَرْمَ رَبِّ

الْجُنُودِ هُوَ بَيْتُ إِسْرَائِيلَ وَغَرْسَ لَذَّتِهِ رِجَالُ يَهُوذَا. فَانْتَظَرَ حَقًّا فَإِذَا سَفْكُ دَمٍ وَعَدْلاً فَإِذَا صُرَاخٌ» (إش٥:٧).

كيف إذًا يصرخ صرخة لم تكن أدعى للثناء بل نابعة مِنَ المرارة والخصام، وهو الذي يقول لتلاميذه: «**اِحْمِلُوا نِيرِي عَلَيْكُمْ وَتَعَلَّمُوا مِنِّي، لأَنِّي وَدِيعٌ وَمُتَوَاضِعُ الْقَلْبِ فَتَجِدُوا رَاحَةً لِنُفُوسِكُمْ**» (مت١١:٢٩). وكان يقول بلطف لليهود الغاضبين الذين يريدون أن يقتلوه وهم أشبه بالحيوانات المتوحشة: «لِمَاذَا تَطْلُبُونَ أَنْ تَقْتُلُونِي؟» (يو٧:١٩)، وأيضًا: «وَلَكِنَّكُمُ الآنَ تَطْلُبُونَ أَنْ تَقْتُلُونِي، وَأَنَا إِنْسَانٌ قَدْ كَلَّمَكُمْ بِالْحَقِّ الَّذِي سَمِعَهُ مِنَ اللَّهِ. هَذَا لَمْ يَعْمَلْهُ إِبْرَاهِيمُ» (يو٨:٤٠). وهو الذي كان يرد على خادم رئيس الكهنة الذي لطمه على خده بطريقة مُهينة: «إِنْ كُنْتُ قَدْ تَكَلَّمْتُ رَدِيًّا فَاشْهَدْ عَلَى الرَّدِيِّ، وَإِنْ حَسَنًا فَلِمَاذَا تَضْرِبُنِي؟» (يو١٨:٢٣).

إذًا كما أنه لم يُثر ضجيجًا، هكذا أيضًا لم يُعلِّم في الشوارع الكبيرة باحثًا عن المجد الباطل. بل كان يُعلِّم في الهيكل وفي أماكن العبادة حيث مكان التعليم. ويبدو أن معظم تعاليمه كانت في الأماكن المُقفرة، على الجبل، وعند شاطئ البحيرة، فلم يظهر في أي مكان أنه كان يُعلِّم في الشوارع.

وقد شهد مخلصنا نفسه أنه تحت كلمة «الشَّوَارِعِ» ينطوي معنى المجد الباطل، وذلك حينما قال بخصوص الفريسيين المرائيين: «فَإِنَّهُمْ يُحِبُّونَ أَنْ

يُصَلُّوا قَائِمِينَ فِي الْمَجَامِعِ وَفِي زَوَايَا الشَّوَارِعِ، لِكَيْ يَظْهَرُوا لِلنَّاسِ» (مت٦:٥). لأنَّ دلالتي كلمة «الشَّوَارِعِ»، وكلمة «الْمَجَامِعِ» قريبتان.

وهكذا من ناحية، تحمل عبارة «لاَ يُخَاصِمُ وَلاَ يَصِيحُ» معنى الحلم والسلام، كما تشير عبارة: «وَلاَ يَسْمَعُ أَحَدٌ فِي الشَّوَارِعِ صَوْتَهُ» (مت١٢:١٩) من ناحية أخرى، إلى أنه لم يكن يحب المجد الباطل والظهور والكبرياء والإباحية التي تأتي مِنَ المجد الباطل.

عدم مُهادنة مَن يلزمهم التوبيخ

ومع أن المسيح إلهنا كان يلوم الفريسيين ويؤنِّبهم، إلا أن ذلك لا ينفي لطفه تعالى. فإنه في بعض الظروف يجب علينا أن نتيقَّظ ونقف بشدة ضد القساوة ولا نتحمل في مهادنة، أو بالحري بطريقة من فقد الإحساس، أولئك الذين يحتاجون إلى التوبيخ والتقويم.

ولهذه الكلمة أيضًا: «وَلاَ يُسْمِعُ فِي الشَّارِعِ صَوْتَهُ» (إش٤٢:٢) معنى آخر رفيع جدًا. لأنَّ المسيح إلهنا كان يعرض كلمة التعليم بأمثال، وفي سرية، مثل شيء كثير الثمن، وهذا الأسلوب فيه تنويه، كيلا لا تُعطَى الأشياء المُقدسة للكلاب: «لاَ تُعْطُوا الْقُدْسَ لِلْكِلاَبِ، وَلاَ تَطْرَحُوا دُرَرَكُمْ قُدَّامَ الْخَنَازِيرِ» (مت٧:٦)، إذ أن هؤلاء هم الذين يبقون في الشوارع، وكذلك حينما سأله تلاميذه: «لِمَاذَا تُكَلِّمُهُمْ بِأَمْثَالٍ؟» كان يقول لهم: «قَدْ أُعْطِيَ لَكُمْ أَنْ تَعْرِفُوا أَسْرَارَ مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ، وَأَمَّا لأُولَئِكَ فَلَمْ يُعْطَ» (مت١٣:١٠، ١١).

إنَّ المسيح إلهنا لم يقصف القصبة المرضوضة، أي ضعف اليهود، ولم يُطفئ الفتيلة المُدخِّنة، أي غضب اليهود المُثار ضده الذي اشتعل وضعف وتحطَّم أيضًا في نفس الوقت الذي أُثير فيه.

هذه هي الفتيلة التيل التي احترقت في نفس الوقت الذي اشتعلت فيه، فصارت بالأخص طعامًا للدخان وليس طعامًا للنار. فإنَّ مخلصنا الصالح لم يُطفئ هذا الغضب حين كان يُحارب. فبينما هو يستطيع ذلك تحمله حتى يجعل الغاضبين بدون وجه حق الذين لا ينصلحون مستوجبين الدينونة. فلم تكن هناك حاجة إلى إطفائه، وقد أراد الرب بتركه مشتعلاً أن يُظهِر عدله.

ولم يكتب البشير هذه الكلمة: «قَصَبَةً مَرْضُوضَةً لاَ يَقْصِفُ وَفَتِيلَةً خَامِدَةً لاَ يُطْفِئُ. إِلَى الأَمَانِ يُخْرِجُ الْحَقَّ» (إش٤٢:٣) بينما توجد في نبوة إشعياء.

وتُعبِّر أيضًا نفس هذه النبوة المُتعلِّقة بالفتيلة المُدخَّنة التي لم تُطفأ والتي ترمز إلى غضب اليهود، عن شيء آخر، فهي تُبيِّن صبر من احتمل هذا الغضب. إن الفتيلة تحترق دون تلف «**حَتَّى يَضَعَ الْحَقَّ فِي الأَرْضِ وَتَنْتَظِرُ الْجَزَائِرُ شَرِيعَتَهُ**» (إش٤٢:٤).

ما معنى هذا؟

من خواص الفتيلة التيل أن تشتعل فجأة ثم تتوهج وتحترق دفعة واحدة. ولم يُطفئ السيد المسيح غضب اليهود، بل حينما احترق واشتعل ضده مرارًا، لم يسمح أن يكظموه فيضيع، أخرجه محتملاً الصليب بإرادته، وبعد قيامته، فكان للنصر وهو منفذ الحكمة، هو الذي حاكمه اليهود حينما كان بيلاطس واليًا، وهو نفسه الذي حاكم الوسواس حينما أتى إلى الآلام لأجلنا، إذ يقول: «وَأَمَّا عَلَى دَيْنُونَةٍ فَلأَنَّ رَئِيسَ هَذَا الْعَالَمِ قَدْ دِينَ» (يو١٦:١١).

دينونة الغاضبين

وأيضًا: «اَلآنَ دَيْنُونَةُ هَذَا الْعَالَمِ. اَلآنَ يُطْرَحُ رَئِيسُ هَذَا الْعَالَمِ خَارِجًا. وَأَنَا إِنِ ارْتَفَعْتُ عَنِ الأَرْضِ أَجْذِبُ إِلَيَّ الْجَمِيعَ» (يو١٢:٣١، ٣٢). وأن الأمم في الواقع قد ترجَّت باسمه بعد أن أظهر الحق للنصر.

أرأيت كيف أنَّ كلمات النبوة تتفق مع الأناجيل؟ ويجدر بنا أيضًا أن نربط بين ترنيمة داود وبين هذه الكلمات، قال: «لِكَيْ تَتَبَرَّرَ فِي أَقْوَالِكَ وَتَزْكُوَ فِي قَضَائِكَ» (مز٥١:٤).

وقيل في إشعياء النبي بهذا المعنى: «حَتَّى يَضَعَ الْحَقَّ فِي الأَرْضِ وَتَنْتَظِرُ الْجَزَائِرُ شَرِيعَتَهُ» (إش٤٢:٤). وقال متى البشير: «حَتَّى يُخْرِجَ الْحَقَّ إِلَى النُّصْرَةِ» (مت١٢:٢٠). وقد ذكر الكتاب الإلهي النصر في سفر هوشع إذ قال:

«مِنْ يَدِ الْهَاوِيَةِ أَفْدِيهِمْ. مِنَ الْمَوْتِ أُخَلِّصُهُمْ. أَيْنَ أَوْبَاؤُكَ يَا مَوْتُ؟ أَيْنَ شَوْكَتُكِ يَا هَاوِيَةُ؟ تَخْتَفِي النَّدَامَةُ عَنْ عَيْنَيَّ» (هو١٣:١٤)، وأيضًا: «أَيْنَ شَوْكَتُكَ يَا مَوْتُ؟ أَيْنَ غَلَبَتُكِ يَا هَاوِيَةُ؟» (١كو١٥:٥٥)، وأيضًا: «وَلَكِنْ شُكْرًا لِلَّهِ الَّذِي يُعْطِينَا الْغَلَبَةَ بِرَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ» (١كو١٥:٥٧).

ونستطيع ببساطة أن نفهم أيضًا قوله: «لاَ يُخَاصِمُ وَلاَ يَصِيحُ، وَلاَ يَسْمَعُ أَحَدٌ فِي الشَّوَارِعِ صَوْتَهُ. قَصَبَةً مَرْضُوضَةً لاَ يَقْصِفُ، وَفَتِيلَةً مُدَخِّنَةً لاَ يُطْفِئُ، حَتَّى يُخْرِجَ الْحَقَّ إِلَى النُّصْرَةِ» (مت١٢:١٩، ٢٠). ففي زمن الآلام الخلاصية، أخذ مخلصنا الصالح قصبة بوداعة مِنَ الذين كانوا يُعذّبونه ويستهزئون به، لم يكسرها حينما اتكأ عليها كمَن يتحمل الخزي بصعوبة. وكذلك بيلاطس حسب كلمة يوحنا البشير: «أَخْرَجَ يَسُوعَ، وَجَلَسَ عَلَى كُرْسِيِّ الْوِلاَيَةِ فِي مَوْضِعٍ يُقَالُ لَهُ «الْبَلاَطُ» وَبِالْعِبْرَانِيَّةِ «جَبَّاثَا»» (يو١٩:١٣).

هذا البلاط كان الميدان، وفيه حسب النبوة: «ظُلِمَ أَمَّا هُوَ فَتَذَلَّلَ وَلَمْ يَفْتَحْ فَاهُ كَشَاةٍ تُسَاقُ إِلَى الذَّبْحِ وَكَنَعْجَةٍ صَامِتَةٍ أَمَامَ جَازِّيهَا فَلَمْ يَفْتَحْ فَاهُ» (إش٥٣:٧)، فلم يسمع أحد صوته في الشوارع.

هذه النبوة التي ناقشناها الآن قد ذكرها متّى البشير لأنه قال قبلها أن يسوع شفى رجلاً كانت يده يابسه «وَإِذَا إِنْسَانٌ يَدُهُ يَابِسَةٌ، فَسَأَلُوهُ قَائِلِينَ: «هَلْ يَحِلُّ الإِبْرَاءُ فِي السُّبُوتِ؟» لِكَيْ يَشْتَكُوا عَلَيْهِ» (مت١٢:١٠). ثم أضاف:

«فَلَمَّا خَرَجَ الْفَرِّيسِيُّونَ تَشَاوَرُوا عَلَيْهِ لِكَيْ يُهْلِكُوهُ، فَعَلِمَ يَسُوعُ وَانْصَرَفَ مِنْ هُنَاكَ. وَتَبِعَتْهُ جُمُوعٌ كَثِيرَةٌ فَشَفَاهُمْ جَمِيعًا. وَأَوْصَاهُمْ أَنْ لاَ يُظْهِرُوهُ» (مت١٢: ١٤-١٦).

ترفُّق المسيح

إذًا فلأن ربنا يسوع مع أنه الله بطبيعته وهو قوة الآب الأزلي، قد تواضع حينما احتمل إهانات الفريسيين، وكان حليمًا إذ أتمّ التدبير الإلهي دون أن يرعد صوته، ومع أنه كان في استطاعته أن يُميت دفعة واحدة كل الذين يقومون ضده، لذلك أبرز البشير النبوة التي ذكرت القصبة المرضوضة التي لم تُقصف والفتيلة المُدخِّنة التي لم تُطفأ مثالاً! كل هذا التنازل وهذه الوداعة، لكي يُبيِّن أنَّ صبره كان يتخطّى الصعوبات وفقًا للتدبير الإلهي، دون أن يظهر عظمة إلوهيته، كمن يرفق أن يلمس الفتيلة المُدخِّنة فتُطفأ في الحال، أو أن يتكئ على القصبة المرضوضة فتنكسر في الحال، أو أن يتكلم كلمة بفمه فيسمعه أحد مِنَ الذين في الخارج، ويبدو أن هذا كله قد قيل مثالاً ليُبيِّن وداعته وسلامه.



القضية الثانية

علينا أيضًا أن نناقش السؤال الآخر الذي سألوه عما قُرأ، بالإضافة إلى ما ذُكِر، وأن نجد له الحل الذي يُناسبه. قال مخلصنا: «**كُلُّ خَطِيَّةٍ وَتَجْدِيفٍ يُغْفَرُ لِلنَّاسِ، وَأَمَّا التَّجْدِيفُ عَلَى الرُّوحِ فَلَنْ يُغْفَرَ لِلنَّاسِ**» (مت١٢:٣١).

هل فعلاً إذا جدَّف أحد ضد الآب أو ضد الابن قائلاً إن الأشياء الكائنة هي كائنة بذاتها، ولم تُخلَق، وليست العناية الإلهية التي تحكم الكون هي التي تُدير الكائنات، أو إذا كان أحد يعترف بوجود الله ولكنه يُنكر وجود أقنوم الابن، ويقبل أن يقول أنه لا يوجد على الإطلاق، فهل ننظر إلى تجديف هذا الإنسان كأنه تجديف محتمل يستحق المغفرة، مع أن الثالوث الأقدس مساو في الكرامة وفي الجوهر وفي المُلك وفي المجد؟

إنَّ ما قيل بطريقة غير مُحدَّدة وبصفة عامة قد حدَّده مخلصنا الصالح فيما عقبه مِنَ البيان بعد. فبعد أن قال بطريقة بسيطة مُرسلة: «كُلُّ خَطِيَّةٍ وَتَجْدِيفٍ يُغْفَرُ لِلنَّاسِ، وَأَمَّا التَّجْدِيفُ عَلَى الرُّوحِ فَلَنْ يُغْفَرَ لِلنَّاسِ» (مت١٢:٣١)، أضاف: «وَمَنْ قَالَ كَلِمَةً عَلَى ابْنِ الإِنْسَانِ يُغْفَرُ لَهُ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ عَلَى الرُّوحِ الْقُدُسِ فَلَنْ يُغْفَرَ لَهُ، لاَ فِي هَذَا الْعَالَمِ وَلاَ فِي الآتِي» (مت١٢:٣٢).

عدم اِمتداح المعجزة باب للتجديف

فنحن نستخلص المعنى تِبعًا لذلك حينما نقرأ الجملة كلها وليس جزءًا منها فقط. وقد حدثت فعلاً علامة إلهية عجيبة من جهة السيد المسيح بواسطة الروح القدس الذي فيه بالجوهر وبالعطايا التي يهبها هو نفسه للآخرين. فحين كان يجب على اليهود أن يمتدحوا المعجزة، تفوّهوا بكلمات التجديف. فقد كان هناك رجل مجنون أعمى وأخرس، يُكافح في نفس الوقت ثلاث عاهات، وفضلاً عن أنه كان ينقصه الحاستان الرئيسيتان، كان ينقصه أيضًا عمل العقل – وهكذا حال الذين يتملَّكهم الجنون الذي يأتي مِنَ الشيطان – فشفاه الرب بطريقة تليق بالله وبمحبة في نفس الوقت، حتى بالحقيقة تكلَّم هذا الرجل الأعمى الأخرس وأبصر. وأن جماعة اليهود الذين يُحاربون نعمة الله المُستعدون للتجديف قالوا: «هَذَا لاَ يُخْرِجُ الشَّيَاطِينَ إِلاَّ بِبَعْلَزَبُولَ رَئِيسِ الشَّيَاطِينِ» (مت١٢:٢٤).

يجب أن نحذر ونتأمل الكتاب المقدس. فحيثما كان مخلصنا يتكلم موبِّخًا هذا التجديف قال بعبارات خاصة أنَّ الشيطان لا يُخرِج الشيطان، وأنه هو نفسه بروح الله يُخرِج الشياطين. حينئذ استعمل الكلمات المذكورة إذ يقول: «لِذَلِكَ أَقُولُ لَكُمْ: كُلُّ خَطِيَّةٍ وَتَجْدِيفٍ يُغْفَرُ لِلنَّاسِ، وَأَمَّا التَّجْدِيفُ عَلَى الرُّوحِ فَلَنْ يُغْفَرَ لِلنَّاسِ» (مت١٢:٣١).

تجديف اليهود

فبما أنَّ اليهود كانوا عميانًا فيما يختص بالحالة المتواضعة التي اِتخذها الله الكلمة مخلصنا بسببنا بتأنُّسه، وإذ كانوا يتخبَّطون في الظلام كانوا يصطدمون بهذه الحالة، فكانت بالنسبة لهم «حَجَرَ امْتِحَانٍ حَجَرَ زَاوِيَةٍ كَرِيمًا أَسَاسًا مُؤَسَّسًا» (إش٢٨:١٦)، كما أعلنت النبوة سلفًا: «وَيَكُونُ مَقْدِسًا وَحَجَرَ صَدْمَةٍ وَصَخْرَةَ عَثْرَةٍ لِبَيْتَيْ إِسْرَائِيلَ وَفَخًّا وَشَرَكًا لِسُكَّانِ أُورُشَلِيمَ» (إش٨:١٤)، وكانوا لا يتصوَّرون أبدًا الوجود قبل الدهور، والميلاد الغير جسدي مِنَ الآب، والمساواة وعدم التغيير فيما يتعلق بالمولود منه، ولكن كان لهم رأي أرضي، فكانوا يقولون: «أَلَيْسَ هَذَا ابْنَ النَّجَّارِ؟ أَلَيْسَتْ أُمُّهُ تُدْعَى مَرْيَمَ، وَإِخْوَتُهُ يَعْقُوبَ وَيُوسِي وَسِمْعَانَ وَيَهُوذَا؟» (مت١٣:٥٥)، وأيضًا: «فَأَجَابَ الْيَهُودُ وَقَالُوا لَهُ: أَلَسْنَا نَقُولُ حَسَنًا: إِنَّكَ سَامِرِيٌّ وَبِكَ شَيْطَانٌ؟» (يو٨:٤٨)، وأيضًا: «لَسْنَا نَرْجُمُكَ لأَجْلِ عَمَلٍ حَسَنٍ، بَلْ لأَجْلِ تَجْدِيفٍ، فَإِنَّكَ وَأَنْتَ إِنْسَانٌ تَجْعَلُ نَفْسَكَ إِلَهًا» (يو١٠:٣٣).

هذا إذًا مُجمل ما كانوا يقولونه مُجدِّفين ضد ابن الإنسان، حينما أعثرهم التدبير الإلهي، ويقول ربنا إنه يغفر لهم حينما يكون عذرهم جهلهم بالسر وبتنازل ابن الله الكلمة وبتواضعه في التأنُّس.

التجديف ضد معجزات المسيح لا مغفرة له

لذلك فعلاً قيل: «يُغْفَرُ لِلنَّاسِ» (مت١٢:٣١) ولم يقل: "لكم"، وكأنه يقول: "إني أغفر هكذا للناس الذين لا يعرفون عمق التدبير الإلهي، أما الإهانات التي كانوا يصنعونها مُجدِّفين ضد العلامات الإلهية وضد المعجزات العجيبة التي كان يُتمِّمها ويصنعها بالروح القدس الذي فيه من نفس الجوهر، حينما كانوا يقولون: «هَذَا لاَ يُخْرِجُ الشَّيَاطِينَ إِلاَّ بِبَعْلَزَبُولَ رَئِيسِ الشَّيَاطِينِ» (مت١٢:٢٤)، فهذه لأنها تتعلق بالتجديف ضد الروح القدس، ولها ما يليق بالله تبعًا للأحداث ذاتها، فهي لا تترك لهم منفذًا لعذر، ويقول السيد المسيح إنها لن تُغفر لهم لأن ذلك لم يكن عن جهل يحجب رؤيتهم. لذلك أيضًا قال هذه الكلمة بوضوح: «فَلَنْ يُغْفَرَ لِلنَّاسِ» (مت١٢:٣١).

فكان يجب عليهم فعلاً كعقلاء ألا يتصرَّفوا بطريقة مجردة عن الفهم ولا يُجدِّفوا بخصوص ما هو واضح ومعروف.

الحكم على المُجدِّفين

إنَّ أعماله تعالى أمام أعيننا تُذيع ما يليق بالله. لأنه في حالتَيْن عرض مرة المغفرة ومرة أخرى الإدانة، فحقَّق بذلك أن الغضب ليس بسبب الإهانة فحسب – لأنه في مكان آخر دعوه سامريًا وبه روح نجس – بل بسبب تجديفهم المُتعلِّق بالمعجزات الإلهية وبسبب جهلهم أيضًا.

التفسير الأول



ويجب أن نفهم أن هذا التجديف ضد ابن الإنسان، كان ليُغتفر ويُعتبر أقل مِنَ التجديف على الروح القدس، إلى **زمان الصليب**، لأنه بالحقيقة حتى ذلك الزمان كان المسيح يخفي رِفعة إلوهيته بكلمات وبأعمال تتفق والتدبير الإلهي.

وبعد الصليب والقيامة مِنَ الأموات، لا يعرف بعد حسب الجسد، ولا يأتي مرة ثانية بأعمال وبكلمات متواضعة بشرية، بعد أن تم التدبير الإلهي، كما يقول بولس الرسول: «إِذًا نَحْنُ مِنَ الآنَ لاَ نَعْرِفُ أَحَدًا حَسَبَ الْجَسَدِ. وَإِنْ كُنَّا قَدْ عَرَفْنَا الْمَسِيحَ حَسَبَ الْجَسَدِ، لَكِنِ الآنَ لاَ نَعْرِفُهُ بَعْدُ» (٢كو٥:١٦)، حينئذ لن يُعطي أيّة حجة للمغفرة للذين يُجدِّفون ضده.

ولا يجدفون بعد ذلك هكذا ضد ابن الإنسان، وقد تخطّى ظروف إخلاء ذاته، وصعد في العلا، وهو مُتجسِّد، وجلس مع الآب عن يمينه، مع أنه بطريقة غير جسدية بالحقيقة يملأ الكون، وقد كان وهو كائن بطريقة لا يستطيع أحد أن يفهمها فوق كل شيء.

عقوبة مَن يُجدِّف بعد تمام التدبير الإلهي

لذلك فعلاً قال: «وَمَنْ قَالَ كَلِمَةً عَلَى ابْنِ الإِنْسَانِ يُغْفَرُ لَهُ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ عَلَى الرُّوحِ الْقُدُسِ فَلَنْ يُغْفَرَ لَهُ، لاَ فِي هَذَا الْعَالَمِ وَلاَ فِي الآتِي» (مت١٢:٣٢).

فبالنسبة لمَن يجدِّف ضده بعد تمام التدبير الإلهي، وكذلك بالنسبة لمَن يغضب ضد الروح القدس ويُهينه ويُخطئ خطية أبعد عن المغفرة، لن تكون له أية مغفرة، ونقول مع ذلك:

إذا كان أحد يبقى في نفس التجديف حتى آخر حياته، ويترك الحياة في هذه الحالة – لأنه إذا كان قد توصّل إلى التوبة حين كانت أيام هذه الحياة مُعطاة له بوفرة، فمن الواضح والمؤكَّد أنَّ التوبة نفسها تغلب كل خطية – فيكون مؤكَّد أنه يمنح المغفرة للذين يتوبون حقًا كما يليق.

ولنضرب مثلاً ليصبح قوله أكثر وضوحًا. نفترض أن اثنَيْن قد جدَّفا في هذا الوقت: الواحد من جهة قد اصطدم بالجسد وقال ليسوع: «فَإِنَّكَ وَأَنْتَ إِنْسَانٌ تَجْعَلُ نَفْسَكَ إِلَهًا» (يو١٠:٣٣)، والآخر من جهة أخرى إذ كان غاضبًا لدرجة التجديف ضد العلامات الإلهية التي كانت تتم بالروح القدس، فقال: «هَذَا لاَ يُخْرِجُ الشَّيَاطِينَ إِلاَّ بِبَعْلَزَبُولَ رَئِيسِ الشَّيَاطِينِ» (مت١٢:٢٤) وكلا الاثنَيْن انقادا بالخطايا العظيمة نحو الطريق الذي يؤدِّي إلى الموت.

بين المغفرة والحكم

هناك من ناحية، مثلاً لمَن جدَّف ضد ابن الإنسان، ويُغفَر له، وهذا الأخير من ناحية أخرى الذي أخطأ ضد الروح القدس، يُحكَم عليه، فإنه حتمًا لن ينال المغفرة في هذا الدهر ولا في الدهر الآتي.

التفسير الثاني



والبعض يقولون إنَّ ربنا قال هذا أيضًا: «وَأَمَّا التَّجْدِيفُ عَلَى الرُّوحِ فَلَنْ يُغْفَرَ لِلنَّاسِ» (مت١٢:٣١) ويجري مجرى النبوة.

الهراطقة مُجدِّفون

فإنه في الواقع يعرف مُقدَّمًا، كما يقولون، إن بعض الهراطقة الكفرة، الذين كان مقدونيوس رئيسًا لجماعتهم، كانوا سيقولون بأن الروح القدس غير مساوٍ للآب والابن، لأنَّ مخلصنا نفسه قال في الأناجيل بخصوص الباراقليط: «لأَنَّهُ لاَ يَتَكَلَّمُ مِنْ نَفْسِهِ، بَلْ كُلُّ مَا يَسْمَعُ يَتَكَلَّمُ بِهِ، وَيُخْبِرُكُمْ بِأُمُورٍ آتِيَةٍ» (يو١٦:١٣)، وأيضًا: «ذَاكَ يُمَجِّدُنِي، لأَنَّهُ يَأْخُذُ مِمَّا لِي وَيُخْبِرُكُمْ» (يو١٦:١٤) يقولون إنه لذلك استخدم طوعًا هذه الكلمة الشديدة، فتواضع مع الحرص وقال إن التجديف ضده، مانعًا سلفًا الهراطقة من أن يفتحوا فمهم المُجدِّف ضد الروح القدس كأنه أصغر أو ليس من ذات الجوهر كالآب والابن.

التفسير الثالث



إدانة من يخطئ بعد تذوُّق التعاليم كمُجدِّف:

وهناك مَن يعطي نفس هذا الفصل شرحًا ثالثًا أيضًا، ويأتي في ذلك بمعاني في غاية الارتفاع. فإنَّ تأنُّس المسيح مخلصنا يشغل مِنَ التعاليم الصدارة، هي تلك التعاليم التمهيدية التي يُسلِّمها المُعلِّمون شيئًا فشيئًا، بشأن ما يتعلق بالله، المبتدئين الآن في الدين الذين يسلكون حسب الإرشادات الأولى. أما المعرفة المُتعلِّقة بالثالوث الأقدس فهي منيعة بالنسبة للعامة ولا يستطيع أحد أن يصل إليها.

لكن المسيح الواحد مِنَ الثالوث، كلمة الله، بعد أن تجسَّد بدون استحالة، وتأنَّس وتنازل هو نفسه طوعًا، وقدَّم لنا المعرفة المُتعلِّقة بذاته وبالآب وبالروح القدس، حينما تكلم معنا كما يُكلِّم الأطفال، لأنه شابهنا واشترك في نفس الجوهر معنا فيما خلا الخطية، وتأنَّس طوعًا، لذلك فعلاً كان يدعو نفسه "الطَّرِيقُ" و "الْحَيَاةُ"، «أَنَا هُوَ الْبَابُ. إِنْ دَخَلَ بِي أَحَدٌ فَيَخْلُصُ وَيَدْخُلُ وَيَخْرُجُ وَيَجِدُ مَرْعًى» (يو١٠:٩)، «أَنَا هُوَ الطَّرِيقُ وَالْحَقُّ وَالْحَيَاةُ. لَيْسَ أَحَدٌ يَأْتِي إِلَى الآبِ إِلاَّ بِي» (يو١٤:٦)، فبيَّن لنا أنه قد أصبح الباب والبداية بالنسبة للفكر المُتعلِّق بالثالوث الأقدس ومعرفة الله الذي على الكل.

اشتراط الندامة والتوبة

فإذا كان أحد، وهو يتذوق الآن تعاليم الدين، مِنَ الذين هم أيضًا في مدخل المعرفة، يُخطئ ويسقط مما يليق، مثل مَن يُخطئ ضد التأنُّس ويُجدِّف ضد ابن الإنسان، فسوف يُغفَر له، وتكون له مغفرة إذا كان يتوب توبة جديرة بهذا الاسم، كما قلت سابقًا. في هذه الندامة يكون كل شيء، ولا شيء على الإطلاق غير خاضع لهذا العلاج. ومع ذلك فبالنسبة لتلك الخطايا العظيمة جدًا، فإنَّ الشفاء ذاته يكون صعبًا، ومؤلمًا ومُتعبًا للغاية ويحتاج لدموع كثيرة وأتعاب وآلام.

عقوبة الاِرتداد

لكن إذا كان أحد، بعد أن ثابر طويلاً، وبعد أن تدرَّب تداريب الحكمة الإلهية ونال بالتقدُّم في الفضائل والتأمل، المواهب الروحية التي يعدّها بولس الرسول مثل كلمة المعرفة والنبوة والأشفية وصنع المعجزات (١كو١٢:٨-١٠)، ثم يضل بعيدًا عن الحق ويسقط، فمَن يكون هكذا لن تكون له بعد ذلك مغفرة، كمَن جدَّف على الروح القدس.

فلا يخدع أحد نفسه أو ينخدع، لأنَّ ربنا قال إنَّ هذه التجاديف لن تُغفَر لا في هذا الدهر ولا في الدهر الآتي، وهو يميز بين الخطايا ويتصوَّر الأضداد، فمن جهة لا توجد خطايا تُغفَر في هذا الدهر، وهي من جهة

أخرى تُغفَر في الدهر الآتي. فمن المعروف جيدًا أن هذه الكلمة: «لاَ فِي هَذَا الْعَالَمِ وَلاَ فِي الآتِي» لا تتعلق بالتمييز العكسي، لكن بالاِمتداد الزمني – لأنه لما كان يريد الاشعار بالموقف المُخيف، فقد أضاف ما هو مُعترَف بصحته وما تأكَّد بأنه لا يُغفَر في هذا الدهر ولا في الدهر الآتي أيضًا.

ومرارًا نجد أنَّ الله نفسه يطنب في تهديد فيما يكون لا اعتراض عليه، لكي يُعلِّم المخافة، فمثلاً حينما يقول بفم موسى النبي: «أُنْظُرُوا الآنَ! أَنَا أَنَا هُوَ وَلَيْسَ إِلهٌ مَعِي. أَنَا أُمِيتُ وَأُحْيِي. سَحَقْتُ وَإِنِّي أَشْفِي وَلَيْسَ مِنْ يَدِي مُخَلِّصٌ» (تث٣٢:٣٩).

فإذا كان لا يريد، فمَن ذا الذي يستطيع أن يُخلِّص بالقوة من بين يديه مَن سقط مرة بين يديه؟ إنه هكذا يقول هنا أيضًا، أنه لن يُغفَر له في هذا الدهر، ولن تُقاومني في ذلك، وبالتالي في الدهر الآتي، فاعتبر إلى أين ترسلك الخطية التي لا تُغفَر في هذا الدهر. مِنَ المؤكّد حقيقة أنها تبعثك في الدهر الآتي إلى العذاب الذي لا نهاية له للسكن هناك، وإلى الدينونة، حسب قول داود النبي في المزامير: «لأَنَّهُ لَيْسَ فِي الْمَوْتِ ذِكْرُكَ. فِي الْهَاوِيَةِ مَنْ يَحْمَدُكَ؟» (مز٦:٥).

ولأننا بصفة عامة، ننتبه كلنا إلى الأشياء التي تُسبِّب الحزن المليئة بالعمل، في هذا الدهر، بينما لا نهتم إطلاقًا بالدهر الآتي، لذلك فإنَّ مخلصنا قال أولاً: «وَأَمَّا التَّجْدِيفُ عَلَى الرُّوحِ فَلَنْ يُغْفَرَ لِلنَّاسِ. وَمَنْ قَالَ كَلِمَةً عَلَى ابْنِ الإِنْسَانِ يُغْفَرُ لَهُ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ عَلَى الرُّوحِ الْقُدُسِ فَلَنْ يُغْفَرَ لَهُ، لاَ فِي

هَذَا الْعَالَمِ» ثم أضاف ما يعترف به بالتأكيد أنه حقيقي لكي يُلقي الخشية في القلوب، فقال: «وَلاَ فِي الآتِي» (مت١٢: ٣١، ٣٢).

لنخش إذن نحن أيضًا، من أن ننسى أننا نقترف خطايا عظيمة بسبب الإهمال الكثير حينما لا نهتم بالخطايا الصغيرة الاهتمام الكافي، وكما قال بولس الرسول، حينما نُحزن الروح القدس الذي به خُتمنا لأجل يوم الخلاص: «وَلاَ تُحْزِنُوا رُوحَ اللهِ الْقُدُّوسَ الَّذِي بِهِ خُتِمْتُمْ لِيَوْمِ الْفِدَاءِ» (أف٤: ٣٠). ولكن في كل ساعة لنفتش ذواتنا، معتبرين بعناية هل المسيح فينا بالأعمال؟ لأنه كما يقول الكتاب الإلهي «مُخِيفٌ هُوَ الْوُقُوعُ فِي يَدَيِ اللهِ الْحَيِّ! » (عب١٠: ٣١)، وفي الدهر الآتي النار التي لا تُطفأ.

ليتنا ننجو منها جميعنا وننال ملكوت السموات، بالنعمة والمحبة التي لربنا ومخلصنا يسوع المسيح الذي يليق به المجد والسلطان مع الآب والروح القدس الآن وكل آوان وإلى دهر الداهرين، آمين.



الصوم الكبير

سلسلة مقالات الأنبا ساويرس

البطريرك الأنطاكي

٢٥

الصوم الكبير

مُترجم عن الفرنسية مِنَ الجزء الثالث والعشرين من مجموعة

PATROLOGIA ORIENTALIS.

R. Graffin – F. Nau

Les Homélies Cathédrales de Sévère d'Antioche

Homélie CV

Publiées et traduites par Maurice Brière

Paris

مليكه حبيب يوسف   يوسف حبيب

مقدمة



الصوم هو الذي يحِد من اضطرام شهوات الجسد ويخمدها ويغسل الإنسان الداخلي من كل دنس. فيستنير العقل، وتسمو النفس فوق المادة، ويستعد الإنسان لتفهُّم الأمور السماوية.

الصوم الطاهر المُقدَّس لا يتفق مع الامتزاج بالشر. فلنهرب مِنَ الزنا، ولنبتعد عن المحادثات الشريرة والاغتياب، ولنمتنع عن التدخُّل فيما لا يعنينا من أمور الغير. لأن الاغتياب يُغلق أمامنا ملكوت السموات مثل الزنا والخطايا الجسيمة الأخرى.

والمحبة هي تاج الصوم، فبدونها يبدو الصوم فارغًا باطلاً. فيلزم أن نجتهد في التواضع والوداعة نحو الجميع. لا نغفل الرحمة نحو الفقراء، ولا نقسو في مُطالبة الذين عليهم دين.

وحتى لا نسقط في الملل أثناء الصوم لنهرع إلى الكنيسة؛ نحضر القداسات ونُصلّي مع المُصلِّين، ونرتل مع المُرتِّلين، وسوف نرى كيف أن الوقت الذي نُكرِّسه للرب يمر بسرعة.



الفرحة بعودة صوم الأربعين المُقدَّس

كان بداخل تابوت العهد المُقدَّس: لوحا الناموس والوصايا المكتوبة بإصبع الله، وعصا هارون العجيبة التي أفرخت أوراقًا وثمارًا في ليلة واحدة بعد أن كانت قد قُطعت، والوعاء الذهبي الذي يحتوي على المَن النازل مِنَ السماء. وقد استولى الفلسطينيون على التابوت بعد أن هزموا الإسرائيليين في معركة قد خطَّطوا لها. وإذ أغضب الفلسطينيون الله، عاقبهم وضربهم بالقروح التي يُستعصَى شفاؤها. فوضعوا التابوت على عربة وأعادوه بكل احترام مع ذبائح كثيرة مُعترفين بخطاياهم.

بَيْدَ أنَّه مع عودة التابوت من عند الأعداء بهذه الطريقة العجيبة الإلهية، دون أن يُجهَد في ذلك أحد مِنَ الإسرائيليين، ودون معركة، كانت أذهانهم بعيدة عن ذكر الله لدرجة أن العجائب العظيمة التي رأوها لم توقظ ضمائرهم التعسة، فلم يحمدوا الرب صانع هذه العجائب، في حين أنه كان ينبغي أن يتهلَّلوا ويفرحوا فرحًا روحيًا مثلما فعل داود النبي، فقد تهلَّل ورقص أمام تابوت العهد عندما أتوا به إلى الهيكل في ظروف مُماثلة.

فماذا يقول الكتاب المقدس عن أولئك الذين رأوا التابوت في الظروف الأولى؟ «وَضَرَبَ أَهْلَ بَيْتَشَمْسَ لأَنَّهُمْ نَظَرُوا إِلَى تَابُوتِ الرَّبِّ. وَضَرَبَ مِنَ الشَّعْبِ خَمْسِينَ أَلْفَ رَجُلٍ وَسَبْعِينَ رَجُلاً» (١صم٦:١٩).

عندما أسمع ذلك فإني أرتعب وأرتجف لأنَّ دورة هذه الأربعين المقدسة لم ترجع إلينا من عند الفلسطينيين، بل مِنَ السموات عينها، إذ أن الأمر بالصوم صدر إلينا من هناك. إني أنحني أمامه بالتحية: ليس ذلك فقط، بل استقبله بسرور وأتهلّل وأفرح؛ وأدعوكم أيضًا أن تحذوا حذوي لأنه يلزم أن يكون الفكر سليمًا حتى يصير العمل سليمًا، فالفكر مصدر العمل.



لماذا صام المسيح؟

إن الصوم لا يجلب ألواحًا حجرية، بل ينقلنا إلى معيَّة المسيح ذاته، الله، المُشرِّع والملك، الذي صام هذا الصوم من أجلنا.

متى كان الطبيب المُداوي مُحتاجًا إلى الأدوية؟ إنَّ الأدوية لا تنفع حقًا للمرضى. فكيف يكون ذلك الذي لم يعرف خطية، معدودًا ضمن المرضى؟ لكنه لأجلنا ولأجل خلاصنا تجسَّد وتأنَّس، ولأجلنا صام، وليس عن ضرورة. ويشهد بذلك بولس الرسول إذ يقول: «فَإِنَّكُمْ تَعْرِفُونَ نِعْمَةَ رَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ، أَنَّهُ مِنْ أَجْلِكُمُ افْتَقَرَ وَهُوَ غَنِيٌّ، لِكَيْ تَسْتَغْنُوا أَنْتُمْ بِفَقْرِهِ» (٢كو٨:٩).

إنَّ الله ليس مُحتاجًا إلى شيء إطلاقًا. وبنعمته لنا قَبِلَ أن يصير فقيرًا من أجلنا وهو الغني.

قال **بولس الرسول** هذه الكلمة العظيمة لكي يُبيِّن أمورًا كثيرة، يقول: «إِنَّكُمْ تَعْرِفُونَ نِعْمَةَ رَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ» إننا في حاجة إلى أبصار روحية حادة، لكي نفهم ذلك. فإنَّ الغني بطبعه قد جعل نفسه فقيرًا لأجلنا، إذ أخضع ذاته فصار إنسانًا فقيرًا مع أنه الله في نفس الوقت.

كيف يستطيع مَن لا يكون غنيًا بطبعه أن يجعل نفسه فقيرًا؟ وما هو الغِنى الذي عسى أن يُعطيه لنا مَن هو ليس سيدًا لكل الأشياء بجوهره؟

إنَّ كل مَن يقول أن المسيح ذو طبيعتَيْن بعد الاتحاد غير المنطوق به، يعزو صوم المسيح إلى الطبيعة البشرية، وكذلك كل أعمال التدبير الإلهي المتواضعة، ويُقسِّم المسيح، ويُجرِّد الرب الغني من افتقاره الاختياري، فيهدم سر التقوى العظيم.

لأنَّ الله المُتأنِّس لم يَصُم عن ضرورة، ولكنه صام لأجل تعليمنا. وعندما جاع بالحقيقة كان ذلك بإرادته وهو المُسيِّر لقوانين الطبيعة.

تجربة المسيح

كذلك أيضًا عندما جاء ليربط القوي بعظمة قدرته الإلهية ويأخذ أسلحته، «وَلَكِنْ مَتَى جَاءَ مَنْ هُوَ أَقْوَى مِنْهُ فَإِنَّهُ يَغْلِبُهُ، وَيَنْزِعُ سِلاَحَهُ الْكَامِلَ الَّذِي اتَّكَلَ عَلَيْهِ، وَيُوَزِّعُ غَنَائِمَهُ» (لو١١:٢٢)، فإنَّ ذلك بالتأكيد كان من أجلنا نحن الذين كنا تحت سيطرة الشيطان، فقد أخذ المسيح التجربة على عاتقه، وصدّ هجمات العدو، وكان يرد بطريقة متواضعة بشرية

على كماته الماكرة. وبذلك أعطانا التعاليم التي يلزمنا السلوك بمقتضاها أثناء معاركنا، كما أعطانا التدريبات التي تسمو بنا نحو الكمال، وكذلك كسر العدو وشلَّ قوته. ويقول بولس الرسول: «**لأَنَّهُ فِي مَا هُوَ قَدْ تَأَلَّمَ مُجَرَّبًا يَقْدِرُ أَنْ يُعِينَ الْمُجَرَّبِينَ**» (عب٢:١٨).

إنَّ ربنا يسوع المسيح برسمه لنا طريقة مواجهة التجربة، يُعطينا معونة قوية تكفي لصد المُجرِّب. فتجربة المسيح لم تكن إذن عن ضعف. وكيف تكون عن ضعف تلك التجربة التي أعطت المُجرَّبين المعونة؟

لذلك أيضًا فإن الملائكة قد تقدَّموا وكانوا يخدمونه، مع أنَّ ملاكًا واحدًا يستطيع بأمر الله أن يقهر الشيطان. يقول: «ثُمَّ تَرَكَهُ إِبْلِيسُ، وَإِذَا مَلاَئِكَةٌ قَدْ جَاءَتْ فَصَارَتْ تَخْدِمُهُ» (مت٤:١١).

وهكذا يتبيّن لنا **أمران إلهيان**: أولهما وجهة نظر التعليم، وثانيهما وجهة نظر الإرادة الحرة إذ افتقر لأجل خلاصنا وصام عنا.

ضرورة صيامنا من أجل المسيح

فمَن ذا الذي يحتقر الصوم كأنه أمر لا لزوم له، بينما أظهر الله مُخلِّصنا ضرورة الصوم لنا؟ ثم إذا كنا مُلزمين بتنفيذ أوامر الملوك بمجرد إعلانها بواسطة أعوانهم، فعندما يصوم الله الكلمة المُتجسِّد من أجلنا ويأمرنا أن نصوم مثله، أفلا يكون كل مَن لا يُطيع فورًا مُتطاولاً مُهينًا؟

وكما سمعنا المسيح يقول في الأناجيل: «مَنْ يَأْكُلُ جَسَدِي وَيَشْرَبُ دَمِي فَلَهُ حَيَاةٌ أَبَدِيَّةٌ، وَأَنَا أُقِيمُهُ فِي الْيَوْمِ الأَخِيرِ»، «مَنْ يَأْكُلْ جَسَدِي وَيَشْرَبْ

دَمِي يَثْبُتْ فِيَّ وَأَنَا فِيهِ» (يو٦:٥٤، ٥٦)، كذلك بما فعله من أجلنا نتصوره بوضوح كأنه يقول لنا: "مَن يصُم صومي ينل الحياة الأبدية، ويثبت فيّ وأنا فيه". وأيضًا بنفس الطريقة: "مَن يحمل صليبي ومَن يفتقر بفقري، ومَن يُبشِّر بكلمتي، ومَن يرتبط حقًا بما هو لي" لأنه إنما علَّم لكي نعمل، وليس لنتعدّى وصاياه بتوانينا عن العمل.

ومع كلٍ، لو افترضنا أن الصوم ليس ضروريًا ولا يُطهِّر النفس، فهل هذا شرف قليل أن نصوم مع المسيح؟ مَن يشترك مع الملك في أعماله ينل شرفًا، فهلا يكون للاقتداء بالمسيح إلهنا مكافأة إلهية؟ ألا يجب علينا أن نرغب في تلك الامتيازات الإلهية أكثر مِنَ الأشياء الزائلة؟

فبما أنَّ الصوم أمر عظيم ضروري يقودنا إلى الله، ويرفعنا إلى درجة الاقتداء به تعالى، **فلنصُم من أجل ربنا يسوع المسيح**. إذ أننا نستطيع الصوم صومًا خاصًا وليس من أجل المسيح؛ مثل العشر عذارى اللواتي بعد أن أشعلن مصابيح البتولية وزيَّنّها بعناية، وبعد أن ذهبن للقاء العريس، لم يفزن كلهن بالدخول إلى العرس، فقد كان بينهن مَن أشعلن مصابيحهن من أجل أنفسهن وليس من أجل المسيح، لأنهن تحوَّلن عن الشفقة على المُحتاجين. هكذا فإننا نستطيع الصوم، ولكن صومنا لا يكون من أجل المسيح.

ولو أعلن أحد الملوك في إحدى مدن مملكته أنه يريد أن يتزوج بإحدى فتيات المدينة التي يجدها في يوم مُعيَّن أجمل مِنَ الأخريات شريفة طاهرة مُهذَبة، أفلا يجتهد حقًا كل مَن لدية فتاة في أن يجمع فيها كل زينة الروح والجسد حتى تصير أجمل فتاة، ابتغاء شرف مُصاهرة الملك؟

فليُزيّنّ كل صائم صومه بكل زينة كأنه ابنته، خوفًا من أن يحسب الملك المسيح صومه غير مقبول.

الصوم المقبول

فإذا امتنعت عن الأكل ثم اقترب منك أحد هؤلاء الجالسين في الساحة يطلب منك صدقة أو أي شيء آخر مما هو عندك بوفرة ويسهل عليك جدًا أن تُعطيه إياه، فطردته بعيدًا بدون شفقة ولم تفعل شيئًا من أجله، بل أكثر من ذلك، كما يحدث كثيرًا، ربما شتمته أيضًا، ففي هذه الحالة تكون صائمًا من أجل نفسك وليس من أجل المسيح.



وإنك لتأتي عملاً مُماثلاً لو حاسبت المدينين لك بالفضة أو الذهب أو الفوائد المُركَّبة حسابًا عسيرًا. ولكن إن كنت على النقيض من ذلك عادلاً بشوشًا ومُحبًّا، تترك جزءًا مما لك عند ...س، خفية وفقًا للإنجيل، ولا تهتم

بهذا الجزء وتتناساه حتى لا تظهر عملك فلا يعرف شمالك ما يصنع يمينك، وتصنع رحمة لا يعلم بها إلا الله من أجل زوجة وأبناء ذلك الإنسان الذين يعولهم بعمله، فحينئذ تكون قد زيَّنت صومك بزينة ملكية.

وإذا كنت تصوم وتنشغل في نفس الوقت بالقضايا، فتُقدِّم هذا للمُحاكمة، وتحبس ذاك في السجن، وتترك آخر يتمزق بالضربات، فحينئذ يكون صومك شريرًا مرفوضًا، ويحوِّل الملك وجهه عنك.

وإذا كنت تطيل الصوم في حرمان شديد مِنَ الأطعمة وتتعدّى الوقت المُناسب، فتبتعد عن الطعام، ولكنك تصير حزينًا عابسًا، تغضب بمرارة نفس، وتُهين وتشتم وتجرح، ترعى الغضب في روحك، وإذا نطقت بكلمات الاستهزاء غير الشريفة ومتَّعت نظرك برؤية النساء والمسرحيات المبتزلة، ومتَّعت سمعك بالأغاني المائعة، فحينئذ تكون قد نسيت أن الوحل يملأ صومك.

أيها الإنسان: إنَّ لسانك قد يبس مِنَ العطش والحرمان مِنَ الأطعمة وليس به رطوبة، ذلك حتى يصير غير مُخصب إزاء الإهانة والمُشاجرة، فلا تجد الوسيلة التي تخدم بها تلك الأعمال جاهزة فورًا، فلا يحمو غضبك بسبب الصوم.

إنَّ الصوم يُعلِّم الحزن، ويدعو إلى التواضع، ويُطهِّر العين، فيضبط الإنسان نظراته غير المُرتَّبة حتى لا يدخل الاضطراب إلى الروح وينتشر

بسهولة في كل أمور الإنسان، فيؤخذ المرء في شباك الشهوة.

فإذا كنت تصوم وتذهب بإرادتك إلى المراقص والملاعب المليئة بكل الترف وتستمع إلى الأغاني الماجنة، فإنك بذلك تُعطي فرصة للذين لا يصومون أن يقولوا: "ماذا فعل الصائم أكثر منا؟ وفيم يكون أطهر منا؟ فيم هو أكثر محبة، أو أكثر وداعة؟ ألم يبدو أكثر قساوة؟ رؤيته مكروهة ومُقابلته صعبة، وهو لا يحتمل حتى ليتحاشى الناس تحيته، وأكاد أرتعب خوفًا وأنا أتمثله يكاد يعض مَن يقترب منه. الأفضل للإنسان أن يأكل لحمًا ويشرب خمرًا مَن أن يكون في سلوكه مُنفِرًا بهذه الكيفية كالحيوانات المُفترسة. وآخر يصوم وتجده جالسًا مع المُهرِّجين الذين يروون النكات في صالات الرقص، يستبيح لنفسه أن يكون جاحظ العينين في كل الأمور الفاضحة"

ويتساءل البعض الآخر مِنَ الذين لا يصومون ولكنهم لا يتدخلون عبثًا فيما لا يعنيهم: "هل أنا أقل شأنًا مِنَ الصائم؟ في رأيي أن أفطر خير مِنَ الصوم المُقترَن بالأعمال السيئة".

ويقول ذلك وهو يعتقد أنه بار، وربما يكون مريضًا بالبخل أصل كل الشرور وجذرها المر. ويتبيَّن لنا خلال هذا القول أن الذين يصومون وفى نفس الوقت يفعلون ما لا يتفق والصوم، سوف يُحاسَبون أيضًا على التجديف الذي يصير بسببهم.

ثمار الصوم

فبما أنَّ الصوم أمر صالح، وهو وصية الروح القدس، فثماره أيضًا صالحة ويتمجَّد الله بها.

ما هي ثماره؟

إنَّ بولس الرسول يُعدِّدها في رسالته إلى أهل غلاطية: «**وَأَمَّا ثَمَرُ الرُّوحِ فَهُوَ: مَحَبَّةٌ فَرَحٌ سَلاَمٌ، طُولُ أَنَاةٍ لُطْفٌ صَلاَحٌ، إِيمَانٌ وَدَاعَةٌ تَعَفُّفٌ**» (غلا٥:٢٢، ٢٣)

إن لم يُعطِ صومنا هذه الثمار غير المتفقة مع نوعية الصوم المقبول، بالرغم من مدحنا لفضيلة الصوم، فإن الرب مُخلِّصنا سوف يقول لنا: «اِجْعَلُوا الشَّجَرَةَ جَيِّدَةً وَثَمَرَهَا جَيِّدًا، أَوِ اجْعَلُوا الشَّجَرَةَ رَدِيَّةً وَثَمَرَهَا رَدِيًّا، لأَنْ مِنَ الثَّمَرِ تُعْرَفُ الشَّجَرَةُ» (مت١٢:٣٣).

يلزمنا أن نعلم يقينًا أن زيادة الاهتمام بالمظاهر هو رياء قد أمسى عن ثمار الصوم غريبًا. فالصوم من أجل الافتخار والمجد الباطل يُعَد نكبة ولا فائدة منه، لأنه مُخالِف لوصية ربنا له المجد بإخفاء الصوم الحقيقي إذ يقول: «**وَمَتَى صُمْتُمْ فَلاَ تَكُونُوا عَابِسِينَ كَالْمُرَائِينَ، فَإِنَّهُمْ يُغَيِّرُونَ وُجُوهَهُمْ لِكَيْ يَظْهَرُوا لِلنَّاسِ صَائِمِينَ. اَلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّهُمْ قَدِ اسْتَوْفَوْا أَجْرَهُمْ. وَأَمَّا أَنْتَ فَمَتَى صُمْتَ فَادْهُنْ رَأْسَكَ وَاغْسِلْ وَجْهَكَ، لِكَيْ لاَ تَظْهَرَ**

لِلنَّاسِ صَائِمًا، بَلْ لأَبِيكَ الَّذِي فِي الْخَفَاءِ. فَأَبُوكَ الَّذِي يَرَى فِي الْخَفَاءِ يُجَازِيكَ عَلاَنِيَةً» (مت٦:١٦-١٨).

إنَّ المرائين لا يصومون، إنما يريدون أن يظهروا كأنهم نُسَّاك أطهار وهم يتمرغون في شهوات مُخزية جدًا. إنَّ حالهم يدعو إلى الرثاء بسبب العذاب الذي ينتظرهم.

أما نحن الضعفاء الخطاة، فلينجنا ربنا من قساوة الفريسيين وتشددهم مكرهم الذي يقول عنه الرب لرسله في الإنجيل: «أَوَّلاً تَحَرَّزُوا لأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَمِيرِ الْفَرِّيسِيِّينَ الَّذِي هُوَ الرِّيَاءُ» (لو١٢:١).

وأنتِ أيضًا أيتها المرأة، عندما تصومين، أقولها لكِ كلمة خاصة بالإضافة إلى الوصايا العامة، احذري الغضب لأنه يستهوي النساء بسهولة، ولا تكوني شديدة نحو خدمك، ولا تطيلي الخدمة ولا تضيفي إليها شيئًا جديدًا، واطلبي المُعتاد فقط خوفًا من أن يُهان الصوم بسببك. كوني مُحسنة لطيفة متواضعة مُسالمة قانعة حليمة. وإذا حدثتك نفسك برفع يدك للضرب، فتصوَّري الصوم كأنه ملكة مُهابَة تمسك بك وتمنعك من أن تضربي.

وعندما يتملكك هذا الشعور، حينئذ تسيطرين على قوة الغضب، وتتوجك الملكة، ولا تحتاجين إلى شيء، وتسيرين كل حياتك في هدوء وسكينة.

فلنزين صومنا بالأعمال الصالحة لنجعل منه صومًا من أجل المسيح إلهنا حتى نحتفل بعيد القيامة ليس بخمير الخطايا العتيق، بل بفطير الطهارة والحق والتجديد الكامل الإلهي. إذًا لنُعيِّد ليس بخميرة عتيقة ولا بخميرة الشر والخبث بل بفطير الإخلاص. بالنعمة والرأفة ومحبة البشر اللواتي لذاك الذي دعانا، له المجد إلى أبد الأبد آمين.





رسالة

إلى الموعوظين

سلسلة مقالات القديس ساويرس
البطريرك الأنطاكى
٢٦

رسالة إلى الموعوظين

مترجم عن الفرنسية مِنَ الجزء الثاني عشر من مجموعة

PATROLOGIA ORIENTALIS.

R. Graffin – F. Nau

Les Homélies Cathédrales de Sévère d'Antioche

Publiées et traduites par Maurice Brière

مليكه حبيب يوسف   يوسف حبيب

١٩٧٢م

ألقى القديس أنبا ساويرس هذا المقال في أيام الصوم الكبير سنة ٥١٥ ميلادية في أربعاء البصخة المقدسة



المعرفة النازلة من فوق

إنَّ دورة السنة إذ تأتي بنا إلى ذات اليوم مع ذات الموضوع، وغالبًا مع ذات المعنى أيضًا. أحرى بها ألا يفتكر معها أحد منا هذا الدرس الحاضر أنه زائد عن الحاجة، مُتعلِّلاً في ذلك بأن التعليم مُعاد يتكرر بدون فائدة بنفس الألفاظ في أمور معروفة. فإن مَن كانت له مثل تلك الأفكار سوف ينسى أن هذا الحديث يُدعى هو أيضًا بمثابة درس أو صدى أو طنين – إنني لا أتعب من قول نفس الشيء مرتَيْن بل عشر مرات أيضًا وأكثر من ذلك – لأنه يطن في آذان غير المتعلمين، وربما في آذان المتعلمين أيضًا، حتى يفهموا الأقوال سواء أكانت قليلة أو كثيرة.

ولا عجب إذا كنا نُقدِّم لكم الأفكار عينها وذات الكلمات، فإن الأمهات والمُرضِعات يُعطين ذات اللبن لأولادهن، ويُعطين ذات الخبز ليُعوِّدنهم على طعام أقوى، أنهن يستعملن نفس اللون مِنَ العبارات الخالية مِنَ المعاني ونفس الأصوات، ينطقن مُقلِّدات الكلمات وفيها نفس القصور ألفاظًا صغيرة مُقسَّمة لإقتيادهم إلى نطق الكلمات الصحيحة بوضوح.

إنَّ مثل هذا النوع مِنَ التعليم الموضوع أمامنا إنما هو درس وصدى للصوت الذي يصل إلى الآذان آتيًا مِنَ السماء، نازلاً مِنَ العلا على السامعين وفقًا لفهمهم.

لقد أؤتمنا على ممارسة التعليم، وأننا متأثرون في قلوبنا بوقع الصوت الصادر مِنَ العلاء، فعندما يكون القلب طاهرًا خاليًا مِنَ الأفكار المادية، يطن الصوت في آذاننا فيكون له وقع فتختلج في النفس حقائق التقوى، فلا يكون إذن صادرًا منا، بل هو صدى لذلك الصوت الآتي من فوق.

فكيف نظن عن الكلمة التي تأتي مِنَ السماء، حتى وإن قيلت مرات عديدة، هل يمكننا الشبع منها فتصبح نافلة؟ لن يرى ذلك أحد، إلا إذا كان خاليًا تمامًا من كل فهم وكل تفكير. **فإن الذين يبصرون ضوء الشمس لا يشبعون مِنَ البصر بحجة أن الشمس تضيء نفس الأشياء القديمة؛ ذلك أن الشمس تبدو كل يوم وقد تجدَّد شبابها بضوء لا ينتهي.**

الغذاء الروحي

إنَّ العلاقة بين الكلمة الإلهية والشمس هي مثل العلاقة بين استنارة العقل والضوء المحسوس. في كلتا الحالتَيْن لا يوجد شبع. **ويشهد بذلك داود النبي إذ يقول:**

«كَمَا يَشْتَاقُ الإِيَّلُ إِلَى جَدَاوِلِ الْمِيَاهِ هَكَذَا تَشْتَاقُ نَفْسِي إِلَيْكَ يَا اللهُ. عَطِشَتْ نَفْسِي إِلَى اللهِ إِلَى الإِلَهِ الْحَيِّ. مَتَى أَجِيءُ وَأَتَرَاءَى قُدَّامَ اللهِ! صَارَتْ

لِي دُمُوعِي خُبْزًا نَهَارًا وَلَيْلاً إِذْ قِيلَ لِي كُلَّ يَوْمٍ أَيْنَ إِلَهُكَ هَذِهِ أَذْكُرُهَا فَأَسْكُبُ نَفْسِي عَلَيَّ. لأَنِّي كُنْتُ أَمُرُّ مَعَ الْجُمَّاعِ أَتَدَرَّجُ مَعَهُمْ إِلَى بَيْتِ اللهِ بِصَوْتِ تَرَنُّمٍ وَحَمْدٍ جُمْهُورٌ مُعَيِّدٌ» (مز٤٢:١-٤).

يا للعجب! يقول كنت أشتهي الله، أريد أن أجد مَن أحبه، كنت عطشانًا مثل الأيلة. وإذ كنت لا أجد غاية لهفتي جعلت من دموعي خبزًا. ومن كنت أوافق أبدًا الأفكار القائلة: "أين إلهك؟" وأيضًا لم أفقد الأمل. ولكني فرغت كل قوة روحي في هذه الرغبة. وحينئذ بصعوبة أدركت طنينًا، هو طنين الفرح. لقوم يُسبّحون، يتناولون طعام الكلمة فيتهللون. فاتخذته دليلاً وشرعت في الدخول إلى هيكل عجيب، وأخذت أجدّ في السير وتقدمت في التأمل في هذا العالم المنظور الذي يحوطنا كخيمة عجيبة.

عن هذا الطريق أصل إلى بيت الله وإلى الأشياء العقلية غير المتجسِّدة. إنَّ الله يسكن فيها مثلما تكون السكنى في بيت، ويُعرَف به. إذ أنه بالطبيعة غير مُدرَك لا يدنو منه أحد قط.

تقريب شرح قانون الإيمان للموعوظين

لنعترف بأننا نؤمن بإله واحد، الله الآب ضابط الكل، وفى الحال سوف يمتلئ فمنا فرحًا ولساننا تهليلاً.

ربما تقول: "**كيف تأمرني بأن أؤمن بإله واحد ثم تقول لي أن أؤمن بابنه الوحيد؟**"

هلا سمعتني أقول "بإله واحد" ثم أقول أيضًا "الآب"، وأن فكرة الابن مُرتبطة في ذات الوقت بالآب؟ لأنَّ الآب يكون ضرورة آب الابن ليكون أبًا حقيقًا، ومع ذلك يظل إلهًا واحدًا، ليس هناك آخر سواه، كما أنَّ الابن أيضًا كائن قبل الدهور ودائم إلى الأبد.

كيف يُمكننا أن نُدرك فكرة الابن الكائن مع الآب وليس بعده في الزمن؟

عليك أن تبعد ذهنك عن المواليد الجسدية التي تنحصر في الزمن والتى يرتبط وجودها بمرور الزمن.

نحن نصير آباء في حدود الزمن، ومرور الزمن يسبق ميلاد أبنائنا؛ فبعد أن صرنا أولادًا لبعض الناس نصير بدورنا آباء لآخرين. ولكن عندما تسمع في الكتب المقدسة أن ابن الله الآب هو الكلمة، لتكن العبارات نفسها درسًا لك، ارتفع بها ولتحلّق نحو الميلاد الأزلي غير الجسدى غير المستحيل.

إنَّ العقل يلد الكلام بدون ألم، وليس كما تفعل الأجساد. والكلمة تعني الحركة العقلية التي يُشكّلها العقل غير المنظور غير المعروف. لذلك بولس الرسول يدعو الابن «**صُورَةُ اللهِ غَيْرِ الْمَنْظُورِ**» (كو١:١٥).

تأمَّل في أن ميلاده ميلاد أزلي مستقل عن الزمن. ليس مَن يقول أن بهاء الشمس وضوءها يمكن أن يفترقا عن الشمس البهية المُضيئة؛

وليس مَن يقول أن القرص الذي فيه أشعة الشمس يمكن أن يفترق جزئيًا بعض الوقت عن ضوئه الذاتي.

هكذا أيضًا يلزمنا ضرورة أن نعترف بأن الابن وهو بهاء مجد الآب، مساوٍ في الأزلية لمَن يجعله يتألق بطريقة لا يُدركها أحد، وبأن الآب ليس قبل الابن في الزمن، بل أن الابن مساوٍ للآب في الأزلية.

فهل عندما تسمع ذلك، تجسر أيضًا أن تُقارِن ميلاد الابن الأزلي بالمواليد الأرضية؟ ألا تُميِّز الفرق بين الميلاد الإلهي والميلاد البشري؟

إنَّ الميلاد الإلهي بعيد كل البُعد عن الميلاد البشري ولا علاقة له به، وليس هناك أي وجه للمقارنة بينهما. إذن فعندما تسمع "الابن" افهم أنه مساو للآب في الجوهر.

وحتى يكون الكلام بسيطًا، عليك أن تختار في كل عبارة من هذه العبارات، ما يليق بالله تعالى، وأن تلقي بعيدًا عنك كل ما يجعله مُشابهًا لحقارتنا؛ لأن الإشارة المُجرَّدة بعيدة وعاجزة عن بيان كل الحقيقة، حتى أنه بصعوبة بالغة بواسطة كل الإشارات نتمكن من إيجاد بعض قرائن المُشابهة الصغيرة جدًا، كمَن يضرب حجرًا بحجر حتى ترى شرارة نار تخرج منهما.



الثالوث الأقدس

إنَّ الآب هو الله، والابن هو الله، والروح القدس هو الله، ولكن ليس ثلاثة آلهة، بل إله واحد. «وَقَالَ اللهُ نَعْمَلُ الإِنْسَانَ عَلَى صُورَتِنَا كَشَبَهِنَا» (تك١:٢٦). لكي نعلم أن الثالوث الأقدس هو الخالق لأنه الله الواحد.

ويقول موسى النبي أن الله ظهر لإبراهيم؛ ويشرح لنا كيفية ذلك بقوله: «فَرَفَعَ عَيْنَيْهِ وَنَظَرَ وَإِذَا ثَلاَثَةُ رِجَالٍ وَاقِفُونَ لَدَيْهِ» (تك١٨:٢). والذي رأى ثلاثة رجال وسجد إلى الأرض كان يتحدث معهم كأنه يُخاطب شخص واحدًا إذ يقول: «يَا سَيِّدُ إِنْ كُنْتُ قَدْ وَجَدْتُ نِعْمَةً فِي عَيْنَيْكَ فَلاَ تَتَجَاوَزْ عَبْدَكَ» (تك١٨:٣)، ثم يُغيِّر شكل الخطاب فيتكلم كأنه يُخاطِب ثلاثة فيقول: «لِيُؤْخَذْ قَلِيلُ مَاءٍ وَاغْسِلُوا أَرْجُلَكُمْ وَاتَّكِئُوا تَحْتَ الشَّجَرَةِ» (تك١٨:٤).

وماذا نقول أيضًا عندما نقرأ: «فَأَمْطَرَ الرَّبُّ عَلَى سَدُومَ وَعَمُورَةَ كِبْرِيتًا وَنَارًا مِنْ عِنْدِ الرَّبِّ مِنَ السَّمَاءِ» (تك١٩:٢٤)

وعندما كتب موسى النبي عن نفسه: «يُكَلِّمُ الرَّبُّ مُوسَى وَجْهًا لِوَجْهٍ كَمَا يُكَلِّمُ الرَّجُلُ صَاحِبَهُ» (خر٣٣:١١)، ثم يطلب مِنَ الله الطلبة الآتية: «أَرِنِي مَجْدَكَ» (خر٣٣:١٨).

وإذ كان يُكلِّم الله وجهًا لوجه مثلما يتكلم مع صديق، فكيف كان يشتهي أيضًا أن يرى مجد الله؟ أليس أمرًا مؤكَّدًا أنه كان يطلب أن يرى

بهاء مجده، الابن الوحيد، الكلمة الذي كان مزمعًا أن يظهر في الجسد في آخر الأيام؟

لذلك سمع أيضًا: «وَقَالَ الرَّبُّ: هُوَذَا عِنْدِي مَكَانٌ فَتَقِفُ عَلَى الصَّخْرَةِ» (خر٣٣:٢١)، ومعناه هكذا: لرؤية مجدي الذي تشتهي أن تراه، ليس عندي سوى طريقة واحدة، يعني تجسُّد الكلمة. لهذا يدعو نفسه "صخرة" إذ يقول: «وَعَلَى هَذِهِ الصَّخْرَةِ أَبْنِي كَنِيسَتِي» (مت١٦:١٨). فيصير مرئيًا حسب الجسد بالتدبير الإلهي، بينما هو بالطبيعة غير مرئي.

ويقول أيضًا: «اَلَّذِي رَآنِي فَقَدْ رَأَى الآبَ» (يو١٤:٩)، حتى أن الذين يرونه يقولون: «وَرَأَيْنَا مَجْدَهُ، مَجْدًا كَمَا لِوَحِيدٍ مِنَ الآبِ، مَمْلُوءًا نِعْمَةً وَحَقًّا» (يو١:١٤).

إذن إن كنت تريد أن ترى مجدي، فبهذه الطريقة أريك إياه سلفًا، وذلك مثلما في لغز، وبقدر ما تستطيع به أن ترى المستقبل من بعيد، بينما تظل معظم الأحداث مخفية عنك، لئلا ترتعب مما هو أعلى منك، ويعتريك الجمود.

يقول: «وَيَكُونُ مَتَى اجْتَازَ مَجْدِي أَنِّي أَضَعُكَ فِي نُقْرَةٍ مِنَ الصَّخْرَةِ وَأَسْتُرُكَ بِيَدِي حَتَّى أَجْتَازَ. ثُمَّ أَرْفَعُ يَدِي فَتَنْظُرُ وَرَائِي. وَأَمَّا وَجْهِي فَلاَ يُرَى» (خر٣٣:٢٢، ٢٣).

ويقول: «فَنَزَلَ الرَّبُّ فِي السَّحَابِ فَوَقَفَ عِنْدَهُ هُنَاكَ وَنَادَى بِاسْمِ الرَّبِّ. فَاجْتَازَ الرَّبُّ قُدَّامَهُ. وَنَادَى الرَّبُّ: الرَّبُّ إِلَهٌ رَحِيمٌ وَرَأُوفٌ بَطِيءُ الْغَضَبِ وَكَثِيرُ الإِحْسَانِ وَالْوَفَاءِ» (خر٣٤:٥، ٦).

لذلك كان كلمة الله ذاته يقول لليهود في الأناجيل: «لأَنَّكُمْ لَوْ كُنْتُمْ تُصَدِّقُونَ مُوسَى لَكُنْتُمْ تُصَدِّقُونَنِي، لأَنَّهُ هُوَ كَتَبَ عَنِّي» (يو٥:٤٦).

وكان الرسل القديسون يقولون: «لأَنَّهُ قَدْ رَأَى الرُّوحُ الْقُدُسُ وَنَحْنُ أَنْ لاَ نَضَعَ عَلَيْكُمْ ثِقْلاً أَكْثَرَ غَيْرَ هَذِهِ الأَشْيَاءِ الْوَاجِبَةِ» (أع١٥:٢٨).

«فَقَالَ لِي الرُّوحُ أَنْ أَذْهَبَ مَعَهُمْ غَيْرَ مُرْتَابٍ فِي شَيْءٍ» (أع١١:١٢)

كل ذلك إذن يُبيِّن أن الثالوث الأقدس الإله الواحد هو الخالق: «هُوَذَا الأُمَمُ كَنُقْطَةٍ مِنْ دَلْوٍ وَكَغُبَارِ الْمِيزَانِ تُحْسَبُ. هُوَذَا الْجَزَائِرُ يَرْفَعُهَا كَدُقَّةٍ!» (إش٤٠:١٥)، «كُلُّ الأُمَمِ كَلاَ شَيْءٍ قُدَّامَهُ. مِنَ الْعَدَمِ وَالْبَاطِلِ تُحْسَبُ عِنْدَهُ» (إش٤٠:١٧).

الله الكلمة المُتجسِّد

إنَّ الروح لا تقبل الجسد من إجل اكتمال وجودها، لأنها وهي منفصلة عنه تكون موجودة بذاتها. **ويقول بولس الرسول:** «أَرْوَاحِ أَبْرَارٍ مُكَمَّلِينَ» (عب١٢:٢٣). **وعندما يقول بطرس الرسول** بخصوص الخطاة: «مُمَاتًا فِي الْجَسَدِ وَلَكِنْ مُحْيىً فِي الرُّوحِ، الَّذِي فِيهِ أَيْضًا ذَهَبَ فَكَرَزَ لِلأَرْوَاحِ الَّتِي فِي

السِّجْنِ» (١بط٣:١٨، ١٩)، فإن الروح الكامل عندما يكون متَّحدًا بالجسد، يُعرف كجزء مِنَ الإنسان، كذلك الجسد الكامل لا ينقصه شيء فيما يخص تعريف الجسد، بل يكون جزءًا مِنَ الكائن الحيّ.

❖ «مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقَرَّرَتِ الْجِبَالُ قَبْلَ التِّلاَلِ أُبْدِئْتُ» (أم٨:٢٥).

❖ «اَلرَّبُّ قَنَانِي أَوَّلَ طَرِيقِهِ مِنْ قَبْلِ أَعْمَالِهِ مُنْذُ الْقِدَمِ» (أم٨:٢٢) مع أنه غير مخلوق وكامل بجوهره، وهكذا أيضًا دعا نفسه خادمًا وهو القادر على كل شيء ملك الملوك. «وَلَكِنْ يُعْطِيكُمُ السَّيِّدُ نَفْسُهُ آيَةً: هَا الْعَذْرَاءُ تَحْبَلُ وَتَلِدُ ابْنًا وَتَدْعُو اسْمَهُ عِمَّانُوئِيلَ» (إش٧:١٤).

❖ «لأَنَّهُ يُولَدُ لَنَا وَلَدٌ وَنُعْطَى ابْنًا وَتَكُونُ الرِّيَاسَةُ عَلَى كَتِفِهِ وَيُدْعَى اسْمُهُ عَجِيبًا مُشِيرًا إِلَهًا قَدِيرًا أَبًا أَبَدِيًّا رَئِيسَ السَّلاَمِ» (إش٩:٦).

❖ «فِي الْبَدْءِ كَانَ الْكَلِمَةُ، وَالْكَلِمَةُ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ، وَكَانَ الْكَلِمَةُ اللَّهَ» (يو١:١)

❖ «وَالْكَلِمَةُ صَارَ جَسَدًا وَحَلَّ بَيْنَنَا، وَرَأَيْنَا مَجْدَهُ، مَجْدًا كَمَا لِوَحِيدٍ مِنَ الآبِ، مَمْلُوءًا نِعْمَةً وَحَقًّا» (يو١:١٤)

❖ «يُوحَنَّا، إِلَى السَّبْعِ الْكَنَائِسِ الَّتِي فِي أَسِيَّا: نِعْمَةٌ لَكُمْ وَسَلاَمٌ مِنَ الْكَائِنِ وَالَّذِي كَانَ وَالَّذِي يَأْتِي» (رؤ١:٤)

❖ «فَإِذْ قَدْ تَشَارَكَ الأَوْلاَدُ فِي اللَّحْمِ وَالدَّمِ اشْتَرَكَ هُوَ أَيْضًا كَذلِكَ فِيهِمَا، لِكَيْ يُبِيدَ بِالْمَوْتِ ذَاكَ الَّذِي لَهُ سُلْطَانُ الْمَوْتِ، أَيْ إِبْلِيسَ» (عب٢:١٤)

❖ «لأَنَّهُ حَقًّا لَيْسَ يُمْسِكُ الْمَلاَئِكَةَ، بَلْ يُمْسِكُ نَسْلَ إِبْرَاهِيمَ. مِنْ ثَمَّ كَانَ يَنْبَغِي أَنْ يُشْبِهَ إِخْوَتَهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ، لِكَيْ يَكُونَ رَحِيمًا، وَرَئِيسَ كَهَنَةٍ أَمِينًا فِي مَا للهِ حَتَّى يُكَفِّرَ خَطَايَا الشَّعْبِ» (عب٢:١٦، ١٧).

❖ «اَللهُ الَّذِي هُوَ غَنِيٌّ فِي الرَّحْمَةِ، مِنْ أَجْلِ مَحَبَّتِهِ الْكَثِيرَةِ الَّتِي أَحَبَّنَا بِهَا، وَنَحْنُ أَمْوَاتٌ بِالْخَطَايَا أَحْيَانَا مَعَ الْمَسِيحِ بِالنِّعْمَةِ أَنْتُمْ مُخَلَّصُونَ وَأَقَامَنَا مَعَهُ، وَأَجْلَسَنَا مَعَهُ فِي السَّمَاوِيَّاتِ فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ» (أف٢:٤-٦)

❖ «لأَنَّنَا أَعْضَاءُ جِسْمِهِ، مِنْ لَحْمِهِ وَمِنْ عِظَامِهِ» (أف٥:٣٠)

❖ «لأَنَّهُ يُوجَدُ إِلهٌ وَاحِدٌ وَوَسِيطٌ وَاحِدٌ بَيْنَ اللهِ وَالنَّاسِ: الإِنْسَانُ يَسُوعُ الْمَسِيحُ» (١تي٢:٥)

❖ «الَّذِي، وَهُوَ بَهَاءُ مَجْدِهِ، وَرَسْمُ جَوْهَرِهِ، وَحَامِلٌ كُلَّ الأَشْيَاءِ بِكَلِمَةِ قُدْرَتِهِ، بَعْدَ مَا صَنَعَ بِنَفْسِهِ تَطْهِيرًا لِخَطَايَانَا، جَلَسَ فِي يَمِينِ الْعَظَمَةِ فِي الأَعَالِي» (عب١:٣)

وهنا يوجِّه الأب البطريرك القديس حديثه إلى الموعوظين، فيقول:

لقد تقدمت علنًا ليس لأقول ما يبدو لي حسنًا، ولكن لأكمل ما يكون نافعًا ومُفيدًا للسامعين.

دُعيتم لهذا الإيمان وأنتم على وشك قبول سر العماد باسم الآب والابن والروح القدس، فأفهموا إذن سر التقوى مِنَ العماد. لإنه إذا كان العماد يتم باسم الثالوث الأقدس، وإذا كان الذين يعتمدون يعتمدون في المسيح حسب قول بولس الرسول: «أَمْ تَجْهَلُونَ أَنَّنَا كُلَّ مَنِ اعْتَمَدَ لِيَسُوعَ الْمَسِيحِ اعْتَمَدْنَا لِمَوْتِهِ فَدُفِنَّا مَعَهُ بِالْمَعْمُودِيَّةِ لِلْمَوْتِ حَتَّى كَمَا أُقِيمَ الْمَسِيحُ مِنَ الأَمْوَاتِ بِمَجْدِ الآبِ هَكَذَا نَسْلُكُ نَحْنُ أَيْضًا فِي جِدَّةِ الْحَيَاةِ» (رو٦:٣، ٤). فأي شيء يظهر لنا من ذلك إلا أن المسيح هو الواحد مِنَ الثالوث الأقدس، الكلمة المُتأنِّس الذي ذاق الموت بالجسد، حتى يصير العماد في الثالوث.

قتل فساد القبور بقبره غير الفاسد، وكسر سلطان الجحيم والموت بنزوله إلى الجحيم وبقيامته في اليوم الثالث، مؤكِّدًا بذلك أننا نحن أيضًا بعد قيامة الأموات سوف نكون مقبولين في أورشليم السمائية.

فمَن ذا الذي لا يهرع نحو مثال الموت في العماد المقدس حتى يشترك في الخلود؟ مَن لا يُدفن معه؟ مَن لا يلبس شكل الأموات تمامًا، وكذلك عدم الفساد، مُشتهيًا أن يقوم ويتمجَّد مع المسيح؟

جحد الشيطان

إني أعرف أنكم عند سماعكم هذه الكلمات تشتعلون حبًا له. فاظهِروا إذن بلسانكم الرغبة التي فيكم. التفتوا أولاً نحو الغرب وانكروا عبودية الشرير. فقد تحرَّرتم فعلاً من قيوده لأنه لا يستطيع أن يحتمل قوة الكلمات التي سوف تنطقون بها، لأن هذه الكلمات قوية وفعَّالة، وهي مثل السياط تطرد الشياطين فيهربون. ثم التفتوا نحو الشرق واعترفوا أيضًا الاعتراف الخلاصي بالإيمان: «لأَنَّ الْقَلْبَ يُؤْمَنُ بِهِ لِلْبِرِّ وَالْفَمَ يُعْتَرَفُ بِهِ لِلْخَلاَصِ» (رو١٠:١٠).

عندما تلتفتون نحو الغرب، تمدون اليد اليُمنى إشارة إلى تعهُّدكم بعمل الخير، وتسحبون اليد اليُسرى إشارة إلى إخضاعكم الروح الشرير الذي كان يُناهِض قوانين الحق.



ويقول الحكيم: «قَلْبُ الْحَكِيمِ عَنْ يَمِينِهِ وَقَلْبُ الْجَاهِلِ عَنْ يَسَارِهِ! أَيْضًا إِذَا مَشَى الْجَاهِلُ فِي الطَّرِيقِ يَنْقُصُ فَهْمُهُ وَيَقُولُ لِكُلِّ وَاحِدٍ إِنَّهُ جَاهِلٌ!» (جا١٠:٢، ٣).

وعندما تلتفتون نحو الشرق وترفعون أيديكم إلى فوق تُعاهدون المسيح. حينما تنظرون النور العقلي الذي لمعرفة الله، تصيرون من أهل اليمين وليس فيكم شيء مِنَ اليسار.

هذه نعمة العماد الإلهي. حافظوا على هذه النعمة التي تُحوِّلكم بطريقة عجيبة، وتجعلكم أبناء النور.

سوف تعبرون إلى حالة سماوية، سوف تستخدمون آذانكم حسب النبوة للسمع، وقلبكم الذي كان فيما مضى مريضًا وضعيفًا إذ يشفيه الروح، سوف يجتهد في الفهم، وألسنتكم التي كانت تنطق جهلاً سوف تتعلم كلام السلام «لأَنَّهُ هُوَ سَلاَمُنَا، الَّذِي جَعَلَ الاثْنَيْنِ وَاحِدًا، وَنَقَضَ حَائِطَ السِّيَاجِ الْمُتَوَسِّطَ» (أف٢:١٤)، كما يقول بولس الرسول.

اثبتوا إذن في هذه الحالة ولا تذهبوا باختياركم نحو الشر. فإنكم تركتم الشر الآن، أنكرتم أعماله وضلاله، أي الزمر والغناء الخليع والمناظر التي تُشعِل الشهوات الرديئة.

لا تصيروا تحت نير تلك الأمور حتى إذا لبستم المسيح بالمعمودية، وتزيَّنتم بالفضائل تصيرون أهلاً للأفراح الإلهية والوليمة الروحانية في ملكوت السموات. **ليتنا كلنا ننال ذلك بالمسيح يسوع ربنا له المجد إلى الأبد آمين.**



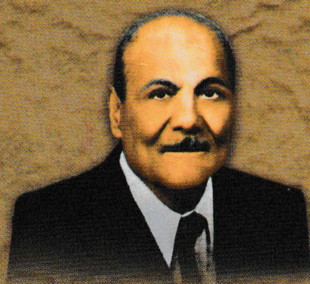
الفهرس





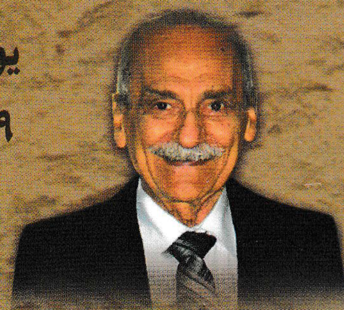
يوسف حبيب

١٩٠٩-١٩٨١م



صموئيل حبيب

١٩١١-١٩٨٩م



مليكه حبيب

١٩٢٣-٢٠١١م



BARAMOS MONASTERY

SHIHET WILDERNESS

يطلب من دير السيدة العذراء برموس